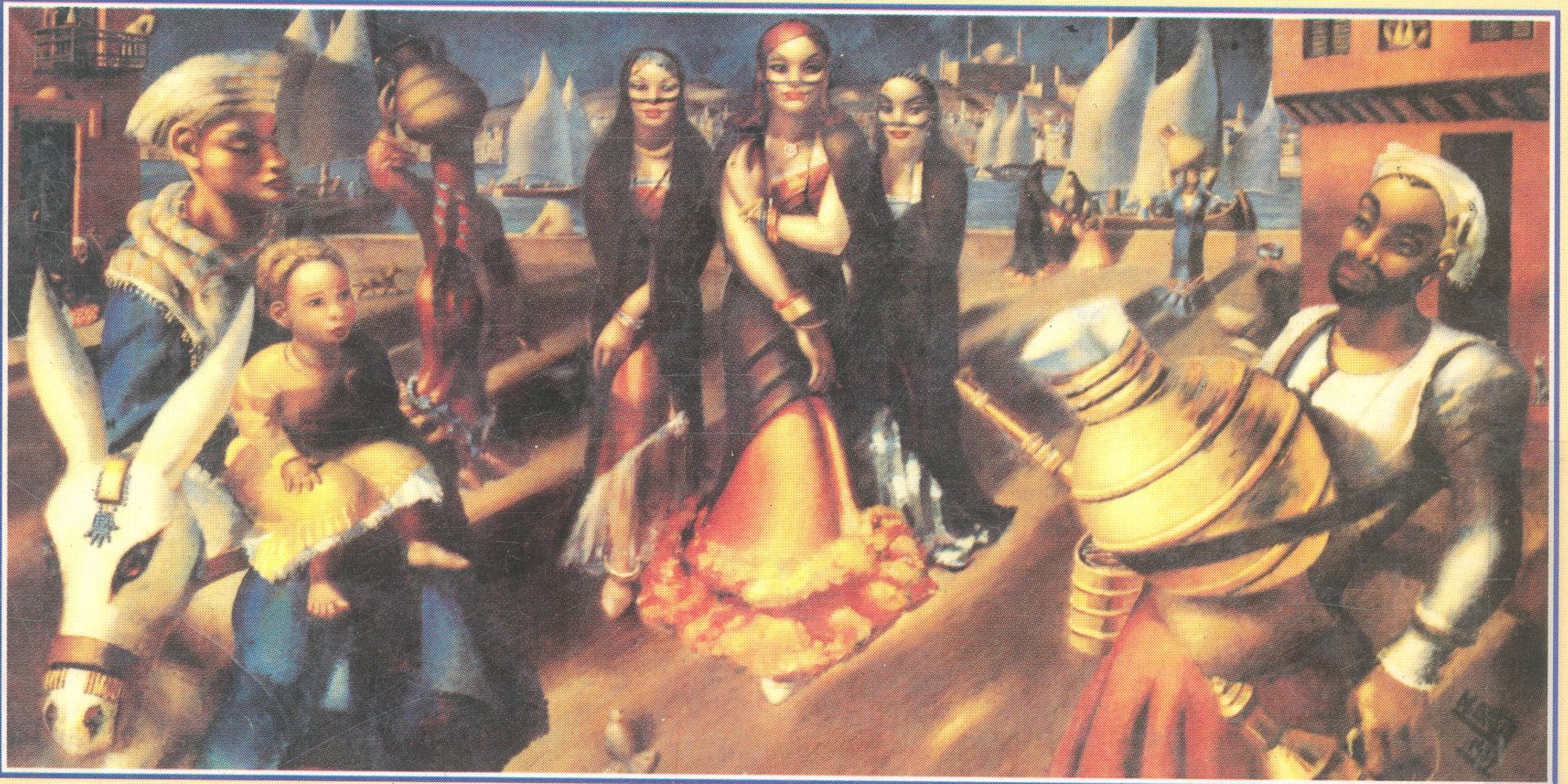
رواد الفن القصصي

محمود طاهر لاشين

إعداد وتقديم: د. صبري حافظ



المجلس الأعلى للثقافة

الأعمال الكاملة

محمود طاهر لاشين

(١٨٩٤ - ١٩٥٤)

الأعمال الكاملة

الطبعة الأولى
المجلس الاعلى للثقافة
القاهرة ١٩٩٩

رواد الفن القصصى

الأعمال الكاملة

محمود طاهر لاشين

(١٨٩٤-١٩٥٤)

إعداد وتقديم : د . صبرى حافظ



١٩٩٩

تصدير

جابر عصفور

«رواد الفن القصصى» سلسلة جديدة من سلاسل الأعمال الكاملة تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر، يشرف عليها الصديق صبرى حافظ بكل ما هو معروف عنه من تخصص فى تاريخ هذا الفن، واقتدار على معالجته النقدية، وحرص على صيانة تقاليده، وإلقاء الضوء على تقنياته المتغيرة. والواقع أننى تحمست لهذه السلسلة حين حدثنى صبرى حافظ عن فكرتها منذ عامين على وجه التحديد، فقد كنت مثله، ولا أزال، حريصا على إعادة قراءة تاريخ القصة العربية الحديثة، والكشف عن المناطق المجهولة من هذا التاريخ وتسليط الأضواء عليها. وفى الوقت نفسه، كنت، ولا أزال، مثل صبرى حافظ، مؤرقا بغياب أعمال الرواد الأوائل عن المشهد الثقافى المعاصر. أشعر بالأسى لاطراح هذه الأعمال فى زاويا النسيان الذى باعد بينها والأجيال الشابة بالفعل، وإلا فمن ذا الذى يعرف من الشباب، اليوم، أعمال الرواد الأوائل من أمثال فرنسيس فتح الله مرّاش وسليم البستانى وعلى مبارك وفرح أنطون والمويلحى وأليس البستانى وزينب فواز ولبيبة هاشم، فضلا عن أعمال المجموعة التى أطلق عليها اسم «المدرسة الحديثة» من أمثال: أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين ويحيى حقى، وقبلهم محمد لطفى جمعة، وغيره من الرواد المنسيين على امتداد أقطار الكتابة العربية التى سبقت إلى فن القصة.

وأعترف أننى لم أستطع مقاومة إلحاح بعض المفارقات الدالة على ذهنى، وأنا استمع إلى تفاصيل فكرة هذه السلسلة الجديدة من صبرى حافظ، فقد مسّت حماسته عصبا عاريا فى همومى الخاصة والعامة، وأثارت من الشجون ما جعلنى أشرد عنه، قليلا، مع تداعيات تتصل بمحدودية ما نعرفه من تاريخ القصة العربية الحديثة، وكيف أننا لا نزال، فى الأغلب الأعم، أسرى النظرة التى انطوى عليها كتاب «فجر القصة»، الذى كتبه المرحوم يحيى حقى سنة ١٩٦٠ . وهى النظرة التى أسهم فى إشاعتها بأدوات منهجية، تنتسب إلى زمانها، أستاذى المرحوم عبد المحسن طه بدر فى

كتابه الرائد عن «تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر»، الذى لا يزال نموذجا تحتذيه أغلب الدراسات المتلاحقة عن تاريخ الرواية العربية الحديثة.

وكتيب يحيى حقى خواطر ذكية وذكريات لماحة دالة، منحازة إلى المدرسة الحديثة التى انتسب إليها، فى النظر إلى بعض (وليس كل) ملامح «فجر القصة المصرية» وليس العربية، خطها الرجل منذ أربعين عاما على وجه التقريب، حين لم يكن هناك دراسات متاحة يعتد بها عن نشأة القصة العربية الحديثة على وجه العموم. وكتاب عبد المحسن بدر أغرى من اتبعوه بتقسيمه الثلاثى الذى كان إعادة إنتاج لأفكار فيلسوف الفن الإنجليزى روبين كولنجوود (فى كتابه: «مبادئ الفن») والصياغة العربية التى قدمها له عبد الحميد يونس (فى كتابه عن «الأسس الفنية للنقد الأدبى»). وذلك هو التقسيم الذى اختزل تنوع الرواية العربية فى ثلاثة أصناف. اثنان متدنيان فى القيمة الجمالية، هما: الرواية التعليمية، ورواية التسلية والترفيه. وثالث هو الرواية الفنية أو الرواية بحق، بالقياس إلى الأشباه الزائفة التى تعرى من القيمة الحقيقية. وبقدر ما أدّت خواطر يحيى حقى وذكرياته اللماحة، فضلا عن أسلوبه الساحر، إلى إشاعة بعض الأفكار التى لا تزال راسخة، والتى لا تصمد كثيرا للمراجعة، بعد أن ازداد ثراء معرفتنا بتاريخ البدايات فى امتدادها القومى، فإن كتاب عبد المحسن بدر أدّى إلى استبعاد أعمال روائية حاسمة إلى مناطق الغياب من ذاكرة التاريخ الروائى العربى الحديث، كما أدى، دون أن يقصد، إلى التقليل من أهمية أعمال دالة بكل معنى الكلمة، نتيجة تثبيت خصائص بعينها لما أسماه «الرواية الفنية».

وقد ارتبط ذلك برواسب نظرة تطورية انطوى عليها معيار تصنيف الروايات، فاقترنت البداية التى احتلت أدنى الدرجات فى سلم القيمة بالرواية التعليمية. لا تختلف عنها فى الوضع أو المكانة رواية التسلية والترفيه الأقل قيمة من الرواية الفنية. وهى صنف الرواية الذى وصل إلى الدرجة العليا (بالقياس إلى ما قبله) مع رواية محمد حسين هيكل «زينب»، التى أصبحت الرواية العربية الأولى بألف لام الإطلاق. وترتب على ذلك أن اقترن التاريخ القصصى العربى بالقرن العشرين وحده فى عامة الأذهان، وبتاريخ نشر رواية «زينب» سنة ١٩١٣ (إذا تابعنا محاولة حمدى السكوت فى تدقيق تاريخ النشر) تحديدا، وأهيل غبار الإهمال على الأعمال العربية الرائدة التى يردنا زمنها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لشئ إلا لأنها أدنى بكثير فى سلم القيمة الأدبية من رواية «زينب».

وأحسبني في حاجة إلى القول إن مسألة القيمة الأدبية هذه لا معنى لها بعيدا عن الوظيفة والأداء في السياق الاجتماعي الذى تتولد عنه الرواية. وقد تعلمنا اليوم إمكان أن نرى الأدبي فيما كان يظن أنه غير أدبي، كما تعلمنا أن الأدبي صفة تاريخية من ناحية، وصفة لا يمكن اختزالها في مبادئ ثابتة من ناحية ثانية. وغير بعيد عن ذلك ما أصبح شائعا بين النقاد، اليوم، من أن «الرواية» على وجه الخصوص تتميز بمرونة نوعها وانفتاح شكلها، لأنها المرونة ذاتها، كما وصفها باختين بحق، مؤكدا سعيها الدائم إلى التغير، وحرصها المتصل على المراجعة المستمرة. والطريف أن الناقد والكاتب الروائي الإنجليزي إى.إم.فورستر، فى كتابه عن أوجه الرواية، وهو أحد المراجع الأساسية التي اعتمد عليها عبد المحسن بدر في تثبيت المبادئ الفنية للرواية، يؤكد أن فن الرواية كتلة هائلة غير محددة، وأنه فن بلا شكل متعين أو قواعد ثابتة، وأنه أشبه بأرض لينة مشبعة بالماء، قد تتخللها مئات الجداول الجارية، أو بعض المستنقعات الراكدة، فلا مبدأ ثابت أو صفة واحدة تشمل هذه الأرض التي تتنوع تفاصيلها وتتباين ملامحها إلى أبعد حد.

ولا أريد أن يترك كلامي عن كتابيّ يحيى حقي وعبد المحسن بدر انطباعا خاطئا بأنني أحاول التهوين من أهمية الدور الذى لعبه كلا الكتابين وقت صدورهما، أو الأثر المهم الذى تركه كلاهما. ما أسعى إلى توضيحه، تحديدا، هو أن عدم الانطلاق من حيث انتهى الكتابان، والاقتصار على اتباعهما في الكثير من الدراسات اللاحقة، ومن ثم عدم وضع إنجازهما موضع المساءلة، أدّى إلى تعتيم مناطق مهمة من تاريخ فن القصة بوجه عام والرواية بوجه خاص، الأمر الذى أفضى إلى تراكم غبار النسيان على أعمال لا ينبغي نسيانها، وإغفال المعارك التي كان على الرواية العربية أن تخوضها تأسيسا للوعى المدنى، دفاعا عن علاقات المدينة المتحولة، وتأكيدا لحرية العقل المتطلع إلى التقدم، وإشاعة لقيم التسامح فى مجتمع مدنى يؤصل تنوعه البشرى. وأخيرا، إبراز الحضور الواعد للمرأة العربية الكاتبة، داخل علاقات الطبقة الوسطى الصاعدة بمفاهيمها المحدثة عن «الدين والعلم والمال».

والمفارقة اللافتة الأولى، في هذا المجال، أننا نتحدث كثيرا عن «التنوير» في السنوات الأخيرة، ربما أكثر من اللازم، خصوصا بعد أن اختلط الحابل بالنابل، وأصبحت كلمة «التنوير» من الموضات البراقة والبضاعة المفيدة. ومع ذلك فما أقل ما نتذكر، إذا تذكرنا أصلا، أن رواد التنوير العربي الحديث هم رواد القصة العربية، وأن محدثات فن القصة العربية كانت تأسيسا لمحدثات المدينة العربية، سواء من حيث تجسيد وعيها المدنى في أفق عقلانى مغاير، أو تأصيل تطلعها

الإبداعي إلى رؤى أكثر جذرية. والحق أن نشأة القصة العربية مرتبطة إلى أبعد حد بحركة الاستنارة العربية، وذلك في سعي هذه الحركة وبحثها عن فن نوعي مغاير، يتولى تجسيد وعيها المحدث، وإشاعة قيمها الجديدة بين جمهور الأفندية الواعد والطليعة النسائية الرائدة. وما أشد حاجتنا، خصوصا في هذه الأيام التي يناوشنا فيها تعصب النقل من كل جانب، إلى أن نسترجع الأعمال الروائية الرائدة في تجسيد قيم الاستنارة. أعني الأعمال التي سبق بها أمثال فرنسيس فتح الله مراش الذي كتب عن «غابة الحق» تمثيلا رمزيا لقيمة العقل، وتجسيدا إبداعيا لمملكة التمدن التي لاتخلو من معنى العدل، وأمثال فرح أنطون الذي جسّدت رواياته الحوار المتوتر بين الدين والعلم في ثنايا الحلم بالمستقبل، وذلك بالقدر الذي صاغت به صياغة إبداعية حق الاختلاف ومعنى التنوع وحتمية تأكيد علاقات المجتمع المدني التي لا تعرف النعرة الطائفية أو التمييز العرقي أو الديني أو الطبقي.

والمفارقة اللافتة الثانية، في هذا المجال، أن كاتبات كثيرات يتحدثن هذه الأيام عن كتابة المرأة وحضور المرأة الكاتبة، فنرى دوريات تصدر وتجمعات باحثات تبزغ، ونسمع عن نقد نسائي أو نسوي في علاقة بكتابة للجسد الأنثوي، ومع ذلك فما أقل الاحتفاء بميراث كتابة المرأة العربية في القصة، ابتداء من أليس بطرس البستاني التي كانت الكاتبة الأولى التي نعرفها في تاريخ القصة العربية الحديثة، مرورا بزينب فواز العاملية التي سبقت كتاباتها كتابة قاسم أمين في الدعوة إلى تحرير المرأة، وانتهاء بلبيبة هاشم التي تركت ميراثا قصصيا متناثرا يستحق، عن جدارة، عناية الجمع والدراسة. وليت الباحثات المهتمات بكتابة المرأة العربية يبذلن من وقتهن وجهدهن ما يبرز المجهول من كتابة جداتهن، وينطق المسكوت عنه من دور المرأة المجهول في تأصيل فن القصة العربية وإشاعته منذ أواخر القرن التاسع عشر.

ولا أريد أن أستطرد في الحديث عن المفارقات الكثيرة المتصلة بالعناية التي ينبغي أن نوليها لتراثنا القصصي الحديث، فالواقع أن ما تقوم به مؤسساتنا الثقافية والبحثية في هذا المجال متواضع إلى درجة مخجلة، على امتداد الوطن العربي كله، لايتناسب بحال من الأحوال مع ثراء هذا التراث الذي يصل القرن السابق بالقرن الحالي الذي أوشك على نهايته. وإذا تقبلنا تقبل التسليم ما أخذ يشيع بين بعض الباحثين، خصوصا في السنوات القليلة الأخيرة، من أن «غابة الحق» التي نشرها فرنسيس فتح الله مرّاش في حلب سنة ١٨٦٥ هي الرواية العربية الأولى، وأن أقاصيص «الساق على الساق» التي نشرها أحمد فارس الشدياق في باريس سنة ١٨٥٥ هي البدايات الأولى

للقصة العربية القصيرة، فإن تاريخا ممتدا يقرب من قرن ونصف قرن من الإبداع القصصى الذى يستحق ما هو جدير به من العناية، وما يكشف عن ثغراته، ويلقى الضوء الساطع على مناطقه التى تركناها للعتمة أو الإهمال أو غبار النسيان.

ولذلك سعدت بما قدّمه صديقى صبرى حافظ للمجلس الأعلى للثقافة من اقتراح بإنشاء سلسلة جديدة من «الأعمال الكاملة» يتولى الإشراف عليها تحت عنوان «رواد الفن القصصى». ورأيت فى إصدار هذه السلسلة إمكانا واعدا، يصلح ما أفسده الإهمال أو أشاعه اتباع الأفكار السائدة من قصور فى المعرفة. وأحسب أن هذه السلسلة يمكن أن تسهم فى تصحيح معنى «الأعمال الكاملة» التى أصبحت تجمع ما بين العرّ والدّر، فى صيغها الحالية التى أشاعتها أوضاع النشر العربى المعاصر، وتعود إلى المعنى الأصلى الذى لايفارق دلالة الاحتفاء بالذين أسهموا بالتأصيل والتأسيس فى تاريخ الإبداع أو الفكر.

وأكاد أرى بعينىّ الخيال ما يمكن أن تحققه هذه السلسلة من إنجازات فى المستقبل المرجو، لو قُدِّر لها الاستمرار، وتحمس الباحثون والباحثات للإسهام فيها على امتداد الأقطار العربية وخارج الأقطار العربية، ووجدنا من الدعم المادى ما يحميها من التعثر أو الانقطاع أو التوقف فى قابل السنوات. ولست فى حاجة إلى تفصيل الاحتمالات الإيجابية لهذه السلسلة، فإمكان ما تكشف عنه من ثغرات يوازى إمكان ما تلقيه من أضواء على مناطق العتمة، وإرهافها للذاكرة الإبداعية والنقدية هو الوجه الآخر من تأكيدها استمرار العناصر الخلاقة التى تصل يومنا بأمسنا فى التطلع إلى غدنا. وإمكان إنصاف المهمشين والمسكوت عنهم لايقل أهمية عن إمكان الكشف عن الأوجه المستمرة للحوار بين تجارب الماضى وتجارب الحاضر. وتأصيل الأصول لايقل فى مداه عن تأكيد القيمة الإبداعية للأعمال التى تجاوز زمنها إلى زمننا.

وأحسب أن صدور المجلد الأول الذى يضم الأعمال الكاملة لمحمود طاهر لاشين دليل ملموس على ما يمكن أن تحققه السلسلة، وعلامة على توجهها المنهجى فى الوقت نفسه. فللمرة الأولى يطالع القارئ العربى الأعمال الكاملة لهذا الرائد الذى أسهم إسهاما حاسما فى إكمال تأسيس فن القصة فى مصر. وللمرة الأولى يطالع القارئ العربى كل ما لم يضمه كتاب من قصص محمود طاهر لاشين. وللمرة الأولى يطالع القارئ العربى أعمال هذا الرائد مع دراسة متأنية، عميقة وكاشفة، عن السياق التاريخى والإبداعى لهذه الأعمال بقلم متخصص، أنفق سنوات طويلة

من الجهد لإضاءة ثغرات هذا السياق. وللمرة الأولى يتاح للقارئ العربى الاطلاع على كل المقدمات التى ضمنتها الطبعات المختلفة لمحمود طاهر لاشين، فضلا عن الهوامش الشارحة لغوامض النص المحقق، المضيئة لما يستحق الإضاءة فيه.

وأخيرا، فإن حماستى لهذه السلسلة تدفعنى إلى تأكيد ما أرجو أن تحافظ عليه من أمور لاينبغى إغفالها أو نسيانها، كى لاتتناقص قوة دفعها وقيمة إنجازها، وأولها أن تظل هذه السلسلة قومية المنظور، شاملة المجال، تتيح للقارئ العربى مطالعة الأعمال الكاملة التى تؤكد فيه قومية هذا الفن الذى يعيش زمنه. والدعوة مفتوحة لكل باحث وباحثة، على امتداد الوطن العربى كله وخارجه، للإسهام فى إثراء السلسلة بالجهد والإضافة، استكمالا لتاريخ الفن القصصى العربى،سواء فى مجال إضاءة الثغرات المعتمة وتحقيق أعمال هذا الرائد أو تلك الرائدة فى كل الأقطار العربية المعنية. وأنا أتعمد الجمع بين التذكير والتأنيث فى هذا المقام، لأنى أتطلع إلى أن تشمل هذه السلسلة، المفتوحة لإسهام الباحثات والباحثين، الأعمال الكاملة لإبداعات الرائدات السابقات فى فن القصة، من أمثال أليس البستانى التى لا أعرف لها سوى رواية وحيدة للأسف وزينب فواز العاملية ولبيبة هاشم، وغيرهن من كاتبات القصة اللائى يكملن تاريخ الإبداع العربى الذى يظل ناقصا دونهن.

ولا أتصور أن تقتصر هذه السلسلة على القرن العشرين، فالبدايات أبعد من مطلع القرن، ترجع بنا إلى حوالى سنة ١٨٣٤ التى نشر فيها رفاعة الطهطاوى كتابه «تخليص الإبريز» عن المطبعة الأميرية العامرة ببولاق، وصولا إلى سنة ١٨٦٧ حين نشر رفاعة ترجمته «مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك» فى بيروت، بعد عامين فحسب من نشر «غابة الحق» للمراش فى حلب. يضاف إلى ذلك أن ثروة هائلة من القصص القصيرة والروايات لاتزال حبيسة صفحات الجرائد والمجلات القديمة، لم يُقدّر لها أن تجمع فى كتب بعد، وما جمع من بعضها يظل فى حاجة إلى مراجعة وتدقيق. ولعلى لا أكشف عن أسرار هذه السلسلة الجديدة لو قلت إن الصديق روجر آلان يقوم الآن بإعداد النص الكامل من «أحاديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى بمراجعته على الأصول المنشورة فى جريدة «مصباح الشرق» ابتداء من العدد ٣١ الموافق الخميس الثالث من رجب سنة ١٣١٦ السابع عشر من تشرين ثان (نوفمبر) سنة١٨٩٨، وذلك بالإضافة إلى بقية أعمال المويلحى. وليس ذلك سوى بداية جهد جماعى، نأمل أن يدعمه كل الباحثات والباحثين، من العرب وغير العرب، الذين يهتمون بالقصة العربية على امتداد المؤسسات البحثية لعالمنا المعاصر.

رواد الفن القصصى وإرهاف الذاكرة الأدبية

صبرى حافظ

كيف يمكن لقارئ نهاية القرن العشرين أن يستمتع بأدب ناضل أجداده فى مطلع هذا القرن لصياغة رؤاه وبلورة قيمه وتأسيس مواضعاته الفنية، وتخليص لغته من آثار قرون من البلاغة اللفظية والمحسنات البديعية؟ هذا السؤال الأساسى الذى ينطلق منه هذا المشروع الأدبى المهم «رواد الفن القصصى» يطرح بدوره مجموعة من الأسئلة المتفرعة عنه، والمكملة له. لماذا نقدم لقارئ نهاية القرن العشرين الأعمال القصصية الباكرة التى أبدعها أسلافه فى بدايته؟ وما العلاقة التى تربط قارئ اليوم المتعجل الذى تربى على غذاء التليفزيون الجاهز، وعلى ساندويتشات الهامبورجر المصنّعة، وشطائر البيتزا الجاهزة، بكاتب مطلع هذا القرن المهموم بصياغة أدب قومى، والداعى إلى مقاطعة البضائع الأجنبية، والمشغول بمقاومة المستعمر والنضال من أجل استقلال بلاده؟ وكيف ينظر هذا القارئ الجديد لأعمال قديمة لها اهتماماتها النابعة من واقع تغير بشكل فاق كل التوقعات؟ وما الصلة بين شبان اليوم الذين يعلقون على سياراتهم ملصق العلم الأمريكى، ويستمعون إلى أغانى «البوب» الأجنبية، وبين شبان العشرينيات الذين كانوا يطلقون الشعارات النارية ضد المستعمر، ويسترخصون الروح فداء للوطن، ويترنمون بنشيد سيد درويش «بلادى بلادى»؟ وأين هو هذا الشاب «المزنوق» فى بنطلونات الجينز، والمنحنى على موائد البلياردو المؤجرة، من شاب العشرينيات بالمونوكل والشارب المفتول والحلة الفضفاضة؟ فما أبعد الشقة بين أبناء ثورة ١٩١٩ وأبناء مرحلة السلام الصهيونى والنظام العالمى الجديد!

تغير كل شئ بصورة لاسبيل إلى ربط آخر تجلياتها الراهنة بتبدياتها الباكرة، لأن هذه التبديات تبدو الآن موغلة فى القدم ومنسية. فلو بعث صاحب (عيسى بن هشام) محمد المويلحى اليوم من مرقده لكانت مفاجأته بما انتاب واقعه من تغيرات أكبر من مفاجأة بطله «أحمد باشا المنيكلى». ولبدا لنا ولنفسه معا كأنه واحد من (أهل الكهف)، وأن ما جرى فى الواقع منذ «حديثه» يفوق كل ما ذهب إليه خياله القصصى، ويتجاوز أقصى جمحاته. ولوجد أن الفترة التى انصرمت منذ رحيله - وهى تعادل الفترة التى غاب فيها بطله ناظر الجهادية المصرية عن الواقع المصرى

منذ أن كان يرافق إبراهيم باشا فى جولاته الليلية حتى أقامه المويلحى فى روايته من بين الأموات- شهدت من التغير والتبدل أضعاف ما خبره بطله. لأن المتغيرات التى ستفاجئه لاتقتصر على الواقع الحضارى وحده، أو على العالم المادى المحسوس، وإنما تمتد إلى العالم القيمى والأدبى الذى تزلزلت كل رواسيه. تغيرت المدينة بإيقاعات غير مسبوقة. وتبدل سلك القيم حتى أصبحت بديهياته الأخلاقية القديمة نوعا من البعث غير المنطقى، أو المثاليات الممعنة فى الشطط. واختلفت لغة الكتابة، وتبدلت طبيعة العلاقة بين النص والواقع. فهل كان للإغضاء عن هذه الإنجازات الأدبية الأولى دور فى هذا التحول الذى يصعب ربط نهاياته ببداياته؟

إن التحوّل لم يقتصر على القارئ والإنسان العادى وحده، بل امتد إلى الكاتب بالقدر نفسه، وذلك بصورة تدفعنا إلي تأمل ما جرى فى أقل من قرن من الزمان، وإلى إعادة النظر فى الكثير من الأمور. فأين هو كاتب هذه الأيام الشاب الذى يلهث وراء ما تدفعه صحف النفط، ويسعى لإشباع حاجاتها والالتزام بأولوياتها، أو يمعن -إن رفض الوضع كله- فى الهرب فى سمادير «البانجو» والتحلل من المسئولية، من أدباء العشرينيات الشبان الذين كانوا - كما يقول لنا يحى حقى الشاب فى مقال نشره عام ١٩٢٧ - «يكتبون لا ابتغاء لأجر، بل إرضاء لمنزع قوى فى نفوسهم، وتحقيقا لدراسة فى الآداب الغربية فى سبيل الوصول إلى أدب مصرى صميم. ولاتدخل الشهرة فى حساب المؤلف المصرى؛ لأن الشهرة عن طريق الأدب تعتبر شيئا من الترف لايقبلها الشعب المصرى على مائدته.»(١) وكيف أصبح هذا الترف الممجوج فى العشرينيات هدفا يرتجى فى التسعينيات، وتسترخص من أجله القيم والتقاليد؟ هذا التغير الجذرى فى الموقف- الذى يخرج تحليل أسبابه ودوافعه، والتعرف على تبدلات مساره عن موضوعنا هنا- وراء الرغبة فى العودة من جديد إلى ماضينا لإرهاف وعى الذاكرة الأدبية بتاريخها الحديث وبما جرى لأولوياتها.

صحيح أن ثمة أواصر متينة تربط الجيد مما يكتب الآن بجيد كتاب بدايات القرن، ولكن غياب إنتاج الرواد، وحرمانه من الحضور والفاعلية فى الساحة الثقافية الراهنة، يوهن من هذه الأواصر، ويشتت بوصلة الحركة الأدبية فى سعيها نحو التطور. ويعمق هذا كله من الفجوة بين حاضر الحياة الأدبية وماضيها من ناحية، كما يزيد من حدة المفارقة بين كاتب اليوم وأسلافه

---

(١) يحى حقى: فجر القصة المصرية، ط مؤلفات يحى حقى كاملة، ج٢، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧)، ص٢١١. والمقال الذى أخذ منه هذا المقتطف سبق أن نشر فى جريدة (كوكب الشرق) عام ١٩٢٧.

الأقربين من ناحية أخرى. فلو كان هذا الماضى حيا فى الحاضر، وكانت الذاكرة الأدبية فاعلة فيه وغير مطموسة، فربما ساهم ذلك فى تغيير المسار وتبديل الموقف من هذه المتغيرات العاتية. فالحفاظ على حيوية الذاكرة الأدبية والتاريخية مدعاة لحيوية أى أمة من الأمم، وأى ثقافة من الثقافات. لأن الذاكرة الحية ترهف قدرة العقل الجمعى على التفكير وتحضه على الإبداع، وتنأى به عن الكسل العقلى والبلادة والخنوع. وليس فقط لأن الإنسان يتعلم دائما من تاريخه، ولكن أيضا لأن الذاكرة التاريخية والأدبية هى مستودع القيم وشاحذة الوعى بالمكانات التاريخية منها والأدبية، بصورة تحمى الحياة الحضارية -بكل أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية- لأى مجتمع من المجتمعات من الخلل والتخبط. فيعرف المجتمع الثقافى القيمة الحقيقية لكل كاتب. لا فى غياب الذاكرة الأدبية والتاريخية، أى فى غياب قطاع عريض من كتاب هذه الثقافة، بل فى ساحتها الحية المتوقدة التى يتواصل فيها الماضى مع الحاضر، ويتحاور دائما معه. فلايسطو أحد على حقوق الآخرين، ولايدّعى حاضر لنفسه أدوارا قام بها غائبون، ولايزعم فرد لنفسه ريادة سبقه إليها الراحلون.

والذاكرة القومية بكل أبعادها الثقافية والتاريخية هى عماد الهوية القومية ذاتها، ومستودع الذاتية الثقافية لأى أمة من الأمم. فبدونهما معا، أو بالأحرى بدون جدل العلاقة الحيوية بينهما، لا يتبلور وعى الذات باستمراريتها وبصيغ وجودها المادية منها والمعنوية. فالهوية القومية، كما أثبتت الدراسات النقدية والفلسفية الحديثة، ليست معطى ثابتا وسابقا لصياغته فى لغة أى أمة وفكرها ووثائق التعبير عنها، ولكنها تتخلق من خلال هذه الصيغ اللغوية، والأعمال الفكرية والأدبية، التى تعبر عنها وتتبلور فى ساحتها تفاصيل الذات الجمعية المضمرة فى هذه التجليات اللغوية والتعبيرية. ولهذا يدور الجدل الآن حول هوية الذاكرة، وذاكرة الهوية، ودور هذا كله فى تخليق وعى الأمة بهويتها، وصياغتها لرؤيتها للعالم وموقعها منه. خاصة وأن متغيرات العالم تمنح الذاكرة القومية دورا كبيرا فى التحولات التى طرأت عليه، وأدت إلى العصف بصورته القديمة. فالذاكرة نفسها ليست قوة مجردة أو محايدة، ولكن لها هويتها القومية والثقافية المتميزة، بل إنها هى التى تصنع الهوية بترتيبها للقيم وللجزئيات، وإكساب هذا كله بنية ونسقا ودلالة. فلكل ذاكرة هويتها القومية، لأن الذاكرة الفرنسية، مثلا، تختلف عن الذاكرة العربية اختلاف التاريخين والثقافتين والجغرافيتين واللغتين عن بعضهما البعض. وحتى إذا ما انطوت الذاكرتان على بعض العناصر المشتركة، مثل الحملة الفرنسية أو الثورة الفرنسية، فإن مكان هذا العنصر فى الذاكرة الجمعية، ومكانته فيها تجعله

عنصرا مختلفا فى كل من الذاكرتين. وهذا الاختلاف راجع إلى ذاكرة الهوية، لأنه إذا ما كان للذاكرة هويتها، فإن للهوية ذاكرتها كذلك، التى تعيد عبرها ترتيب أولوياتها وتكريس خصائصها. وتزداد الهوية صلابة وتبلورا وتماسكا كلما قويت ذاكرتها، واتسع مخزونها من المعلومات، وازداد وعيها بمكونات هذه الذاكرة وبثوابتها وبآليات عملها.

ولاشك أن فقدان الذاكرة القومية وراء ما يعانى منه واقعنا العربى من التردى والتشويش على كل صعيد. ومن أحوج ما تحتاجه حياتنا العربية المعاصرة، إحياء ذاكرتها التاريخية والثقافية المطموسة، وإزالة أتربة النسيان عن إنجازاتها، وإرهاف الوعى بسلم قيمها وأولوياتها الوطنية منها والأدبية على السواء. فبدون هذا الوعى لاتستقيم الأمور، ويتفشى الخلل فى الحياة، وتزداد فيها مواطن الزلل. ومن أدوات إحياء الذاكرة الأدبية توفير الأعمال الرئيسية فيها فى طبعات كاملة ومحققة. فالأعمال الكاملة للكتاب البارزين أو المبرزين من المصادر الأساسية لحياة الذاكرة الأدبية فى أى ثقافة من الثقافات. ولاتوجد مكتبة أدبية فى أى لغة من لغات العالم الكبرى لاتهتم بما يدعى بالمصادر الأساسية أو «الكلاسيكيات Classics»؛ أى الأعمال التى ترسخت مكانتها، وتوطدت قيمة كتابها بشكل لاخلاف عليه، وأصبحت من «مصادر» هذه الثقافة الأدبية، ومن مكونات آثارها المعترف بها، أو ما يدعى بالإنجليزية بالـCanon أو مجموعة الأصول المعيارية المكرسة. وهى مفردة لها تاريخ دينى طويل فى الغرب، أضفى عليها مسحة من القداسة، لأنها تتعلق بالشرائع وبالأسفار الأصلية للكتاب المقدس، كما تتصل كذلك بعملية تكريس القديسين فى الكنيسة الكاثولوكية، والاعتراف بفضلهم على الدين المسيحى عامة، وعلى الكنيسة خاصة. وأقرب مفهوم لها عندنا هو مفهوم «الأصول» فى الشريعة أو فى القانون.

والأعمال التى تجمع أى ثقافة على أنها جزء من هذه «الأصول»، وأنها هى الصائغة لمجموعة الأصول المعيارية التى يقاس عليها، والتى يتكون منها الـCanon الأدبى للثقافة كلها، أى مجموعة الأعمال ذات القيمة المعيارية الأكيدة فيها هى التى تصدر ضمن ما يسمى بالمصادر أو الكلاسيكيات، وهى التى تبرر صدور الطبعات الكاملة لمؤلفيها، أو المؤلفات الكاملة كما ندعوها عندنا. فهذا التقليد الأدبى المهم، وهو تقليد أدبى عالمى له نفس الأسس القيمية والمعيارية فى معظم الثقافات الإنسانية الكبرى. فأصوله وقواعده متماثلة من ألمانيا حتى اليابان، ومن فرنسا حتى الولايات المتحدة، ومن روسيا حتى بريطانيا. وهى تقاليد وقواعد لاتخضع لأهواء الناشرين، أو لأغراض المؤسسة السياسية أو الأدبية. فالثقافات الحية تميز بين ما يتعلق بالقيم الثابتة والأصيلة

فيها، وما يتصل بالظروف الموقوتة والأمور العرضية. وتحرص على ألا تخلط بين الاثنين حتى لاينفشى فيها الخلل والتخبط. فلاتصدر أى ثقافة تحترم نفسها وقيمها المؤلفات الكاملة لكل من هب ودب. لأن الذاكرة الأدبية، كالذاكرة الإنسانية نفسها، لها طبيعة انتقائية ومنطق خاص. فهي ليست أرشيفا يحتفظ بكل صغيرة وكبيرة، وإن كان للأرشيف دوره المهم وقيمته التى لاغنى عنها للمؤرخ الأدبى فى أى ثقافة فاعلة. ولكنها ذاكرة حية نقدية واعية. تتسم بالقدرة على التمييز بين الغث والثمين، وتقوم بعمليات مراجعة دورية، وجرد دورى لكل ما تنطوى عليه من معلومات.

لذلك تصدر «المؤلفات الكاملة» فى الثقافات الإنسانية الحية لأى كاتب استطاعت بعض أعماله أن تدخل إلى ساحة مجموعة الأعمال المعيارية المكرسة فى الثقافة، وأصبحت جزءا أساسيا من مجموعة القيم الأدبية المعترف بها فيها. فلاتدخل أعمال أى أديب كلها، مهما كانت عظمته، ضمن مجموعة «الأصول» المعيارية تلك، وإنما يكفى أن يكون له عمل واحد فيها ليستحق إصدار مؤلفاته الكاملة. حيث تصبح المؤلفات الكاملة ضرورية لفهم هذا العمل الواحد حق الفهم، ولاستيعاب السياق الذى ظهر فيه. ولمعرفه موقعه من تاريخ هذا الكاتب وتطوره وخريطة إنجازاته واهتماماته معا. كما لاتصدر الثقافات الإنسانية الحية «الأعمال الكاملة» للكتاب الأحياء، فأعمال أى كاتب من الكتاب، خاصة بعدما أرسى النقد الحديث قاعدة أساسية تعتبر أعمال كل كاتب نصا واحدا متواصل الحلقات، ومتكامل النصوص، لاتكتمل حقا إلا بعد رحيله. وهذا هو السر فى صدور «الأعمال الكاملة» أو «الأعمال المختارة» للكتاب الراحلين دون غيرهم. وخاصة لمن أصبحت أعمالهم ضمن الأصول المعيارية للثقافة، وأصبح من الضرورى، وقد قامت الثقافة بتمحيص إنجازها وتقييمه، توفير المؤلفات الكاملة لأصحاب هذه الأعمال؛ ليشكل حضورها الفاعل فى الثقافة، ووعى القارئ بدورها التاريخى، حائلا دون الخلل والتخبط. وليقى وجودها الثقافة من تكرار نفسها، ناهيك عن الانحدار عن أرقى ما سبق لها أن قدمته من إنجازات. بل ويرود خطاها نحو المزيد من المغامرات التجديدية التى تضيف إلى رصيد الثقافة، وتساهم فى ترقيتها.

والغريب أننا عندما بدأنا الأخذ بهذا التقليد الأدبى المهم، وبادرنا بإصدار الأعمال الكاملة للمؤلفين فى عدد من البلدان العربية، لم نهتم بإرسائه على أسس سليمة، كتلك الأسس التى ينهض عليها فى كل الثقافات الإنسانية الحية. وإنما طال المفهوم نفسه شيئ من الخلل والتخليط الذى تفشى فى الحياة الثقافية عندنا، وأصاب سلم القيم الأدبية والثقافية فيها بالخلل والتشوش. فوجدنا فى المكتبة العربية «المؤلفات الكاملة» لكتاب أحياء، بينما اختفت منها كلية المؤلفات الكاملة للراحلين، ولصناع

التنوير فيها. وحكم إصدار الكثير من تلك «المؤلفات الكاملة» منطق الخلط والمصالح المؤقتة، والمنافع المتبادلة، والظروف العرضية الزائلة. فأصدرت مؤسسات النشر العربية «الأعمال الكاملة» لمن لم تكتمل بعد مسيرتهم، ولمؤلفين لم تنضج بعد أدواتهم التعبيرية، ولكتاب لاقيمة لهم داخل أوطانهم المحدودة، ناهيك عن قيمتهم في ساحة الثقافة العربية الشاملة. وإنه لمن المؤسف فى ثقافة لاتزال تفتقر إلى توفير المادة الأساسية عن حياة كتابها، سواء من الناحية الأرشيفية، أو من حيث الطبعات المحققة والموثوقة، أن نجد فى ساحتها «أعمالا كاملة» لن يكون لها وجود فى مجموعة الأصول المعيارية للأدب العربى، حينما تعود للثقافة العربية عافيتها المهدرة، ويتم فرز هذه الأصول وتقييم المكانات الأدبية وفق معايير ثقافية خالصة. بينما نجد أن أعمال الرواد الكبار الذين أرسوا أهم القيم الأدبية الراسخة في أدبنا الحديث غائبة كلية من المكتبات، ومن الذاكرة الأدبية إلى حد ما.

وقد أضاع هذا التخليط علينا فرصة ذهبية كان الأجدر بنا إحسان استغلالها. فما أشد حاجتنا إلى تكوين Canon أدبى عربى محايد وبعيد عن الأهواء والمصالح الشخصية الموقوتة. يخلق المعيار فى عالم عربى بدأ يعانى من اختلال القيم، وفقدان المعايير الراسخة على أكثر من صعيد ثقافى وحضارى. وازداد هذا التخليط حدة حتى بلغ درجة التدليس فى كثير من الأحيان، بسبب خلط ما هو إعلامى وسياسى بما هو أدبى وثقافى، والتمويه، بسبب سطوة الإعلام الموقوتة تلك، على كل ما هو حقيقى وأصيل. فكل كاتب محدود القيمة يحرص على أن يسبق اسمه بلقب الروائى الكبير أو الشاعر الكبير، وهى ألقاب مضحكة لو يعلمون. تخفى ضحالة الإنجاز وراء اصطناع المكانات، ولايصمد الكثير منها لحكم الزمن، ويسقط أصحابها من ثقوب الذاكرة الأدبية بمجرد أن يغضب عليهم من بيده السلطة، أو ينتزع منهم مناصبهم الزائلة كتّاب زائلون مثلهم. فأين الآن أصحاب المناصب الثقافية الكبرى قبل عشرين عاما، والذين كانوا يشغلون سيرك الحياة الثقافية عندنا بأعمالهم المحدودة الفن والقيمة؟ وإلى أين ستصير أعمال كتّاب يشغلون الواقع الثقافى الآن بالصخب والضجيج، ويحرصون على أن تسبق أسماءهم فى المنابر التى يشرفون عليها، أو يشرف عليها أصدقاء المنافع المتبادلة، بلقب الكاتب الكبير، والقاص الكبير، والروائى الكبير، والشاعر الكبير؟ فمن يصعد على ذرى موجات الصخب الإعلامى، يغرق فى خلجان موجة الصخب الإعلامى التالية التى ترفع آخرين، وهكذا.

وتدفع الحياة الثقافية نفسها ثمن هذا الخلط من قيمها، وإنجازها ومسار حركتها على السواء. تدور فى دائرة مغلقة دون أن تتقدم خطاها إلى الأمام، لأنها لاتتوقف أمام تاريخها القريب تدرسه

وتمحصه، وتفرز غثه من ثمينه. ولاتحيل الإنجازات الأدبية الحقيقية فيها إلى قوة صلبة فاعلة لها قيمة المؤسسة الثقافية، ولها القدرة على وضع سلم واضح للقيم والمكانات الأدبية فى الثقافة بصورة تحميها من التردى والنكوص. ولاتختبر ما يشيع فيها من مقولات نقدية أو مسلمات أدبية بمجهر النزاهة الموضوعية والحياد العلمى، حتى تنحى منها ما لايصمد أمام امتحان الإضافة الحقيقية إلى مجموعة الأعمال المعيارية الراسخة. أو توطد فى ساحتها مكانة الأعمال التى لايعلو صخب أصحابها على قيمة إنجازهم. فبدون هذا التمحيص المستمر والمراجعة الدورية للمقولات النقدية الشائعة والمسلمات الأدبية المتداولة لاتستقيم الأمور فى أى ثقافة، ولاتتأصل فى ساحتها القيم التى تحمى قيمة الكتابة وشرف الكلمة من أى ترد أو انهيار. وبدون هذه المراجعة الدائمة سيظل المنطق غائبا عن حياتنا الثقافية الغارقة فى التخبط والتشويش. فكل ما هو حقيقى ومنطقى غائب عنها، وعندما يغيب المنطق عن الساحة الثقافية، وينتشر فيها الخلل والتدليس، فإن ذلك علامة على غياب الحقيقة ذاتها.

ولاشك أن فقدان الثقافة العربية لهذا الـCanon المعيارى الأدبى القوى الواضح هو أحد العوامل المسئولة عما أصاب إنجاز مرحلة التنوير الثقافى العربى من ضربات. وهو الذى يجعل مثقف نهاية القرن العشرين يحارب الآن نفس المعارك التى خاضها مثقف نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن، وفى ظروف أسوأ من تلك التى واجهت أسلافه الأقربين، دون أن يستفيد من إنجازهم، ناهيك عن أن يبنى فوق آخر ماشيدوه من صروح. فقد ظل هذا الإنجاز مبددا ومغيبا عن الحضور والفاعلية لأمد طويل. أو غرق مابقى منه فى دجل الصخب الذى يرفع أصحاب السلطة أو المصلحة، وعلى حساب أصحاب القيمة أو الإنجاز. أو أهدرت قيمته تصرفات الكتاب «البهلوانات» الذين يغيرون كالأفعى جلودهم كل حين، مع فارق بسيط أن الأفعى تغير جلدها بدافع النمو الطبيعى، بينما يغير هؤلاء الكتاب جلودهم حسب أسعار الدفع فى بورصة الصحف النفطية أو غير النفطية. لهذا كله أصبح من الضرورى أن تحدد الثقافة العربية الحديثة أصولها ومصادرها. وأن تطرح على القراء مجموعة مؤلفات الكتاب الذين شاركوا فى صياغة هذه الأصول والمصادر، حتى تحي ذاكرتها المطموسة. ويشارك وجود هذه الأعمال فى بلورة الذاكرة الأدبية الحية. لأن الذاكرة الأدبية التى أقصدها ليست شيئا هلاميا لايمكن الإمساك به، أو قيمة مجازية يمكن الاختلاف عليها، ولكنها إنجاز يتحول فى الثقافات الحية إلى وجود له صلابة المؤسسات الأساسية فى المجتمع وقداستها. وإلى تيار فاعل فى تكوين الهوية الثقافية لهذا المجتمع، وفى خلق محاور اعتزازه بنفسه

وبإنجازه الإنساني. فلايمكن لأى إنجاز ثقافى أو أدبى أو فنى أن يفرض نفسه على العالم ما لم يكن له وجوده الفاعل فى ثقافته الأصلية أولا. لايتصور أحد أن يكون لوليام شكسبير مكانة خارج بريطانيا ما لم يكن حيا ومكرسا وفاعلا فى ثقافته الأم، حتى بعد مرور ما يقرب من أربعة قرون على وفاته. لأن حيويته فى ثقافته هى التى تؤكد جدارته بالتأثير على الثقافات الأخرى أو الحوار مع رؤاها وكشوفها.

لهذا كله تصدر هذه السلسلة التى تهتم بتقديم أعمال رواد الفن القصصى العربى الكاملة فى طبعات جديدة ومحققة. تمنح الرواد الأُول الحياة والفاعلية فى زمن أحفادهم المتأخرين. فيدرك الأحفاد أن لهم أجدادا يعتز بهم، وأن جذورهم التى تبدو لهم مقتلعة لاتضرب فى الهواء وإنما في أرض صلبة وإنجاز راسخ. ويتصل حاضر الثقافة العربية المعاصرة بماضيها القريب. مما يرهف وعى قارئ اليوم وكاتب اليوم بما قدمه أسلافه من إنجازات. ويطرح اجتهاداتهم ورؤاهم على صعيد الجدل والاهتمام. حتى تنفض الثقافة العربية أتربة النسيان عن هذه البقعة المضيئة فى الذاكرة الثقافية، وتجلوها كى يبدد ضوؤها الظلام الذى يناوش كل شيء فى هذا الزمن الردئ. ولأن هذه السلسلة الجديدة تنطلق من وعى واضح بسلبيات الممارسات السابقة، فإنها تحرص على إصدارها الأعمال الكاملة للكتاب الذين اختارتهم فى طبعة علمية محققة. فقد حاولت سلسلة «المكتبة العربية» التى كانت تصدر عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية –وهو الآن المجلس الأعلى للثقافة– فى الستينيات من هذا القرن إعادة إصدار أعمال متفرقة لرواد الفن القصصى بمقدمات جديدة. ولكن هذه المحاولة ظلت على قيمتها منقوصة، ولم يقيض لها الاستمرار. لأنها افتقرت إلى المنهج واتسمت بالانتقائية، واعتمدت على المعلومات التى ضمها كتاب أستاذنا الراحل يحى حقى الرائد (فجر القصة المصرية)، وهى برغم قيمتها الكبيرة غير كاملة. ولأن دراسة الفن القصصى العربى قد شبت عن طوق هذا المنجم الذهبى الصغير (فجر القصة المصرية)، وتجمعت لها مادة أكبر، ومعلومات أوثق عن هذه الرحلة، فإن أى سلسلة جديدة لإحياء تراث هؤلاء الرواد لابد أن تكون على مستوى أرقى من إنجازات هذه الدراسة. وهذا هو ما تسعى إليه هذه السلسلة.

ولأن هذه السلسلة تنطلق من الوعى بضرورة خلق معايير أدبية وقيمية صلبة، يرودها فى اختيار الكتاب أن يكون لكل منهم إسهام يعتد به فى مرحلة الريادة القصصية، يرشح عمل أو أكثر من أعماله للدخول ضمن مجموعة النصوص المعيارية فى مجال إبداعه. سواء أكان هذا المجال فى الأقصوصة أو الرواية أو المسرحية. كما أنها تهتم بجمع أعمال الرواد التى تفرقت فى طبعات كاملة

محققة، سواء ما أصدره منها الكاتب فى كتب أو ما تفرق من إنتاجه فى الصحف والمجلات، وتحقيق طبعاتها وتوفير المادة الأساسية عنها للقراء والباحثين، وإضافة الهوامش التى تيسر غريبها اللغوى أو الحضارى للقارئ المعاصر. ولأن القص كان مفهوما فضفاضا فى مرحلة الريادة القصصية، فإن السلسلة تسعى لإصدار أعمال كتاب الرواية والأقصوصة التى اصطلح على تسميتها بالقصة القصيرة، مؤكدة مرحلة الريادة التى تمتد منذ نهايات القرن الماضى وحتى بلوغ هذه الأشكال السردية الجديدية مرحلة النضج واكتمال الأدوات الفنية. وإنى إذ أشكر للصديق الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة تحمسه للمشروع، وتبنيه له ضمن مشروعات المجلس الأعلى للثقافة، أرجو أن تحظى هذه السلسلة بالاهتمام الذى تستحقه من القراء والباحثين، وأن تساهم فى إحياء ذاكرتنا الأدبية والثقافية.

محمود طاهر لاشين
وميلاد القصة المصرية

يقترن ظهور محمود طاهر لاشين فى حقل الاقصوصة المصرية[١] بعدة ظواهر تكسبه أهمية خاصة، وتجعله نقطة الانطلاق الحقيقية لدراسة هذه الأقصوصة التى عثرت بين رواد القص جميعا على أنضج بلورة مصرية واضحة لملامحها فى كتاباته. صحيح أن محمد تيمور وعيسى عبيد كادا أن يقدما لنا -كل على حدة- عبر كتاباتهم الأقصوصية الإرهاصات الحقيقية لميلاد الملامح القومية لهذا الفن الوليد. إلا أن توزع اهتمام الأول بين المسرح والأقصوصة، ومعاجلة الموت للثانى، وهو لما يكتب لنا -أو لما ينشر- سوى تسع قصص يتسم أكثرها بالطابع الحوارى أو الروائى. يدفعنا إلى اعتبار محمود طاهر لاشين نقطة الانطلاق الفنية فى دراسة هذا الجنس الأدبى. خاصة وقد اقترن ظهوره -كما قلت- بعدة ظواهر تكسبه هذه الأهمية. وأهم هذه الظواهر أنه لم يظهر ككاتب يطرح مشروعا فرديا برغم فرادة إنجازه، ولكن ضمن سياق مدرسة أدبية تعبر عن أحلام جيل كامل من شباب عصره، هو الجيل الطالع من شرنقة ثورة ١٩١٩. وأنه كان أغزر أعضاء هذه المدرسة إنتاجا، وأرهفهم موهبة، وأكثرهم تمكنا - فى المرحلة الباكرة على الأقل - من أدوات الفن القصصى، وأبكرهم فى إصدار أعماله فى كتاب.

فقد كان محمود طاهر لاشين أبرز أعلام مدرسة كاملة أخذت على عاتقها النهوض بهذا الفن الوليد وإقالة عثراته وتسوية الطريق أمامه، ألا وهى تلك المدرسة الأدبية التى سمت نفسها بـ«المدرسة الحديثة». وكان عميدها أحمد خيرى سعيد الذى رأس تحرير مجلتها (الفجر: صحيفة الهدم والبناء). وصدر العدد الأول من هذه المجلة فى ٨ يناير ١٩٢٥، واستمرت فى الصدور

---

(١) أفضل استخدام مصطلح الأقصوصة بدلا من مصطلح القصة القصيرة الشائع، لسببين: أولهما أنه أدق من حيث دلالته علي هذا الجنس الأدبي بلفظة واحدة بدلا من اثنتين، وثانيهما لأنه يتيح لنا بإضافة صفة لها التمييز بين النصوص القصيرة والطويلة ضمن هذا الجنس الأدبي والتي نحتاج أحيانا للتمييز بينها، فنشير إلي الأقصوصة القصيرة بدلا من القصة القصيرة جدا، أو الأقصوصة الطويلة بدلا من القصة القصيرةالطويلة، وثالثها لأنه يتيح لنا اشتقاق صفة منه وهي الأقصوصي تناظر صفة الروائي بالنسبة للرواية، ما أحوجنا إليها في وقت تزداد فيه رهافة الأدوات النقدية، وتبرز فيه أهمية التمييز النقدي بين الفروق السردية الدقيقة عند الحديث مثلا عن الاختلاف بين المشهد الأقصوصي ونظيره الروائي أو المسرحي، أو تناول اللغة أو الشخصية أو أساليب السرد...إلخ.

أسبوعية حتى ٣١ يناير ١٩٢٧، أو هذا بمعنى أدق هو آخر أعدادها المحفوظة بدار الكتب المصرية. وقد استطاعت هذه المجلة بإمكانياتها الضئيلة والأعداد القليلة التى صدرت منها أن تعكس صورة حية لما كانت تجيش به نفوس شباب هذا الجيل من توق عارم إلى بلورة فن وفكر قوميين. فقد نشرت، إلى جانب القصة والقصيدة، ترجمات ودراسات عن العديد من الاتجاهات الفكرية والمذاهب الأدبية. كما قدمت إلى القارئ عددا وفيرا من القصص القصيرة المترجمة، إلى جانب عدد أوفر من كتاب القصة المصرية الشبان. وسوف ندرس الدور التفصيلى لهذه المدرسة، ونتعرف على أهم كتابها وأبنائها بعد قليل. وبعد أن نتعرف أولا على الملامح العامة للحظة التاريخية والثقافية التى ولدت فيها هذه المدرسة، وعلى الظواهر العديدة التى اقترنت بظهورها، والتى قدمت لنا فيها أبرز أبنائها -محمود طاهر لاشين- الذى وفد على حقل الأقصوصة المصرية فى فترة تكسبه أهمية خاصة.

فقد وفد محمود طاهر لاشين إلى حقل الأقصوصة فى فترة هامة وحرجة من تاريخها. فمع مطلع العقد السادس من هذا القرن كانت الأقصوصة المصرية قد أفلحت فى تخطى تلك الحافة المتأرجحة التى وقفت عليها طويلا، التى نحتت أبرز ملامحها من تشتتها بين الشكل الأوربى الوافد مع الترجمات التى غمرت الحقل الأدبى وقتها، وبين التنقيب فى بطون الأدب العربى عن أرض تراثية لهذا الفن الوليد. ولكنها لم تتمكن بعد تجاوز تلك الحافة، من مواصلة خطوات الرحلة. فتعثرت من جديد فى براثن ذلك الفهم التمصيرى المبتسر، والذى حمل محمد لطفى جمعة لواءه فى هذا المجال، معيدا بذلك إنتاج خطوات محمد عثمان جلال المسرحية المشابهة. وتطلب الأمر فترة غير قصيره حتى تمكن محمد تيمور ثم عيسى عبيد -كل على حدة، ودون أن يعرف أى منهما الآخر فيما يبدو- من استيعاب بعض ملامح الشكل الفنى للأقصوصة الأوربية، وأهم من هذا كله استيعاب آليات الحساسية الأدبية الوليدة، والوعى بالحاجة إلى خطاب أدبى جديد يعبر عنها، ويصوغ رؤى جمهور القراء الجديد، ويصب بعض القضايا المصرية الملحة فى هذا القالب السردى الجديد.(١)

غير أن استيعاب كل منهما لأبعاد فن الأقصوصة وجوهره لم يكن فوق الشبهات، ولا موفقا تماما فى عقد مزاوجة حقيقية بين هذا الشكل الفنى الوليد وبين تذبذبات الحس القومى المتبلور عبر

---

(١) راجع تفاصيل المتغيرات الثقافية التي أدت إلي تغير الحساسية، وبزوغ القارئ الجديد، وبلورت رؤيته المغايرة التي انطلق منها الخطاب السردي الجديد في كتابي الذى ستصدر ترجمته العربية قريبا.

القيم التراثية. لذلك لم يخلفا لنا بداية متبلورة للقصة المصرية القصيرة يمكن معها القول بأن على أيديهما -أحدهما أو كليهما- قد ولدت القصة المصرية القصيرة، وإن تركا الإرهاصات الحقيقية الواشية بميلاد هذا الفن، وعن قريب. وأثارا فى أعمالهما الفنية، وفى مقدماتهما النثرية -وخاصة مقدمتى عيسى عبيد لمجموعتيه (إحسان هانم) و(ثريا) -أكثر قضايا هذا الفن أهمية وأشدها تطلبا للعلاج. وفجرا أهم العثرات التى تحول بينه وبين التبلور الواضح، وارتداء الأثواب المصرية الأصيلة. فلم تكد تمر سنوات قلائل حتى أنجز لنا محمود طاهر لاشين تلك البداية المتبلورة، والتى أرهصت بميلادها كتابات محمد تيمور وعيسى عبيد.

هذا من الناحية الفنية، أما من الناحية الحضارية فقد وفد محمود طاهر لاشين على فن الأقصوصة فى فترة حساسة من تاريخ هذا الفن وحرجة. تلك الفترة النابضة بالحركة، الحبلى بالثورة، الممهدة لانطلاقة طلائعها الكبرى فى أوائل مارس عام١٩١٩ . ثم عاش مع يفاعته سنوات الثورة، وشربت من جذوتها روحه. انطلق فى خضمها بكل فورة الأعوام الخمسة والعشرين وكل اندفاعها. فلما انحسرت فورة هذا الانطلاق بانتكاسة الثورة، ومجئ وزارة زيور تحت شعار «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» بدأت ترسبات تلك الانطلاقه الهادرة فى أعماق كاتبنا تعلن عن نفسها، وتطالب بالسفور. خاصة وقد كانت هذه الثورة فى جوهرها شبقا عارما إلى بلورة الشخصية المصرية، واستخلاص وجهها من تحت ركام التبعية والاحتلال والعبودية. تجلى ذلك فى صرختها الكبرى «مصر للمصريين»، وفى موجة الإحياء الفنى للروح المصرية التى انطلقت معها فى كل الميادين: عبرت عن نفسها فى الأدب بإنتاج أنماط السرد القصصى والمسرحى المختلفة، وصاغت أنغامها موسيقى سيد درويش بكل جذورها الشعبية، وجسدتها لوحات محمود سعيد وتماثيل مختار بكل محاولاتها الدائبة للكشف عن الجمال المتخفى فى جسم الفلاحة المصرية أو المرأة الشعبية وفى حركاتها، وإعلاء صوت هذا الجمال المصرى الأصيل(١).

وتجلى ذلك أيضا على الصعيدين السياسى والاقتصادى فى تلك النهضة الممهدة لتباشير الاستقلال السياسى، والتى بلغت أوجها عندما صدر دستور١٩٢٣ . ولظهور طلعت حرب وإرسائه لدعائم الاقتصاد المصرى مع مطلع عام١٩٢٠ ، ثم ربط هذه الدعامات الاقتصادية بخلق القاعدة

---

(١) راجع مقدمة يحيى حقى للطبعة الثانية من (سخرية الناى)، التى صدرت ضمن المكتبة العربية، الدار القومية للنشر ١٩٦٤، ص هـ.

الصناعية، لا لمختلف النشاطات الإنتاجية والاقتصادية فحسب، ولكن أيضا لتلك التى تنتج أكثر الفنون شعبية، وهو فن السينما الذى أسس له «شركة مصر للتمثيل والسينما»، التى عرفت باسم «ستوديو مصر».

فى هذه الفترة عاش محمود طاهر لاشين، وبدأ الكتابة بعد ظهور تباشير الطرح الحقيقى لثورة مصر القديمة التى اندلعت شراراتها فى مارس١٩١٩ على شتى المستويات الفنية –سيد درويش ومحمد ناجى ومحمود سعيد ومحمود مختار ومحمد بيومى ومحمد حسين هيكل– والسياسية– دستور١٩٢٣– والاقتصادية– ميلاد الاقتصاد الوطنى وبداية إنشاء أول مؤسساته الوطنية «بنك مصر» فى ٧ مايو١٩٢٠. فكان عليه أن يضطلع بهذا الدور فى ميدان الأقصوصة بعد ما مهدت له الترجمات الأرض، ثم سوتها تماما كتابات تيمور وعبيد. وخلقت التيارات الفكرية التى سادت تلك المرحلة، والتى عملت على بلورة الحس القومى وإعلاء شأنه، فى أعماق الفنانين تشوقا عارما مبهما إلى فن مصرى أصيل. أو بمعنى آخر: إلى ثورة عارمة فى هذا المجال تتخطى كل هذه الآمال التى أطلت الشخصية المصرية عبرها على استحياء.

ولم تكن كتابة القصة أيامها من الأعمال المشرقة أو المحترمة، فقد استحى هيكل قبل سنوات أن يضع اسمه على (زينب) ووقعها بقلم «مصرى فلاح». وكان الأمر، والحال كذلك، فى حاجة إلى مجموعة من الفدائيين يحاربون لإنقاذ سمعة هذا الفن التى تردت فى شباك الأعمال البوليسية الرخيصة، ويستدعون له الاحترام. وكانت المدرسة الحديثة هى هذه المجموعة، التى اتسمت بالفدائية والاعتزاز بالنفس والإيمان بما يريدون تقديمه للجمهور، والتضحية فى سبيله. استمع إلى يحى حقى –وهو آخر العنقود بين أبناء هذه المدرسة– يروى لنا عن عميدها أحمد خيرى سعيد قصة إنشائها: «فى مساء أحد أيام الخميس فى شهر أبريل سنة ١٩٢٥[(١)] اجتمعنا نحن أعضاء المدرسة

(١) يبدو أن التاريخ المقصود هو عام ١٩٢٤، وليس عام ١٩٢٥، لأنه صحيفة الفجر صدرت لأول مرة فى ١٣ يناير ١٩٢٥، أى قبل هذا التاريخ بشهور أربعة. وقد كرر أستاذنا الراحل يحيى حقى استخدام هذا التاريخ فى كل من (فجر القصة المصرية)، ومقدمته للطبعة الثانية لمجموعة لاشين (سخرية الناى)، والتى تجدها ضمن ملاحق هذا السفر. ويستمر هذا المقتطف نفسه ليؤكد استحالة ذلك التاريخ؛ حيث يروى لنا أحمد خيرى سعيد «ساهم أربعة فقط فى الدفع ثلاثة أشهر فقط، وفشل المشروع لانصرافى عنه بسبب زواجى. ولكن فى أول أغسطس تلقيت ترخيصا بإصدار (الفجر)، فصرت صاحب أول مجلة من نوعها قدر لها أن تلعب دورا صغيرا خطيرا فى النهضة الأدبية والفنية. فقررت أنا محمود طاهر لاشين والدكتور حسين فوزى أن نصدر العدد الأول على أن أتحمل أنا النفقات. واجتمعنا فى دار اللواء المصرى فى مكتبى، وكتبنا العدد كله». إذن فأغسطس المذكور هنا لابد أن يكون أغسطس عام ١٩٢٤ وليس عام ١٩٢٥، وإلا لما صدرت المجلة فى يناير ١٩٢٥.

الحديثة فى منزل محمود طاهر لاشين بحارة حسنى التى تصل شارع المبتديان بشارع الخليج واتفقنا على ما يلى:

أولا، إصدار صحيفة باسم الفجر تكون لسان حالنا. ثانيا، إنشاء مطبعة لطبع الصحيفة ومؤلفاتنا. ثالثا، أن يدفع كل عضو جنيها فى الشهر إلى أن يكتفى المبلغ الذى يفى بثمن المطبعة والحروف ولوازمها وإيجار المكان، ويستمر الدفع حتى السداد.»(١)

وكان محمود طاهر لاشين أكثر أبناء هذه المدرسة موهبة وأرهفهم حسا. ولد على تخوم القرن الماضى، وفى أواخر ذيوله المنحسرة، أو بكلمات أكثر تحديدا فى ٧ يونيو١٨٩٤ فى منزل أسرته بحارة حسنى بالسيدة زينب -سيرد ذكر هذا الحى كثيرا فى أقاصيصه- وعاش طفولة مستقرة نسبيا، لانستطيع أن نتعرف على تفاصيلها الآن. لكننا يمكن أن نقول فقط باستقرارها، وانتمائها إلى الشريحة الوسطى فى المجتمع آنذاك. فقد كان والده حسنى لاشين ضابطا كبيرا بالجيش، وكان مولعا بالكتب والقراءة. لكن أهم ما نعرفه عن السياق الذى نشأ فيه هذا الكاتب الرائد أنه ينحدر من أسرة تعود أصولها إلى منطقة البلقان التى كانت تنحدر منها كثير من الأسر المتمصرة فى هذا الوقت، فقد جاء جده من هذه المنطقة، أو على وجه الدقة مما كان يدعى فى هذا الوقت بالبوشناق -وهم أهل البوسنة التى لم يعرفها القارئ المصرى على نطاق واسع إلا عندما اندلعت حروب التطهير العرقى البغيضة فيها فى تسعينات هذا القرن - أما أمه فإنها هى الأخرى من أصل تركى أو جركسى. «أما هو -الجيل الثالث- فابن بلد مصفى. عجينة من طين مصر وماء نيلها»(٢)

أما السياق الثقافى الذى نشأ فيه محمود طاهر لاشين، فإن ما نعرفه عنه أوفر حظا مما نعرفه عن تفاصيل حياته الأسرية. فقد يسر لنا الدور الرائد الذى لعبه أخوه الذى اختطفه الموت مبكرا، كما اختطف محمد تيمور، شقيق زميله الرائد القصصى الذى رافقه عن بعد فى رحلته وهو محمود تيمور، أن نعرف السياق الثقافى الذى أمضى فيه يفاعته وشبابه الباكر. فقد كان أخو كاتبنا الأكبر محمد عبدالرحيم حسنى لاشين، الذى درس فى أوربا مولعا بالمسرح كمحمد تيمور تماما. أرسلته وزارة المعارف إلى إنجلترا لدراسة التاريخ فولع بالمسرح. وتردد على مسارح درورى لين

(١) راجع يحى حقى (فجر القصة المصرية)، مؤلفات يحى حقى رقم (٢)، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص٧٨. وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الرائد ضمن سلسلة المكتبة الثقافية (العدد السادس) عن دار القلم، ١٩٦٠.

(٢) يحيى حقى، فجر القصة المصرية، ص ٨٤.

وكوفنت جاردن. وشغف بالممثلين الكبار وقتها من أمثال سير هربرت بيربوم، وسير جورج ألكسندر، ومس إلين ترى وغيرهم من كبار ممثلى إنجلترا. وعمل بعد عودته لمصر على رفع المستوى الأدبى للممثلين بإشراك المتعلمين فيه، وكان قبل ذلك وقفا على غيرهم. وحاول أن يرقى بالمسرح المصرى إلى الدرجة التى شاهدها، وأن يرفع المستوى الأدبى للممثلين.

وكانت الوزارة قد عينته مدرسا للترجمة بالمدرسة السعيدية. فجمع حوله فرقة من الشباب الناهض. وكون فرقة «جمعية أنصار التمثيل». وأقنع أحمد حشمت باشا -وزير المعارف آنذاك- بقبول رئاسة شرف الجمعية. فأضفى عليها ذلك قدرا من المشروعية والقبول الاجتماعى. وقدم على المسرح، بعد وقت طويل من التدريب على المقطوعات القصيرة، رواية «الممثل» يوم أول يناير١٩١٥ . «وقام هو بدور البطل فيها. وكان النجاح الذى صادفته الرواية، والإعجاب الذى قوبل به تمثيله. وتفتح أذهان الفئة المتعلمة من الشبان لروعة التمثيل وجلاله، وإقبالهم جماعات على الإقبال فى سلك الجمعية أو تأليف نوادى جديدة للتمثيل. كل هذا دفع إلى التفكير بجد فى أن يخطو الخطوة الثانية الجريئة التى اعتزمها من أول ساعة فكر فيها بالعمل لرفعة شأن التمثيل والنهوض به، وهى أن يحترف صناعة التمثيل. ولولا أن عاجله الموت فى سبتمبر عام١٩١٦ وتبدل اسم «جمعية أنصار التمثيل»، وأصبحت، وهى تضم أعضاءها المتعلمين الهواة، فرقة محترفة يرأسها رجل له من الشغف بالفن الذى تعشقه ما يدفعه أن يستبدل بلقب الأستاذ المدرس، لقب الأستاذ الممثل».(١)

فى هذا الجو الأسرى يمكننا أن نقول إن محمود طاهر لاشين الصبى عاش حياة مستقرة، واصل عبرها دراسته بانتظام فى مدرسة محمد على الابتدائية، ثم فى المدرسة الخديوية الثانوية، حتى تخرج من مدرسة الهندسة -المهندسخانة وقتها- «قسم البلديات» فى عام١٩١٧ . ثم التحق بعد تخرجه بعام، وعلى وجه التحديد فى ٧١يوليو عام١٩١٨ بمصلحة التنظيم بالقاهرة، واستمر بها حتى طلب إحالته إلى المعاش قبل بلوغه الستين بشهور قليلة فى ٣٢ديسمبر عام١٩٥٣ . وكأنه بهذا الطلب قد أراد أن يظل زمام المبادأة بيده، وهو الذى عرف عنه فى أكثر من موقف اعتداده بنفسه، وتمسكه برأيه. ثم توفى بعد شهور قليلة من ذلك التاريخ فى ١٧أبريل ١٩٥٤، فلم يذكره أحد باحتفال أو تأبين بالرغم من نشاط الحياة الثقافية فى مصر فى هذا الوقت واحتفائها بالأدب والكتابة. ومن مصادفات الحياة الأدبية ومنطقها الخفى المراوغ أن لاشين قد غادر دنيانا فى نفس الوقت الذى

---

(١) راجع مقال ذكرى الأستاذ محمد عبدالرحيم، مجلة (الفنون)، عدد ٤، ٥ فى ١ سبتمبر ١٩٢٥، ص٣٠.

ظهرت فيه مجموعة يوسف إدريس الأولى(أرخص ليالى)، كأنما تعطى الحياة للقصة بيد ما تأخذه اليد الأخرى.

ومن هنا نجد أن محمود طاهر لاشين قد عاش في يفاعته وصباه تلك السنوات المستدفئة بحرارة الرومانسية على الصعيدين السياسي والأدبى، ولا أغالى إن قلت والاقتصادى أيضا. فعلى الصعيد السياسى كانت مصر أيامها مازالت متيمة بتنهيدات مصطفى كامل الحارقة على مصر المعبودة، وعشقه الرومانسى لها وكلماته الرقراقة عن التدله فى هوى أرضها وسمائها، وشعاره الخالد الذى يبدو نائيا وسحيقا الآن: لو لم أولد مصريا، لوددت أن أكون مصريا. وكانت غارقة أيضا فى التردى الرومانسى بين أحضان أعدائها إلى الحد الذى عطف فيه قطاع كبير من بنيها على النفوذ التركى والسراى. كذلك كان الحال على الصعيد الأدبى: إغراق زائد فى الأدب الرومانسى سواء على نطاق التأليف أو الترجمة. مع يقين خاطئ بأن الأدب لا يعيش إلا فى مستنقع المحسنات اللفظية والبديعية. ساهم مع الرؤية الرومانسية فى الوقوف بالأدب على هامش الحياه الاجتماعية، دون الالتحام بجوهرها. أما فى المجال الاقتصادى فقد كان المحتوى الرومانسى لفكرة العصامى، والشعارات الكبيرة المصاحبة لصعود البرجوازيات القومية عادة، هى المناخ السائد فى هذا الميدان، حيث ترجمت كتب هذا الفكر، وهى فى الآن نفسه الأرضية التى وقفت عليها شتى النشاطات الأدبية، وحاولت أن تكون انعكاسا لها.

وسط هذا الجو المشبع بالرومانسية عاش محمود طاهر لاشين سنوات دراسته ويفاعة شبابه. واغترف فى سنوات الصبا الباكر من مكتبة شقيقه الكبيرة الذاخرة بأهم الكتب الأدبية، والتى كانت تفتح أبوابها لكل طارق، كما يقول لنا يحى حقى. [1] وربما كانت هذه المكتبة هى التى أتاحت له الاطلاع، منذ وقت مبكر، على عيون الأدب العربى. «فقد هام منذ صغره بالاطلاع على الآداب الأوربية، فقرأ (الإلياذة) وعيون الأدب الإنجليزى والفرنسى والروسى. وإنما أشد تأثره كان فى مبدأ أمره بتشارلز ديكنز ومارك توين. وكان دأبه منذ اشتغل فى التنظيم أن يضع فى جيبه أوراقا منزوعة من مجلة (ستراند) اللندنية، فيقرأ قصصها حتى فى الترام.» [2] وكانت قراءته الواسعة فى الآداب الأوربية، التى استمرت فى التنامى والاتساع على مدى حياته الأدبية، وبلغت مع مرحلة المدرسة الحديثة درجة الهيام بالأدب الروسى، رافداً أساسياً من روافد مشروعه السردى الكبير.

---

(١) راجع مقدمة يحيى حقى للطبعة الثانية من (سخرية الناى)، ص ع.

(٢) يحيى حقى، فجر القصة المصرية، ص٨٤.

أما الرافد الآخر والأهم فهو الرغبة فى التعبير عن الحياة المصرية الحقة، وبلورة خطاب متميز قادر على استيعاب متغيرات رؤيتها وبلورة قضاياها. وقد أشرت فى دراستى الموسعة عن (تكوين الخطاب السردى العربى) إلى التناظر بين رغبة رواد الفن القصصى فى مصر فى مد جذورهم الشخصية فى أغوار التربة المصرية، وبدايات خطاب أدبى وليد يحتاج الى التجذر فى الثقافة ذاتها. فقد أراد محمود طاهر لاشين، وهو ابن الجيل المصرى القح فى أسرة لم تتجذر بعد فى التربة المصرية، أن يكون تجذره فيها قرين تعبيره عن أدق هواجسها وألح قضاياها. فقد أدرك، إبان بداية التحاقه بالعمل، تلك الثورة الواقعية التى تمخضت عن ثورة ١٩١٩، كما رافق هذه المرحلة وقوعه على كنز الأدب الروسى المكتظ بالاتجاهات الواقعية التى دعمت التراث الذى أرساه فى أعماقه ولعه القديم بديكنز. وصقلت تشوقه العارم إلى الالتصاق بقلب البيئة المصرية والغوص داخل أغوارها بحثا عن جوهرها. وقد «أتاحت له طبيعة عمله أن يجوس خلال الأحياء الشعبية ويخالط أولاد البلد وصغار التجار وأصحاب القهاوى، وأن يطلع على أحوالهم ومشاكلهم ونوازعهم ومآتمهم وأفراحهم.»(١)

وقد هام محمود لاشين فى بداية حياته الأدبية بتشيكوف إلى حد كبير، وترك على معظم كتاباته بصماته الواضحة. ليس فقط فى أساليب السرد القصصى، ولكن أيضا فى الرؤية، والموقف الفلسفى من الحياة والإنسان. وقد دفعه هذا الهيام الشديد – ذات مرة – إلى اقتباس واحدة من أقاصيص تشيكوف فى مجموعته الأولى (سخرية الناى) وهى «الانفجار»، هيام نستطيع معه القول بأن محمود طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى هذه الآونة، بولعه الشديد بالفكاهة القائمة على المفارقة، وسخريته الإنسانية من أبطاله مع حبه الغامر لهم، المخطئ منهم والمصيب فى آن. أقول إن محمود طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى هذه الآونة مع الفارق بين مصر فى العشرينات، وروسيا القيصرية فى أواخر القرن الماضى. بين مهنة الطبيب الإنسانية المعطاء التى عاشها تشيكوف بكل ذرات كيانه، وبين مهنة مهندس التنظيم الجافة التى داخ محمود طاهر لاشين فى سراديبها دونما جدوى. ولا أحسبنى مغاليا بقولى إن محمود طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى العشرينات، فقد قام فعلا فى تاريخ الأقصوصة المصرية بنفس الدور الذى قام به تشيكوف فى تاريخ القصة الروسية القصيرة. لقد حررها من الابتذال والسطحية، ومن الوقوف عند المظهر السطحى أو

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

الوعظي للتناقضات البشرية، والذى غرقت فيه أغلب المقامات العربية عند الحريرى والهمذانى وغيرهما. فضلا عن تحريره لغة السرد القصصى إلى حد كبير من الألاعيب اللفظية.

لقد حارب محمود طاهر لاشين ببسالة فى ميدان كان مجرد الانتساب إليه نوعا من العار. والحقيقة أن إلقاء هذا الحكم، وبهذه الصورة المجردة، قد يبدو وكأن فيه قدرا كبيرا من المغالاه والتحيز الانفعالى. وحتى تتضح موضوعية هذا الحكم، تلزمنا دراسة سريعة للمدرسة الحديثة، وتعرف على مكان محمود طاهر لاشين من هذه المدرسة وعلى دوره فيها. ومن الوهلة الأولى سنجد أن هذه المدرسة ليست فى حقيقتها سوى تجمع ثقافى لمجموعة من الشبان فى عشرينات هذا القرن. تجمع حول فهم معين للأدب ولدوره فى المجتمع. غير أن هذا التجمع لم يكن وليد المصادفة المحضة، فلتوقيته ولظروف ميلاده دلالات على درجة كبيرة من الأهمية. ذلك لأنه كان تعبيرا عن ظواهر حضارية متعددة ارتعش بها وجدان مصر فى هذه المرحلة. وجاءت هذه المدرسة لتلبى عدة احتياجات ملحة، تقف فى مقدمتها الرغبة فى سد احتياج جمهور المتلقين الجديد. واحتضان رؤيته للعالم، وتقديمها فى قالب جديد يتواءم مع درجة نضجه الفنى والفكرى، ومع الأرضية الحضارية التى وقف عليها، وولدت فوقها شتى الهموم والمشاكل التى اكتظت بها أقاصيص كتاب هذه المدرسة الحديثة.

واستطاع الخطابٌ السردى الجديد الذى تبلور فى أعمال جل أبناء هذه المدرسة الخروج بهذا الملتقى الجديد من المدار التقليدى الذى أنهك أذهان الأجيال السابقة بأرديته الكثيفة، وغيبياته الأسطورية الكثيرة. وتخليصه من إسار الذهنية القديمة التى اقتصر دور الأدب فى مفهومها على اللعب بالألفاظ ببراعة تبلغ حد البهلوانية. والخروج على تقاليدها البالية ومواضعاتها القديمة لتحتضن الجديد بقوة وبسالة، وتعبر عنه، وتذود عن قضاياه. مقدمة النموذج الجديد للأدب الذى يعثر على وجهه الجمالى عندما يعثر على دوره الاجتماعى، وليس عندما يوفق فى كتابة الجمل التى تقرأ من أولها مثلما تقرأ من آخرها، إلى آخر هذا اللعب الرشيق بالألفاظ الذى كان يضرب المثل فيه بما وصل إليه الحريرى من إنجازات.

فمما لا شك فيه أن تطور الأدب يتحدد بدرجة ما بطبيعة المتلقين لهذا الأدب واحتياجات القارئين له. فقد كان سادة اليونان أيام هوميروس، ومالكى العبيد فيها، يحتاجون فترات استرخائهم الطويلة، وليالى السمر المتمطية فى قصورهم، إلى منشدى الملاحم الشعرية الطويلة التى تستنفد

الليالى المتعاقبة، دون أن ينفد معين أحداثها وشخصياتها من مفاجآت وخوارق. ومن هنا كان ازدهار الملحمة الشعرية فى هذا الوقت، وكان تعبيرها عن رؤية للعالم تتواءم مع طبيعة رؤى جمهورها ومستهلكيها. أما قارئ القرون الوسطى الإقطاعى فقد وجهت طبيعة حياته الهادئة المسترخية الأدب وجهة أخرى. فسادت «الرومانس» الطويلة بكل ما فيها من أحداث أسطورية متعاقبة، ووقائع خارقة قادرة على قتل الليالى الطوال بجوار المدفأة. أما قارئ عصر النهضة الصناعية فقد تاق - بعد سيطرة الاتجاهات التجريبية والعلمية التى أنجبتها النهضة الأوربية ذاتها- إلى رؤية واقعية جديدة ترى الأحداث والشخصيات الروائية بعين لا تهيم بالأساطير أو الخرافات ولا تهضم الأحداث الخارقة. ومن هنا ولدت الرواية الفنية القائمة على الإقناع الفنى. وكذلك الحال بالنسبة للقارئ الحديث الذى عاصر فى أوربا مرحلة الحرب العالمية وعانى من تمزقاتها. وهى المرحلة التى ولدت روايات تيار الوعى ثم الرواية الجديدة تلبية لاحتياجاته وتعبيرا عن قلقه وتوتره.

هذا هو الحال مثلا بالنسبة لعلاقة التناظر بين تحولات الواقع الاجتماعى وتحولات الخطاب السردى. ويمكننا أن نجد نظائر له لو ضربنا بها المثل بالمسرح أو الشعر. وإن خضع هذا التطور لطبيعة الشكل الفنى لكل جنس من الأجناس الأدبية ولإمكانياته. ففى الأقصوصة - وهى مجال دراستنا هنا - سنجد أن أقاصيص إدجار آلان بو، بكل أحداثها الغامضة ومصادفاتها الزاعقة قد ازدهرت وسادت فى مرحلة غير تلك التى سادت فيها أقاصيص تشيكوف وبيرانديللو بواقعيتها الشعرية، وتناولها اللماح لأدق الموضوعات الإنسانية، وأكثرها حساسية. كما عبرت أقاصيص همنجواى المتوترة الألفاظ، الحادة الجمل، البسيطة الأحداث عن مرحلة مغايرة للمرحلتين السابقتين. لذلك علينا أن نبحث عن مبررات ميلاد هذا الاتجاه الجديد فى الأدب المصرى. وعن البناء الحضارى الذى كان هذا الاتجاه الجديد أحد الأصداء الأدبية له. لأنه لو لم تكن ثمة جذور لهذا الاتجاه، لما نما وازدهر بالصورة التى أنجبت، فيما بعد، عددا كبيرا من كتاب الأقصوصة المجيدين. فأغلب الاتجاهات والحركات الأدبية التى تظهر دون أن تعبر عن حاجة حقيقية للمجتمع الإنسانى الذى ظهرت فيه أو تعكس بعض وجوه حركته الماضية أو الآتية، سرعان ما تنطفئ دون أن تخلف غير بعض الآثار الدارسة.

ومن البداية سنجد أن هذا التجمع الثقافى الذى أطلق على نفسه اسم المدرسة الحديثة لم يكن حدثا طارئا أو استثنائيا، ولم يكن تعبيرا عن قلة معزولة، وإنما ضم عددا كبيرا من الكتاب الشبان فى هذا الوقت أبرزهم: أحمد خيرى سعيد وحسن محمود ومحمود طاهر لاشين وحسين فوزى وإبراهيم

المصرى وسعيد عبده وأحمد شوقى حسن وأندريا جبريل ومحمود عزمى وحبيب زحلاوى وفايق رياض ويحى حقى الذى لحق بهم أخيرا. وكذلك التف حولهم عدد من القصاصين والشعراء الذين انصرفوا سريعا عن القصة والشعر مثل: أحمد حلمى سلام وعبدالعزيز الخانجى وفرج جبران ومصطفى فهمى ومحمد أحمد غنيم وأحمد نظمى وغيرهم من الأسماء التى انطفأت سريعا بعد ما نشرت قصة أو قصتين، مثل: نجيب جرجس وحسن عارف ومحمد عبدالقدوس ونورالدين على طراف وأمينة أحمد طه ومحمود عطية يوسف. (١)

كما رافقت هذه الفورة القصصية والأدبية الجامعة حركة فكرية نشيطة سارت بموازاتها تترجم أعمال تشيكوف وموباسان وجورجى وبيرانديللو وتورجنيف. فتترجم عائشة فهمى الخلفاوى أعمال عديدة لتشيكوف، وتكتب دراسات سريعة عن تورجنيف وديستوفسكى. ويكتب زكى الدين السويفى عن مدارس الأدب الروسى الجديد. وينقل عبدالحميد سالم قضايا الفكر الغربى ومفاهيمه ملخصا أعمال برناردشو، ومثيرا العديد من قضايا الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ويقدم محمد على ثروت – العائد لتوه من أمريكا – أعمال ديكنز، ومغامرات أدويسيوس. ويبعث حسن صبحى البرديات المصرية القديمة، وينفض غبار التاريخ والنسيان عما بها من أساطير، ويترجم فى (السياسة اليومية) عددا كبيرا من الأقاصيص الأوربية والأمريكية. كل هذا بالإضافة الى كتابات سلامة موسى وكامل كيلانى، والدراسات الناضجة التى قدمها، أنذاك، حسن محمود وإبراهيم المصرى. صحيح أن هذه الدراسات كانت تتسم بالسرعة دون العمق، وبالتعريف دون التحليل، إلى الحد الذى يجعل تسميتها بالدراسات تسمية مجازية، غير أن هذه دائما هى حال الدراسات النقدية فى مهدها، ولا يمكننا أن ننسى أن أول دراسة نقدية جادة قد قوبلت بضجة واستنكار شديدين، عندما ظهرت على الناس بعد ذلك بسنوات، وأقصد بها كتاب (الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين.

قلت إن ذا التجمع الثقافى قد بدأ أولى خطواته الجديدة فى السنوات القليلة التى سبقت انفجار شرارة الثورة القومية المصرية عام ١٩١٩، أو على وجه التحديد فى عام ١٩١٧، وإن كانوا لم ينجحوا فى إصدار مجلة خاصة بهم إلا بعد ذلك بثمانية أعوام – عندما أصدروا (الفجر – صحيفة الهدم والبناء) عام ١٩٢٥ – وليس غريبا أن تتوافق البداية الجادة لهؤلاء الشبان مع الخطوات الإيجابية فى تناول القضية المصرية التى تراكمت فوقها لسنوات طويلة أتربة الصمت والركود.

---

(١) ظهرت كتابات كل هذه الأسماء في أعداد صحيفة (الفجر) التى لم تعمر طويلا.

فالأرضية التى أشعلت هذه الجذور الوطنية هى نفسها التى أنبتت هذا التيار الأدبى، ليكون فى الحقيقة أحد وجوه هذه الجذوة الوطنية أو أحد تجلياتها وروافدها. وليعبر عن واحدة من عشرات الرغبات التى كان يرتعش بها الوجدان القومى فى هذه المرحلة، والتى استقطبتها رغبة عارمة تتغيا بلورة الشخصية المصرية، وخلق ملامحها المميزة على شتى المستويات. وكانت «المدرسة الحديثة» مسئولة عن القيام بهذا الدور على الصعيد الفنى، أو بمعنى أكثر تحديدا فى مجال الأقصوصة.

ومن هنا تجلت أبرز إنجازات هذه المدرسة فى طبيعة ونوع الأعمال الفنية التى قدمتها، والتى يتركز أغلبها فى ميدان الأقصوصة الطويلة. فعندما وفد أبناء هذه المدرسة على حقل الأقصوصة، كان هذا الفن يشكو من فقدان الملامح، ويتشوف إلى أن تتبلور له شخصيته المميزة. وكان هذا التشوف العارم قد تحددت أهم معالمه عبر إصرار عيسى عبيد، وأخيه شحاته، على إرساء دعائم «القصة المصرية العصرية». فقد كانت هذه العبارة مثبتة دائما تحت عنوان مجموعاتهما القصصية. فحددا -دون أن يدريا- بإصرارهما هذا، أهم ملامح ذلك التشوف العارم، الذى كان ينبض به جسد الأقصوصة فى تلك الفترة. تشوف إلى أن تتحقق لها المصرية والمعاصرة فى آن واحد.

والحقيقة أن هذا التشوف ظل يرود خطوات هذا الجنس الفنى منذ أولى المحاولات البدائية فى حقله حتى اليوم. وظل جنوح هذا الفن إلى مواكبة روح العصر وقضاياه، دون التخلى عن طعمه القومى الخاص، أو بمعنى آخر عن مصريته الصميمة، هو السمة الأساسية التى طبعت بميسمها الواضح هذا الفن. وتركت معالمها على كافة مراحل تطوره. وليس فى استطاعتنا القول بأن المدرسة الحديثة قد حققت للأقصوصة المصرية كل ما كانت تنشده، أو أنجزت لها كل ما كانت تصبو إليه، أو أشبعت تشوفها الظامئ ذلك. لكننا نستطيع القول بأنها قد تمكنت من السير بهذه الأقصوصة خطوة واسعة فى الطريق الصحيح. إلى الحد الذى يجعلنا نوافق أحمد خيرى سعيد على أن أدباء هذه المدرسة قد أضافوا إلى الأدب العربى فن القصة[١] ... كيف؟.

---

(١) أحمد خيرى سعيد فى إهدائه رواية (الدسائس والدماء)، والتى يقول فى إهدائها «إلى أصدقائى أدباء المدرسة الحديثة أهدى هذا العمل الجديد فى القصص التاريخى؛ لأنهم أضافوا إلى الأدب العربى فن القصة، ص١١، والرواية صدرت عن مطبعة الهلال سنة ١٩٣٥.

فى دراسة سابقة تابعت تطور الأقصوصة المصرية والعربية منذ ميلادها حتى وفود هذه المدرسة على حقلها.[١] ولاسبيل إلى تكرار ما توصلت إليه تلك الدراسة السابقة هنا. ولكن المهم هو التعرف على دور هذه المدرسة فى خلق الأقصوصة المصرية والعربية الحقة. ومحاولة الخروج بها من دائرة المقامة والاتجاهات الوعظية، أو من إسار النقل الحرفى لبعض الأقاصيص الأوربية، ثم تطعيمها بالنماذج والشخصيات المصرية والشعبية خاصة، والتحويم بموضوعاتها بالقرب من المشاكل والقضايا المصرية الصرفة، حتى اكتشاف جوهر الأقصوصة شكلا ومضمونا، والعثور على بداية الطريق إلى لغتها الخاصة وأسلوبها المتميز الفريد. بهذه الإضافات سارت المدرسة الحديثة بالأقصوصة المصرية خطوات واسعة فى الطريق الصحيح لتطورها ونموها. ساعدها على ذلك اعتناق أغلب أعضائها لحرية الفكر، فقد كانت «المقدسات لاترهبهم، وأحيانا لاتقنعهم، وكانوا أيضا من المغرمين بالأدب الروسى، وهو يعج بالمشكلات الروحية، ومع ذلك فقد اقتصر اهتمامهم على الهموم المعاشية الأرضية. وتصوير العلاقات الاجتماعية بين الناس. أو وصف أنماط شاذة مضحكة من البشر. فلاتجد فى إنتاجهم آثار القلق إزاء لغز الوجود، وقدر الإنسان، والصراع بين الخير والشر وحاجة النفس إلى الوصول للطهر فى محراب الجمال».[٢] فهذه مشاكل مترفة لم تفد على حياتنا الأدبية إلا مع الأعمال القصصية الجيدة لمحمود البدوى فى الأربعينات، ولم تلح عليها إلا مع الأعمال الروائية المتأخرة نسبيا لنجيب محفوظ. ربما لتأخر وفود التيارات العلمية والفلسفات الشكية على حياتنا لفترات طوال. وربما لسطوة المشاكل الاجتماعية وإلحاحها، وربما لطبيعة ذلك الاستقرار الراسخ الذى توارثناه على مر القرون، والذى يستبشع التفكير فى هذه القضايا، ويضع أصحابها فى مصاف الملاحدة والزنادقة مذ قرّ فى نفس المصرى القديم مفهوم متكامل عن الموت وحياة ما بعد الموت حتى اليوم.

لذلك انصرفت المدرسة الحديثة برغم انطلاق أغلب كتابها أصلا من الأدب الروسى المترع بالصبوات الروحية والاستقصاءات الفلسفية، إلى قطاعات حياتنا الاجتماعية تحاول أن تقدم مسحا فنيا واجتماعيا لها. حتى تتمكن من إدخال أغلب قضايا الواقع المصرى آنذاك أو مشاكله فى قلب الأقصوصة، وترسى دعائم هذا الشكل الفنى الوليد، وتكون أرضا خصبة له، وتحنو على البذور

---

(١) راجع كتابنا.

(٢) من مقدمة يحيى حقى للطبعة الثانية من (سخرية الناى)، ص جـ.

والمحاولات الجنينية فيه. بل لقد تمكنت من ترك بعض الأعمال الجيدة التى أرسلت إشعاعاتها الهادية لفترات طويلة مثل «حديث القرية» لمحمود طاهر لاشين، وبعض أقاصيص أحمد خيرى سعيد مثل «أم شحاته» و«من الكوخ إلى القصر» و«اللغز» و«الجريمة الأخيرة» و«التأثر»(١) وغيرها من النماذج الفنية التى ظلت مثلا يحتذى لفترات طويلة. غير أننا نستطيع أن نؤكد أن مثل هذه الأعمال الفنية ما كان باستطاعتها أن تتحقق إلا من خلال تضافر المجهود الجماعى لأبناء هذه المدرسة الحديثة، ولمن مارسوا كتابة الأقصوصة معهم فى هذه الفترة، وخاصة محمود تيمور الذى كان يوقع أقاصيصه فى هذه المرحلة بإمضاء «موباسان المصرى».

غير أن هذه الإضافات المتعددة لاتبدو واضحة فى أعمال أى من أبناء هذه المدرسة، بقدر ما تبدو فى أعمال محمود طاهر لاشين. ليس فقط لأنه أنضج أبناء هذه المدرسة فنيا وأغزرهم إنتاجاً خلال سنوات ازدهار هذه المدرسة فى العشرينيات. ولكن أيضا لأننا نستطيع أن نعثر لديه على أعمق تناول لأهم قضايا الأقصوصة، ولكافة إضافاتها الفنية فى تلك الفترة الباكرة من تاريخها. بدرجة لانجدها فى أعمال أى من زملائه فى هذه المدرسة. خاصة وأن عددا كبيرا منهم لم يواصل الكتابة أيامها بنفس إصرار محمود طاهر لاشين ولاغزارة إنتاجه مثل حسين فوزى وأندريا الجميل وحسن محمود، كما عاجل الموت بعض معاصريه الآخرين كشحاته عبيد. ومن هنا علينا أن ندرس أعمال هذا الكاتب بصورة تفصيلية باعتباره أهم أبناء هذه المدرسة وأغزر رواد الأقصوصة المصرية الأوائل إنتاجا.

وقد نشر محمود طاهر لاشين أغلب الأقاصيص التى ضمتها مجموعاته الثلاث (سخرية الناى)١٩٢٦ و(يحكى أن) ١٩٢٩/ ١٩٣٠ و(النقاب الطائر) ١٩٤٠ وبعض الأقاصيص الأخرى التى لم ينشرها فى أى من هذه المجموعات الثلاث. فى عدة صحف ومجلات أهمها (كوكب الشرق) و(الشباب) و(السفور) و(الفجر) و(الهلال) و(الفنون) و(الجديد) و(الاثنين والدنيا) و(الحديث) وغيرها فى السنوات العشرين الواقعة بين ١٩٢٤و١٩٤٥ . غير أننا لن نحاول هنا أن نتتبع تواريخ نشر هذه القصص بتلك الصورة التى تتكرر دائما فى الدراسات المدرسية، والتى غالبا ما تكون بلا

---

(١) نشرت كل هذه الأقاصيص فى (الفجر) فى أعدادها ١٩٢٥/٤/١٧، ١٩٢٥/٥/٨، ١٩٢٥/١٠/٤، ١٩٢٥/١٢/٢٨، حسب الترتيب.

دلالة، ولن نقف عند القصص التى لم تظهر فى أى من المجموعات الثلاث مثل (قصة زواجه بسعاد)[١] و(الأستاذ)[٢] و(مكتب عبداللطيف القطب)[٣] و(قصة غير كاملة)[٤] وإن كنت سأعرج على القصة الأخيرة للحديث عما اعتراها عندما أعاد الكاتب كتابتها، فكشفت لنا هذه العملية عن تطور وعيه ببنية النص القصصى، وبألفة القارئ ببعض مواضعاته التى لم يكن باستطاعته فى البداية افتراض وعيه بها. فكثير من هذه القصص الباكرة، والتى أغفلها الكاتب من مجموعاته، لم تكن أكثر من مجرد صور وصفية ساخرة تبتعد كثيرا عن البناء المتكامل للأقصوصة الفنية. ولن نتتبع التغيرات التى أجراها فى بعض القصص مثل قصة (الجنية البيضاء) وهى، كما يثبت تحت عنوانها –قصة العجوز المتصابية زهرة مع زوجها المحتال وما جرى لها بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال– ألا تداعب شفتى القارئ ابتسامة ساخرة بمجرد قراءته لهذا العنوان؟[٥] والتى نشرت بعد تعديلها فى مجموعة (يحكى أن) بعنوان «الكهلة المزهوة»، وإن كنت آمل أن تتاح الفرصة أمام غيرى من الباحثين للبحث فى هذه التعديلات، لأن البحث فيها يكشف عن طبيعة التغيرات التى اعترت فهم الكاتب لمواضعات القص، وما ترسخ منها لدى القارئ وما يزال يحتاج إلى الإلحاح عليه حتى يدخل ضمن مصادرات الكاتب والقارئ على السواء..

فالمهم هنا هو دراسة الدور الذى قام به محمود طاهر لاشين فى تاريخ الأقصوصة المصرية، والتعرف على مساهماته الخلاقة فى بلورتها وإنضاجها وإخراج نمطها الفنى إلى حيز الوجود، ودراسة مدى التصاق هذه الأقاصيص بالأرض الحضارية التى ولدت عليها ومدى تعبيرها عن هموم المرحلة التاريخية التى صدرت عنها. ولن يتم التعرف على هذه الجزئيات من خلال التتبع الدقيق لموضوع القصة فقط، ولكن سيأخذ فى الاعتبار أيضا مدى فنية تعبيرها، ومدى قدرتها على الوصول بإقناع مبرر إلى هدفها، ذلك لأن درجة النضج الفنى للأقصوصة لاتشف عن مهارة

---

(١) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩٢٥/١/٢٠.

(٢)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩٢٥/٣/٦.

(٣)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩٢٥/٤/١٠.

(٤) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩٢٥/١٢/١٣.

(٥) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩٢٥/٧/١٩.

الكاتب فحسب، ولكنها تقدم لنا مدى هضمه لموضوعه، وتمثله لجزئياته. وتعكس أيضا الكثير من طبيعة فهمه لهذا الفن، وللمناخ الثقافى والفكرى الذى مارس خلاله الإبداع القصصى.

من البداية نحس بأن ثمة وعيا ضمنيا ينطلق منه محمود طاهر لاشين عند كتابة الأقصوصة، وهو أن فى ممارستها فى هذا الوقت نوعا من التحدى لكثير من القيم والمواضعات الفكرية السائدة. وأن القارئ لم يتعود على مواضعاتها الفنية، ولذلك على الكاتب أن يوفر هذه المواضعات له، وأن يقيم عبر المقدمات الطويلة غير المحذوفة جسرا بين القارئ والنص القصصى. صحيح أن فى منطقة الوعى من تفكيره اقتناعا جارفا بأهمية هذا العمل الفنى ونبالته. إلا أنه خلف هذه القشرة الواعية الخفيفة يطل على استحياء إحساسه بالتردد إزاء موقفه من هذا الفن، وتأثر برؤية الناس لكاتبيه، وفكرتهم عنهم. ويشى هذا الإحساس بنفسه عبر بناء الأقصوصة الفنى عنده، فأغلب أقاصيصه، وكل الأقاصيص الأولى بوجه خاص تبدأ بتقديم جزئية طريفة تمهد لرواية الأقصوصة، وتحبب إلى القارئ متابعتها. وكأنى به يستشعر احتياجا حقيقيا إلى تبرير كتابته للأقصوصة من البداية. وإلى تهيئة الجو الممهد لسرد أحداثها. هذا فضلا عن لجوئه إلى مخاطبة القارئ ومناقشته –وسط أحداث الأقصوصة– بشكل مباشر فى بعض جزئياتها، مثلما نجد فى «سخرية الناى»، و«قصة عفريت».

لكن هذا المنهج التبريرى قد أخذ –لا أقول فى التلاشى، ولكن يمكننا القول– فى النضج على طول رحلته القصصية. فبعد أن كان الحدث الممهد للأقصوصة نوعا من الطرائف الاجتماعية التى تستجلب الحكايات، أصبح مقدمة تمهيدية تدخل أحيانا فى صلب البنية السردية للأقصوصة ولحبكتها. وبعد أن كان هذا المنطلق التبريرى يستغرق جزءا كبيرا من اهتمام الكاتب والقارئ على السواء، إلى الحد الذى يؤدى إلى تنوع المحاور فى الأقصوصة الواحدة، وهو شىء مستساغ فى الرواية، وإن كان ممجوجا فى الأقصوصة وموهنا لها. كما نجد فى مجموعتى (سخرية الناى) و(يحكى أن)، وخاصة فى أقاصيص «منزل للإيجار» و«مفيستوفوليس» و«يحكى أن» و«قصة عفريت» و«منطقة الصمت»؛ حيث يصبح هذا المنطلق فى الأولى تزيدا لامبرر له، وإطنابا يتشعب بالقصة فى مسارب لاتعود على بنائها بغير الضعف والتفكك. ويتحول فى الثانية إلى عبء ثقيل عليها موهن لها، ينال من فنيتها ويقلل من تأثيرها الانفعالى بهذا التمهيد الذى يعقلن الكثير من أحداثها بربوضه الدائم فى خلفيتها، واشيا بتسلسل الأحداث، كاشفا لتتابعها. بينما يتحول فى الثالثة إلى تبرير وعظى، أو خلاصة فى صورة حكمة مبتسرة، وكأنى به يريد أن يقول: سأحكى لكم تلك

القصة مصداقا لهذه الموعظة الحيوانية الساخرة، أما فى القصة الرابعة فإنه يضطر، تبريرا لهذه القصة الغريبة، إلى تقديم هذه المقدمة الخطابية التى ما أقنعته ولا أقنعت القارئ برغم خفة ظلها ودماثتها. وفى الأخيرة نرى أن لجوءه إلى إدراة القصة -وهى مقتبسة- خلال هذا الجو المشبع بالضحكات وكؤوس الخمر يجرح شفافيتها وشجنها، ويساهم فى تمييع الكثير من أجزائها خلال تلك التعليقات الثملة التى كانت تنطلق كثيرا أثناء روايتها.

بعد أن كانت هذه هى تلك المنطلقات التبريرية فى المجموعتين الأوليين، أخذت فى مجموعته الثالثة (النقاب الطائر) فى التقلص حتى أصبحت المقدمات فى هذه المجموعة كلها برغم زيادتها، ممهدة لموضوع القصة أو لمضمونها، وكأنها اللحن الافتتاحى أو المقدمة فى الأعمال الموسيقية الكبيرة. ففى «النقاب الطائر» نفسها لاتجد سوى حادثة صغيرة يتذرع بها الكاتب لاسترجاع تفاصيل هذه القصة. وفى «الحب يلهو» يعمد إلى منطلق تبريرى من نوع جديد عندما يزعم بأن القصة برمتها ليست سوى رسالة عثر عليها بين خطاباته من أحد الأصدقاء، ويستميحنا العذر فى عدم ذكر اسمه. أما «تحت عجلة الحياة» فإن مقدمتها التى طالت كثيرا، استطاعت أن تمهد بإسرافها فى الحديث عن تصاريف القدر، لأحداث هذه القصة الميلودرامية وجوّها المشبع بالأسى. أما القصة الأخيرة فى هذه المجموعة وهى «أحرج ساعة فى حياتى المدرسية» فإنها تكاد أن تكون القصة الوحيدة الخالية من أية مقدمات تبريرية، وإن كانت من البداية تخرج من دائرة القصة بمفهومها الفنى، إلا أننا نحس بأن الكاتب قد فطن عبرها إلى ضرورة حذف المقدمة التمهيدية للقصة، والتى تبدو هنا وكأنها مستترة، وتقديرها أن هذه ليست سوى لوحة كاريكاتورية أطلت على فجأة من أعماق الذكريات.

لقد ترك ميل محمود طاهر لاشين إلى البحث عن مقدمة تمهيدية أو منطلق تبريرى للأقصوصة -وهو ميل يحمل بصمات المرحلة التاريخية التى صدر فيها، وينطوى على وعى مضمر بأهمية تعويد القارئ على مواضعات هذا الفن الوليد- آثاره ليس فقط على شكل الأقصوصة عنده، ولكن أيضا على موضوعها. فنزوع الكاتب إلى التمهيد لبعض أقاصيصه، سواء أكان هذا التمهيد مستترا أو سافرا، مندمجا فى البناء الفنى أو ناشزا عنه، يخلق فجأة محوراً إضافيا للقصة من ناحية، ويساهم فى عقلنة أو هندسة بعض أحداثها من ناحية أخرى. وهما شيئان ممجوجان من الناحية الفنية، خاصة وأنه يميل فى أغلب أقاصيصه إلى رواية القصة على لسان شخص يتحدث إلى آخر -مثل «النقاب الطائر» و«قصة عفريت» -أو يكتب إليه- مثل «الحب يلهو»- أو يروى عنه-

مثل «لون الخجل» و«الشيخ محمد اليماني» و«الشبح الماثل في المرآة» وعدد كبير آخر من الأقاصيص. أو يتصفح مذكراته– مثل «مذكرات سيدنا نوح».

وهذا الأسلوب في البناء الأقصوصي يفرض على الأقاصيص أن تكون في أغلبها أقاصيص أحداث لا شخصيات. لأن التمهيد يميل عادة إلى استدعاء حادثة متميزة عن مجريات الأمور المألوفة، وحافلة بالعبر والعظات. وإلا لما كانت ثمة ضرورة لها. وهذه واحدة من آثار هذه المنطلقات التبريرية على عالمه القصصي، يتبدى عبرها نوع من الإغراق النسبي في الميلودرامية، والأحداث اللامألوفة الزاعقة الدلالات. ويساهم في إبراز هذه السمة وتضخيمها ميل كاتبنا –خضوعا منه للذهنية في هذه الفترة– إلى الخروج بعظة أو حكمة واضحة يساهم السرد القصصي في بلورتها والتأكيد عليها. وكأن الكاتب كان يشعر بضرورة أن تبرر القصة نفسها للقارئ من خلال الاستجابة لتوقعاته التقليدية من النص الأدبي. كما أن أسر الحدث أو القصة جميعها داخل إطار الرؤية المحدودة الخاصة لمن يسردها عبر المنطلق التمهيدي. وعدم تقديم الأحداث وحدها، في استقلاليتها وحيدتها البادية، يساهم في تعميق ميلودراميتها من جهة، ويؤدي إلى تسطيحها وإهمال الكثير من أبعادها من جهة ثانية. وخاصة الأبعاد النفسية التي تلمس غيابها الواضح من أفق معظم الأقاصيص.

غير أن استسلامنا لإغراءات مثال هذا الأسلوب الفني الذي يعتمد على مقدمات طويلة تمهد للقصة، وتوطئ عالمها للقارئ، قد يبتعد بنا عن الموضوعية قليلا، وقد ينسينا أننا نتعامل مع أعمال رائد يرسي مواضعات جنس أدبي جديد، ويحرص على تدريب القارئ على مصادراته. ولم يكن باستطاعة كتاب هذه المرحلة الرائدة افتراض أن القارئ يعرف أن الأقصوصة الجيدة، هي تلك التي «لها مقدمة طويلة محذوفة»، كما قال يحي حقي، بل لقد كانت هذه الحقيقة الفنية خافية على عدد كبير من الكتاب أنفسهم. ولذلك فإنه لمن الظلم لهم مناقشة هذه المثالب عبر حدقتي القارئ المعاصر الذي شهد تبلور الأقصوصة ونموها الكبير، خلال العقود العديدة التي مضت على الفترة التي كان محمود طاهر لاشين يمارس الكتابة فيها. ومن الإجحاف بحقهم ألا نأخذ طبيعة المناخ الثقافي الذي صدر فيه هذه الأقاصيص في الاعتبار، والذي ما كان يرى أي غبار على انتهاج هذا الأسلوب. اللهم إلا إذا أدى الإسراف فيه إلى تعدد المحاور في الأقصوصة، وتشتيت وحدة الأثر فيها، وهذا لم يحدث إلا في عدد محدود من أقاصيص كاتبنا.

ولكن علينا قبل مبارحة هذه الجزئية ألا نغمطها دورها الإيجابى فى اكتساب عدد كبير من القراء الجادين لميدان الأقصوصة، وفى تعويدهم على مصادراتها الأساسية، وتخليق قواعد الإحالة الواقعية فى الخطاب السردى وترسيخ مواضعاتها، وفى مساهمة فى تهشيم الحواجز الصلبة بين هذا الفن الذى خرج حديثا على أصول المقامات العربية أسلوبا ومضموناً وبين القارئ المتمسك بالذهنية التقليدية. ولانهضمها حقها فى تطويع هذا الفن الوافد -لاحظ أن ثقافة المدرسة الحديثة كانت أوربية فى أغلبها (١)- لطبيعة واقعنا المصرى دون إحداث قطيعة صارمة مع تقاليده وتراثه. ودون تعال على الذهنية المصرية التى تميل إلى البناء السببى للحكاية حتى تستطيع أن تتجاوب معها. خاصة وأننا قد لاحظنا أن محمود طاهر لاشين كان حريصا على تخليص قصصه تدريجيا من هذه التزيدات، والعمل على الاقتراب بها كثيرا من مواقع الفن الصحيح الكامن فى الوعى بأهمية تساوق البناء وتماسكه، والاقتصاد فى التعبير وسهولته. وحتى نرى كيف حقق محمود طاهر لاشين هذه الغاية، أو نتعرف على حقيقة الخطوات التى قطعها فى طريقها. علينا أن نتلمس أبعاد عالمه الأقصوصى، وأن نتعرف على بقية الملامح الفنية للأقصوصة عنده.

وأهم هذه الملامح أن فى أسلوب السرد القصصى عند محمود طاهر لاشين درجة من التوتر الناجم عن وقع النص على الوتر المشدود بين عالمين لغويين وأدبيين معا. ولذلك فإنه «ينجح فى التملص من النثر الموروث، من عهد ابن المقفع والجاحظ إلى توفيق البكرى، ولكنه يحقق فى الإفلات من أسلوب المويلحى والمنفلوطى».(٢) وعلى مستوى آخر نعثر فى أسلوب القص على ظلال كثيفة من أسلوب (كليلة ودمنة) ليس فقط فى محاولة ربط الأقصوصة الواقعية برداء من الحكمة المدثرة بأسلوب رمزى يتخفى وراء قصص الحيوانات، كما فى «يحكى أن»، ولكن أيضا فى طريقة سرد الحكاية التى تبدأ من الماضى دائما، وكأنه يسرد لنا حكاية من الذاكرة، ليس كما فعل مارسيل بروست فى سرد الزمن المستعاد، أو كتاب تيار الوعى فى التوغل فى أغوار الذاكرة، ولكن كما يحدث فى حكايات (كليلة ودمنة).

---

(١) يقول حسين فوزى عن المدرسة الحديثة «كنا أبناء جى دى موباسان وبلزاك وديستويفسكى وتورجينف وتشيكوف وتولستوى، ربما حقت علينا كلمات واحد من الروس العظماء وأظنه ديستويفسكي حينما قال كلنا خرجنا من معطف جوجول، هذه حقيقة أحب أن أذكرها، لم نخرج من ثوب (زينب) ولا من (حديث عيسى بن هشام)، إنما من ترجمات محمد السباعى والمنفلوطى وأحمد حسن الزيات وأنطون الجميل والمازنى. ومن الأصول التى ترجم عنها أولئك وغيرها، راجع الأهرام فى ١٩٦٥/٤/٣٠ .

(٢) من مقدمة يحى حقى للطبعة الثانية من (سخرية الناى)، ص١ .

وهى حكايات تروى وكأنها حدثت «فى سالف الأزمان». وتتخللها كثيرا -ربما بسبب ظاهرة البحث عن التبريرات السابقة- أنواع من الذكريات المشتركة، والمحاورات المفترضة، كما يحدث فى المراسلات: محاورات مفترضة بين الكاتب والقارئ، وبينه وبين شخصيات الأقصوصة نفسها. ويتجلى هذا الأسلوب بوضوح فى عدد من أقاصيصه وخاصة فى «لون الخجل» و«ولكنها الحياة» و«ميفيستوفوليس» وغيرها. فى هذه الأقاصيص نحس بأصداء محاورات مفترضة بين الكاتب والقارئ وبينه وشخصياته. صحيح أن الأقصوصة فى حقيقتها صورة من صور الحوار الدائم بين الكاتب وقارئه منذ فجر ظهورها. غير أن محاورات محمود طاهر لاشين تلك لها طابع خاص؛ لأنها نوع من الحديث الأخوى المباشر بين الكاتب الودود والقارئ الصديق. حديث ملئ بالسخرية، والذكريات، والآراء المتناغمة، والدردشة الأخوية، وغيرها من استطرادات الحديث العادية.

وهذه الظاهرة تسلمنا إلى ظاهرة أخرى فى أعماله الفنية، تبدو للوهلة الأولى وكأنها متناقضة معها، ولكنها فى الواقع مكملة لها، هى الانفصال عن عالمه. ليس هذا الانفصال الذى يظهر من خلال تركه الأحداث تمضى على هواها، وتتطور بعفوية حركيتها بعيدا عن توجيهه القسرى لها. كما أنه ليس الانفصال الناتج عن تراخى قبضة الكاتب عليها بسبب الشك أو الحيرة، لأن هذا لم يحدث إلا بعد أجيال من ممارسة الأقصوصة، والدخول بها فى متاهات الواقع الملتبس. ولكنه الانفصال الذى يذكرنا بنماذج الأدب الواقعى الباكرة، وخاصة بأعمال ستندال العظيمة فى حيدته التى يعرب عنها دائما، ويبقيها على سطح العمل دون أن يجعلها إحدى مصادراته المضمرة. فمحمود طاهر لاشين يسر أكثر من مرة فى آذان القارئ أنه لايتحيز لأحد من شخصياته، ولايؤثر أحدا على الآخر، بل يعامل جميع الشخصيات بمساواة تامة. ويفعل هذا كثيرا، وكأنه يغمر القارئ الذى كسب وده، بفضله، ويؤثره بحديثه الأخوى معه. ويؤكد لنا ألا دخل له -الكاتب- بشيء مما يحدث، وأنه لا يتحيز لأحد. كل ما يهمه هو أن ينقل للقارئ الصديق كل شيء كما رآه أو كما سمع به.

ولابد من الوعى بدوافع هذه الأداة الفنية التى تسعى لإضفاء قدر من الموضوعية على الخطاب السردى وإكسابه شيئا من المصداقية من ناحية، وإلى تأسيس مسافة بين الكاتب وعالمه الأقصوصى. وكلا الدورين مهم فى هذه المرحلة الباكرة من بلورة مصادرات الخطاب السردى الجديد، وتكريس علاقته الحميمة مع الواقع الذى يصدر عنه، ويسعى إلى الفاعلية فيه. فمحمود طاهر لاشين يعتمد على تلك المشاعر الودية، التى يخلقها بينه وبين قارئه، فى تأسيس قواعد العلاقة

بين القارئ والنص، وفى تدريب القارئ على آليات تلقى النصوص السردية. وتتيح لها علمية توطيد هذه العلاقة أن يسرف أحيانا فى تقصى أبعاد الحدث. والاستسلام لاستطراداته، والتنقل داخل مساره بحرية متناهية. فالعلاقة التى كونها من البداية بينه وبين قارئه تسمح بذلك. هى علاقة «هليهلى» لاتعترف بالحدود الصارمة، ولابالمقاييس الجامدة، ولكنها تتخطاها ليسير كل شيء خلالها «بالبركة».

وهو يحاول أن يعقد هذه الرابطة بينه وبين القارئ منذ اللحظة الأولى. لايخفى القصة التى يعنون بها مجموعته فى طيات المجموعة، ولكنه يبدأ بها مباشرة. وهى دائما قصة من نوع خاص. بدايتها مليئة بالتحرز، ومحاولة اكتساب رضا القارئ. تحرز الذى يريد ألا يخسر صديقه أو يجرحه، أو يصطدم بمعتقداته وموروثاته. لذلك يتبع فيها غالبا الأساليب الوعظية التى تربت على كتف القارئ بدرية وهدوء. ولكنه ما يلبث، بعد أن يكسب رضا قارئه، أن ينطلق فى «سبهللة» الصداقة إلى أقصى الحدود. يخوض معه التجارب بجسارة، ويتخلى عن تحرزه، فقد كسبه فى جانبه، ثم يصحبه فى رحلة حافلة بالتجارب المتعددة. يتملص معه «من آداب المقالة أو المقامة سواء فى صورتها الموروثة عن بديع الزمان والحريرى، أو فى صورتها المستحدثة عند المويلحى فى (حديث عيسى بن هشام) إلى فن القصة القصيرة»[1]. ومحاولا أن يرسى دعائمه وأن يشيد بنايته برغم رخاوة الأرض التراثية التى بُنى فوقها، أو قل بانعدامها. وهو يعرف تماما أنه لم يبلغ غرضه بعد. فنجده لايهتم كثيرا بنعت ما يكتبه بالأقصوصة، يطلق عليه «المقال» مرة –فى «الشيخ محمد اليامانى» مثلا– ويسميه «قصة» مرة أخرى –فى «الكهلة المزهوة»– ولايهتم بالتسمية. بالرغم من مواتاة الفرصة له مرارا، وهو لايطلق هذه التسميات فى أحاديثه الصحفية عن أعماله –فلم يكن للأدب وقتها هذه المنزلة التى تملأ أعمدة الصحف بثرثرة الأدباء– ولكن فى صلب هذه الأعمال نفسها. ألم أقل لك إن أعماله مليئة بالمحاورات المستترة والسافرة.

ولايكتفى محمود طاهر لاشين بخوض مغامرة الأقصوصة فى نفس الطريق الذى سار فيه أسلافه المحدثون من مصطفى عبدالرازق ومنصور فهمى ولبيبة هاشم ومصطفى لطفى المنفلوطى. بل نحا بها منحى واقعيا فريدا، برغم ميله الدائم إلى الفوتوغرافية، وهى دون الواقعية بلاشك. وعدم قدرته على التخلص فى التعبير من «نغمة الحزن والبكاء الغالبة فى إنتاج مصطفى لطفى

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٠.

المنفلوطي في (العبرات) و(النظرات). فقد كان من العسير عليه التملص من هذه النزعة الرومانسية الحزينة؛ لأنها داخلة في مزاج الشرقي، ولأنها كانت طريقا سهلا معبدا أمام الكاتب. فراح يشقه من قبل أن يصل إلى التعبير الملائم للمضمون الواقعي».[1]

برغم كل هذا، وبرغم عدم توفيقه في الإفلات من إسار الأسلوب التهويمي والأحكام العامة والمطلقة، تمكن محمود طاهر لاشين من الخروج بالأقصوصة من إسار الفهم الرومانسي المثقل بالتعميمات والانفجارات الانفعالية اللاذعة، ليلحق بها بالقرب من الأسلوب الواقعي الذي حاول من خلال الجزئيات الحسية، والأحداث والتركيز على ذاتية الإنسان وتفرده، أن يصل إلى غرضه، وأن يقدم عملا فنيا مقنعا وجديرا بالحياة. وحتى نتعرف على القضايا والمشكلات التي ألح عليها محمود طاهر لاشين وخاض كل هذه المغامرات ليقدمها لنا، علينا أن ننتقل إلى دراسة عالمه الأقصوصي كما يتبدى من خلال الأقاصيص العديدة التي تركها لنا في مجموعاته القصصية الثلاث، أو التي نشرها، ولم يجمعها في أي من مجموعاته المنشورة.

وعند محاولة التعرف على الشرائح الاجتماعية التي قدمها محمود طاهر لاشين وعالج حياتها، وعلى القضايا والمشكلات التي ألح عليها وأبرزها في أقاصيصه، سنجد أن عالمه يطرح علينا ضرورة التعامل مع هذه الشرائح والنماذج الاجتماعية باعتبارها أداة لبلورة عالم اجتماعي عام، أكثر منها أداة طرح نماذج بشرية متفردة. خاصة وأن أغلب أقاصيصه -كما ذكرت- أقاصيص أحداث وليست أقاصيص شخصيات، كما هو الحال عند زميله في المدرسة الحديثة، وصديقه حسين فوزي؛ لأن أقاصيص حسين فوزي التي كتبها في هذه الفترة، على العكس من أقاصيص صديقه لاشين، تميل في أغلبها إلى الاتجاه التحليلي -لا التصويري الذي يميل إليه محمود طاهر لاشين- وإلى التركيز على الشخصيات، ومحاولة نبش أعماقها مثلما فعل في «حكاية قديمة»[2] و«قصة مريضة»[3] و«الشيخ عودة»[4]، و«الجمادات أو قصة حجرة»[5] و«نوستالجيا»[6]،

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) نشرت في (الفجر) في عددها الصادر في ٣/٢/١٩٢٥.

(٣) نشرت في (الفجر) في عددها الصادر في ٢٤/٢/١٩٢٥

(٤) نشرت في (الفجر) في عددها الصادر في ٢٠/٣/١٩٢٥.

(٥) نشرت في (الفجر) في عددها الصادر في ٢٤/٤/١٩٢٥.

(٦) نشرت في (الفجر) في عددها الصادر في ١١/١٠/١٩٢٥.

وفى الصورة الوصفية أيضا مثل «سانكو»(١) و«عبدالله أفندى»(٢) و«صورة اجتماعية»(٣).

أما محمود طاهر لاشين فقد حاول أن تقوم أقاصيصه بدور اجتماعي رائد فى مجال إصلاح عيوبنا ومعالجة نقائصنا الاجتماعية. لذلك فإننا عند محاولة التعرف على طبيعة الشرائح الاجتماعية التى استأثرت باهتمامه فى أقاصيصه، سنجد بداءة أنه قد ملأ هوامش عالمه بباعة الصحف، وماسحى الأحذية، والجالسين على المقاهى، وخدم المنازل، والخطابات، والبلانات، والقوادات، وبائعي اليانصيب وبائعاته، والفلاحين، والبوابين، والكمسارية، والدراويش، والسعاة، ورواد الحانات وجرسوناتها، والقوادين والحلاقين، والبغايا، وغيرهم. نعثر على كل هؤلاء مرسومين بذكاء وعناية وخطوط تلخيصية بارعة، ناضجة بكل ملامحهم، برغم هامشية أدوارهم فى هذا العالم. وبرغم رنة التعالى التى نحسها أحيانا فى رسم موتيفاتهم السريعة تلك. والغريب أن هذه الهامشية شبه متعمدة، أو قسرية؛ لأننا لانجد أى واحد من هؤلاء، وبصفة عامة أى واحد من أبناء الطبقات الدنيا عموما، يضطلع بدور رئيسي فى هذه الأقاصيص كلها.

ومن هنا ندلف إلى طبيعة رؤية كاتبنا للعالم وإلى نصه الإيديولوجى، هذه الرؤية التى لم تترك ميسمها بوضوح على عالمه السردى فى الأقصوصة والرواية معا -لكنها ألقت بظلالها الكثيفة على كافة كتاب الأقصوصة الذين أتوا بعده- لم يفلت من قبضتها غير عدد ضئيل منهم- وتنحت هذه الرؤية أبرز ملامحها من مركزة الطبقة الوسطى - وطاهر لاشين أحد أبنائها- فى قلب لوحته الفنية، وإعطائها المكان المحورى فى هذا العالم. ليس هذا فقط، بل رؤية بقية الطبقات الأخرى من خلال حدقتها التى تحتقر أبناء الطبقات الدنيا وتزرى بهم، أو فى أحسن الأحوال تتعالى عليهم؛ حيث تكتظ الأقاصيص بالتعميمات عن الرعاع والجهلة، بينما تجل أبناء الطبقات العليا وتطمح إلى اعتلاء مراتبهم، وإن شاب هذا الطموح، وخاصة فى حالات الإحباط، نوع من الازدراء الثعلبى لعناقيد العنب البعيدة، يتجلى فى تلك السخرية أو التعالى الأخلاقى بصفة خاصة، وفى تلك الشفقة المصطنعة على الذين سقطوا تحت ضربات القدر الغاشمة من هذه الطبقات العليا إلى حضيض الطبقة الوسطى، والتى تتجلى واضحة فى روايته القصيرة الوحيدة (حواء بلا آدم) التى صدرت عام ١٩٣٤.

---

(١) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٠/٢/١٩٢٥.

(٢) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٠/٢/١٩٢٥.

(٣) نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٧/٤/١٩٢٥.

لذلك نجد أن أغلب الهموم التى تتناولها أعمال محمود طاهر لاشين الأقصوصية منها أو الروائية هى هموم الشرائح المأساوية من الطبقة الوسطى، والمعروفة عادة باسم البرجوازية الصغيرة، مهما تعرجت هذه الهموم ومهما تنوعت. وأن معظم شخصياته الرئيسية من أبناء هذه الطبقة، وخاصة الموظفين منهم -فقد كان الموظفون فى هذه الفترة يشكلون الأغلبية العظمى من متلقى الأدب وخاصة الجديد منه- سواء أكانوا من الطبقات العيا، ثم سقطوا إثر كارثة اجتماعية أو اقتصادية، إلى هذه الطبقة، أم من الطبقات الدنيا، ثم صعدوا إليها بعصاميتهم وكفاحهم. بل إننا نكاد نحس بأن هناك تناسبا بين عدد الأبطال من كل شريحة من شرائح هذه الطبقة الوسطى، وبين نسبة وجودهم فى الواقع. فأغلب الأبطال من أبناء الطبقة الوسطى أصلا، مع نسبة ضئيلة من الذين حاولوا الصعود إليها، أو الذين هبطوا من الطبقات العليا عليها. وهذا التناسب الدقيق يعكس وعى محمود طاهر لاشين بطبيعة الطبقة التى يتناولها، وبنوعية فئاتها وشرائحها. فضلا عن أنه يؤكد أنه لم يصدر عنها بصورةعفوية أو تلقائية، ولكن بصورة واعية ومقصودة.

غير أن كاتبنا - برغم انطلاقه من آفاق هذه الطبقة، ورؤية أغلب الجزئيات فى عالمه عبر حدقتيها - لايتخذ موقفا واعيا إلى جانبها، لايتعصب لها ولايدافع بالباطل عنها. ولكنه يلتزم إزاءها جانب الصدق الموضوعى فى عرض كافة بلاياها ومثالبها وفى ترديد أهم مزاياها وفضائلها فى الآن نفسه. صدق نحس بتعمده التنزه عن كل غرض، تعمد يوقعه فى بعض الأحيان بين براثن الحياد المفتعل، ويجنى على اتساق الحدث وعلى عفوية الشخصيات معا. غير أن هذا المنهج لايطل برأسه إلا عبر عدد قليل من أقاصيصه، بينما تحاول بقية الأقاصيص أن تنتهج طريقا آخر. فيرمى فى أغلب أعماله إلى تقديم تغطية فنية لأحد قطاعات هذه الطبقة -المتوسطة- أو لإحدى مشاكلها. لانجد فى أعماله إلحاحا على مشكلة ما أو على قضية محددة. اللهم إلا محاولة تغطية أوسع نطاق من حياة هذه الطبقة وهمومها.

وقد أدت هذه الرغبة إلى اتسام خطابه السردى كله بتلك النزعة المسحية التى تسعى لتقديم مسح اجتماعى شامل بهذا الخطاب الجديد لهموم الواقع المصرى. يربطه كلية بمتغيرات الواقع، وباحتياجات قرائه الجدد. ربما لأنه يبنى على فراغ تام إلى حد بعيد، فلم يسبقه فى هذا الميدان سوى عيسى عبيد. وربما لأنه كان أكثر الكتاب وعيا بطبيعة المتلقين الجدد، وأكثرهم تلبية لاحتياجات هذا الجيش الجديد من القراء. وأعمقهم رغبة فى اكتسابه قبل أن يسقط فى جب الذهنية التقليدية أو يغيب فى صحراواتها اللفظية الشاسعة. وربما لأن حياته كمهندس تنظيم قد أتاحت له

مجالا واسعا لتنوع الخبرات، والاحتكاك بميادين ومجالات متباينة. وربما لكل هذه الأسباب مجتمعة نلمس ذلك التركيز الواعى على الرغبة فى تغطية أوسع نطاق ممكن من حياة الطبقة الوسطى المصرية فى هذه الفترة.

ولايملك قارئ أعمال محمود طاهر لاشين الكاملة تلك إلا الإعجاب بقدرة هذا الكاتب الرائد على تناول أهم مشاكل هذه الطبقة وهمومها الأسرية عبر هذا العدد القليل من الأقاصيص ورواية واحدة. فقد استطاع أن يطرح فى خطابه السردى ذاك قضايا كانت على درجة كبيرة من الإلحاح والأهمية فى زمنه مثل بيت الطاعة، وتعدد الزوجات، والزواج غير المتكافئ، وجناية الخمر على الأسرة، والخيانات الزوجية، وتصابى الكهلة المزهوة، وجنايته عليها، وكذلك همومها الاجتماعية مثل المحاولة اليائسة للصعود إلى الطبقات الأعلى، والتى دائما ما تودى بأصحابها، والثقة العمياء فى القيادات الدينية المتعفنة، وغير ذلك من المشاكل والهموم. وإن كنا نلاحظ جنوحه إلى الخروج بالقارئ من هذه الموضوعات بعظات أخلاقية.

فهو يعالج هذه الهموم من وجهة نظر وعظية غالبا. يفوق اهتمامها بمغزى التجربة حرصه على بنائها بشكل فنى. فقد كانت الفترة التى يكتب فيها هى فترة تبرير الأدب من خلال قوة رسالته الأخلاقية ووضوحها. وكانت الاتهامات فيها توجه للقص باعتباره من أدوات إفساد الأخلاق والتحريض على الرذيلة. ولذلك كان لزاما على الكاتب أن ينطوى أدبه على رسالة واضحة ترد بشكل ضمنى على اتهامات أعدائه، وإن وعى الكاتب بأن وضوح الرسالة يجنى على العمل. فترى أن بيت الطاعة مثلا لايحل مشكلات الزواج غير المتكافئ، ولكنه يمهد بقسريته تلك لميلاد الخيانات الزوجية والأبناء غير الشرعيين فى «بيت الطاعة»، وأن تعدد الزوجات يؤدى إلى انهيار الأسرة اقتصاديا فى «منزل للإيجار»، وإلى تصدعها أخلاقيا واجتماعيا فى «الانفجار». بينما يجلب الزواج غير المتكافئ الخيانات الزوجية فى «لون الخجل» و«النقاب الطائر»، والانهيار الأخلاقى، ثم الانتحار فى «الوطواط»، والإفلاس والدمار الاقتصادى فى «الكهلة المزهوة».

أما جناية الخمر على الأسرة فحدث عنها، ولاحرج، تشتت الأسرة وفقدان عائلها لوظيفته، والانزلاق بربتها إلى «قرار الهاوية»: حيث الاتجار بالجسد فى سوق البغايا، أو اشتراك كليهما فى نصب الفخاخ للسكارى كما فى «الفخ». أما الزواج القائم على الطمع والمصلحة الاقتصادية، فلن يورث غير الندم والمنغصات كما فى «لو». غير أننا نلاحظ أن منهجه الوعظى ذلك لايجنى على

القصص غالبا، لأنه ينجح أحيانا فى تقديم هذه العظات الأخلاقية عبر بناء فنى شديد التماسك. يهمس بالموعظة دون أن يصرخ به، أو يخفف بالسخرية الشفيفة وقعها على القارئ. ينطلق إليها عبر التسلسل الطبيعي للأحداث دون أن يهتف بها خلال الابتسار الخطابى للموقف. نجح أحيانا فى هذا وإن تعثر أحيانا أخرى فى شباك التخطيط الذهنى الذى يمتص حيوية القصة ويصيبها بالجفاف والشحوب.

وهو لايصور فقط هذا القطاع فى حياة الطبقة، ولكنه يتجاوزه إلى قطاعات وموضوعات أخرى فى حياة هذه الطبقة المتوسطة. يلح على ترديها فى براثن المشعوذين، ويفضح أمامها زيفهم، ويكشف النقاب عن دجلهم المتخفى وراء أصباغ التهويمات الروحية، والشهقات الدينية فى «ميفيستوفوليس»، و«منطقة الصمت»، و«الشيخ محمد اليمانى». ويحاول أو يرافقها عندما تلم بها الكوارث، وأن يتابع مفعول الزمن السحرى فى وأد أحزانها الهشة فى «ولكنها الحياة»، أو يسخر من صدورها عن المصلحة الذاتية العمياء وخضوعها الدائم لمنطق القوة، أو لمنطق المادة، كما فى «الشاويش بغدادى»، و«ميفيستوفوليس». أو يشيد بمقدرتها الهائلة على كتمان الآلام، وصلابتها إزاء عوادى الزمن وتصاريف «القدر»، وقدرتها على مواصلة الحياة من جديد، فساعات الانتقام آتية لاريب فيها كما «يقول الودع». ثم يتابع فى «تحت عجلة الحياة» عبر بناء فنى ناضج ومتماسك -وهذه حال الأقاصيص الأربع التى تضمها (النقاب الطائر) برغم بعض التزيدات- موقف هذه الطبقة كلية فى الثورة القومية الكبرى عام ١٩١٩. ما قدمته لها وما خرجت به منها. مفهومها المترع بالرومانسية عن الثورة، وخيبتها الشديدة عندما انتكست -فى نظرها- هذه الثورة، ووقعت فى وهاد التهادن. وهى خيبة وقعت ببعض أفرادها فى جب التصوف والدروشة، والهروب من الحياة التى يسور الفشل كل طاقات الأمل فيها، وينتصب بقامته الديجورية أمام النور.

يصور كاتبنا كافة هذه الموضوعات والمواقف والقضايا من وجهة نظرها. فهو لايحتضن مشاكلها وقضاياها وآلام شرائحها المختلفة، ولكنه أيضا يحتضن رؤية هذه الطبقة، ووجهة نظرها وفهمها للعالم، وتصورها له، وفكرتها عنه. ومن هنا تلوح الأم دائما فى أقاصيصه كالمرفأ المهدئ فى ساعات التوتر والقلق. يلجأ إليها بطل «النقاب الطائر» ليدفن فى صدرها توتراته، عندما تنكشف لعينيه خيانة زوجة صديقه، فلايستطيع أن يقول لها شيئا، ولا أن تقدم هى الأخرى له أكثر من تهشيم حدة أشواكه لا انتزاعها. ويلجأ إليها أيضا بطل «الحب يلهو» عندما تتجمع على عقله سحب الوجد والمحبة، فلا يستطيع إلا أن يغرق معها -هربا- فى ثرثرة تافهة عن الجيران وشئون الحياة.

وتلجأ إلى من فى منزلتها أيضا بطلة (حواء بلا آدم) لتغرق فى أحضانها إحساسها المرير باليتم والإحباط. وعموما فإن الأم فى عالمه -كما فى عالم الطبقة الوسطى بصفة عامة- طاقة هائلة من الحنان غير الفاهم، الذى يرغب فى فعل كل شيء، ولكنه، لعدم قدرته على الفهم، لايقدم الكثير.

ولايكتفى محمود طاهر لاشين بأن يقدم لنا شرائح من حياة هذه الطبقة ومشاكلها، ولكن أيضا فهمها للعالم ورؤيتها للأشياء، بل أيضا وطبيعة أحاسيسها بالحب وبالبغض وبالحزن وبالتعاسة وبغير ذلك من الأحاسيس. فخلال كل هذه القطاعات والأحاسيس والموضوعات المتناثرة يلقى لنا محمود طاهر لاشين دفقات من الضوء على الطبقة الوسطى. واقعها وهمومها وأحلامها ورؤاها فى هذه المرحلة المبكرة من ظهورها وتبلورها. دفقات تحمل سمات المرحلة بكل ما فيها من آلام المخاض، وبدائية الرؤية معا. فليس باستطاعتنا إنكار ما بهما من بدائية، برغم نضوجها النسبى. وليس باستطاعتنا تجاهل أن بداية كل منهما ساهمت فى صوغ بعض أبعاد بدائية الأخرى. فالتعثرات التعبيرية قد تركت بصماتها على رؤية الكاتب لموضوعه، وحالت، فى كثير من الأحيان، دون أن تطل علينا بعض أبعادها الناضجة.

لذلك نجد أن القصة التى بلغت درجة كبيرة من النجاح الفنى والتعبيرى ارتقت نفس الدرجة على صعيد الرؤية كما فى «حديث القرية»، ففى هذه القصة استطاع الكاتب أن يبلغ ذروة نضوجه الفنى -نضوجا لم يحققه بعد ذلك إلا فى «الحب يلهو» - وإن اتشح فيها بغلالة من الشجن الرومانسى العميق- وأن يقدم فى الآن نفسه أنضج رؤاه الواقعية لموضوعه. وقبل أن نتحدث تفصيليا عن هذه الأقصوصة التى تمثل ذروة الجانب الواقعى فى عالمه، علينا أن نتناول أولا أقاصيص الجانب الآخر. أعنى الجانب الرومانسى فى هذا العالم، وإن كان كلا التعبيرين مجازيا إلى حد كبير. ذلك لأننا لانستطيع أن نجد الأبعاد الكاملة لكل من الاتجاه الرومانسى والواقعى فى هذه الأقاصيص خاصة. فقط يمكننا العثور على الكثير من ملامح الاتجاه الأول، وإرهاصات عديدة، بقدر لابأس به، من معالم الاتجاه الثانى وأبعاده.

والحقيقة أن الاتجاه الرومانسى فى الأقصوصة ظل هو الاتجاه الأكثر نضوجا وشيوعا على طول خط تطورها حتى عشرينات هذا القرن، ذلك لأن الرومانسية كانت الشكل الأكثر تلاؤما مع رغبة الأقصوصة فى العثور على وجهها القومى الخاص. والأعمق تجاوبا -بما فيها من تعميمات وأشجان- مع جذوة البحث الوطنى المتقدة. وأيضا لأن الجانب الشعرى الثائر فى الرومانسية وجد له

صدى عميقا فى نفوس أصحاب محاولات الأقصوصة، التى كانت بشكل ما -حتى ذلك الحين- نوعا من الثورة الجامحة على جمود الذهنية التقليدية وعلى تزمتها. ومحاولة للتمرد على قيودها والخروج بالقارئ من قلعتها القديمة المنيعة. لكل هذا كانت الرومانسية هى الاتجاه الأكثر شيوعا فى كتابة الأقصوصة. ولأن محمود طاهر لاشين -كما ذكرت- من أكثر الكتاب تمثيلا لجوهر المرحلة التى صدر عنها، نجد أن هذا الاتجاه -الرومانسى- هو الغالب عنده والأكثر نضجا، برغم محاولته الدؤوب فى التخلص منه. ولأنه أيضا لم يكن صدى باهتا للمرحلة التى صدر عنها، بل كان جنوحا إلى آفاق أكثر خصبا، وإلى أراض لم يسمع فيها وقع لقدم مصرية من قبل. ونعثر عنده أيضا على الأجنة المصرية للأقصوصة الواقعية، وعلى التعهد الواعى الرؤوم لتلك الأجنة، ولنبدأ بالجانب الرومانسى.

تكاد الرومانسية أن تترك بعفوية وتلقائية ميسمها على أغلب أقاصيص المجموعات الثلاث برغم جنوح محمود طاهر لاشين الواعى إلى الإفلات من إسارها والتخلص من بصماتها على صعيدى الرؤية والتعبير معا. فمع أننا لمسنا فى أعماقه رغبة واعية لإجراء مسح فنى -بالأقصوصة- لأوسع وأعرض قطاع من حياة الطبقة الوسطى المصرية ومن همومها، هذه الرغبة الموجهة التى دفعته إلى إحياء التقاليد البلزاكية العظيمة -كان محمود طاهر متيما بديكنز العظيم وهو قريب من بلزاك- فى معايشة الموضوعات التى يرغب فى الكتابة عنها، للتعرف على شتى أبعادها وسبر كل أغوارها. كما فعل عندما رغب فى كتابة أقصوصته «بيت الطاعة» فذهب إلى المحكمة الشرعية عدة أيام متوالية ليتمكن من تصويرها فى عمله الفنى ذاك.

مع أننا لمسنا كل هذا، فإننا لانستطيع أن نتجاهل ذلك الوشاح الرومانسى الذى يزمّل أغلب هذه الموضوعات، والذى يمكننا أن نلمس أطيافه بوضوح فى كل الاستطرادات الرومانسية المتجاوبة مع سحر الطبيعة وحلاوتها، لأن منطق التعامل مع الطبيعة عنده هو استخدامها كصدى خارجى لمشاعر الشخصية، أو كقوة عاقلة تتجاوب مع أحاسيسه، ونلمسه كذلك فى تلك النبرة المتعالية التى يعرج بها على الكثير من مواطن الداء فى جسم طبقته.

وفى ذلك الاشمئزاز الواضح من أوضاع الرعاع وتصرفاتهم، والنفور من تجمعهم كالطفح فوق وجه المدينة. وفى كل هذه الجزئيات نتلمس آثار ذلك الوشاح الرومانسى، وأيضا نتلمسه بوضوح فى طريقة اختياره للزوايا التى يتناول منها جزئيات الأقصوصة. ففى سخرية الناى يتناول

الموت من زاوية رومانسية بحتة. ليس فقط بتصويره قادما علي نغمات الناى الحزين، مسربلاً بأضواء القمر، ولكن أيضا بتلك المزاوجة التى عقدها بين حياة عم وهدان، وحياة ذلك الفتي العائد من باريس. و فى قرار الهاوية تتشح الرؤية الزاعقة للميلودراما برغم السرد الواقعى، بكثير من الشجن الرومانسى، بينما يتشح الضياع الاجتماعى فى الوطواط برداء فاجع تضفيه عليه تلك النهاية الحادة الدامية التى تنتهى بها حياة بطلة القصة. تماما كما فى منزل للإيجار وكما فى بيت الطاعة، حيث تكتسب القصة وشاحها الرومانسى من تلك السخرية المريرة الهازئة من كل الأسوار والضغوط. أما الانفجار وهى تشيكوفية ممصرة فإننا لا نجد الرومانسية فى زاوية الرؤية فيها، ولكن فى أسلوب بناء هذه القصة، وطريقة معالجته لموضوعها.

ولم يخفت صوت هذا الاتجاه الرومانسى فى المجموعتين التاليتين، وخاصة فى مجموعته الثانية (يحكى أن)، ولكنه ظل مطلا برأسه بنفس الدرجة وبنفس الأسلوب أيضا. ذلك لأننا لا نستطيع القول بأن (يحكى أن) تعد مرحلة تالية للمجموعة الأولى (سخرية الناى) لسببين أساسيين، أولهما، أن السنوات الأربع الفاصلة بين صدور المجموعة الأولي فى عام ١٩٢٦، والثانية ١٩٣٠ ليست بالفترة الطويلة التى يمكن فيها للكاتب أن يغير أسلوبه، وأن يتفوق علي نفسه، خاصة والمناخ الثقافى الذى عاش فيه كان علي هذه الحالة التى رأيناها عليه. وثانيهما، أن عددا كبيرا من أقاصيص المجموعة الثانية قد كتب ونشر أيضا قبل كتابة ونشر بعض أقاصيص المجموعة الأولى؛ إذ نشرت الزائر الصامت [١]، ويحكي أن [٢]، والجنية أنبيضاء [٣]، التى ظهرت فى المجموعة بعنوان الكهلة المزهوة، قبل نشر المجموعة الأولي. بل حتي قبل أن ينشر- وربما تكتب- بعض قصصها مثل ميفيستوفوليس [٤] و سخرية الناى [٥].

وكذلك لا نستطيع أن نقول بأن أقاصيص (النقاب الطائر) الأربعة- برغم طولها النسبى- تمثل مرحلة جديدة فى أدب هذا الكاتب. وإن كانت أقاصيصه قليلة العثرات وتميل إلى النضج. لأن هذه الاقاصيص قد جاءت بعد فترة انقطاع عن الكتابة بلغت عدة سنوات. فقد ظهرت هذه

---

(١)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ٢٢/٥/١٩٢٥.

(٢)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١/١١/١٩٢٥.

(٣)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ١٩/١/١٩٢٥.

(٤)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ٣٠/١/١٩٢٥.

(٥)نشرت فى (الفجر) فى عددها الصادر فى ٢٤/١/١٩٢٦.

المجموعة بداية عام ١٩٤٠، لأن النسخة التى اعتمدت عليها- وهى من دار الكتب- تحمل إهداء من محمود طاهر لاشين إلي دار الكتب الملكية مؤرخ فى ١٩٤٠/٥/٥ . ومقدمة حسين فوزى لها مؤرخة هى الأخري فى ١٩٤٠/٤/٩ ولهذا، فالقصص مكتوبة ولاشك قبل بداية عام ١٩٤٠، أى فى أواخر الثلاثينات. وبعد أن انقطع محمود طاهر لاشين عن الكتابة لفترة طويلة، يحدثنا عنها حسين فوزى فى مقدمة (النقاب الطائر) عندما يقول: أما عن كيف عاد محمود طاهر لاشين إلى الكتابة- ونرجو أن تكون عودته اليوم لا تردد فيها ولا تبلبل- فهذه حكاية أخري. يمثل فيها أثر التشجيع مهما كان ضئيلا. اطّلع هذا القصصى الذى نسي نفسه ونسيه الناس، علي رسالة أدبية صدرت منذ عام [1] قدم لها صاحبها ببحث عن القصة العربية الحديثة. وقد أشار فيها إلي محمود طاهر لاشين إشارة طيبة. لا يمكن أن نعرف أثرها فى هذا الأخير، إلا من لاحظ كيف تكفى قطرات من الماء أحيانا لتعيد الحياة الي نبات نكس رأسه ذبولا [2].

ويؤكد هذا الانقطاع عن الكتابة أن محمود طاهر لاشين الذى كان مغرماً بالكتابة، شاعرا بأنه ينفخ فى قربة مثقوبة. كما يؤكد كذلك الطبيعة الفدائية لأبناء المدرسة الحديثة الذين كانوا يبنون علي شبه فراغ. ويؤكد ثانيا أن فترة الانقطاع عن الكتابة تلك لم تكن فترة درس واستعداد لمرحلة جديدة، ولكنها فترة انصراف عن الميدان الأدبى كلية. وهذا هو السبب فى أننا نجد أن أقاصيص (النقاب الطائر) استمرار لأقاصيص (يحكي أن)، وليست ثورة عليها، برغم انقضاء سنوات عشر بين صدور المجموعتين. ولهذا فإننا نجد فى المجموعتين- (يحكي أن) و (النقاب الطائر) - استمرار لنفس الصوت الرومانسى الذى تعرفنا علي نبراته فى (سخرية الناى). ونجد أيضا احتفاء بالطبيعة فى كل وجوهها، وتصويرها عبر حدقتين متيمتين بجمالها، متريثتين عند الجوانب الرومانسية الخلابة فى هذا الجمال. ونجد كذلك قدرا لا بأس به من التهويمات والعظات الأخلاقية الزاعقة. صحيح أن لون هذه العظات أصبح باهتا إلى درجة التلاشى فى كثير من الأحيان. غير أننا لا نستطيع أن ندعى غيابها تماما.

ففى الزائر الصامت، و يحكى أن، و النقاب الطائر، و مذكرات سيدنا نوح نحس باحتفاء الكاتب بالطبيعة فى شتي وجوهها، وهو احتفاء يوشك فى بعض الأحيان أن يكون مقصودا لذاته،

---

(١) لعله يقصد كتاب إسماعيل أدهم عن توفيق الحكيم

(٢) من مقدمة حسين فوزى لمجموعة (النقاب الطائر) التى صدرت عام ١٩٤٠، ص١٣-١٤.

وفى بعضها الآخر أن يكون ترجيعا لنهنهات عاطفية قديمة لم تبرأ منها لغته السردية بعد؛ إذ يترنم بأغاريد عمامة عن وجهها النيلى المنساب بهدوء تدور علي أنغامه الملساء حكايات العشاق فى يحكي أن، ويحتفى بوجهها الحزين الناضج بالجلالة والمهابة فى الزائر الصامت، ووجهها البحرى الهادر بالأمواج والصخور والهواء المشبع باليود فى النقاب الطائر، وغير ذلك من وجوهها المتعددة، وإن كان الاحتفاء بالطبيعة قد اكتسي فى النقاب الطائر خاصة برداء من النضج الفنى الذى يمنحه الإيماءات والدلالات، ويجعله إشارة لها وظيفة إبلاغية أو إيحائية ضمن السياق السردى. فالحديث فى بداية القصة عن البحار الهائجة المائجة التى صادفت كريستوفر كولومبوس فى رحلته العسيرة نحو المجهول المرتقب (١)، لم تكن لمجرد الاسترسال فى وصف البحر، ولكنها كانت إيماءة حية بالأهوال والأحداث التى ستواجه بطل القصة بعد قليل.

أما الجانب الآخر المتمثل فى الانطلاق من الرؤية الرومانسية، والوقوع فى إسار التهويمات الجانحة إلي استخلاص العظات والعبر الأخلاقية، فإننا نعثر عليه فى لون الخجل و النقاب الطائر وماذا يقول الودع و القدر و الكهلة المزهوة. وإن تشرب هنا بمزيد من الحس الواقعى، ومن السخرية الرقيقة الحانية التى تجدها واضحه فى أعماله الواقعية التالية. غير أننا قبل أن نترك هذا الجانب الرومانسى فى أقاصيصه، الذى حاول خلاله أن يكون الناى الجميل هو الصوت الساخر فى الوقت نفسه، واستطاعت فيه «بهجة أدبه أن تغالب أشجان نفسه، وكان اللحن الفرح عنده تصاحبه هارمونية واجمة، عندما تكشف عن وجومها، فإنها تتغلب علي ميلوديا السرور» (٢) فى أغلب الأقاصيص. قبل أن نترك هذا الجانب الرومانسى فى أقاصيصه علينا أن نتساءل: أى رومانسية اعتنقتها هذه الأعمال ؟ والإجابة علي هذا التساؤل ليست كامنة فقط فى طبيعة أعماله فى هذا الاتجاه، ولكنها تضرب بجذورها فى خط تطور الكاتب نحو الأقصوصة الواقعية وفى رغبته الواعية لقرع أبوابها. عبر هذين الجانبين نعثر علي طبيعة رومانسيته تنحت أبرز ملامحها من تسللها إلي عالمه بصورة عفوية وهادئة. فعلي مستوي الوعى نلمس رغبة محمود طاهر لاشين فى التملص من الرومانسية وتوقه إلي الواقعية. لذلك يشوب رومانسيته دائما نوع من الواقعية، إلى الحد الذى يصعب معه أن نعثر عنده علي قصة رومانسية خالصة بالصورة التى نجدها لدى مجايله محمود تيمور مثلا. إنها مجرد أطياف تلقى بظلالها الكثيفة أحيانا، والباهتة أحياناً أخرى على بعض الأقاصيص.

---

(١) راجع (النقاب الطائر)، ص ٢٠.

(٢) من مقدمة حسين فوزى لمجموعة (النقاب الطائر) ص١٣.

أطياف من الرومانسية الثورية غالبا، الراغبة فى تخطى مواضعات الواقع الجائرة وسلبياته فى معظم الأحيان، وهى لذلك تعد الرومانسية الممهدة لميلاد الواقعية. فما هى ياتري ملامح هذه الواقعية التى أنجبتها؟

يقول حسين فوزى: «لست أزعم بأن محمود طاهر لاشين اقتصر علي تصوير نوع خاص من حياتنا، أو أنه يقصد إلي هذا التصوير بعينه. وإنما أشفقت عليه أن يكون هذا الأدب الواقعى، مع اتجاهه دائما نحو الإغراق الكاريكاتورى، قد صرف أعين النقاد عن ناحيته الإنسانية. فلم يروا فيه إلا نوعا من الأدب المحلى، يأخذ من الحياة الشعبية بمظاهرها، وإذا كان هذا قد حدث فعلا فإن محمود طاهر لاشين يحمل قسطا من التبعية؛ إذ ترك طبيعته تتغلب بكليتها علي صياغاتها. والصياغة أقل مميزات هذا المؤلف الموهوب، الذى يكتب بسجيته، فينطلق دون مشقة بين العبث والجد. «وكأنه عم وهدان بطل سخرية الناى، نظرة فلسفية مجسمة تستخف بما كان وتستخف بما سيكون». (١)

تؤكد كلمات حسين فوزى تلك حقيقتين أساسيتين: أولاهما أن طبيعة المرحلة التى ظهرت فيها أعمال محمود طاهر لاشين كانت تزرى بالأدب الواقعى، وتعتبر تناول الحياة الشعبية عملا محليا يجافى الرحابة الإنسانية، وربما كانت هذه النظرية الخاطئة هى التى دفعت محمود طاهر لاشين إلي الحرص الدائم علي الاهتمام بمغزى التجربة الإنسانية التى يقدمها، وحرصه على إبراز هذا المغزى فى صورة وعظية. وثانيتهما، وعى محمود طاهر لاشين بهذه الحقيقة ورغبته- رغم ذلك وربما بسببه- فى تناول مشاكلنا وهمومنا المحلية، وتلقائيته فى هذا التناول- تلك التلقائية التى انعكست علي أسلوبه وصياغته ووعيه بطبيعة الأدب الواقعى فى تلك الفترة، التى كانت تري أن الواقعية ليست فى الرؤية بقدر ما هى فى الموضوع. وظل هذا الفهم الخاطئ للواقعية سائدا فى ميدان الأقصوصة إلي عهد قريب. إذ اعتقد الكثيرون أن الواقعية كامنة فى تناول قطاعات وقضايا من الحياة الشعبية مهما كانت طريقة هذا التناول، بينما الواقعية فى جوهرها بعيدة عن ذلك كل البعد؛ لأنها رؤية ووجهة نظر قبل أن تكون موضوعا وطريقة للتناول، وطريقة تناول الأحداث ورؤيتها قبل أن تكون طريقة فى الاختيار والاهتمام بطبقة دون غيرها. وفى نطاق هذا الفهم

---

(١) من مقدمة حسين فوزى لمجموعة (النقاب الطائر) ص١٠، ١١.

الصحيح للواقعية، سنبحث عن ملامحها فى أعمال محمود طاهر لاشين؛ لأننا لو اتبعنا الفهم الأول الخاطئ لها، سنجد أن كل أعمال محمود طاهر لاشين بمقياسه أعمال واقعية إلي أقصي حد. فأين ياتري سنعثر علي بذور هذا الفهم المتقدم الناضج للأدب الواقعي؟

ذكرنا من قبل أن حديث القرية تعد أبرز أقاصيص المرحلة الواقعية عند محمود طاهر لاشين. وعلينا هنا أن نتعرف علي ملامح هذه المرحلة وعلي موقع هذه الأقصوصة فيها. ومن البداية فإننا نقول: إنه ليس باستطاعتنا أن نضع خطا فاصلا بين الأقاصيص الرومانسية والأقاصيص الواقعية فى إنتاج لاشين. ذلك لأن كلا من المرحلتين متداخلة فى الأخري. بل باستطاعتنا العثور علي تزاوج الاتجاهين فى أكثر من أقصوصة واحدة، بل وفى أغلب الأقاصيص. أحيانا يغلب الاتجاه الرومانسي، بينما تكون الغلبة فى أحيان أخرى للاتجاه الواقعي. لذلك فليس باستطاعتنا -إذا استثنينا «حديث القرية»- أن نعثر فى أعماله على أقصوصة واقعية رؤية وأسلوبا. كل ما نستطيع العثور عليه، أقاصيص يغلب عليها الاتجاه الواقعى مثل «ميفيستوفوليس» و«منطقة الصمت» و«جولة خاسرة» و«الشبح الماثل فى المرآة» و«الفخ» و«الحب يلهو» و«تحت عجلة الحياة»، وكذلك بعض اللوحات الساخرة مثل «ألو» و«الشاويش بغدادى» و«الشيخ محمد اليمانى» و«أحرج ساعة فى حياتى المدرسية».

فى هذه الأقاصيص واللوحات نعثر علي أطياف واقعية تبلغ فى بعض الأحيان، درجة كبيرة من العمق والشفافية، كما فى «الحب يلهو» تلك القصة الناضجة المليئة باللمحات النفاذة الذكية. فبطل هذه القصة مثلا يتحدث عن العمال وإرهاق أصحاب الأعمال لهم، وضآلة مرتباتهم، وعدم الاعتراف بكتلهم اعترافا جديا يركن إليه -كل هذه عناصر تجعل جمهرتهم علي ما هو عليه من ضجر وحمق وفساد أخلاق.[1] ففى تلك اللمحة السريعة الذكية نحس ببصيرة واقعية نفاذة. نري أن الطبائع والأخلاق ليست سوى انعكاس للظروف التى يعيشها الإنسان وصدي لها. وهذه ليست سوى واحدة من إيماءات عديدة نعثر عليها فى عدد من أقاصيصه الجيدة مثل «تحت عجلة الحياة» و«ميفيستوفليس» وغيرها. ولكن هذه اللمحات الذكية والأطياف الواقعية لاتبلغ ذروتها من ناحيتى الرؤية والأسلوب إلا فى «حديث القرية». ففى هذه القصة نعثر علي أنضج بلورة لهذا الاتجاه الفنى

---

(١) راجع (النقاب الطائر). ص٩٠.

عنده. ولنتعرف أولا علي خطوط القصة، حتي نتمكن من تلمس الأبعاد الناضجة للرؤية والبناء فيها.

فالقصة تروى على لسان شخص من المدينة دعاه أحد أصدقائه إلى زيارة قريته لقضاء يوم الجمعة فى أحضان الريف. ومن الوهلة الأولي يبهره جمال الريف. غير أنه ما يلبث أن يكتشف خلف هذه الطبيعة الجميلة، عالما متكاملا من القبح والشقاء فى حياة الفلاحين، وعملهم اليدوى الشاق تحت قيظ الشمس. ويبدأ فى بث ألمه عن هذا الواقع التعس لصديقه، الذى لايعيره سمعا، بل يسفه آلامه، ويبرهن له علي أن هذه أليق حياة لهم. وفى المساء يجتمع ببعض الفلاحين، ويحاول أن يغرس فى أعماقهم ضرورة العمل علي تجاوز هذا الشقاء بالإصرار والإرادة. غير أن فقيههم ومأذون قريتهم يستكبر منه هذا الأمر. ويبدأ فى دحض هذه الفكرة عن طريق روايته لمأساة ابن قريتهم عبدالسميع، الذى كان يعمل إسكافيا بالقرية، فأغراه معاون الإدارة بالعمل فى المركز حاجبا له. فتبدلت حاله من صورة إلي أخري. لبس الجاكتة والطربوش، وعاش فى نعيم جديد لم يكن هو المقصود به فى الواقع. ولكنها زوجته الجميلة التى راقت لمعاون الإدارة، فأغري زوجها بالانتقال بها إلي البندر حتي يتم له ما أراد. وهناك تمكن المعاون بنفوذه من خلق خلوات كثيرة استمتع فيها بزوجة عبدالسميع الشهية الجميلة. بل وتماديا فى هذه الخلوات بالصورة التى أقلقت عبدالسميع كثيرا، وسلطت عليه جحافل الشك الملحاحة. فلما طلب منه معاون الإدارة ذات ليلة أن يذهب برسالة إلي القرية، وأن يعود بالرد فى الصباح، هجمت عليه الوساوس الشكاكة فى الطريق. وأرجعته ومعه قضيب من الحديد إلي منزله، فوجده مظلما، فلما فتح الأبواب بحذر، وجد زوجته فى حضن سيده، فأهوي علي رأسيهما بالقضيب حتي فتتهما تماما. وأوقد النار بجوار سريرهما ليعد لنفسه الشاى، وظل يدخن ويشرب الشاى طول الليل، فلما طلع الصبح توجه إلي المركز، فباح بكل ما جري وسلم نفسه.

ولقد واصل الشيخ رواية هذه القصة داخل القصة بطريقة تمثيلية بارعة، وهو يبث بين طياتها من لحظة لأخري آيات من القرآن، وبعد أن يعتصرها ويريق روحانياتها، زاعما أن اتباع طريق الإرادة هو الذى جني علي عبدالسميع؛ لأن الإرادة هى التى وسوست له بالجرى وراء نعم المدينة الزائلة، دون أن يدرك أن فى هذا هلاكه، وأن الدنيا عبادة لا إرادة، ثم قام بدعوي أن العمدة وكثير من الأعيان فى انتظاره. فأقبل عليه الفلاحون يقبلون يده، وهم يحمدون الله علي نعمة

الستر. ولما آثر الراوى وصديقه البقاء، تركوا لهما المصباح، وقنعوا بأن يتبعوا فقيههم فى الظلام. هذا هو الهيكل العام للأقصوصة، وهى إلي جانب هذا مليئة بعشرات الجزئيات الدالة. جزئيات تحلق بالكثير من أحداثها إلي آفاق رمزية رحبة، وتوحى بقدر هائل من المعانى، إذ استحالت الكلمات فى هذه الأقصوصة إلي أوعية مكتظة بعشرات المعانى والرؤي، وإلي رموز قادرة علي النفاذ إلي وجدان القارئ وأعماقه.(١)

لذلك فإننا نعثر فى هذه القصة علي بلورة ناضجة لأرقي ما وصلت إليه الأقصوصة الواقعية فى هذه المرحلة من ناحيتى الرؤية والتعبير. فكاتبنا لايري مأساة القرية المتردية فى الجهالة والمطلسمة بالخرافات بطريقة خطابية زاعقة مليئة بالتعميمات، ولكنه يراها من خلال عين جديدة تماما، فاهمة لجوهر المأساة التى تعيشها القرية، عاطفة عليها وغاضبة منها فى آن. لذلك فإننا لانلمس فى هذه الأقصوصة أبدا ذلك الاستعلاء علي الرعاع وحثالات المجتمع الذى تنطق به «تحت عجلة الحياة» و«منزل للإيجار» و«جولة خاسرة» وغيرها. ولكننا نحس بحبه الغامر للفلاحين وإشفاقه عليهم. وبتصويره النقدى الحساس لواقعهم، ذلك التصوير الذى استحالت فيه الجزئيات المتناهية الصغر إلي رموز شفافة موحية، فلم يعد المصباح مجرد مصباح، ولا القمر مجرد قمر، ولا الناى محض صوت أسيان حزين. ولكن فاضت هذه الأشياء الصغيرة بدلالات عديدة دون أن تتحول إلي أشباح أو تجريدات، ودون أن تفقد أبدا واقعيتها أو وفودها المبرر إلي ساحة الأقصوصة.

فى هذا النوع الناضج من القصص نحس بأن الصور ودلالاتها قد أصبحا شيئا واحدا. التحم الشك بالمعني والتعبير بالرؤية. فوظفت كافة الأدوات والجزئيات فى العمل الفنى توظيفا كاملا ينأي بها عن الابتذال والسطحية والتجريد فى آن. بل إننا نجد أن منهجه فى خلق منطلقات تمهيدية لسرد الأقصوصة قد وصل هنا إلي درجة عالية من النضج بصورة يتدعم معها هذا المنطلق التبريرى فى صلب القصة، ويصبح جزءا من بنائها الفنى. فرواية قصة الدعوة إلي زيارة الريف لم تعد مجرد مقدمة تمر بيديه لحكاية القصة –لالزوم لها كما فى «النقاب الطائر» مثلا– بل تحولت إلي الإطار الذى تتبلور عبره الرؤية النقدية التى تعتنقها القصة.

---

(١) ثمة تحليل مفصل لهذه القصة فى الفصل الأخير من كتابى «تكوين الخطاب السردى» المذكور فى المرجع رقم ٢ أعلاه.

كما نلاحظ أيضا ميلاد نوع من السخرية الشفيفة فى هذه المرحلة من تطوره الفنى. ليست تلك السخرية المتعالية التى تحقر عالمه، ولكنها تلك السخرية التشيكوفية الشفافة التى تنتقد -بعين مشفقة وفاهمة- ما فى هذا العالم من مثالب. هذه السخرية التى دفعته، مواءمة مع محتواها إلي تقديم عدد من اللوحات الخفيفة العامرة بالدلالات الفنية مثل «جولة خاسرة» أو «الشاويش البغدادى»، التى نلمس فيها ظلالا موباسانية واضحة، حيث يتجاوز المنظر الكاريكاتيرى حدود السخرية المضحكة إلي آفاق السخرية الناقدة التى تعرى الأشخاص وتفضح مكونات الأحداث. هى سخرية لاتقوم الكلمة خلالها بدور اللعب علي خفيف الألفاظ أو جرسها. كما نجد فى روايته (حواء بلا آدم) ولكن بدور المكون للصورة، والراسم لملامح التناقض فيها. فتتم التعرية الفاضحة للمواقف والشخصيات الإنسانية من خلال هذا الأسلوب الناضج الذى يرتفع بهذه الصور الساخرة أحيانا إلي مستوي الأقصوصة المتماسكة.

من هنا ندلف إلي طبيعة اللغة عند كاتبنا وإلي دورها. فليست اللغة التى قدمها طاهر لاشين شيئا عاديا. قد تلوح لنا بسيطة وعادية إذا ما نظرنا إليها بمقياس هذه الأيام. ولكن هذه البساطة والعادية هى إنجازها؛ لأنها ستكتسب وجهها غير العادى إذا ما تناولناها داخل السياق الذى ولدت فيه؛ حيث ساد أسلوب الجاحظ وابن المقفع وتوفيق البكرى وحفنى ناصف. حيث بلغ ذروة تحرره وتقدمه علي أيدى المويلحى ومصطفي لطفى المنفلوطى وعلى يوسف وقاسم أمين. إذا نظرنا إلي لغة محمود طاهر لاشين وسط هذا الإطار سنعثر حتما علي وجهها غير العادى، بل وسنتعرف علي طبيعة النقلة اللغوية التى أحدثها؛ إلا أننا نحب هنا أن نؤكد أننا لاندعى أن هذا الأسلوب اللغوى الجديد قد ولد فجأة، لأنه كان حلقة من سلسلة من المحاولات الطويلة بالنثر العربى من أقبية الفهم الآسن للبلاغة، إلي هواء الفهم الجديد لوظيفة اللغة ودورها. ومن البداية نلاحظ أن الإنجازات الحقيقية لهذه المحاولة قد تحققت عبر الأعمال الفنية دون سواها.

فلم تنج المحاولات المتكررة للنهوض بالنثر العربى -إذا ما استثنينا محاولة النديم الفذة ذات الطعم الخاص- من آثار الفهم الشكلى للبلاغة اللغوية، والمكتظ بالمحسنات البديعية، والمترادفات اللفظية، إلي إسار الفهم الوظيفى. لم تفلت من هذا غير المحاولات التى تمت عبر الأعمال الفنية، كما نلاحظ فى أعمال محمود طاهر حقى، وحافظ إبراهيم، وكتابات محمد حسين هيكل الفنية، لا الفكرية، وأعمال محمد تيمور، وعيسي عبيد، وشحاته عبيد، وغيرهم. فى هذه الكتابات الفنية نلمس

محاولة جادة تستهدف الخروج بالنثر العربي من تلك الأقبية الآسنة التي كاد يختنق في سراديبها لعصور طويلة، إلي أفق من الجدل الإبداعي بين اللغة والموضوع.

وقد جاء محمود طاهر لاشين فسار بهذه المحاولة خطوات واسعة إلي الأمام. ليس فقط في محاولته تجنب المترادفات والمحسنات البلاغية المتعددة، ولكن أيضا في فهمه لطبيعة اللغة كأداة تعبيرية وإيحائية معا. وفي محاولته لتطعيم -ليس الحوار فقط فهو في كثير من الأحيان عامي، وهذه محاولة لها جذورها في أعماق سابقيه، ولكن أيضا- السرد بكلمات عامية كثيرة، تكون في أغلب الأحيان من الكلمات ذات الظلال الثرية والإيماءات السخية، والتي يصعب الحصول علي مقابل فصيح لها، يستطيع أن يؤدي نفس المعني، ويترك نفس الظلال. ولكننا مع كل هذا نجد أنه لم يتخلص تماما من بصمات الأسلوب القديم. فيحافظ بتزمت واضح علي فصاحة السرد إلي الحد الذي يضطر معه إلي استعمال الكثير من الكلمات المهجورة -بعرف أيامنا هذه- مثل وجار لرجل بدلا من منزله، وآدت بدلا من أجهدت، والقاوون بدلا من الطرطور، والعراجين بدلا من الأزقة، ونضا ملابسه بدلا من خلعها، وأتلع القطارات جيدا بدلا من أطولها، وغير هذه الأمثلة عشرات في أقاصيصه.

بالإضافة إلي ذلك فإننا نعثر علي ميل دائم إلي استخدام التعبيرات القرآنية أو النسج علي منوالها، كقوله: «الأنصاب ينصبون والأزلام يزلمون، وكل رجس من عمل الشيطان يرتكبون» (١)، أو قوله: «هم في نهار كالليل يعمهون» (٢). وغيرها كثير. كما نجد أيضا وخاصة في الأقاصيص الأولي استخدام الكثير من المحسنات اللفظية مثل قوله: «القلل الأنيقة والأباريق الرشيقة، والأزيار الضخمة والبلاليص الفخمة -بين بيضاء بلا طلاء، ومنقوشة باعتناء، حمراء ذات بهاء، وصفراء في زهاء، ورقطاء فنطزية الرواء» (٣). ولقد اخترت لك هذه الجملة بالذات لترى أي تناقض كان يعيش فيه الكاتب في هذا العصر وأي قلق لغوي. فهو يستخدم كلمات عامية في سرده، ولكنه لا يلبس أن ينظمها في عقد من السجعات والمحسنات اللفظية. غير أننا برغم كل هذا لانستطيع أن ننكر علي كاتبنا ليونة أسلوبه اللغوي ولا سلاسة سرده القصصي، ولا قدرته علي أن يجتاز بنجاح هذه الصعوبات اللغوية المتعددة.

---

(١) يحكى أن، الطبعة الأخيرة التى صدرت فى المكتبة العربية، الدار القوميه للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤، ص ١٧٣.

(٢) النقاب الطائر، ص ٢٠.

(٣) سخرية الناى، الطبعة الأخيرة ص١١.

بقيت بعد هذا الإضافات التى حققها محمود طاهر لاشين للأقصوصة المصرية. وبرغم أننا لسنا قدرا كبيرا من هذه الإضافات علي طول مقدمتنا هذه، فإننا سنورد تلخيصا لبعضها أو أهمها. ومن البداية فإننا لسنا بحاجة الي تكرار الحديث عن الآفاق المتعددة التى اقتحمها محمود طاهر لاشين بأقاصيصه. وعن تقديمه لأول مرة فى الأدب العربى تعبيرا فنيا عن الطبقة الوسطي المصرية وعن همومها ورؤاها. لذلك فلن نتحدث هنا عن كل هذه الإضافات، بل سنركز علي الإضافات الفنية وحدها. وقد تناول منها اللغة منذ قليل، وتحدثنا عن محمود طاهر لاشين وعن اللغة الملائمة للعمل القصصى ومساهمته فى بلورة ملامحها. أما أهم الإضافات الفنية التى قدمها محمود طاهر لاشين مع زملائه أبناء المدرسة الحديثة لفن الأقصوصة، فإنها تتعلق بالبناء الفنى للأقصوصة.

وأول هذه الإضافات هى تخليص القصة من التشتت وإخراجها نهائيا من دائرة الخواطر والوقوف بها بعيدا عن مفهوم الحكاية. فقد كانت الأقصوصة المصرية الوليدة تعانى من داء التشتت ذاك. هذا الداء الذى لم تسلم منه أقاصيص محمود طاهر لاشين الأولي، حيث كانت الأقصوصة تفتقد الخط الرئيسى الذى يجمع كل جزئياتها، أو المحرر الواحد الذى تدور حوله الجزئيات. ففى سخرية الناى مثلا لا نجد بناء محكما للأقصوصة، فثمة أكثر من خط واحد، وعلي التحديد خطان يستأثران باهتمام الكاتب، دون أن يكون هناك سوي، ليست أكثر من مجموعة من الخواطر الرقيقة المتناثرة، التى يجمعها صوت الناى، وسحر ضوء القمر. ونفس العيب نعثر عليه فى منزل للإيجار، التى تبدأ بمقدمة طويلة لقصة عادية للغاية. فضلا عن أن بالقصة ثلاثة خطوط أو محاور رئيسية: قصة عم سرور، وقصة عباس ناجى الباحث عن المنزل، وقصة شكرى بك ومنزله ومصرعه.

غير أن محمود طاهر لاشين ما لبث أن تخلص من هذا العيب الجوهرى، ليقدم بذلك واحدة من أهم الإضافات إلي حقل الأقصوصة، ألا وهى المساهمة فى بلورة ملامح البناء العضوى المتين للأقصوصة المصرية. وخلق الخط الأساسى أو المحور الرئيسى الذى تدور حوله كل التفاصيل، وتخلق من أجل توضيحه وتعميقه كل الجزئيات. وعندما تحقق هذا تحققت معه فى نفس اللحظة الإضافية الثانية والهامة: تلك الإضافة التى اعتبرها أهم ما قدمته المدرسة الحديثة للأقصوصة المصرية، وأعنى بها تمكن هذه المدرسة عامة، ومحمود طاهر لاشين بصفة خاصة، من إعلاء شأن كل من التصوير والتجسيد فى القصة. والإقلال ما أمكن من جانب السرد فيها. فالسرد فى القصة مثل النظم فى الشعر؛ لأنه يحول القصة إلى حكاية تافهة لا قيمة لها. بينما يتمكن التجسيد والتصوير بقدرتهما الفائقة علي تجسيم الحدث أو الشخصية وضخ دماء الحياة فيها. بأن يخلق فى ذهن المتلقى

ليس أثرا عقليا فحسب، ولكن– وهذا هو الأهم– أثرا انفعاليا قويا. إنه يحول الحكاية فى السرد إلى صورة حية قادرة علي أن تهب التلقى عشرات الرؤي والدلالات. إلي قطعة من جسم الحياة الناضجة يراها كل قارئ من زاويته الخاصة. وعلي قدر فهمه الذاتى، ويأخذ منها ما يروقه.

وليحقق هذا التجسيد، استخدم محمود طاهر لاشين العديد من الأدوات الفنية الناضجة، والتى لم تسمع الأقصوصة المصرية عن بعضها من قبل. فقد كتب القصة فى صورة رسالة، وكتب القصة المروية بضمير المتكلم، والمروية بضمير الغائب فى آن. استخدم الراوى تارة. وقدم الأحداث وحدها دونما مقدم أو راوٍ تارة أخري. واستخدم فى مذكرات سيدنا نوح القناع التاريخى والأسطورى. كما استخدم أسلوب المذكرات، بل وكتب قصة كاملة به. عثر علي بذرة المنولوج الداخلى، ولكنه أهملها فلم يظهر لها فى أى من أقاصيصه، ولو مجرد برعم صغير. كما قدم الصورة الكاريكاتورية، واللوحة الوصفية الساخرة، وخاصة فى تلك اللوحات التى لم ينشرها فى أى من مجموعاته الثلاث والتى ظهر بعضها فى (الفجر)، كما تمكن محمود طاهر لاشين، بالإضافة إلي كل هذا، أو بسببه، من أن يوسع أفق الأقصوصة المصرية من الناحية الفنية. ليس بمعني تقديمه لعدد من الإضافات لهذا الفن العالمى علي صعيد الشكل. ولكن بمعني أنه تمكن من مزج الكثير من إنجازات هذا الشكل الفنى، بروح الأرض المصرية التى ما كانت لتستسيغها، لو لم تقدم لها بواسطة هذا القلم الشفيق الحنون. واختيار أكثر أدواته الفنية تلاؤما مع طبيعة الموضوع المصرى. وهذا هو السر فى قدرته الهائلة علي اكتساب القراء لهذا الشكل الفنى الوليد. فقد نفذت النسخ الخمسمئة لمجموعته الأولي سخرية الناى عقب صدورها بفترة قصيرة، وهذا رقم لا يمكن الاستهانة به فى توزيع مجموعة من الأقاصيص فى تلك المرحلة.

من كل هذا نري أن محمود طاهر لاشين كان من أبرز كتاب عصره تعبيرا بالأقصوصة عن هموم هذا العصر، وسيرا بها فى طريقها نحو الهدف الذى تمناه لها عيسي عبيد، وهو أن تصبح أقصوصة مصرية وعصرية فى الوقت نفسه. فقد قطع محمود طاهر بأعماله الفنية تلك رحلة طويلة وخصبة تمكنت من تمهيد الأرض لمن جاءوا بعده. بل لا نغالى إذا قلنا إنها ساهمت فى إنجابهم.

وأخيرا، فإننى، وأثناء إعدادى لهذه المجموعة الكاملة من أعمال محمود طاهر لاشين للنشر، ربما أكون قد أكثرت من الهوامش فى بعض المواقع، ولكن دافعى فى ذلك كان الرغبة فى توطئة النص لشباب القراء، علهم يتعرفون بيسر على أدبهم وتراثهم.

صبرى حافظ

لندن فى ١٢ أبريل ١٩٩٦

أولاً: القصة القصيرة

أ- المجموعة القصصية الأولى:

سخرية الناى

مجموعة قصص مصرية

(١٩٢٦)

نشرت الطبعة الأولى لهذه المجموعة بدون تاريخ، ولكن المؤكد أنها ظهرت عام ١٩٢٦ .

الناشر: مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبدالعزيز الصمد بالقاهرة.

النسخة المحفوظة منها بدار الكتب المصرية برقم ز ١١٥٧٣ . مهداة من المؤلف إلى مجلة الصباح الغراء بتوقيع مؤرخ ١٩٢٦/١٢/٢٦ .

الإهداء

إلى روح شقيقى

الأستاذ محمد عبدالرحيم

مقدمة المؤلف:

ليس عندى ما أقوله أكثر من أن هذه بعض من قصص، كتبتها فيما بين يناير سنة ١٩٢٥ وسبتمبر سنة ١٩٢٦. وقد نشر أغلبها فى (جريدة الفجر) - صحيفة الهدم والبناء- التى يصدرها صديقى الأستاذ أحمد خيرى سعيد، كما نشر بعضها فى جريدة كوكب الشرق الغراء.

وقد كنت أتقدم بكتابى هذا إلى القراء بشىء من الوجل لو أن الأدب العربى كان فى غير حالته الحاضرة، أما والفن القصصى -الذى أصبح فى بلاد الغرب هو الأدب بعينه- ما برح فى آدابنا ضئيلا إلى حد الانعدام، فإننى أتقدم بهذا الكتاب، وأنا أشعر بسرور من يشترك فى وضع أساس يشاد عليه صرح هذا النوع الجديد من الأدب.

ومما يضاعف سرورى أنى أرانى أعمل إلى جانب طائفة صالحة من خيرة الأدباء المستنيرين، أخص بالذكر منهم: الدكتور حسين هيكل، ومحمود تيمور، والدكتور حسين فوزى، وحسن محمود، وإبراهيم المصرى، وسعيد عبده، فأولئك هم الذين بكروا فى بذل جهودهم، لاقتحام الطريق الذى يؤدى بالأدب العربى إلى مكانته التى يجب أن تكون له بين الآداب العالمية.

محمود طاهر لاشين

مهندس بمصلحة تنظيم مصر

١٩٢٦/١١/٢٠

سخرية الناى

من الأجسام جسم يضغط فلا يكسر، بل يلين فيتحور، وجسم يضغط فلايكسر ولايلين فيتحور، بل ينقى فيتبلور. كذلك النفس ضعيفها يكسر، وخبيثها يتحور، وقيّمها ينقى ويتبلور. ومن النوع الأخير الأنبياء العظماء.. وعم وهدان..

عم وهدان الذى ذاق مرارة الجوع رضيعا، حين أنْضَبَ الجوع ماء الحياة فى ثدى أمه، يعالجه جهد فكيه الطريين، فما تسيل دموع المسَغْبَةَ[١] من عينيه ودموع الأسى من عينيها.. واستشعر اليتم طفلا، حين انتزعه الدهر حتى من ذلك الصدر الناضب، لتتقاذفه أيد وتتلقفه أخرى. وصَلِيَ[٢] القسوة صبيا -قسوة المرأة التى تريد أن تقسو- من تلك التى استضعف لها أبوه فيما بعد، بقدر ما قسى على أمه فيما مضى.. وأقبل الشباب فإذا الشاب طريد كالكلب الضال، ووافت الرجولة فإذا الرجل شريد حائر، يسلمه الصيف اللافح إلى الشتاء القارس، ويطوح به الريف العابس إلى الحضر الهازئ، يطارده البؤس، ويتعقبه[٣] الشقاء.

لم يحرجه ما لاقى فأصبح جثة هامدة، ولم تسول له نفسه فكان لصا أو قاطع طريق، ولكن هذا وهدان الشيخ أخيرا نظرية فلسفية مجسمة، تستخف ما كان، وتستخف[٤] بما سيكون!!

يالها من أعجوبة! وأين يوجد ابن العنقاء هذا؟ أم تراه من بحارة السندباد، أو من رفاق نورالدين؟

لا هذا ولاذاك، فعم وهدان حى يرزق، وفى الوقت الذى تسود فيه هذه الصفحات سطراً سطراً، يكون هو منهمكاً فى نشر فلسفته، بأقصى ما أوتى من حرارة وإخلاص، لاخطابة للعامة، ولا

---

(١) المسغبة: الجوع

(٢) صلى القسوة: احترق بها

(٣) يتعقبه: يسير وراءه

(٤) تستخف: تستهين

تدويناً للخاصة، ولكنه يرسلها فى الفضاء لمن شاء من ثقوب (نايه) أنغاماً إثر أنغام، فرحة ترقص رقصاً، وحزينة تئن أنيناً.

-٢-

هنالك عند مدرسة الصنايع منطقة صاخبة لاغبة[١]، تكتنفها مصانع الحكومة عن اليمين، ومصانع الأهالى عن اليسار، تجاوب فيها المطرقة المطرقة، وتتعالى فى جوانبها قعقعة[٢] الحديد بين دوى الآلات المستمر، كأنه همهمة الشياطين والمردة تزوم وتهترس.

ولئن كانت الحقيقة التى يخجل من إنكارها الخجل، أن تلك المصانع (أهلية) لمجرد أنها ليست (حكومية) وأنها -كلها أو جلها- ليست لغير (أرمنيان وبترو ودارتانيان) فإن هنالك -ولاشك- مصانع أخرى مصرية للمصريين.

الطريق مزدحم ببائعيها وعارضيها، وإلا، فمن أين لا أين لهذا السيد ذى اللبدة السوداء فى سمت رأسه، والرفروف الأزرق إلى منتصف أنفه، أن يملأ كل هذه البراميل المرصوصة فوق عربته باللفت الوردى، والخيار الزمردى، والليمون الكهرمانى؟! ومن أين لا أين يتسنى لهذه السيدة الوقور ذات الوجه الممتقع والملاءة المجللة بالتراب، أن تأتى بهذا العدد العرمرم من (المحشى) الذى هى واثقة من جودته ورخصه، وثوق (فورد) من سياراته ومحركاته، إلى حد أنها لاتزيد فى مناداتها على أن تقول فى هدوء: (الطيب يا غشيم) - مع مد ياء الغشيم مداً رزيناً بعيداً عن أية مباهاة أو أنانية؟؟ ثم من أين -إذا تجاسرنا فأنكرنا وجود المعامل والمصانع، يستطيع أولئك الأماجد أصحاب رءوس الأموال أن يحشدوا هذه الأكوام من القلل الرشيقة، والأباريق الأنيقة، والأزيار الضخمة، والبلاليص الفخمة: بين بيضاء بلا طلاء، ومنقوشة باعتناء، حمراء ذات بهاء، وصفراء فى زهاء، ورقطاء (فنطزية) الرواء؟! لابد أن لكل شئ مأتاه ومصدره..

والكثير يعرفون هذه المنطقة، والترام كفيل بإرشاد الذين لايعلمون. ونحن فيها أقرب ما نكون إلى مستقر البطل، وبيننا وبينه قنطرة خشبية طويلة عريضة ملتوية، وتنحنى حتى ليمر تحتها أتلع القطارات جيداً، وحتى ليشرف المرء فوقها على بيوت العمال، حقيرة، قذرة بأوسع معانى

---

(١) صاخبة لاغبة: فيها أصوات مرتفعة مضطربة

(٢) قعقعة الحديد: صوته

القذارة والحقارة، متساندة بعضها إلى جانب بعض فى ذلة ومسكنة جهة الشرق، تقابلها فى الغرب تلال من تراب الفحم متجهمة عابسة، كأنها رمز حياة التعساء.

ثم تنحدر القنطرة فإذا نحن فى ريف له مزارعه النضرة الخضراء تكسو الأرض، ونخيله الملتهب المتوج طامح إلى السماء، وله أكواخه الوادعة، تضم أهلها الوادعين، وهدوءه الذى يبلغ أحياناً حد الرهبة والجلال.. لكن الحضر عدا عليه[1] فأقام فى بعض أرجائه دور المدن وحوانيتها.

-٣-

فى أحضان هذا الريف، وتحت رعاية الحضر يعيش عم وهدان ولست مسئولا عن كائن من كان يشذ به خياله، فيحسب أن سيجد ههنا إنساناً له أكثر من رأس واحد، وعينين اثنتين، وتكوين كأى تكوين بشرى مألوف. بل هو رأس أقرب إلى الضخامة، لولا شعرات بيض موزعة فى أنحائه لكان أنموذجاً بديعاً للصلع، تتقدمه جبهة عريضة، خط فيها الدهر خمسة خطوط صريحة، لايستطيع عم وهدان معها أن ينكر أنه ابن الخمسين، ثم عينان عميقتان محّدجتان[2]، فوقهما حاجب ونصف حاجب، وتحتهما لحية وشارب، لا يحسد أحدهما الآخر على شئ، فلكل منهما نصيبه الوافر من المشيب، ولكل منهما الحرية المطلقة فى أن ينمو حسبما أراد..

أما نصف الحاجب الآخر، فلكى نبحث عنه يجب علينا أن نستميح الزمن، أن يتراجع إلى حيث كان هذا الوهدان بين براثن تلك التى استضعف لها أبوه فيما بعد، بقدر ما قسا على أمه فيما مضى. لقد كان يوماً مشرقاً جميلاً، ورأت المرأة أن الإفطار يذهب بنشاط مثله، فأمرته أن يحمل زكيبة القمح، فيلحق بها والده فى (السوق) ثم يعود فيفطر، ولكن الزكيبة -المشار إليها- كانت تقاريه طولاً وتزدريه حجماً، فنظر الفتى إلى هذه نظرة الفزع، ثم إلى تلك نظرة التوسل، لاسيما وأن قطعة الخبز وجزيئات الجبن التى لم يكلفه مضغها مضغاً جيداً أكثر من دقيقتين ونصف من مساء الأمس، قد فعلت بها معدته وقتئذ ما تفعله سائر نظيراتها لو قذف لهم بمثل هذه الفريسة الضئيلة..

ولكن المرأة أصرت، فهوى الفتى على حمله يعالجه، فكان كأنما يعالج شيئا آخر، لأن الحمل لم يتزحزح، فأرغت المرأة وأزبدت، لأنها لاتطيق أن تعول مثل هذا الرخو البليد الكسلان، ثم عادت تندد بوالدته وتستنزل عليها فى قبرها الويلات واللعنات.

---

(١) عدا عليه: اعتدى عليه

(٢) محدجتان: تنظران بشدة

فانزوى اليتيم فى بعض أركان الدار، وانهمرت دموعه ساخنة على خديه، وعند الظهر جاء الرجل، فابتدرته المرأة تشرح له ما كان بصوت يتعب حنجرة غيرها، وبكيفية تعد كذباً وتلفيقاً فى اعتقاد سواها، حتى انقض الوالد على ولده، وأمسك برقبته بيد من حديد، ثم هزه هزاً متداركاً عنيفاً، وهو يزمجر[1] كالرعد القاصف، ويعوى كالذئب الجائع، ثم قذف به بكل ما أوتى من قوة، فاندفع الغلام يجرى بخطوات غير متزنة، وهو مكب على وجهه، حتى انطرح على الأرض، فاستقبل جبهته حجر الرحى، وأشفق الحجر عليه فلم يلتهم غير نصف جبينه. ولكن ما لنا وللماضى، والماضى مغفور له أردنا أم لم نرد..

-٤-

فى أحضان هذا الريف، وتحت رعاية هذا الحضر، يعيش عم وهدان -بعد اليتم والقسوة والتشرد- هانئاً ناعماً مطمئناً.. لم تتفتح له أبواب السماء فى ليلة القدر، ولم توافه فى عاشوراء (بغلة العسر). لا، ولم يعثر فى تطوافه وترحاله على خاتم سليمان، أو مفاتيح خزائن كسرى، ولكن الصدفة ساقته إلى هذا الحى ظهر يوم، وكان من أيام الصيف، متوهج الشمس شديد الأوار[2]، وكان التعب قد نال منه، حتى لقد ازداد انحناء ظهره تحت جعبته على قلة ما تحتويه من أسمال وقوت، وحتى لقد تخاذلت ساقاه مع ما اعتادتاه من ذرع الأرض، وتحرقت قدماه من فرط ما تسرب إلى حذائه الضخم البالى من حصى وتراب، وكان العرق يتصبب من جبينه، ومن رأسه الأصلع رغم الشملة الملفوفة حوله فكان يمسحه بظهر يده الخشن المعروق، لأن راحته كانت أبداً مطبقة على (نايه) حتى لقد أصبح كأنه جزء منها، نايه الذى ليس له من حطام الدنيا سواه عزاء ومرتزق!! وكلما مسح العرق استجد، حتى أحس بجبهته تلتهب، وبلغ مسجداً صغيراً إلى جانب الطريق، يعرف بمسجد (الحلى) فدخله يؤدى الفريضة ويستريح..

وكانت النوافذ مقفلة، لذلك كان جوف المسجد معتما رطباً.. وحسب (عم وهدان) حين تخطى العتبة أن ليس ثمة أحد، لذلك أحدث وهو ينفض حذاءه شوشرة، لم يكترث لمقدارها، ولكنه ما لبث أن آنس صوتاً هادئاً يرتل بعض الآى فى هدأة[3] المكان، فأحس بشئ من الخجل،

---

(١) يزمجر: يصوت

(٢) الأوار: الحر

(٣) هدأة المكان: سكونه

وتضاعفت فى نفسه الروعة، فتسلل إلى ركن لم يكلفه الانتقال إليه إلا خطوات قليلة، وأقام صلاته، لايتعدى صوته شفتيه، ثم انكمش فى مكانه كأنما يريد أن يحتل أصغر حيز ممكن، ولبث حيناً جامداً منكس الرأس، ينصت فى خشوع مطلق إلى القارئ، دون أن يفهم شيئاً مما يحرك به لسانه، وكان القارئ عند (القبلة) ووجهه إليها، لذلك لم يكن عم وهدان يرى غير ظهره الضيق وقفاه المديد، والزر الأزرق الضخم وسط العمامة الضخمة، الكل يهتز اهتزازاً بطيئاً على نغمة ترتيله البطئ، فلما فرغ رفع يديه إلى السماء، فأسر إلى الله دعوات طويلة، ثم أمرّ راحتيه على وجهه تبركاً وتيمناً، بعد ذلك استدار فى مكانه، فحياه عم وهدان، حينما وقع نظره على لحيته السوداء المستديرة، فرد التحية مضاعفة وفى تؤدة ووقار، ثم ساد صمت عميق، كان كل منهما أثناءه يرنو[1] إلى الآخر حيناً، ثم يتجنب نظراته حيناً، كأنما كانا يهمان بالكلام ثم يحجمان، وأخيراً قطع المعمم هذا الصمت بأن سأل الشيخ عما إذا كان من أهل الحى، فكان هذا السؤال فاتحة حديث ذى شجون، لأن قلبيهما ما لبثا أن اطمأنا وتعارفا، وإذا هما بعد قليل فى متر مربع واحد، وقد مس حديث عم وهدان قلب صاحبه، لأنه حديث صادق، كل نبرة فيه تستثير المرثية، وتدعو إلى الإعجاب. وكان لكلمات المعمم نفس هذا الوقع، لاتزانها ورزانتها، ولأنها فى هذا الظرف كانت تشعر بفضل كبير وعلم واسع.

وحانت فريضة العصر فصلّياها جماعة مع من وفدوا من أهل الحى لهذا الغرض، وقام فيهم المعمم إماماً بحكم وظيفته، ثم قدم عم وهدان إلى أصدقائه منهم، وقدم معه ما تصوره من شخصيته، فرحبوا به، وما أتى الليل إلا وهو بينهم، يتنازعون استضافته، ويتسابقون إلى إكرام مثواه.

وبلغ من إعجابهم به بعد ذلك أن أفسحوا له كوخاً بين أكواخهم، وأصبح له من شيوخهم إخوة ومن رجالهم وأطفالهم أولاد وأحفاد.

وأخلد[2] عم وهدان إلى أسرته الجديدة موفور الرزق والكرامة، لهذا تجسمت السعادة فى شخصه.. تباكره طلائع النهار من كوة[3] مأواه، فتوقظه فى لين ورفق، ليباكر الله بالعبادة الخالصة الحارة، فإذا ما علت الشمس فى الأفق، وأفاضت على الأرجاء دفئها وبهاءها، ألفيناه إلى جانب النخلة الوليدة النابتة على مقربة من كوخه، إما ساهماً واجماً يفكر فى كل شئ وفى لاشئ،

---

(١) يرنو: ينظر

(٢) أخلد إليها: أقام بينها

(٣) كوة: نافذة

أو عازفاً على نايه يشدو ويتفنن، وإما ناشاطاً يجوس[1] خلال الدور، يقضى حاجة هذه من تلك، ويبلغ رسالة تلك إلى هذه، وقد لا يؤديها، لأن الأطفال قد تشبثوا به، فهو جالس بينهم يداعبهم ويلاعبهم، كأنه طفل ذو لحية مستعارة.

وعند الغروب تسترد الشمس الراحلة ما بقى لها من أشعة مريضة متسكعة فى أطراف المزارع، ورءوس النخيل، وأعالى الدور، فيعود الفلاحون بفئوسهم ومقاطفهم فوق أكتافهم مكدودين منهوكين من عمل اليوم، فإذا ما استراحوا، وإذا ما سجا[2] الليل، فعم وهدان وسط حلقة منهم يخلب ألبابهم بسمره، أو يشنّف أسماعهم بأنغامه، حتى ينالوا الكفاية من نشوة وطرب، فينصرفوا ويطبق عم وهدان جفنيه على نوم عميق هادئ..

-٥-

على مقربة من حيث ينتهى انحدار القنطرة الطويلة العريضة الملتوية التى مررنا بها دار قائمة، ليست بأعلى الدور المبعثر هنا وهناك فى هذه الضاحية، ولا بأوسعها أرجاء، فهى صغيرة ومن طابق واحد، ولكنها أدق الجميع صنعاً، وأبدعها منظراً.. تحيط بها من داخل السور الحديدى حديقة يانعة منسقة، تدخل على النفس الغبطة والابتهاج.. و رب هذه الفيلا الجميلة ثرى من أثرياء القاهرة.

بناها منذ عام وأنفق على رياشها وأثاثها بسخاء، ولبث فيها مع زوجته، ينتظران قدوم الولد الغائب بقلوب تنتفخ من سرور وفرحة كلما اقترب الميعاد..

هو ولدهما الوحيد الذى أخطأته المنون من إخوة سبقوه، فكان فى طفولته ملتقى محبة ومصدر عزاء[3]، فلما نما وترعرع كان موضع فخار وآمال. ذلك لما كان عليه من ذكاء فذ[4] ونجابة نادرة، فعدا سنِي الدراسة عدواً ونال الشهادة الثانوية فكان على رأس الناجحين، وتاقت نفس الفتى الجامحة الوثابة إلى العلم الصحيح، وإلى الحياة الحقة، فوطد العزم على السفر إلى باريس،

---

(١) يجوس خلال الدور: يسير بينها

(٢) سجا: الليل: سكن

(٣) عزاء: صبر

(٤) فذ: نادر

لينهل من ينابيعها الفياضة المتدفقة، وشرع يقنع تردد أبيه، ويطمئن توسلات أمه، حتى نزلا على إرادته.

هنالك في باريس نَعم الفتى بالحياة، التى طالما حلم بها فى يقظته ومنامه. ولم يلهه ما فى عاصمة اللهو من أساليب الإغراء والاستهواء عن مهمته التى جاء من أجلها، فأكب على دراسة الحقوق بكل ما أوتى من همة وشغف، وميزته نجابته المتفوقة حتى أصبح بين الطلبة شخصية بارزة يشار إليها. وها هو بعد أن أتم دراسته ظافراً ممتازاً عائد إلى وطنه، وها أبواه ينتظرانه بقلوب تنتفخ من سرور وفرحة...

عاد الفتى يحمل العلم فى رأسه والهمة فى صدره، ولكنه كان يحمل السل فى أمعائه!!

وكان المرض فى أوائله حين عاد، فلم يتبين أمره وقتئذ... لا، ولا الأطباء، ..كان كلما ازدادت شهرته ووثق الناس فيه، خانته صحته، وكلما ابتسم له المستقبل عبست له نفسه، وهو على رغم هذا يكافح طريقه إلى مثل أعلى نصبه بين عينيه، ولكن الداء الدائب تغلب أخيراً.. فهوى الفتى على سريره الوثير(١) الذى طالما استلقى عليه يفكر فى حل المعضلات واستقراء المعميات(٢) حتى إذا ما نجح، وأحس بنشوة الانتصار، أخذ يبنى قصور المجد فى فراغه الصغير.

على سريره تهالك الفتى يذيب السل أمعاءه، فينزفها حارة سخينة، ويباعد الألم الفاتك ما بين جفنيه، فيبيت ليله، ويظل نهاره يتضور ويتمرغ، يستنجد ويستغيث، ولا منجد غير دموع الأم، ولا مغيث سوى عطف الوالد.

واحسرة للوالد والوالدة!!

ويشتد الألم حتى ليكون منظراً تتفتت له الأكباد، فيصبون فى فمه جرعة من أفيون سائل، وصفه الطبيب الحائر لمثل هذه الظروف.. إذ ذاك يهدأ الفتى. وقد تشفق عليه سنة من النوم، بل ليظل يقظاً، عيناه مفتوحتان كمطبقتين، يهرف ويهرف(٣)، يذكر ماضيه وأصدقاءه، ويردد ما فعل وما كان يود أن يفعل، وقد تجيش مشاعره فيرى رأى العين جنازته تسير، يتقدمها نعشه، ويحف بها

---

(١) الوثير: اللين

(٢) المعميات: الغامض من المسائل

(٣) يهرف: يقول ما لا يعرف

خلق كثير، يعرف بعضهم، ويسائل أبويه عن الآخرين، ثم يجهش بالبكاء...

تلك كانت حال أهل الدار الأنيقة..

وفى ليلة طلع البدر فى السماء اللازوردية تداعبه سحب شفافة بيضاء.. فتنشر على الأرجاء نوره الفضى، وأكسبها الرونق والبهاء، ولمح المريض نوره من خلال الستائر، فاشتهى أن يقوم فينظره نظرة قد تكون الأخيرة، وأن يملأ صدره من الهواء العليل، يتزود به إلى قبره، فأسنده والداه فيما بينهما، وكان إذ ذاك هيكلاً عظمياً.

وسارا به فى بطء وهو يجر ساقيه جراً، ولكن خارت قوته[1] قبيل النافذة فسقط مغشياً عليه، فأسرعا به إلى السرير، ثم أسرعا ففتحا النوافذ، علّ الهواء العليل ينعشه، وعلّ ضوء القمر يعيده إلى صوابه.

فدخل الهواء ودخل النور، ولكنهما كانا يحملان أنغام مرسلة متتابعة، تستسخف ما كان وتستخف بما سيكون..

ومرت سحابة على وجه القمر..

(١) خارت قوته: ضعفت

فى قرار الهاوية

- ١ -

هي ليلة من ليالى الشتاء، والشتاء فى عنفوانه: السحاب رابض فى السماء، فهى مغبرة مكفهرة، والثلج ثائر فى الهواء، يسوق الناس إلى دورهم بأسنان مصطكة وفرائص[١] مرتعدة. فلم تحن الساعة العاشرة مساء إلا وزقاق ع...مظلـم موحش كالقبر. لايسمع من يتسمع من أهلـه -الكامشين حول دفاياتهم ومناقدهم- غير (طب.. طب.. طب..) - وقع أقدام أحد السابلة[٢] يكافح طريقه وسط الطين المتراكم، والبرك المبعثرة التى خلفها مطر الليلة الماضية.. أو (طق.. طق.. طق) وقع حوافر جواد يعدو فى الشارع العمومى.

وفى الساعة الحادية عشرة حينما رحبت الوسائد بآخر متسكع، وحينما كانت الأحلام الصبيانية تداعب الأحلام الصبيانية، كانت (نجية) الصغيرة التى لم تتخط العاشرة إلا منذ أشهر، تتسلل جانب الجدران، عارية القدمين، ليس لها من زمهرير الليل وقاية سوى شال أسود على رأسها المنكس، ما يكاد يستر خروق جلبابها البالى لما به هو نفسه من خروق البلى.

لم تكن (نجية) بضالة، ولو أنها كانت أتعس من ضال! ولم تكن بمتسولة، ولو أنها كانت أبأس من متسول! كانت منذ هنيهة نائمة على فراشها الرثيث[٣] القذر، إلى جانب حائط (المندرة) المرطوبة ثم أن أباها جاء ثملاً[٤] كعادته، مبكراً على غير عادته، فتقدم نحوها يهمهم ويتمتم، ويهرف بما لايعرف، فلما صار إليها ركلها فى قسوة فاستيقظت مذعورة، ولم تكد تعتدل فى وقفتها حتى لكزها[٥] بزجاجة في يده لكزة ألقتها على صندوق مجاور، واصطدمت رأسها بالحائط.

---

(١) فرائص: جمع فريصة وهى عروق الرقبة تثور وترتعد عند الغضب

(٢) السابلة: المارة

(٣) الرثيث: البالى

(٤) ثملاً: سكران

(٥) لكزها: ضربها

ثم اجتذبها فقامت، فدفع إليها بزجاجة فتناولتها، ثم جعل يفتش عن جيبه فلما عثر عليه، جعل يفتش فيه عما بقى من دريهمات اليوم، وهو يترنح ويتأرجح ويكيل لها ولأمها أنجس الشتائم المتلعثمة. ثم أخرج قرشين دفعهما إلى الصغيرة، وأمرها أن تذهب إلى خمار تعرفه، ليملأ الزجاجة من (اللى بيشربه أبويه!).

وكانت الأم أثناء ذلك واقفة فى أحد أركان الغرفة، واضعة يدها على خدها، تنظر إلى ما يجرى أمامها فى امتعاض[١] وألم، ممسكة نفسها عن التداخل خيفة الفضيحة و(الهتيكة) غير أنها حين رأت بنتها تتقدم نحو الباب صاغرة تشرق[٢] بدمعها، لم تطق الجمود، فاندفعت نحو ابنتها تحاول منعها، ولكن الرجل الملتهب الرأس، صوب إليها نظرات كأنها الشرر، يتطاير من عينيه المتقدتين. ثم تقدم فأمسك بتلابيبها وقال لها فى لهجة المخمورين:

- سيبيها... بقول لك سيبيها... سيبيها وطاوعينى!

فقالت الأم بصوت كظيم[٣]:

- أسيبها ازاى؟ أسيب بنت زى دى تطلع فين دلوقت فى البرد اللى يقصف المسمار.. يا راجل اختشى وحس على عرضك.. ماديك شارب لما عميانه عينك.

فهزها الرجل هزة عنيفة وقال: شارب بفلوسى.. يا بنت الكلب يا دون.

ثم دفعها بكل ما أبقته الخمر فيه من قوة الرجل. فتراجعت المرأة بضع خطوات، ثم سقطت، وتشبثت فى سقوطها بملابس مدلاة، كانت على مقربة منها، فانقطع الحبل الذى يحملها، فهوت المسكينة، وهوت على وجهها الملابس، فخنقت صرخات ذعرها. فلما رأت الابنة ذلك خرجت على الفور.. وهى تنشج[٤] وتنتحب[٥].

وها هى تتسلل جانب الجدران، تتلمس طريقها إلى الخمار.

---

(١) امتعاض: ضربها

(٢) تشرق بدمعه: تغص به

(٣) بصوت كظيم: بصوت محبوس

(٤) النشيج: البكاء من غير صوت

(٥) النحيب: أشد البكاء

وبلغت الحانة، وإنها لبؤرة صغيرة حقيرة، قد أقفل بابها إلا قليلاً، فأطلت (نجية) من ذلك القليل، فتبينها ثلاثة من الزعانف[1] ذوى (اللاسات) ولم يكن بالمكان غيرهم وكانوا يحتسون، وقد امتلأ جو المكان برائحة سكائرهم الرديئة فابتدرها أولهم قائلا:

- أنت جيه تدورى على الدلعدى أبوكى.

وأسرع الثانى فقال:

- دورى عليه فى الوحلة. هاأ. أ. أى.

وعز على ثالثهم أن يتنازل عن نصيبه فى هذه الفكاهة فقال:

- الغفير خطفه فى بقه وجرى! ها.أ.أ.آى.

وتقدمت (نجية) إلى (استاورو) وكان نصف نائم فى مكانه من البنك، فأعطته الزجاجة والقرشين، ثم أبلغته الرسالة، فأنجزها استاورو بسخاء وكسل.

وأخذت الابنة طريقها إلى المنزل بخطوات ثقيلة، وقلب كسير، بل لقد حدثتها نفسها بألا تعود، ولكنها ذكرت أمها فتابعت خطاها، وما هى إلا أن أشرفت على الزقاق، حتى سمعت صوت أمها عالياً باكياً، ودوى فى أذنيها جئير[2] أبيها مهدداً متوعداً.. فهلعت، وتصادف وقتئذ أن أبصرت الخفير مستنداً إلى الحائط مسنداً رأسه على هراوته، فتقدمت إليه وقالت فى توسل:

- النبى تجى معايه لحد البيت تسكت أبويه!

فتثاءب الخفير ثم استعادها بخشونة ما قالت، فأعادته خائفة، ثم أمرها بأن (تنجر قدامه). ثم تبعها.

وكانت الزوجة المسكينة تصيح بصوت متهدج[3] قائلة:

- على إيه كل ده على إيه. يا شيخ اتوكس، يا شيخ قول يا أرض انشقى وابلعينى! من كتر اللى بتجيبه فى إيدك وانت داخل!؟

---

(١) الزعانف: الأرذال من الناس

(٢) جئير: صياح

(٣) بصوت متهدج: بصوت متقطع فى ارتعاش

فقال الرجل:

– عوزاني يعني أجيب لك إيه؟؟ طيب. أنا من غير مؤاخذة. يعني كنت عاوز أجيب لك الشاويش معايه. وهو اللي مرضيش. هأ. هأ. أعمل لك إيه.

فقالت المرأة محتدمة[1]:

– الشويش؟؟ الشويش تجيبه لروحك، تجيبه لروحك. ده بدال ما تفتكرنا بقرش صاغ سمك، ولوعلشان العيلة المسكينة دي اللي ذنبها في رقبتك ليوم حاشر.

فقال:

– احنا فين يا مره، ويوم حاشر فين؟

فقالت المرأة متعملة شيئاً من الخناقة:

– أنا عارفة بقى؟!

ثم عادت إلى صوتها العالي فقالت:

– طب والنبي لولا حبة البطاطس التي بعتتهملنا ست أم سيد لكانت البنت باتت مكفية بالجوع.

وهنا وصل الخفير الدار، فأسرعت (نجية) إلى داخلها. أما هو فضرب الحائط بهراوته مرات ثم قال في كبرياء (الحكام):

– جرى إيه يا ناس يا همج إنتم يا دون. كل ليلة الطيطة والطمبليطة دي داهية تخفيكم وتخفي عينتكم وبدنتكم! والله إن ما كنتم تسكتم زي الكلاب لجيب لكم جناب المأمور لحد هنا يكتب فيكم محضر إجلاج -إقلاق- للراحة العمومية. هه!

ثم ركز هراوته في الأرض ونصب قامته في كبرياء كأنما يستعد لتنفيذ تهديده بلا هوادة ولا إشفاق.

---

(١) محتدمة: بصوت شديد

وما كان أشد وقع هذا التهديد، فقد عقدت الألسن، وتلاشت الأصوات وعاد الزقاق مرة أخرى موحشاً كالقبر!!

-٢-

وأشرقت شمس الغد، حتى لقد أرسلت أشعتها إلى برك الزقاق وأوحاله. وكان يوماً صافياً زاهياً. وبكر النجار، والحداد، والبناء، وكل ذى صناعة من أهل الحى إلى صناعته، ولبث المخمور مخموراً.

ومضى الصبح فى نوم يقظ. وانقضى الضحى فى يقظة نائمة.

وهنالك هنالك قبيل الظهيرة، أزاح الزوج عنه الغطاء ثم اعتدل فى جلسته، وأخذ يفرك عينيه المحمرتين بكلتا يديه وعمد إلى (قلة) إلى جانبه فأفرغها فى جوفه رشفاً واجتراعاً. ثم تناول حذاء موحلاً، فاغر[١] الجوانب، متآكل النعل، فدسّ فيه رجله دساً. بعد ذلك تلفت ذات اليمين وذات اليسار، يفتقد شيئاً، ثم رفع اللحاف قليلاً ومد يده فأخرج من طياته شيئاً لا يتأكد المرء من أنه «طربوش» إلا بعد أن يضعه ذلك المخلوق على رأسه القذر المشوش الشعر!..

ثم تلفت ذات اليمين وذات اليسار، وفى هذه المرة أبصر زوجته وابنته جالستين قرب الباب فى ذلة ومسكنة، فابتدرهما بقوله:

- إنتم لسه عايشين يا غجر، فزى منك لها وناولينى الجاكتة.

فلم تعبأ الأم وأسرعت الابنة إلى البحث عنها فى أركان «المندرة» وأخيرا أخرجتها من وراء الصندوق، فأدخل فيها ذراعيه ثم تمطع، ثم تثاءب، ثم قام، فارتفعت رأسه عن الأرض نحو مترين.

ولو أنه لم يبع المرآة لرأى فيها وجهاً[٢] أعجف شاحباً كوجوه الموتى، تتدلى منه شعرات كذقن التيس، ولتبين ما آلت إليه عيناه، فقد ذبلتا، وغارتا فى محاجرهما بقدر نتوء أنفه، ولكنه باع المرآة كما باع «البريه» وكما باع كل ما له ثمن!

---

(١) فاغر الجوانب: مفتوح الجوانب

(٢) وجها أعجف: وجهاً هزيلا

وسار نحو الباب، فلما قاربه إلى المسكينتين وقال لهما فى تهكم واستخفاف:

- لا بأس يعنى من كونكم تموتوا، أنا ماعنديش مانع.

وانصرف! عجباً! وإلى أين ينصرف؟! وهل يمكن أن يكون لهذا المخلوق عمل ينصرف إليه؟!

أجل له عمل يزاوله، ويزاوله جيش من أمثاله، وإنه لعمل يحتاج إلى مهارة، بل فن يتطلب استعداداً خاصاً، فإذا ما توفرت المهارة وإذا ما توفر الاستعداد فهو فن مدر رابح.

يخرج على نحو ما ذكرنا وبعد قضاء ليلة كالتى أسلفنا، فيجوب الطرقات يتصفح الوجوه، ويقرأ معالمها. فإذا صادف شاباً يتوسم فيه الخير[١]، اقترب منه وسار فى حذائه بضع خطوات مطأطئ الرأس، يفرك يديه فى حياء مصطنع، وحيرة متكلفة، ثم ما يعتم[٢] أن يقول بصوت خافت:

- لامؤاخذة. حضرتك ما كنتش فى مدرسة الـ......

وهى مدرسة أهلية كان لها من زمن صيت وشهرة. فيجيبه الشاب إما بالإيجاب أو بالنفى، وفى كلتا الحالين يستأنف الرجل حديثه:

- محسوبك أحمد صبرى، كنت خوجة جغرافيا وخط أفرنجى فيها، وبعدين طردونى بعد ما أكلوا علىّ ماهية ست أشهر، وأدى الحالة أصبحت (وهنا يتهدج صوته) زى ما حضرتك شايف. (وهنا يعقد الحياء لسانه ولكنه يقاوم عواطفه الشريفة ويقول) وأنا طالب من سيادتك قرش صاغ واحد.

وأى شاب يرى معلمه القديم، أو معلماً قديماً، أناخ عليه الدهر[٣] إلى هذا الحد، ثم لا يقدم إليه ما يطلب أو أكثر مما يطلب.

وإذا لمح فى الترام وجهاً يعرفه قفز إليه وسأله: «بحق باقى المعرفة تمد إلى يد المساعدة. أنا أحمد صبرى الممثل». فيمد إليه يد المساعدة.

---

(١) يتوسم فيه الخير: تظهر عليه علامات الخير

(٢) ما يعتم: ما يلبث

(٣) أناخ عليه الدهر: حطمه وقسا عليه بنوائبه

وما هى إلا أن يرى على بعض القهوات أحد (البهوات) يتفرس[1] فيه الورع والصلاح لسبحة يقلبها فى يده، حتى يجلس إلى الطاولة المجاورة ثم يتناول «إعلاناً» من الأرض يكتب على ظهره: «ينوب قلمى عن لسانى فى طلب خمسة قروش لإطعام امرأتى وأولادى الجياع -وأنا ابن المرحوم صبرى بك الخبير- ولكن الزمن غادر فهل أكون سبعاً».

ثم يقدمها إلى فريسته فى احتشام واحترام، حتى إذا ما قرأها، دنا منه ولفق حكاية تستدر الدمع العصىّ، وتخرج الشلن من جيب الشحيح.

وهكذا يجمع مالايقل عن عشرين قرشاً كل يوم، لايفوز بها غير (استاورو) وأمثاله.

أما امرأته المسكينة...

وأما ابنته التعسة...

(فلا بأس. يعنى من كونهم يموتوا. هو ما عندوش مانع)!!!

-٣-

ولكن أم سيد كانت جادة دائبة!!

وأم سيد هذه هى ابنة المرحوم يونس «السقا» وأرملة المرحوم «الأسطى إبراهيم الشباشبى» ووالدة المرحوم سيد المجهول الصناعة. فقد أبى أن يحمل القربة كجده، وحاول أن يشابه أباه فما أطاق، ثم مات على إثر ضربة عنيفة من عصاة غليظة، هوت على ناصيته فى إحدى مشاجراته التى كان مولعاً بإثارتها.

وإنها لامرأة قاربت الخمسين، طويلة القامة، عريضة الأكتاف، غائرة الأشداق، دميمة السحنة على وجه الإطلاق.. ولم يكن لها من عمل -بعد الترحم على المرحومين- سوى أن تدعى تارة أنها «دلالة» وتقول تارة إنها خاطبة. ولكن الكثيرين كانوا يعرفون حقيقتها، لذلك كانوا يضطهدونها، ويحرمون عليها غشيان دورهم. فما هى بخاطبة وما هى بدلالة، بل هى أحط من هذه، وأشد خطراً من تلك..

---

(١) يتفرس فيه: يتعرف فيه

ولكثرة افتضاح أمر «أم سيد» واضطهاد الناس لها، تراها لا تعمر طويلاً في مكان واحد. على أنها تسكن الآن «مندرة» لا تبعد كثيراً عن «مندرة» الزوجة التعسة. وأم سيد تعرف أين تأخذ مجراها، وأين تلقى مرساها!

وقد احتل الغرفتين الصغيرتين اللتين تكونان الطابق العلوى للمنزل، الذى تقيم فيه المرأة، شاب اسمه توفيق فى نحو الثلاثين من عمره، وسيم الطلعة، حسن القوام، وهو «حاجب» فى إحدى المصالح. طلق امرأته حديثاً، وقد ترك لها الدار تنعى من بناها، ولجأ إلى هذا الزقاق ليخلو له الجو. وإنه ليعرف من نفسه وسامة الطلعة وحسن القوام، فما يحين العصر إلا وقد نضا ملابسه[1] «الرسمية» واستبدلها بجلباب من الصوف أو السكاروتة -حسبما يلائم الطقس طبعاً- يعلوه معطف من الجوخ نظيف أنيق، وبعد أن يمشط شعره، ويميل الطربوش على أذنه اليمنى، تاركاً للنسيم مداعبة (الزر) يمسك (منشة) من الشعر، ويشرع فى ذرع الطرقات والوقوف فى الميادين، حتى إذا ما جن الليل ألقى (منشة ترحاله) فى قهوة يختلف إليها[2]، وجعل يقص على رفقائه عما صادفه من إقبال السيدات عليه (أقاصيص ألف ليلة وليلة).

وكان «توفيق» قد اتخذ من (أم سيد) خادمة له تكفيه هم ترتيب منزله وإعداد فرشه، وقضاء لوازمه.

وفى إحدى الليالى، بينما كانت هذه المرأة تسامر هذا السيد، عرجت به وعرج بها إلى ذكر أحمد صبرى وزوجته. وكل له غرض يسعى ليدركه فاندفعت تقول:

- عينى على دى الشابة من دون الشباب!! دى حقه فى عذاب الله الأليم..

فقال توفيق:

- إنما دى بس عايشه ازاى؟

- عايشه؟! عيشة الشوم والندامة!! أهو لولايه أنا -وأعوذ بالله من قولة أنا- يعنى لولايه دايماً أفتكرها بحبة طبيخ تكون فايضة، ولابطاقية بتخيطها لده والا لده، والله مانى عرفه كانت عملت إيه مغلوبة المغاليب دى.

---

(١) نضا ملابسه: خلعها

(٢) يختلف إليها: يتردد عليها

– إيه يعني مالهاش أهل المسكينة دي، ينجدوها من الراجل اللي زي الوحش ده طالع ضاربها داخل ضاربها.

فمصت «أم سيد» أشداقها، ولفت ذقنها بأصابع يمناها، وقالت بلهجة الآسفة:

– حقه ما بألهاش حد أبداً. زي حلات جماعة، إنما والله بالحق أبوها كان شيخ مطمطم. يمكن برده سمعت عليه، الشيخ عبدالعاطي، كان يا روحي الإمام بتاع الجامع القريب ده.

فقال توفيق في دهشة:

– يا سلام. وإيش جمع الشامي على المغربي على رأى المثل.

فقالت أم سيد:

– وانت فاكر إن جوزها كان طول عمره كده أبداً، أنا عرفت الرحلة من أولها لآخرها. تصدق أن المدهول على عينه دن كان أصله خوجة؟.. كان أصله خوجة وحياتك، وبعدين ما أعرف عمل إيه، ما أدرى سوى إيه.. راحو طردينه.. بعدين يا سيدي ألما إنت آل عمل في التسخيص.. أهو من يوميها لاكسب ولاريح.. وزاد عليه همه في السكر والبلاوى اللي دار فيها لحد ما بقى زي ما أنت شايفه..

وما كادت المرأة تأتي على آخر كلامها حتى سمع صوت الزوجة المسكينة تصرخ وتستغيث، فلبثا برهة[1] ينصتان. ثم ماعتما أن سمعا أصوات ضرب وتكسير، وتعالت الصيحات تطلب الغوث والنجدة، فأسرع توفيق وتبعته أم سيد.

واقتحم الشاب الباب وقال للزوج في غضب:

– إيه ده يا راجل ده. إنت ماعندكش إسلام ولا إيمان؟

ولم تتمهل أم سيد حتى قالت، وهي تلهث:

– أمال إيه يعني. عاوز تموت الشبه ولا إيه؟!

---

(١) برهة: مدة

فلم يجبهما صبرى، بل التفت إلى زوجته وقال: عجبك يعنى عجبك كده؟ طيب علىّ الطلاق بالتلاتة ما أنت بايته فيه الليلة؟

فأجهشت الأم بالبكاء، وارتمت الابنة فى أحضانها، فتقدم صبرى فانتزعها من تلك الأحضان الشفيقة وقال:

- يالله اتفضلى، إنت لوحدك، خليه ينبسط سدنا لفندى وست أم سيد.

فقالت أم سيد بحدة وغضب يخفيان فرحاً وارتياحاً:

- ماتبتش فيه ماتبتش فيه، يعنى هو سراية عابدين يا أخى، ولايعنى راح يكلوها الكلاب. قومى ياختى باتى عندى قومى.

وعاد توفيق إلى داره بقلب خافق، وعادت أم سيد متأبطة ذراع الزوجة التعسة!

ومنذ تلك الليلة، أخذ التغيير يدب فى كيان المرأة، فى نمط حياتها، وفى جسمانها، وفى تفكيرها.

-٤-

لم تكن تقبع فى عقر دارها[١] كما كانت تفعل قبلاً، بل جعلت تمضى الشطر الأول من يومها عند «أم سيد» ثم يعود توفيق من عمله فتصعد إليه، تقوم بما تنازلت لها عنه العجوز من خدمته. فإذا كان الليل، عادت إلى بيتها حقاً، ولكنها لم تعد بالزوجة الخاضعة المستكينة التى تخشى الفضيحة و«الهتيكة»!! فما هى أن ترى وجه زوجها حتى تتحرش به، وحتى تثير من الشحناء ما يبرر لها الخروج من البيت.

وأخذ التغيير يدب فى جسمانها، فاكتنز لحمها[٢]، واستدار وجهها، وتوردت وجناتها وأشرقت عيناها، وابتسم ثغرها، حتى لكأنها خلقت خلقاً جديداً.

وتفتح ذهنها فتطور تفكيرها، ذلك لأن «أم سيد» كانت جادة، وكانت دائبة تلقنها الدروس، وتكيل فى أذنيها النصائح. لقد أفهمتها أن فى الدنيا سعادة فى استطاعتها أن تسعد بها، وأن للدنيا جوانب بهجة فى مقدورها أن تبتهج بها، وأن هنالك ثروة تنتظرها وأريكة تناديها..

(١) تقبع فى عقر دارها: تقعد فى وسط دارها

(٢) فاكتنز لحمها: امتلأ

ثم أمهلتها إلى أن اختمرت الفكرة فى رأسها فخفق قلبها شوقاً إلى السعادة وبهجة الحياة، وودت لو أن تسرع الخطى إلى الثروة المنتظرة، وكادت تصيح مجيبة صوت الأريكة.. عند ذلك اقتادتها، «أم سيد» إلى بيت «الحجة» ثم ألفت أترابا[1] لها ولِدات ضاحكات فرحات يمسن[2] فى غالى الثياب، ويتنافسن فى العبث بالألباب، وبالغت ربة البيت فى ملاطفتها وإكرام وفادتها، حتى سرت عنها آخر مخاوفها، وقضت على البقية الباقية من وخز ضميرها.

* * *

ولتكر الأيام.

ولتكر الأعوام.

ولترتطم المسكينة فى المنحدر.

وإن من تتجاوز قدماه حافة الهاوية لامحالة واصل إلى قرارها.

* * *

هنالك هنالك فى قرار الهاوية، حيث ضحايا الشهوة والجهل والإغواء، وحيث ضحكات البكاء.

هنالك هنالك، حيث ترقص الطيور المذبوحة، وتترنم القلوب الجريحة.

هنالك هنالك حيث البغاء جِد، ليس بالهزل، تجلس من أجله تلك التى كانت امرأة تحت رحمة المساوم والمقاوم.

هنالك جلست امرأة أحبت زوجها فكرهها، وتهافتت عليه فعافها، وتحملت أذاه فنكل بها.

هنالك جلست على كرسى قديم من القش إلى جانب منزل مهدم ليس فى دهليزه «كنبه» من الخشب بالية عارية عليها مصباح مختنق الضوء، وقطعة صغيرة من مرآة.

هنالك جلست، ما يستر ثوبها هزالها، ولاتموه الأصباغ ما ارتسم على وجهها من هرم وألم، وكانت ساهمة واجمة، تعيد على ذاكرتها حوادث هذه القصة.

---

(١) الأتراب واللدات: النظائر

(٢) يمسن: يتبخترن

بيت الطاعة

- ١ -

كانت صالة المحكمة الشرعية فى ذلك اليوم مثلها فى كل يوم.. غاصة بزبائنها الكرام وغير الكرام، بين شاك وشاكية، وباك وباكية.. زوج ضاق ذرعاً بامرأته، وامرأة ضاقت ذرعاً بزوجها، ومطلقة تريد «النفقة»، ومطلق يريد استرداد ولده. وما إلى ذلك من أشكال إشكالاتنا الزوجية وألوان بلاوينا العائلية. والغالبية الساحقة من هذا الجمع الحاشد من حثالة القوم وأهل الطبقة الدنيا من سكان هذا البلد، حيث الجهالة والحماقة، وحيث تضاؤل سلطان العقل واستفحال أمر الشهوة، ثم من ناحية أخرى حيث الفطرة والاندفاع وراء الغريزة، وحيث عدم القدرة على التفنن فى التصنع وتمويه العواطف اللذين يستران سوءات الطبقات العالية بحجاب مزركش كثيف.

هم من حثالة القوم، وأهل الطبقة الدنيا من سكان هذا البلد، فلا تتجاوز العين عن «لاسه» إلا لتقتحم «عروسة برقع» ولايفلت المرء من «عباءة» إلا ليصطدم «بملاية لف» وقد علت أصواتهم، حتى ليصعب أن تستبين الأذن صوت الحاجب يجأر بأسمائهم، واشتبكت شكاياتهم حتى لايعدم أن يجد مع أى مجالاً للحديث أو مناسبة لبث الشكوى.

ولكن.. بين هذه المجموعة من الحثالة والرعاع، وإلى جانب أحد أبواب قاعات الجلسات وقف «ممدوح أفندى» وهو رجل من أصل تركى، مديد القامة، صلب العود، يكاد يكون رفيعاً بالنسبة إلى طوله، لم تستطع خمسون سنة تقريباً أن تؤثر فى تكوينه تأثيراً يذكر.

فتحت شعره الأصفر القاتم جبهة عريضة ملساء، تشعر من ورائها بعقل واسع مدبر، وتحت حاجبيه الواضحى الظهور الكاملى التقويس عينان ثاقبتان تنبئان عن صدق عزيمة وشدة مراس(١).. وتحت شاربه المفتول المعتنى به شفتان رقيقتان، تدلان على عصبية وحدة مزاج.

---

(١) المراس: التجربة والخبرة

وممدوح أفندى ميسور الحال.. يظهر ذلك لأول وهلة من هندامه الحسن، وياقته العالية، و«بمباغه» الأنيق، وعصاه الثمينة، على أنه لا يعد بين أهل طبقته متعلما، فهو لايعرف بعد «فك الخط» إلا قليلاً من اللغة التركية، تلقنها عن أمه صغيراً. ولا يعد فى الوسط الذى هو منه عاملاً، فقد قضى شبابه فى عز «والديه».. يفكر ويدبر، ولكن فى السخف والصبيانيات، ويسعى وينشط ولكن للذاته وملاهيه..

ثم مات والداه فورث عنهما شيئاً، على أنه ليس بالشئ الكثير. وليس العجب فى أن ممدوحاً هذا قد احتفظ بما ورث، بل العجب فى أن ثروته ازدادت على ممر السنين، هذا الازدياد هو موضوع حديث الكثيرين من أهل الحى، يلوكونه كلما مر بهم أو كلما مر ذكره بينهم. فقد ماتت زوجته الأولى، ويقولون إنها «ماتت بحسرتها» من فرط ما قاست من سوء عشرته، فورث عنها، وتمكنت الثانية من أن تنجو من براثنه، ولكن بعد أن استلب منها ما أرضاه، وها هو فى فناء المحكمة من أجل الثالثة.

وتلك الثالثة فتاة اسمها (نعيمة) على جانب عظيم من الجمال، ولكنه جمال لايدركه الكثيرون، فليس مصدره (الخدود اللى زى التفاح، والوش اللى زى لهطة الإشطة، والحواجب اللى زى هلال شعبان، والمناخير اللى زى بلحة الشام، والصدر اللى زى بلاط الحمام) بل هو جمال الروح، الجمال الذى يوحى إلى الفنان، ويهتاج نفس الشاعر، أو على الأقل الجمال الذى ينشر السعادة المهذبة فى بيت زوج مهذب. ولكن كيف يتسنى لمخلوق هذه نشأته، وتلك جبلته[1] كالذى مر ذكره أن يدرك سر هذا الجمال.

لقد تزوجها. لا! بل اقتنصها اقتناصاً لالشئ سوى أنها ابنة أرملة تركية كانت صديقة والدته، وأن لها بيتاً فى شارع س -وبضعة أفدنة فى ناحية ص-!

وكانت «نعيمة» على بساطة قسطها من التعليم مهذبة النفس، رقيقة الإحساس، فياضة جوانحها ببهجة الحياة.. وكانت موضع إعجاب لداتها وملتقى محبة صاحباتها، يتوافدن إلى دارها، ويتهافتن على مجالستها، وهى أيضاً تحبهن من صميم قلبها النقى الطاهر، ولا تدخر وسعاً فى إرضائهن وإدخال السرور عليهن. وهكذا عاشت نعيمة بين أمها وبين أترابها كالطائر الغريد الفرح.

---

(١) جبلته: خلقته

وما هى إلا أن تزوجت حتى أحست باصطدام عواطفها الرقيقة بجلمد[1] فؤاد ذلك الزوج المتنطع. فهو سيئ النية شاباً ورجلاً، لذلك فهو سيئ الظن بالشباب والرجال، وهو يعلم ضعف من وقعن فى غوايته من النساء، لذلك فهو ضعيف الثقة بالنساء، ومن ثم نشأ فى نفسه إحساس الغيرة واستفحل أمره.

النافذة لا تفتح!

الخادم لايخاطب!!

الملابس حسبما يصف!!

العتبة لا ترى إلا بمشيئته وتحت إشرافه!!

هذا إذن سجن لا منزل، وذلك إذن سجّان لا زوج، وهى إذن مجرمة خاطئة، يخشى من حركاتها وسكناتها لا زوجة طاهرة تعرف الشرف وتقدر الواجب.. ونعيمة -على الأقل- ليست بالتى ترضى هذا النمط من الحياة أو بالأحرى هذا النحو من الموت.

فتألمت، ثم احتجت، ثم ثارت، ثم تركت الدار تندب من شادها وتنعى من بناها.

ولهذا وقف «ممدوح أفندى» حيث تركناه بين الحثالة والرعاع وإلى جانب قاعة الجلسة.. وفى صالة المحكمة -كما أسلفنا- يجد مع أىّ مجالاً للحديث أو مناسبة لبث الشكوى أو إظهار العطف والمرثية. وسرعان ما تشعبت شجون الحديث بين ممدوح وبين بعض النسوة.

فوضعت عجوز إبهام يمناها على خدها الغائر وقالت:

- محل الطاعة؟! يا كبدى على دى الشابة! على إيه ده يا بنى.. أل على رأى المثل «اللى يحبنى ما يكبنى» أيوه اعتقها لوجه الله وأنت ربنا يحنن عليك بغيرها، وهى كمان بنا يحنن عليها بغيرك.

وتضاحكت صبية إلى جانبها، وقالت وجسمها اللين يجاذب بعضه البعض: «آل من عمود لعمود يأتى الله بالفرج». فقهقهت العجوز عن بقايا أسنانها المتداعية وقالت:

---

(١) الجلمد: الصخر

يختى والنبى على قولك.. محل الطاعة إيه وهباب برك إيه.. أمال خليتم إيه يا فنديات للى زى حالتنا.

وأدارت ثالثة ظهرها فى امتعاض ثم غادرت المكان، وهى تهمهم وتتمتم مستنزلة اللعنة على الرجال كافة عامة.

-أما ممدوح أفندى فكان قد أسند ظهره إلى الحائط، ونكّس رأسه، وجعل يضرب مقدم حذائه المؤتلق بطرف عصاته كأنه لا يأبه[1] لما تقول النسوة، وبعد هنيهة نادى الحاجب:

-ممدوح أفندى!.. الست نعيمة..!

فدخل الأول وسرعان ما لحق به محاميان، أحدهما عنه، والثانى عن الزوجة.

وكانت القضية مؤجلة لسماع الحكم فما لبث القاضى طويلاً حتى نطق به..

- ٢ -

ودخلت (نعيمة) بيت الطاعة..

وإنه لمنزل صغير حقير فى إحدى الحوارى.. فيه غرفة متوسطة المساحة، لها نافذتان تطلان على الحارة، سمر (شيشهما) تسميراً.. فلهما إذاً العذر كل العذر إذا لم يسمحا لرأس أن تطل منهما، وليس لأحد عذر فى أن يتهمهما بعدم أداء واجبهما من حيث إدخال النور والهواء..

وفى الغرفة سرير «نص بوصة» وفيها دولاب «نص عمر». على هذا أبسط الفراش، وفى ذلك أبسط الملابس، وعلى الحائط مرآة ما يزال باستطاعة المحقق المدقق أن يتبين فيها معارف وجهه، وعلى الأرض بساط ما يزال باستطاعة المرء أن يجد فيه مواضع لقدمه..

تلك هى الغرفة التعسة!!

وإذا ما جتزنا الصالة الصغيرة، وتجاوزنا عن الكنبة والمائدة اللتين بها، كنا داخل غرفة «أم بخاطرها» وفيها بلاط. ومن فوق البلاط تراب، ومن فوق التراب حصيرة، ومن فوق الحصير مرتبة، ومن فوق المرتبة (أم بخاطرها).. ثم لا أكثر..

---

(١) لا يأبه: لا يبالى

وفى أحد الجدران شبح ذو عرض وطول مطل على (منور) معتم، لو أسميناه نافذة أخطأنا الصواب، وإذا أسميناه كوة قاربنا الصواب، ولو أغفلناه ولم نسمه أصلاً أدركنا الصواب كله..

وفى البيت طبعاً ما فى سائر البيوت من المرافق ومستلزمات المعيشة. هذا فى إيجاز وصف المنزل الذى اقتادوا إليه البائسة .بهذا حكم القاضى، وبهذا نفذ المحضر، وبهذا طاب الزوج نفساً وقر عيناً!

«أنا أوريها الشغل يبقى ازاى، واللى مايرضاش بالخوخ يرضى بشرابه»

هذا ما قاله الزوج حينما أوصد باب الدار وتأكد من أنها فيه، ثم تأكد من أن المفتاح فى جيبه، ثم أدار ظهره وانصرف.

ولكن (الأقدار) تغامزن عند ذلك وابتسمن !!

أى وحشة، وأى دهشة، شعرت بهما هذه المسكينة، وأى أسى وأى جوى ملأ فؤاد هذه المسكينة! لقد كانت تبكى وتجهش حتى لتشرق بدمعها ويتعب صدورها وحتى لتفيق وقد نسيت لماذا تفعل ذلك، فتذكره! فتكاد تنكره، وتعتريها رعدة يتقبض لها جسمها، وتتركها جامدة كالأموات أو كالمسحورين شاخصة [1] البصر، لا إلى شئ، متباعدة الشفاه لا عن ابتسام. وهكذا تمضى الساعات، وقد تمر الذكرى وهى على هذه الحالة، فينحدر ماء عينيها مد رارا[2] سخينا..

فاذا ما جن الليل!! ارتمت العروس على أنقاض سرير عرسها مستنفدة القوى، فما تزال تتمرغ، وما تزال ترسل الزفرات من فؤدها الملتهب، حتى تستسلم للنوم! هل نوم هذه النصف غيبوية التى تتقلص فيها الأعضاء ويأتى المرء فيها من الحركات المزعجة ما يزيده تعباً على تعب وألماً على آلام؟ هل نوم تلك النصف غيبوبة المليئة بالمخوفات. مما لا يمكن أن تخطر لصاحبها فى يقظة.. بل إنه لعذاب..!

وإلى مثل هذا العذاب كانت تستسلم المسكينة، لا تغمض أجفانها إلا لترى المردة يطاردونها، والعمالقة يقتفون أثرها، فتصحو مرتعدة، ولا تغمض عينيها ثانية، حتى تدخل فى كهوف ومغائر،

---

(١) شخص بصره: فتح عينيه وجعل لا يطرف

(٢)مدرارا: غزيرا

تكدست فيها الظلمة وامتلأت بالحشرات، فتفيق وقد نال منها الخوف، وتمر يديها على أرجلها وصدرها فى سرعة ووجل خشية أن يكون قد حاق بها السوء.. ثم تنام. فإذا الأشباح تتراءى وإذا الجماجم تبتسم، واذا الهياكل العظمية ترقص رقصات الموت.. فتعود إلى حسها وهى تود أن تصيح تطلب المعونة.

هكذا يمر سواد الليل على سواد الحظ.

ولكن الأيام التى تجئ بالمصائب، هى نفسها الكفيلة بتخفيف وطأتها، وتلطيف شدتها على يدى وليدتها. السلوى!! والشطر الأكبر من بلسم العزاء يرجع الفضل فيه إلى قلب طيب بين جوانح امرأة عجوز: (أم بخاطرها)!

آ- ها «أم بخاطرها»!! لقد تركناها على المرتبة التى على الحصير التى على التراب التى على البلاط، ولا خوف إن نحن تركناها قليلا أو كثيرا، فلن تزايل مكانها. فهى امرأه عجوز، قصيرة، متناهية السمنة، تحمل رأسها على كتفيها دون واسطة، حتى لتصطك ذقنها بصدرها كلما فتحت فاها، وإنها لجاحظة(١) العينين، ذابلة الجفون، كثيرة تجاعيد الوجه، تستر مابقى لها من شعر أشيب بطرحة سوداء. عصبت حولها منديلا بنفسجي اللون تدلى منه إلى جانب أذنها اليمنى حجاب من فضة مثلث الشكل. وهى لا تغادر مكانها إلا للضرورة الملحة «لأن الأسياد ماسكنها فى رجليها» تلك هى المرأه التى اختيرت لخدمة نعيمة أو بمعنى أصح لحراستها.

على أن نعيمة كفتها جهد القيام بمهمتها تلك. فلم تفكر فى فرار أو انتحار، لأن الشر ليس فى طبيعتها، وأفكار السوء ليست فى فطرتها. وسرعان ما نشأت بينهما محبة. وهكذا تتعارف القلوب الطيبة مهما تباينت مظاهرها.

كانت العجوز تواسيها، وتقص عليها من أنباء شبابها وما قاسته، ومن أنباء ما تعرف من نساء وشابات عبس لهن الدهر بادئ الأمر، ثم جاء العسر يسر، فأصبحن (ستات زمنهم) .. وكثير ما تشعب(٢) الحديث وترامى، حتى اتصل بأقاصيص (ألف ليلة وليلة) وعندها تهدأ الفتاه وتشرب

---

(١) جحوظ العين: بروزها

(٢) تشعب الحديث: تنوع

عذب كلمات العجوز بآذانها الدقيقة، فتنزل على قلبها بردا وسلاما. وفى أحيان كانت الفتاة تسبح فى أجواء الخيال، ثم لا تلبث أن تقاطع العجوز بسذاجة وصبيانية.. تقول:

– بالك أنا بيتهيئ لى ايه يا خالتى أم بخاطرها؟ .. بيتهيئ لى إنى زى بنات السيناماتوغراف اللى تجى الحرامية يخطفوهم ويحطوهم فى خرابات مهدمة ومغاور ضلمة، ويفضلوا يعذبوهم لحد ما يبقوا راح يموتوا خالص، وبعدين ربنا يبعت لهم واحد قوى مكن كده يروح ضاربهم على عينيهم وينجى البنت المسكينة.. مش كده؟!

فحركت هذه الكلمات عاطفة الإشفاق فى قلب العجوز، ولو أنها طاوعت شعورها لانحدرت دمعة من عينيها، ولكنها تغلبت على نفسها وقالت فى مزاح:

والسيموغراف ده يبقى إيه يا نعيمة هانم يا بنتى؟

فضحكت نعيمة وقالت:

– والسيناماتوغراف! الـ.. سى .. ناما.. توغراف مش السيمفوغراف.

وضحكتا ثم قال العجوز:

–..آ..آ.. البتاع اللى يضلم كده وتبقى فيه التساوير تتلعبط على الحيطة؟!

– أهو هو ده!

خدنى فيه سيد ابن أختى مرة وبقيت أعده مرهوءة وعنية مزغللة!

قالت نعيمة:

– لكن بالك مين القوى الممكن اللى رايح يبعتهولى ربنا؟

-٣-

(فنظر إليها العجوز نظرة استفسار، ولوحت بيدها تطرد ذبابة عن أنفها).. هو ربنا نفسه.. علشان ماليش حد.. وحتى أمى بقى لى أدى يجى شهر ما شفتهاش.

وعاودت الفتاة ذكريات، وكادت تبكى، لولا أن تداركها العجوز، فسرى عنها، وعادا إلى ما كانا فيه من حديث وأقاصيص

ومضى أكثر من شهر على هذا الحال. يأتى ممدوح أفندى يفتح الباب ريثما يسلم حوانج اليوم إلى العجوز ثم يغلقه. وبعد رجاء والدة السجينة، وتدخل بعض معارفها، وبعد التمنع والتنطع والسخافات التى يعبر عنها «باللتيا والتى» سمح ممدوح أفندى بأن يترك المفتاح للعجوز.

وبهذا تسرب بعض نسيم الحرية الى المنزل، فشقته نعيمة ببعض الارتياح وأمكن العجوز أن

تغادر الدار وتعود اليها بإذن منها. بل في أحيان كانت العجوز تقضي الليل كله عند ابنتها. وتبيت نعيمة في الدار وحدها. ولكنها كانت إذ ذاك أكثر اطمئنانا من ذي قبل.

ولم يكن للفتاة متنزه أو رياضة غير سطح المنزل.. تصعد إليه عندما يهدأ أوار الشمس، ويهب نسيم رقيقا لينا. هنالك تجلس تتلهى بالنظر إلى أعالي الدور المجاورة وأطراف المآذن النائية، أو تتسلى بالنظر إلى السماء اللازوردية الصافية، يطير فيها سراب من الحمام ينطلق عن مصدر غير مرئي. ثم يزحف الأصيل حولها هادئا مترفقا، فتسرح طرفها[1] صوب المغرب، وإذ ذاك تكون نهب مشاعر متباينة وإحساسات متضاربة، تستسلم لها، حتى تسترد الشمس المنحدرة أشعتها المصفرة المريضة، وتتكاثف الظلال وتتجهم الأشباح، فتعود المسكينة إلى غرفتها كما يعود الكلب إلى مبيته!

وفي ذات يوم...

كانت نعيمة في متنزهها هذا وكانت مسترسلة في خيالاتها ممعنة في الذكريات، ثم أفاقت فإذا بها ترى على مقربة منها- ولكن على سطح المنزل الملاصق- شابا واقفا قد أسند كتابا مفتوحا إلى صدره شاخصا ببصره إليها، فلما تبينا موقفهما تواريا على الفور.

وما وصلت نعيمة مخدعها حتى وقفت فيه جامدة، وطغى عليها الخوف والخجل، وسمعت صوت العجوز تسعل في غرفتها، فكادت تهرع[2] إليها فتخبرها بما كان. ولكنها عدلت وسألت نفسها: من ترى يكون هذا الشاب؟؟

وليس أسهل من الإجابة على هذا السؤال! فهو حمدي ابن الشيخ إبراهيم التاجر بطنطا، حصل على الشهادة الثانوية في العام الفائت وقد حضر إلى القاهرة ليدرس الحقوق، وهو عادي في كل شئ: في شكله وهيئته، وفي أخلاقه وعقليته.. هذا هو الشاب.

وليس من المفاجآت إذا قلنا بعد ذلك إن محبة نشأت بين نعيمة وحمدي. فكانا يصعدان إلى السطح وقت لا يخشى الرقيب، فيتناجيان ويتباثان [3] لواعج[4] الهوى. وكان حبهما شريفا طاهرا، وقد بررته نعيمة لنفسها، ورأت فيه نعيما ومسرحا لمفاتنها، كما رأت فيه سخرية من زوجها الغِر المتنطع.

---

(١) طرفها: عينها

(٢) تهرع: تسرع

(٣) يتباثان: يظهر كل منهما للآخر ما بنفسه

(٤) لواعج الهوى: حرقة الحب

وبقيا كذلك حينا أشرقت فيه نفس الشابة، وعاد إليها بهاؤها ونشاطها، وأينعت فيها بهجة الحياة. فسرت العجوز لما بدا من تطور سيدتها، واطمأنت إليه. ولم تكن تعرف ما تكن الجوانح وما تخفى الصدور. وانتهزت هذه الفرصة السانحة للتقريب بين الزوجين، فلم تمانع نعيمة كثيرا، لأن الزواج وقتئذ لم يكن كل شئ كما كان، ورضى الزوج ولكن فى حذر، وعد ذلك انتصارا، أخذ يباهى به فى المجالس ويفاخر، وأخذ الناس يهنئونه لما أبدى من حزم وعزم.

- إيه رأيك بقى يا خفيف؟ أهى رجعت عاوزة تبوس إيدى زى الكلب ها ها ها.

- والله يا شيخ خير ما فعلت. النسا مالهمش غير كده.

واتصل الزوجان بعض الاتصال.

واتصل العشيقان كل الاتصال.

على أن الحب الذى كان يظن أنه شريف طاهر، لم يكن كذلك، أو لم يلبث كذلك طويلا، وسرعان ما فسد وتعفن، وانحط إلى أقذر ما تكون العلاقة بين فتى وفتاة، أو بين شاب أعزب، وامرأة أهملها زوجها.

وكلما أمعنت نعيمة فى غوايتها، أمعنت فى التودد إلى ممدوح أفندى. والرجل فرح بانتصاره، ثمل به، غافل عن كل شئ إلاه. وبعد أشهر عاد بامرأته إلى منزلهما الأول مهللا مكبرا، ذلك لأن جنينا كان يتحرك فى أحشائها، ولم يكن قد رزق من قبل ولدا.

ثم وزعت رقاع الدعوة. مذهبة الأحرف والحروف وهذا نصها:

الدهر أقبل بالهنا   واليوم قد نلنا المنى
والطير غرد صادحا   بشرى لنا بشرى لنا

نتشرف بدعوة حضرتكم لسماع المولد النبوى الشريف يوم الجمعة القادم الساعة السابعة مساء بمنزلنا الكائن بشارع.... احتفالا بسبوع ولدنا (أنور) والعاقبة عندكم فى المسرات.

الداعى
ممدوح..

فتغامزت الأقدار وابتسمت.

منزل للإيجار

- ١ -

(بموجب هذا العقد قد أجر حضرة عبدالمجيد أفندى صفوت التابع للحكومة المحلية إلى حضرة عباس أفندى ناجى التابع للحكومة المحلية ما هو المنزل نمرة ٢٦ بحارة الطرابيشى بقصد استعماله سكناً له بالشروط الآتية...)

كفى كفى! فأنا أعرف الشروط الآتية من الشرط الأول الخاص بالأجرة إلى الشرط التاسع عشر المتعلق بالعزال، ولن أنكر إمضائى فى ذيلها بصدد كونى شاهداً عليها..

ولكن اتضح أن عبدالمجيد أفندى صفوت التابع للحكومة المحلية مشاكس لاعمل له سوى معاكسة الخلق عامة، وبخاصة من تسوقهم أقدامهم المتخاذلة، وتدفعهم الأزمة المستحكمة إلى إمضاء مثل هذا العقد. وها هو قبل انتهاء المدة قد أرسل خطاباً موصى به يطلب فيه زيادة فاحشة!

قد يكون ذلك...

ثم إن مزاج السيدة حرم عباس أفندى أصبح فى حالة توعك مستمر منذ سكنت هذه الدار.. فهى تشكو كل يوم داء جديداً: تارة فى المفاصل وأخرى فى الرأس، ثم ما تلبث هذه أن تتنازل عن أوجاعها لسلسلة الظهر، ويعز على الثانية أن تستأثر بآلامها دون «عصفورة القلب».

شئ يؤسف له...

والأولاد!! لقد انحطت آدابهم وتدهورت أخلاقهم، لأن سكان حارة الطرابيشى سفلة رعاع[١]، يمتهنون[٢] أحط الصنائع نهاراً، ويحترفون المشاجرات ليلاً: معارك تدور رحاها -الساعات تلو الساعات -إذا خارت فيها القوى عن الكر والفر، تقاذف أبطالها بأضخم المعايب، وتراشقوا بأحد الألفاظ!

هذه حال لاتطاق..

---

(١)الرعاع: السفلة من الناس

(٢) يمتهنون: يحترفون

ودقت الساعة الثالثة حين أزاح صديقي عباس أفندى عن قلبه آخر (باراجراف) من شكواه هذه، وكان يقذف الكلمات في وجهي من شفتين مرتعشتين ولسان متعثر، حتى لقد ظننت أنني المسئول عن كل ما حدث، لذلك وجدتني مضطراً إلى أن أجاريه في شعوره، إذا لوّح بيديه لوحت بنظيرتيهما مني، وإذا حملق[1] بعينيه الواسعتين كلفت عيني الضيقتين فوق طاقتهما.. وانتهى الأمر بأن طلب مني أن أرافقه للبحث عن منزل آخر...

ولما كنت أعلم أن المعاذير لا تجدى خضعت لإرادته.. وجعلت عقارب الساعة تلف بنا في طرقات أعرفها، وأخرى لم تطأها قدمي من قبل، وعباس أفندى لا يفتر عن إيراد أدق التفاصيل عن تنطع عبدالمجيد أفندى وعن اعتلال صحة (الجماعة) وفساد أخلاق الأولاد.. وكلما أبصرنا على بعد يافطة (للإيجار) سبقت أعناقنا إليها خطانا..

ندخل المنزل، ولابد طبعاً من أن أرافق صديقي في صعوده وهبوطه ولفه ودورانه، وأن أوافقه على جميع ملاحظاته، فالصالة ضيقة ضيقة، مهما كانت أبعادها، ودورة المياه مظلمة مظلمة مهما بهرني نورها.. ثم ننزل ويقف صديقي عند الباب يودع صاحب المنزل أو حارسه وداعاً أليماً، يمتدح فيه أخلاقه في نحو أربع دقائق، ثم يظهر ارتياحه إلى الجيران واطمئنانه إليهم فيما يقترب من سبع دقائق، ثم يؤكد له -فيما لايقل عن مجموع الزمنين المتقدمين- أنه سيرسل (الستات) غداً ليعدن النظر، ويأخذ عليه العهود والمواثيق بألا يسمح لأحد بعدنا أن يدخل المنزل.

وأستعلم بعد خطوات عما إذا كانت قد انتهت مهمتنا، فلا يزيد عباس أفندى على أن يضغط على يدى، ويهمس في أذني (بعدين أقول لك) ثم عبدالمجيد أفندى صفوت.. وقصص أخرى..

- لا لا يا عزيزى! لحد كده ولا أقدرش أمشي ولاخطوة واحدة!!..

هذا ما كان لابد أن أقوله أخيراً حيال يأسي من انتهاء الشكوى، وحيال ما نالني من تعب وإعياء.. ولكن صديقي تشبث بي وقال:

- بس الشارع ده تعال يا شيخ تعال، دنا لسه على قلبي حاجات متلتلة بدى أقولها لك..

---

(١) حملق بعينيه: فتحهما ونظر نظرا شديدا

يالها من ذكرى لذيذة!! أقل ما فى لذتها أنها أصمّت أذنى عن (الميلودراما) التى إلى جانبى.

لكم كان لنا فى هذا الشارع من غدوات وروحات، وألعاب وألاعيب، وكنا صبية صغاراً، وكان عباس بيننا، وكان يصر دائماً على أن يكون زعيم (الحرامية) أما أنا فكنت أطمع إلى أن أكون رئيس (الضباط)، على أنهم كانوا يقررون دائماً عدم لياقتى لهذا المنصب الرفيع. فلا أزعل، أما عباس فكان يبطش بكل من زاحمه..

وهذا (حجرنا الأسود) الذى كنا نلوذ[1] به فيحمينا.. هو هو.. كأنما تركناه ليلة الأمس.. أواه!! بودى لو أفلت من عباس فجريت إليه، فإذا ما بلغته صحت بأعلى صوتى (عند الأم) ثم أضحك وأضحك حتى أشرق بريقى ودموعى.. ولكننى أخشى إن أنا فعلت ذلك أن يجرى خلفى -عم سرور- لا ليرهبنى كما كان يفعل فيما مضى، بل ليسلمنى إلى الشاويش، ومن الشاويش إلى القسم، ومن هنالك إلى جهة الاختصاص بالعباسية!!..

عم سرور!! إن أنس هذا النوبى ذا الوجه المريح الأسود، والشارب المستقيم الأبيض، والعمامة الأسطوانية الحمراء!! لأبحثن عنه، ولئن كان بين الأحياء، فهو على نفس الدكة التى جلس عليها حين طاردنا لآخر مرة..

أجل لقد كانت مشاهد الطفولة تتتابع فى ذهنى، ونحن نسير فى هذا الشارع، وكنت أشعر لها بلذة وارتياح، وأحببت أن يشاركنى صديقى فيما أشعر به، فقطعت عليه حديثه عن سكان حارة الطرابيشى، وقلت:

- إلا ما تفتكرش عم سرور يا بو العبس؟

فقال المخاطب فى شئ من الحدة:

- يا أخى بلا عم سرور بلا بتاع.. خلينا فى اللى احنا فيه.. إنت قلبك فاضى..

---

(١) نلوذ به: نلجأ به

- بالذمة أنا نفسي أشوفه.. تعالى نسأل عليه ويمكن يدلنا على بيت يكون فاضى.. يالله يا شيخ ما تبقاش كده..

فعقد الطلب الأول ما بين حاجبى صديقى، ولكن الفكرة الثانية حلت العقدة، فوافق وملنا إلى حيث نتوقع وجود ضالتنا[1].. وإذا نحن بها!!

أى أعجوبة! أؤكد أنه لولا عمامته الأسطوانية الحمراء ما عرفته! بل الحقيقة أننى عرفته بإحساسى أكثر من أى شئ آخر. لقد تغير صديقنا القديم تغيراً يقلق بال (الدار وينزم)... أفلا تتزعزع النظرية لو أن إنساناً -اسمه عم سرور- تغير فصار شيمبانزى؟؟ على أننا أقرأناه السلام، وكان راكعاً على دكته كما يركع الجمل، فرفع رأسه إلينا فى بطء، ورد التحية مقتضبة، ثم بصق ولم يزد.. وجعل يدير فينا - من تحت حاجبيه المنفوشين- عينين تلمعان من غور محاجرهما..

ولست أدرى أى عوامل الطبيعة أثر فى لونه فارتد سنجابيا.. ولم نجد حيال مركزنا إلا أن نعرفه بأشخاصنا، وما إن فعلت ذلك حتى نهض بكل ما بقى له من نشاط وقوة، ثم دس قدميه المصفرتين المعروقتين فى بلغته العتيقة، وهمهم[2] بعض كلمات فهمنا منها إجمالاً أنه يرحب بنا. ثم بصق ونادى امرأته فخرجت من الغرفة الصغيرة المجاورة للباب، تحمل على كتفها مخلوقاً لاشك أنه آدمى، حيث اتضح لى فيما بعد أنه ابن إحدى بناتها فقدّمنا عم سرور إليها، فهوت العجوز على أيدينا تقبلها مراراً وتكراراً..

- والله كانت أيام يا عم سرور.

قلت هذا وقد وضعت يدى على ظهره المقوس، فهز الرجل رأسه وراحتيه هزة الاستسلام إلى القضاء والقدر ولم ينبس[3]...

- وازاى حالك كده؟ وازاى حال عمى شكرى بك.

فحدجنى النوبى الهرم بنظرة اندهاش أحدثت أثرها فى نفسى، ثم بصق وقال:

- إنت ما سمعتش، ولا أريت فى جرنالات (ثم هز رأسه ثانية).. الدوام لله يا ابنى!!

---

(١) ضالتنا: طلبنا

(٢) همهم: الهمهمة ترديد الصوت فى الصدر

(٣)لم ينبس: لم يتكلم

وطوح بيده إلى داخل المنزل، فأسرعت العجوز بتفسير هذه الحركة. قالت:

– أمال تعيش إنت والشباب اللى زيك يا ضناية.. مش عمك البيه مات من قيمة شهرين كده والستات كلهم سابو البيت، وهو دلوقت نازل فى الإيجار..

فشعرت بانقباض لهذا النعى المفاجئ.

وتأسف عباس أفندى أيضاً، على أن أسفه لم يمنعه من أن يرافق عم سرور إلى داخل المنزل.. أما أنا فبقيت مع العجوز وقد تملكتنى رغبة شديدة إلى معرفة تفاصيل الأمر..

– ٣ –

– الست الكبيرة شافته كده ونزلت عليه بالشبشب، لحد ما بقينا الكل نهاريها نخلص عنه لم حد قدر أبداً.. وهو يا عينى واقف مدلدل يغيب يقول لها عيب يا هانم ما يصحش يا هانم!!

– إيه اللى بتحكيه ده؟ يا شيخه قولى كلام غير ده!.

وكنت وقتئذ جالساً داخل الغرفة الصغيرة المجاورة للباب على كنبة عتيقة، يستر الجزء الذى جلست عليه من خشبها فراء لا أتردد فى المراهنة على أنه نفس الذى كان يجلس عليه عم سرور فيما مضى، وكانت محدثتى قد جلست القرفصاء عند الركن تجهز القهوة، وقد وضعت حفيدها إلى جانبها، وأعطته قطعة من الخبز اليابس يتلهى بقضمها[١] عن البكاء.

وكأنما استشعرت العجوز أننى فى ريب من حكايتها، فأمسكت عن عملية التقليب التى كانت قد شرعت فيها، ونظرت إلىّ فى جد وقالت:

– يه! أقول لك كلام غير ده؟ إن شالله ينحرق بدنى زى الفتيلة دى (تقصد فتيلة السبرتو) إن كان طلع من حنكى غير اللى جرى.

وإنى لأفضل الآن أن أندهش بدلا من أن أكذبها فأعرض جسدها للاحتراق مهما كان هزيلاً، ومهما كان دميماً، لأنها ميتة فظيعة ولاريب!!

---

(١) القضم: الأكل بأطراف الأسنان

وبعد!!.. فشكرى بك- رحمة الله عليه- كان كيانا ضخما نحاسى الوجه مفتول الشاربين، وكان إذا سار فى الشارع بخطواته الوئيدة المتزنة قام له الخدم على الجانبين متصلبين كالتماثيل، فلا يزيد على أن يدفع لهم يمناه يثقلها الكبرياء مضافا إليه وزن عصاته الغليظة الذهبية المقبض، حتى ما تصل إلى منتصف كرشه البارز..

بيد أنه لم يكن يستطيع أن يقف أمام المرآه فى غرفته الفاخرة فيقول (هأنذا..) ولم يكن يستطيع أن يقوم أمام من يعرفون نشأته فيقول (كان أبى..).

ذلك لأن أباه عاش حياته فى خدمة ضابط ثرى له حيثيه ونفوذ. فلما مات الوالد أصبح الصغير يتيم الأبوين، وكان الضابط الثرى يتحرق شوقا إلى أن يكون له ابن إلى جانب ابنته الصغيرة.. فتبناه.. وأبدل اسمه من (عوض) إلى شكرى. كما أبدل من جلبابه بدلة. ومن طاقيته طربوشا!. ثم تعهد تربيته فأرسله الى المدرسة وكان الصغير على بعض الذكاء وخفة الروح، فتقدم وتزايدت حظوته.

ولكن رب النعمة تدهور وتفاقمت[1] شقوته!! ذلك لأن (الفول آس) اندحر فى مواقع عنيفة فى الميدان الأخضر. خسر فيها الضابط المحنك شطرا كبيرا من ذخيرته، فتراجع إلى (البورصة) -يعتصم بها- وضارب وقاتل، وكان مع الحظ بادئ الأمر على اتفاقية دفاعية هجومية.. فانتصر، ولكن الحظ المتقلب مالبث أن خذله، وانضم إلى صفوف السماسرة. فرجحت كفتهم، فحملوا عليه عدة حملات فاصلة. تركته أيدى سبا.

وقف القائد على أطلال[2] عظمته حائرا! مذهولا.. ولكنه خسر كل شئ إلا الشرف!

وأراد أن يلم[3] شعثه، وكان شكرى قد نال الشهادة الثانوية، فأقنعه بها، ثم زوجه من ابنته ودسه فى إحدى وظائف الحكومة، ومازال به يدفعه بكل ما أوتى من مكانة ونفوذ. والفتى يوسع لنفسه الطريق بخفة روحه التى تطورت فيما بعد فصارت نوعا من اللؤم والدهاء، يساعد أمثاله كثيرا، ويفسح المجال كثيرا، حتى ارتقى إلى منصب تسنى حياله للصهر العزيز أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حيالها بشئ من الطمأنينة..

---

(١) تفاقمت شقوته: زاد بؤسه وشقاؤه

(٢) أطلال عظمته: بقايا عظمته

(٣) يلم شعثه: يجمع ما تفرق من أمره

فأما الابنة فقد تزوجت مكرهة، لأنها كانت تحس فى أعماقها أن هذا الذى أمامها إنما هو (عوض) لا سواه.. على أنها بطبيعتها وتربيتها فتاة صالحة، لذلك كانت على الرغم من هذا زوجة صالحة، سيما بعد أن أنتجت منه ابنتيها، وكانت أبدا تطمح إلى أن تستعيد مركزها بين أترابها، فنجحت فى إحكام تدبير المنزل وفى إقناع زوجها بتدبير أمره، حتى اجتمع لديه قدر من المال أضافت إليه ثمن ماكان لها من حلى وجواهر، فاشترى به المنزل الذى أنا فى الغرفة الصغيرة إلى جانب بابه. وصديقى عباس فى نظيرتها من الطابق العلوى- على ما أظن- لأنى أسمع وقع أقدامه فيها..

وكانت فطرة شكرى بك قد هدته إلى سبيل الرقى فى الحياة الحكومية فسار عليه، فارتقى، وانتفخ وجهه، وبرز كرشه تحت صديريته البيضاء وغلظ كل من صوته وعصاته.

وعد من تلك الشخصيات الوارمة التى تستثير الرهبة فى نفوس الغير، والتى تسمى طبقة الأرستوقراط.

وتحققت مطامع الزوجة..

-٤-

وكنت قد فرغت من رشف الفنجان الثالث- بين إباء معدتى والحاح العجوز- وكان (الكانجاروه الآدمى) قد فرغ من قضم قطعة الخبز اليابس منذ زمن بعيد، فهو الآن يريد أن يجلس إلى جانبى وجدته تنهاه، وقد كبرت عليها منه هذه الوقاحة، فأهوت على ظهره تعلمه الأدب! ضربات تعجب كيف لم تشفق عليه منها بعد الثالثة، وكيف لم يُغش عليه هو شخصيا بعد السادسة مثلا، بل كيف لم يمت تمام الموت بعد التاسعة أو العاشرة على الأكثر!..

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل لقد أحدث مقدرا من العواء لا تستطيع غير (جوقة) من أبناء سنه أن يأتوا بمثلها!. فاضطررت أخيرا إلى أن أتداخل فى الأمر، فرفعته إلى حيث اشتهى، فضحك وأبرقت أساريره، كأنما كان فى رياضة بدنية بديعة، ومدّ يده إلى وجهى فانتزع منظارى، فكانت فعلة سخيفة، ولكن لا دخل لها فى صلب القصة!..

فلما هدأت العاصفة، استأنفت العجوز روايتها فقالت:

-اللهم صلى عليك يانبى (وكانت بهذا الاستهلال تحاول أن تذكر ما انتهت إليه)- أيوه.. ونسيت بسلامتها الخماسى وأم عشرات اللى كانت بتستلفهم منى..

وتلك التى نسيت هى (بهيجة) الخياطة أرملة رجل ترزى، وجدت فى هذه الدار متسعا لمهارتها، وميدانا لإبرتها. وإنها لشابة تخطت الثلاثين طروبة النفس جذلة الطبيعة، تصف أشد مواقف حياتهم ألما بكيفية تستثير الضحك، لذلك نشأت بينها وبين أهل المنزل مودة، وأصبحت فى حل من أن تتردد عليهم لمناسبة ولغير مناسبة.

ولكن بينما كان ربات المنزل يضحكن لفكاهات زائرتهن، ويطربن لظريف أحاديثها ويتشبثن بها كلما همت بالانصراف، كانت المرأة الماكرة تضحك من غفلتهن، بل لقد كانت تلقنهن أدوارا على مسرح خفى!

على أن محدثتى تعزو[1] إلى نفسها أول الفضل فى استكشاف خداع المرأه واستبانة ما يجرى فى الخفاء. لذلك انطلقت تمجد نفسها، وتسترسل فى وصف ماكانت عليه من الأمانة والنشاط و..الجمال!! وكانت حرارة حديثها وقتئذ تحركها من مكانها عند ركن الغرفة، حتى صارت أقرب ما يكون منى. وحتى صارت فى مكانها أن توضح ما تقول بخطوط ونقط ترسمها على فخذى تاره، وعند قدمى تارة أخرى.

إن المرأة التى عرفت سبيلها إلى قلب المنزل، عرفت سبيلها إلى قلب صاحبه، فتسللت إليه دون أن يشعر أحد من أهله، وكيف يدور بخلدهم شئ من ذلك وهى لا تصادفه إلا نادرا، وفى مثل هذه الحالة تسرع فتأتزر بأقرب ما يلف جسمها أو رأسها، وإذا خاطبته كان ذلك فى أدب تشوبه المسكنة.

وماذا يهم، فمثل (بهيجة) إذا أرادت فعلت من وراء أكثف حجاب، ومثل (شكرى بك) لا يستبعد عليه الإسفاف[2]!!

ذهبت محدثتى تبث شكوكها لسيدتها، فشرعتا تراقبان حركات العشيقين بدقة وحذر، ولكن مضى زمن كادت تتهم محدثتى بعده بالوشاية السافلة.. ولكن كثيراً من الحقائق يعجز عنها البحث ثم تسوق إليها المصادفة..

---

(١) تعزو: تنسب

(٢) الإسفاف: الانحطاط

ففى ظهر يوم كانت ربة البيت على مقربة من رأس السلم لشأن من شئونها، فسمعت خطوات زوجها صاعدة ثم انقطع الصوت، فدنت تستطلع ما حدث، فإذا بهيجة تصعد إليه، فتهامسا، وتسمعت الزوجة فإذا به يتكلم عن بعض أدوات منزله أحضرها وأخرى أوصى بها وانتهى الموقف بأن قبّلها!!.. ثم تابع صعوده فى جد. أما هى فلبثت مكانها.. أدباً منها واحتشاماً!!.

ولكن الزوجة انقضت عليه كاللبؤة أوذيت فى عرينها[1]، وأوسعته سباً وشتماً، ثم (نزلت عليه بالشبشب لحد ما بقينا كلنا نهاريها نخلص عنه لم حد قدر أبداً، وهو يا عينى واقف مدلدل..).

-٥-

أعجب الناس بالفيلسوف الفكِه (نصرالدين) حين أفحم أباه فى حادثة (حمل الرحى) وكان أبوه قد تزوج من امرأة غير أمه، وأراد أن يأتى بها إلى داره فاستصحبه لنقل متاعها، فجعل الولد فى الطريق ينصح لأبيه بالعدول عن فكرته، وأن يقيم كل زوجة فى دارها، فاستنكر الوالد هذا التطاول على مشيئته، حتى لقد هدد ابنه بالطرد، ليس من البيت فقط، بل من المدينة بأسرها، وانتهت المناقشة حين انتهيا إلى منزل الزوجة الثانية.. والظاهر أن أثمن ما وجدوا من أثاثها كانت الرحى، فهموا بحملها أولاً، وجىء بحمار لهذا الغرض وعلى ظهر الحمار (خُرج) فعمد الولد الموهوب إلى حجرى الرحى فوضعهما معاً فى الجعبة اليمنى من الأداة السالفة الذكر، فهوت بهما إلى الأرض، فصاح به الوالد، فأقبل نصرالدين فوضعهما جميعاً فى الجعبة اليسرى فتلقتهما الأرض مرة أخرى، فاستشاط[2] الرجل غيظاً، وأوسعه شتماً وتعنيفاً -وقيل بل ضربه فعلا- وأمره بأن يضع كلاً من الحجرين فى جعبة واحدة فنظر إليه فيلسوفنا، وقال:

- قلنا كده، قلت اطلعوا من البلد..

أُعجب الناس (بجحا) حين جادت قريحته بهذا الرد المسكت، وضموه إلى مجموعة أمثاله الخالدة المرددة. وإنى وإن كنت من المعجبين بهذه البديهة السريعة، إلا أننى أود أن ألاحظ أن الأمر لا يتعلق بكيفية الوضع ليس إلا. بل يجب ألا ننسى الحمار!! وإذا كان هذا المخلوق الصبور استطاع أن يسير بحمله فيما مضى، فقد أصبح من المتعذر على أى ذى أذنين طويلتين من أحفاده أن يفعل ذلك الآن.

---

(١) العرين: بيت الأسد

(٢)استشاط غيظاً: امتلأ غيظاً

هذا شكرى بك قد خدعته فطنتك ياعزيزى (جحا) فوضع كل حجر فى جعبة واحدة، ولكن:

ما للحمار مشية وئيدا

أجندلا يحمل أم حديدا

بل النساء حتما قعودا

إن زوجة واحدة تكفى الآن لأن تثقل كاهل أقوى الرجال، وها هم الساده المتزوجون يضجون بالشكوى إلى الله ليلا سرا، وإلى خلق الله نهارا جهارا، فكيف بامرأتين؟! المسألة حسابية قبل كل شئ.

زوجة: معناها الإسراف مضاف إليه رضيع كل تسعة أشهر.

زوجتان: معناهما إسرافان مضاف اليهما رضيعان فى نفس المدة.

هذا قانون طبيعي. ولا شك عندى أن شكرى بك مات من فرط اقتناعه به بعد أن جربه فى حالتيه الممكنتين. لأنه عندما (غلب حماره) فى الحالة الأولى لاذ بأختها، فاحتال حين ضم زوجته تحت سقف واحد.. وظن بذلك أنه انتصر..

وأغراه بهذا الظن خداع (بهيجة) فقد أظهرت الرضا والاستكانة، وبالغت فى التودد إلى سيدتها (سابقا) وعادت تخلب[1] ألبابهن بطريف حديثها، حتى لقد استثارت ضحكاتهن الطويلة المرحة، حين أعادت عليهن حادثه السلم.

هكذا تمسكنت!

بيد أنها كانت تلف من ناحية أخرى، فشرعت تقوم على خدمة المنزل بانشراح وارتياح وتتداخل فى دقائق شئونه بلباقة ورشاقة، تتظاهر فى ذلك بأنها الخادمة المطيعة، وأن العين لا تعلو على الحاجب، وما زالت حتى آل إليها الأمر أخيرا، ما من شئ يحدث إلا بإرادتها أو مشورتها، وربة البيت فى نوع من الذهول فى الحياة، والأولاد لاهون، ورب البيت مخدر الأعصاب.. وهكذا تمكنت!!

---

(١) تخلب ألبابهن: تأسر عقولهن

- وازاى حال مفيدة هانم.. وأختها اسمها إيه؟.. نسيت باين!!

- قصدك على ست زينب هانم؟

- الله! بطلتم تسموها (زوبا) والا إيه.

فرشقت العجوز إصبعها الوسطى فى خدها فغاب فى غوره، ولكن يظهر أنه -آلمها لرفعه وجفافه، فاستلته، وطوقت ذقنها بما بين السبابة والإبهام- سبابتها وإبهامها طبعاً- وزفرت زفرة قصيرة، ثم قالت:

- زوبا إيه بقى؟! الكلام ده كان زمان!!

وتحركت فى مكانها فأخرجت من تحتها شالاً أسود، ثم مالت تغطى به (الكانجاروه الآدمى) لأن نعمة النوم قد أنقذتنا مما عسى كانت تسول له أمارته بالسوء.. وعلى الرغم مما كان يجيش فى صدرى له من عوامل الكره والضغينة، لما ذكرت من نزع المنظار، ولما لم أذكر من محاولته نزع الفراء من تحتى مراراً وتكراراً، وما أحدثه أثناء لعبه من خبط وتهويش قطع علينا الحديث أكثر من مرة، بالرغم من ذلك كله ثارت فى نفسى عاطفة الرفق بالحيوان، حتى رأيت العجوز تلفه بهذا الشال العتيق، لأن رائحة خانقة لعينة كانت تتصاعد منه -هى مزيج من البخور والرطوبة والبلى..

ولم أطمئن بعض الشئ إلا حين رأيت أن فتقاً من الفتوق استدار صدفة حول أنفه. وهكذا يُعنى القضاء والقدر بهؤلاء المساكين!!

وهمت العجوز بأن تتحدث ولكن صوتاً أوقف الكلمات بين أسنانها..

- يالله بقى.

- خلاص انفرجت؟

والجواب معروف. وكان عباس أفندى عند باب الغرفة والنوبى خلفه يكح ويبصق، وأحببت أن أستدرج صديقى إلى الدخول فقلت:

- وإيه رأيك تعالى اقعد وقل لى..

وكانت العجوز قد غادرت مكانها، فهي إلى جانب زوجها، فتقدم عباس أفندي فجلس إلى جانبي، وما كاد يستقر به المكان حتى قفز مذعوراً فقفز لذلك قلبي، حتى خلت أنه وصل إلى قصبة الهواء مني، واندفعت العجوز إلى داخل الغرفة تضرب صدرها بيدها، وأتبعها عم سرور وقد استحالت سنجابية لونه إلى اصفرار الموتى!

ماذا حدث. ماذا حدث؟!

لاشئ أكثر من أن صديقي المتعب جلس سهواً مني ومنه فوق الكانجاروه (الآدمي) وإذا بصيحة منه أحدثت كل هذا الذعر فلقد حسبنا -من فرط هولها -أنه قد انفجر! على أنه لم يكلفنا ألم الظن بأنه مات من فوره. فها هو يتلوى أمامنا في منتهى الصحة والعافية!!

فالتقطته العجوز في أحضانها، وجعلت تتوسل إليه تارة وتقلد أخرى. فلما لم يجدِ هذا ولا ذاك شرعت تخيفه بذكر العفاريت والأطباء.. وذوات (الرجل المسلوخة) ولكن هيهات! فقد كانت صيحاته تتعالى على سلم موسيقي مخيف. بيد أن (تعريفة) انتقل من جيبي إلى يده العابثة بالهواء، جاء بالعجب العجاب!! فقد هدأ الصبي من فوره، بل لقد ضحك، وعاد كل شئ إلى ما كان عليه من قبل، حتى لون وجه عم سرور...

وأعدت السؤال الأخير على صديقي فقال:

- البيت كبير وكويس، إنما عاوز تصليح كثير جداً لأنه وسخ بشكل فظيع!

ولم تترك لي العجوز فرصة أبدي فيها أي تعليق بل أسرعت فقالت:

- يصلحوا منين يا حسرة.. يصلحوا منين؟! ده سيدى البيه الله يرحمه كان في آخر أيامه معلق في حبال الهوا (وهذه كناية عن الحيرة والارتباك المالي فيما أعتقد) أنا عارفه (بسلامتها) كانت بتودى الفلوس فين؟! ده غير السرقة والنهب اللي كان داير عيني عينك.

ولم يدر حتى النوبي مَن (بسلامتها) هذه، ودفعه حب الاستطلاع فقال في شئ من الدهشة الفاترة:

- إيه العبارة.

وقبل أن يفرغ من كلمتيه هاتين، كان جواب المرأة:

- العبارة إنه كان بيسألني يعني عن اللي جرى، وكنت باحكي له عن الست بهيجة واللي عملته.. الله يكافيء كل حي بعمله.

فهز النوبي كتفيه في امتعاض وقال:

- الحق موش عليها، الحق على سيدي البيه!

ثم فعل الفعلة التي يأتيها هو وأبناء بشرته بين آن وآخر، وهمّ أن يقول شيئاً، ولكن العجوز ذكرت ما انقطع من حديثها الأول، فاندفعت تستأنفه وكانت وقتئذ تتكلم بسرعة هائلة، وكلما تداخل زوجها في الحديث قاطعته وكذبته.. ثم أعادت ما قال كلمة كلمة. وحدث من ذلك لغط لم أتبين منه أكثر من أن الأحياء من أولاد شكري بك تسعة بين ذكور وإناث، أصغرهم يتيم في الثالثة.. وأن مفيدة هانم -وهي بكر الزوجة الأولى - أدركت السابعة والعشرين وكانت شقيقتها زينب أصغر منها بعامين. وقد أفلحت المرأة المسيطرة في أن تبغض إليهما خاصة وإلى أهل البيت عامة كل خطيب يأتي من أجل إحداهما بحجة أن هذا دميم، وأن ذلك ليس في مستوى العائلة (والنبي إن ما كان جدع على كيفي، ويكون باشمهندس والا وكيل نيابة لم يمكن أبدا) .. فخدعتا فظلتا عانسين!!

ثم مات الوالد بمرض في القلب، ولم يترك من المال إلا ما واراه التراب، وإذ الليلة الثالثة من ليالي المأتم تشهد حرباً[1] عواناً بين أهل المنزل تبينها المعزون، فانصرفوا حياء وخجلاً.

وها هو منزل للإيجار.

---

(١) الحرب العوان: الحرب الشديدة

الوطواط

-١-

فى ضاحية هادئة، وفى منزل هادئ، كان رجل يضطرب فى هدوء، واضعاً ذراعيه على بلور مكتبه الأنيق، وقد ألقى رأسه على هذين الذراعين، ثم ما بدى حراكاً حتى ليرى فيه الرائى إنساناً غلبه النوم فى مكانه فى حين أنه لم يكن نائماً، لا ولم يكن فى مكانه..

إنما غلبه التفكير.. لأن خواطر شيطانية كانت تتطاحن فى رأسه، وعواطف ملائكية كانت تتزاحم فى قلبه. وهو بين هذه وتلك حائر متقاذف، ضال عن كل شئ، حتى عن وجوده.

وظل ذلك حيناً، حتى انبعثت من ساعة الحائط -المثبتة تجاه المكتب- خمس دقات جوفاء جعلت تموجاتها تنتشر فى الهواء، وتتلاشى فى جلال وروعة. عندئذ رفع «الأستاذ حمدى بك» رأسه، وسهِم[1] إلى مصدر الصوت ملياً[2]. ثم قام، فأوصلته خطوات متثاقلة إلى نافذة الغرفة، وكانت تطل على حديقة المنزل، وكان ربيعاً، فالزهر فياح، والطير صداح، وللسماء الزرقاء بهاء، وللأرض الخضراء نضرة ورواء..

وحمدى يتعشق الطبيعة منذ كان صبياً من صبيان الريف، فكم رتع فى الحقول حتى ليثير تغيبه الوسواس فى صدور ذويه، فينتشرون فى الأرجاء يتفقدونه. فإذا به فى رأس شجرة يقتطف نبقها أو توتها، أو ليباغتونه فى كمين اتخذه، يرتقب وقوع طائر فى شرك أقامه حتى إذا ما أشرق القمر فحمدى فى أقصى القرية إلى جانب حارس الجرن ينصت إلى أنبائه وأقاصيصه حتى ليحملونه إلى الدار وهو بين أبطال هذه الأنباء وتلك الأقاصيص.

وقف الأستاذ إلى جانب النافذة يرسل إلى الطبيعة نظرات وزفرات، فترسل إليه -على الألسن المغردة- أرق العزاء وأجمل السلوى فكاد يهدأ ثائره، ومرّ النسيم على وجهه يبرد جبينه،

---

(١) السهوم: العبوس

(٢) ملياً: زمناً طويلاً

ولكن جرس «التليفون» دق دراكاً، دق فأسرع فوضع السماعة على أذنه، وما كاد حتى علا الدم إلى وجهه فاحتقن، وقطّب ما بين حاجبيه ثم قال بالفرنسية مغضباً:

– اذهب أيها النذل!!

– وبعد ذلك وضع السماعة فى عنف وجمد فى مكانه..

«هذا لا يطاق لا يحتمل.. العار يعدو نحوى.. فعلام التردد والاستسلام لهذا الموقف المخزى. يجب أن أكون حازماً حاسماً».

تلك هى الخواطر التى هجمت على خلد[1] الرجل وهو ساهم[2] واجم[3]. وما عتّم أن أسرع إلى الباب ففتحه ثم نادى «يا فاطمة! بنت..!!..»

فلما سمع صوتها تجيب النداء، تراجع إلى وسط الغرفة، وسرعان ما دخلت عليه مولدة ناهد فابتدرها قائلاً:

– فين ستك؟

– فى أودتها يا سيدى.

– بتعمل إيه؟

– بتلبس.

– راح تخرج؟

– أيوه.

– آلت لك تروحى معاها؟

– لا يا سيدى ما آلتليش!

فعبث بشاربه ملياً وقال:

---

(١) خلد الرجل: باله وقلبه

(٢) ساهم: عابس

(٣) واجم: ساكت على كره

- هم!! طيب روحى اندهيها.

فخرجت الخادمة دهشة من لهجة سيدها، ومن ذلك الغضب المشع من عينيه، ولم تكن تعهد فيه غير البشاشة والهدوء.

-٢-

وبعد فترة قضاها فى ذرع[١] الغرفة جيئة وذهوباً، وهو يحترق من الغيظ، أقبلت «عائدة» وإنها لشابة فى التاسعة عشرة من عمرها، رشيقة القوام، نحيلة الخصر، قائمة الثديين، تالعة[٢] الجيد[٣]، بارعة جمال الوجه، شفتان قرمزيتان دقيقتان، وعينان زرقاوان مشرقتان، وشعر عسجدى ناعم. وكانت فى زى باريزى يزينها وتزينه، حتى لا يستطيع من يراها مهما كانت فطنته وفراسته إلا أن يؤكد بأنها لا تمت إلى المصرية بشئ.

فلما رآها أبوها وقف من فوره وقال بالفرنسية:

- إلى أين تذهبين؟

فقالت متكلفة عدم الاكتراث:

- أذهب لأتريض!

- وحدك؟

فترددت قليلاً ثم قالت:

- ربما.

- إذن فلست متأكدة؟!

- لست أفهم قصدك!

- أقصد أنك تكذبين!!

---

(١) ذرع الغرفة: السير بها

(٢) تالعة: مرتفعة

(٣) الجيد: العنق

ثم أدار ظهره وخطا بعض خطوات سريعة تجاه النافذة، فصاحت الفتاة قائلة:

- أبى. أبى!

فعاد فواجهها ثم قال:

- أو تشعرين بهذه الكلمة؟ أو تشعرين حقاً بأنى أبوك!! إذن لماذا تموّهين[1] علىّ.. لماذا تحاولين أن تتخذى منى.. مسخا.. تعبثين به؟!

- يا إلهى! علام كل هذا؟

فقال الوالد محتدما[2]:

- على شخصيتى.. على كرامتى.. إن لم يكن من أجلك..

أفهمت؟

فقالت الفتاة فى خوف:

- لست أفهم شيئا.. إنك محتدم كالنار يا أبى.

- حسبك مراوغة.. دعينا من ألاعيب المسرح.. أنا أعرف.

ودق جرس التليفون فذهب إليه «الأستاذ حمدى»، أما «عائدة» فشخصت إليه وهو يضع السماعة على أذنه، وقد ضغطت قلبها بيدها إذ أحست بأنه سينفجر من شدة خفقانه[3].

- ألو.. مين؟

- اعتذر له عنى يا زكى أفندى.. قل له أنا مش راح أقدر آجى المكتب النهاردة.

وهنا سرى عن «عائدة» ما وهمت..

- ....

(١) التمويه: الغش

(٢) قال محتدما: قال بألفاظ تتطاير شررا

(٣) خفقانه: اضطرابه

- قل له.. قل له.. عيان شويه.

- كل أصحاب القضايا طبعاً.. اتصرف انت بعقلك شوية.

ثم وضع السماعة وعاد إلى مكانه من ابنته وحديثه إليها:

- بالاختصار إنك تعرضين نفسك وأنا معك للعار.. وكفى.

فامتقع[1] لون الفتاة وجعلت تعبث بيمناها في رقبتها، لأنها شعرت بأنها تختنق وقالت بصوت مغتصب:

- هذا كثير. هذا كثير.. لا تزد يا أبي..

فقال في تهكم مر..

- بل سأزيد ما يريحك ويطمئنك.. علمى أنك لم تسقطى فى عارها حيث.. أيتها الحمقاء! ماذا تجدين في هذا الصعلوك «ريشار».

فتراخت عضلات وجه الفتاة وقالت بلهجة ميكانيكية:

- ريشار؟!

- أجل ريشار ذلك «القومسيونجي» الزرى[2] الذى تخفين عنى علاقتك به.. ألم تكونى مع فى السينما.. ثم هذا هو يجرؤ على أن يطلبك بالتليفون من بيتى.. من غرفتى.. الوقح!!

فلم تنبس «عائدة»، واستطرد الرجل بعد أن جفف العرق الذى ينضح من جبينه وقال:

- إننى عرفت من أمره مالا تعرفين مدة جيرته المشئومة بهليوبوليس. فأى شيطان يدفعك إليه؟ أهذا جزاء معاملتى لك كإنسانة راقية؟ أهذا جزاء ثقتى بك وإعطائك الحرية المطلقة؟.. أتلك هى الصراحة التى عودتك إياها..؟ تستحين فتطرقين!! هذا جميل..

ثم جاءت فترة صمت ذهب فيها الأستاذ حمدى إلى النافذة كأنما يريد تجديد قواه. أما الفتاة فظلت مطرقة هنيهة تعض شفتيها، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها وابتدرت والدها قائلة فى شجاعة وحزم:

---

(١) امتقع لونها: تغير

(٢)الزرى: الحقير

- يا أبت لقد تكلمت طويلاً عن إحساسك، ثم ذكرت الصراحة، فهأنذا أصارحك: نعم، إن بيني وبين ريشار علاقة.. ولقد ظننت أنه هو الذى دق جرس التليفون الآن لأنى على موعد منه.. ولست فى حاجة إلى أن أقول: إنها علاقة شريفة!!

فصاح الوالد وقد أحس برأسه يلتهب:

- ولكنها مشينة مهما كان أمرها!

- مشينة من وجهة نظر غيرى.

وأراد حمدى بك الكلام فابتدرته قائلة:

- أطلب إليك الهدوء.. دعنى أتكلم. دعنى أشرح لك أمرى. أفض إليك مغاليق صدرى بالصراحة التى تطالبنى بها.

فارتمى الوالد على مقعد ضخم إلى جانب المكتب، وأسند رأسه بيديه، واستأنفت عائدة كلامها:

- أو تعرف الوطواط يا أبى، لقد أبت الحيوانات أن تعده منها، لأن له أجنحة كالطيور، وأبت الطيور أن تعده منها، لأنه يرضع صغاره كالحيوانات.. هذه حقيقة مركزى.. فلا المصريون يعدوننى منهم، ولا الغربيون ينظرون إلىّ كواحدة منهم، هذا ما دلتنى عليه التجربة والملاحظة، فانظر يا أبت أى مركز تعس أنا فيه.

فرفع حمدى بك رأسه، وقد اتسعت حدقتاه دهشة ثم قال:

- ولكنها غلطتك لأنك أبيت الاندماج فى العائلة المصرية، مع أن أبوابها مفتوحة أمامك.

- غلطتى أنا؟

- انظرى كيف تعاملين ابنتىْ أخى.. وهما أقرب الناس إليك، تصدين عنهما، وتتعالين عليهما، مع أنهما يحبانك، وهما فوق ذلك لا يقلان عنك تعليماً! انظرى ماذا فعلت بهما حين جاءتا لزيارتك آخر مرة، لقد تركتهما فى انتظارك نصف ساعة، ثم دخلت عليهما عابسة ضجرة لا تتكلمين، لا تتكلمين، وإذا كلمتاك أجبتهما إجابات مبتورة.. حتى لقد اضطرتا إلى الانصراف بعد مالا يزيد عن العشر دقائق على بعد المسافة التى تكبدتاها من أجلك.

فقالت عائدة فى امتعاض:

– ألخبرتاك بذلك فقط؟.. يظهر أننى مخطئة حقيقة!

وبعد فترة صمت قالت: يا أبت لا تذكر الأغلاط.. وإلا ذكرتها أنا أيضاً.

فنهض حمدى بك وقال:

– ماذا؟!

– أقصد أنى لا أريد أن ألومك لأنك لم تكن إلا شاباً طالب حقوق فى (ليون) حينما تزوجت من أمى، ولا أريد أن ألقى التبعة على والدتى، لأنها على الأقل قد ماتت.

وتهدج[1] صوتها، فقال الرجل مغضبا:

– حسبك سفسطة! أبهذا تريدين أن تبررى لنفسك سيرك الممقوت، كفى كفى. اذهبى عنى.

– ما دمت قد أوقفتنى منك موقف الصراحة والاعتراف فلأتمّم حديثى. أنت تعرف سنّى مثل ما أعرف، لقد أوشكت أن أتخطى العشرين، وهذا ...

وهنا تلعثمت ولكنها تشجعت فقالت:

– أقصد أن هذه سن متأخرة لاسيما فى هذا البلد.

– ماذا؟ ماذا؟ لابد أنك قد جننت!!

– لا، لم أجن. فكن مطمئناً من فضلك، فأنا أتكلم بكامل عقلى، وفى موضوع غاية فى الأهمية من ناحيتى، ويجب أن يكون كذلك من ناحيتك.. (فتحية) تزوجت منذ سنتين. (وسنية) مخطوبة الآن بل لا تكاد توجد ممن أعرف واحدة لم تتزوج أو لم تخطب مع أنهن أصغر منى.. لماذا؟

– تسألينى؟!. دعينى أضحك.

– بل دعنى أبكى. السبب.. السبب الحقيقى هو أن شبان الطبقة العالية الذين يسمون هنا (بالأرستقراط) لاينحطون عادة إن لم يكن مطلقاً إلى بنات الطبقة المتوسطة مهما كان مقدار تعليمهن وتهذيبهن، وقد يكون لنظيراتى هنالك حظ أوفر منى، لما فى تلك الطبقة من المرونة

---

(١) تهدج صوتها: تقطع

والتساهل، أما شبان الطبقة المتوسطة فإنهم ينفرون من مثلى، لأنهم يعتقدون أن لا دين لها ولا وطن، وهم فى الغالب قانعون ببنات أوساطهم، إلا إذا بهر أحدهم المال، وليت لنا مال يبهر..

– وإياك أن تدمى الجروح القديمة، إنما المسئول عن ذلك أمك. فأنت من غير شك تعلمين كم كانت مسرفة مبددة، حتى لكأنها كانت تتعمد إفلاسى، وأنت من غير شك تعلمين النفقات الباهظة، التى كلفتنيها فى مرضها ولاسيما فى السنة التى عشتماها (فى ليون) والتى انتهت بوفاتها. نعم أنت لابد تعلمين من المسئول عن تبديد ثروتنا، فلقد كنت فى نحو الخامسة عشرة.

فقالت (عائدة) فى شئ من الازدراء:

– أنا لاأطلب منك حساباً على ما فات، بل أنا أتكلم عن الواقع.

فقال وقد نفد صبره:

– وأنا لا أريد أن تفوهى بكلمة واحدة. وربما أن التساهل معك لم يأت إلا بما أرى من تبجح وآراء سوداء، فإنى أجد نفسى مضطرا إلى أن أستعمل معك كل مالإب على ابنه من نفوذ..

وأرادت عائدة الكلام فعالجها بقوله:

– انتهى. اذهبى إلى مخدعك، ولا تخرجى بعد اليوم إلا بإذن منى.

فهزت الفتاة رأسها هزات متتابعات ثم أدارت ظهرها وانصرفت وهى تقول كأنما تخاطب نفسها:

– يظهر أن هذا سيكون مبدأ اندماجى فى العائلة المصرية.

وأغلقت (عائدة) باب مخدعها فارتمت على سريرها وأجهشت بالبكاء.أما حمدى بك فقد بقى حينا واقفا إلى جانب مكتبه ممسكا بحافته بقبضة من حديد. وهو منكس الرأس، ساهم البصر. ثم إنه سار فى بطء، فاجتاز الصالة فبلغ (فرندة) واسعة تطل على الحديقة وثم تهالك على مقعد مستطيل من خشب وقماش، وعمد الى سكائره يصعد دخان الواحدة تلو الأخرى، وهو يفكر فيما كان وفيما سيكون.

وأسرعت (فاطمة) إلى غرفة البواب العجوز تقص عليه مالم يعلم قصة العليم الخبير. وهكذا كانوا إلى أن اغلب النوم من غلب منهم، فنام.

وبكرت العصافير على أغصانها، تُحدث فيما بينها لغطاً وحركة: هذه تطير إلى تلك، وتلك تقفز إلى هذه، وما تلبث هذه أن تغادرها إلى أخرى، وأخرى ما تلبث أن تجيء إلى تلك كأنما تتساءل عن نبأ عظيم.

وبكرت (فاطمة) من مرقدها، على أنها لم تكن مشرقة صبوحة الوجه كعادتها، ولم تكن فى المطبخ تعد طعام الإفطار وهي تردد أهازيجها وأغنياتها المألوفة. لا، ولم تكن فى حضرة سيدتها تصدع بما تؤمر، ولكنها كانت مصفرة مكفهرة، حائرة بين غرف البيت.

وبكر (مسرور) البواب النوبى العجوز، ولكنه لم يصل الصبح حاضرا ليدخل الجنة من (الباب الكبير)..!! ولم يكن فى غرفته الصغيرة يتلو الأوراد ويرتل (دلائل الخيرات) هادئا وادعا. فقد أعجزته فاطمة فهو يهرول ما بين السلم الداخلى والباب الخارجى مضطربا، يستنجد الأولياء والصالحين، ويسأل الله أن يعطف عليه فى قضائه وقدره.

- وإيه العمل دلوقت ياعم منصور؟!

- الفعل فعل الله! إحنا بيدنا إيه؟!

- بيدنا إيه إزاى؟ ماهو برضه (انت) الحق عليك!

- الحق علىّ أنا (وضرب فخذيه بيديه) روحى ياشيخة حسبنا الله. أقول إيه يا ناس لسيدى لما يصحى. أقول له إيه؟

وسمعت فاطمة الجرس يطلبها إلى غرفة سيدها، فنهبت إليه السلم نهبا، وكان فى فراشه فطلب قدحا من الماء، ولكن فاطمة لم تسرع إلى إجابة الطلب بل وقفت إلى جانب باب الغرفة وجلة[1] مترددة، أدرك حمدى بك ذلك فقال بصوت مرتفع:

-مالك ! ماسمعتيش؟!

فقالت الخادمة بتلعثم، وهى تفرك راحتيها:

- بس ياسيدى..

(١) وجلة: خائفة

- مالك لويه بوزك على الصبح يا فتاح يا عليم!

- بس يا سيدى ستى عايده..

فقال فى تهكم الضجر:

-مالها ستك عايدة..؟

فصمتت الخادمة هنيهة ثم قالت:

- دخلت الصبح أصحيها مالقيتهاش!

فانتفض حمدى بك فى مكانه وقال:

- ما لقيتهاش؟ إزاى!!

وفى طرفة عين كان وسط الغرفة، وفى أخرى كان فى غرفة بنته، فأدار فيها بصرا مذهولا، ثم قال:

- ماشفتيهاش فى الجنينه؟

-مش فى الجنينه ياسيدى. وحتى عم سرور لف حولين البيت ولافيش.

-وفين هو عم زفت ده ؟!

ولم يستطع صبرا حتى تناديه الخادمة، فهبط إليه، وجعل يستفسره ويؤنبه والنوبى العجوز يقسم بالله وآياته ويحج البيت وميقاته على أن لا ذنب له ولا جريرة[1]. وأيقن حمدى بك بأن لا فائدة من ذلك.. ولا عائدة.. فعاد أدرجه يصعد السلم واحدة واحدة، حتى صار وسط الصالة، ثم وقف جامدا، وشخص ببصره إلى غرفة ابنته طويلا، ثم نكس رأسه قائلا لنفسه (لقد طار الوطواط فى الظلام).

---

(١) الجريرة: الذنب

الانفجار

-١-

صالح أفندى عبد الوهاب تاجر المانيفاتوره بالسكة الحديد، كان واقفا أمام طست من نحاس على كرسى من خيزران، يغسل يديه قبل تناول الطعام، وإنها لعادة لم يغفلها مرة منذ علم أنها سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تقوم بعملية صب الماء له خادمة فى نحو الحادية عشرة، مشوشة الشعر عجفاء قد بدت ضلوعها من فتوق جلبابها، كما بدت سلسلتها الفقيرة حيث قد أكل البلى إزار ذلك الجلباب. وكانت امرأته (فاطمة) واقفة على مقربة منه، وبين يديها (فوطة) تنتظر فراغه لتقدمها له. أما بكر أولاده (شاكر) فكان على حافة كنبة يتلهى بقراءة إحدى الجرائد اليومية، ولم يجرأ على أن يتخذ مكانه من المائدة غير (توحيدة) التى لم تر الأيام وجهها إلا منذ خمس سنوات، وحتى هذه لم تجرأ على أكثر من ذلك، فقد كانت تنظر تجاه أبيها، وإلى الطعام أمامها تارة أخرى.

وكأنما غاب عن صالح أفندى أن الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، أو كأنما يريد أن يعرف مقدار صبر أهل البيت على الجوع، فهو يغسل يديه ببطء وحذر، يأبى إلا أن يعلّم الخادمة الأدب واللياقة فى هذه الفرصة المناسبة. وبعد أن اقتنع بنظافة يديه، وبعد أن أقنعته تلميذته العجفاء بأنها قد وعت ما ألقاه عليها من إرشادات ونصح، عمد إلى (الفوطة) فتناولها من زوجته فى كبرياء، ثم أخذ يبالغ فى استعمالها ما شاء له العند والتنطع.

وأخيراً ألقى جسمانه الغليظ إلى المائدة، وأخذ كل مكانه منها وابتدأوا يأكلون وألصقت الخادمة ظهرها بالحائط، وألصقت ذقنها بصدرها، كما ألصقت ذراعيها إلى جانبيها فكانت كتمثال للذلة والمسكنة!!

وأطرق[١] هو برأسه لا يريد أن يقع بصره على أحد. وجعلت الأم تعنى بإطعام صغيرتها أكثر مما تأكل.. فأما (شاكر) فكان يتباطأ ويتلكأ كأنه مسخر للقيام بمأمورية لامفر من أدائها.

---

(١) أطرق برأسه: أرخى عينيه ينظر إلى الأرض

وساد السكون طويلاً، لم يقطعه غير صوت الديك فوق السطح، يحدث أعظم شوشرة ممكنة إعلاناً بأن فرخته قد أضافت بيضة إلى ما فى العالم من بيض!! فحملقت[1] (توحيدة) إلى مصدر الصياح ثم قالت بفرحة:

- نينه. نينه. الـ..

ولكن نظرة من أبيها أماتت البشرى فى حلقها، وساد السكون مرة أخرى إلى قبيل انتهاء الطعام، وعندها جعل (شاكر) يبادل أمه النظرات، ثم يتنحنح ويهم بالكلام، ثم يرنو[2] إلى أبيه فيُحجم، فلما انتهوا من غسل أيديهم، نظر شاكر إلى أمه ونظرت إليه ثم تنحنح نحنحة حاسمة وقال:

- أنا بكره رايح المدرسة.

فقال صالح أفندى:

- وقصدك ايه؟

- قصدى على المصاريف!..

- وكنت نايم لغاية دلوقت فين؟

فأغضى شاكر ولم يشأ أن ينسب الإهمال إلى والده، وقد نسى أو تناسى خطاب إدارة المدرسة له منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. أما الوالد، فبعد أن زفر زفرات المحموم، وبعد أن اهتز فى مكانه كبندول الساعة، أخرج المحفظة من جيب جاكتته، وأخذ منها ورقة من ذات الخمسة جنيهات، ثم رفع إلى ابنه وجهاً مكفهراً وقال:

- هم كام؟

فصبر الابن لهذا التغابى وقال:

- عشرة جينه!؟

- إيوه عشرة جنيه!!

---

(١) حملقت: فتحت عينيها ونظرت نظراً شديداً

(٢) يرنو إلى أبيه: يديم النظر إليه

قال هذا فى تهكم[1] الممتعض وهو يخرج أوراقاً من ذات الجنيه الواحدة إثر الأخرى، وبعد أن أعاد عدّها دفعها إليه.

فقال شاكر بفتور.

- متشكر!

ثم تشجع وقال:

- من فضل حضرتك تدينى جنيه كمان، أجيب به جزمه!

فصوّب صالح أفندى إلى قدم ابنه نظرة أيقنته من أن السواد الذى فوق بنصره إنما هو سواد (الجوارب) الأسود لا الحذاء.

ثم مدّ يده إلى جيب صديريته وقال:

- خد، آدى ستين قرش كفاية!

فتناولها المسكين متردداً:

ثم نظر إلى أمه نظرة دلّتها على أنه لايريد أن يطلب أكثر من ذلك، غير أن حنان الأم دفعها إلى أن تتقدم إلى الزوج الشحيح فتقول:

- اعمل معروف يا أفندى تديله كمان ثمن بدلة، لحسن ياقة السترة دابت من كتر المسح.. وحجر البنطلوب نحل خالص.

عند ذلك!!

بانت على الفور بوادر العاصفة، فذُعر لها أهل البيت!. فقد صعد الدم فجأة إلى رقبة صالح أفندى القصيرة، ثم شيئاً فشيئاً إلى أذنيه، ومن أذنيه إلى عارضيه، ثم عم وجهه فصبغه، فحل عقدة (كرافاته) وفك زرار ياقته كأنما خاف أن يختنق.. لقد كان يغالب غضبه لئلا يجمح به، ولكن الأم لم تر مندوحة عن أن تقول..

---

(١) تهكم الممتعض: سخرية المستاء

– معلهش يا أفندى. ده ابنك وانت ما يخلصكش كونه يمشى مجريع بين الشباب اللى زيه!

فقفز صالح أفندى من مكانه كأنما مسّه الجن، فلما كان على قدميه أخرج المحفظة من جيبه فألقاها بكل ما أوتى من قوة، وقد التهب فى وجهه البخل والغضب، ثم صاح حتى تنكر صوته:

– آدى المحفظة آهه! انهبونى بقه! خدوها كلها علشان تنبسطى حضرتك إنت وابنك!!

وسار بضع خطوات جنونية ثم عاد فصاح:

– أمال إيه؟ ابركى على نفَسى إنت وهو لحد ما تطلعوا روحى.. آدى اليوم اللى بتتمنوه!

فاحمر وجه الطالب وأطرق يخفى خجله، ولاذت[1] توحيدة الصغيرة بساق أمها تتشبث[2] به، وقد اتسعت حدقاتها، وعلقت أنفاسها، أما الأم فلم تكن ألفت هذه الطباع الوحشية من زوجها فى مدى العشرين سنة التى عاشتها معه. لذلك أخذت تهمهم بضع كلمات تعزز موقفها.

وجمح[3] الغضب بالرجل فصار يقذف بكلمات كل واحدة منها أسوأ من سابقتها، ثم اندفع فتناول المحفظة فنثر ما فيها من الأوراق وقال وهو يرتعش وينتفض:

– يالله.. يالله.. أهم قدامكم.. أهم.. أهم.. اشتروا بدل وجزم زى ما أنتم عاوزين.. واتمطعوا فى القماش على الآخر.. آدى الفلوس اللى عينكم منها.. أهم.

فتقدم الابن خطوات جعلته على مقربة من أبيه، ثم قال وهو يحاول أن يكون هادئاً، وأن تكون كلماته وئيدة رزينة.

– بقى اسمع يابا (ولكن خفق قلبه حتى ارتُج عليه) أنا.. أرجوك أن تفضها سيرة..

– اخرس مفيش ولاكلمة! (قال ذلك بشدة حتى لقد طار رذاذ من ريقه أصاب وجه الفتى) اخرس اوعى تفتح بقك!

قال شاكر وهو يمسح وجهه:

---

(١) لاذت بساق أمها: لجأت إليه

(٢) تتشبث به: تتعلق به

(٣)جمح: أسرع

– أنا لحد دلوقت كنت أقدر أحتمل المناظر دى، لكن.. لكن دلوقت خلاص. من فضلك تفهم كده!!

– اخرس بقول لك (وضرب الأرض بقدمه ضربة ارتعد لها زجاج النوافذ). أنا أقول اللى أنا عاوزه، وانت تقف ساكت زى الحمار. أنا لما كنت فى سنك كنت بكسب من عرق جبينى جنيهات مش زيك. حضرتك عايم فى مية البطيخ، مش عارف بتتكلف على أد إيه؟! انت مالكش غير الطرد فى السكك يا بشت!

وألفت الأم أنه من الواجب عليها أن تتداخل فقالت:

– معلهش يافندى طوّل بالك شوية...!

– اخرسى يا ولية انت كمان (وتجحظت[1] عيناه من شدة الصرخة) إنت اللى خسرتيه، انت اللى تلفت أمله لا بقى يحترم كبير ولاصغير، وهو مبسوط اللى حضرتك عملاه قنصل علىّ. والله لكون طاردكم بره البيت!

عند ذلك التصقت (توحيدة) بأمها، وبعد أن أدارت نظراتها الساذجة إلى النافذة المفتوحة انهمر[2] دمعها وأجهشت[3] بالبكاء. أما صالح أفندى فقد جمد فى مكانه حيناً ثم أسرع إلى غرفته وهو يطوح يديه ويستعيذ بالله ويستنزل لعناته!

وهكذا انتهى هذا المشهد كما انتهت أشباهه منذ أكثر من عامين، ولكن من نكد الطالع أن (شاكراً) كان قد ملك الغضب عليه فؤاده وتفكيره فوقف هنيهة يشيّع أباه بنظرات حانقة ناقمة، ثم ارتد إلى أمه شاهراً[4] فى وجهها قبضته.

– دى حالة مابقتش تحتمل أبداً! دى عيشة بقت زى الزفت المسيّح! (وبرزت عروق رقبته من شدة الصياح). أنا والله عندى أموت من الجوع وأدور شريد فى الشوارع ولاكونى أشوف خلقتكم. خدى آدى فلوسكم!! (وقذف بها فوق الكنبة) والله ما يتبعنى منها مليم واحد!!

---

(١) جحظت عينه: برزت

(٢) انهمر دمعها: سال دمعها

(٣) أجهشت بالبكاء: تهيأت له

(٤) شاهراً: رافعاً

فذهلت الأم مما رأت، وخُيّل إليها أن هذا الذى يجأر أمامها ليس ولداً لها، إنما هو مخلوق غريب مخيف! فضربت صدرها بيدها وقالت كأنما هى فى حلم:

– يه! وأنا ذنبى إيه يا بنى؟!

ولكن الولد فعل مافعل الوالد، فضرب الأرض بقدمه وذهب إلى غرفته وهو يلوح بيديه مرغيا مزبدا..

– ٢ –

واستلقى الفتى على سريره وحاول التفكير فى أمره، ولكن هياج أعصابه لم يمكنه لا من الاستلقاء ولا من التفكير، فنهض فارتدى ملابسه البالية وحذاءه المفتوق، وانطلق من غرفته انطلاق السهم، فلما وصل إلى باب المنزل تريث ثم وقف: إلى أين؟ وماذا تكون العاقبة؟؟ ولم ينتظر من نفسه جوابا، فانطلق كالسهم مرة أخرى، ولكن على غير هدى.. لم يكن يشعر وقتئذ إلا بالحاجة إلى الهواء يريح قلبه المنتفخ، ويثلج رأسه الملتهب!

فمشى مبطئا طورا، وطورا مسرعا، مفكرا وذاهلا، يصطدم بالناس ويستبين أشكالهم ويهيب[١] به سائقو المركبات فلا يسمع نداءهم، وإذا اتفق أن لمح أحد أصدقائه انزوى أو غيّر الطريق، إلى أين؟ لماذا؟ وماذا تكون العاقبة؟ لم يكن يعرف!!.. وأدى به السير إلى (قصر النيل) وهنالك رأى الطلبة– وقد عادوا من بلدانهم ومصايفهم– منتشرين فى الناحية فى جلاليب نظيفة أو بدل جديدة، يروحون ويغدون، مثنى مثنى، وثلاث ثلاث، وجماعات جماعات.. ليس فيهم وحيد إلاه، وليس فيهم حزين إلاه، بل ليس فيهم قذر إلاه..

فحدثته نفسه بأن يتحاشى ألما على ألم ومضضا على مضض بأن يعود أدراجه، ولكنه كان فى حاجة الى الهواء، يريح قلبه المنتفخ، ويثلج صدره الملتهب! فمضى، فاجتاز (الكبرى) ولاذ بالحديقة المقابلة، هنالك طاف فى طرقاتها وطاف حتى غلبه التعب فارتمى على الخضرة الممتدة، وحاول التفكير، أى تفكير، وا رحمة للمسكين ! لقد خطر له أن ينتظر حتى يجن[٢] الليل، ويعود

---

(١) يهيب به: يناديه

(٢) يجن الليل: يدخل بظلمته ويستره

الهائدون إلى منازلهم الهانئة، أما المهموم فيغمر همه فى الماء!!.. سوف يحمله النهر إلى الله يشكو له ويطلب إليه الرحمة بوالدته..

ولكنه استشعر هول الموت فارتعد، وغادر المكان الذى ظهر فيه شبحه، وتحول فجلس تحت جذع نخلة، وهنالك تواترت على ذهنه خواطر عدة أغلبها مستمد من سطور الروايات، ومفاجآت السينما، فتمادى فيها وأمعن حتى جاء الحارس الأسود يدق الجرس فوق رأسه!

خرج من الحديقة فأخذ الطريق الضيق المحاذى للنيل.. اختاره لأنه أقل ما يكون مارة وأصلح ما يكون لتفكيره، فلما صار إلى المسجد القائم هنالك وقف يضرع(١) إلى الله حتى امتزجت دعواته بدموعه!!.. وتابع السير ثم تابع التفكير فاستقر رأيه على ألا يلقى بنفسه فى الماء، ولن يجعل من نفسه بطل رواية قبل أن يقف مع والده الموقف الأخير.

وألفى البيت فى سكون مطلق: أمه جالسة على (شلتة) فى مخدعها مسندة خدها على قبضة يدها، وقد اتخذت توحيدة من فخذها وسادة فنامت، وأبوه يضرب فى غرفته ذهاباً وجيئة يدل وقع خطواته، والكيفية التى كان يتنحنح بها -بل مؤخرة رأسه أيضاً- على أنه يشعر بأنه المذنب الملوم.

- يمكن تكون حطيت عقلك فى رأسك دلوقت؟

هذا ما قاله صالح أفندى عندما وقع بصره على ولده، وكادت عاطفة البنوة تتغلب على الفتى ولكنه قمعها(٢) وقال:

- اسمع حضرتك، أنا جى أتكلم معاك كلام، أيوه كلام جد.. إنت تعرف إنى عمرى ما فتحت عينى فيك، وإنى.. دائماً كنت أحترمك، لكن طريقة سلوكك طول السنة اللى فاتت وخصوصاً الفصل اللى عملته النهاردة..

فنظر إليه صالح أفندى نظرة فاترة، أما شاكر فقد حك جبهته بيمناه كأنما يشحذ قريحته وقال:

- أنا بدى أعرف إيه غرضك من العمايل دى. فى الأيام اللى تغيبها ما تبعتلناش حتى الحاجات الضرورية إلا... بـ.. بكل نفس.. لحد الواحد ما يشعر تمام تمام إنه بيشحت منك شحاته!!

---

(١) يضرع إلى الله: يدعوه

(٢)قمعها: غلبها

واليوم اللى تجى فيه تركّب البيت ميت عفريت تعرف تقول لى إيه سبب.. الـ.. الـ.. الزيطة والزمبليطة اللى عملتها النهاردة؟.. تعرف تقول لى كده؟

- مش شغلك!!

وهنا انفجرت مراجل الغيظ والغضب فى صدر الفتى، فاندفع نحو أبيه خطوة وقال:

- لا!! شغلى شغلى. وإن كنت إنت مكسوف تقول السبب أنا أقوله لك!

وغص شاكر بريقه فجعل يكح ويكح، وانتهز صالح أفندى هذه الفرصة فاستبدل نظراته الفاترة بأخرى حادة ثاقبة، كأنما أحس بتفاقم الموقف، وهو يريد أن يستعد له. فلما تمالك شاكر نفسه استطرد فقال:

- أيوه أنا أقولك.. من يوم ما عملت عملتك السخيفة الدنيئة.. سنتين دلوقت، سنتين وانت ماشى تحت إدارة الهانم الجديدة بشكل مزرى سخيف، اللى جنابها تبسبسولك فى ودانك، هو.. أقول لك إيه؟.. هو قرآن ونزل من السماء.. كانت..

ولكن الدم صعد فجأة إلى رقبة الرجل القصيرة، ثم شيئاً فشيئاً إلى أذنيه، ومن أذنيه إلى عارضيه، ثم انتشر فى وجهه فصبغه:

-اخرس ياكلب. اخرس!!

-تقدر تزعق زى ما انت عاوز.. إنت طلعت فيها خالص علشان مالقتش حد يصدك، فأنا (وارتعد الفتى كأنما أصابته الحمى).. كل واحد فى البيت يخاف منك ويرتعش، كأنك سجان، جلاد.. عفريت أزرق..

-إقفل بقك لحسن أفلق دماغك !!

-مافيش كلام من ده!! أنا بدى أعرف ما معنى أن واحد زيك يتجوز واحدة ثانية.. يعنى إن الواحد ما دام بقى عنده قرشين، مفيش قدامه غير الشهوة الشهوة الشهوة!! ربنا، النبى، الولى، الحلال، الحرام، آدى الكلام الفارغ، اللى نسمعه منك ومن أمثالك!! وانتم لا تعرفوا ربنا ولا نبى ولا ولى، وواخدين المسألة قفش.

- اللهم اخزيك يا شيطان!! والله أنا عقلى بيقولى أسيح دمه فى الليلة المهببة دى..

- وأنا مستعد أدينى قدامك.

وعندما تمادى الأمر إلى «الدم» تجاسرت الأم فدخلت عليهما بعد طول وقوفها وراء الباب، وبعد طول ترددها فى التدخل خيفة أن تزيد النار وقوداً.

- جرى إيه يا شاكر إنت اتجننت ولا إيه؟؟

وتقدمت إليه فطوقته بذراعها عله يشعر بوجودها فيهدأ ثائره، أما صالح أفندى، فما وقع بصره عليها حتى تقدم إليها كالوحش وأهاب بها:

- عجبك؟ عجبك؟ آدى اليوم اللى تتمنيه.

وأرتج[1] على المرأة، ولكن الفتى قال:

- طبعاً عجبها! مش دى اللى داقت فقرك وكانت سبب نعمتك؟ مش دى اللى باعت أساورها لما جيت تفتح المحل! كانت زمان يا ستى يا حبيبتى، أما دلوقت مافيش غير الشتيمة والضرب والبهدلة.

- دى مراتى وأنا لى الحق كونى أكسر دماغها بالجزمة!

- ودى أمى وأنا أحذرك من كونك تمسها بكلمة واحدة من دلوقت! هنا عاوز تكسر دماغ دى، وتضيع مستقبل ده من غير أى شفقة ولارحمة، وهنالك راح يبوظ منك المخروب التانى من كتر اللين والتساهل، والكرم الحاتمى.. والله عال، آدى البيوت وآدى الرجالة!!

- والله العظيم. والله العظيم. والله العظيم. إن ما كان يخرج الولد ده من البيت الليلة دى..

فخافت الزوجة مما عسى يتم به كلامه هذا الأحمق الثائر فقاطعته تستعطفه:

- معلهش يا أفندى طوّل بالك (ثم التفتت إلى ولدها تقول) وانت كمان إخزى الشيطان يا شاكر يا ابنى واطلع من هنا دلوقت..

---

(١) أرتج على المرأة: لم تقدر على الكلام

فتريث الفتى مليا، وبعد أن نظر إلى أبيه نظرة ملؤها الازدراء هز أكتافه وقال:

- طيب أنا راح أطلع من هنا دلوقت.. إنما تأكد إنى راح أقف لك بالمرصاد، وراح أقلب عليك الدنيا!!

واندفع إلى الباب ثم إلى غرفته ثم إلى سريره. أما «فاطمة» فخرجت بخطوات متثاقلة، فلما وصلت إلى الباب انحنت فحملت «توحيدة» الصغيرة التى خفتت أنفاسها من فرط ما انتحبت.. وذهبت إلى غرفتها. وساد السكون!!

-٣-

وغلب الإعياء الفتى فلم يفتح عينيه إلا عند منتصف الليل، ولم يشعر وقتئذ بغضب ولاخجل، بل بألم فى نفسه غامض[١] الكُنه، وقام يخلع ملابسه فخلعها، ولكنه لم يستطع العودة إلى فراشه، فذهب إلى النافذة، ثم أعمل رأيه على أن يباكر عمه فيقص عليه أمره، ويطلب إليه التداخل.. عند ذلك سمع والده يتنحنح، ووصلت إلى أذنه همسات أمه إلى الله، فعلم أنهما يشعران بما يشعر به، ثم تبين وقع أقدامها العارية تجىء إلى باب غرفته المغلق تتسمع ثم تعود.

وفى الساعة الخامسة من الصباح، ارتدى ملابسه، وأخذته العبرة عند الانتهاء فلما كان أمام باب والده سمعه يقول:

- رايح على فين؟

فالتفت فإذا والده واقف إلى جانب سريره.

- رايح مطرح منا رايح.

ولكن صالح أفندى أدار ظهره وقال:

- تلاقى المصاريف وثمن الكسوة على التربيزة المدورة.

---

(١) الكنه: الحقيقة. وغامض الكنه: لا يعرف الحقيقة

جولة خاسرة

ليست الصداقة!... أبداً...

ولا الإشفاق!.. مطلقاً...

ولا أية عاطفة أخرى!.. بتاتاً...

ليس شئ من هذا دفعنى إلى أن أزور صديقى «بيومى أفندى» حينما بلغنى أنه مريض. إنما هو الشيطان وسوس لى ليلهو بى، ولاشك أنه كان يتبعنى وهو مكب على أحشائه من شدة الضحك!!

لبيومى أفندى أن يمرض أى مقدار من المرض، وإلى أى مقدار من الزمن، ولكن ليس له أدنى الحق فى أن يلومنى أو يعتب علىّ بعد ما قد حصل...

لقد سعيت إليه وسعيت، تسلمنى الحارة إلى الزقاق فأمضى، وينتهى بى الزقاق إلى الدرب فأذعن، ويعرج بى الدرب على العطفة فأمتثل. وأنا فى كل هذا أكابد القاذورات والأوحال فى حذر.. وحذر.. وحذر.. وتزل إحدى قدمى رغم ذلك -بين حين وآخر- فإذا بى على مقدم القدم الأخرى أحفظ توازنى بذراعى كأننى بهلوان نصف ماهر!!

وليتنى اهتديت بعد ذلك فإن تطوافى لم يكن يزيدنى غير الضلالة. أمعن فى هذا فأمعن فى تلك. حتى اختلطت علىّ المسالك[١] ووقعت وسطاً بين الحيص والبيص[٢]!! فملت إلى شاب توسّمتُ فيه الخير -وكان جالساً أمام دكان حلاق- فذكرت له اسم الحارة واسم بيومى أفندى، وسألته عما إذا كان يعرف أحدهما أو كليهما فهز رأسه بالنفى، فاستدرت يائساً وهممت بأن أعود أدراجى، ولكن صوتاً جهورياً[٣] انبعث من جوف الدكان يستوقفنى، وإذا بالحلاق قد ترك ركام الصابون على عارضى زبون كان بين يديه، وأقبل علىّ يتهادى فى قفطانه الأبيض الناصع منسجماً على قامته المديدة، وطربوشه الأحمر الزاهى مائلاً فوق حاجبيه الكثيفين.

---

(١) المسالك: الطرق

(٢) وقعت بين الحيص والبيص: وقعت فى شدة وحيرة واختلط على الأمر

(٣) جهوريا: عاليا

فلما بلغنى حيأنى تحية حارة مخلصة، خلت بعدها أن سيسألنى عن صحة أقرب الأقربين إلى... ولكنه لم يفعل... بل قال فى لهجة تذوب رقة وسماحة:

- أظن سيادتك جى تزور سى بيومى أفندى.

ولما لم يكن فى نيتى أن أفعل غير ذلك وافقته على ملاحظته، فبدت على وجهه علائم السرور لصدق فراسته، ثم قال:

- والله يا حضرة هو اللى جاب لنفسه الشئ ده.. ياما نصحته بأنى -ما تآخذنيش- آخد له كاسات هوا.. وأعمل له وصفة بلدى على كيفى ما استأعدش فى كلامى، وآهو داير مع الحكما أفرنج وغير أفرنج.. وكل حى ورزقه.

وأنشأ يتحدث عن مهارته وكفايته، ويستشهد بالشاب السالف الذكر على عدد الذين أنقذهم من براثن الموت بعد أن أعيت[1] سقامهم طب الأطباء.

فهو يداوى مرض السكر لا «بالأنسولين» بل بجوزة الطيب.

وهو يداوى البلهارسيا لا «بالتارترامتيك» بل بمغلى الشيح.

وهو يداوى السرطان لا «بأشعة رونتجن» بل ببذر الكتان.

وهو يداوى الدوسنطاريا لا «بالإمتين» بل بحبة البركة.

وهو يداوى...

وهو يداوى...

والشفاء على الله.

وكان لايتردد -إذا اقتضت المناسبة- فى أن يسرد شطراً من تاريخ حياته، لاسيما ما يتعلق بكرم أصله وتواضعه وإنكار ذاته...

غير أن نحنحة الزبون داخل الدكان أصبحت واضحة المعنى، فعزّ على الحلاق ذلك، فذهب إليه يعنّفه ويأمره بأن يراعى أدب المجاملة.

---

(١) أعيت: أتعبت

ثم عاد وليس له بد من أن يصف لى الطريق إلى منزل صديقى، وهو يبالغ فى اعتذاره عن وقاحة زبونه، فشكرته وانصرفت وأنا أحمد الله على استرداد حريتى. أما هو فلبث أمام حانوته يعيد اعتذاره مراراً وتكراراً، ويظهر شديد أسفه على عدم إمكانه أن يرافقنى، ويحملنى تحياته إلى صديقه ويستحلفنى أن أنصح له «بكاسات الهواء» حتى بلغت أول منعرج فعرجت[1]، واستقام الطريق فاستقمت، وإذا بالجامع عن يمينى حقاً والمؤذن فى رأس المئذنة ينادى بصلاة العصر، فاجتزته.. وتركت حارتين فى صفه فإذا بى أمام «العتقى» الذى أنبئت به، فاسترشدته إلى ما بقى من الطريق وكان قد اختلط علىّ، فهش لى الرجل وبش، ورجانى أن أنتظر ريثما[2] يلم شعثه، حيث إنه قد انتهى من عمل يومه، وأنه ذاهب إلى نفس المكان الذى أطلب.. فانتظرت..

وما أسرع ما حشد بضاعته -أزواجاً وأفراداً- فى زكيبة، وألقى الزكيبة على ظهره، وضم السندان إلى صندوق عدته ثم حشر الصندوق تحت إبطه وأخذ سمته فأخذته معه. وما خطونا بضع خطوات حتى شرع يغنى بصوت خافت فيه لين وعذوبة، فطربت له، وخدعه ذلك منى فاندفع يجأر ويبالغ فى أداء نغماته وآهاته، إلى أن أدركنى الخجل لى والإشفاق عليه، وأسفت على أننى شجعت هذا الغِر.

وبلغنا منعطفا فى الطريق، وإذا بامرأة كقطعة هائلة من ليلة مُدلهمّة[3] قد داهمت صاحبى وصاحت به قائلة:

– غنا إيه اللى بتغنيه؟ اختشى وحس على عرضك.. والنبى ما أسيبك إلا فى التمن.. ياللا انجر قدامى.

وأمسكت بتلابيبه مسكة احتقن لها وجه الرجل وجحظت عيناه، فعجبت بادئ الأمر لهذا النوع من البوليس، ولم أكن قد سمعت بمثله من قبل، على أننى شكرت له فى نفس تلك اليقظة وذلك النشاط فى القيام بواجبه.. ولكن هذا النوع من البوليس أخذ يذكر حلياً باعها، وحللا وطناجر رهنها، مما جعل الريب يداخلنى فى أخلاق هذه الفضيلة المستحدثة.

---

(١) عرج: انعطف ومال

(٢) ريثما يلم شعثه: حتى يجمع ما تفرق من أمره وشئونه

(٣) ليلة مدلهمة: ليلة مظلمة

وعارض رفيقى فى الذهاب إلى القسم، وعبثاً حاولت أن أهدئهما أو أن أفصل بينهما، فقد احتدم[1] اللجاج وتعالت الأصوات بالشتائم واللعنات إلى حد أن حلف رفيقى بالطلاق ليأخذن ابنه معه مهما كانت العقبى[2].. وهو طفل فى نحو العامين، كان إلى جانب الحائط ولم أكن قد تبينته من قبل، وكان يحملق إلى والديه وهما يلقيان عليه أول دروس حياته.

وانتهى الأمر بأن كان من نصيبى أن أحمل السندان والصندوق، لأن رفيقى اكتفى بالطفل والزكيبة.. ولو لم يحمل غير أولهما لكان له العذر فى ذلك، لأن هذا المخلوق الصغير جعل يتلوى فى مكناه من صدر أبيه حتى لتحسب أنه على آلة تعذيب.

ولم يكترث ألبتة حينما أوهمه الرجل بأننى «شاويش» جئت للقبض عليه، إذا هو لم يكف عن هذا البكاء، ولا عند ما حاول إقناعه بأننى «حكيم» تركت عيادتى خصيصاً لأضع له الشّشم، إذا لم يمسك عن هذا الالتواء.. ولا عندما أدار رأسه ناحيتى، فأحدث أصواتاً غريبة ثم ادعى بأننى أنا الذى أحدثتها، لأننى عفريت من الجن سألتهمه من فورى إذا ذكر أمه مرة أخرى.

على أن الرجل استطاع أن يخبرنى فيما بين هذه الادعاءات السخيفة، أن تلك المرأة التى اعترضتنا كانت زوجته ثم طلقها منذ أشهر، وأن المحكمة الشرعية فرضت عليه ثلاثة قروش كل يوم نفقة لها ولابنها، فكان يدفعها بانتظام ولكنه تزوج فى الأسبوع الماضى، فأصبح من المتعذر عليه أن يقوم بسداد مبلغ كهذا، ثم شرع فى وصف معيشته وإيراد تفاصيل أمره، حتى انتهينا إلى باب قد علت الأرض عليه فلم يظهر منه غير نصفه أو يزيد قليلاً. وهنا أنزل حمله فأسرعت بتقليده، ثم أشار إلى منزل غير بعيد، وأكد لى أن بيومى أفندى يسكن الطابق الثالث منه.

وما هى إلا هنيهة حتى كنت قد صعدت شطراً كبيراً من السلم، ولكن صوت فتاة انطلق يقول:

- آم.. الراجل آهو اللى بييجى لنفوسة.. أدينى ظيطه طالع آهو.

فجمدت فى مكانى، والتفت إلى الفتاة أؤكد لها أنها مخطئة، وأنى صاعد إلى صديق لى فى الطابق الثالث.. ولا يسألن أحد عن دهشتى عندما رأيت الفتاة تتهكم بى تهكماً مراً محرجاً. ولا

---

(١) احتدم اللجاج: اشتدت الخصومة

(٢) العقبى: الجزاء

يسألن أحد عن جزعي وقد آنست حركة عجيبة شملت البيت، وسمعت صوتاً غليظاً يأمر بالقبض عليّ.

فنزلت السلم في لمح البصر، وانطلقت من الباب كالسهم المريش، ثم جعلت أنهب الطريق نهباً وعلى غير هدى، حتى سمعت صوت الترام فعدوت إليه، وما ونيتُ حتى ألقيت بنفسي بين أحضانه.

...ولم يطمئن قلبي إلا عندما تبينت من تتابع الحوانيت والنازل أمامي أنني بعدت عن هذا الحي اللعين، وعن كل ما له علاقة بهذا الحي اللعين، فهدأت أنفاسي وعزمت على ألا أعود إليه بنفس الحرارة والإخلاص اللذين يشعر بهما النادم المحسور، حين يعزم على ألا يعود إلى خطيئة فرطت[١] منه.

---

(١) فرطت منه: بدرت منه

ميفيستوفوليس

-١-

أرجو -بادئ ذى بدء- ألا يخطئ أحد الفهم فيظن ميفيستوفوليس «اسم علم» على خمّار فى السيدة زينب، أو سمسار فى بورصة الإسكندرية، أو طبيب متجول فى بعض قرى الريف.. ذلك لأن ميفيستوفوليس هو اسم آخر لإبليس.. الخرسيس.. الذى أبى أن يرغم أنفه الفنارى فيسجد «لحضرة والدنا المحترم..»

لقد استعمل هذا الشيطان الرجيم -فى أول عهده بالغواية سياسة الغشم والطرف[١]، يسخّر آنة شعباً بأسره فى أحط أنواع الانتقام، وأسفل صنوف التشفى.. أو يتقمص [٢] آنة أخرى جسمان جبار، فيناوئ مولاه ويتحداه... ألا فانظروا كيف حاول أن يزرى بكرامة إخوانه فى عليين، حينما هبطوا أرض «صودوم وعامورة»[٣] أو فانصتوا له يجأر من حلق فرعون حين حشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى...

ولكن الله بعث الأنبياء والمرسلين يحملون مشاعل نوره القدسى وينشرون فى ضوئها أسوأ «بروباجندا» عن هذا الخصم اللعين حتى صده ورده وأفسد كيده.

فأسقط فى «حوافر» ميفيستوفوليس -لأن يديه لهما حوافر كالبهائم والعياذ بالله- وصرخ فى أتباعه فتشتتوا يستطلعون ماهية ذلك الفشل الذى حاق بهم، على أن يتلقوا جميعاً -بعد أيام عدّدها، وساعة حددها- فى جوف «غار السبعة أغوال».

فلما كان اليوم والساعة جلس إبليس على عرش الظلمة، وفوق رأسه تاج من النار، وفى يده صولجان هو حية لها أربعون رأساً.. وقال فى جبروت:

- يا أبالستى.

---

(١) الطرف: جمع طرفة، وهى ما يستطرف أى يستملح

(٢) يتقمص: يلبس

(٣) هى الأرض التى بعث فيها لوط عليه السلام، وحكاية قومه مع الملائكة مشهورة

فانحنوا أجمعين وقالوا:

- لبيك لبيك الكل بين يديك.

- ما وراء كم؟

فشق الصفوف شيطان رشيق راق العينين، فلما مثل أمام العرش قال:

- دامت عليك اللعنة[1]. وبعد فقد جبت الأقطار، وذرعت الأمصار، وعاشرت العدد العديد من أهل كل ملة ونحلة ولا أخفى عنك أنه كاد يدب إليّ اليأس بادىء الأمر، لما رأيته من تأثير الأديان على النفوس، فقد هذبتها تهذيباً، وحصنتها تحصيناً، جعل عملنا شاقاً جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

فضغط إبليس على صولجانه فاندلع من الأربعين رأساً أربعون لساناً من لهب، وأشاح[2] بوجهه مغضباً وقال:

- لا تطل. لا تطل.

- طاعة لمولاى. غير أننى جعلت أمعن التفرس فى دقائق الوجوه. وأُنفذ البصر إلى أعماق النفوس والرءوس.. وهنالك هنالك «واهم. واهم[3]»(وجدت عيوناً زائغة، وتبينت نفوساً قلقة، وألفيت رءوساً ما برح الإلحاد ينبض فى خباياها.. ولست بمفاخر أو بمبالغ إن أنا قلت إنه كان من أصعب الصعب أن أستكشف هذه الحقيقة وأجزم بها، ذلك لفرط المهارة فى إخفاء هذا الزيغ وذلكم القلق والإلحاد، إلى حد أن أصحابها ليعدون من أخشع الناس أبصاراً، وأثلجهم صدوراً، وأورعهم تفكيراً، والكثيرون من هؤلاء ذوو شأن فى عشرائهم عظيم.

فقال إبليس:

- وما الرأى؟

قال:

- إنهم رهن إشارة تلفت نظرهم إليك، فالرأى عندى أن تبهرهم بالمال والجاه، وتحبب إليهم الاستمتاع واللذة، وأن تساعدهم على التفنن فى ضروب الرياء، فتزداد الناس بهم ثقة واعتقاداً، فإذا

---

(١) وهى تحية يسر لها إبليس

(٢) أشاح بوجه: أعرض بوجهه عنك

(٣) بفتح الهاء مفخمة اسم صوت يقول أهل «عبقر» إنه يدل على الارتياح والغبطة ، ويقول غيرهم غير ذلك .

انحازوا[1] إلينا، فذلك هو النصر المبين، إذ بأمثال هؤلاء نعكس آية الآيات، ونأتى بمعجزات دونها المعجزات، ونستعين بالدين على هدم الدين، ونضل المؤمنين وهم مؤمنون..

عند ذلك رقصت الشياطين رقصة «الهاوية» وهم يصيحون «واهم. واهم» أما ميفيستوفوليس فــضــحك ضــحكة غــامــضــة لكنه...

....

-٢-

نودى إلى الصلاة من يوم الجمعة فشرع تجار الغورية يتمون آية الله فعلاً: هذا يغلق حانوته إزماعاً[2] على أن يذر البيع ما بقى من النهار، وذلك يترك متجره فى حراسة صبيةً على أن يعود، وآخر يكتفى بأن يعقل كرسيين فى مدخل دكانه ثم يتوكل، الكل يبتغى أداء الفريضة فى المساجد المنتشرة فى هذه الناحية.

واحتشدت طائفة منهم عند سلم «جامع الفكهانى» القائم فى مدخل حوش قدم، وتكاثر العدد لما انضم إليهم من تقاة أهل الحى وطلبة العلم الشريف، وجعلوا يرتقون[3] إلى حمى الله، وقد تجاوبت تحياتهم الورعة، ومجاملاتهم المؤدبة وتمنياتهم الخالصة...

وفيما هم كذلك إذ بـ«عليكم ورحمة الله وبركاته» تتعالى من إجماعهم، وقد أفسح الطريق بين الواقفين منهم والصاعدين إجلالاً لمقدم «السيد مصطفى حسن عبدالوهاب الجيزاوى الشاذلى» فسار السيد فيما بينهم بخطوات وئيدة وهام[4] منكّس، حتى إذا وصل السلم لمّ أطراف جبته فصعده واحدة واحدة إلى أن توارى، وتبعه الباقون.

---

(١) انحازوا إلينا: مالوا إلينا

(٢) أزمع على الأمر: اعتزم عليه

(٣) يرتقون: يصعدون

(٤) الهامة: الرأس

وانتهت الصلاة، وانصرف شيخنا بأعظم مما قوبل به إكباراً وتبجيلاً، فقد انهملت على يديه القبلات وتكاثرت عليه طلبات الدعوات، وهو يتحاشى الشفاه الأولى، ويستجيب للثانية.. ولاغرو أن ينال السيد مصطفى حسن عبدالوهاب الجيزاوى الشاذلى هذا الاحترام الكلى من هذا الجمع المختلف الطبقات، المتباين النزعات، فطلبة العلم الشريف يُكْبِرونه لأنه يعلمهم «الفقه» فى الصباح ويلقنهم «النحو» بعد الظهر، وأما الباقون من تجار وغير تجار، فلهم فيه صديق وصدوق، وناصح ونصوح، ومرشد رشيد، يستفتونه فى أمور دينهم ويستشيرونه فى شؤون دنياهم.. «فالسيد مصطفى... عبد... الـ.... الـ....» على الرغم من علو مكانه العلمى والاجتماعى والمادى بالنسبة لمجموعهم، لا يستحى من أن يكلم أحطهم إدراكاً، ولايأنف من أن يختلط بأغمرهم[١] قدراً، ولايتأفف من أن يجامل أرقهم حالاً.

سار السيد مصطفى خطوات وقورة أوصلته إلى شارع الغورية، ثم عرّج[٢] يسرة، وما كاد حتى أقبل عليه شاب معمم لابأس من هندامه فانحنى يقبّل يده، فقبلها، ولكن السيد أمسك بيده يستبقيه، فأطاع، واستأنف السيد سيره، وكان يتمتم بعض الأوراد، فتبعه الشاب صامتاً فى احترام حتى إذا ما انتهى التفت فقال:

- إنت صليت فين يا شيخ سليمان؟

- هنا فى جامع المؤيد.

- أنا ظنيت إنك راح تصلى فى الفكهانى زى عادتك علشان كده رحت أدور عليك.

- خير إن شاء الله.

- ألا إيه مسألة والدك، والواد حامد؟

- أنا أبويه ما بعتليش شئ بهذا الخصوص، فقط قابلت عم شعلان الخولى.

فقاطعه الشيخ بقوله:

- جات ده داهية زى أموات الليل على رأى المثل «لايجيب خبر ولا يودى خبر».

---

(١) أغمرهم قدرا: أقلهم قدرا. والمغمور هو الخامل

(٢) عرج: مال

فتضاحك سليمان وقال:

- والله هو كده.

واستطرد الشيخ فقال:

- علشان والدك بعت لى النهاردة جواب مسوكر، إنما الحقيقة.. (وأدخل يده فى عبّه يبحث عنه).

«إن خطه ردىء جداً أهو.

(وأخرجه).

- خد اقراه علىّ، إنت طبعا تعرف تفسر خط والدك..

فتناول سليمان الخطاب وشرع يتلوه:

«إنسان العين وعين الإنسان سيدنا الأجل. دام

بعد تقبيل يديك الكريمتين والسؤال عن عزيز صحتكم نحيط علم فضيلتكم أنه كان بعزمنا أن نكتب لكم عن انتهاء مسألة المشاورة فى مسألة الخمسة أفدنة والأربعتاشر قيراط التى طلبتم عزتكم مشتراها من طين حرمنا. فنرجو التكرم علينا بالحضور طرفنا لنزداد شرف وننتهى فى هذا الموضوع. فقط نسألكم بحق العيش والملح أن تهتم لنا فى مأمورية بسيطة اعتمادنا على الله وعلى مولانا الأجل المحترم فى نهوها، وهى كون فضيلتكم تكلم لنا وهدان بك، وتوصية علينا كثير لأننا واقعين فى مشكل مع حامد بن الحاج خليل. وهو وإن كان فيه قرابة بعزتكم إلا أنكم تعرفوا عنه الشر وحب المشاكل. فنرجوك أن تكلم لنا البيه المذكور لحسم النزاع والساعى فى الخير كفاعله ودمتم لنا على طول السنين».

كاتبه: مبروك نوار

واسترد السيد مصطفى الخطاب فأعاده إلى حيث كان وهو يستغفر الله ويستعيذ به. وبلغا حارة الروم، وبها يقطن الشيخ فافترقا.

-٣-

هذا منزل الشيخ أو بعبارة أحق وأدق، هذا مقام سيدى مصطفى حسن عبد الهادى الجيزاوى الشاذلى.. وكيف لا يكون محرابا ومهبط وحى، وهو فى كل وقت من أوقات الصلاة يقيم الصلاة

بصوت عال جهورى يقرع أسماع المارة والجيران؟ وقد بلغ الورع من ذلكم التقى النقى حد (الوسوسة) فهو إن قال نويت أصلى شك فى أنه قال نويت فيعيد الكلمة ثانية وثالثة، وهو فى كل مرة يضاعف العناية بنطق حروفها ليطمئن قلبه، فإذا ما اطمأن وخرج من النية إلى التكبير فقد يشك حين يقول: الله أكبر فى أنه فاه لفظ الجلالة، فيفعل به ما فعل بقوله نويت منذ هنية.. فتكون المجموعة هكذا: نويت أصلى.. نويت.. نوى... نوى... نويت... نويت أصلى العصر (مثلا) أربع ركعات حاضرا.. الله .الـ... الله أكبر.

فإذا ما انتهى من الفرض عزّزه بالسنة المؤكدة ثم بالسنة المستحبة، حتى إذا ما فرغ منها جميعا، جلس إلى جانب النافذة المطلة على الحارة، وشرع يترنم[1] بقول ولى الله الشاذلى صاحب الطريقة المشهورة (اللهم خذنى إليك منى، وأرزقنى الفناء عنى، ولا تجعلنى مشغولا بحسى، مفتونا بنفسى، فلا أشعر ولا أفكر إلا بك يا أرحم الراحمين...).

الآن الآن، رجل هذه حياته، وتلك صلاته وترنيماته، هل كثير أن يستحوذ[2] على إعجاب الناس، وثقتهم وإجلالهم؟ لا يمكن إلا أن يكون نعم. ودار الشيخ شيخة الدور، فهى زاهدة فى الدهان والألوان، يتساقط بياضها فلا تبالى، وتتآكل أحجارها فلا تكترث، ويهددها مهندس التنظيم بالهدم، فلا تزداد إلا إصرارا على القدم والبلى.

يفتح بابها عن دهليز معتم مرطوب، أرضه منخفضة عن مستوى الطريق بمسافة تكفى للنكاية بغير الحذر اللبيب، فإذا كنت حذرا لبيبا فاجتزت العتبة دون أن تهلل عليك أولاد الحارة، فإلى اليمين غرفة حقيرة الأثاث، المقصود منها أن تكون غرفة استقبال الرجال.. فلتكن.. ثم السلم.. إياك والدرابزين. إلا إذا كنت مجازفا أو ماهرا فى الألعاب البهلوانية.

ثم إن أهم غرفة فى الطابق نفسه هى غرفة استقبال السيدات، فيها كنبتان متقابلتان، ولكنهما عتيقتان عتيقتان، وقذرتان قذرتان إلى حد العجب.. لو أريد استعمالهما بكيفية تضمن السلامة، لاحتاج ذلك –قبل كل شئ – إلى كمية وافرة من مسحوق (كيتنج) ثم الى ربع أقة مسامير (شيشة) وأخيرا إلى أربعة أو خمسة أرطال صابون نابلسى عال العال، ثبتت إلى الحائط فوق كل

---

(١) يترنم: يغنى

(٢) يستحوذ: يستولى

منهما يافطة من ورق دهن أحمر إلا فراغا منه على رسم «يس» فى أحدهما و«ن» فى المقابلة لها، وقد ملئ الفراغ فى كل بالسورة التى هى عنوانها.

وبين الكتبتين بساط. لا. بل نوع عجيب من الدنتلا.. لا.. لا.. اتضح أخيرا أنه بساط ثم أحالته الوحدانية والقدم إلى هذا النوع العجيب من الدنتلا. وفى الركن الأيمن منضدة عليها كتب وبقايا خبز.. أما حقيقة لونها فليس يعرفه إلا الذى صبغها لآخر مرة.. والذى فعل ذلك أنا موقن من أنه اكتهل(١) ثم هرم(٢) ثم مات منذ سنين.

هنا يؤدى «السيد مصطفى حسن إلى آخره» فرائضه، وهنا يرتل أوراده، وهنا يمضى سحابة أوقات فراغه وحيدا لا يعكر عليه صفاء نسكه أحد.

إذن فالشيخ أعزب؟

معاذ الله! بل متزوج منذ ربع قرن تقريبا، وله من البنات وردة، وشفيقة، ونجية، وله من البنين عبدالحميد الذى ذهب يوما للقاء ربه فلم يرجع- وكامل الذى يعوقه عبطه وكساحه عن أن يلحق بأخيه. غير أن شيخنا وملاذنا يجب أن يتفرغ للعبادة، فهو ينتهز لهذه المجموعة أتفه المناسبات لإقصائهم عنه، وقد مَن الله عليه أخيرا بدوار شديد فى أم رأس أم أولاده، فأرسلها وحاشيتها إلى «البلد» حيث يعنى بها أهلها وذووها.

فمن الذى يقوم على خدمته إذن؟

هنا تسارع الحاجة زينب الدمهوجية فتقول:

- من عينى الاثنين يا سيدى.

والحاجة الدمهوجية تعيش فى كنف(٣) زوجها- العم متولى السروجى- فى المنزل المقابل لمنزل الشيخ. امرأة على الفطرة، لا همّ لها إلا أن تجامل جارتها هذه، وتساعد حبيبتها تلك. فاسمها هو المردد المسموع فى الحارة. ولاحظ ذلك «السيد مصطفى حسن إلى آخره» فهز رأسه وحدث نفسه.

---

(١) اكتهل: صار كهلا. والكهل من الرجال الذى جاوز الثلاثين

(٢) هرم: كبرت سنه

(٣) كنف: جانب

ثم باكرها يوما فناداها من النافذة، وشفع اسمها «بالحاجة» وكانت هذه أول مرة صنع باسمها هكذا. فـتـرددت فى الرد عليـه بادئ الأمـر، ولكنه أصـر على النداء حـتى اضطر الحق إلى أن يحصحص أخيرا. فأجابت، واستقدمها فصعدت اليه.. وتلقاها مبسملا محمدلا، مكبرا مهللا، حتى لقد أدركتها الدهشة، بل نال منها الذهول، وجعلت تنظر إليه وهى معلقة الجفن، مدلاة الذقن، لا تدرى شيئا مما ترى وتسمع، وبعد هذه المقدمة، وبعد ديباجه غمض فهمها على المسكينة حتى كادت تلوذ[1] بالفرار، أنهى إليها السيد مصطفى حسن عبدالوهاب الجيزاوى الشاذلى بأنه رأى فى المنام أنه كان يصلى بالكعبة، ولما انتهى هب نسيم عليل يحمل أرجاً يملأ الناس طيبا وانشراحا، وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم مـقبل عليه وفى يديه الطاهرتين المطهـرتين كـيس من السندس الأخضر ممتلئ، ختم بختم من الشمع الأحمر ومكتوب عليه- يارحمن- وقال لى: يا مصطفى هذا كيس به عسل من نهر الجنة، أحمله هدية منى إلى جارتك الحاجة زينب الدمهوجية فإنها من عباد الله المخلصين.

مطلقا مطلقا.. لن أحاول أن أصف كيف استقبلت المرأة هذه البشرى، وكيف تقبلت تلكم الهدية.. مطلقا مطلقا.. لأنه صعب، ولأنه هائل.. فلقد ضربت صدرها مرارا، وانهمرت الدموع من عينيها مدرارا[2]، وانحنت تخفى وجهها بين يدى الشيخ بحركات مرتبكة، وسجدت تلثم قدميه بهيئـة مـخيفة ثم زغـردت وزغردت وانطلقت تعدو خـارج الدار كأن بها مسّا من الجن.. كل هذا والسيد مصطفى هادئ جامد لا يزيد على الابتسام.

ومنذ ذلك الحين أصبحت عبدة الله المخلصة عبدة مخلصة للشيخ، يشير إليها فتتحرك، ويشير إليها فما تبدى حراكا.

غير أنه أجلها عن الاشتراك الفعلى فى خدمتـه، فهى أرفع من هذا قدرا، وأرقى مـقاما، فحسبه منها الإشراف والمساعدة، فما عليها إلا أن تجرى المفاوضات اللازمة، حتى تجيء تلك المرأة السمينة الملظلظة التى تجلس إلى جانب بائعة البيض تغسل له الغسيل كلما اقتضى الحال، وحتى يوافيه ذلك الفتى الأغيد[3] الأمرد[4]- صبى الزيات الذى على رأس الحارة- بالفول المدمس

---

(١) تلوذ بالفرار: تلجأ إلى الهرب

(٢) مدرارا: غزيرة

(٣) الأغيد: الوسنان المائل العنق.. والوسن النعاس

(٤) الأمرد: من لم ينبت لحيته

فى الصباح، وحتى تتردد عليه الشابة التالعة الجيد، الفضية الأذرع، البضة السيقان، لتؤدى ما عساه يحتاج إليه أثناء النهار..

والسيد مصطفى حسن الخ الخ.. يقدر لها خدماتها، ويحفظ لها جميل العناية بأمره، فتراه يضطر نفسه إجابة لطلبها، وإرضاء لخاطرها إلى أن يكون مستحلا لخدلجة[1] من النساء دخل عليها سكران ليلة أمس فطلقها ثلاثا، بل إنه رهن إشارتها فى تقديم أية عدة مالية لكائن من كان إذا كان فى مساعدته فائدة..

-٤-

دخل السيد مصطفى منزله، فأنزل العمامة عن رأسه فى رفق، وخلع ملابسه فى تؤدة، واستعاض عنها جميعا بجلباب أبيض زعبوطى تفصيل، وطاقية بيضاء طرطورية الشكل. وبعد أن أكل ما تيسر من طعمية وسلطة كرات اضطجع على إحدى الكنبتين العتيقتين، وجعل يفكر فى أمر الخطاب الذى وصله من الشيخ مبروك نوار

لقد أدرك السيد طبعاً ماذا حدا بعمدة البلدة إلى التفريط فى أطيب جزء من «طين حرمه».. بعد التشبث الطويل والجدال العريض، ذلك لأنه مضطر إلى نجدته فى ورطته. وحبذا الاضطرار يدحر[2] الخصم ويرغم[3] أنفه.. مرحى.. مرحى. سيكون له بعد هذا الضم أربعة وعشرون فداناً -وأربعة عشر قيراطاً- قطعة واحدة على الترعة الرئيسية يزرعها حباً وعنباً وقصباً وفواكه غُلبا.. ولن يكلفه ذلك أكثر من أن يخاطب وهدان بك، فليخاطبه وليخاطبه، بل ليضرع إليه وليتوسل، وليذهب «حامد بن خليل» إلى جهنم. بعد ذلك جعل يفكر فى أبخس ثمن يدفعه حتى غلبه النوم. فذهب يعاين فى وادى الكرى ما زرعه من حب وقصب...

وبينما هو منهمك فى هذه العملية إذ الباب يقول: «حبطقطق حبطقطق(*)»، فاستدعاه الصوت إلى حسه. فقام يرى من مسبب هذا الحبقطقطق الحبطقطق. وإذا بعربة (كارو) أمام الباب عليها امرأة من الريف وخيرات من خيرات الريف، فتبين على الفور ما كان وما سيكون.

---

(١) خدلجة: ضخمة

(٢) يدحر الخصم: يهزمه

(٣) يرغم أنفه: يذله ويخضعه

(*) بفتح الطاءين والحاء وتسكين القافين

صعدت عائشة تتبعها الهدية، فأهل لهذه وسهل لتلك، واقتاد كلاً إلى المكان اللائق به. وضيفتنا هى امرأة حامد الذى ذكره فى خطاب العمدة، امرأة فى نحو الثلاثين، تستر ثيابها الريفية الخشنية قواماً إذا رآه الغصن (يزيد اعتدال) . ويخفى نقابها الكثيف جمالاً عربياً مبيناً. فلما استقر بها المقام استفسرت عن ربة البيت.

- إنت ما عندكيش خبر؟

- إزاى؟

- دى راحت البلد من كام يوم.

فقالت خديجة فى دهشة:

- روحت البلد..

ولعثمت الحيرة لسانها فقال الشيخ:

- أى والله يا ست عيشة خالتك راحت من كام يوم هى والأولاد، وسابونى لوحدى مانى عارف راسى من رجليّه. إنما للضرورة أحكام. أعمل ايه؟ المسكينة أصيبت بصداع شديد فى رأسها ما بقت تنام منه ليل ونهار. فوجدت من الشفقة بها أنى بعثتها لأهلها.

ثم زفر زفرة حارة وقال:

- تلاقينى يا عيشة يا بنتى فى غاية الكدر والهم علشانها..

بيد أن مولانا بذل مجهوداً ضائعاً لإظهار أسفه على فراق زوجته وإشفاقه عليها، فإن عائشة لم تنصت إلى ما قال، ولم تذب قلبها تلك الزفرة الحارة التى لفظها قلبه، لأنها كانت تفكر فى حرج مركزها، لقد جاءت يشجعها ويطمئنها وجود خالتها فى البيت، فكيف بها الآن حين ألفت نفسها وحيدة بين يدى رجل تشعر هى بأنه غريب عنها، لقد استحوذ(١) عليها الارتباك والجزع. وتبين السيد مصطفى ذلك منها فأبدى ناجذيه وقال:

- يا أهلاً وسهلاً. انتِ أنستينا ونورتينا. يا شيخة انت ربنا عز وجل بعتك مخصوص علشان

---

(١) استحوذ عليها: تملكها

تفرجى عنى الانقباض اللى أنا فيه.. إزيك كده وازى والدك مش.. شديد؟:

فتمتمت عائشة تشكره. ولكنه عاجلها فنصح لها بأن تخلع إزارها وحجابها، وألح فى ذلك حتى تغلب على تَرددها وممانعتها، فأسفرت عن قوامها.. فما كان أسعد السيد مصطفى حسن عبدالوهاب الجيزاوى الشاذلى. ثم إنه سألها عن سبب مقدمها.

عندئذ مدت يدها إلى صدرها فأخرجت منه خطاباً من أبيها، ففضه، فإذا فيه:

«حضرة ولدنا المحترم الأجل.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فكان خالص نيتى أن أحضر إليك بنفسى، وما منعنى والله يا ولدى غير ضعف جسدى على العموم، وخصوصاً ضعف بصرى وإنى أسألك بحق شيخوختى وبحق القرابة التى بيننا والتعليم الذى علّمته لك فى الكتاب وأنت صغير، أن تساعدنا غاية المساعدة عند الحكام الذين تعرفهم فى مسألة أخوك حامد التى لعب فيها الشيطان وطيش الشيخوخة. لاحرمنا المولى منك ومن أفضالك والسلام عليكم ورحمة الله.

كاتبه «خليل حسنين»

وشرعت عائشة تسرد تفاصيل مكيدة دبرها العمدة مبروك بن نوار ضد زوجها، لا لذنب سوى أنه يأبى أن يأتمر بأوامره الغاشمة الفادحة، ويأنف من أن يرضخ لإرادته التى لاتعرف رحمة ولا قانوناً.. ولنهمل التفاصيل فإنها معقدة ملتوية: ففلان يذهب إلى جناب العمدة فيقول له كذا، وعلان يسرع إلى حامد فيسر إليه كذا وكذا، ثم إن ترتان يتداخل فى الأمر فيقول للعمدة كذا وكذا وكذا.

ثم إن نفس هذا الترتان يسرع إلى حامد فيقول له كذا وكذا وكذا. فيتضخم الأمر ويدبر العمدة المكيدة، وتنتهى بتهمة يحبس حامد من أجلها، وهو الآن رهن التحقيق.. غير أن القضاء كاد يكتشف الحقيقة وما على السيد مصطفى إلا أن يذهب إلى الحقانية ليرى ماذا تم فى شأن (العريضة) التى قدموها منذ أيام.

فهش أستاذنا لعائشة وبش ووعدها بالخير كل الخير، حتى جفت الدموع من عينيها لترى فيه ملاكاً كريماً. ثم إنه استدعى الحاجة زينب الدمهوجية فأمرها بأن تكون مع (الضيفة) تجانسها وتؤانسها، وبأن تهيئ فى الوقت نفسه طعاماً للعشاء، ريثما يخرج إلى الصلاة ثم يعود.

-٥-

وبعد الصلاة عاد، فجلسوا ثلاثتهم حول (الطبلية) يتناولون طعام العشاء، ثم قاموا يتسامرون. الرجل على الكنبة والمرأتان على البساط العتيق.

وتذاكرا سيرة العائلة ماضيها وحاضرها. فذكر مولانا ما صنعه (حامد) به منذ سنين حين طلب إليه أن يشهد لصالحه ضد ابن خاله فأبى، وكان من جراء ذلك أن هزم الشيخ شر هزيمة، وكان يتهم بالتزوير لولا المساعى الهائلة التى بذلها وقتئذ. وكان السيد الجيزاوى الشاذلى يبالغ فى التلطف ويكثر من إيراد النكات والأمثال، لكى لاتنم لهجته عما يكنه قلبه من حقد وضغينة لهذا المسكين. فأعادت عائشة رجاءها وتوسلاتها من أجل زوجها البرىء وقد ضمت الدمهوجية -أستغفر الله، بل الحاجة زينب الدمهوجية- صوتها إلى صوتها تساعدها وتعززها، حتى رفرف (الملاك الكريم بأجنحته) مرة أخرى..

فلما حل ميعاد النوم طلبت عائشة إلى الحاجة أن تبقى معها فوافق الشيخ بعد شئ من التردد، وفيما كانت امرأة السروجى تعد الفراش فى الغرفة المجاورة قام السيد السند يقرأ بعض التعاويذ لضيفته لتهدأ أعصابها وتنام ملء جفونها.

وطريقة السيد السند فى تلك عجيبة غريبة، لو رآها أى إنسان وكان قليل الاعتقاد به ولو قدر معرفته وزناً أو حجماً لذهبت به ظنون السوء كل مذهب، وهى أن يلف الجبهة بإحدى يديه، ومؤخرة الرأس باليد الأخرى، ثم يهمهم ويتمتم ما شاء أن يهمهم ويتمتم، ثم يحرك أولى يديه إلى أسفل، ماراً بالوجنتين فالرقبة.. فى حين تكون الثانية تتبع نفس الاتجاه فى الجبهة المقابلة.

هذه الطريقة، وإن وافقت المرأة السمينة لأنها تبطل ألم المفاصل، أو أفادت الفتى الأغيد لأنها تنهى دوار الرأس، أو أعجبت الفتاة الغضة الأذرع البضة السيقان، لأنها تسكن خفقان القلب، فإنها لم تفز بشئ من ذلك عند عائشة. وقد أبدت من الاستياء ما اضطر الشيخ إلى أن يقتضبها إلى أقصر حد ممكن.

وقام كل إلى المكان الذى أعد له فنام..

غير أن الضيفة استيقظت فى بهيم[1] الليل خائفة مذعورة، لأنها آنست أنفاساً تتردد على خدها فقالت بصوت أبح مختنق:

- الله. الله. مين ده؟ مين ده؟..

وإذا بالسيد السند يتضاحك فيقول:

- جاتك داهية. خايفة من إيه. ده أنا يا خبيثة بدور على «حق النشوق».

....

....

وأصبح الصباح وشيخنا يتميز من غيظ دفين لعدم عثوره على «الحق» الذى كان يبحث عنه. ثم سافرت عائشة بعد أن كررت رجاءها وتوسلاتها لثالث مرة، وبعد أن وعدها بالخير كل الخير لنفس عدد المرات.

وجلس إلى المنضدة فكتب خطاباً إلى «مبروك بن نوار» يحدد اليوم الذى يوافيه فيه ووضع فى نفس الغلاف الخطاب الذى حملته إليه عائشة «لأنه لاشك نافعكم فى مجرى التحقيق..».

ثم سمع الجيران صوت السيد مصطفى حسن عبدالوهاب الجيزاوى الشاذلى يقيم الصلاة كعادته:

نويت أصلى.. نويت.. نويـ.. نويـ.. نويت أصلى الظهر أربع ركعات حاضراً مستقبلا. الله.. الـ.. الـ.. الله الله أكبر..

---

(١) بهيم: سواد

منطقة الصمت

-١-

كان الرفاق يحيون ليلة وداع صديق لهم اعتزم الرحيل إلى أوربا للتخصص فى بعض فنه، وقد اعتزموا هم أن تكون ليلة[١] عربيدة، فشربوا نخب الصديق أكثر مما يجب، وضحكوا ملء رئاتهم وحناجرهم وأفواههم.. وعمد بعضهم إلى لعب الورق، ولبث الباقون نظارة عليهم أى نظارة؟ كلما انكشفت «بلفة» أو خسر أحد اللاعبين خسارة يستعظمونها أخذوا يرقصون ويشوشرون كما يفعل زنوج «الجازباند».

وقد شاء القدر أن ينهك أبدانهم «أندلفت» لفرط ما رقصوا من أجله تلك الليلة، فلما قارب الإفلاس أدركتهم الشفقة عليه فقاموا إليه فوضعوا فى فمه زجاجة النبيذ، وما زالوا يسقونه حتى أيقنوا أن ما أصابه منها كفيل بأن ينسيه ما كان وما سيكون. وأكملوا النعمة عليه فحرموه اللعب، فانصاع، واستلقى على كنبة، وسرعان ما دل انطباق جفنيه واستطالة أنفاسه على أنه أسعد حظاً فى نومه.

واقترح أحدهم أن يراقب «أندلفت» فإن استيقظ يجب أن تأخذهم الشفقة عليه مرة أخرى، فضج المكان بالضحك ووافقوا على ذلك أجمعين. وعندئذ قام آخر فاعتلى منضدة الشراب واتخذ هيئة الخطيب فقال:

- أتعرفون يا سادة معنى كلمة أندلفت؟

- كلا. كلا..

- حاشا. حاشا..

- أبداً.. مطلقاً.

- أراهن على أن ليس لها معنى.

- أنت الذى اخترعت الاسم وأنت الذى يجب عليك أن تفسره.

---

(١) ليلة عربيدة: ليلة يتجلى فيها سوء الخلق

وبهذه التشكيلة من الإجابات وبأمثالها لغط الرفاق حيناً، حتى صعب على الخطيب تهدئتهم وإعدادهم للإنصات إليه. فلما تم له ذلك قال:

- الأندلفت فى لغة أهل الكنائس هو الشخص الذى يوقد القناديل.. ثم أتعرفون لأية مناسبة أطلقت هذا الاسم على هذا النائم؟

(تشكيلة أخرى من إجابات النفى ومقدار آخر من اللغط والضوضاء).

إن لهذا قصة أرجو أن تجدوا فيها هدية لذيذة..

-٢-

- كان فيما كان امرأة عجوز.. أين؟ متى؟ لا أدرى، وعندى أن كل خط من خطوط الجغرافيين يصلح لأن يحدد مكانها، وكل دورة من دورات الأرض سواء حول نفسها أو حول الشمس تستطيع أن تعين زمانها. ثم..

ولكن صوتاً علا يحتج بشدة على أن الراوى داهمهم فى مطلع القصة بامرأة عجوز، وهذا ينافى جمال الليلة وشاعريتها.. واستنصر الإخوان فناصروه وطلبوا إلى الخطيب أن يعتذر، فانحنى حتى أوشك أن يفقد توازنه الركيك بطبيعته ثم استطرد فقال:

- لتطمئن قلوبكم. لهذه المخلوقة أهمية فى صلب ما أريد أن أحدثكم عنه، فما عليها سوى أن تبتنى كنيسة صغيرة تقرب بها شيخوختها إلى الله. ثم.. تموت.

فأبدت الجماعة اغتباطاً مزعجاً لهذه النهاية، بل لقد صرح أحدهم بأنها لو عاشت «جملة واحدة» أكثر مما تقدم لقتلها فى حلق الخطيب، ثم شرعوا يترحمون عليها بمختلف ما سولت لهم الخمر، وارتأى بعضهم أن يستعين «بأندلفت» فى تشييع روحها بما يحضره من آى الكتاب المقدس، فعالجوا إيقاظه فاستحال عليهم، لأنه كان من خماره فى غيبوبة تامة فاكتفوا بأن شربوا نخب وفاتها..

- الآن يا رفاق هل تسمحون لى أن أقدم إليكم أبانا الذى آلت إليه رياسة الكنيسة؟

فقال أحدهم:

- ليتفضل. ليتفضل! ليس من اللياقة أن نقف فى طريقه! وخشعت الأصوات.

– ليس عجيباً أن ترحبوا بالسيد، وليس عجيباً أن تخشع أصواتكم لدى مقدمه.. هكذا كان في حياته مكرم الوفادة مهيب المحضر. وتقول الرواية إنه كان ذا بسطة في الطول والعرض، تكسبه لحيته رهبة وتفيض عليه المسوح جلالاً.. له عينان عميقتان في محاجرهما وفي نظراتهما، يستشف بهما السرائر من أدق الظواهر.

(السامعون يهزون رؤوسهم عجباً وإعجاباً).

– وكان السيد يعيش في زاوية من الكنيسة يمجد اسم الأب والابن وروح القدس، يرفع إلى عليائهم صلواته وتسابيحه على أجنحة البخور والعطور.. وذات يوم وافى الكنيسة شاب يستأذن في مقابلته، فأذن له وإذا بولي الله مسترسل في تعبده، فأغضى الفتى وانكمش في بعض الزوايا وجعلت الدقائق تمر عليه ثقيلة متراخية. وكلما تمادى به الوقت ازدادت الوحشة، وخُيل إليه أن كل ما حوله مروع مخيف.. حتى الهواء المعطر فقد أحس أنه كثيف لاينفذ إلى رئتيه.. وحتى ذلك العابد الناسك فقد تشعبت في أمره هواجس الفتى، فحسب تارة أنه سيشف رويداً رويداً حتى يختفي عن ناظره، ووهِم[1] تارة أخرى أنه ما يلبث أن يصعد إلى السماء بأجنحة الملائكة.. ثم التقت نظراتهما مصادفة، فما كان أشد هذه المصادفة هولاً.. لقد شعر بأن ولي الله قد استبان مجرى تفكيره في هذه اللمحة. فارتجف قلبه، وحدثته نفسه بأن يغادر المكان، وكان السيد قد انتهى، أو راق له أن ينتهي مما كان فيه، فقبّل الصليب مراراً ورسمه على جبهته وصدره تكراراً، ثم تحرك حركة فهم منها الفتى أنه يستطيع أن يتكلم، فهمهم يقول إنه جاء ليعترف.

-٣-

وهنا أبدى أحد السامعين ملاحظة فضاعت في أصوات السين والشين التي أحدثها الباقون ليسكتوه. وانتهز الخطيب هذه الفرصة فرشف رشفة من كأسه ثم تابع الحديث:

– استهل الفتى اعترافه بأن قال: (يا أبت! إن قلبي ليرزح[2] تحت حمل ثقيل من الخطيئة) ثم أُرتج عليه، فطمأنه القسيس بما ذكر له من رحمة الله، فجمع الفتى أشتات عزمه واندفع بحرارة وتهدج.

---

(١) وهم: ظن

(٢) يرزح: يضعف

– الفتى أحب فتاة حباً خالصاً صادقاً، والفتاة أحبت الفتى بنفس الحرارة ونفس الصدق، فأما هو فكان غنياً كفقير، وأما هى فكانت فقيرة كغنية. سأوضح، سأوضح!!

أقصد أن والد الفتى كان واسع الثروة، غير أنه بخيل مغلول اليد فى حين كانت الفتاة معدمة ماتت أمها، فاستودعها أبوها أسرة موفورة الرزق يربونها ويتعهدون حالها.

وإن ما فى نفس العشيقين من مرارة وتبرم بالحياة هو الذى ألّف بين قلبيهما.. وقد دفعتهما حرارة الحب من ناحية، ونزق[1] الشباب من ناحية أخرى إلى أن يفكرا فى الفرار إلى مكان قصيّ، حيث يتزوجان وحيث يكافحان الحياة جنباً إلى جنب، وجعلا يتحينان الفرصة لذلك.

وفى فترة التربص هذه وعلى ما بينهما من نية الزواج استباحا لنفسهما ما هو أكثر من الحب المجرد.

وأدار الخطيب رأسه ينظر إلى سامعيه نظرة ذات معنى، فقالوا أجمعين: «استمر. استمر» وكرر بعضهم الأمر بالإنجليزية.. وأطاع الخطيب فقال:

– ولم يكن أحدهما يشعر من جراء ذلك بندم أو وخز[2] ضمير، لأنهما اعتقدا أن اتفاقهما على الزواج جعلهما زوجين، ولبثا كذلك حيناً لم يطل، لأن الوالد قد مات فورث الفتى من الثروة شطراً كبيراً.

وأجمع السامعون عندئذ على أن يشربوا نعى البخيل فشرب كل كأساً[3] مترعة.. وأرادوا أن يشربوا نخب انتصار الحب فقال الخطيب:

– أما أنا فسأشرب هذه الكأس لأنى فى حاجة إليها.. وأما الحب فلم ينتصر؛ ذلك لأن الثروة قد خلقت من فتانا فتى جديداً له أفكاره وآماله، فلم يعد يفكر فى مكافحة البؤس إلى جانب فتاة بائسة. وإذن فتلك التى كان ينتهى إليها عزاؤه وهناؤه، أصبحت الآن مصدر فزع أكبر، ومعين ألم نفسى ممض[4] مبرح.. وها هو قد لاذ[5] برحمة الله فى ظل شخصه على الأرض يطلب منه المغفرة ويتلمس عنده الرأى.

---

(١) نزق الشباب: طيش الشباب

(٢) وخز الضمير: تأنيبه

(٣) كأسا مترعا: كأساً مملوءة

(٤) ممض: موجع

(٥) لاذ برحمة الله: لجأ إلى رحمة الله

– وكان القسيس ينصت إلى المنحرف المعترف فى هدوء أقرب ما يكون إلى النوم. ولبث كذلك بعد الانتهاء هنيهة ظن الفتى أنها قد اتصلت بالأبد، ثم رفع يده فى جلال فأمَرّها على لحيته وتحركت شفتاه حركة خفيفة، توقع الفتى أن سيسمع بعدها اللعنة عليه.. ولكن تكلم ولى الله:

– أهى جميلة يا فتى؟

– نعم يا أبتاه.

– وتقول إنها فقيرة؟

– نعم يا أبتاه.

– ومن أى عائلة هى؟

فصعد الدم إلى وجه الفتى وعقد لسانه، ولكن أعيد عليه السؤال، فنكس رأسه وتمتم يطلب المغفرة.. ولكن أعيد عليه السؤال، فلم يجد مندوحة[1] عن أن يقول:

– هى ابنة الأندلفت يا أبتاه؟

فعلت ضحكات الرفاق. ثم قامت مناقشة حول فكرة الاعتراف لا أرى القارئ فى حاجة –ولو كنت قارئاً لكنت فى حاجة أيضاً– إلى معرفة تفاصيلها، فقد احتدمت آلاف خير منها منذ قومة «مارتن لوثر» فى أوائل القرن السادس عشر. غير أنهم ما لبثوا أن حسموا أمرهم وطلبوا إلى محدثهم أن يستأنف كلامه فقال:

– عندما سمع القسيس اسم الأندلفت حدج الفتى بنظرات حداد[2]، وأنهى إليه بصوت أجش[3] أنه لم يسئ إلى الفتاة فحسب، بل إنه قد أساء إلى الكنيسة نفسها. فخطيئته إذن عظيمة معقدة.. وأنه سيصلى من أجله يطلب له الرحمة والمغفرة، ثم لابد من تقديم كفارة ذات شعبتين، فشعبة للكنيسة توزع على الفقراء والمساكين، وأخرى ترصد على ذمة الفتاة تقيم أمرها حين تدعو الحال، والفتى مستعد طبعاً، فأنجز ما وعد.

---

(١) مندوحة: سعة

(٢) حداد: حادة قوية

(٣) صوت أجش: صوت غليظ

عندئذ تأوه أحد الرفاق وقال:

– كنت أتمنى أن أجد من أعترف له بديونى فيغفرها لى مجاناً.

فردّ عليه آخر بقوله:

– لم يبق أمامك غير.. المماطلة.

–٤–

قال الراوى:

– وفي يوم الأحد أقبل الناس على الكنيسة يصلون ويبتهلون. وجاءت ابنة الأندلفت، وكان من عادتها أن تمضى اليوم عند أبيها، وكان من عادتهما معاً أن يمضيا شطراً منه فى حضرة «أبيهم». فلما انفض الناس أخذت العادة مجراها فأقبلا على ولى الله فى حجرته. وكانت الفتاة أبداً تعمل على أن تظهر بمظهرها العادى لكيلا تظن بها الظنون.. فلما دخلا عليه ابتدر الابنة بقوله (تعالى يا مجدلية(*)) وحسب الوالد أنها مداعبة، فتضاحك ودعا لولى الله بطول البقاء.

دعوة لم تكمل. فإن الفتاة كانت قد استشعرت لهذه التحية بصدمة قاسية، فبهت لونها وبدا عليها الارتباك. وخيم الصمت فترة كان الأندلفت أثناءها دهشاً ما يزال أثر ضحكاته على شفتيه ولكن بلامعنى.. ثم إن القسيس قطع هذا الصمت بأن أخبر الفتاة بأنها أمامه شفافة كالزجاج، وأن مغاليق نفسها لديه جلية واضحة.

فهوت الفتاة على ركبتيها تستعيذ وتتوسل وتبلل قدميه بدموعها، وانتهى المشهد بأن تبين الأندلفت ما كان من خطيئة ابنته..

وأحدثت هذه المفاجأة امتعاضاً[١] فى نفوس السامعين، فمنهم من ضرب المائدة بقبضة يده يصرح «بأن هذا كثير» ومنهم من دكّ الأرض برجله يؤكد أن ما حدث بعيد عن حدود اللياقة والدين. ولغط الباقون بمختلف عبارات الاستياء. ولطفت الخمر من إحساس أحدهم فطلب أن يمسك

(*) إشارة إلى «مريم المجدلية» وهى فتاة بارعة الجمال عاشت فى زمن المسيح، وكانت أول حياتها خاطئة، فجاءوا بها إليه ليقيم عليها حد الزنا– وهو الرجم– فتوسلت إليه وأبدت توبة خالصة، فنظر المسيح فيما حوله وقال: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولا بحجر» وأخلصت المجدلية للمسيح بعد ذلك وانقطعت لخدمته.

(١) امتعاضا: استياء

الخطيب عما بقى من قصته، ولكن طلبه لم يجد قبولاً، وأجاب الخطيب رغبة الإجماع فقال:

– ستروون الآن أن ولى الله أرق قلباً مما تتصورون، فلقد قام إلى الأم يكفكف دموعها، والتفت إلى الوالد يهوّن عليه البلية، وزاد فى التسامح فقبل أن تدخل الفتاة فى كنفه فلا يرجمها أحد بحجر، وأنه سيكفل لها مستقبلها.. واستقر الرأى على ذلك، فكان.

لكأنى باعتراض يتسكع فى رءوسكم عن السبب الذى من أجله تحمل السيد مسئولية الفتاة إلى هذا الحد. آتونى خمراً أزدكم خبراً.. (فناولوه كأساً دهاقاً) .. السبب يا رفاق هو الحب مرة أخرى.. السيد يحب ابنة الأندلفت، مستهاماً[1] بها صباً[2].. ولطالما غالب فى هواها نفسه، وغالبت نفسه الـ.. شيطان نفسه، فلم تكن تلك المعارك النفسية إلا لتزيد الحب إمعاناً فى أعشار قلبه..

حتى أصبح لا يشعر من حياته إلا بتلك الفترات من أيام الآحاد التى كان ينعم فيها بقربها، فلماذا إذن لاينتهز الفرصة التى ألقت إليه بأعز أمانيه غنيمة سيغة، وإن له فيما استجد من الظروف ما يبرر مركزه فى الحال والاستقبال. لذلك انتهزها غير هيّاب ولامتردد –واستمتع بحاله تلك حيناً.. غير أن الأندلفت لاحظ ملاحظات وظن ظنونا دفعته يوماً إلى أن يسترق الخطا إلى غرفة السيد، وأن يسترق نظره داخلها، فانقلب إليه البصر بما لم يصدق..

ولبث مكانه واجماً مذهولاً تستعر فى صدره العواطف، وتحتدم برأسه الأفكار.. ولكنه أحس بأنه عاجز مشلول، فتابع خطاه إلى وجاره[3]، وأخذ يتدبر الأمر فلم يزدد إلا خبالا[4]، وتابعه الفكر حتى يلتهمه التفكير فإذا به لايفكر فى شئ.

ماذا يستطيع أن يصنع؟ إن صوته لأضعف من أن ينفذ إلى آذان الناس خلال عظمة هذا السيد وسلطانه، وإذا قدر له فأسمعهم أدى ذلك حتماً إلى افتضاح ما استتر من خطيئة ابنته.. فهو إذن سيسدد إليها السهم بيده.. أى رزء لوالد فيما ولد..

ولما لم يجد الأب من محنته مخرجاً ولا من عباد الله من يلوذ به.. لاذ بالخمر.. نعم نعم بالخمر. لاتحملقوا إلىّ.. ففى تلك الكنيسة كما فى سواها قبو للنبيذ المقدس محفوظ للمواسم والأعياد..

---

(١) مستهاماً بها: هائماً محبا

(٢) صبا: مغرما

(٣) وجاره: منزله

(٤) الخبال: الفساد

وإلى هذا القبو كان يلجأ المسكين، كلما ضاقت نفسه بآلامها، ولايزال يشرب من النبيذ حتى تتسع نفسه للآلام مرة أخرى.

واستمر الحال كذلك حتى جاء يوم ذهب فيه السيد إلى القبو لبعض أغراضه. فوجد القبو ولكنه لم يجد النبيذ. والتهمة محصورة بطبيعتها فى الأندلفت، فجاء به وأقعده مقعد الاعتراف وناداه بصوت أجش رهيب:

- يا أندلفت. أين ذهب النبيذ المقدس؟

فلم يجب الأندلفت.

- يا أندلفت أهذا جزاء الكنيسة التى آوتك.. وجزائى بعد ما حفظت من عرض ابنتك؟!!

فلم يجب الأندلفت.

- يا أندلفت اعترف بأنك أنت الذى سرقت النبيذ المقدس!

ولما أصر الأندلفت على صمته تقدم إليه السيد واستفسره عن السر فى ذلك.. فرفع الأندلفت رأسه وأكد لولى الله أنه لم يسمع مما قاله كلمة واحدة.. فعجب السيد كما تعجبون الآن.. ولكى يبرهن الأندلفت صدق دعواه طلب إلى السيد أن يأخذ كل منهما مكان الآخر، فأطاع السيد فجلس على كرسى الاعتراف وأنشأ الأندلفت يخاطبه:

- يا أبانا. أى علاقة بينك وبين ابنتى؟

فلم يجب السيد..

- يا أبانا. أهذا جزاء الكنيسة التى تأويك وجزائى بعد ما أمنتك على عرض ابنتى المسكينة؟!

ولما لم يجب السيد تقدم إليه الأندلفت مستفسراً.. فإذا السيد يا سادة لم يسمع مما قيل كلمة أيضاً..

عند ذلك ضج المكان بالضحك، وعمد أحد الرفاق إلى صديقهم «أندلفت» وما زال به يهزه حتى أيقظه ثم ابتدره بقوله:

- هل سمعت يا أندلفت؟

فأجاب النائم بلهجة ميكانيكية:

- لم أسمع كلمة واحدة.

فضج المكان بالضحك مرة أخرى.

ب- المجموعة القصصية الثانية:

يحكى أن

مجموعة قصص مصرية

(١٩٢٩)

- نشرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة على نفقة دار العصور للطبع والنشر بشارع الخليج المصرى بالظاهر بدون تاريخ. ولكن يبدو أنها ظهرت عام ١٩٢٩ لأن دراسة يحى حقى النقدية عنها والتى كتبها أثناء عمله بالقنصلية المصرية بجدة نشرت بجريدة (البلاغ) فى ١٩٣٠/٤/١٥ وأعيد نشرها كملحق للطبعة الجديدة من (فجر القصة القصيرة) والتى ظهرت ضمن طبعة مؤلفات يحى حقى الكاملة جـ٢ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧.

الإهداء

إلى روحك يا أختي العزيزة

يحكى أن

-١-

يحكى أن غزالاً عطش مرة فورد[١] عين ماء فى بئر عميقة ليشرب منها، فلما شرب حاول الطلوع فلم يقدر، فنظر إليه ثعلب من فوهة[٢] البئر وقال له: لماذا لم تتبصر[٣] فى الطلوع قبل ورود الماء؟

وماذا بعد؟

أما بعد، فإن الآنسة نعمات رأفت لاتصحو من نومها قبل الساعة التاسعة صباحا، فإذا ما استيقظت تثاءبت ثم تمطت، وشرعت تنكمش وتنبسط على هذا الجانب تارة، وعلى الآخر تارة أخرى، كسمكة «ورق الميكا» التى كنا -ونحن صغار- نجدها فى لفائف الشكولاتة، أو تستوى على ظهرها فتمد ذراعيها إلى مؤخر السرير، تعبث بقوائمه الرفيعة، على نحو ما تصنع عازفة على قيثار، وهكذا حتى يروقها[٤] أن تنهض، أو حتى تتبرم[٥] والدتها فتضطرها إلى النهوض.

على أن نعمات كانت اليوم أكثر استسلاما إلى تراخيها، ما فيه من حركات وسكنات؛ إذ كانت تستمتع بذكرى ليلة الأمس أيضا.

ما كان أجملها ليلة فى الزورق الصغير ذى الوسائد المريحة، ومصباح البترول الخافت الضوء يتذبذب من السقف الواطئ المصنوع من نسيج القلوع، والنسيم الهين اللين يسير بالزورق فى هوادة[٦]، والموجات اللاعبة المداعبة تؤرجحه فى رفق الإخوة يؤرجحن مهد أخ حبيب، والقمر

(١) ورد: دنا من الشئ واقترب منه

(٢) فوهة: فتحة

(٣) تبصر فى: فكر، وتبصر فى الأمر درس عواقبه

(٤) يروقها: يحلو لها

(٥) تتبرم: تضيق به

(٦) فى هوادة: فى يسر ولين

بما يرى قرير عين[1]، يرنو[2] باسماً، ويسرف فيما أوتيه[3] من فتنة وبهاء.

ورشاد إلى جانبها يلف خصرها بذراعه، ويريق فى أذنيها حديثاً مريئاً[4] عن الحب وبهجة الحياة، ويبرهن على ما يقول بتجاربه ومغامراته فى باريس، ثم يدمغ البراهين بقبلة حارة أو ضمة قاسية، تشعر الفتاة لأيهما بمثل مس الكهرباء، وكانت الساعات تتراكض فى غفلة منهما حتى انتصف الليل فجأة بهما.

ولم يكن كل ما قاله «رشاد» بالغريب عنها، فهى أيضاً لها فى القاهرة تجاريب ومغامرات، إنما الغريب أنه نظم لها نزعاتها، كما يجيء العالم إلى الأرقام المبعثرة فيلخص منها المعادلات، وبمعونة هذه المعادلات انحلت مشكلة المشاكل فى حياة الشابة.

نعمات الآن فى الثانية والعشرين، وقد جاءتها الخاطبات الكثيرات بالخاطبين الكثيرين، ولكنها -على لسان أمها، ورغم إرادة أبيها أحيانا- كانت ترفضهم فى احتشام أو تهكم[5]، خشية[6] أن يقيد الزواج حريتها، وكانت أبدا تطمع فى أن يكون الخطيب القادم أفضل من المعروض جاها أو شكلا على الأقل، لا مرمى لها ولا مطالب محدودة ترضاها إذا اجتمعت.

والظاهر أن الرفض المطرد -مضافا إليه أقاويل المتقولين- أيأس السماسرة، وأقفل «بورصة الزواج» أكثر من عام، حتى تخوف الوالدان، وتطلعا بلهفة إلى أول من «يفتح الباب».. وكأن.. وجاءت من أقصى المدينة خاطبة بخطيب، اسمه غير موسيقى نوعا «مبروك أفندى درويش»، ولكن هذا لايهم، مصرى، مسلم، عريض الحاجبين، كبير الأذنين وموظف. ولم تكن نعمات تدرى -كلما سمعت اسمه، أو اقتحمت عيناها صورته الفوتوغرافية التى جاءت بها الخاطبة- أتبكى أم تضحك؟ وناش[7] الإحساس فؤادها فثارت، وثارت أمها معها، ورفضاه رغم حرج المركز، بيد أن الخاطبة الجديدة كانت من عدم الاعتراف باليأس حيث كانت تتردد، وتتردد باسم مبروك أفندى درويش.

---

(١) قرير عين: مسرور ومرتاح

(٢) يرنو: ينظر

(٣) أوتى: وهب

(٤) مريئا: عذبا

(٥)تهكم: سخرية

(٦) خشية: مخافة

(٧) ناش: لمس، أو أثر فى

قال رشاد لنعمات ليلة الأمس، وهو يدنى وجهه السمح من محياها الجميل، بعد أن عرج فى سياقه على الخصومة القائمة بين أسرتيهما، فسفّه[1] أسبابها، وحمّق والديهما إذ تشبثا بالصغائر، حتى حكما بينهما العداء فاستحكم، وحتى لم يبق إلى وئام[2] رجعى! علام الثورة والألم؟ لماذا لا يكون حبنا غاية، وزواجك من كائن من كان وسيلة لدوامه؟ وإذن فهلاً ترين أن مبروكا هذا مبروك علينا نحن الإثنين؟ فضحكا، فقبّلها، فسهمت فى وجهه مليا[3]، فرأت ما يقول..

وقطع على نعمات تفكيرها وقع أظافر «لولو» فى عقب الباب يعالج[4] فتحه، ونجح الكلب، ومد بصره إلى سيدته مدا طويلا، ففتحت له ذراعيها، فوثب على السرير، ودارت بينهما مهارشة، تعالت فيها أصوات نعمات بالزجر[5] المغرى، والوعيد الجميل.

- نيفى..

ها قد تبرمت[6] والدتها، وهذا صوتها «الكونترالتو[7]»، يدخل من الفرجة(٨) التى دخل منها الكلب.

-٢-

- «بونجور ماما»..

وماما كانت وقتئذ جالسة على البساط عند باب البلكون المطل على حديقة المنزل. هذا مكانها المختار تجلس فيه كل يوم وطول اليوم، حتى لا نخطئ كثيراً إذا عددنا أثاث الصالة فقلنا: كنبتان من الطراز التركى، وبضع كراسى من الخيرزان ماركة «امبريال»، وخزانة للأوانى الفضية، ومرآة على الحائط، وماما على البساط، أو بالأحرى على «شلتة» غير مرئية فى المكان الذى أشرنا إليه.

---

(١)سفة: استخف بالشئ وسخر منه

(٢) وئام: وفاق سلام

(٣) مليا: كثيرا وباستمرار

(٤) يعالج: يحاول

(٥) الزجر: الشتم والتوبيخ

(٦) تبرمت: تضايقت

(٧) كونترالتو: درجة الأصوات الغليظة فى الموسيقى

(٨) الفرجة: الفتحة

فعجبا إذن أنها لم ترد التحية بل أشاحت[١] بوجهها ومضت تقول فى سرها:

- هذه البنجور قول زور[٢]، وكيف يكون بونجورا والابنة تأتى من الفعال ما يعكر الدم ويثير الخاطر.. تغيب حتى منتصف الليل.. يا للفضيحة بين الجيران!.. ما عساهم يقولون؟

وإنا لاندرى إلى أى وقت كانت تسترسل فى نجواها، ولا أى خواطر أخرى كانت تدور بخلدها[٣]، لولا أن دنت منها «نينى» وأعادت تحيتها فى غضب صبيانى.

عندئذ التفتت إليها الأم وجهرت لها بما كان يلوكه[٤] ضميرها، وأضافت إليه فى النهاية:

- لكن أنا ما أنتظر لحد ما يحضر باباكى.. أنا أبعت له جواب حالا حالا.. ييجى يتصرف فى حالك، ما يعجب عدو ولا حبيب!!

ولما كان صوتها آنئذ بلغ قمة الموسيقى، حتى نبح الكلب «لولو» يحتج على أنه يجد من كبرى أسياده منافسا له فى عوائه، ثم انصرف تتمة لهذا الاحتجاج، رأت الأم أن تهدأ مليا، وأن تستعين بسيجارة لكى تعيد الكرة بنفس الهمة الأولى، وأخرجت علبة سجائر من تحت فخذها، وسرعان ما تصاعد الدخان فى الهواء، وعندما همت[٥] بإعادة الكرة ألفت[٦] ابنتها ملتوية على الكنبة المقابلة. وكان نصفها الأعلى يهتز بشدة، فأثر ذلك المنظر فى فؤاد الأم؛ لأن التواء أى ابنة على كنبة واهتزازها على هذا النحو فى ظرف كالذى نحن بصدده، معناه أنها تبكى مر البكاء. فقالت الأم حيال ذلك:

- شئ يحير، لاتحسى ولاتستحى، وإن تكلمنا تقولى هات يا عين.. لكن لا.. كل شئ له حدوده.. يا ندامة.

- ابعتى لبابا، ابعتى له، ياريت ييجى يموتنى ويخلصنى من حياتى.

---

(١) أشاحت: حادت

(٢) زور: باطل

(٣) بخلدها: بذهنها

(٤) يلوك: يمضغ، أو يدير الأمر ويدرسه

(٥) همت: بدأت

(٦) ألفت: وجدت

– والنبى يا بنتى أنا احترت واحتار دليلى، لكن الحق على رشاد، صحيح إنه ابن خالة بابا -الله يرحمه- ومن دمى ولحمى صحيح، لكن طول عمره ما يعجبنى، كنس مدارس مصر كلها، وسافر باريس قعد فيها أربع سنين ما عرف ياخد الصانص (كذا، وأغلب الظن أنها تعنى الليسانس، وللقارئ أن يتدبر احتمالا آخر).

وأرادت نينى أن تغير مجرى الحديث فقالت:

– جا جواب من بابا؟

قالت الأم وقد وجدت هدفا لايهمها أن يصيبه أحر الحمم[1] من ثورانها:

– دا راجل قليل الأصل، كانت قسمتى معاه مرار وندامة، انت فاكرة إن سفره للبلد يعنى للعزبة والتحصيل؟ دا كلام ما يدخل لى عقل ولا ينطلى علىّ.. حضرته قاعد هناك جنب الست تفيده هانم، يبعت يسأل عنا ليه؟ من يوم ما مات جوزها وهو انهتر[2] عليها، ولم قادر يدارى أموره.. داهية لم ترجعه، أنا كتبت له جواب المفضوح يحضر حالا، الخاطبة جاتنى امبارح وأنا اتفقت معاها وأعطيتها صورتك بالفستان الديكولتيه.

فقطبت نينى وجهها ومطت شفتيها، تبدى امتعاضا وتخفى الرضا، واستطردت الأم فقالت:

– ضرورى من جوازك «وهزت سبابتها على قيد لاشئ من عينى الفتاة حتى اختلجتا» ما له مبروك أفندى؟.. شاب وصغير، وموظف وابن حلال «فترة للبحث عن علبة السجاير تحت الفخذ الأيمن، والعثور عليها تحت الأيسر، ثم إشعال إحدى محتوياتها» تندمى.. تندمى طاوعينى لما تلاقى أبوكى بدد الإيراد زى عوايده واتجوز تفيدة هانم.. إذا كان أبوكى راجل بحق..

«وابتلعت جواب الشرط» لدخول «بحر النيل» وهى نوبية تمادى عليها الزمن فى خدمة البيت، حتى بلغ الهرم[3] بتكوينها عامة، وبوجهها خاصة، حدا يجوز للمرء حياله أن «يموت فى جلده» من شدة الخوف، أو أن «يموت على نفسه» من شدة الضحك حسب مزاجه الشخصى، ورأت من إهمال أسيادها ما أكد تأكيدا باتا أنها صاحبة الكلمة التى لاترد، وكانت تحمل صينية عليها

---

(١) الحمم: ما يقذفه البركان عندما يثور

(٢) انهتر عليها: أغرم بها

(٣) الهرم: كبر السن

طعام الإفطار، وفى إثرها «لولو» وقد استهواه الشذى(١) فأقبل يسعى، فوضعت ما بيديها فيما بين سيدتيها، وهى تسخط وتلغط(٢)، وتهول وتولول، وأعلنت أنها أصدرت مشيئتها بفصل نفيسة «إحدى الخادمات» بتهمة وجودها فى المطبخ ممسكة «بالنشابة»، والولد الطباخ يحرك يديها ليعلمها صنع الفطير.

وسرعان ما هدأت العاصفة، فأقبلت الأم على الطعام تأكل وتنقم على زوجها، وتحبب إلى ابنتها الزواج من مبروك أفندى درويش بشهيات متعادلة.

-٣-

ننتقل الآن إلى حيث مبروك أفندى درويش فإذا به جالس إلى مكتبه، جاد فى عمله، لا لأنه استشعر مجيئا إليه، حاشا حاشا، ولا لطارئ آخر طرأ عليه، كلا كلا، بل هو ديدنه الذى لاينى عنه ولايحيد. فمبروك أفندى درويش لايشارك إخوانه الموظفين احتساء القهوة، ولا يساجلهم سرد الحكايات، ولايندمج وإياهم فى التعليق على ما تعلنه الصحف، أو تسرده الثقة المتبادلة من أخبار العلاوات والتنقلات، فهو وحده المحنى الوتين على ما أمامه من أوراق، يتناول إحداها فيكتب عليها، حتى لتلتصق بها أرنبة أنفه، ويروح ذراعه ويجىء فيما بينها وبين الدواة، بهيئة تستثير الدهشة إذا لم تصدر عن آلة ميكانيكية، فإذا ما انتهى من هذه ضن(٣) بوقته أن يضيع فى رفع رأسه، وانتخاب ورقة أخرى قد يكون موضوعها أهم من غيرها أو أدق، بل يبعث أصابعه فتجيئه بأقرب ما تصيب، فيدسها بين المكتب وأرنبة أنفه، ويعمل فيها القلم على التو، لاتردد ولاهوادة عند مبروك أفندى درويش.

ويستدعيه الرئيس فيهطع(٤) إليه بالقليل من الأناة وغير القليل من الارتباك، يضم سترته الفضفاضة(٥) فتنضم، ويحاول أن يعامل شفتيه بالمثل فيأبيان، فيدارى عصيانهما بابتسامة لايسمح الظرف الحرج باتقانها، فإذا هى باهتة بلهاء، ويتسمع الموظفون وهم يتغامزون، فإذا الرئيس

(١) الشذى: الرائحة المثيرة

(٢) تلغط: تحدث ضجة

(٣) ضن بالشىء: بخل به

(٤) هطع: أسرع مقبلاً خائفا

(٥) فضفاضة: واسعة

يثخن[1] هذا المجد المسكين تعنيفا وتسخيفا، لأغلاط بعضها صبيانى، وبعضها تكرر تنبيهه إليه (مائة ألف مرة)، وبعد أن يهدده بأقسى وأقصى ما يبيحه القانون المالى، ويؤكد تهديده بضربات هائلة على المكتب يردفها بقوله:

– اتفضل يا أفندى حط عقلك فى رأسك واشتغل زى الناس.

يعود مبروك أفندى درويش وعلى شفتيه ابتسامته الباهتة البلهاء فيبتدئ من حيث انتهى، وكأن ما كان لم يكن.

وللموظفين مداعبات فى هذا الشأن.. ونكات تخرج أحيانا عن حدود اللياقة فى أوسع مداها، ولايمكن أن تخرج مبروك أفندى درويش عن أضيق دوائر حلمه وطمأنينته.

ويجىء وقت الإنصراف فينصرف مبروك أفندى درويش، ويسير إلى منزله فى تخاذل الكهول وبطء الشيوخ، منكس الرأس فى ورع النساك، مضافة إلى ذلك سبحة بلغت من الطول وغلظ الحبات ما أوحى إلى ذى قريحة[2] فاجرة أن يقترح عليه –تسهيلاً لحملها– أن يلفها حول عنقه، وإلى ذى قريحة أكثر فجوراً –ولو أنها أكثر ميلا إلى مستحدثات المدينة الحاضرة– أن يعدل الاقتراح إلى استخدام «سايدكار»[3]. ويصل مبروك أفندى داره بالسلامة طبعا، فيمضى بقية يومه إما فى حضرة الله مصليا، أو فى حضرة أمه متسليا، لايغادر المنزل إلا للضرورة القصوى.

ومبروك أفندى درويش خير من يعلم أن ما هو عليه من تقى وصلاح لايتجاوز نصف الدين، وأن الزواج نصفه الآخر، لذلك يسارع إلى هذا الكمال.

– ٤ –

فى اليوم التالى الذى ابتدأت فيه القصة، كان مبروك أفندى درويش فى طريقه من الديوان إلى المنزل أبطأ وأكثر ذهولا، ذلك لأن مبروك افندى درويش كان –إلى حد كبير– يفكر للمرة الأولى بعمق واهتمام فى شأن من شئون هذا العالم الفانى.

---

(١) يثخن: يبالغ فى الأمر ويكثر منه

(٢) قريحة: عقلية

(٣) سايدكار: تعبير انجليزى تسمى به العربة الجانبية التى كانت تلحق بالموتوسيكل

وكانت «أكائن أم غير كائن»[1] التى تزعج أوراده وتسابيحه فى رأسه «أيصير غنيا أم لايصير»، تلك هى المشكلة حقا. إن الرزق بالله، وإرادته الذاتية تتلاشى فى وحدانية الإرادة القدسية، وإن جلال ما يستجله العبد هو نقطة على حرف من حروف أم الكتاب الأبدية، ولكنه جل وعلا يسبب الأسباب، فمن الناس من يغنيه عن طريق تجارة أو صناعة أو وظيفة، ومنهم من يفتح له باب الغنى على مصراعيه بخطوة يخطوها أو كلمة يقولها.

وجالت العبارة الأخيرة تنقر أنحاء رأسه ككرة البلياردو، وراح يميل إلى مفاتن الترف فيشيد القصور العوالى، ثم لايلبث أن يجذبه ثقل سبحته إلى مناحى التقشف فيبتنى صوامع[2] الآمال، حتى وصل إلى داره ولم يستطع عزما، ومبروك أفندى درويش يحتل من تلك الدار شقة ذات ثلاث غرف، فيها أثاث غرفة واحدة مقسم عليها جميعا.

وهمت والدته بإعداد الطعام فطلب إليها إرجاءه إلى حين، وسألها عن «الخاطبة» هل حضرت حسب وعدها؟ فأجابته بالنفى وكانت صادقة، ولو ردت عليه بالإيجاب لكانت صادقة أيضا، ففى اللحظة عينها دوى صوت المسئول عنها فى السلم وهى تصعده، تسبقها الدعوات الطيبات والبشرى، فأحس مبروك أفندى درويش بصدره يتحرج حرجا مبهما، بين الفرح الشديد والعكس الصريح، فى حين ذهبت والدته إلى رأس السلم ترحب بالقادمة.

فلما استقر بهم المكان دسّت[3] الخاطبة يدها داخل أثوابها، ومضت تحدث شدا عنيفا كأنها ستخرج أرنبا أو قطا شديد الرأس، وأخرجت بعد لأى[4] لفة قماش أخضر فكت عقدتها، فإذا بها صورة فوتوغرافية نصفية على كارت بوستال، فهللت وكبرت، ثم قالت وهى تناوله لمبروك أفندى درويش.

– ياهناك يا فرحتك، ربى يجعلها من نصيبك وقسمتك !!

وما وقع نظر مبروك أفندى درويش على الصدر الرحب البادى من الديكولتيه الواسع،

---

(١) تشير هذه إلى جملة هاملت فى مسرحية شكسبير الشهيرة

(٢) الصومعة: مكان للانفراد بالنفس أو تخزين الغلال وهى هنا للسخرية بدلا من التعبير الشائع عن قصور الآمال

(٣) دسّت: وضعت

(٤) لأى: عناء وجهد

وعلى العينين الشاخصتين إليه فى استعطاف، حتى همّ بأن ينطق بالكلمة، ولكنه تمالك نفسه، واكتفت الأم بأن رنت إلى الصورة من طرف عينيها، ثم استردت نظرتها، وأخلدت إلى سكونها، فأما الخاطبة فلم تهيئ للخطيب فرصة اجتلاء[1] محاسن خطيبته، بل شرعت تصف له مفاتن تكوينها ما يبين منه وما يخفي.

قال مبروك أفندى درويش بعد فترة صمت وتفكير:

– إذا كانت عروستك جميلة وغنية حسب كلامك.. كان بالطبع.. قصدى أقول..

وتلعثم[2] فيما يقصد أن يقول فنظرت إليه أمه تشد أزره[3]، وإذا بالخاطبة تصيح به تسكته بعنف أعاد إلى ذاكرته الديوان والرئيس.

– أهى دى الوسوسة اللى من غير معنى.. إذا كان على العرسان، واحد نازل واتنين طالعين من عين أعيان البلد.. إنما لا أنا (وضربت صدرها ضربة لو وقعت على نظيره من غيرها لاستدعى له أقرب طبيب) راضية ولا هم راضيين.. قلت لى ليه؟ (ومع أنه لم يقل شيئا إذ كان مشغولا بالندامة على التفوه بهذا الاعتراض المشئوم) من جهتى أنا (وأطالت المد بحيث لم تترك مجالا للشك فى أن الضمير للمفرد المتكلم) خاطرى أخدمك، وانت عندى كما واحد من أولادى.. ومن جهة أهلها ناس حشمة مودة قديمة، والشباب الأيام دى زى ما انت عارف سكر وقمار، وسهر الليل ونوم النهار.. فأبوها غرضه واحد ابن حلال، يطمئن على ماله يوم ما يلقى رب كريم، وانت سيد الناس.. شباب، وموظف فى الميرى، وكذلك صحة وعافية الحمد لله يارب، أنا لازم أهاديك بنينى هانم، لم أسمح بها لغيرك.

فسهم «سيد الناس» هنيهة، ثم قال وقد تحاشى أن ينظر إلى والدته:

– لكن المهر..

---

(١) اجتلاء: اكتشاف وتبين

(٢)تلعثم: تردد وعجز عن الإبانة

(٣) الأزر: الظهر، وشد أزره بمعنى سانده وقوى عزيمته

فهرشت الأم كوعها، وتمتمت[1] بما لم يكترث به أحد.. وقالت الخاطبة وهى تلوح بالقماشة الخضراء بعد أن جففت بها وجهها:

- هم راح يقولوا ميتين وخمسين جنيه.

(فحملق مبروك أفندى درويش رعبا، واختلجت أجفان الأم غيظا، وتضاحكت الخاطبة).

- لاتخف ولاتحزن، أنا عاملة ترتيبى. اللى يطلع من نمتك ادفعه، والباقى تدفعه أمها من ورا أبوها.. دا الحال الساير فى البلد.

ثم استدارت إلى الأم وقالت:

- وانت يا حبيبتى قومى اعملى لنا فنجان قهوة، قلبى تعب من كتر الكلام.

-٥-

- ماكى ى ى ى.

انبعث الصوت الموسيقى المرح من غرفة التواليت.. ولما لم يلق ردا غادرت نينى مكانها من المرايا الثلاث، بعد أن ألقت نظرة عامة على قوامها من مختلف نواحيه، ومشت تمس أقدامها الأرض مسا، فدخلت غرفة النوم حيث كان زوجها مستلقيا على «الشيزلونج» الوثير، ومخفيا وجهه بذراعه، ولما لم يشعر بقدومها وقفت نينى وسط الغرفة فوضعت يديها فى خصرها، وانحنت إلى الأمام وكررت نداءها:

- ماكى ى ى ى.

فأيقظت النائم، فإذا به مبروك أفندى درويش.

لقد نجحت الخاطبة، ونالت على مجهودها من المال ما تزال تتباهى به فى سوق صناعتها، ونجحت ماما فجهزت ابنتها بما يلزم من كل متقن بهيج وثمين، وأقامت لها الأفراح حتى تورط زوجها فى دين لايستطيع حياله أن يفكر فى الزواج من تفيدة هانم، أو سواها قبل سنوات وسنوات،

(١) تمتم: تحدث بصوت خافت غير واضح

(٢) العاذل: الحاسد من الخصوم أو اللائم

ونجحت نينى فى إخراس ألسنة العاذلين[٢] عليها، ونجح مبروك أفندى درويش، فنعم بالحياة التى طالما تحرق[١] قلبه إليها، وتحلب[٢] لها المنى منذ أن عرف أنه «سيد الناس»، وهذا هو مستلق على «الشيزلونج» فى غرفة النوم التى استدر الثراء فى تأثيثها، وتبارت الأذواق فى تزويقها، والتى يفوح فيها ذلك الأريج[٣] الذى ينبئ بوجود المرأة.

قالت نينى فى غيظ حلو:

- اصح الساعة الخامسة.

فاعتدل «ماكى»، مبروك أفندى درويش سابقا.. وفرك عينيه، وما فعل حتى قالت نينى:

- يعجبك الفستان ده؟

وراحت تدور حول نفسها، فتأملها ماكى مليا وقال:

- جميل جدا.

- إنت جانتيه، جانتيه، أد إيه جانتيه[٤].

(وخفت إليه فجلست على ركبتيه وقبلته كثيرا وطويلا)

- اسمع يا ماكى.. أنا خارجه أزور واحده صاحبتى.. إياك تلوى سحنتك.

ولو أن السيد ماكى طاوع إحساسه لعقد سحنته تعقيدا لم يعقده أحد، فنينى تخرج كل يوم إلى حيث يدرى ولايدرى، حتى ليمكث آنا فى البيت وحده، أو يخرج فلا يعلم إلى أين يذهب، ولكن كيف يستطيع أن يطاوع إحساسه وهى فى مكانها من ركبتيه، وبعد أن أكدت له أنه «جانتيه»، هذا من ناحية العواطف، أما من ناحية الحياة العملية فإنه تغلب عليها الغلبة الكبرى منذ أيام، ولايستصوب أن يفاجئها بهزيمة أخرى عاجلة.

وحكاية هذه الغلبة الكبرى أن مبروكا.. أقصد ماكى.. بعد أن أفاق من نشوة الأيام الأولى من حياته الزوجية ألفى أنه ليس الرجل الوحيد فى البيت بل هناك رشاد.. إذا دخل وجده وإذا خرج

(١) تحرق إلى الشئ: اشتاق إليه

(٢) تحلب: استدر واستعجل

(٣) الأريج: العطر

(٤) جانتيه: تعبير فرنسى يعنى مهذب

تركه.. هو قريبها نعم.. ولكن لم كل الزيارات، وأى حق يخول[1] له أن يقترح الذهاب إلى التمثيل صامتا كان أو متكلما، وأن يكون ثالثهما أينما وكلما ذهبا.

لقد فكر الزوج -الذى هو ماكى- فى الأمر.. وكلما أمعن غامت رأسه الفكر، ولم يجد من يبثه[2] شكواه والنجوى غير شريكة حياته، فبعد أن استقبحت فضوله وسفهت آراءه، وعدت فى عدم اكتراث أنها ستنهى إلى رشاد أن يحرمه من شرف زيارته، وأنجزت ما وعدت، وارتاح البال المكدود.

هذا ما دعا ماكى إلى الوثوق من أنه سيبطل عادة الخروج المتكرر من زوجته بالسهولة ذاتها، فإن كان لم يعقد سحنته اليوم فلأنه وجد الفرصة سانحة لابتداء المحاولة.

- اسمعى يا نينى... والدتى بعتت لى فى الديوان إنها عيانة جدا فأنا راح أزورها وأبات عندها الليلة، فالأحسن تفضلى فى البيت النهارده.

وعلى الرغم من وجاهة العذر، وكمية اللطف التى أودعها فى تقديمه، فإن نينى انتفضت مغضبة.

- أنا عارفة إنك تكرهنى.. أنا عرفه إنك تكرهنى.. يستحيل أنام فى الشقة دى كلها وحدى.

فأكد لها بإخلاص وإيمان أنها لو وضعت المصحف تحت وسائدها، فالله واقيها شر الشيطان وشر خلقه الأشرار.

وتنزل الستارة عن قبلة من الزوجة للزوج، ثم ترتفع.. بعد انتراكت[3].. عن قبلة من العشيقة للعشيق.

وتمادى[4] الوقت إلى ما بعد منتصف الليل، فإذا الخادمة تفاجئها بأنها كانت تطل من النافذة لأرق أصابها، وشد ما كانت دهشتها إذ رأت سيدها مقبلا.

---

(١) يخوّل: يبرر

(٢) يبث: يبلغ، أو يطلع شخصا على شئ خاص

(٣) انتراكت: كلمة انجليزية معربة، تعنى فاصل

(٤) تمادى: أسرف في فعل الشئ والاستمتاع به

وجوم وحيرة وارتباك..

ولكن شيطانا أوحى إلى رشاد بما يصنع، وإذا بنقرات على باب الشقة، فلما تكررت ذهبت الخادمة تقول فى صوت المستنيم:

- مين؟

- افتحى يا بنت..

- يا ندامة.. لا ياسى رشاد كله إلا كده.

- أنا سيدك يا بنت.

- وكمان ياسى رشاد عامل صوتك زى صوته.. أما عجايب..

- افتحى يا مجنونة سبحان الله..

- مجنونة مجنونة.. ستى نينى أمرتنى بأنى ما أفتح لك بالنهار.. تيجى انت نص الليل وسيدى غايب.. يادى المصيبة.. اتفضل من غير مطرود أحسن ما أصرخ أجيب البوليس وتبقى فضيحة.

وأسمعته وقع أقدامها فى طريقها إلى غرفتها.. وبعد فترة سمعت وقع أقدامه يهبط السلم.. فلما بلغ أسفله وقف حائرا..

وماذا بعد..

فنظر إليه ثعلب من فوهة البئر وقال له:

- لماذا لم تتبصر فى الطلوع قبل ورود الماء؟.

ولكنها الحياة

- يا ستى مش كده عدمتى عنيكى.. صبّرى نفسك شوية وشوفى اللى انت فيه. ياريت العياط كان يجيب حاجة، ياريت يابنتى يا ألف ياريت..!

وكانت الخادمة العجوز جالسة عند قدمى سيدتها تسدى[١] لها النصيحة بصوت خافت ينبعث من قلبها، والاثنتان فى ملابس سوداء، وهما وقتئذ فى غرفة الانتظار من مكتب (الأستاذ فهمى المحامى) بشارع المغربى، وهى غرفة واسعة فخمة الأثاث، وكان السكون سائدا، لولا نقرات الآلة الكاتبة فى إحدى الغرف المجاورة..

وكانت (فاطمة) أرملة الدكتور ضياء تحاول التجلد[٢]، عملا بقول مربيتها، ومراعاة للمركز، فلا تزداد إلا اختناقا وإلا دموعا، فتضغط منديلها بين أسنانها؛ حذار أن تجهش بالبكاء.

وبعد هنيهة جاء الخادم فأومأ إلى السيدة باحترام فكفكفت عبرتها[٣]. سارا فى بهو معتم، حتى أوصلها إلى غرفة سيده الخاصة، وبقيت العجوز مكانها تتمتم آيات من القرآن، فيها -على اعتقادها- سر قضاء الحاجات، وكانت تشعر فى وحدتها بقلق، بيد[٤] أنها وحدة لم تطل وقلق سرعان مازال عنها، فإن الخادم ما عتم[٥] أن ظهر عند باب الغرفة، ومضى يفرك راحتيه إحداهما بالأخرى ويتنهد، ثم استباح لنفسه أن يخطو خطوات متثاقلة جعلته على مقربة من العجوز، فقال:

-عاملة إيه الست.. كان الله فى عونها؟؟..

---

(١) تسدى نصيحة: تقدمها وتحسن تقديمها

(٢) التجلد: التماسك والسيطرة على النفس وقت الشدة

(٣) عبرتها: دمعتها

(٤) بيد أن: غير أن

(٥) ما عتم: ما لبث

– راح تعمل إيه يا بنى؟ الفعل فعل الله.. أهى بقى لها شعبان ورمضان وشهر العيد وآدى بنات الأعياد قرب يخلص وهى لم نشفت لها دمعة، لحد ما اتبدلت وبقت فى نص ثيابها، لا حصّلت صغار ولا حصّلت كبار..

واغرورقت عيناها، وهز الخادم رأسه حسرة وألما، ثم قال:

– شوفى الدنيا! آل الراجل اللى كان على رأى المثل فى جسمه السبع داءات يطيب ويبقى زى الحصان، والدكتور ضياء اللى كان زى الجمل علشان جرح صغير فى صباعه، وهو بيعمل له العملية يروح كما راح الليل من النهار.. إخص عليكى يا دنيا.

فانحدرت الدموع فى قنوات وجه العجوز، وجعلت تهتز فى مكانها، وتحرك فى الهواء راحتين مفتوحتين، وهى تقول:

– كان حلو أوى، ومعجبانى أوى، وكان يحب الصغير قبل الكبير.. وضغطت جفنيها بالسبابة والإبهام لتوقف انهمار[1] الدموع، وقال الخادم يعزز كلامها:

– ده كان خيره علينا فوقنا وتحتنا، حاكم هو (والمتر)[2] كانوا أصحاب الروح بالروح، وكان كل ما يجى هنا يملا الدنيا ضحك وتفريح.. ألف رحمة عليك يا دكتور. مرة من المرات..

وفى تلك اللحظة دق جرس البهو فأسرع الخادم بالخروج وهو يتسخط ويقول: (الراجل الكاتب الجديد ده ما يبطلش طلبات طول النهار)، وبقيت العجوز وحدها مرة أخرى.

فأما الأستاذ فهمى فكان عند دخول الزائرة عليه واقفا وسط الغرفة، مطأطئ الرأس احتراما واكتئابا، وتبادلا التحية بصوت خافت، دون أن يرفع البصر أحدهما إلى الآخر.. ثم أشار الأستاذ إلى مقعد، فجلست فاطمة، واستعاد هو مكانه من مكتبه، وساد صمت كثير، همس فيه فهمى ببعض عبارات العزاء، فصمت آخر كانت فاطمة أثناءه مطرقة، تعبث بمنديلها بين أصابعها، ضبطا لحواسها، وحيرة فيما عساها أن تقول، وكان فهمى يرنو[3] إليها، ويغضى[4] حينا وهو فى مثل حيرتها..

---

(١) انهمار: انسيال الشئ بغزارة

(٢) متر: كلمة فرنسية تعنى المحامى وكانت تستخدم لقبا شائعا للمحامين فى هذه الفترة

(٣) يرنو: ينظر على استحياء

(٤) يغضى: يغض الطرف حياء، أو يشيح ببصره خجلا

وأخيرا ابتدأت فاطمة تسرد شكواها، بكلمات مضغتها في البداية مضغا، وهي عاكفة على إطراقها وعبثها بمنديلها، ولكن إقبال فهمي عليها، والإخلاص الذى كان ينصت به إليها، سرى[1] عنها ارتباكها، فوضحت عباراتها رويدا رويدا.. وإنها لشاكية مجدولة الوقائع، فيها عقود وإعلامات وإنذارات لها تواريخ وأرقام، هذه تنسخ ما قبلها، وتلك تعدل ما بعدها، وخلاصة ذلك تثبت في غير ما شك أن آل زوجها الفقيد متحزبون عليها، يبتغون أن يبخسوها ميراثها إلى أقل حد ممكن..

وكان فهمي أثناء إصغائه يرسل بصره بين آن وآخر إلى زاوية الغرفة خلف زائرته، ولو أن زائرته كانت في غير ظروفها هذه للاحظت منه ذلك، وللاحظت حسرة في أعضائه، فقد كانت في تلك الزاوية صورة فوتوغرافية معلقة لشاب عريض الجبهة، ذكى العينين، وسيم المحيا، تفتر شفتاه عن ابتسامة هادئة هو (ضياء)، ومع أنه قد مرت على فهمي في سياق حياته العملية خصومات أنكى مما سمع، فإن وجود تلك الصورة جعل لكلمات زائرته وجيعة في فؤاده، وود لو أنها تنصرف دون أن تراها.. ولكن كان ما خشيه، فإن فاطمة -في بعض حركاتها- أبصرت الصورة، فسهمت إليها مليا، ثم أشاحت فسهمت إلى فهمي، وبنفسها أن تسأله سؤالا لم تدر ما هو، ثم همت بأن تتكلم فتقلصت شفتاها وأرتج[2] عليها.

وأحرج هذا المنظر نفس الفتى، وشعر بأن زوره ينتفخ، فأجال بصره فيما أمامه من الأوراق، وتلهى بترتيبها حينا، ثم التفت فإذا هي تمسح دموعا انحدرت على خدها، فشرع يسرى عنها، واستطرد فقصّ عليها من أخبار ما كان بينه وبين زوجها الفقيد من الصداقة المكينة، التي يرجع مداها إلى عهد الطفولة، والتي هو ناصب هذه الصورة إبقاء لذكراها.

وكان فهمي يتكلم في هدوء وحنين، وفاطمة تصغى إليه كما لو كانت تتلقى وحيا، والصورة ترسل عليها ابتسامتها الهادئة.

-٢-

وقضى سير الدعوى التي أقامتها فاطمة على أهل زوجها أن تتكرر زيارتها لمحاميها، وكان فهمي بعد الفراغ من مهمته معها، يجد من حياة صديقه مادة لحديث هو يرتاح إلى سرده، وهي

---

(١) سرّى عنها: خفف عنها

(٢) أرتج عليها: استعصى عليه الكلام

تستطيب الإصغاء إليه، وتعود الأرملة الشابة إلى بيتها، وكلها رغبة فى أن تعيد ما سمعت على أول من تقابله، ولكنها رغبة لم تتعد شفتيها، إذ كانت ترى من حولها -حتى أعز صديقاتها- أبعد عن أن يفهمن ما تود أن تقول، لذلك كانت تقنع بأن تتحدث به إلى نفسها فى غرفة زوجها، وإلى جانب السرير الذى فاضت[١] عليه روحه، وكان صوت فهمى يرن فى أذنيها، فتحدث لها نبراته اللينة الحزينة إحساسا لايسيل الدموع، بل يدخل على النفس هدوءا حزينا.

وجاء وقت كانت تتطلع فيه (فاطمة) إلى المناسبات التى تدعوها إلى لقاء محاميها، لتسنح[٢] لها فرصة الكلام عن زوجها، لأنها لم تكن تنصت الآن فقط بل كانت كذلك تنفس عن قلبها الزاخر[٣] الكظيم[٤]..

وحقائق النهار تكيف أحلام الليل، لذلك باتت أحلام (فاطمة) وفيها ذلك الهدوء الذى تسرب إلى نفسها، فلم تعد ترى المخاوف والمفزعات التى كانت تريها زوجها، إما على نحو ما تعهده، أو على نحو ما يصوره لها فهمى..

وحدث أن وصلتها يوما رسالة من أختها الكبرى تلحف[٥] فى دعوتها إلى الإسكندرية، فامتعضت فاطمة لهذه الدعوة.. ماذا فى الإسكندرية؟ جو فرح وأناس فرحون.. أين يذهب بينهم المحزون؟ إنها لاتريد أن تكون موضع سخرية أو إشفاق، كلا الحالين أليم عسير، ثم القضية، إنها تعلم أن ستكون لها جلسة هامة قبل فصل الأجازات، وأنها تفضل أن تبقى لتعرف النتيجة، وهذا لايسمح بالإسراع الذى تتطلبه أختها.

ساورت[٦] (فاطمة) هذه الأفكار عندما تلت الخطاب، وتشاغلت فى النهار بما استطاعت من عمل المنزل، فلما جن[٧] الليل عاودتها فأرقتها، حتى غلبها الإعياء[٨] فنامت. فإذا بها ترى

---

(١) فاضت الروح: أى خرجت عن الجسد

(٢) تسنح: تتاح

(٣) زاخر: ملئ

(٤) كظيم: حبيس ومكتوم

(٥) تلحف: تصر أو تكرر أو تشدد

(٦) ساورتها الأفكار: تناوشها وهجمت عليها

(٧) جن الليل: أقدم وأحكم سدوله

(٨) الإعياء: التعب

كأنها فى دار تكوينها خليط بين دارها ومكتب فهمى، وفهمى وزوجها يتسامران على عادتهما فى غرفة مجاورة للتى هى فيها، ثم ما لبث زوجها أن ناداها، لتجلس معهما بدلا من وحدتها، فعجبت لذلك منه أن لم تجر عادة بمثله من قبل، غير أنه كرر النداء والطلب، فدخلت فى تردد ووجل، وما كاد يحتويها المكان حتى أبصرت زوجها قد استحال إلى هيكل عظمى كذلك الذى كانت تراه فى عيادته، ثم رفع يده إلى السماء واختفى.

استيقظت «فاطمة» مذعورة، وأحست بروح زوجها تملأ الغرفة، فأسرعت إلى الزر الكهربائى فانقشع[1] الظلام، ولكن هذا الشعور لم ينقشع. ماذا يقصد زوجها؟ أهو لايرضى لها الوحدة حقا؟ أم تراه يسخر منها؟ وانتابها الخجل والجزع معا، وانتابتها مشاعر شتى فتكت بأمنها[2] فعزمت على ألا تزور (فهمى) مرة أخرى.

وفى الصباح قامت شاحبة كالموتى، واجفة كمجرم مهدد، فتركت البيت، إلى أين؟ لا تدرى، ولكنها وجدت نفسها فى مكتب فهمى تخبره بأنها مسافرة إلى الاسكندرية غدا، فتمنى لها سفرا سعيدا وكان مطرقا ولم يكن فصيحا كعادته.

-٣-

وقف الشاب كمن فقد بغتة شيئا ثمينا، وأسرع إلى النافذة فراقب «فاطمة» حتى استقلت سيارتها، وحتى اختفت السيارة فى ميدان (الأوبرا)، ولبث بعد ذلك فى مكانه، وشعر بدمه يفور فى عروقه، وبقلبه يبلغ الحلقوم، فعاد إلى مكتبه دهشا لذلك الشعور المفاجئ، ثم هز كتفيه، وأكب[3] على عمله، فلم يطق، وكلما حصر فكره فيما كان انساب تفكيره حتى اتصل بفاطمة، فهز رأسه مغضبا من نفسه، ومضى يجرى أصابعه فى شعره تهدئة لأفكاره.

والتقى بصره وقتلذ بصورة صديقه فاستحى، وأشاح[4] بوجهه عنها هنيهة، ولكن دافعا خفيا دفعه إلى أن ينظر إليها مرة أخرى، فإذا الابتسامة الهادئة اختفت، وإذا بعينى صديقه ترميانه

---

(١) انقشع: تراجع وتبدد

(٢) فتكت بـ: افترست

(٣) أكب: عكف على الشئ وانصرف إليه

(٤) أشاح: انصرف وابتعد

بالنظر الشزر، فانزعج وأغضى، ثم سخر من نفسه، وحاول أن يستأنف عمله، ولكن عينيه اتجهتا إلى الصورة فأمعن النظر فيها ليقنع بسخافة ما وهم، على أنه لم يهدأ يومه وظل متضارب النزعات..

ومرت به الأيام بين سريعة وبطيئة، حتى وافى يوم القضية، فأفرغ أمام المحكمة علمه وقلبه، ولكن القضية أُجلت لداع تشبث به الخصوم، واتخذ (فهمى) مما حدث سببا يكتب به إلى «فاطمة» ولم يستطع أن يختم الرسالة دون أن يستودعها نفثات فؤاده، فأسف على تلك الأيام الطيبة التى كانت تسمح له بالإصغاء إلى حديثها، وأكد لها إعجابه بنجابتها[١] وذكائها.

وقرأت فاطمة الخطاب فى شغف مرارا، ولكنها ترددت فى أمر الرد عليه، فعزمت بادئ الأمر على ألا تفعل، ثم رأت إن الإغفال لا يليق، وأن الواجب يقضى بأن ترسل إليه شكرها عما أبلاه[٢] فى قضيتها، ولو فى أوجز عبارة، وقامت إلى ذلك فلم تدر ماذا تكتب، واختلطت فى رأسها الأفكار والكلمات والعواطف أيضا، وكلما دونت شيئاً ألفته[٣] ليس بالذى تريد أن تقول، فتمزق القرطاس[٤]، وأخيرا جرى قلمها وامتلأت صحيفة تلو أخرى.

وإليك إحداها:

(ولقد وجدت هنا عزاء يخفف لواعج أحزانى.. لا فى الهواء ولا فى الحمامات ولا فى كل ما فى الإسكندرية من جميل وفتان، ولكن فى شابة تسكن فى المنزل المجاور لنا، وقد أصبحت الآن صديقتى الحميمة، هى فرنسية وقد حضرت لمصر منذ أشهر.

(تصور أن هذه البائسه مات زوجها وأخواها فى الحرب، وماتت أمها من الحزن الشديد عليهم، وبذلك أصبحت فى غاية البؤس والفقر هى وابن أحد أخواتها، وهو صغير لايتجاوز الثانية عشرة، فاضطرت إلى أن تترك فرنسا لتجد عملا فى مصر، وهى ماهرة جدا فى البيانو، وتدرس الآن لعائلات كثيرة من الإفرنج وأنا المصرية الوحيدة التى أتعلم عليها) .

---

(١) النجابة: الفطنة وحسن الفهم

(٢) ألفي: وجد

(٣) القرطاس: الورق

(إن تغيير الهواء قد أفادنى والحمد لله وأصبحت).

إلى هنا انتهت الصحيفة..

-٤-

ومنذ مهرت(١) الرسالة بإمضائها غدا فؤادها يئن بالرغبة فى أن تعود إلى القاهرة، ومضت تهمس إلى وسائدها بهذه الرغبة، لأنها لم تستطع أن تصارح أحدا بها، إذ لم يكن ثمة داع يبرر ذلك فى أعين من حولها، فبماذا تعتذر إليهم؟

وكان متنفس هذه الرغبة عن صدرها سمرها مع صديقتها الفرنسية، فكانت تخلو إليها فتحدثها عن القاهرة، وتسرد عليها تفاصيل قضيتها مع أهل زوجها، وما ذلك إلا لتعرج بالحديث على فهمى، فتذكر لها صداقته لزوجها فى حياته، وبره(٢) بهذه الصداقة بعد مماته، ثم اهتمامه بأمرها، وإخلاصه فى خدمتها، إلى حد أنها لاتعرف كيف تؤدى إليه منته(٣).

وأخيراً سنحت(٤) الفرصة، فقد توعك(٥) مزاج مربيتها، وشكت آلاما هنا وهناك فى جسمها، فما ونيت(٦) فاطمة أن نسبت ذلك إلى رطوبة الجو وجعلت تزين لها من طرف خفى وجوب العودة إلى القاهرة، وتم لفاطمة ما أرادت..

وفى عصر يوم دخل خادم المكتب على فهمى منطلق الوجه فأعلن خبرا، فنهض من فوره يرقص قلبه ويهتز كيانه من سروره وفرحه، وقبل أن يصل إلى باب الغرفة كانت فاطمة تجاوزته إليه، فصافحها بحرارة وشوق، وكبح(٧) نفسه عن شئ همّ بأن يفعله، وفاطمة متهللة الوجه فاتنة

---

(١)مهرت الرسالة: وقعتها

(٢) برّ: وفاء

(٣) منة: عطية أو جميل

(٤) سنحت: حانت

(٥) توعك: تأذى أو مرض

(٦) ما ونيت: ما لبثت أو ما تأخرت عن الشئ

(٧) كبح: سيطر على النفس أو الفرس ومنعهما من الاندفاع

الابتسام.. واشتبك الحديث: منها عن الإسكندرية وهوائها وبهائها وصديقتها وحالها ومالها، ومنه عن القاهرة وقيظها وإقفارها، وعن القضية وما كان من أطوارها[1].

ويسود الصمت في فترات فيتلاحظان، وفاطمة تغضي وتعبث بمنديلها، فلما أرادت الانصراف صافحها ممسكا يدها، حتى اقتربا من باب الغرفة، وهناك وقفا هنيهة صامتين يرنوان ويغضيان، على أن فهمي وإن أمكنه أن يكبح نفسه أولا، فقد جمحت به الآن، وكانت راحة فاطمة ما برحت بين راحتيه فشد عليها، ثم التقت الشفاه في قبلة طويلة ولهانة[2].

فلما استفاقة التقت عينا فهمي بعيني ضياء، وإذا الابتسامة الهادئة قد اختفت، وإذا الميت يضحك ساخرا بالأحياء..

---

(١) أطوار: أحوال

(٢) ولهانة: محبة

الشاويش بغدادى

-١-

ترفع الستار عن (باب الخلق) فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، والشاويش بغدادى واقف وسط الميدان ناصبا فى الفضاء قامته الطويلة، الطويلة جدا، ناشرا فى الفضاء أكتافه العريضة، والعريضة جدا، ومرسلا فى الفضاء كرشه البارز، البارز جدا، وهو ببذلته البيضاء الناصعة ووجهه القاتم أشبه شئ بتمثال من المصيص، ركبت عليه رأس من حجر الجرانيت.

كان الشاويش بغدادى واقفا وسط الميدان، حارسا على سلامة الجماهير، رقيبا على حركة المرور فى هذا المكان، الذى تتعارض فيه جميع وسائل النقل على تباين أنواعها واختلاف صورها: من الحمار يرزح[1] تحت أحمال البرسيم ذليلا، منكس الرأس، متراخى الآذان، إلى الجمل يسير بأثقال البطيخ والشمام، طويل الجيد[2]، براق العينين، مستهزئا ببغال (الامنبيس) خاصة، ثم عامة بما أحدثه أهل الحضر حوله من سيارات ودراجات و «ترامواياته..

ولكن الشاويش بغدادى –رغم هذه المسئولية الكبرى، ورغم دار المحافظة القائمة أمامه بعظمتها وجبروتها– كان لايشعر بشئ مما يدور حوله، لأنه كان نائما، ونائما نوما عميقا وأراهن. تلك كانت الحقيقة وإن لم يتبينها الناس، وإنهم لمعذورون، فإن حواجبه الكثيفة كانت تخفى انطباق جفنيه، وشاربه الغليظ كان يستر انفراج شفتيه، والمظلة البيضاء المرسلة فوق طربوشه وأكتافه كانت تموه منظر رقبته المائلة، وفكه المستند إلى صدره، كأنه جزء آلة قد انحلت روابطه.

نومة هادئة موفورة الطمأنينة، فأى حمار تحدثه نفسه، وأى أتوموبيل يسول[3] له بنزينه مس (الحكومة) بأذى فى شخص شاويشنا بغدادى، لذلك لم يكن من راكب أو راجل يمر بهذا النصب إلا تريث حتى يفوته بسلام.

---

(١) يرزح: ينوء بثقل ما يحمله

(٢) الجيد: العنق

(٣) يسوّل: يزين

نومة لاينتهى فيها العجب! وهل أعجب من أن نقول إن بغدادى هذا كان وسط أحلامه يقوم بواجبه خير قيام؟ لن أبخسه حقه، فتلك كانت الحقيقة وأراهن أيضا.

كان بغدادى يرى فى نومه حضرة الملاحظ أو جناب المأمور، فيرفع يمناه إجلالاً وتعظيما، على أنها وإن لم تصل إلى شحمة الأذن لثقلها وخمولها فإن مجرد رفعها فيه الكفاية لوقف حركة المرور على الفور، مهما كانت شدتها، ثم إن حضرة الملاحظ أو جناب المأمور يوسع المسكين توبيخا وتأنيبا، ويصرخ فى وجهه صرخة تعيده إلى حسه فيفتح عينيه، ثم لايلبث أن يتثاءب ويحدث فى تثاؤبه عواء هائلا، يوهم الباعة والسائقين فى أطراف الميدان بيقظة الشاويش وحذره، فيبطئ المسرع، ويسرع المبطئ وهكذا..

ولبث الشاويش بغدادى على هذه الحال وقتا ليس بالقصير وهو ناعم وادع العين.

ولكن فجأة وعلى غير انتظار (نُفخ فى الصور) وقامت قيامة الميدان، ووفد الناس من كل فج[1] مسرعين، ووقفوا متسائلين، وتعالت الأصوات بما كانوا يجأرون[2]، واختلطت النبرات فلا تميز شيئا ولا تستبين، وبغدادى رغم ذلك من النائمين، ولا أخالكم بمصدقيّ ولو أغلظت اليمين، وإنه لحق اليقين.

أجل! أصر بغدادى على نومه، فلم يفق إلا عندما ألحف القوم فى الاستغاثة برجل الشرطة، وإلا عندما تعبت حناجرهم من هذه الاستغاثة، فتثاءب ثم تلمظ، ومسح عينيه بظهر يده، ثم ضرب الأرض برجله، ودفع الهواء بصدره، ثم سار بخطوات الجندى، وعظمه الحاكم إلى مكان الحادثة. ولم يتكبد الشاويش عناء فى أن يشق طريقه وسط الجمع الزاخر، فالطريق كان يشق نفسه، كما انشق البحر لموسى عليه السلام، وهناك وجد الكمسارى الذى نفخ فى الصور وأقام هذه القيامة، وكان نوبيا وفى حالة من الغضب، برزت لها أنيابه، واتسع لها منخراه[3]، واتقدت عيناه، كالوحش الثائر بين يديه. ولكى نكون أمناء فى التعبير يجب أن نقول وبين مخالبه فتى ممتقع اللون، يظهر لأول وهلة أنه من طلبة المدارس، يدافع عن مركزه بجد وحزم، ولو أن صوته كان ضعيفا، وشفتيه كانتا ترتعشان، وكذلك كانت يده وهو يلوح بها إيضاحا لكلامه وتوكيدا.

---

(١) فج: شق أو غور

(٢) يجأر: يزعق

(٣) منخراه: فتحتى أنفه

– إيه المساخر وجلة الحيا دى، إزاى يا جدع انت تعمل التعدى والشوشرة دى كلها؟..

هذا ما تكرم الشاويش بغدادى بقوله حينما وقف حيال المتشاجرين، ونصب فى الفضاء قامته الطويلة والطويلة جدا، كما نشر فيه أكتافه العريضة والعريضة جدا، وأرسل فى الفضاء كرشه البارز والبارز جداً.

فطوح الكمسارى بيسراه فى عنف مرعب، ولا نستطيع أن نعرف بالضبط أى جزء من أجزاء وجه الشاويش كان مقصودا بهذه الحركة، لأن الأخير أشاح بوجهه السالف الذكر بخفة يحسد عليها فى مثل موقفه، على أن هذه الفعلة من جانب النوبى المتهيج كانت ضرورية كل الضرورة، ومتناسبة كل التناسب مع قوله:

–شوشرة إيه اللى عملتها وتعدى إيه؟

وكان يجب على غير الشاويش بغدادى أن يعد العبارة الأخيرة بمفردها شوشرة وتعديا. ونحن لانريد أن ننحاز إلى أولئك الذين اتهموا بغدادى بالجبن فى ذلك الحين، ولكننا نقرر بكل سلامة نية أن سلوكه بعد ذلك كان مضحكا وسخيفا، فلقد وضع يده على كتف الكمسارى بكل لطف وقال:

– اسكت انت. أنا بكلم حضرة الأفندى اللى الدنيا مش سيعاه.

وكان الشطر الثانى من المنطوق الكريم مشبعا بروح التهكم المر، السخرية المزرية، ثم نظر إلى (حضرة الأفندى) نظرة أقل مما فى معناها أنه سيكذب ما سيقوله، مهما كان من وضوحه وثبوته، فازداد ارتجاف شفتى الفتى، وامتقاع[1]، لونه لهذه المفاجأة، ولم يستطع الكلام، فأدار فيمن حوله نظرة حائرة، يطلب إليهم بها أن يقولوا ما عجز عن قوله، وأدرك البعض ما أراد فناصروه، ثم تمالك الفتى مشاعره، فقال يؤيد رواية القوم:

– أيوه الكمسارى ده أخذ منى نص ريال..

لقد فاتنى أن أقرر صراحة أن الشاويش بغدادى خفيف الروح رغم منظره الخشن، بل الحقيقة أنه لم يفتنى ذلك، ولكننى لم أكن أعرفه قبل الآن، فقد هز رأسه ذات اليمين وذات اليسار بأناقة، وحرك حاجبيه الكثيفين برشاقة، وقال:

– ياسلام. يا سلام.. أخذ منك نص ريال، وعاوز اعطيهولك من جيبى؟..

---

(١) امتقاع: شحوب

فلم يستطع الحاضرون إلا أن يبتسموا ابتسامة الدهشة لهذا المنطق العجيب، أما النوبى فقد صادفت النكتة منه وترا حساسا، فجعل يضحك حتى أمسك أضلاعه، ثم هوى بيده على كتف الشاويش إظهارا لخالص إعجابه بمواهبه، وقد أغرى الشرطى ذلك فاندفع يكيل النكات، وقارص[1] الكلمات: فالزمن آخر زمن ذهب فيه الأدب، وقل فيه الحياء، وانقلبت الآية، فعز الوضيع، وذل الرفيع، (قال هذا بلهجة تدل على أنه هو المقصود بهذا الرفيع الذى ذل، وأن غيره من الجمع الحاشد هو الوضيع الذى عز) وأصبحت المدارس لا تعلم إلا السفه والتبجح، ولو أن الأمر كان بيده لأغلقها جميعا، وهل هناك سفه وتبجح أعظم من أن يأتى غر[2] كهذا (وأشار إلى الفتى) يفترى الكذب على مسكين كهذا (وأشار إلى النوبى) يحاول أن يبتز[3] منه ما مايوازى أجر يومه كاملا؟

ثم أعلن إرادته بأن ينطلق القطار فانطلق..

ولبث الفتى فى مكانه وهو يتحرق غيظا، لكن سرعان ما أوحى إليه شيطان الغيظ بما يفعل، فتقدم إلى الشاويش -وكان لايزال على مقربة منه- وقال:

- يعنى النص ريال اللى أخده الكمسارى ماكنتش انت حق به؟

وعندما سمع بغدادى بأحقيته فى المبلغ التفت إلى الفتى وسأله باهتمام:

- هو صحيح أخذ منك نص ريال؟.

- أيوه وحياة شرفك انت، وأنا مش عايزه، إنما خسارة فى واحد كلب زى ده..

وفى الحال أطلق الشاويش ساقيه للريح والفتى يتبعه. ومازال حتى نفخ فى الصور مرة أخرى، وقامت القيامة مرة أخرى، وفى هذه المرة انقض الشرطى على (اللص الأثيم)، فأخذ بتلابيبه[4] بيد من حديد، وإذ ذاك كان الفتى وهو المؤدب المهذب ابن ا لمدارس، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما الكمسارى فلم يكن إلا بربريا، تنتونا، ولا تصدقن أحدا من هذا النوع من الخليقة ولو كان ولياً، ولئن لم يدفع المبلغ على الفور ليذهبن به إلى القسم، وليذيقنه

---

(١) قارص: لاذع، حاد

(٢) غرّ: شاب ساذج أرعن

(٣) يبتز: يسرق ويسلب

(٤) أخذ بتلابيبه: أى بخناقه وقبض عليه من فتحة العنق بملابسه

الويال[1] والنكال[2]، واسترسل فى وعيده وتهديده، حتى أذعن الكمسارى، ودفع إليه نصف الريال. وقبل أن تستقر القطعة فى كفه التقطها الفتى وأسرع فكان بين الراكبين، وانطلق القطار والفتى يلوح بيده ويقول:

– مرسى يا شاويش، أنا متشكر جدا.

وتنزل الستار عن الشاويش بغدادى وهو يزفر زفرات ملتهبة، ويكاد يتميز من الغيظ.

---

(١) الويال: الويل

(٢) النكال: ألوان العذاب

الزائر الصامت

-١-

كان بين القبور رجل يسعى، يشق طريقه فى هول[1] الليل ووحشة الصحراء، وكانت الساعة رائعة رهيبة، ساعة تهدم صرح الظلام، وقد جثمت بقاياه بين القبور كأنها الجنية السوداء، وتراءت عمده هنا وهنالك كأنها المردة الغلاظ الشداد.

والنجوم فى أقصى السماء بين محملقة دهشة، وواجفة خوفا، والطبيعة منكسة أنفاسها، لأن عملا عظيما يتقوض، حتى إذا ما زفرت كان لذلك الزفير صوت عميق، تحسبه أنين أرواح تتعذب.

كان بين القبور رجل يسعى، تتعثر قدماه فى أشلاء ثمانين حجة[2] أفناها، ومع ذلك فقد كان مجدا لاينى[4]، ثبتا، لايهاب، آخذا سمته[5] إلى حيث شاء، لا يلتفت يمنة ولايسرة، وفى شفتيه المطبقتين عزمة الجندى الذى كان، وفى عينيه الغائرتين نقمة الجبار العتيد.

أجل كان جندياً عرك [6]السيف، وخاض الحرب، ووقف المواقف التى تشرف الجندى، لأن دما حارا نبيلا كان يجرى فى عروقه، فلما كانت الثورة العرابية كان مع المجاهدين، وبرزت له شخصية طامحة وثابة، فسما وارتقى، وصار موضع آمال، ومضرب أمثال.

ولكن الدهر تنكر له، فهزأ بالدهر وتنكر له، وانقض على الأيام يسخرها فى أحط ما يسخر له العبد الرقيق -للذاته وشهواته- فاحتسى وانتشى، وجمع إلى الصهباء[7] النساء، فأحب وتدله،

---

(١) هول: ظلمة الليل المخوفة

(٢) حجة: سنة

(٣) ينى: يكل ويتعب

(٤) يهاب: يخاف

(٥) سمته: طريقه

(٦) عرك: خبر وعرف معرفة عملية

(٧) الصهباء: الخمر

وكان بطل مآس ومسخ[1] مهازل، وما زال ثائرا جامحا، إلى أن انّبته شعرات بيض، فحطم الكأس، وهجر العربدة، وأوى إلى البيت، يكوّن العائلة، فكانت فى أحسن ماتكون. ورزق ببنين كان لهم أبا، ورزق ببنات كان لهن أما، وعاش فى ليان قرير العين.

ولكن الدهر المضطغن (٢) بات يطلب منه الثأر، فضربه فى فلذات كبده ضربات قاسية، فاعتصم بالصبر حتى هدأت ثائرة المنتقم، وقنع الرجل بأول بنيه وآخر بناته (محمد وزكية)، وعاش وادعا قرير العين.

فأما محمد فمات وهو يتخطى الثلاثين، وأما زكية فماتت وعلى جبينها إكليل زهر الليمون(*).

الآن وقد اندحر فى واقعة الحياة، وبعد أن خسر آخر جندى، وبعد أن فقد العزاء، هذا هو بين القبور يسعى، مرير النفس صامتا يتعثر.

-٢-

كانت الليلة أربعين الفتاة فأحياها، فلما انفضت الوفود صعد يتطفل على النوم -لأن النوم لم يطلبه- فلم يلق إلا السهاد، فأمضه وبرح به[3]، ثم أسلمه إلى غيبوبة أنكأ[4] منه وأقسى.

فلما غفا سرت له (زكية) جميلة كما كانت، رشيقة كما عهدها، وجلعت تروح أمامه وتجيء، وتلف حوله وتدور، غير أنها روحات عجيبة وجيئات أعجب، ولفات تستثير الدهشة والفزع: لم تكن أقدامها الصغيرة لتمس الأرض، بل لكأنها تطير بأجنحة خفية، ثم تزايدت سرعتها فلم يعد يميزها، حتى هوت على الأرض، فأسرع إليها هلوعا[5]، فإذا بها ملتفة فى أكفان، وكان وجهها عاريا وكانت تبتسم، فضمها إلى صدره وهزها يستبين أمرها، فإذا الابتسامة قد ماتت على شفتيها، وإذا هى جثة هامدة.

---

(١) المسخ: المشوه وهو بطل المهزلة هنا الذى لا بطولة لديه

(٢) المضطغن: الذى ينطوى على الحقد والضغينة

(*) يوضع على جبين العرائس عند الزفاف

(٣) برح به: أتعبه وأجهده وآذاه

(٤) أنكأ: أشد وقعا

(٥) هلوعا: خائفا جزعا

فعاد إلى حسه يرتعد وقد وهم أنه لم يعد، فأسرع فنظر إلى أرض الغرفة، وفى الحال تبين الحقيقة فاستعاذ بالله طويلا واضطجع.

أى اضطجاع!.

لقد حاول الهدوء فلم يهدأ.. زكية تروح وتجيء أمام عينيه المفتوحين، فإذا ما توارت فروحها مرفرفة فوقة تملأ المكان، فأرسل الآيات والدعوات لترجع الروح الحاضرة إلى ربها.. وما من فائدة.. فأيقن أن ابنته تطلبه، ولن تهدأ حتى يكون إلى جانبها.

وهذا هو..

بين القبور يسعى مرير النفس صامتا يتعثر.

وبلغ الدار التى ينشد، فإذا فى فنائها قبران قائمان، هذا يضم ابن الثلاثين، موضع إعجابه وفخر شيخوخته، تلتصق جمجمته بجمجمة العروس، وذاك خاوٍ ينتظر.

وصاح الفجر.

فجمد الشيخ فى مكانه وسط الفناء، وأطرق من خشية جلال الله، وجلال الموت، ثم تقدم وألصق قلبه بقبر الحبيبين، ومازال حتى خذلته قدماه، فجلس على مقعد قريب وأسند رأسه بيديه، فمرت أمام مخيلته مشاهد المأساة.

-٣-

ذكر يوم جاءه لأول مرة ذلك الرجل الضئيل التكوين، النحاسى البشرة، المتساقط الأسنان، وتلك المرأة الغائرة العينين، المخيفة النظرات، يطلبان يد ابنته لابنهما الشاب، الممتلئ شحما لا شبابا، كأنه قعيدة(١) بيت.

كيف خدع فيهم أجمعين؟

كيف أنس بالرجل حتى حسب جعجعته صراحة، وقحته(٢) رجولة؟

وأحسن الظن بالمرأة، فلم يفطن إلى دجلها وشعوذتها، حين دخلت عليه لأول مرة -وكان مريضا- فتمتمت عند رأسه وهمهمت، ووعدته بالشفاء، فكذّب المرض ما وعدته. وكيف أخطأ فهم

---

(١) قعيدة بيت: حبيسته لا تغادره

(٢) وقحته: بجاحته

الشاب، فخال إغضاءه حياء وصمته أدبا.. أين كانت شيخوخته، أين ذهبت حنكته[1]؟ يا لها من حسرة تفرى المهجة، وتقطع نياط القلب!!

وإذا أراد القدر فالشيخوخة طفلة والحنكة بلهاء.

أسلم إليهم عصفوره.. سوف يغرد فى أحضانها كما غرد فى أحضانه، سوف يجد فى بستانه الجديد معانى جديدة لأناشيده، سوف يجىء بأفراخ صغار يفرح ويبتهج بهم.

أسلم إليهم زهرته -الزهرة التى لم يبق الدهر فى قفر وجوده إلاها- سوف يتعهدونها فتزداد تفتحا وإيناعا، وسوف تنبت إلى جانبها زهرات، تضيف إلى أرجها وروائها ما يتوج بهن حياته.

-٤-

ما بال العصفور لايشدو؟.. وإذا شدا أين تلك النغمات والنبرات؟ إن أناشيده خلاء، ونبراته جوفاء.

والزهرة. ماذا دهى[2] الزهرة، لم يبق لها رواء[3] ولا أريج فى الهواء. ذابلة منكمشة كأنما هبت عليها ريح لافحة[4].

زكية كانت فى أتون مستعر يزكيه[5] السفه وتخمده الشعوذة.

من أجل تافهة تثير المرأة البدينة شحناء ضروسا، وترمى زوجها وولدها بأنجس الشتائم، وأمج[6] الألفاظ، والرجل الضئيل يزداد ضآلة -يتلاشى-، والولد المغضى يزداد إغضاء، ذليلاً كالعانس، حتى إذا ما أفرغت جعبة السوء وخذلتها البذاءة، ارتمت على الأرض تتلوى وتتمرغ كثور مذبوح تحدث عواء ومواء.

---

(١) حنكته: خبرته بالحياة وحصافته
(٢) دهى: أصاب
(٣) رواء: نضارة وحيوية
(٤) لافحة: حارقة
(٥) يزكيه: يزيد من حدته
(٦) أمج: أقبح

صه. صه[1]. لقد احتضنها الشيطان، وشيطانها ذو بأس شديد.

عند ذلك يتقدم الزوج الضئيل والولد العانس إلى الضيف المهدد، يستغفرانه ويستميحانه، حتى يذهب فى سلام.

لهذا تأمرت وسيطرت، هى لاتراهم وهم لايرون سواها، لاينصرف أحدهم إلى عمله إلا إذا رقته وباركته، ووضعت له الملح والأذرة فى جيوبه.

وإذا كان من الجهل عذر الوالد فماذا يكون عذر الولد؟ كان متعلما، بل كان (معلما)، علم وشعوذة.. نقيضان لايجتمعان ولكنهما اجتمعا لشقاء زكية النسكينة.

جاءها زوجها المهذب يوما يقول: هل رأيت تمائمى[2]؟ فأعطته التمائم خجلة من وجله[3]، فأخذها وأخذ ينهى إلى زوجته مبلغ اضطرابه حين افتقدها فى المدرسة فما وجدها، وكيف تسلط عليه الوسواس، وتمادى به، حتى أنه لن يصل إلى الدرا إلا والدار تحترق، وتقذف باللهب وترمى الشرر، فلما لم يلق لهبا ولا شررا، خال أنه صاعد فواجد وجوه من بالبيت سوداء، وعيونهم حمر، وأنيابهم زرق.

ولكن الله سلم!

وأرادت المرأة المسيطرة أن تخضع الفتاة فأبت تلك واستكبرت، وتعالت عن أن تسف[4]، وتلك كانت العلة.

فناصبتها المرأة العداء، وأذاقتها حيف[5] الحماة، والفتاة تتحمل مضطرة وتصلى[6] كاظمة، فلما أتى الآتون على آخر صبرها، وأيقنت أنها لو استهدفت هلكت، لاذت بأبيها تبوح وتعترف.

---

(١) صه صه: صمتا وسكوتا وانتباها

(٢) التمائم: التعاويذ والأحجة

(٣) وجل: خوف واضطراب

(٤) تسف: تنزل إلى حضيض والسكوك والإسفاف

(٥) حيف: ظلم

(٦) تصلى: تتعذب

سكت العصفور ونعق البوم.

زكية أصيبت في أمعائها، وتوغل[١] المرض وضل الطبيب، وجعل الشباب يتضور[٢] بين ذراعى الهرم.

ما أقسى وما آلم..

وا رحمة للشباب وللمشيب.

قالت زكية وهى بين أسلحة الجراح، محملقة العينين، هزيلة كالخيال:

- ادع لى يا أبتى.. أنفاسك بلسم[٣]، وكلماتك شفاء.. أسمعنى صوتك فأطمئن.

ولكنها لم تسمع صوته، لأن العبرة خنقته، ثم خاب الطب آخرا كما خاب أولا.

ماتت زكية..

عند هذه الذكرى أفاق الزائر تسيل الدموع فى قنوات وجهه، وأرسل نظرة إلى القبر الملىء ونظر إلى القبر المنتظر، وفى النظرتين جماع الذكرى.

ثم حمل دموعه إلى الصحراء ليعود كما جاء مرير النفس،، صامتا يتعثر.

---

(١) توغل: تقدم

(٢) يتضور: يتألم ويدوى

(٣) بلسم: ترياق

لون الخجل

-١-

عم رجب، والشيخ رجب، ورجب أفندى، وعم رجب أفندى -كل هذه الأسماء الحسنى تدل بالتساوى على مخلوق واحد من مخلوقات الله الفريدة فى نوعها، فالشيخ رجب ليس (شيخا)، وكيف وهو لم يلف الشال الأبيض المزهر على الزر الأزرق المنقوش يوما من الأيام، ولكن ماذا عسى يطلق أهل الحى على شخص يسير الهوينى، مقوس الظهر، متخاذل الساقين، تتدلى ذراعاه فى الفضاء، وتتذبذبان أمامه كبندول الساعة، ثم لا تنى[١] شفتاه عن الغمغمة بالتعاويذ؟

وليس رجب أفندى (بالأفندى) مطلقا، ولكن ماذا عسى يضيف أهل الزقاق من ألقاب التبجيل إلى اسم الرجل الوحيد بينهم، الذى يلبس البذلة والطربوش، ويشغل وظيفة فى الحكومة؟ حقا إنها بذلة صفراء ذات أزرار نحاسية، وحقا إنه لطربوش لو أخذ من حافته هذه المرة، بقدر ما أخذ منها المرة السابقة، لصار حتما لزاما -قبل إجراء العملية- أن يخترع له اسم آخر واستعمال آخر، وحقا إنها لوظيفة يجب أن نمسك عنها إلى حين، ولكن ماذا يهم؟ فهى بذلة وهو طربوش، وإنها لوظيفة، وإنه لرجب (أفندى).

هنالك فى أحد الدواوين تلقى العم رجب فى حركة دائمة من ذهاب وإياب[٢]، حتى لتحسب أن ظهره إنما أحدودب تحت المسئوليات الجبارة الملقاة على عاتقه[٣]، وهناك تسمع الأصوات تتعالى بندائه كأنه ولى من أولياء الله فى أفواه المجاذيب.

(عجباً ألهذا الطلل[٤] الخرب كل هذ الأهمية؟).

هذا ما يقوله بعضهم إعجابا بالرجل أو إشفاقا عليه.

---

(١) تنى: تكف

(٢) إياب: عودة ورجوع

(٣) عاتقه: كاهله وكتفيه

(٤).الطلل: الأثر

وكان على الحقيقة أن تتوارى حياء وخجلا حيال ذلك التساؤل، ولكن الحقيقة لا تعرف الجبن، بل تنكر المجاملة، فليس للعم رجب أية أهمية، اللهم إلا إذا كانت أهمية عكسية، فهم دائم المعاذير عن سهوه وإهماله، إنما همه منصرف إلى ما احتكره ومهر فيه.. فهو متسول المصلحة..

يبكر العم رجب إلى الرؤساء يؤدى لهم فرائض[1] الخضوع. وهو أمام الأول أقصر منه أمام الثانى، وهو أمامه أطول منه أمام الثالث، غير مكترث[2] لعدم اكتراثهم لهم، ولا متبرم لتبرمهم به، ثم يطوف بباقى الموظفين يعلن فيهم العلاوات والترقيات حسبما رأى فى أحلامه، غير أنه اختص كامل أفندى بما هو أفضل من ذلك، فى اعتقاده -وأسمى.

أنا قرأت لك سورة يس فى الفجر، لأن قراءتها فى هذا الوقت لها فوائد لاتحصى فأنا لا أنسى المعروف، (والجماعة) عندى فى البيت ما ينسوا فضلك علينا وإحسانك.

هذه الديباجة[3] المتشعبة هى تحية العم رجب لكامل أفندى، لايكاد يعفيه منها يوما أو يحدث فى نصها تحويرا، حتى أصبحت بين الموظفين فكاهة لاتنضب[4].

كامل أفندى فتى يشرف على الثلاثين، مليح، حسن القوام محبب إلى رفاقه؛ لظرفه وخفة روحه، ولأحاديثه الشيقة عن غرامياته ومغامراته، والعم رجب من أشد المعجبين به لا لشئ مما تقدم، بل لأنه أوسع الناس صدرا له، وأنداهم كفا[5] عليه. ولما كانت المادة لاتنعدم، فإن الشلنات وأنصاف الفرنكات تحولت إلى ثقة، أصبح الشاب بفضلها مستودع أسرار الشيخ، فكامل يعلم أن الزوجة الثانية للعم رجب -والتى تزوج منها منذ عهد قريب- فتاة من بنات هذا الجيل اسمها (توحيدة)، نشأت فى بيت أحد الأعيان، فأخذت عن (أسيادها) من الرفاهية ورقة المزاج الشئ الكثير، لذلك تراها تغضب لأى شئ، وتمط شفتيها لسبب أو لغير سبب، وإنها لنزقة[6] طائشة، تقفز هنا وهناك كالعصفور، فى الوقت الذى يجب عليها فيه أن تهدأ وتستكين.

- أمال بتعمل إزاى يا عم رجب؟

---

(١) فرائض: جمع فريضة أى واجب

(٢) مكترث: مهتم

(٣) ديباجة: مقدمة واستهلال

(٤) تنضب: تجف أو تنتهى

(٥) أنداهم كفا: كناية عن الكرم والجود

(٦) النزق: الطيش والخفة

هذا ما قاله كامل -وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى للعم رجب- وهو يعبس عبوسا ذا معنى أيضا، ثم لم يلبث هذا أن تقلصت شفتاه عن ابتسامة تدل فى وضوح إما عن الخبث المطلق، وإما عن الورع الصراح وقال:

- «وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم». ثم أدار ظهره وانصرف.

-٢-

وبعد، فما هو المعروف الذى لاينساه العم رجب، ولاتنساه (الجماعة)؟

حدث أن مرضا نجح فى أن يصيب هذا الرجل، وأن يلزمه فراشه، وطال به الأمد، فلما كان (أول الشهر) وتمول الموظفون، اتخذ كامل هيئة ذلك المسخ[١]، وراح يلم له الإعانات، وفى عصر اليوم ذهب يسوقها إليه، فمضى يجوب الحوارى والمنعطفات حتى انتهى إلى الدار المنشودة، فإذا طولها باب ونافذة، وارتفاعها باب ونافذة. اجتمعت ضوضاء النسوة الجالسات على الأعتاب المجاورة على أنه منزل العم رجب أفندى، وعززهم الصبية فى (ظئيط) هائل، فدخل الدار وصفق، فاستجابه صوت ذو موسيقية رخوة، كان لها فى الحقيقة مثل سريان النشوة فى جسده، وذكر اسمه فأزّ[٢] السقف تحت خطوات محدثته فى طريقها لإعلان مقدمه لرب البيت، ثم ما لبث أن آنس حركة إصلاح: من وقع منفضة، إلى حفيف مكنسة، إلى صرير باب يوصد[٣]..

ثم ساد السكون لحظة وإذا بصوت العم رجب عند رأس السلم يستصعده، ويكح، ويستنزل عليه البركة ويعطس، وكان فى طربوشه المكبوس، وشاربه المنفوش وجلبابه المحزوم، تحت إبطيه كبطل دمى الأراجوز. ووقف كامل -أخيرا- فيما هو صالة بحكم الواقع لا أكثر، وإلا فهو سرداب، يتبادر إلى الذهن أنه ممر إلى مكيدة[٤]، وكان العم رجب يكرر عبارات ترحيب مبالغا فيها، وفيما يتخللها من اللهث، وأدار كامل بصره بحركة خفية غير بادية التكلف إلى باب موصد عن يمينه، فلمح شطرا من وجه يطل من فرجة باب، فأيقن أنها توحيدة التى طالما سمع أخبارها، وود فى

---

(١) المسخ: الكائن المشوه الخلقة

(٢) أزّ: أحدث صوت الخشب القديم

(٣) يوصد: يغلق

(٤) مكيدة: خدعة خبيثة

شغف لو أن تسمح له الفرصة بمرآها، على أنه لم يتريث طويلا؛ إذ كان عليه أن يتبع رب الدار إلى الغرفة التى سبقه إليها، ودعاه إلى أن يشرفها بخطواته العزيزة، وما كادت تحتويهما الغرفة حتى نادى رب البيت يطلب القهوة، فسمعت فى الحال وسوسة الفناجين.

وكانت الغرفة التى دخلاها غرفة النوم، وردهة الاستقبال، ومكان الحمام فى وقت واحد، وهى فى منظرها عامة كمركب نوح، وفى جوها رائحة كثيفة من بخور وقذارة. ولم يكن كامل ليطيق المكث[1] فيها لحظة لولا أمله فى أن يرى ربة البيت، لذلك أذعن إلى إرادة العم رجب، فجلس على حافة السرير، أما رجب نفسه فاتخذ مكانه بين مختلف الآنيات الموضوعة فوق صندوق كبير، إلى نافذة مقفلة، وبعد أن كح وعطس وتأوه (وشركاؤهم)، أخذ يعتذر عن هذه الفوضى بفرط إهمال زوجته، ثم تفاصيل وتفاصيل وتحامل وتلفيق، كاد كامل يبدى من سماعها الملل، لولا نقرات نقرت على باب الغرفة أدرك فحواها رب الدار من فوره.

- تعالى هنا يعنى انت وش حيا أوى.

فدخلت توحيدة تحمل صينية القهوة، وبعد أن قدمتها وقفت تنتظر الفراغ، وانتهز الزوج هذه الفرصة للتمادى فى شكواه وإظهار رجولته، بيد أن الشاب لم يكترث البتة لتلك السخافات وذلك الهراء، إذ انحصرت مشاعره، وتركز اهتمامه فى هذا التكوين البديع الماثل أمامه، وأحس صدره يجيش، وأن دمه قد صعد إلى وجهه، حتى خشى أن يدرك الزوج هذا منه، فأبطأ فى احتساء القهوة، وجعل يعض شفتيه من حين إلى حين ضبطا لمشاعره، على أن توحيدة أدركت ذلك منه، وشعرت بنظراته إليها، فراحت تتقيها بإغضاء[2] يستهوى ويسحر، ثم تبتسم ابتساما خفيا.

ولكنها انصرفت آخر الأمر، فسهم الشاب مليا، ثم قام فقدم نصف المبلغ الذى جمعه إلى العم رجب، واحتجز النصف الآخر، لاطمعا ولاجشعا، بل ليشفع له فى عودة أخرى.

---

(١) المكث: البقاء والاستقرار فى المكان

(٢) بإغضاء: تغافل فيه خفر وخجل عذب

انصرف كامل وهو يحمد طالعه فى يومه، وكان يشعر بفرحة لامحدودة ولاواضحة، وهذا الإحساس بث فيه نشاطا بدنيا قل أن يشعر بمثله، فنهب جزءا من الطريق بسرعة عجب لها حين أدركها من نفسه، وكان أثناءها لايفكر فى شئ، ثم توافدت على ذهنه أفكار فجائية وفى غير اكتمال: ابتسامتها الخفية.. إغضاؤها الساحر.. كان يجب عليه أن يجاذبها الحديث.. تلك الخصلة من شعرها التى كانت تتدلى فى حرية فوق جبينها الناصع، إن رجبا هذا لأعمى البصيرة ولاشك، قدماها الصغيرتان اللتان لهما نصوع[1] بشرة الأطفال، وكان قلبه يخفق لتلك الخواطر. وبلغ المقهى الذى يرتاده فألقى[2] رفاقه يلعبون النرد على عادتهم، فاتخذ مكانه منهم، وبعد فترة صمت منه هم بأن يفضى إليهم بدخيلة نفسه، شأنه فى أشباه تلك الحال، على أن الكلام عصاه عند شفتيه، وأحس فجأة أن هذا الموضوع أدق من أن يذاع، فارتدت الكلمات إلى فؤاده بما يشبه الألم، وأراد الترويح عن نفسه فلاعب أحد الرفاق، فتى طالما انتصر عليه، وأوسعه تهكما وازدراء، ولكن كامل غلب وغلب، حتى صار فى ليلته هدف التهكم والشماتة من الجميع، وحاول بادئ الأمر أن يشاركهم مجونهم[3]، فخانته القريحة وذهبت عنه النكتة، وانضم هذا الخذلان إلى ما فى صدره من حرج. فلم تنقض السهرة إلا وهو فى كرب غير يسير.

فلما أوى إلى فراشه عاودته ذكرى فاتنته، على أن تفكيره آنئذ لم يكن بذى مرح أو بهجة، وإذا به يتصور مقدار النذالة فيما كان منه وفيما اعتزم، على أنه ما لبث أن قال لنفسه: إن هذا المسخ المهدم لأثيم، إنه لايميل إليها أقل الميل، وبديهى أنها تمقته وتود الخلاص منه، ولن تطول بها الأمانة الزوجية والحالة هذه، بل أن من التعسف على الفطرة أن مثل هذا الشباب الناضج، وهذا الجمال المكتمل، وتلك الروح المتشوقة إلى أن تنال أقصى ما تبيحه لها الحياة من لذة ومتاع، يطلب إليها -بأى حكم أو عرف- أن تذوى رويدا رويدا، فى وجار[4] هذا الكلب العجوز.

وإذا بصوت آخر من أعماق نفسه يهيب به: أن صه فما هو بكلب، وإنما هو زوج له حقوقه وحرمته، وإن كان قد أخطأ فعليه خطؤه، وليس لك أن تنفذ الموقف بهذه النذالة أيا كان عذرك. إن

---

(١) نصوع: إشراق ورواء

(٢) ألفى: وجد

(٣) مجون: مرح صاخب ولعب

(٤) وجار: جحر

ضآلته من ناحية، وحسن ظنه فيك من ناحية أخرى، ليشفعان له فى أن تتعفف عنه أنت على الأقل!

وراحت تلك الآراء وأشباهها تتكاثر وتتضارب فى رأسه حتى آدت ذهنه غير المعتاد على مثل هذا الإجهاد، وبدأت أفكاره تتخاذل وتتشعب، واختلط هذا الموضوع فى فكره بموضوع رفاقه، وكيف أنهم تحاملوا عليه فى ليله، وصار يستبين فى خياله ألعابا سها أو تجاوز عنها بلا مسوغ، فكانت نتيجتها أنه اندحر(١) أمام قرنه(٢) الضعيف التافه، بل جعل يعد فى ذهنه نكاتا يواجههم بها حين يلقاهم، ولكنه كان يشعر بأنها سقيمة وغير جديرة به، وهكذا بات أخا شجن، حتى أدركه النوم بعد الجهد الجهيد.

ودام هذا العراك فى نفسه أياما سجالا بين الإقدام والإحجام، وبين مناصرة عقله والميل إلى عواطفه، وكان يعجب لتلك الحالة النفسية التى لاعهد له بها، أو على الأقل بمثل تحرجها هذا؛ فطالما أقدم على مغامرات أعظم خطرا، وأبهظ مسئولية، إما بجأش رابط، وإما بالتهيب القليل، ثم استبان الرشد آخر الأمر، فعوّل على أن يدع رجبا وشأنه، وكان قد فكر فى أن يرسل ما فى ذمته له على يد فراش من إخوان الشيخ المريض، ولكنه رأى أن فى هذا مظهر ضعف أمام نفسه، وعزم على أن يذهب ليعود ظافرا بقوة إرادته.

ومضى فيما اعتزم، وقابلته توحيدة فى منتصف السلم، ولكن شد ما خفق فؤاده حين شد على يدها، وكانت حارة وكانت ترتعش، أما هو فتكلف الرصانة، واستفسرها فى عدم اهتمام متكلف عن حال المريض فأنهت إليه فى صوت خافت أن النوم غلبه منذ هنيهة فهو فى سبات عميق، على أنه قد شفى أو كاد، وأنه عائد إلى الديوان عما قليل. وعلى الرغم مما أحسه الفتى من تراخى عزمه، ومن ألم يحز فؤاده حين تبين حقا نهاية ذلك الحلم اللذيذ، إلا أنه نقدها المال فى تؤدة، وهم بالانصراف، ولكنه تبين آنئذ أن شفتيها تختلجان، وأن فى عينيها تلك النظرة الحائرة التى تنبئ بأنها تود أن تقول شيئا، شيئا يحرج صدرها، وكانت قد مدت يدها إلى يده الممدودة لمصافحتها، فاستبقاها بين راحتيه، ومهد لها الحديث بأن جعل ينصحها ويعدد محامد زوجها.

---

(١) اندحر: انهزم

(٢) قرنه: زميله ورفيقه

فاندفعت توحيدة تشكو مر الشكوى، وترد عن نفسها ما يعزوه إليها زوجها من طيش وإهمال ومفتريات[١] أخر، (إنه يعافها كزوجة لأنها ليست وفق مزاجه، ولايرعاها كابنة لأنها ليست من مشربه، أما التى تجمع بين هذين فهى أرملة مفرطة السمن، تبيع الحلوى للصبية نهارا، وتأوى إلى غرفة بأسفل البيت ليلا، فهى فى نظره الكل فى الكل والمثل الأعلى) .

وانتهت الشكوى بدموع، فتعزية، فقبلات..

-٤-

لم يبطئ العم رجب أن عاد إلى الديوان، فعز لقاء الحبيبين بل صار مستحيلا . ولكم هام الفتى فى الحى، وهام فى طرقاته الضيقة ومنعرجاته القذرة، ثم انثنى بالحسرة والهم الدفين، على أن العم رجب لم يدع له فرصة للسلوى، فهوو -كل يوم تقريبا- يذكر له توحيدة، وما صنعته وما لم تصنعه، فتتأجج فى صدر الفتى نار ذات لهيب، فيهيم[٢] على وجهه مرة أخرى مستنجدا بملائكة الرحمة وبأبالسة الجحيم، ولم يعلم هو نفسه أى هؤلاء رق لحاله ولبّى[٣] نداءه.

ففى الشارع العام أعلام تنصب، وزينات تضرب، تنتشر كالعدوى من دكان إلى دكان، ومن بيت إلى بيت، وفى كل يوم عنصر غريب يبدو ويتكاثر -عنصر الدراويش والمجاذيب- فمن ذى عمامة استفحل أمرها، إلى ذى (قاووق) قد تمادى طوله: هذا يقبض على سيف من خشب يسير فى رزانة ووقار، وذاك يلوح بصولجانه فى رعونة وجنون، ومن ذات أسمال تنوء بما عليها من سبح وتمائم، اتخذت لها من إحدى الزوايا محلا مختارا يقصدها فيه طلاب التبرك والزلفى، إلى ذات أثواب كقوس قزح (أخذتها الجلالة) . فهى أبدا ثائرة فائرة لايستقر لها قرار.

هذا مولد ولى الله فى الحى.

جعل العاشق الولهان يرتقب (الليلة الكبرى) فوافت، ونزح الأهلون من دورهم إلى المهرجان كبارهم وصغارهم -حتى الكثير من نسائهم- وقد سبقهم إليه (الشيخ رجب) ليعبث فى الولائم أكلا، ثم ليشنف السمع بآى الذكر الحكيم وبالمولد الشريف.

---

(١) مفتريات: أكاذيب مخترعة

(٢) يهيم: يتجول على غير هدى

(٣) لبى: استجاب

فانتهز كامل هذه الفرصة السانحة فتسلل إلى فاتنته، وذعرت توحيدة لتلك المفاجأة وتولاها الارتباك، ولكن رباطة جأشه، وتوسلاته المغرية خدرت أعصابها، وسرت عنها ما اعتراها رويداً رويدا، واستسلما للهوى والغواية..

وكان من المقدر ألا يعود الزوج قبل منتصف الليل على الأقل، ولكن التخمة أسرعت به قبل ذلك بكثير، وطرق باب المنزل مرارا وتكرارا، ثم أخذ يصعد السلم فى تثاقل ويتأوه، فخرجت إليه الزوجة تدعوه إلى الغرفة بحذر لم يعتده منها.. فدخل، فرأى بعينيه الضعيفتين -وعلى ضوء المصباح الخافت المحمر- امرأة فى شملة سوداء، وطرحة بيضاء، جالسة على السرير، فاستفسر الخبر فى دهشة، فأنهت إليه الزوجة أن الزائرة ولية من أولياء الله كثيرة التردد على بيت أسيادها الذى نشأت فيه، وأحبت أن تزور (المولد)، فنزلت ضيفة عليهم، وأن هذا لحميد منها وبركة ورضوان، فما كان من الزوج إلا أن ألقى السلام على ولية الله فيما يليق بالمقام من ورع وخشوع.

فابتدرته توحيدة تقول بصوت خافت (خرسا. خرسا) وأردفت ذلك بشرح مستفيض مفاده أن (أهل الباطن) حبوا زائرتهم بالعلم الكثير، ثم خافوا أن تبوح به، فعقدوا لسانها عقدة لا تحل، فازداد الشيخ رجب خشوعا أمام المرأة ذات الأسرار، وطلب إليها بصوت مرتجف أن تباركه، فهزت ذات الأسرار رأسها مرارا لتبدى رضاها، وأحس رب الدار بالهناء العظيم.

وقالت توحيدة آخر الأمر (دى راح تبات سواد الليل علشان فى الفجر لازم تصلى جنب المقام).

وجلس الشيخ رجب على الصندوق الكبير الموضوع إلى جانب النافذة، وراح يكرر عبارات التحية والمجاملة لولية الله دون أن ينتظر جوابا غير هزة من رأسها، أو حركة من يدها إلى السماء، وتوحيدة واقفة إلى جانب السرير، تشعر تارة بأن دمها يبرد فى عروقها إلى درجة التجمد، وتارة يصل إلى درجة الغليان، وكان بدنها يقشعر، وفرائصها ترتجف، ولكن شكرا لخفوت النور فى كل من المصباح وعينى الزوج. ثم أرادت أن تضع حدا لهذا الموقف الحرج، ولكنها كانت تشعر بأن ما ستفوه به دقيق وخليق بأن يستثير الريبة فى نفس زوجها، فترددت وتبادلت نظرات خفية مع ذات الأسرار، ثم قالت بعد حين وقلبها يكاد ينفجر من شدة الخفقان.

- اعمل معروف يا أفندى تنام فى الأودة الثانية.

وأرادت أن تعلل طلبها بسبب معقول أو غير معقول، فاختلجت شفتاها ولم تتكلم، وكان الزوج ساهما من فرط التخمة حتى لكأنه لم يسمع ما قالته، على أنه بعد فترة صمت كثيف نهض يجيب طلبها، ثم لثم يد ولية الله وطلب إليها ملحفا أن تذكره بدعوة صالحة فى صلاتها غدا.. وانصرف.

وما هى إلا هنيهة حتى أقبل غطيطه يسعى.

وفى الصباح تقدم العم رجب إلى كامل أفندى وهو يقول:

أنا قرأت لك سورة يس فى الفجر لأنى لا أنسى المعروف، والجماعة عندى فى البيت ما ينسوا فضلك ومعروفك أبداً!!

فأطرق الفتى رغم إرادته، واصطبغ وجهه بلون الخجل.

الشبح الماثل فى المرآة

-١-

عندما نلت الشهادة الثانوية من مدرسة طنطا عزمت على أن ألتحق بالقسم الأدبى من مدرسة المعلمين العليا، وكان والدى رئيس مكتب التلغراف فى مدينة طنطا وقتئذ، فهناك إذن كان مركز الأسرة ومصالحها، لذلك جئت القاهرة وحدى، فاتخذت عيشة مشتركة مع بعض الطلبة لم ألبث أن عفتها، لما فيها من (البوهيمية) وتعارض المنازع، وصممت على أن أعيش وحدى.

ووفقت بعد البحث إلى مسكن شعرت لأول وهلة أنه ضالتى[1]: غرفتان وصالة يكون مجموعهما وحدة معتكفة من منزل فى صدر حارة قصيرة مسدودة بشارع الحلمية، والمنزل من الطراز القديم له بوابة ضخمة وفناء رحب، وبه سلّمان واسعان، أحدهما يواجه الداخل، يؤدى إلى مساكن لم يكن يهمنى أمرها أكثر من أن صاحبة المنزل تقيم فى إحداها، وثانيهما إلى اليمين يؤدى إلى مسكنى ومسكن يقابله، علمت أنه لرجل يعيش فيه وحده. وكانت غرفى نظيفة فسيحة، ولم تكن تطل لا على الحارة ولا على الفناء، بل على صحن جامع قائم خلف المنزل.

أخلدت[2] إلى مسكنى الجديد، وجعلت نظامى أن أعود من المدرسة فأستريح، ثم أخرج إلى أصدقائى. وفيما بين الثامنة والتاسعة مساء أبدأ مذاكرة دروسى، أو مطالعتى الخاصة إلى الحادية عشرة، وكثيرا ما كان يلذ لى بعدها أن أتمشى فى ميدان القلعة وما يجاوره حتى أستشعر النوم، وفى ليالى الجمعة أذهب إلى السينما أو التمثيل أو إلى أى ملهى آخر تتيحه لى الظروف.

ولم أحدث أية علاقة بأى من جيرانى، وكل ما كان بينى وبينهم تحية ألقيها أو أردها، كلما صادفت أحداً فى غدواتى وروحاتى، وعلى مضى الوقت رأيت جيرانى أجمعين إلا واحدا هو ذلك الذى يعيش قبالتى، وأقرب ما يكون إلى، ومضت أسابيع وأسابيع لم أسمع من ناحيته صوتا ولم آنس ضوءا، فأثار ذلك فضولى.

---

(١) ضالتى: ما أبحث عنه

(٢) أخلدت: طاب لى المقام والاستقرار

من ذا يكون؟ وأى حياة يحيا؟.. وأسئلة شتى جعلت تقفز إلى رأسى وراح الفضول يستفحل عندى يوما بعد يوم، حتى لم أتمالك أن شرعت أترقب وأسمع من نافذة لى تواجه نافذة له، وكانت نفسى تهيب بى: أى حق لك فى أن تسرق من إنسان سر حياته؟ إنها لجرأة خاطئة، ولكنى كنت ابتسم وأقول: هو ذلك إذا كانت هنالك نية سوء، ونية السوء ليست عندى البتة، فالأمر إذن تسلية محضة.. وثم رأيت ظلا يتحرك فى فترات متراميـة من وراء الشيش والزجاج المترب -لانبأة ولاوضوح- كأنه شبح، وعكفت أياما على رصده، وما من فائدة أكثر من الشبح خلف الزجاج.

وأخيرا لعبت المصادفة معى دورها الذى تلعبه مع كثير من ذوى الغايات الشاردة، ففى ذات ليلة عدتُ من رياضتى بعد المذاكرة، وبينما أنا أصعد السلم وكنت أفعل ذلك فى بطء وتثاقل لما نالنى من التعب -سمعت وقع أقدام خلفى، كان متوسط السرعة، ثم ازداد بطئا، وبقيت على ما أنا عليه من تثاقل، فما لبث الصاعد أن أسرع، فلما أدركنى لفظ سلاما أجش، غمغمه بين ماضغيه، فرددت باقتضاب وخفوت، وتقدمنى فرأيته -على ضوء القمر المبعثر على السلم وحوائطه- طويل القامة، كث اللحية، وعلى عينيه منظار أسود، وكذلك كانت بذلته.

ثم أغلق الباب خلفه. هذا هو جارى..

-٢-

كان يجب أن أرتاح إلى الفوز الذى ساقه لى القدر، ولكن ضيقا أخذ يتمشى فى فؤادى إذ شعرت بروح الإهانة فيما كان من الرجل، إنه تريث عندما أحس بوجودى، فهو إذن حاول أن يتحاشى لقائى، فلما تبين أننى لبثت على إبطائى أسرع ليمر بى فى أقصر وقت ممكن، ثم سلامه الأجش المقتضب، لقد كان أقرب إلى السب منه إلى التحية، إن سلوكه يدل على أنه عاملنى معاملة رجل متغطرس لطالب لا قيمة له.

هاجسة[1] صبيانية، ولكنها ضايقتنى آنئذ وأرقتنى. إذ كنت فى ذلك الوقت شديد الاعتزاز بنفسى، والاعتداد بها، لوفرة ما كنت أقرأ من البحوث الفلسفية ومن سير العظماء. وكانت حداثة سنى تغرينى أبدا بأننى على اتصال روحى بهم، بل على مقربة حقيقية منهم.. ولم أنم ليلتى قبلما عزمت على أن أعمل على لقائه مرة أخرى، فأريه أننى لست تافها بقدر ما يتوهم.

---

(١) هاجسة: خاطرة

وباشرت من غدى تنفيذ ما اعتزمت، فضاعفت الرقابة وضحيت فيها بكثير من راحتى ونظام حياتى، فجعلت أصحو أكثر تبكيرا مما اعتدت فلعل الرجل ممن يخرجون إلى أعمالهم فى البكور فلم أوفق للقائه، فأضفت إلى التبكير أن كنت من يوم إلى آخر أرجئ رياضة العصر إلى وقت الغروب، عساى أصادفه عائدا من عمله فأخفقت[1] أيضا، وهذا الإخفاق المضاعف ضاعف عندى غرابة أمر الرجل، وأضاف إلى حنقى[2] عليه شدة دهشتى له، وصدق عزمى فى الوقوف على حقيقته، فبكرت صبحا، ولبثت عصرا، وأطلت تسكعى بعد المذاكرة إلى أوقات متأخرة من الليل، والنتيجة واحدة.

هنا جزمت بأن الرجل لاعمل له، وأنه لايغادر مسكنه، وإذا غادره أو عاد إليه فذلك فى أوقات من الليل غير مألوفة ولامعروفة -حال عجب- ولكنها لم تيئسنى، وكنت أثناء تربصى[3] وانتظارى أرسم لنفسى حركات الاحتقار التى أقابله بها، وقوارس[4] الكلمات التى ألدغه بها وقت الحاجة.. وثابرت حتى تم لى ما أردت.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. وهذا مقبل بلحيته ومنظاره، عند ذلك انتابنى ارتباك عجيب له، وقلت لنفسى فى ضجر وبصوت مسموع: ما هذا الضعف الصبيانى؟ وطفقت أغالب ذلك الشعور المفاجئ، وغادرت مدخل الحارة -حيث كنت- وتسللت إلى الشارع لأعطى لقاءنا روح المصادفة.

ولكن الذى يحارب الشيطان يكسر سيفه فى الهواء، فأنا الحانق المتحفز أجدنى بعد هنيهة واقفا أمام غريمى موقف القزم من العملاق.. متلعثما أحرك رأسى فى كل اتجاه حذار أن تقع عيناى على وجهه.. وأضغط على ساقى الواحد بعد الآخر إذ كنت أشعر بتخاذل فيهما، وبرودة فى أطرافهما، وقد هرب عنى كل ما دبرته من القول المر، وما رسمته من حركات الازدراء، وإذا بى أحدثه عن أبى، وعن مركز التلغراف فى طنطا، وأصدقائى الذين كنت أساكنهم، وكميات أخرى من السخف، كنت أشعر بأنى أقولها مكرها، أو مدفوعا بشعور غريب هو مزيج من الرهبة والخوف،

---

(١) أخفق: فشل

(٢) حنق: غيظ

(٣) تربص: انتظار مشحون بالتوتر والتقصد

(٤) قارس: حاد جمع قوارس

وكنت أعالج الاختصار، ولكن لسانى -كأية جارحة منى- لم يكن تحت إرادة حازمة.. والرجل مشرف علىّ كالطود ينصت ويبتسم.

«أى هزيمة مزرية»؟ هذا ما قلته لنفسى حين وقفت جامدا مشدوها وسط غرفة نومى، وكنت كلما لج[1] بى التفكير فى أننى سحقت كبريائى، وحطمت اعتدادى بنفسى، لدغتنى الحسرة، وألهبت مخى الحيرة، وضغط الهم على صدرى حتى كَلت أعصابى، كما لو كنت قضيت اليوم فى عمل شاق..

وعلى رغم اهتياج أفكارى واضطراب مشاعرى تبينت صوتا يهمس إلى ضميرى (هل حقا كانت ثمة هزيمة؟ أو أننى رجعت مختارا إلى ما هو أصوب، إذ لم أجد ما توهمت فى الرجل من احتقار لى أو عداء؟)، وطغى الصخب بادئ الأمر على هذه النغمة الوليدة، على أنها لم تمت بل أخذت تقوى، حتى تمشى رنينها إلى عقلى فأصغى إليها.

لماذا لا أكون مخطئا فى ثورتى؟ لقد خلقت جوا كثيفا من سوء الظن، ونصبت فيه من إنسان لا أعرفه أهاننى أولا، وهزمنى آخرا، وهأنذا أصلى[2] من هوسى ما أصلى.

وطالت حيرتى على غير إقناع، فنفضتها عنى بأن عفوت عما مضى، وقررت ألا أتدخل فى أمر الرجل بتاتا.

ومضت إرادتى فيما اعتزمته إلى مدى بعيد.. إلى أن كان يوم ذهبت فيه إلى ماتينيه السينما، وفيما أنا عائد إلى منزلى وقد وصلت إلى شارع الحلمية أبصرت جارى خارجا من الحارة فانزويت تفاديا للقائه، وشيعته ببصرى حتى عرج على شارع محمد على فاختفى، وهممت بأن أتابع سيرى، ولكن عقلى كان يعمل كآلة فى أقصى سرعتها.. وكانت الساعة العاشرة والبرد قارس (فقد كنا وقتئذ فى أوائل فبراير والشتاء فى أشده) والناس يعودون إلى دورهم فى هذه الساعة بدلا من أن يغادروها. فإلى أين يذهب؟ وعصفت بى رغبة اللحاق به، ولم أتردد، فأبصرته عن بعد وقد تنكب[3] الشارع إلى طريق مظلم موحش، فتبعته من حيث لا أدرى، وكان إذ ذاك يسير الهوينى، فلما انتهت به الطريق مال إلى غيره أشد ظلاما وأكثر وحشة، وأنا فى أثره حتى كدت أمل،

(١) لجّ: تمادى فى العناد

(٢) يصلى: يعانى العذاب الحارق

(٣) تنكب: تجنب

ولاحظته على هذا الحال حتى لاح ضوء شارع رئيسى، فأسرع وتوارى فى جوف حانة حقيرة مستطيلة كالسرداب يضيئها مصباح بترول قديم، ذى مظلة من الصاج واسعة، وليس فى الحانة سوى صاحبها يهوم على البنك.

-٣-

وعلى الرغم من حقارة المكان والجو الغامض الذى يشمله، وعلى الرغم من سوء الظن الكمين فى نفسى لهذا الرجل، لم أشعر إلا بالرغبة الشديدة فى أن أدخل عليه عرينه[1]، لأرى للمرة الأخيرة أى مخلوق هو، واستقر رأيى على تنفيذ رغبتى.

دخلت الحانة متظاهرا بأننى أطلب ماء، والتقت الوجوه، ولم يخف علىّ ما انتابه من الدهشة والارتباك المفاجئ، وما حاوله من الإغضاء تظاهرا منه بعدم رؤيتى، ولم أكترث، وتقدمت إليه بغير تكلف وصافحته، ودعانى للجلوس ولكن بفتور وملل مكبوت، فلم أكترث أيضا وأجبت دعوته متصنعا سرورا وساذجا «للصدفة السعيدة التى جمعتنى وإياه» وهو واجم لايتكلم، ثم نقر بملعقة صغيرة على الطاولة الخشبية التى نجلس إليها، فأقبل صاحب الحانة -يونانى أصلع بدين متهدم- فأشار له بالأداة السالفة الذكر إلى الكأس الفارغة التى أمامه ثم أشار إلىّ، وفهمت مراده فاعتذرت عن تناول أى شئ، وأخذ اليونانى الكأس وأطباق (المزة) ليأتى بغيرها، وفى هذه الأثناء اخترعت صديقا لى ذهب معى إلى السينما، ثم إن المناقشة فى موضوع الرواية التى شاهدناها تشعبت بينى وبين هذا الصديق، إلى أن أوصلته إلى منزله القريب من هذه الناحية.. فابتسم الرجل كأنما يقول: «إنك لصبى ساذج».

ولم أدر بعد ذلك ماذا أقول.. وسادت فترة صمت شغلها اليونانى بوضع الكأس وصف الأطباق الجدد على الطاولة، وعند ذلك قال لى الرجل: ألا تشرب الخمر أصلا؟

وكان لهذه الجملة فى أذنى ونفسى وقع خاص لأنها أول جملة كاملة سمعتها منه فأجبته من فورى:

- كلا... وهذا مبدئى.

---

(١) العرين: هو بيت الأسد

ثم أحسست بما فى جوابى من القسوة أو الخشونة، فأسرعت إلى تلطيفه فقلت كمن يعتذر:

«أقصد أنى لم أعتد الشراب لاسيما وأننى لم أتجاوز التاسعة عشرة فـ..»

وشعرت مرة أخرى أن الإشارة إلى سنى أمر صبيانى فتريثت لكى أتم كلامى دون تورط آخر، ولم ينتظر الرجل ما عساى أن أقول فهز رأسه وقال: «مفهوم» واجترع نصف ما فى الكأس.. وظننت إذ ذاك أنه سيكون لنا من الخمر والمبدأ موضوع الحديث، ولكن خاب ظنى فقد عاد الرجل إلى صمته وجموده، والابتسامة الغامضة تلعب على شفتيه، وكنت أشعر بأن روحه تلعننى وتطردنى عنه.

وكان لابد لى أن أنقذ الموقف، فلم أعثر على مجال أنسب للكلام من أن أسرد موضوع القصة التى شاهدتها، وطاف بى ميل خبيث إلى سرد تلك القصة بنوع خاص، لأنها كانت تصور وقع الجريمة فى نفس المجرم، لعل الرجل يكون من ذلك النوع، فيكون حديثى هجوما عليه مفاجئا وغير ظاهر التعمد، فقلت:

- إن الرواية التى شاهدتها مسلية جدا.

فرفع الرجل إلىّ بصره ثم اجترع[1] ما بقى من الكأس، واستطردت فقلت: إنها عن سكرتير شاب فى معمل الكحول، أحب امرأة سيده إلى حد أنها أصبحت حلم يقظته ونومه، ولكن لا سبيل إلى أن يبوح لها بحبه، فهى تحب زوجها من كل قلبها، واستبدت بالفتى فكرة الاستحواذ على مالكة لبه.

وحدث أن سيده دعاه مرة إلى أن يرافقه وزوجته فى رحلة صيد حددوا لها موعدا، فخطرت للفتى من فوره فكرة شيطانية، فعمد إلى جماعة من القتلة، ودبر معهم مؤامرة ترمى إلى أن يدهموا الزوجين، ويدهموه معهما أثناء الصيد، ولكنهم لايقتلون إلا الزوج، ثم يطاردهم هو مطاردة عنيفة تكون نتيجتها أن يلوذوا بالفرار، ويرجع الشاب إلى الزوجة فى مظهر البطل الذى خانه الحظ فيما أراد.

وتمت المؤامرة وحزنت الزوجة على زوجها حزنا شديدا، وفى الوقت نفسه اقتنعت بإخلاص السكرتير فأبقته مديرا للعمل، فلما خلا الجو جعل الفتى يتودد إلى مالكة فؤاده إلى أن كاشفها يوما بسره فتنكرت له كل التنكر، وأمرته أن يترك العمل فى مدى شهر.

---

(١) اجترع: شرب جرعة كبيرة

هذا اليأس، ثم الجريمة التى اقترفها أورثتاه الخبال، وتزايد اختلاط عقله يوما بعد يوم، حتى صار كلما نظر إلى المرآة يبصر صورته بل يبصر خيال سيده القتيل.

وذات يوم تقدم إلى المرآة عمدا، فلما ظهر له الشبح أطلق عليه مسدسه فلم يتحطم غير الزجاج، وعلى أثر ذلك جن الفتى جنونا مطلقا.

وكنت أتفرس فى وجه الرجل أثناء حديثى، وكنت أتوقع منه أن يلقى علىّ أثناء الحكاية سؤالا أو استفسارا عن بعض مواطن القصة، شأن من يريد -على الأقل- أن يجامل محدثه، على أن شيئا من ذلك لم يحدث، وكل ما تبينته أنه تشاغل عنى فى البداية ثم استرعت القصة سمعه، فكان اهتمامه يتزايد كلما اقتربت من النهاية، وكنت واثقا من أنه سيظهر إعجابه بها، وشد ما كانت دهشتى عندما رأيته قد هز أكتافه فى عدم اكتراث فآلمنى ذلك، وزاد من ألمى وحرج مركزى ما أعقب سكوتى من سكوت مطلق، واستمرار ابتسامة الرجل التى تغمرنى ضآلة، وخفت ما عساه يبدر منى فاعتذرت عن مضايقتى له وانصرفت، وسمعته وأنا عند الباب يدق الطاولة بحدة، ورأيت اليونانى يسرع إليه.

-٤-

ومضى نحو أسبوع لم أقابله أثناءه، وفى ليلة كنت إلى مكتبى أذاكر، وكانت الساعة العاشرة تقريبا، وفيما أنا كذلك إذ سمعت نقرات خفيفة على باب مسكنى فدهشت لها؛ إذ لم أعتد أن يزورنى أحد فى مثل ذلك الوقت، وزادت دهشتى حين فتحت الباب فإذا بى وجها لوجه مع جارى بقامته المديدة ولحيته ومنظاره، وكان أكثر اصفرارا مما أعهد، ولم يترك لى فرصة لتحيته بل أسرع يقول:

- إننى أزعجتك ولاشك..

وبعد أن انتهيت من مجاملة صغيرة تمتمت بها ألفيته وسط الصالة، فأغلقت الباب وتقدمته فى وجل إلى مكتبى، وبغير ما كلفة تناول مقعدا ليجلس إلى جانب المكتب ثم قال كمن يعتذر:

- خُيل إلى أنك استأت منى ليلة.. تقابلنا فى الحانة، ولذلك.. جئت..

وكانت المشاعر المختلفة التى تملكتنى منذ دخوله أمسكت لسانى، ولكننى فى تلك اللحظة أمكننى أن أبادر فأقول:

أبدا. أبدا بل أنا الذى كان يجب علىّ أن أستميحك، لأنى فى الحقيقة.. طبعا.. تطفلت على وحدتك وهدوئك.

– بالعكس.. إنك واهم.

– على كل حال المسألة بسيطة.

وأعقب ذلك سكوت كنت أفكر أثناءه فيما أصنع لو أن هذا الرجل أراد بى سوءا، إذ كنت فى خوف منه غير يسير.. على أننى قطعت الصمت بالعبارة المألوفة:

– ما رأيك فى هذا البرد الشديد..

فكان جوابه بعد إطراقة قصيرة:

– ولكن هذه القصة التى حكيتها لى أى مغزى ترمى إليه؟

قال ذلك ولهجته وتقاسيم وجهه تدلان على الامتعاض.

فأخذتنى الدهشة لذلك ولكنى تضاحكت وقلت:

– ألا تزال تذكر هذه القصة؟

وأحسست بأن جو الغرفة على اتساعها صار كثيفا غير محتمل، وحاولت فى جلستى وحركاتى أن أظهر له أننى لا آبه[١] به، أو أننى –على الأقل– أعامله بكل بساطة، وأما هو فردد الجزء الثانى من سؤاله السابق وهو يعتدل فى جلسته ويضع رجلا على رجل. فقلت:

– إنها، على ما أظن، ترمى.. نعم.. ترمى.. إلى عذاب الضمير، فقطب حاجبيه لجوابى وقال:

– عذاب الضمير؟ ولم لا تكون من تلفيقات السينماتوغراف التى يقصد بها الإزعاج.. أقصد استثارة مشاعر المتفرجين.. لا أكثر..

فلم أشأ أن أعارضه، وأحسست بأن الرجل يتأهب للهجوم علىّ، فقلت فى ملاطفة:

– قد يكون ما تقول.. فإن روايات السينما..

---

(١) آبه: أهتم

فقاطعني بقوله:

- حتى لو كانت ترمى إلى عذاب الضمير.. فهى أيضا سخافة أعنى.. ألا ترى..

- لست أفهم ما تقول..

- أقصد أنه من السخف أن تبث فى الناس هذا.. (وحك جبهته بحركة عصبية) هذا النوع من الضعف.. طبعا هذا ضعف..

وكان من حدته واستعماله ضمير المخاطب أنى خلت أنه يحملنى شخصيا تبعة هذا الخطأ.. وأن ما قلته إذ ذاك لتافه بالنسبة إلى تلك الفلسفة المتشائمة المتهدجة التى استرسل فيها، والتى ما زلت أحفظ منها هذه العبارة (إن الناس يحضون على الخير ويروجونه لأنه ضعيف وطارئ على النفس البشرية، وإنهم ليحاربون الشر لأنه فى دمهم من عهد قابيل ولأنه قوى وله الغلبة دائما..) وقطع كلامه فجأة إذ سمع ساعة المسجد القريب تدق وقال:

- كم الساعة الآن..؟ الحادية عشرة؟

- بل الثانية عشرة.

فنهض فجأة وهو يقول: أوه كنت أظنها الحادية عشرة على الأكثر، على كل حال.. لقد تمادينا، وقد أضعت ساعة من وقتك، إنما جئت لأبعد عنك أى سوء ظن يكون قد علق بذهنك من ناحيتى، ولا تؤاخذنى على أننى زرتك فى هذا الوقت غير المناسب، وعندما وصل إلى الباب الخارجى قال كمن تذكر شيئا فجأة:

- يجب أن تكون قوى العزيمة، إن ضعف النفس أكبر مصيبة تحل بالإنسان..

وانصرف ولكنه خلف جوا من الدهشة والهواجس..

-٥-

وبعد، فكم من أشياء يأتيها المرء اعتباطا فتؤدى إلى نتائج غير منتظرة، أو بمعنى أخص من كان يخطر بباله أننى فى كل ما أتيته مع جارى هذا كنت مقودا بخيوط خفية، ومسخرا لغاية يرمى إليها القدر..

إن الرجل -منذ ليلة الحانة- قد تبدلت شخصيته بنقيضها، فزيارته لي، وخروجه أثناءها من الجمود والصمت إلى التهدج والإسراف في القول، لم تكن إلا الخطوة الأولى نحو ما هو أشد غموضا وأدهى، فقد بات الرجل يتربص للقائي، فإذا ما لقيني عاود الكلام عن قصة السكرتير، وشبح سيده الماثل في المرآة، وعن ضعف نفسية بطلها، ذلك الضعف الذي أودى بحياته، وينساب من ذلك إلى خطرات كهواجس المحموم يكثر فيها من تحريك يديه، وتقلص وجهه، وحك يافوخه.

وأحياناً كان يرجوني رجاء، أو يعنفني تعنيفا، في سبيل أن أوافقه على ما يراه في القصة من تهويل ملفق على الطبيعة، حتى قال لي يوما وهو يهزني من كتفي هزا غير هين، وعيناه تلمعان لمعانا شديدا خلف منظاره الأسود: إن من المخزي(١) أن شاباً مثلك، مهذبا، مثقفا.. يعتقد أن.. أن شبحا يمكن أن يظهر في المرآة.. وبلغ بي الخوف والذهول من هزه إياي أن صحت في وجهه بأنه مجنون.. وهممت بضربه، ولكن كان منظره في هذه الأثناء محزنا، ولهذا سرعان ما ارتدت مشاعري حياله إشفاقا ودهشة مطلقة.

وأخيرا جاءت ليلة الفزع الكبرى، وأذكر أنها كانت ليلة جمعة، وكنت عائدا من حفلة غناء والساعة الثانية بعد منتصف الليل أو تزيد، وتبينت وأنا أصعد السلم أن باب جاري مفتوح ومسكنه مضاء بنور مريض، وتلك أول مرة رأيت فيها هذا المنظر، فلما بلغت بابي حانت مني التفاتة، فإذا الرجل جالس على أولى درجات السلم التي تؤدي إلى سطح الدار، وكان رأسه عاريا مسندا إلى كفيه، وهو لا شك غائب من حسه، فهو لم يشعر بي حين دخلت مسكني، وقد فعلت ذلك بحذر وخوف شديد خشية يقظته وما يتبعها، ولبثت في فراشي أفكر فيما رأيت، وقد انتابتني الهواجس، وقمت مرة لأستوثق من إحكام قفل الباب الخارجي؛ إذ خُيل إلي أني سمعت الرجل يعالج فتحه، ومضت مدة لم أعرف أثناءها هل نمت حقا أم أنا لا أزال يقظا، وكنت وقتئذ أشد مني حيرة في أي وقت آخر، حيال ما انتاب هذا الرجل من خبال، وكنت أرتعد حين يمر بخاطري أن قصتي هي التي فعلت ذلك به، على أنني رحت أعزو انفعالاته إلى إدمانه. وأنه من أولئك الذين ينتحرون بالكحول تدريجيا. وقبل أن أستغرق في النوم سمعت نقرات على الباب وكأنها وقعت على مجمع الأعصاب، فسرى كياني مثل مس الكهرباء، وبردت أطرافي، واستحال النقر طرقا عنيفا.

---

(١) المخزي: المشين المخجل

وبينما أنا واجف محملق العينين أديرهما عبثا فيما حولى انقطع الطرق مليا، فأطللت من ثقب المفتاح فإذا بالرجل قد دخل مسكنه وهو يهمهم كالمحموم ولبثت جامداً خلف الباب الموصد، ويدى على المزلاج[1]، ولم أدرِ كم من الوقت بقيت على هذه الحال، فقد كنت أقرب إلى الذهول، ولكنى رجعت إلى حسى فجأة إذ سمعت صوتا عظيما لزجاج قد تهشم أعقبته صرخة هائلة فاستيقظ أهل المنزل جميعا، وتسارعوا فى هلع يتساءلون، وإذا جارى قد حطم مرآته وقذف بنفسه من النافذة.

(١) المزلاج: ما يقفل به الباب من ترابيس وأقفال

حديث القرية

دعاني صديقي إلى أن أزور قريته معه لنقضي يوم الجمعة في أحضان الريف وليقضي بعض مصالحه، فذهبنا، وثم لقينا نضرة وسرورا ولكن تلك النظرة التي تفتن ابن المدينة في لانهائية الريف، وذلك السرور الذي يغمر كيانه ووجدانه حين يرى الطبيعة تتهلل له أيان ولي وجهه، كانا مشوبين عندي بالرثاء للفلاحين أنصاف العرايا، وهم مكبون على الأرض يعملون فيها الفئوس أو المناجل، مكدودين[1] يتصببون عرقا في أوار[2] القيظ، وللفلاحات القابعات في ذلة لدى الأكواخ المتخذة من الطين والبوص، وكنا إذا سرنا في الطرقات الضيقة الملتوية فأشرفنا عليهن تداخلن بعضهن في بعض، وتحجبن عنا بخرق بوال[3]، حملت من تراب الأرض بقدر ما تحمل الأرض، والأولاد الصغار أنصاف عرايا كآبائهم، قذرون كأمهاتهم، يرتعون مع المعز والفراخ في تلك العراجين[4]، وفوق أكوام التراب، أو حول البركة الآسنة[5] المجاورة..

جعلت أبث ألمي لصديقي فإذا به لايشعر شعوري، بل شرع يبرهن لي على أن هذه أليق معيشة بأولئك القوم، وأنهم أنفسهم لايرون فيها ضنكا[6]، ويدلل بتجاريبه على أن مظهرهم الفطري يستر غدر الذئاب، ومكر الثعالب، ثم انثنى يتهكم بشاعريتي وطفولة إحساسي..

فلما أقبل المساء وأفاض الشفق على المزارع جلاله الحزين الرزين غلبتني شاعريتي -على حد قول صديقي- وتحرج صدري، وكنا ندرج في ممر مترب بين شجيرات الذرة، والظلمة تتكاثف، والسكون يشملنا ويشمل المحيط، لا ينفث فيه الحياة بين الآن والآن إلا وقع حوافر الثيران العائدة بطيئة متراخية، وإلا تحيات الفلاحين يبتدروننا بها في صوت المستنيم، وهم يجرون أجسامهم جرا، وكنا صامتين، وكنت أفكر في أولئك الذين يمرون بنا..

---

(١) مكدود: متعب مجهد

(٢) أوار: لهيب الحرّ

(٣) بوال: جمع بالية أي قديمة مهترئة

(٤) العراجين: الحواري الضيقة الملتوية

(٥) آسنة: راكدة

(٦) ضنك: عسر وشدة

أى حديث سار يستقبلون به زوجاتهم أو تستقبلهم زوجاتهم به؟ وهل حقا إنهم لايرون ما فى حالهم من ضنك؟ وإذن فمن أين تصدر سعادتهم ومن أين يتلمسون العزاء..؟

ولم أستطع أن أجد هداى[1]، ولم أشأ أن أستهدى صديقى، وكان طريقنا إلى المصلى، فبلغناها وقد اختفى الشفق وساد الظلام، والمصلى فسحة من جسر الترعة فيها حصير مفروش، ولها إطار من الطوب يرتفع إلى نصف أظهر الجالسين، يجتمع فيه من يشاء من أهل القرية، يصلون ويقضون شطر ليلهم فى سمر، فقاموا لتحيتنا، ولم يجلسوا حتى أشرنا لهم بذلك، وبعد أن ألقى صديقى على شخص يعنيه بعض أوامر وأسئلة خاصة بعمله ساد الوجوم[2]، لا يقطعه غير عبارات الترحيب بنا، فهمست إلى صديقى بأننا قد نكون قطعنا عليهم حديثهم، فأجاب بالإنجليزية (وماذا عساهم يقولون؟). ثم اقترح أحدهم أن يرسل فى طلب (الشيخ محسن) وخف رسول بذلك، ثم علمنا أن المرسل فى طلبه هو مأذون القرية، وخير من يستطيع أن يحادث أمثالنا، ثم صمت الجميع، حتى جاء المنتظر، يتقدمه الرسول وفى يده فانوس، الفانوس فيه مصباح، والمصباح فيه بصيص[3] من النور تتبين به أن الشيخ قد قص الشارب وعفا عن اللحية، وعمامته حمراء، وجبته ... كانت حمراء.

والشيخ قد علم ولاشك بما استدعى من أجله، فما استقر به المكان وتم التعارف، حتى اندفع فى كلام طويل عريض، بدأه بأنه كان مع حضرة العمدة وسعادة مندوب الحكومة، ينير لهم طريق التحقيق فى قضية (عبد السميع)، وتوسطه بأنه حضر على أئمة الأزهر أعواما، وختمه بأن محمد على باشا أنشأ مصنعا للبفتة، ثم اهتز فى مكانه وزها، وأرسل إلينا السمعون نظرة تقول بفصاحة (هل تستطيعون أن تقولوا مثل هذا الكلام؟).

وكان الهلال قطع مرحلته من السماء، فهو يرسل أشعة باهتة يستقبلها الماء الهادئ، كما تفتح الصدر أم رعوم[4] لطفل مريض، وشرع عازف عند نار بعيدة يرسل من نايه أنات موجعة، فأخذنى سحر المحيط، فغفلت عمن حولى مليا، وينبهنى صديقى فإذا الشيخ مسترسل فى تفسير

---

(١) هداى: أى حلاً لما أفكر فيه من مشاكل

(٢) وجوم: صمت مشحون بالتوتر

(٣) بصيص: بريق واهن ضعيف

(٤) رعوم: مشفقة حانية

آيات من القرآن، وإذا به يعصرها عصرا فيريق روحانيتها، ويتخذ من شرح الألفاظ بلسما[1] كان ينزل على قلوب سامعيه سلاما.

فعزّ عليّ ذلك، ورأى صديقى القلق من حركاتى، فهمس لى بأن لا فائدة من التدخل فلم أنتصح، وتلطفت فى اعتراض بطل الحلقة، فناضلنى بعناد، وتذرع[2] بخرافات ضحك لها صديقى بين أنامله ولكنه التزم الحياد.. عند ذلك انطلقت نفسى، وعمدت أدحض[3] ترهاته[4] وأهشم أباطيله، وآنست[5] فى الكلام منعرجا، نفذت منه إلى حال الفلاحين، فصارحتهم بحقارة شأنهم، وشظف[6] عيشهم، وذكرت لهم أولادهم ونساءهم وأكواخهم ورسمت لهم طريق الإصلاح إذا أرادوا، ثم أسهبت فى موضوع الإرادة والعمل، وكيف أنهم يستطيعون أن يأتوا بالعجب العجاب إذا شعروا بوجودهم، وصمموا على أن يبرروا ذلك الوجود.

وكنت أتكلم بحرارة وتهدج -، وأحسب وأنا ألمس الجانب الحساس منهم- أن كلماتى ستجد طريقا إلى قلوبهم بلا عناء غير أننى كنت كلما تريثت لأرى تأثرهم ألفيتهم[7] فاغرى أفواهم فى دهشة بلهاء، ينظرون إلىّ حينا، وإلى فقيههم حينا، وبودهم لو يستفسرون عما أصنع. وأبصرت وأنا فى عصفى واحتدامى اثنين تماست رءوسهما وقد أخذا يتهامسان دون أن يعيرانى اهتماما، فكان من ذلك أننى انقسمت على نفسى، وأهاب بى صوت منى (أيها الأحمق؛ أنت تتعب رئتيك للهواء، ولن يفهموك لأنك دخيل ونشاز!).

فاستخذيت واقتضبيت خطابى، فلما انتهيت، قال أحد المتهامسين على الفور:

- إلا يا مولانا.. العمدة شهد مع عبدالسميع ولاضده؟

ثم لغط الجميع بملاحظات فى هذا الصدد ، وتلاشى وجودى مع كلامى وألفيت صديقى بادى الخجل لى، ولم تلتق نظراتنا إلى حين، ولبث الشيخ صامتاً حتى عاد السكون، عند ذلك قال:

- استغفر الله همسا، وقال فى جلال:

---

(١) بلسم: ترياق

(٢) تذرع: تعلل

(٣) ادحض: أفند

(٤) ترهات: أكاذيب وتخريفات وأضاليل

(٥) آنس: وجد برفق

(٦) شظف: قسوة

(٧) ألفى: وجد

-تنزل بنا المصائب فلا نبكى، وعدم البكاء من جمود العين، وجمود العين من قسوة القلب. وقسوة القلب من كثرة الذنوب، وكثرة الذنوب من بسطة الأمل، وبسطة الأمل من حب الدنيا، وحب الدنيا مصدره الإرادة، أى أن إرادة المخلوق كل شئ، وإرادة الخالق جل وعلا. لاشئ..

وأجال بصره فى سامعيه فطأطئوا رءوسهم، ومصّوا أشداقهم حسرة وألما، فرنا[١] إلىّ صديقى وقال بصوت منخفض:

-هذا رجلهم.. لقد دهمت[٢] عقولهم فلم يفهموك، أما هو فيخاطب قلوبهم، وها هم أولاء كما ترى..

وكان الهلال قد انحدر حتى قارب النار المشبوبة[٣]، واستحال لونه إلى حمرتها، كأنما كان يلتهب، وكان منظرا فذا شد إليه بصرى، ولكن سمعى كان مع الخطيب، وقد شرع يفند ما قلت:

- الأفندى يا جماعة هدانا إلى فكرة طيبة، اسمها الإرادة بمعنى أن الواحد إذا أراد شيئا فما عليه إلا أن يقول له: (كن) فيكون..

فاقشعر بدنى لهذا التهكم المر وذلك التضليل الأحمق، وعضضت شفتى لأتمالك مشاعرى، ولأحبس عبارات بذيئة كدت أقذف بها تلك اللحية الخاطئة، وإذ ذاك ضغط صديقى على فخذى، وهمس قائلا:

- أرى أننا حيال مشهد قد لايسمح لك الدهر بمثله فاهدأ واستمع..

فاستمعت وإذا الشيخ يصيح فيمن حوله:

- من منكم لا يريد أن يكون عمدة..

فاعترض فلاح ضئيل مزرور العينين فطرد الناموس عن وجهه وقال:

- حتى ولو.. باشا..

فضحك كل من فهم الخطأ المضحك فى هذا الاعتراض، إلا الشيخ محسن فإنه تدارك الموقف فقال:

---

(١) رنا: نظر

(٢) دهم: اقتحم بقسوة مدمرة

(٣) مشبوبة: متقدة

- لا.. لا.. أخطأنا.. الأفندى يشترط العمل مع الإرادة، نقول فى الحال إن عبدالسميع عمل ذلك.. ويا شوم ما عمل.

أصوات: الله يلطف به.. ربنا يساعده..

أما الرجل المزرور العينين فاعتدل فى جلسته، ورفع يديه إلى السماء يبتهل إلى الله قائلا:

- اللهم اكفنا شر أنفسنا وشر الشيطان.. يارب..

وفى الحقيقة إنه كان بهذا الابتهال يبعد عن ذهنه طيف مكر سيء كان يدبره ضد صاحب الغيط المجاور لغيطه.

وابتدأ الشيخ يروى لنا بنوع خاص قصة (عبدالسميع)، وفى الوقت نفسه شرعت الضفادع -فى ناحية بعيدة- تلف حكايته بنوع من (الأوركسترا).

- عبدالسميع هذا كان -ولامؤاخذة- إسكافى، وكان يعيش على قفا من يرقع لهم، (وضحك لنكتته فانهمرت الضحكات من كل صوب)، ولكنه لم يرض بما قسم الله له، وأراد (وهنا صفق تصفيقة ذات مقطع واحد تأكيدا للكلمة) أن يرفع نفسه إلى درجة لم تكتب له فى الأزل.

صوت: الناس الأقدمين قالوا: الطمع يذل من جمع.

- استدرجه الله.. والله خير الماكرين.. فبعث إليه بمعاون الإدارة، وهو شاب ممن باعوا الآخرة بالدنيا، فعيّن عبدالسميع فى وظيفة حاجب خصوصى له (بالمركز)، وفتح له بابه، وأغدق[1] عليه النعمة، فأصبح عبدالسميع من سكان البندر ويلبس الجاكتة والطربوش، ويمشى فى الأرض مرحا، مع أن الله تعالى قال: «ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا».

فاشتبكت الأصوات فى قول (جلّ من هذا كلامه)، وتتابعت الزفرات، والتفتت بعض الوجوه إلينا براقة الأعين إعجابا بفصاحة الخطيب، وانثنى بعضهم فى جلستهم حتى كادت وجوههم تلمس الأرض، وراح الباقون يتبادلون النظرات، ويطردون الناموس عن أنوفهم.

---

(١) أغدق: أسبغ وأجزل العطاء

وعند ذلك لمّ الشيخ أطراف جبته، وحرك عمامته، وأنشب أصابعه فى لحيته، بكيفية تشعر بالتأهب للإنتقال إلى نقطة من الحكاية ذات خطر، وساد الصمت هنيهة، وترقرقت فيها أنغام الناى البعيد حزينة متتابعة.

– الوظيفة والنعمة لم يقصد بها عبدالسميع وإنى أستغفر الله مما سأقول. المقصود بالذات هى امرأة عبدالسميع، وهى رغم فقرها غاية فى الجمال كما تعلمون، وكان معاون الإدارة كثيرا ما يراها بجانب زوجها عبدالسميع، الذى كان يجلس عنده ليرقع النعال، فزين للزوج أن يجيء بها معه لتكون تحت عينيه، ولتقوم بشئون المنزل، لأن المعاون كان أعزب، وتم للسيد مراده. وعبدالسميع هل حقيقةً نفعه سعيه؟ حاشا وكلا.. فإنه بعد مدة من الزمان سلط الله عليه الوسواس.

– يا لطيف.. يا لطيف!

– وركبه الهم..

– يا حفيظ.. يا حفيظ!

– وأصبح لا يهنأ له حال ولا يهدأ له بال.

ثم ترك سامعيه يبدون تأثرهم بمختلف العبارات، ومد يده إلى جرة كروية من الفخار فيها ماء، وأخذ يرشف[1] منها، ويحدث أعلى شوشرة تتيحها هذه العملية، وأسرع أقربهم إليه فأعاد الجرة مكانها، بينما كان الشيخ محسن يسحب من جيبه منديلا كبيرا، ربعه يصلح لأن يكون منديلا كبيراً، وبعد أن تجشأ واستغفر الله، مسح فمه وهو يتمتم بحمدالله، وبعد أن أعاد المنديل إلى مأواه، وبعد أن داعب لحيته ما شاء، استطرد فقال:

– وكيف يهدأ البال وقد وجدت فى الأمور أمور.. أخشى أن أكون قد أطلت الكلام يا حضرات (هذه العبارة وجهت إلينا ورددنا عليها بأحسن ما يكون).. امرأة الإسكافى المسكينة التى كانت تغنى فى الموالد، وتتصدقون عليها.. يا سلام.. يا سلام.. أصبحت الآن سيدة تأمر وتنهى، ولا تجد من تظهر عليه سيطرتها غير زوجها.. (أصوات حسرة.. ودهشة وغضب)، فإذا ما نهرها

(١) يرشف: يشرب بتؤدة وبطء

يوما أسرعت إلى سيدها باكية مولولة، ويسرع هذا فينهر(١) الزوج ويرميه بأنه فلاح، وأنه لا يعرف قيمة المرأة.

- لاحول ولا قوة إلا بالله..

وكان المسكين كثيرا ما يشكو إلى حاله فأنصحه بأن يترك ما ليس له إلى ما خلق له.

ولكنه كان كالغريق.. وهكذا إلى أن أصبحت الحال واضحة لاشك فيها، وصار يذوق من الغيرة ناراً ذات لهب، مشرد الفكر دائم الحزن، لاتهنأ له يقظة ولانوم، ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يخرج نفسه من هذا الجحيم.

أولا: كان يعز عليه أن يترك النعمة التى تهيأت له.

ثانيا: كان الشيطان يلعب بعقله، فكلما حزم الأمر وسوس له الوسواس بأنه فلاح حقيقة، وأن عيشة التمدن هى كما يرى، فتتخدر أعصابه ويستكين.

أصوات: الله يعلن التمدن ويوم ما سمعنا على اسمه.

- استمر الحال على هذا المنوال حتى كانت الليلة الفظيعة.. فى تلك الليلة أمر حضرة المعاون عبدالسميع بأن يجيء إلى حضرة العمدة.. هنا.. برسالة وأن يعود إليه بالرد.. لا فى الحال، بل فى الصباح.

وهنا قال أحد السامعين على حين فجأة: (عجايب)، وكان لوقعها ما يشبه المجون فضحك الباقون ضحكات قصيرة.

ثم خفض الشيخ صوته فصار عميقا رائعا، وأنهى إلى الآذان المرهفة بأن هذه معلومات سرية أطلعه عليها المحققون؛ لما له عندهم من المكانة، ولما لهم فيه من الثقة، وطلب إليهم أن تكون سرا فيما بينهم، فاهتزت الرءوس إيجابا وإعجابا. وفى هذه اللحظة أراد أحدهم أن يصلح من ضوء المصباح -وكان موضوعا فى بهرة(٢) الحلقة وكتائب الناموس تحوم(٣) حوله، وتهاجم جوانبه فى مناورات جنونية- فزجره الباقون على عدم مراعاته اللياقة والأستاذ يتكلم.

---

(١) نهر: زجر ووبخ ناهيا

(٢) بهرة الحلقة: مركزها ووسطها

(٣) تحوم: تدور

– أخذ عبدالسميع طريقه على جسر السكة الحديد وكان يفكر فى حاله والشك قد ملأ قلبه، وكان القمر يضىء له الطريق، وفى أثناء سيره أبصر بين القضبان قطعة من الحديد بطول الذراع –رأيتها بعينى– فأخذها وما كاد يتبين ثقلها حتى تملكته الرغبة فى أن يعود، ويؤكد المسكين أنه حاول أن يتغلب على هذه الرغبة فلم يستطع، كأن قوة خفية من الله تعالى كانت تجره إلى الوراء.. وأخيرا عاد إلى البيت فوجده مظلما.. ففتح الأبواب باحتراس حتى وصل إلى غرفة سيده فرأى.. والعياذ بالله.. رأى سيده فى.. فى مكان الزوج من امرأته..

فضج الجميع بالتأفف والاشمئزاز ولجئوا إلى الله بطلبات لاتحصى، وانتهز الشيخ محسن فرصة هذه الجلبة لإعادة الترحيب بنا، وبوده لو يقول (ألست خطيبا مصقعا؟[1])، فلما عادت السكينة قال:

– وكانا عند دخوله نائمين، فلم يتمالك أن أهوى على رأسيهما بقطعة الحديد، فماتا فى الحال.

أصوات تحبيذ واستحسان.

– على أنه لم يكتف بذلك، بل أن الانتقام ثار به، فاستمر يضربهما حتى فتت رأسيهما، لدرجة أن حضرات المحققين وجدوا أجزاء من المخ... من المخ والعياذ بالله لاصقة بالحائط.

أصوات استحسان واشمئزاز فى وقت واحد.

وسادت فترة صمت خلا الجو فيها لأصوات الضفادع لأن صوت الناى كان قد سكت.

والعجيب الغريب أنه بعد أن شفى غليله جاء بعدة الشاى وبات طول الليل إلى جانب الجثتين يشرب ويدخن.

قال صديقى محملقا فاغرا فاه:

– أى هول هذا؟

وكان من دهشتى أن قلت:

– أتمنى لو كنت معهم هذه الليلة.

---

(١) مصقعا: بارعا

ودوى الفلاحون بعبارات الفزع..

- وفى الفجر أخذ عبدالسميع قطعة الحديد وذهب إلى (المركز)، وهناك باح بكل ما جرى..

ثم تناول الشيخ جرة فرشف منها على نحو ما تقدم ثم قال:

- فيا أولادى.. الدنيا عبادة لا إرادة، والخير فيما اختاره الله.

وتأهب للقيام بدعوى أن حضرة العمدة وكثيرا من الأعيان فى انتظاره، فأقبل عليه الفلاحون بنفوس مطمئنة راضية يقبلون يده، ويحمدون الله على (نعمة الستر).

وآثرنا البقاء -صديقى وأنا- فتركوا لنا المصباح، وقنعوا بأن يتبعوا فقيههم فى الظلام.

آلـــو...

الوقت: صباحا. والمكان: غرفة فسيحة فيها أربعة مكاتب، لعدد نظيره[1] من الموظفين: أحدها في الصدر، توقن من فخامة ضخامته أنه للرئيس، يجلس إليه رجل توقن من فخامة ضخامته أنه الرئيس نفسه، ولايخيب يقينك في الحالين، ثم مكتب إلى اليمين تشرف وتشرق عليه طلعة فريد أفندى النضرة المعتزة بثروة الوالد ولقب (موظف)، وثالث تجاه الأول مضت عليه عشرات السنين وهو تعلق من يدعى (عفيفى أفندى مندور): رجل أزرق المشيب، منفوش الحواجب، والشوارب، ناشف الحديث والوجه والتكوين، ولكن من لطف القضاء أن ليست له أهمية في عمل المكتب، أو في صلب القصة..

وحانت التاسعة فتنغمت لها ساعة مثبتة على الحائط فوق الباب، فألقى فريد أفندى جريدة كان يجيل[2] فيها بصره، وثنى ساعده برشاقة، فارتفع كم القميص الحريرى عن ساعة من ذهب، وسوار من نفس المعدن، وهما آيتان في الإبداع، وبعد أن تأكد من توارد خواطر الآلتين قال:

- عجيبة جرى إيه ليوسف أفندى يا ترى..!؟

ولم يكن التعجب ولا الاستفهام موجهين إلى شخص بعينه، ولكن عفيفى أفندى أبى إلا أن يتصدى للرد، فرقصت حواجبه وشواربه على نغمة..

- وهل دى أول مرة يا سيد فريد؟ وهل تنتظر من واحد يضيع الليل في المساخر وقلة الحيا مع المعربدين أمثاله، أنه يواظب على عمل أو حتى ينفع لعمل؟

فتبادل الرئيس وفريد أفندى ابتسامات الازدراء بهذا (الشيخوخ العضال) لاسيما وقد أدركا معا أنه يصوب نحوهما قوله (المعربدين أمثاله)، ثم هبطت جعجعة عفيفى أفندى إلى همهمة، ومنها إلى تلعيب الأشداق بغير كلام.

---

(١) نظير: مثيل، مماثل له

(٢) يجيل: يحرك مستطلعا

وبعد فترة قام فريد أفندى إلى مكتب الرئيس فأكب عليه، حتى تلامس الطربوشان وتداعب الزران، وهمس إليه أن (يوسف) صار ليلة الأمس يتنقل من حان إلى حان، ومن حال إلى حال، حتى استحال مخلوقا آخر لم يعهده من قبل، يجأر[1] بالغناء فى الطريق تارة، ويقلد الشارلستون تارة أخرى، ويخطب بالعربية تارة، وبجميع اللغات تارة أخرى، فلما دنا من البيت بكى وسخط على الزمان والمكان، وأقسم أنه لم يعد يطيق أن يرى وجه زوجته وصرخ بأعلى صوته إنه...

وهنا انقطع الحديث فجأة إذ فتح الباب ودخل يوسف أفندى بقامته المديدة وأكتافه العريضة، وكان متجهم الوجه رغم ما تكلف من بشاشة فألقى السلام.

وارتمى على كرسيه ارتماء المتعب، فابتدره الرئيس يسأله فى تهكم عما إذا كان يصطنع ذلك، ليلهيهم عن محاسبته على تأخيره، فى حين كان عفيفى أفندى قد لوى أنفه وزرّ عينه لويا وزرا، فيهما قاموس من معانى السوء.. وتحول فريد أفندى من حيث كان إلى حيث كان صديقه وعلى شفتيه أسئلة شتى، فوفرها عليه يوسف افندى وأجاب عليها أجمعين بقوله:

- طلقتها...

فضرب الرئيس المكتب بيده وقال:

- اتكلم كلام غير ده يا يوسف أفندى..

- انتهينا.

أجاب يوسف هذا الجواب المقتضب ببساطة حاسمة، وبسط كفيه دلالة على أن الأمر لم يعد بيده، ثم دق الجرس وأمر الخادم أن يأتيه بقهوة، وأشعل سيجارة، وهال الرئيس ما يبديه يوسف أفندى من عدم الاكتراث، فحرك جرمه الهائل حركة عصبية، قوتها خمسة عشر حصانا على الأقل، وأنعم على المكتب بلكمة ثانية، سر لها فى نفسه أيما سرور، لأنها تشابه تماما ضربات (سعادة المدير) أداء ووقعا، ثم قال بالفرنسية (فوز-ا ت فو) وأردفها بالترجمة العربية (أنت مجنون)، وأسرع فريد فحملق بعينيه، ورعش وجنتيه عند مطلع قوله:

- والستين فدان يا أبله يا عبيط..؟

(١) يجأر: يزعق

وكان يوسف أفندى يشعر فى أعماقه أنه أتى عملا جنونيا، وقفزت فكرة الفدادين فى رأسه حتى أوشكت أن تنفذ من جمجمته ولكنه تضاحك وقال:

- مجنون. عاقل، قضى الأمر..

على أنه لم يلبث أن ضاق بالمشاعر الوخازة التى كانت تنوش ضميره، وأراد أن يتغلب عليها، فوضع الفنجان دون أن يأتى على ما فيه، وقام يذرع الغرفة ذاهبا جائيا، وهو يمسح جبهته العريضة بمنديله، ثم يمره على شفتيه الممتلئتين..

وطلب الرئيس إلى عفيفى أفندى فى هذه الأثناء أن يقول كلمة، أو يبدى رأيا، فلم يخيب عفيفى أفندى رجاء رئيسه فى هذا الموقف الحرج، وارتحل قائلا:

- دا شخص عقله وسخ ومجنون وخسارة فيه النعمة.

فصاح فريد به يسكته، وهمّ يوسف بالانقضاض عليه، لولا صيحة أخري جادت بها حنجرة الرئيس، منعت المسكين من أن يجد عملا يدويا يرفه به كربته، فلم تجد عواطفه المحتبسة منفذا غير فمه، فمضي يفيض عليهم جملة أخبار الجحيم الذي صلى عذاباته أشكالا وألوانا، والتى كان يرويها لهم خبرا خبرا يوما يوما. أجل إنه تزوج طمعا فى الثروة إلى حد. وأجل إنه كان يطمع من صهره بالكرم إما بالمال أو بالموت، ولكن ها خمسة أعوام مضت، هى خمس سلاسل متصلة الحلقات من شجار وشقوة وآلام.. تورط فيها فى الديون من جراء تبذير المرأة المعتزة بالستين فدانا التى سترثها، كما أفرط فى شرب الخمر طلبا للعزاء، ولكى تكتمل البلية، فقد ولدت ثلاث مرات، ذهب الوليد ضحية جهلها وإهمالها، وهذا صهره الفانى ذو المفاصل الصاخبة، والقلب اللاغب، والمعدة الفاسدة، والشرايين الجامدة، يعبث[١] فى الأرض معيشة لايموت فيها ولايحيا.. ماذا.. أى سجن موحش سيمضى فى شبابه! لتسقط الثروة ولتحى الحرية..

بهذه العبارة الحماسية ختم يوسف خطبته أو دفاعه، وكان منها ومن تهدجه واحتدامه وعصفه أن صفق له فريد، كما لو كان فى الصف الأول من مقاعد الأوبرا، ثم قام إليه يصافحه ويقول بالإيطالية «برافو» وبالإنجليزية (شيك هاندز)، وبالعربية (أنت بطل).

---

(١) يعبث: يطغى ويفسد

وتهالك يوسف على مقعده وأنشأ يدخن سيجارة ثانية لأن الأولى استحالت رمادا على حافة المكتب، والرئيس يرنو إليه بنظرات ملؤها المعذرة والرثاء، أما عفيفى أفندى مندور فإنه زر عينيه زرا ولم يقل شيئا ولله الحمد.

وأحب فريد أفندى أن يسرى عن صديقه بفكاهات ونكات، ولكن عبقريته تبخرت على غير جدوى، وانتشر وجوم يوسف مع دفعات الدخان التى كان يرسلها، فتشاغل كل بما أمامه من أوراق، تفاديا من أن يعد للحديث طرفا. وبعد أن ألقى يوسف (عقب السيجارة) فى وعاء خزف فيه رمل، هز كتفيه هزة يتحدى فيها كل ما فات وما هو آت، ثم أعمل المفتاح فى أدراج مكتبه، وأخرج أدواته ليكون اليوم مثله فى كل يوم.

ومضت دقائق وإذا بجرس التليفون يدق، فتناول الرئيس السماعة وما أعتم أن قال:

– موجود يا أفندى.. موجود..

ثم التفت إلى يوسف أفندى فأسرع هذا وتناول السماعة.

–ألو.. أنا يوسف أفندى.. نعم وحضرتك؟ آلو.. آه؟.. الإسعاف؟.. النمرة لازم غلط. أيوه أنا يوسف أفندى. آلو.. مين؟.. ماله؟ ارفع صوتك من فضلك.. بتقول كان جى على هنا.. آلو.. آلو.. يا سنترال خلى السكة مفتوحة.. ..إه؟ ..صدمة تكس.. ومات؟..

وهنا رمى السماعة فلم تصب مكانها وجعلت تتذبذب فى طرف حبلها قرب أرض الغرفة وقال يوسف فى ذهول:

– تصوروا أن أبوها يموت النهاردة!!

فوجم الجميع، إلا عفيفى أفندى فإنه تمتم بين أشداقه قائلا:

– تستاهل........

الشيخ محمد اليمانى

(القرشي الهاشمي، وزير الأشراف سابقا، وسفير الخلافة الأحمدية حالا، وكاتم أسرار أهل الباطن إلا من استثنى، ووحيد الملك بالتعزيز)

(ومنى عليكم السلام)

هكذا قدم إليّ الرجل نفسه قبل أن أراه، وهكذا أقدم الرجل إلى القراء بعد أن رأيته، ولئن استطعت أن أؤدى عملية التعريف ولو إلى أى حد من الإجادة، فاسمحوا لى أن أفاخر وأن أجاهر بأننى أديت عملا جليلا للحقيقة والتاريخ.

كنا فى شهر رمضان والساعة الخامسة -سمعت دقاتها منذ هنيهة- وكنت فى غرفتى أتلهى عن الجوع بالقراءة، لأن مدفع الإفطار لن يخالف الله من أجلى فيضرب قبل الغروب، ولكن الجوع كان يلح عليّ إلحاحا، فلم يخدع معدتى جمال الموضوع الذى كنت أقلب صفحاته، والمعدة لا تسمح للعقل، لا، ولا لأية جارحة أخرى أن تتغذى وهى تتضور(١)، لذلك ألقيت الكتاب وذهبت إلى النافذة، لا لأستنشق الهواء عليلا(٢) ولا لأصغى إلى الطير ترتل أناشيدها ترتيلا.. ولكنه مطبخ جارنا..

وبينما أنا أتمتع من شميم الأريج الفياح يهب بروائح القلى والشى، إذ بالخادم يحمل إليّ خطابا قد التهمت وجه الغلافة منه تلك الديباجة التى توجت رأس هذا المقال، فذعرت لمرآها.. أفلم تكن تذعر أنت..؟

ودهشت عند قراءتها.. أفلم تكن تدهش أنت..؟

بل كذبت عينى، وتوهمت أن الجوع أفسد عقلى.

ولكن بياض الغلاف وسواد الحروف غلبانى على ذعرى ودهشتى وشكوكى، ففضضت الخطاب، وإذا بداخله رقعة هذا نصها:

---

(١) تتضور: تعانى آلام الجوع

(٢) عليلاً: رقيقاً بارداً

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فعندما يأتى الإذن من صاحب الإذن أكون بين يديك والسلام.

وأنا الشيخ محمد اليامانى بمنوف

الظرف والجواب أمامى، وأنا مستعد لأن أطلع عليهما من يداخله الريب[1] فيما أقول مجانا.

هممت بادئ الأمر أن أطرد ذلكم الزائر العجيب، ولكن حب الاستطلاع رجح عندى لقاءه، فنزلت إلى غرفة الاستقبال، حيث كنت أتوقع أن أجده، وإذا بالغرفة خالية إلا منى، ومن المقاعد وباقى أثاثها المألوف، فاستفسرت فأخبرنى الخادم على لسان زائرى بأن الإذن لم يأت بعد من صاحب الإذن.. فأذعنت بضع دقائق حتى جاء الإذن -على ما أظن- فقد أخذ حذاء الزائر يصخب فى طريقه، فلما دنا خطا خطوات واسعة وهو يقول:

(الله أكبر، الله أكبر، على العيد الأكبر، ياله من عيد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأنا الشيخ محمد اليامانى بمنوف).

ولكى أكون صريحا، يجب أن أعترف بأننى لأول وهلة خفت خوفا جعلنى أتحفز للجرى عند الاقتضاء[2]، وعدت باللائمة على (حب الاستطلاع) الذى دفعنى إلى هذا المأزق، ولما لم يكن بد من التشجع تشجعت وطلبت إلى زائرى العزيز أن يجلس فجلس، وجمد فى مكانه وأجال بصره فى الفضاء.

فى هذه الفترة الصغيرة أستطيع أن أرسم له (اسكتشا) صغيرا: فهو من حيث التكوين البشرى عادى، اللهم إلا عينيه، العميقتين المختلجتين، فقد أثارتا الجزع فى نفسى، ولكنه أراد أن يكون شاذا عجيبا، فتذرع فى مظهره بكل ما هو شاذ وعجيب، فعلى رأسه أداة لها شكل الطرطور، وأضلاع السنطاوى، وألوان قوس قزح، وفى كل من أذنيه حلقة فى أسفلها جلاجل، وحول عنقه حلقة أخرى فيها عدد من المفاتيح المختلفة الأطوال والأشكال، مما لايمكن أن يستعصى عليها أى

---

(١) الريب: الشك

(٢) الاقتضاء: الحاجة

باب أو خزانة، وعلى صدره قلائد[١] من خرز، وسبح من الخشب، ينوء بحملها حمار في مثل حجمه، وأعتقد أننا لو اتخذنا منها حبلا نجعل طرفه في الأرض لأمكن (الرجل الذي في قمر) أن يمسك بالطرف الثاني، لو أنه مد ذراعه قليلا.

ثم إن حضرة الزائر ممنطق[٢] بحزام من ليف يتدلى منه سيف طويل عريض، ولكنه لحسن الحظ من خشب، وفي يمناه صولجان غليظ باسق[٣]، تعلوه كرة ضخمة من نحاس أصفر، تحتها كمية من الهلاهيل والدلاديل لايستهان بها.

وكما أنني انتهزت فرصة وجوده لأتبين تفاصيل خلقته وهيئته، كذلك انتهزتها لمجاملته والترحيب به، فهو قد آنسني وهو قد شرفني. وإنها لساعة سعيدة تلك التي جمعتني وإياه.

وما إن جلت على عبارتي الأخيرة حتى نهض واقفا وصاح يقول:

إن صاحبكم قد تعين، ومكانه قد تبين، وغداً يأتيك الإقناع والإشباع وأنا الشيخ محمد اليماني بمنوف.

ولما لم تكن عندي أية فكرة عن أي صاحب (خالي شغل) أتوقع أن يتعين ومكانه يتبين، ولما لم أكن من الفطنة[٤] بحيث أفهم هذه الألغاز والمعميات، حاولت أن أنظم الحديث بكيفية تؤدي بي ولو إلى بعض الفهم، فنظرت إلى الديباجة التي على غلاف الخطاب السالف الذكر، وقلت في تؤدة واحتشام:

- هل معاليكم وزير الأشراف.؟

فلوح بصولجانه وحدجني بعينيه الرهيبتين.

وقال: سابقا.

- وهل فضيلتكم سفير الخلافة الأحمدية؟

---

(١) قلائد: جمع قلادة أي عقد كبير نسبيا

(٢) ممنطق: لابس حول وسطه

(٣) باسق: بارز وظاهر

(٤) الفطنة: بعد النظر والذكاء

فنكت فى الهواء سبابة منكسة وقال:

- حالا.

قلت وقد اغتبطت بسير الحديث على هذا النحو:

- هل تسمحون معاليكم وفضيلتكم معا بتفسير قولكم (إلا من استثنى)؟

وأقسم بأعز عزيز لدى أن جوابه كان كالآتى:

- لقد جاء السفير إلى النذير: فقال المشرقى إن الباب مقفول حسدا، وقال المغربى إن الباب موصود كمدا[1]، قال السفير باسم الله، قال النذير لاقوة إلا بالله، وكلام الملوك لايفهمه إلا الملوك، وأنا الشيخ محمد اليامانى بمنوف.

أى سفير وأى نذير وأى باب وأى (هباب)، ولكنه رد مسكت لم أستطع حياله سوى أن أتجاوز إلى سؤال حاسم فقلت:

- وعاوز إيه دلوقت؟

فقال بلهجة الأمر...

- أنا عاوز تمد يد المساعدة إلى جيوش أهل الباطن.

ونظرت إلى الرجل لعله يكون يمزح، فارتد البصر خاسئاً، إذ لم أر إلا العبوس والتجهم. عند ذلك غادرت مكانى حتى صرت أقرب ما يكون إلى باب الغرفة وقلت فى حزم وعزم..

- يا معالى وزير الأشراف سابقا؟ يا سعادة سفير الخلافة الأحمدية حاليا، يا حضرة المحترم كاتم أسرار أهل الباطن إلا من استثنى:

الله يحنن عليك.

وصعدت إلى غرفتى جريا، ولم يهدأ قلبى إلا حينما أبصرته من النافذة يذهب إلى حيث ألقت..

---

(١) كمد: غيظ كظيم

القــدر

-١-

كـان الوقت فى أواخر الظهـيرة، وكـانت (خديجة هانم) وخـادمتـهـا (نفيسـة) جالسـتين متقابلتين على بساط غرفة الجلوس بسيطة الأثاث، يطبقان غسيلا موضوعا فيما بينهما، وهما يتسامران سمرا هادئا فى هدوء ذلك الوقت من النهار، وإنهما كذلك إذ سمعتا نقرا على باب الشقة بألفانه، فأرسلت السيدة بصرها تجاه مصدر الصوت وقالت الخادم: (سيدى)، ثم نشطت إلى الباب ففتحته وصح ما توقعه، ودخل (عزيز أفندى) وعمد إلى غرفته فوضع على مكتبه أوراقا كان يحملها، وذهب من فوره إلى والدته فقبّل يدها، ثم اضطجع على كنبة قريبة، واستعادت الخادمة مكانها وعملها اللذين غادرتهما منذ لحظة، ومضى عزيز يتكلم.

وعـزيز مدرس حـديث العـهد بمهنتـه، وكان يلذ لـه أن يحكى لأمـه ماكـان فى يومـه من زملائه ومن تلاميذه حتى صارت تعرف كثيرا من أسماء هؤلاء وهؤلاء، وتستفسر عن شئون هذا أو ذاك إذا أغفل سيرته طويلا. وعزيز يحب أمه ويحب الجلوس معها والتحدث إليها، ويراها مثلا أعلى للأمهات، ولا غرو فقد مات أبوه و هو مايزال بعد صبيا فلا يتذكره إلا كما يتذكر المرء أشخاص حلم بعيد، وكانت أخته لم تزل طفلة، فقامت الأم بتربيتهما بكل ما فى الأمومة من رعاية وحنان، حتى أحلّته من الحياة ذلك المركز الذى تقر به نفسه، وحتى تزوجت أخته منذ سنوات زيجة محترمة فى (دمنهور)، ولا تزال تلك الأم الرءوم -رغم الضعف الذى انتابها من جراء ذلك المجهود الباهظ- تشرف على مصالحهما كملاك حارس.

مضى عزيز يتكلم وهو مضطجع والاثنتان تصغيان وتشتغلان، حتى نادى المؤذن يدعو إلى صلاة العصر، فاعتدل الشاب احتراما، وأمسكت المرأتان عما هما فيه، وشرعت كل منهما تهمس إلى الله بنجواها، فشمل الغرفة ورع[1] مهيب، ثم قامت الأم فلفت رأسها بطرحة بيضاء وأقامت الصلاة، ولبث الابن ينظر إليها بقلب خاشع، لأن شحوب وجهها، والشعلة البيضاء المرسلة

---

(١) ورع: خشية وتقوى

إلى كتفيها، والإخلاص الذي تتوجه به إلى الله، كل ذلك يسبغ[1] عليها معنى القداسة، ثم انصرف إلى غرفته وبقيت الخادم والغسيل.

-٢-

وما كادت (خديجة هانم) تلقى السلام على ملائكة اليمين وملائكة الشمال، حتى عاد (عزيز) فقال بلهجة سريعة نوعاً ما:

- نينه.. جاءني اليوم خطاب من (عرفى بك)..

فاستدارت الأم فى مكانها وواجهت ابنها وقالت فى دهشة (عرفى)؟ كيف، وماذا عساه يقول؟

وأبصر (عزيز) قميصاً له بين يدى الخادم فأخذ يلقى عليها ملاحظات تلفت إليها نظر (المكوجى)، وخديجة هانم فى هذه الفترة تتلهف على رد عما سألت عنه، إلى أن قال (عزيز):

- عرفى بك يقول إنه وقع فى مشكلة بينه وبين مالك جديد اشترى الأرض المجاورة له، ويقول أيضاً إنه توجد عندك مخالصة بينك وبين زوجته عن ثمن الفدان والنصف، التى بعتها أنت لها، وهو يهمه الحصول عليها جداً، لأن الحجة فقدت، وهو واثق من أن الحدود مذكورة فى هذه المخالصة وزيادة على ذلك..

وكانت (خديجة هانم) تنصت بإمعان[2] ولكنها قاطعته بقولها:

-ولكن كيف استدل على عنوانك بعد أن انقطعت صلته بنا طول هذه السنين؟

فقارب عزيز بين أنفه وعينه دلالة على عدم الاهتمام وقال:

- وهل نحن نعيش تحت سقف البحر على رأى المثل.

وقالت الخادم وقد انتهت من عملها..

- وهو فيه حد يستخبى ياستى، أنا رايحة أودى هدوم سيدى (عزيز بك) المكوة..

---

(١) يسبغ: يصفى

(٢) إمعان: دقة واهتمام

فلم تعن (خديجة هانم) بما قالت الخادم بل قالت لابنها فى امتعاض:

- ولكن هذه مسألة مضى عليها نحو عشرين سنة، ثم لماذا تحشر نفسك فى إشكالات كهذه؟

ولما رأت الخادمة أن أحداً لم يجبها إلى ما اقترحت، اكتفت بأن تغادر الغرفة لتوزع الثياب على أماكنها الخاصة بها، وعاد عزيز فجلس على الكنبة وقال:

- لاأرى ضرراً علينا من أن نجيب طلب (عرفى بك)، فالرجل خدمنا كثيراً فيما مضى.

- لا أرى موجباً لهذا..

وكانت فى هذه العبارة لهجة الأمر شعرت بها (خديجة هانم) وأرادت أن تلطفها فقالت:

- هذا رأيى.. على كل حال أنت أدرى..

وكان عزيز يحادث والدته وفكره منصرف إلى حالتها الصحية، وتلك كانت حاله حيالها، منذ تزايدت شكواها من الأرق وخفقان القلب وعدم قدرتها على الحركة الكثيرة، وكان تفكيره الآن أكثر ما يكون انصرافاً عن موضوع (عرفى بك)، لأنه تبين أن والدته أكثر شحوباً منها حتى عندما كانت تصلى، فاستفسر منها عما إذا كانت تتعاطى دواءها بانتظام. فطمأنت مخاوفه، وأعادت الحديث إلى مجراه بقولها:

- كل الأوراق القديمة تجدها فى كيس فى ركن الصندوق الكبير. انتظر حتى أحضرها لك.

وهمت بأن تقوم، فعاجلها عزيز بقوله:

- بل ابقى مكانك وسأستعين بنفيسة على إحضارها.

وخرج لذلك، وأذعنت[1] الأم لرغبة ولدها، بل الحقيقة أنها لم تكن لتقوى على النهوض، وسهمت فى الفضاء كما لو مستها عصا ساحر.

-٣-

وعادت (خديجة هانم) إلى حسها على وقع نفض التراب عن الكيس، وعلى صوت (عزيز) وهو يصلح من غباء الخادم بإرشاداته، ففركت جبهتها وعضت شفتيها تباعاً، وتضاحكت

---

(١) أذعنت: استسلمت

إذ دخل عليها (عزيز) وقد تلوثت أرنبة أنفه بالتراب، وتبعته (نفيسة) فوضعت الكيس أمامه على الكنبة، ثم كررت اقتراح الذهاب إلى «المكوجي» فأذنت لها سيدتها، وأعاد الفتى ملاحظاته فى شأن القميص وهو يفك رباط الكيس، وقالت (خديجة هانم) بعد فترة:

- لست أدرى لماذا تتعب نظرك بهذه الأوراق المتربة؟

قال الفتى وهو مستمر فى عمله:

- والله يا نينه إن جواب (عرفى بك) أثر فى نفسى، خصوصاً خطه فإنه يدل تماماً علي أن (عرفى بك) لايقوى حتى على مسك القلم.

قالت (خديجة هانم) وهى لاتريد أن تقول:

- مسكين.. الشلل صعب..

- أى والله إنى أتذكر جيداً.. لقد أصيب بهذا الشلل وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية، أظن أنه منذ ذلك الوقت وهو فى (أسيوط) لم يحضر إلى القاهرة مطلقاً.

فقالت (خديجة هانم) وهى تريد أن تصيح بابنها أن يمسك عن هذا الحديث.

- هو ذلك..

وعطس الفتى من تراب دخل منخاريه، فأسرعت الأم تقول: أرأيت؟ هذا أنت تضر نفسك باستنشاق تراب الأوراق القديمة.

وكانت فى لهجتها حدة وضجر[1]، ولكن عزيز قال بعد أن عطس مرة أخرى وتضاحك:

- لابأس، لابأس، إن العطس ينبه الرأس، ثم هز رأسه فى اكتئاب وقال:

- يا سلام من كان يصدق..

وكان عزيز يعثر من آن لآخر على أوراق تعيد إليه ذكريات الطفولة. فقال مرة:

- انظرى هذه فاتورة عن (بدلة كحلى وبنطلون قصير)، أتذكر تماماً أنها هى التى دخلت بها امتحان الشهادة الابتدائية.

---

(١) ضجر: ضيق وتبرم

وعثر مرة أخرى على (خطاب مدرسي يلفت نظر ولى أمر التلميذ إلى وجوب العناية به فى مادتى الخط والجغرافيا).

فقال بلهجة المغتبط:

– ما كان أسعد تلك الأيام!

أما خديجة فكانت تشعر لكلمات ابنها بالوخز الأليم، وتود لو يمل ابنها من البحث فيكف عنه، وكانت فى أعماق قلبها تلعن تلك الظروف التى أسمعتها اسم (عرفى)، بعد هذه المراحل من السنين، وكان صدرها يزخر بكرب لا تعرف كنهه[1]، فى حين كان عزيز ممعناً فى فحص الأوراق لما كان يجده فى ذلك من لذة.

وأخيراً وجد بين يديه خطاباً مطلعه:

(عزيزتى وقرة عينى خديجة هانم. بعد تقبيلى الوجنات وإهدائك عاطر التحيات.) فأجرى فيه بصره، وما أتى على اسم الكاتب حتى حملق بعينيه، وغمغم يقول: (ماهذا، ماهذا؟) كمن يخاطب شخصه، أو يخاطب شخصاً غير مرئى، ونظر إلى الخطاب مرة أخرى. نظرة التحدى فوقعت عينه على (..هذا الحب الذى أكنه لك فى قلبى..) فازدادت دهشته إلى حد أنه حسب أنه يحلم، ولكنه يعلم أنه فى يقظة لا فى منام، ثم قام فسار بخطوات الممغطس حتى دخل غرفته وأوصد عليه الباب.

– ٤ –

ولم تعرف خديجة هانم ماذا حدث، بيد أن منظر ابنها وانسحابه المفاجئ بذلك الذهول، وبتلك الكيفية التى لم تعهدها منه من قبل، أسرى فى بدنها قشعريرة حادة، وأوشكت أن تصيح به لتقفه، ولكنها لم تستطع ذلك كما أنها لم تستطع أن تتبعه. وساد سكون عميق.

وكان عزيز واقفاً وسط غرفته جامداً ينظر إلى الخطاب ولا تتعدى عيناه تلك البداية، ولم يكن يجسر على النظر إلى الإمضاء وكان مذهولاً وفى الحقيقة إنه لم يكن يفكر فى شئ، ولكن أكرة الباب صرت ودخلت أمه فقالت:

---

(١) كنهه: حقيقته وطبيعته

- هل وجدت الورقة؟

قالت ذلك بصوت خافت يرتعش، بل كانت تود أن تقول: هل استكشفت السر الهائل الدفين؟

فحرك رأسه مراراً دون أن يتكلم، فهلعت[1] لنظراته، وأقبلت عليه تستفسر منه عما حدث فتراجع الفتى حتى تهالك على كرسى، وقال وقد أخفى وجهه بين راحتيه:

- أريد أن أعرف ماذا كان عرفى بك؟

فكانت هذه العبارة كسهم أصاب قلب المرأة، ومادت الأرض تحت قدميها، وأظلمت الدنيا فى عينيها، ولكنها تمالكت نفسها، وقالت بلهجة مفتعلة الحزم:

- لست أفهم ما تقول. ما بالك هكذا؟

فرفع الابن رأسه فجأة وقال قولة الآمر:

- أريد أن أعرف فى الحال.. أية علاقة كانت بينك وبين هذا الرجل.

وأشاح بوجهه عنها، ثم خطا بعض خطوات سريعة تجاه النافذة..

فشعرت المرأة بأنها ستهوى على الأرض، وتقدمت إلى السرير فتشبثت بإحدى قوائمه، ولبثت صامتة، فتقدم إليها الفتى وقال بصوت المهدد:

- أياً كانت حالتك فلابد من أن تتكلمى.. قولى.. إنى أكان أجن. وضرب جبهته بقبضة يده دراكاً[2] ضرباً تشنجياً، ثم تهالك على المقعد، وقد احتقن وجهه بدم يغلى.

ثم نهض بغتة[3]، وتقدم إلى أمه فقال: لابد أن تتكلمى لابد. لابد.. وأحس بشئ يخنقه فسكت مغيظاً.

فقالت الأم بعد فترة وقد نزلت عليها سكينة اليائس:

- مادام الله أراد ذلك فإننى سأبوح بكل شئ..

---

(١) هلع: ارتعب

(٢) دراكا: مراراً وبإلحاح

(٣) بغتة: فجأة

–وتريثت ليهدأ قلبها اللاغط(١)، وكانت تحس بأنه سينفجر من شدة الخفقان، فضرب الفتى الأرض ضربة أزتّ لها النوافذ، وقال بصوت مختنق: «تكلمي.. أي عار ألبستنا إياه ونحن في غفلة؟».

قالت الأم: أنت تعتقد أن أباك ترك المال والحلى التى أنفقتها على تربيتك أنت وأختك، ولكن الحقيقة أن أباك لم يترك شيئاً، والمكافأة التى صرفها لنا الديوان الذى كان يشتغل فيه لم تدر عليها السنة، وكان عمرك خمس سنوات وأختك ثلاثاً، فبعت الفدان والنصف التى ورثتها عن أبى إلى زوجة عرفى بك، وهى تقرب لى من ناحية والدتى..

وأراد عزيز أن يتكلم فأشارت بيدها تسكته وقالت:

– سأقول كل شئ.. كل شئ.. ولاداعي لأن تجعلنى أطيل الكلام.. صرت أنفق فى المال بكل اقتصاد وتقتير ولكنه انتهي، وأردت أن أدخلك المدارس فى ذلك الوقت.. فلم أستطع، وأشار عليّ الناس بأن ألحقك بإحدي الصناعات لتكسب قوتك.. فعزّ عليّ ذلك.

عند ذلك شرقت المرأة بدمعها فسعلت، وضرب الفتي الأرض برجله وهو يقول:

–سأجن يا عالم، سأجن...

واستأنفت الأم روايتها قالت:

–نعم لم أرض أن تكون نجارا أو حدادا. ولا أن تكون أختك..

فقاطعها الفتي قائلا:

فارتميتِ فى أحضان هذا اللعين..

–لا.لا.لم تكن لي علاقة به، ولكنها امرأته.. جاءتنى يوما وقد علمت ما وصلت إليه، فعرضت علي أن أعيش معها، وأن تتبنا كما لأنها لم يكن لها أولاد.. فرضيت، ولكن الحال لم تدم كثيرا. لأن الغيره دبت فى قلبها، وتبينت ذلك فعرضت عليها أن أترك البيت، فوافقت وأعطتنى عشرين جنيها أستعين بها..

---

(١) لاغط: يدق بعنف وتتابع

فشد عزيز شعر رأسه وقال:

-يارب أيمكن أن أصدق ذلك،

فقالت الأم فى استعطاف:

-والله يا ابنى هذه هى الحقيقة.

- إذن كان يجب أن تنتهي المسأله عند هذا الحد..

قال عزيز هذا وقد تنكر فى عينيه منظر والدته وكاد ينكرها بشاعة وقبحا، وتريثت الأم لأن قلبها كان يخفق خفقانا شديدا، ولكنها علي رغم فظاعة مركزها كانت تشعر بأنها تزيح عن ضميرها عبئا باهظا، فحشدت قواها وقالت:

- هو الذي صار يتردد عليّ، يعرض علي خدماته، لاسيما وأنه كان ولي أمرك فى المدرسة التي ألحقوك بها، وكان يفيض علينا بالمال..

وكان عزيز إذ ذاك يذرع الغرفة ذهابا وإيابا، ثم وقف فجأة وقال:

- فبعت له نفسك من أجل هذا المال؟

قالت الأم وهي تلهث: بل من أجلكما.

وأجهشت بالبكاء..

فأحس عزيز بأن قلبه وقع فى قبضة قاسية، وأراد أن يسألها أسئلة استبقت لسانه فأرتج عليه[1]، وفى هذه اللحظة دق الباب الخارجي فأسرع إليه وقد تناول طربوشه علي غير عمد منه، ودخلت نفيسة يتبعها صبى اللبان وهما يتجادلان من أجل أواني الزبادي الفارغة. أما عزيز فأخذ يهبط السلم.

-٥-

ولم يشعر بوجوده إلا بعد أن بعد عن المنزل كثيرا، وقد هب علي جبينه الملتهب نسيم الأصيل، فالتفت فإذا به فى ميدان عابدين، ولم يكن فى هذه الأثناء يفكر فى شئ، فخال أنه فى حلم مزعج، ولكن هاهم أولاء الناس يروحون ويجيئون كلٌ لطيته[2]، والأولاد يصيحون فى لعبهم

---

(١) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام

(٢) طيته: غايته وهدفه

حول الحديقة الصغيرة، وها هو ذا سائل مجرم الهيئة يلح في استجدائه، عند ذلك خنقته العبرة، وهام علي وجهه وهو يردد في نفسه، أيمكن أن يكون هذا صحيحا؟ أيكون كياني هذا من ذلك المال الدنس؟ وأنني عشت حياتي أتنفس ريح الخنا(١)؟ وأمي التى كنت أراها أنموذجا لا تشوبه شائبة تتحطم أمامي أثيمة خاطئة.. ماذا أعمل، وأين أولي وجهي لو أني دخلت عليها فوجدت اللعين في مخدعها؟.. إذن لرويت بدمهما غليلي، ولوجدت في الناس من يعذرني، أما الآن فماذا أعمل؟

ولم يدر ماذا يعمل وأحس بحاجته إلي الراحة، وإلي التفكير، فمال إلي مشرب صغير، فتواري في جوفه، وتناول فنجانا من القهوة، ولكن ذهنه لم يهدأ، فكانت تزحمه صور الماضي غامضة متقطعة كقلم قديم، وقفز تفكيره إلي إحساس الرجل نحوه حين كتب إليه الخطاب يطلب إليه فيه «المخالصة» المشئومة، وبماذا يمكن أن ينتقم منه. حقا إن القدر كان أسبق منه إلي القصاص فابتلاه بالشلل الذي يرزح تحت آلامه هذه السنين الطوال، وسيرزح تحتها بقية حياته التعسة المنغصة، وأحس برغبة شديدة في أن يصادف قلبا مخلصا يفضي إليه بأمره، بل ليرتمي بين ذراعيه فيبكي، ولكنه أحس بأنه بات وحيدا منبوذا من الناس أجمعين، وأن هوة(٢) حفرت بينه وبين العالم، وخطر له أن يكتب للمجرم الأثيم رسالة يلعنه فيها كل اللعنة، عساها تكون الضربة القاضية، إذا كان بين جنبيه بقية باقية من ضمير يؤنبه، وفيما هو يفكر في ذلك إذ هو يفكر في الكتابة إلي أخته، وتتابعت في ذهنه صيغ شتي للكتابة.. ولكنه خاف الفضيحة في الحالتين وضاق بنفسه ذرعا، وارتد جو المكان كثيفا يخنقه، فهام(٣) علي وجهه مرة أخري.

وكان المساء قد أقبل، وأضيئت المصابيح، وهو يتابع السير في طرقات لا يستبينها حتي أنهكه(٤) التعب، وكانت فكرة الفضيحة تتردد في عقله، ثم وثبت منها فكرة أخرى «كيف كانت سمعة والدته بين جيرانها أثناء عشرتها لهذا الوغد؟»، وخيل إليه أنه محاط بمن يعرفون سره، وحفزه هذا الخاطر إلي أن يعود أدراجه إلي البيت ليعلم حقيقة مركزه بين الناس.

وكان قلبه يفيض بالحفيظة علي أمه، وكلما همس خاطر يخفف بشاعة جرمها من أنها ضحية الأقدار، اقترفت من أجلهما وفي سبيل إسعادهما خنق ذلك الخاطر، ومضي في سخط أهوج

---

(١) الخنا: الفحش والرذيلة

(٢) هوّة: حفرة عميقة

(٣) هام: مضى على غير هدى

(٤) أنهكه: أرهقه

عاصف، وفكر فى أن يقصيها عنه إلي أخته فلا يؤذيه منظرها وما يوحيه، ولكنه عاد فقرر أن يستبقيها منبوذة فى إحدي زوايا البيت ككلب أجرب، فذلك أشد إيلاما لها، ولن تطول أيامها وذلك خير. وارتعد لذكر الموت ولكنه أصر علي ما عزم، ووصل البيت فطرق الباب طرقا عنيفا، وتجهم وجهه أضعافا، ففتحت الخادم فإذا البيت مظلم ليس به إلا ضوء ضئيل فى غرفة والدته، فانكمش قلبه واحتلته روعة وفزع، وحلت فترة سها فيها عن موقفه، وأحس بدافع غريب إلى والدته ليحادثها على نحو ما اعتاد، وكأن ما كان لم يكن، ولكنه عاد إلى الحقيقة الهائلة، فأسرع إلى غرفته فأضاءها والخادم تتبعه ثم ابتدرته تقول بصوت أبح مرتعش:

- الحقنى يا سيدى أنا دمى نشف، إنت خرجت من هنا وستى كانت هنا، بصيت لقيتها اصفرت وتلّجت وقلبها بقى زى الحمامة المدبوحة، حبيت أنده لجارتنا قالت لى لأ. لأ. وراحت زى الأموات، فين وفين عبال ما فتحت عينيها، ونقلتها فى أودتها..

وكان الفتى ينصت وهو خائف القلب واجفه، وعاوده إحساس مضاعف إلى أن يذهب إليها فيسرى عنها ويلطف ما بها، وبينما هو فى أشد الحيرة وإذا بدوى يسمع، فانطلق الفتى كالسهم وقد أحس بفؤاده ينخلع من مكانه، وأضاء البهو بحركة ميكانيكية، فرأى أمه ممددة عند عتبة غرفتها، فأكب عليها وهو يقبلها، ويقول:

- أماه. أماه ما بالك؟ لاشئ.. إنك امرأة ماجدة. أماه إنك غالبت القدر القاسى فأنقذتنا وتحطمت.. أنت شريفة.. كبيرة النفس.. يا أمى قومى سامحينى، واغفرى للقدر.

ولكن الأم بذلت آخر أنفاسها قبلة خافتة على خد ولدها.. وإذا المؤذن يطلق اسم الله فى الفضاء.

الفـــخ

-١-

كان الوقت عصراً من يوم ما زال على مقربة من أول الشهر، وقد مالت شمس الصيف ففتر أوارها المرهق المزهق، وهب النسيم رطباً منعشاً، لذلك كانت العتبة الخضراء أشد ما تكون حركة وزحاماً: فمركبات فى ورود، وسيارات فى صدور، ومركبات الترام تجيء من كل صوب بركام الناس، وباعة الجرائد بين هذه وهؤلاء حائرون فى غير حيرة، مذعورون لغير ما ذعر، يضجون بأسماء الصحف، ويفترون عليها من الأنباء ما لو احتوته حقاً لكانت خالدة كصحف إبراهيم وموسى.

وكانت القهاوى التى تحف[1] بهذا الميدان من ناحيته الشرقية فى أشد ما تكون من الزحام، وتتابع ضربات أحجار النرد، ويتصاعد فى أجوائها دخان السجائر والنراجيل.

وكان ضمن الجالسين سيد قد اتخذ مكانه عند حافة «التراتوار»[2] فيما بين عمودين من أعمدة البنايات القائمة على النمط الفرنسى، المنتشر فى هذه الناحية وما يليها، وكان قد جلس على كرسى واحتل آخر بعصاه وجرائده، وما كان جلوسه اليوم فى مكانه هذا وليد المصادفة، فهو مكانه المألوف إليه كل يوم قبل أن يسبقه إليه أحد..

هنالك يجلس، وهنالك يلفت الأبصار، لأن كل شئ فى هذا السيد كفيل بهذه المهمة.. جلسته جملة، وحركاته تفصيلاً.. وجهه جملة، ومعارف ذلك الوجه تفصيلاً، فهو يجلس فى كبرياء يأخذ أقل الناس ملاحظة وأكثرهم تسامحاً، واضعاً رجلاً على رجل، متصلب العمود الفقرى، عاقداً ما بين الحاجبين، محدجاً بما تحتهما، حتى لكأنه «مشروع تمثال» ولكن أى تمثال؟ فهو من التعقيد بحيث يصعب على أدق أهل الفن أن يستنبط له عنواناً يطلقه عليه، أهو للنقمة؟ أو للتحفز؟ أم للجمود؟ تلك هى المعضلة.

---

(١) تحف: تحيط

(٢) التراتوار: كلمة فرنسية تعنى الرصيف كانت شائعة وقتها

هو مشروع تمثال لأن بشرته في لونها وخشونتها تغرى المرء بأن يعتقد أنه مصنوع من طين «الابليز»، لاسيما وجهه، ولاسيما من وجهه أنفه ولا سيما من أنفه أرنبته، فقد نقشت فيها آثار الجدرى في وضوح وجلاء، ولكنه كان بريأ بنفسه أن تعترف بهذا القبح فيموهه بمنظاره «البنس نيه»[1]، وشاربه المفتول بقوة «الكزمتيك»[2]، وملابسه الأنيقة بفضل «التقسيط»! وأمعن في خداع نفسه حتي أوهمها بأنه من أوسع الناس عرفانا بأحوال الغانيات، ومن أشدهم سلطانا عليهن، وأن نظرة واحدة يرسلها من لحظه لتسبب الهوس والهستيريا عند أصلدهن[3] فؤاداً، وأقواهن شكيمة[4].

لذلك كان يتتبع -من سماء عليائه- حركاته صديقه «جلال» وهو يجوس خلال الزحام في الميدان ليتحرش بهذه أو يحتك بتلك، وكلما تبين فشله في محاولته، وإخفاقه في مناوراته، ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة أبي الهول.

وجلال.. هو ذا الواقف تحت الساعة.. هو ذا الذى انتقل تحت المظلة على مقربة من الفتاة ذات القبعة الحمراء.. ها هو. ها هو ذا يسرع الخطا خلف ترام العباسية. هذا هو قد نصب قوامه السلهب أمام تلك الشابة البدينة ذات «المنتوه»[5] البنى يصلح من «كرافتته» ومن أطراف المنديل في صدره. ألا كيف يتمايل جسمها الرفل[6] وكيف يجاذب بعضه بعضاً.

وهذا جلال يلوح لها بشعر «منشته» تجاه كتفه الأيمن.

أغلب الظن أن هذه الحركة معناها أنه موظف في الحكومة..

ثم تجاه الكتف الأيسر..

أغلب الظن كذلك أنها فهمت من فورها بلا غموض ولا إبهام أنه ينتظر علاوة نصف الجنيه في أول الشهر القادم..

---

(١) نوع من النظارات الشهيرة فى هذا العصر

(٢) دهان للشوارب المفتولة شائع فى العشرينات والثلاثينات

(٣) أصلدهن: أصلبهن وأقواهن

(٤) شكيمة: إرادة وعزم

(٥) منتوه: كلمة فرنسية تعنى معطف

(٦) الرفل: الباذخ السخىّ

واختفت ابتسامة أبى الهول فجأة، واستدار السيد فى مكانه وقد احتدمت النقمة[1] فى عينيه، لأن يداً امتدت إلى الكرسى الذى احتله بعصاته وجرائده، ولو لم يكن القوم حوله فى شغل من حديثهم ونردهم ونراجيلهم فلم يستبينوا ما حدث، إذن لأسرعوا إلى إنقاذ الفريسة، ولرب رعديد[2] منهم هرول[3] إلى مركز البوليس القريب يطلب النجدة.

ولكن هذا محض سوء ظن منا بالسيد، فإن أساريره[4] ما لبثت أن أبرقت بقدر ما تستطيع الإبراق، بل لقد قام فى نشاط يرحب بالقادم ويشد على يده، ثم أخلى الكرسى فى حفاوة فجلسا.

- إزى مجدى بك؟

وهذا اسم القادم.

- الله يسلمك يا إسماعيل بك.

وهذا اسم السيد الذى أسأنا به الظن.

ثم سادت فترة صمت، نستطيع أن نقول فيها إنه لو جاز لمن لايعرف «إسماعيل» أن يتوهم فيه «البكوية» الحقة، لما يتكبده[5] السيد من الجهود المالية والخلقية للظهور بالمظهر الخليق بهذا اللقب، أو لو اضطر آخر إلى التسليم به، رغم وقوفه على مقدار التزييف فى هذه الشخصية المريضة إشفاقاً عليها أو اتقاء لها، فإن «مجدى» لايثير مثل هذا الوهم، ولايجشم الناس مثل هذا العناء.

-٢-

هو فتى فى الثامنة والعشرين، فى تكوينه دقة وفى وجهه ملاحة، وإنه لأصغر من سنه حجماً وأكبر من سنه نفساً، تعرف فى جبينه العريض نضرة النجابة[6]، وفى عينيه الواسعتين معنى الوثوق بالنفس ولشفتيه الرقيقتين رعشة خفية بين حين وآخر، كأنما يريد أن يسترسل فى كلام حار مندفع.

---

(١) نقمة: غضب

(٢) رعديد: خائف، جبان

(٣) هرول: أسرع

(٤) أساريره: ملامحه

(٥) يتكبد: يتكلف، ويبذل

(٦) النجابة: الذكاء والفطنة

ليس من نزق(١) الفتيان ما يجيش(٢) به صدره، وليس عن مدرسته العليا ما يريد أن يقول، ولكنها قصة حب استغرقت وجدانه ثلاث سنوات سوياً، طمح فيها إلى المثل الأعلى للحب وللإنسانية، فخدعه الحب وهزمته الإنسانية، فهو بينهما جريح موتور. ومضت أشهر وهو فى محنته طاوى الأعصاب ليس لشئ بهجة فى عينيه، ولاسبيل إلى قلبه، خائر ثائر لاتحتويه فكرة، ولايخدعه أمل، فأصبح من وجوده فى صحراء رهيبة الصمت، ومن قلبه على شفا هاوية حالكة القرار.. ففزع من صمت الصحراء، وارتعد من هول الهاوية، وأهاب بعزمته الأولى، وجعل ينفخ فيها روح الشباب بقوة اليأس، حتى عادت وعاد إلى الحياة..

رأى الفتى أن التفكير والعاطفة هما سبب البلاء فتلمس السلوى فى جو ليس فيه هذان العنصران الخطران، وأراد أن يعيش كما يعيش سواد أترابه، فعمد إلى جلال يصل ما انبتّ(٣) من صداقتهما منذ الدراسة الثانوية، وقدمه جلال إلى صديقه الذى يجلس إلى جانبه الآن..

ساد الصمت بينهما على أثر التحية التى تبادلاها، وتلك كانت حالهما منذ تعارفا، لاينفردان لأية مناسبة إلا ويفتر الحديث أو يتلاشى، ويشعر كل منهما كأنه حيال عملية تستلزم مجهوداً هو فى غنى عنه، لأن قلبيهما لم يتعارفا منذ تصافحا لأول مرة، بل لقد كانت بينهما مشادة نفسية مستورة، كانا يموهانها بالمجاملة والرسميات، فأما إسماعيل فأشغل نفسه بالتأنق فى إخراج علبة السكائر من الجيب الخلفى لبنطلونه، واستلال «مبسمه» الكهرمانى من جيب صديريته، وبالبحث عن الكبريت فى سترته، وبعد أن أرسل فى الفضاء دفعات من الدخان نظر إلى الميدان ملياً، ثم قهقه فى تؤدة ووقار كما يجب أن يقهقه العظماء، وكان مجدى وقتئذ يتلهى بتصفح إحدى الجرائد فألقاها، ليتبين ما الذى حدا بالسيد الأمجد إلى أن يمُنّ(٤) على العالم بهذه الضحكة، فعاجله هذا يقول بصوته الغليظ الرنان:

- خد بالك من جلال يا مجدى بك.

وإشار إشارة ملوك المسارح إلى حيث كان الصديق الثالث.

---

(١) نزق: طيش

(٢) يجيش: يعتمل

(٣) انبتّ: انقطع

(٤) يمن: يجود

– بقى له يا فندم أكثر من نصف ساعة وهو واقف لاعارف يروح ولايجى آه. آه. آه.

وتعجرف فى قوله «أكثر من نصف ساعة» عجرفة الرئيس الصلف حين يروقه أن يؤنب مرءوساً لعجز أو إهمال، ورأى مجدى أن هذا أحقر من أن يهتم به فلم ينبس[1]، واكتفى بأن يراقب حركات صديقه، وكان دائباً[2] على مغازلة المرأة البدينة، والمرأة البدينة دائبة على حركاتها الخليعة المغرية، ولكن شاباً آخر نزل من الترام فتقدم إليها فصافحها واختفى بها، وبعد أن جمد جلال فى مكانه هنيهة يشيع الحبيبين بطرف حسير، أخذ طريقه فى تثاقل إلى المقر المألوف، وجعل يندب سوء طالعه فى هذا اليوم، وإسماعيل بك يوسعه قهقهة ونصحاً.

ولما انتهوا من حديثهم هذا قال جلال:

– عملت إيه بعد ما سبتك امبارح؟

وكان السؤال موجهاً إلى مجدى، ولكن السيد الذى يعتقد أنه ملتقى اهتمام الجميع بادر فقال:

– أوه. دى كانت ليلة مشهودة ياريتك كنت سمعت نصيحتى وقعدت، ومجدى بك كمان، كنتم شفتوا العجايب.

ثم تريث ليرسل فى الهواء من دخان سيكارة كان أشعلها، واشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان توقعاً لما تتحرك به الحنجرة الإلهية، فتحركت.

– تعرف، أنا غلبت سعيد بك مصطفى عشرتين طاولة صايمين[3].

وأراد جلال أن يدارى صديقه فأظهر بعض الدهشة، أما مجدى فمط شفتيه امتعاضاً وازدراء، ولاحظ السيد ذلك منه فأحس له بكرية فى نفسه فكظمها، ولكنها أطلت من عينيه حين قال:

–لا يا مجدى بك، إنت متعرفش سعيد بك مصطفى، دا أمهر واحد فى مسألة الطاولة، وناس كتير يجوله علشان يلاعبوه من البلاد... من الإسكندرية وبورسعيد والسويس، وبعد أن انتهى من الموانئ انتقل إلى المدن الشهيرة، طنطا، المنصورة، بنى سويف.

(١) ينبس: يتكلم

(٢) دائبا: مستمرا بإلحاح

(٣) صايمين: أى لم يفز فيهما الخصم بدور واحد

كاد يستمر فى ذلك لولا أن قاطعه جلال بقوله:

- بزيادة بزيادة.. إنت بتتكلم عن الطاولة والا راح تسمّع لنا كتاب جغرافية مصر والسودان؟

- لا.. بس علشان تصدقوا..

ثم أخذ يشرح الدقائق الفنية فى هذه اللعبة مؤكداً أنها تحتاج إلى الصبر والروية[1] من ناحية، وإلى المجازفة والاستعداد الطبيعى من ناحية أخرى.. وإذ ذاك لم يستطع مجدى إلا أن يقول فى تهكم خفى:

- أنا أفتكر ان دى نفس الصفات اللى الواحد يحتاج لها علشان يعدى جبال (الألب) كمان مرة!!

ولكن السيد كان أبعد من أن يعرف موضع التهكم فى هذه العبارة، لذلك مرت بسلام، غير أن جلال أراد أن يغير مجرى الحديث، فأعاد السؤال وهو ممسك بركبة مجدى، لئلا يجيب عليه السيد مرة أخرى.

عند ذلك اقترب مجدى من صديقه وأخذ يقص عليه أمسه..

-٣-

لقد ذهب إلى السينما، ولكن (الفلم) كان سخيفاً، ما فى جده جد، ولا فى هزله فكاهة.. تلفيقات قوامها القفز إلى السماء بلا مسوّغ[2]، والانكفاء على الأرض بلا مبرر، وتكسير الأطباق فى جنون، والمجازفة بالحياة بين القنطرة المهشمة والقطار المسرع، وما إلى ذلك من حماقات وصبيانيات، ومع ذلك استسلم حتى النهاية، إذ لم يكن يعرف إلى أين يذهب، فلما خرج وكاد ينتصف الليل وجد أن أعصابه يقظة ما بها حاجة إلى النوم، فآثر أن يعود إلى البيت مشياً، وأن يسلك إليه أطول المسالك. وكان الهواء رطباً منعشاً، والطرقات ممتدة فى هدأة الليل، كأنما تستريح من حركة النهار وضوضائه، تتراءى على أديمها المبلل أضواء المصابيح فتحدث لها روعة وجمالاً، وكان فى الجو شعر أهاج فى نفس الفتى خواطر وذكريات، فأخلد لها ومضى يسير الهوينى، يمر به نزر[3] السابلة عائدين من سهراتهم فلا يتميزهم، ولايكاد يشعر بهم، حتى إذا ما قطع شطراً من

---

(١) الروية: التأنى والتدبر

(٢) مسوّغ: مبرر

(٣) نزر: عدد

شارع محمد على، قطع عليه تفكيره صوت يلح فى استيقافه، فوقف وأقبل على الصوت، فإذا رجل مستند إلى بعض الجدران فى زاوية قد طمسها الظلام، فاستبانه فإذا هو ثمل، لاتقوى رجلاه على حمله ولكنه كان حسن الهندام، يدل مظهره عامة على أنه ليس من السوقة الرعاع، وجعل الرجل يتوسل إليه بكلمات يقطعها الفواق[1]، أن يأخذ بناصره فيعينه على السير رحمة به، وخوفاً من أن يقبض عليه البوليس وفى هذا ما فيه من الفضيحة والعار.. فتوجس الفتى فى نفسه خيفة بادئ الأمر وهم بالانصراف عنه؛ ليخلى السيل للقدر والقانون، ولكن منظر الرجل وكلماته شفعتا له، فتغلب الفتى على مخاوفه وتردده، وأجابه إلى ما طلب.

وكان مجدى يروى الحادثة بحرارة وتأثر، وحاول السيد إسماعيل بادئ الأمر أن يظهر عدم اكتراثه، فاستدعى أحد باعة العصى الجوالين، وشرع يساومه ويحاوره، ويظهر له علمه الواسع بأمور البيع والشراء، سواء أكان بالجملة أم بالقطاعى، ويثبت له بمختلف الحجج والبراهين على أن عصاته التى فى يده هى أفضل العصى فى هذا البلد من أقصاه إلى أقصاه، ولكن فشلت محاولته أخيراً واضطرته خلابة حديث الفتى إلى الإصغاء.

أما جلال فقد أصغى باهتمام، غير أنه عندما انتهى صديقه من روايته إلى ما أسلفنا اعتدل فى جلسته وقاطعه بقوله:

– استنى شوية، أنا راح اسألك كام سؤال وأنت تجاوبنى عليها بنعم أو لا.

وشعر مجدى بشئ من المضايقات لهذه المقاطعة، ولكنه كان يعلم نزعة صديقه إلى الفكاهة فأذعن، وبدت على وجه السيد إسماعيل علائم الارتياح لأنه كان يرجو أن تسفر هذه الأسئلة عن إحراج مركز خصمه، فزاد اهتمامه بالحديث وابتدأ جلال:

– الراجل ده قصير شوية؟

– أيوه..

– وشنبه كبير أصفر؟

– أيوه..

---

(١) الفواق: الزغطة

– ووشه أبيض ومسحوب؟

– أيوه..

– عال.. ومناخيره واقفه زى مناخير الأتراك؟

– أيوه..

عال.. عال.. اسمع بقى لما أكمل لك بقية الحكاية:

ثم إنه ليحكى لك أثناء الطريق حكاية طويلة عريضة مؤداها أن أباه كان من الأغنياء، اسمه جوهرى بك –على ما أذكر– وكانت له ضيعة تضم مائة فدان من أجود أراضى القليوبية وأخصبها، وأنه عاش من ريعها عيشة البذخ والفخفخة، بين رمل الإسكندرية صيفاً، ورمل حلوان شتاء، وأن رفيقك العزيز تلقى علومه فى المدرسة الناصرية بين أولاد السراة[1] والأعيان، وكان يعدو سنى الدراسة عدواً، يأتى العشيرة كل عام كالجواد الظافر، ونال الشهادة الابتدائية بتفوق عظيم، غير أن اباه لم يرض أن يلحقه بالمدارس الثانوية خيفة أن ينتهى الأمر بأن يتوظف فى الحكومة، وكان رحمة الله عليه ورضوانه من ألد أعداء هذه الفكرة، فأرسله إلى الضيعة يتعلم إدارة شئونها، فنبغ فى ذلك نبوغاً لم ينبغه أحد، فابتكر الطرق العجيبة للزرع والقلع، مما جعل محاصيله مضرب الأمثال، فكافأه أبوه على ذلك بأن زوجه من ابنة أحد الوجهاء، فى مهرجان دام سبعة أيام، تجاوبت فيه موسيقى الجيش وموسيقى الأحداث، وتنافس فيه يوسف وعبدالحى..

ولكن أواه. رباه! وهنا ضم جلال راحتيه إلى بعضهما وجعل يقلد الممثلين حين يبكون: لقد ضاعت الضيعة، لأن أباه له صديق حميم من كبار التجار تورط فى دين هائل –لا أذكره لأننى لا أحب الأرقام كثيراً– فضمنه الوالد فيه لما فطر عليه من طيبة القلب وسلامة النية، ولكن الصديق الحميم تكشف عن نذل احتال حتى هرّب أملاكه بطرق تعجز عن مثلها الأبالسة، وبذلك أصبح الوالد مسئولاً أمام القضاء عن سداد الدين، فقامت قضية معقدة متشعبة، ودارت حرب قانونية عظمى، انتهت فى صالح المحامين وصاحب الدين، وأصبحت العائلة بعدها وليس لها مورد ولا مرتزق.

عند ذلك قطب السيد إسماعيل وجهه استياء وقال:

---

(١) سراة: أغنياء

- أو. دى حاجة محزنة جداً..

وكرر الجملة مرات لا داعى لحصرها.

أما مجدى فكان ينصت وهو محملق دهشة واستغراباً. واستأنف جلال حكايته فقال:

- وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد، فإن الوالد المسكين عندما ضاقت به السبل، وأحدق به اليأس عمد إلى إيصال كان فى حوزته فأحدث فيه تزويراً، والتزوير طبعاً يعاقب عليه بالـ..

فأسرع السيد إسماعيل يقول فى لهجة العالم الحجة الثقة:

- بالسجن طبعاً ما فيش كلام تانى..

- وأرسل فى الفضاء دفعة من الدخان يؤكد بها كلامه..

- عليك نور وهذا ما حصل، وتكاثرت الهموم على الرجل فمات فى سجنه.

فعبس السيد إسماعيل وتولى بوجهه وهو يقول:

- أو.. بلاش السيرة دى ياجلال بك لحسن أنا عصبى ما أقدرش أسمع أكثر من كده..

وأوشك مجدى أن يضحك من هذا الادعاء العجيب، ولكنه خشى العقبى، فالتفت إلى جلال وقال:

- الله.. انت تعرف الراجل ده على كده ؟!

فقال جلال:

- اسمع بقية الحكاية وبعدين شوف إذا كنت أعرفه ولا لأ..

وبعد أن أطمأن السيد إسماعيل على مزاجه، استأنف روايته:

- ويكون الحديث قد انتهى بكما إلى حارة مظلمة قرب (القلعة)، وما تدخلانها حتى تزداد خطوات الرجل تثاقلاً وارتباكاً، ولا تسيران فيها طويلاً حتى تبلغا منزلاً حقيراً، وهنا تهم جنابك بالانصراف، ولكن الرجل يتشبث تشبث السكارى، ويقسم عليك إلا أن تدخل معه، فتمانع ثم تسمع صوتاً ناعماً من أعلى السلم فتلين.. أليس كذلك ؟

فقال مجدى فى شئ من الخجل:

– يا أخى انت عفريت..

– طيب اسمع.. تصعد بالرجل، وما هو إلا أن تبلغ (الكنبة) التى فى الفسحة حتى يتهالك عليها مخموراً فاقد الحواس.. فيستولى الذعر على امرأته فتسرع إليه فى قميص نومها مفككة الأزرار مرسلة الشعر.. عند ذلك تشعر بأنه من الواجب عليك أن تنزل ولكنك لاتفعل.. أليس كذلك؟..

وبعد أن تطمئن المرأة على سلامة زوجها تلتفت إليك فتعتذر وتعتذر، وتبدى أسفها الشديد على ما سببه لك هذا (الخيبان الندمان) من المشقة، ثم تدعوك إلى أن تستريح قليلاً فى الغرفة المجاورة، ويؤكد عندك الدعوة شخير الرجل الملقى على الكنبة.

وفى داخل الغرفة تسترسل المرأة فى شكاية محزنة أليمة، مما تقاسيه من مرارة الفقر المدقع الذى يضطرها أحياناً إلى أن تبيت على الطوى، وسلوك زوجها الزرى الذى لوث سمعة عائلته المجيدة، وعائلتها العريقة فى الحسب والنسب.

ثم تمطر اللؤلؤ من النرجس(١) وتسقى الورد(٢)، وتعض على العناب بالبرد(٣)، أليس كذلك؟

وأنت طبعاً ذو إحساس، وأنت بلاشك ذو قلب يرق لدموع المرأة. حصل ولا ما حصلشى؟..

فقال مجدى وقد احمر وجهه خجلاً:

– الله يلعنك.. بس بزيادة بقه (ثم عاد فقال فى دهشة):

– إنما هى العبارة كده؟ أما فخ إنما مضبوط..

وعز على السيد إسماعيل أن يتهم بأن هنالك امرأة يعرفها غيره ولايعرفها هو فقال:

– أنا افتكرت دلوقت.. مش هى تجدها طويلة كده وسمينة وعينها ضيقين شوية..؟

---

(١) تمطر اللؤلؤ من النرجس: أى تبكى

(٢) تسقى الورد: أى يسيل دمعها على الخدود

(٣) تعض على العناب بالبرد: أى تعض على شفتيها بأسنانها البيضاء

فتظاهر جلال بأنه لم يسمع.. أما مجدى فقال فى ابتسامة متكلفة:

- أنت تعرفها كمان يا إسماعيل بك؟

- ازاى ما أعرفهاش.. أنا كنت هناك الجمعة الماضية.

فابتسم الفتى ابتسامة أخرى وقال:

- لازم الراجل يكون طلق الست اللى بتوصفها دى بعد ما نزلت من عنده على طول..

فلم يستطع جلال إلا أن يضحك ضحكة عالية.. أما السيد إسماعيل فاستوقف بائع عصى آخر وأخذ يساومه ويجادله.

الكهلة المزهوة

-١-

كانت (زهرة) عند بداية هذه القصة فى الثانية والأربعين من عمرها، وقد مات زوجها الثانى منذ حين، وكانت عقيماً لم ترزق ولداً، وكانت تسكن داراً ورثتها عن أبيها، وتعيش عيشاً رغداً من ريع أفدنة ورثتها عن زوجها الأول، ولم تكن زهرة بمكروهة من جاراتها فهى حسنة المعاشرة على وجه الإجمال، غير أنه لكل ابن أو بنت آدم موضع ضعف، وموضع الضعف من بنت آدم هذه أنها كانت شديدة المبالغة فى تقدير جمالها، حتى كانت من هذه الناحية -موضوع سمر صديقاتها إذا اجتمعن وغابت عنهن.

وفى الحق إنها كانت شابة الجسم، والجسم كثيراً ما يحتفظ بشبابه إلى ما بعد الشباب بكثير، وهنا غلطة زهرة، فقد كانت تنظر إلى المرآة بعين الماضى، فلاتلحظ ما حل بأجفانها من ذبول الكبر، وما غادر نظراتها من بريق الصبا، ولاتستبين تلك التجعدات الدقيقة التى أحاطت بشفتيها بل كانت ترى محياً نضيراً ريانا بماء الجمال، ومن ثم كانت تتحدى الفتيات بل وتقلد سذاجتهن، وتستبيح ما يبيحه نزقهن.

وجاء وقت فيه استبانت زهرة أنها كلما خرجت إلى عمل لها أو زيارة أبصرت شاباً لم يتجاوز الثلاثين، يعرض لها عند كل منعطف وعلى رأس كل طريق.. ووجه زهرة المليح الصبيح لايعرف العبوس، وشفتاها القرمزيتان المفترتان[(١)] لم تعتادا غير الابتسام، وقوامها الغض البض[(٢)] إذا مشت يتثنى -لا عن تعمد- بل لما أودع فيه من لدونة[(٣)] لاتقاوم، وفؤادها اللعوب الطروب لا يعلم من لؤم الإنسان كثيراً أو قليلاً، ثم إن الخادم -وإنها لريفية- لها من الدمامة ما لو وزع على جمع لأربى[(٤)].

---

(١) مفترتان: مبتسمتان أو منفرجتان عن ابتسامة خفيفة

(٢) بضّ: رقيق الجلد ناعمه فى سمنة

(٣) لدونة: ليونة ورقة

(٤) أربى: زاد

دخلت مخدع سيدتها يوماً لتصلح من شأنه على عادتها، فارتاعت، وهمت بإغلاق النافذة، وهى تعلن فى وجل من دهمته فضيحة مفاجئة أن رجلاً فى (بلكون) النافذة ينظر إليها ويصفر.. وكانت سيدتها على مقربة من النافذة، فنهرت الخادم، وراحت تعنفها بصوت لين النبرات ساحر، وأبت إلا أن تتعهد بنفسها منذ يومها أمر المخدع، وشرعت على التو تنجز ما وعدت، ومن المسلم به أن عملية ترتيب الفراش تستلزم الاعتدال والانحناء، والتثنى والالتواء، ونصف دستة من حركات أخرى، قد -أو بلا شك- تعد خارجة عن حدود الاحتشام، إذا كانت المرأة فى غير خدمة دارها.

ومضى زمن، وتحركت الألسن بخبر الأرملة وفتاها الذى يعرض لها فى الطريق وفى البلكون. على أنه وإن كان عمال السوء كثيرين يستمرئون[١] أن يتحينوا[٢] الغفلة من سواهم، إلا أن المروءة لا تعدم أنصارها، فقد ذهبت صاحبات مخلصات إلى زهرة، وشفع لهن الود الطويل فى أن يصارحنها بجلية ما يدور حولها، وكانت بينهن من تعرف أخبار كامل (وهو اسم الفتى)، لصلة لها بأسرته، فأنهت إليها أنه من أسرة مجيدة حقاً، ولكنه غوى[٣] منذ صغره، فلم يفلح فى المدارس العدة التى ساقوه إليها، وشب شاباً عربيداً حتى ليقال إن والده مات من حسرة عليه، فلما آلت إليه الثروة -وهى ثروة لابأس بها- أعمل فيها طيشه حتى بددها جميعها، وإنه مع حداثة سنة مزواج، وله فى هذا الصدد نوادر تروق، وألاعيب لها العجب، كلها ترمى إلى اقتناص الثروة، والاستعانة على الظهور بالبذخ والأبهة.

على أن المروءة لم تعدم نصيراً آخر فى شخص (الشيخ عبدالمولى)، وعبدالمولى هذا مثلث المشيخة، فهو شيخ بعمامته البيضاء المستفحلة فوق رأسه، وهو شيخ بلحيته الغبراء[٤] المسترسلة فوق صدره، وهو شيخ بما رسخ عنه فى أذهان بعض أهل الحى من تجاف[٥] عن مفاتن الدنيا، وانصراف إلى مناعم الآخرة، وعلى الرغم مما يؤكده البعض الآخر فهو عكس ذلك، وهو يتردد على بيوت المريدين، يقضى أعمال التعاويذ والتمائم بإيلاف القلوب أو تفرقتها حسب الطلب، وهو فى كل بيت دخله مستودع الأسرار، وحلال المعضلات، وصاحب الرأى الذى لا يصد ولايرد.

---

(١) يستمرىء: يستعذب ويستحسن

(٢) يتحين: يقتنص

(٣) عوى: فسد ووقع فى الغواية

(٤) غبراء: بلون الغبار لما فيها من شعر أبيض

(٥) تجاف: ابتعاد

لاذت به زهرة فبثت له نجواها، واعترفت له بأنها تحب كامل حباً هي منه في سهاد ولوعة وألم، وتوسلت إليه أن يرشدها إلى ما تصنع، أو أن يصنع لها رقية يكون لها فيها العزاء والسلوى، وانتهت بأن وعدته وعداً معززاً بأغلظ الأيمان، أن تهدى إليه كسوة من خالص الحرير إن هو أعانها على ما تهوى، فغمغم الشيخ ملياً يستغفر الله العظيم، ثم وعدها خيراً، وأوصاها بأن تستعين على قضاء حاجتها بالكتمان.

-٢-

وكان من الكتمان ومن مساعى الشيخ أن فوجئ أهل الحى بنبأ زواج زهرة من كامل، فقابلوه بالدهشة وبالسخط العظيم، ولكن ماذا يهم الزوجين وقد أدركا النشدة[١] وتم لهما المراد، وإنهما الآن فى أتم سعادة وأوفى هناء، فكامل وديع كالحمل، ودود كالحمامة، محب مخلص ونصوح، وأنه المثل الأعلى للأزواج.

ولطالما تحدثت إلى نفسها أو إلى غيرها بأن تدخل صديقتها أولاً إنما كان عن فضول أو عن حسد، وطغى حب كامل على فؤادها وعقلها حتى لينتابها شبه هستيريا إذا هو تأخر، ولو قليلاً، عن مواعيده المألوفة، وكلما دخل عليها البيت شعرت لمقدمه بفرحة كأنما لقيته للمرة الأولى، أو كأنما عاد من سفر طويل، تهلل له كالطفل حين يلقى أباه محملاً باللعب.

وكان من ذلك أن عاود وجه زهرة نضارة، وسطع فى عينيها بريق، وازداد جسمها رواء[٢]، وكان من ذلك أيضاً أن انطلق لسانها فيمن بقى لها من الصاحبات بذكر أدق أسرارها الزوجية، لا تخفى منها خافية، وإن أيسر ما تستطيع أن ترويه عنها أنها أحياناً تستيقظ ليلاً، ويكون الفتى فى سبات عميق، فتهوى عليه تقبيلاً، حتى يستيقظ، وحتى ينالها منه لو كلمة واحدة.

كانت ليلة من تلك الليالى التى يتوانى القمر فيها حتى يهجع كل خلى، فلا يطلع إلا على شجى يستجديه، أو شاعر يستوحيه، أو عشيقين أبى الغرام أن يكونا من النوام. وكان كامل وزهرة من الصنف الأخير، وفيما هما عند نافذة الغرفة، والفتى باسط ذراعه قدر مستطاعه على خصر زوجته يناجيها -وفمه على قيد أذن من أذنها- همس إليها بحديث حلو، فحواه أن وجود أرضها

(١) النشدة: الهدف المرتجى أو المنشود

(٢) رواء: تألق

جانب أرض زوجها الأسبق مصدر للنزاع، والأهم من ذلك أن اتصالها -على أى صورة- بآل الزوج الفقيد يثير غيرته.. ويؤلم عواطفه، فهى زوجته (احمرار فى الوجه)، وهى شابة (خفقان فى القلب)، وهو لايريد أن تمتد إليها نظرة من سواه (تنميل فى الجسم)، وإذن، فالخير والسلامة فى أن تباع تلك الأفدنة، ويستعاض عنها بأخرى أحسن مركزاً وأجود تربة، ولما كانت هى فى الوقت نفسه سيدة لايجدر بها أن تقوم بتلك المهمة، وأن تواجه ما تقتضيه من مكالمة الرجال، فالخير والسلامة أن تستصدر له توكيلاً عنها، حتى يستطيع أن يقوم هو عن طيب خاطر بكل ما تستلزمه العملية من متاعب ومشاق.

فتم الرضى فى الحال.

ودخل عليها عشية يوم يزف البشرى، فقد اشترى باسمها ضيعة فى منوف، ففرحت المرأة أيما فرحة، وأشاعت الخبر شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً.. وتوالت الأيام وأحبت زهرة أن تتسلم الحجة لتضعها فى صندوقها ولكن الحجة مودعة فى أحد المصارف، والمصارف آمن جانباً من صناديق المنازل. وتوالت الأيام فاشتاقت زهرة إلى أن تزور ضيعتها، ولكن الضيعة مؤجرة منذ كانت فى حوزة المالك السابق، إلى أناس لايعرف طباعهم، وسوف ينتهى أمدهم بعد شهرين، وإن غداً لناظره قريب.

وكامل له فنون وحيل..

هذا رجل من الريف يوقف حماره المحمل بالغرائر[١] أمام البيت، ويتوسط الريفى صحن الدار، ويتساءل فى تجاهل وصوت جهير عما إذا كان هذا بيت (الست زهرة)، صاحبة العزبة التى فى منوف؟ وإذا بصوت رنان يجيبه من أعلى الدار:

- أيوه يا خويه أدينى أهه.

- بس الحاج شناوى مستأجر عزبة حضرتك بعت معايه أردبين قمح زى بشارة. وكل عام وأنتم بخير..

- الله يبشرك بالخير، دخلهم وانتظر لما تقابل كامل بك.

---

(١) غرائر : جمع غرارة أى زكيبة أو جوال

وماذا بعد؟

كامل وحده يعلم ذلك..

-٣-

أقبل شهر يولية وأصبح الحر في القاهرة لايكاد يحتمل، وفي يوم من أوائله جاءها عبدالمولى قبيل الظهر، فجلس إلى جانبها على كنبة في الصالة، وبعد أن كح وكح، ثم كح وكح، وأخرج منديله الأحمر الكبير فبصق فيه ما شاء أن يبصق، وبعد أن لمّ جبته، وحرك عمامته، واهتز في مكانه ملياً، وهو يتمتم بشفتيه ويعبث بأصابعه في لحيته، طلب إلى زهرة أن تقصي الخادم عنهما إلى حين، إذ إن لديه حديثاً ذا خطر يستدعي الانفراد والتكتم، فقامت زهرة على الفور تصدع[١] بما شاء، وقد أدركتها الدهشة لطلبه غير المألوف منه، وتسرب إلى نفسها التشاؤم، لما كان يبدو على وجهه من الجد القريب من الكآبة، فلما عادت إلى مجلسها منه، لبث عبدالمولى صامتاً هنيهة، والمرأة ساهمة إليه، ومع أن إحدى عيني الشيخ كانت عوراء، والأخرى يمكن أن يقال إنها عوراء كذلك، إلا أنه خيل إلى زهرة آنئذ أنه مبصر، وأن بصره ينفذ إلى أعماق نفسها، وهمت بأن تهيب به ليبدأ حديثه، ولكن خوفاً أمسك لسانها، وفي الوقت نفسه تكلم الشيخ فقال:

– في الغالب أنك لم تلاحظي أي تغيير في أخلاق زوجك في المدة الأخيرة، لأن كامل أفندي كان شديد الحرص على ألا يفسد هناءك، أو أن يقلق بالك.

فاشتد خفقان قلب الزوجة، وأرادت أن تشرح وجهة نظرها فيما قاله الشيخ، ولكنها آثرت الصمت استعجالاً لما يجيء، واستطرد عبدالمولى فقال:

– في الحقيقة ونفس الأمر، إن زوجك كان في كرب عظيم -اهدئي حتى أتم حديثي- فمن شهر تقريباً لاحظ كامل أفندي أن رجلاً من الأعيان، ومن غير هذا الحي، يحوم حول الدار ويتطلع إلى النوافذ، فشك زوجك في أمره، وصار يراقبه حتى تأكد له أن يتطلع إليك أنت.

وأخرج الشيخ علبة السعوط[٢] وأخذ يحشو منخاريه، وانتهزت الزوجة هذه الفرصة لتقول في لهجة من ألقيت عليه تهمة باطلة (والنبي لا أعرفه ولا يعرفني، ولاوقعت عليه عيني أبداً..) فقال عبدالمولى ولم يرد العلبة إلى مكانها بل جعل يعبث بها بين يديه.

---

(١) تصدع: تستجيب للأمر وتنفذه

(٢) السعوط: النشوق

- معاذ الله، معاذ الله، كلنا نعلم علم اليقين أنك شريفة طاهرة، القصد كامل أفندى ذهب إلى الرجل المتطفل، ونصح له مثنى وثلاث ورباع فما استحى، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

فغمغمت زهرة تصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتستنجد به، وكأن تصريح الشيخ بشرفها وطهارتها قد طمأنها بعض الشئ.. من ناحيتها على الأقل وتابع عبدالمولى حديثه:

- فلما لم تنفع النصيحة تربص[1] زوجك لهذا الماكر فى الشارع العمومى، وأوسعه ضرباً وشتماً ولكماً، حتى سقط مغشياً عليه.

فأهوت زهرة على صدرها بضربة هائلة وهى تقول:

- يا ندامة وهو.. وهوه جرى له إيه؟

وكانت علبة السعوط قد أفلتت من يد الشيخ وهو يمثل الضرب واللكم، فجعل يبحث عنها حواليه دون أن يجيب سؤال المرأة، حتى كاد يجن جنونها، وراحت تعاونه بحركات تشنجية فى البحث عن ضالته، حتى وضعتها فى يده، عند ذلك قال:

- لم يحدث له شئ يذكر.

وعلى الرغم من هذه النتيجة المرضية فإن عواطف الزوجة آدها[2] الاحتباس الطويل، فانفجرت أدمعاً اغرورقت بها عيناها، واهتز الشيخ فى مكانه، وتنحنح، واستغفر الله مراراً وتكراراً، حتى شعرت زهرة تماماً بأنه يتأهب للنقطة الخطرة فى الموضوع، فسهمت إليه وشفتاها ترتعشان، وقال الشيخ آخر الأمر:

- وبالطبع حادثة كهذه لايمكن أن تنتهى عند هذا الحد.. ولكن اقسمى لى أولاً بأن تلتزمى العقل والهدوء وإلا..

فقاطعته زهرة تكيل محرجات الأيمان.

- الرجل الوجيه، بل السفيه، قام فى الحال ورفع قضية ضد زوجك. وفى الحال نسيت

---

(١) تربص: ترصد خفية

(٢) آد: أرهق

زهرة إيمانها وصاحت.. (قضية؟ ياخبر أسود)، وأمسكت بتلابيبه كما لو كان هو المسئول. علي أنه لم يأبه بفعلتها هذه، وقال وفي كل مظاهره الجد:

–إن مابقي كان أعظم، يجب أن تتشجعي (فتخاذلت يد المرأة، وسقطت علي ركبتيه) كان اليوم ميعاد نظر القضية، وعلي رغم الدفاع المجيد الذى قدمه زوجك فقد نفذ المقدور.. وحكم عليه بالحبس شهرين.

وإن ما أحدثته زهرة إثر سماع ذلك النبأ من ضروب الجزع لمعقّد وفظيع، وعبثاً حاول الشيخ عبدالمولى أن يهدئ ثورانها الجنوني، ولكنه قال لها وهي لاتكاد تصغي إليه: (إن رجاء زوجك أن تكتمي هذا الخبر، وأن يعلم الجميع أنه سافر إلى العزبة).

–٤–

واستبد بزهرة حزن عاصف، هي منه حيرى في غرف البيت، لاتطيق إحداها ولاتطمئن إلى أخرى، وكأنما كل شئ من معالم البيت كان يذكرها بكامل، وبكلمة منه حلوة هنا، أو بجلسة إلى جانبه هنيئة هنالك، فتذرف الدمع الهتون[1] إما بصوت وإما من غير صوت، على حسب قرب الخادم أو بعدها، هذا طوال اليوم، فإذا ما أقبل الليل، انطرحت على الفراش منهوكة، ولاتزال تصلى السهاد[2]، حتى يدركها نوم مضطرب ملئ بالأحلام المفزغة، التى كانت زهرة تعتقد أثناء حدوثها أنها حقيقة لاشك فيها، لما تتبينه فيها بدقة من معارف الوجوه على بشاعتها، ومن وقع الخطوات ونبرات الأصوات، حتى لتهب من رقادها منزعجة، وقد تضيء الغرفة إلى الصباح.

ومن ذلك أنها رأت ذات ليلة أن الشيخ عبدالمولى يتسلل بها فى طرقات ضيقة، ومنعرجات تعلم أن بها لصوصاً وقتلة، وهما يسيران وجلين خائفين، حتى انتهيا إلى بيت واسع خرب، كان لها فيما مضى ورباعته منذ أمد طويل، فدخلا غرفة فيه، وإذا بحراس متجهمين مدججين بالسلاح، وإذا بقضاة كلهم أشبه بعبدالمولى، وإذا بعبدالولى نفسه قد انضم إليهم، وهم أجمعون شاخصون إلى زوجها الماثل أمامهم، ممتقع اللون، مطأطئ الرأس، وما كاد القضاة يرونها حتى صاحوا (ها هى ذى السبب، اقبضوا عليها)، فولولت من هلع، وفرت كالمجنونة، والجند فى لحاقها، حتى استيقظت وهى تكاد تصيح تطلب النجدة.

---

(١) هتون: غزير مدرار

(٢) سهاد: أرق

هي السبب.. هي السبب..

هذا الاتهام لم يكن يلقى عليها في أحلامها فحسب، بل كثيراً ما كانت تلقيه على نفسها في وحدتها بصوت مسموع، وفي دموع صامتة، والنساء القابعات في دورهن، المبعدات قهراً عن العالم الجياش بأسباب الحياة، المنزويات قسراً عن أية مخاطرة أو تجربة هن بله[1] القلوب والرءوس، يفرحهن الأمر السار إلى حد السذاجة، وتذهب الصدمة الأليمة بأبسط مزايا الرزانة منهن، ثم إن الفرحة لاتدوم في قلوبهن طويلاً، لأنها في الحقيقة نشاز على نغمة حياتهن المملة الحزينة في الواقع، أما الذي يدوم ويطغى فهو الحزن، لأن مشاعر الإنسانية الموتورة[2] في تلك القلوب المقفلة تنتهز من الصدمات -وإن تفهت- فرصة للانفجار والاحتجاج غير المباشر.. من ذلك كان ما أصاب زهرة من (الميلانخوليا)، أو ما هو أقرب إليها حيال تلك الصدمة.

على أن السلوى هي أيضاً من الغرائز البشرية، وإن أسبابها والفكرة التي تبعثها في النفس الآسية تكون بالطبع وفاقاً للعقل، الذي إما أن يبتكرها، وإما أن يتلمسها في المحيط به، وماذا عسى تتلمس زهرة في المحيط الآسن من موجبات السلوى؟ على أنه لما هدأت عاصفة حزنها الأولى، واستقل منها العقل نوعاً من ثورة العاطفة الهوجاء التي اجتاحته، أخذت فكرة أنها (هي السبب) تتكيف، فتصير مصدر العزاء، أو لم يحدث لزوجها ما حدث من جراء حبه لها، والغيرة عليها؟ ثم إنه كتم الأمر عنها خشية انزعاجها وإقلاق بالها؟ وإن الأمد[3] لن يطول حتى يعود إليها مخلص الحب ثانياً.

وهكذا استطاعت زهرة أن تخرج إلى لقاء صديقاتها، بعد أن كانت قد سجنت نفسها عنهن نحو الأسبوعين، واستطاعت كذلك أن تتكلف أمامهن مرحها المعتاد، ولكن حدث أن زهرة ذهبت يوماً إلى زيارة بعض جاراتها، وعلى الرغم مما أصاب زهرة من الهزال، وما أبانه الهم عليها من علائم الكبر الواضحة، فإنها استرسلت في صنوف السذاجة الصبيانية، وإيراد محامد زوجها عامة، وبخاصة نشاطه الحالي في تفقد حال ضيعتها الجديدة، تمهيداً لتسلم مقاليد أمورها في القريب العاجل، ولشد ما كانت دهشتها، بل ذهولها، حين اعترضتها صديقتها، فأنهت إليها أن ابنها كان

---

(١) بله: خفيف أو أحمق

(٢) الموتوره: المستكانة الراسخة

(٣) الأمد: الوقت أو الفترة من الزمن

بالإسكندرية طول الشهر الماضى، وقد عاد منذ يومين، وقد أخبرها أنه كان يرى (كامل أفندى) طول مدة إقامته، وأنه يرتاد أفخر محال اللهو، وينفق بإسراف يلفت النظر أحياناً.. فكابرت زهرة فى صدق الرواية؛ حتى جيء بشاهد العيان، فأعلن ما قالته أمه، وذكر اسم الفندق الذى يقيم فيه كامل، واسم الشارع، وجميع التفاصيل التى لاتدع مجالاً لريبة أو مكابرة.

على أن زهرة استطاعت أن تتجلد حتى انصرفت.

وقبيل الظهر من اليوم التالى بينما كانت شوارع (الرمل) من الإسكندرية فتانة بزهوها وبهائها، منعشة للنفس بالنسيم البليل، والمصطافون يزحمون تلك الشوارع إما جلوساً على المقاهى والمشارب، وإما سائرين على الأقدام، بين مبطئين ومسرعين، والعربات والسيارات ذاهبة جائية بجموع من فيها، وأصوات الباعة تتجاوب هنا وهنالك، والكل بادى الفرح والابتهاج، أو الكسل وعدم الاهتمام، شأن من يريد أن ينعم بالحياة حيناً، أو يتناسى مسئولية الكد والعمل حيناً، نقول فى أثناء ذلك كانت عربة تسير ضمن هذا الزحام، وفيها سيدة يجلس قبالتها شيخ، والسيدة ممتقعة اللون، منتفخة الجفون، مترهلة الخدود -يظهر ذلك بوضوح من خلال نقابها المسبل على وجهها، والذى يجزم من يراه مهما كانت نزعته إلى تحرر المرأة، أن شفيفه وأسلوب وضعه، والزخرف الذى فيه، كل ذلك لايتفق مع سن تلك التى يخيل إليها أنها محجبة وراءه. فأما الشيخ فكان قبالتها كما أسلفنا يتمتم بشفتيه، ويجرى أصابعه فى لحيته، وكان يحاول على الدوام أن يحتل أصغر حيز ممكن، وكانا صامتين ذلك الصمت الذى يعقب شجاراً طويلاً نضب(١) فيه الكلام.

ووقفت العربة أخيراً أمام فندق فخم، ونزل الشيخ فتقدم فى تهيب واضح إلى أحد الخدم، وأسر إليه سؤالاً، فهز الخادم رأسه بالإيجاب وبعدم الاكتراث معاً، فبلع الشيخ ريقه، وأسر إليه رجاء وهو يمر يده على لحيته وتارة يشير بها إلى جوف العربة أخرى، وبعد أن تلكأ الخادم ملياً، استدار وتوارى داخل الفندق، وبعد فترة خالها المنتظران دهراً، كان فتى يهبط السلم فى اهتمام، ويتقدم نحو الباب بخطوات واسعة، فلما وقع بصره على الشيخ ابتدره فى الحال قائلاً:

- إيه اللى جابك هنا يا شيخ عبدالمولى؟

على أن الشيخ عبدالمولى لم تتح له فرصة الإجابة، إذ برزت السيدة من العربة، وراحت تنفجر بالشتائم والمثالب، وتذكر أفدنة بيعت ومالاً سلب، وجعلت تهدد الشاب والشيخ بالويل والثبور،

---

(١) نضب: جف معينه، انتهى

وعظائم الأمور، حتى اجتمع أمام باب الفندق جمع حاشد من الناس يتساءلون فى دهشة عن النبأ العظيم، والسيدة مسترسلة فى صراخها وشكواها ووعيدها، وكان الفتى مذهولا لايفتح فاه، ولاينبس بكلمة، وأخيراً تدخل فى الأمر رجل وقور، فتقدم إلى السيدة وقال:

- يا سيدتى.. ليس هنا مكان الشجار والتعنيف. إذا كنت تريدين أن تعنفى ابنك فليكن ذلك فى البيت أو داخل الفندق على الأقل..

وقال آخر فى لهجة الناقم:

- لعنة الله على أبناء هذا الجيل. مسكينة هذه الأم!!

وعززه ثالث فقال:

- إن من يبتليه الله بولد فكأنه ابتلاه بنقمة والعياذ بالله!

فقالت السيدة فى دهشة عظمى وبصوت أبح (ابنى!) ثم تلجلج لسانها بكيفية أضحكت الجميع، وإذ ذاك تقدم إليها الفتى وقال لها همساً وهو يبتسم.

- تسكتى بعد كده ولا أصرخ وأقول إن حضرتك زوجتى.. مش والدتى، خليكى عاقلة وتعالى نتحاسب جوه..

كان الشيخ على بعد نسبى، ومع أنه لم يسمع ما قاله الفتى، إلا أنه كان يفتر[1] عن ضحكة شيطانية، ويعبث بأصابعه فى لحيته.

---

(١) يفتر: يفتح فمه

ماذا يقول الودع؟!

إلى يمين الداخل غرفة مهجورة يختبئ فيها الليل أثناء النهار، وبين أكداس الظلمة المدلهمة، وأنقاض الحوائط المتهدمة، يكمن عفريت لبواب قضى كهولته فى خدمة المنزل، ثم قضى قتيلاً، وعلى الرغم من انتهاء حياته بهذه المأساة، ما برح يشعر بأن واجبه لم ينته بعد، وأن حتماً عليه أن يستأنفه، فإذا ما برز الليل، وهجع النوام، خرج فى حذائه الثقيل يعمل المكنسة فى صحن الدار.. على أنه مجهود ضائع، ففى ناحية من البيت طاحونة مضت عليها عشرات السنين، ولم نسمع لها جعجعة، ولم ير أحد لها طحناً، فاستوطنها نفر من الجن بين ذكر وأنثى، ولهم صبية صغار، وأغلب الظن أن صغار الجن قد أخذوا عن صغار الإنس «الزئيط» وسوء الحال، فهم يخرجون إلى صحن الدار يطقطقون بأقدامهم ذات الحوافر، وليس أشهى إليهم من معاكسة البواب، فيدورون حوله، ويرجمونه بالأحجار وهو يلين لهم حيناً، ويشتد حيناً، وما يزالون حتى ترميهم ذكاء[١] بأولى سهامها فيفرقوا ويتفرقوا..

هذا ما يشاع عن منزل (السنجق) بالمغربلين، يرويه البعض بتحفظ، وآخرون يقررونه على أنه حقيقة هم عليها شهود، ولكنها حقيقة ذات لونين متناقضين، فمن معتقد يحمل الناس على الاعتقاد بأن سكان الطاحونة من الجنة البيض المسالمين، الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويذهب فى وصف جمال إناثهم إلى سخف غير محدود، ومن معارض لا يريد أن يكذب عيني رأسه، فيؤكد فى حماس وهول أنهم من الجنة السود، عيونهم نار، ولأنفاسهم أوار[٢]، ولولا أن (أسماء) تحكمهم بيد من حديد، لعاثوا فى الأرض مفسدين.

ومن ذا تكون (أسماء) هذه التى تكبح أهواء الجنة، وترد عن الناس شرهم؟ هى الساكنة الوحيدة لما لايزال فيه رمق للسكنى من غرف تلك الدار، وقد آوت إليها منذ سنين، قضت أوائلها فى مثل عزلة النساك، إلى أن تمشت ألفة بينها وبين شيخ وشيخة زوجين، كانا يقيمان فى جناح

---

(١) ذكاء: الشمس

(٢) أوار: صهد محرق

مقابل، بلغ من الرثاء والبلى[١] بحيث لايخاطر بحياته فيه غيرهما، فاتخذا منها ولداً، واتخذت منهما والدين، وتألفت من ثلاثتهم (يوطوبيا)[٢] صغيرة، توفر لأسماء فيها ما كانت تفتقر إليه من عطف وإخلاص، فاندمل جرح كان في فؤادها ينزو[٣].

وكانت أسماء تحذق العرافة بالودع، ولم تكن بادئ الأمر تصطنعها إلا للتلهي، وصادفت نبوءاتها للعجوزين حقائق ساقها القدر، فراحا يذيعان في الحي نبأ ذلك الفضل العظيم، فذاع وأقبلت كل ذات هم وغم تبث للودع نجواها، حتى أصابت أسماء من العرافة رزقاً، وأصبحت لها مورد عيش، وتزايدت ثقة الناس بها، وتشعبت مبالغاتهم عنها، حتى انتهت باعتقادهم في سيطرتها على أهل الطاحونة، فهي تستوحيهم في قضاء ما يطلب الناس إليها من الحاجات.

وتجاوز اسم أسماء الحي الذي تسكنه، فأصبح السنجق يؤتى من جهات بعيدة، بابه أبداً مفتوح على مصراعيه يرحب بكل زائر ومريد، وقال الناس: (لقد حباها الله بفضله، إنها لسعيدة)..

وتتابعت الأعوام..

وفي أحد الأيام جاءتها امرأة تتهادى فيما عليها من مظهر النعمة، وما أن تبينتها أسماء حتى اندفع الدم في رأسها يغلي، وهمت بأن تصيح في وجهها بجملة ماهي آتية من أجله، ولكن الهدوء الذي أمضت أسماء فيه تلك السنين أثلم[٤] منها حدة المشاعر، وأسكن قلبها السلام، فكان إذن يسيراً عليها أن تكظم ذلك الإحساس المفاجئ، واستبانت من فورها رشداً، فردت تحية الزائرة في هدوء، وأشارت إليها بأن تجلس قبالتها، ففعلت الزائرة دون أن تلاحظ شيئاً مما كان، ثم طلبت الودع فنثرته أسماء على منديل نشرته فيما بينهما، فرمت الزائرة قطعة من الفضة، لأن الاعتقاد السائد يقرر أن الودع وما شاكله لا يقول الحق إلا إذا أنقدته سلفاً، ولكن أسماء أعادت إليها القطعة على خلاف ما تصنع مع غيرها، بحجة أنها لا تأخذ شيئاً حتى يصدق الودع.. فأكبرت الزائرة ذلك منها، ثم طلبت (رجلاً وامرأة) فناولتها من المجموعة ما يرمز إلى ذلك، فوسوست بسريرة نفسها وأعادتهما إلى الرموز الأخر.

---

(١) البلى: القدم والتهدم

(٢) يوطوبيا: عالم مثالي كالجنة

(٣) ينزو: يوجع ويخرج صديده وينقح

(٤) أثلم: خفف وأضعف

عند ذلك لمت العرافة الودع فى كفها، وهزته ثلاثاً ثم نثرته وساد الصمت والعرافة تمعن[1] النظر فيما أمامها، وتلمس بعضه بطرف البنان، ثم رفعت رأسها وقالت:

- اسمك من أسماء بنات النبى: رقية أو زليخة أو فاطمة أو كلثوم.

قالت الزائرة وقد عرتها الدهشة:

- اسمى فاطمة..

- واسم زوجك من أسماء الصحابة: عمر أو أبوبكر أو عثمان أو على.

فاستحالت الدهشة عند فاطمة إلى نوع من القلق، لأنها وهمت أنها محاطة بالجنة التى تملى على العرافة ماتقول، فأجابت بصوت خافت:

- اسمه عثمان..

عند ذلك جمعت العرافة الودع فهزته ثم ألقته؟

- أتريدين الحق أم التمويه؟

- أريد الحق لا تخفى منه شيئا؟

فهزت العرافة رأسها تظهر الأسف، وقالت وهى تشير ببنانها إلى الودع الواحدة تلو الأخرى:

- أنت فى كرب عظيم، وبينك وبين عثمان نفور لا يعلم إلا الله كيف ينتهى.. ولكن الودع يقول: (عامل تعامل).

فوقعت العبارة الأخيرة فى نفس فاطمة وقعاً أليماً، اختلجت منه عيناها، وجاش له صدرها، وتمنت لو أنها لم تأت إلى هذه المرأة المخيفة، وتمتمت بكلمات لم تدركها أسماء، ولم تأبه بها بل استطردت تقول

وهمت فاطمة بأن تجيب، وهنا دخلت قطة يغلب على لونها السواد، واقتربت منها دون أن تشعر بها، فلما صارت إليهما ماءت مواء رقيقاً، ثم تسللت إلى حجر أسماء فكمنت فيه، وليس فى

(١) تمعن: تدقق وتطيل التدقيق والتأمل

هيئة القطة ولا فيما أتته شئ غير مألوف، ولكن الزائرة لم تتمالك أن ذعرت لمرآها ذعراً، وضحت فيه لعثمتها[1] واصفرارها وفي وجومها إثر ذلك، فأدركت أسماء أنه قد بلغتها أنباء أهل الطاحونة، وأنها لتحسب أحدهم في جلد المخلوقة الساذجة، فلعبت على شفتيها ابتسامة هازئة وقالت كأنما تخاطب نفسها:

- ليتنا نخاف الله بقدر ما نخاف القطاط.

واصطكت الكلمات -على خفوتها- بأذني فاطمة، فثابت إلى حسها، وقد كبرت عليها جرأة العرافة، على أنها استحت لما كان منها فتغافلت، وأوجست أسماء خيفة من شك يقوم في نفس فاطمة، فأسرعت تحمل عبارتها معنى الدعابة والمجون.

وعاد الحديث إلى سياقه..

- لست أولى زوجات عثمان، فقد كانت له زوجة قبلك ها هي ذي، وأمسكت بودعة صغيرة، لم تجد المخاطبة بدأ من أن تقرر أنه الحق الصراح.

- وكان عثمان يعيش مع زوجته الأولى على مايرام من سعادة وهناء.. والزوجة تحبه من كل قلبها، لأن المسكينة وحيدة فى الحياة، وقد وجدت فيه أباً وأخاً، ووجدت فيه كل عزيز.. وأنت.. هذا أنت بعيدة وعينك تنظر إلى عثمان.. فقالت فاطمة فى غل وغيظ:

- بل هى التى كانت تنظر إلى رجل آخر..

فهزت العرافة رأسها ملياً وأطالت النظر إلى الودع ثم قالت:

- هذا ما أوهمت به الزوج (وأشارت إليه) وحسابك فيه عند الله، أما الودع فيقول ما أقول..

وجمعت الودع وهزته وهى تقول:

- الودع صريح فصيح، وأنت تريدين الحق لا التلميح. ولم تلقه هذه المرة على الفور، بل احتفظت به بين كفيها ونظرت إلى الزائرة تسألها: هل اكتفت أم تطلب المزيد..؟ فترددت المرأة بما ينوشها[2] من كرب وضيق؛ ثم طلبت إلى العرافة أن تستمر، فنثرت أسماء رموزها ثم قالت:

---

(١) لعثمة: اضطراب فى الكلام

(٢) ينوشها: يوسوس بها ويلح عليها

– لقد نلت ما تطلبين.. عثمان طلق امرأته وحللت أنت محلها، ذهبت المسكينة إلى حيث لا يعلم إلا الله، ولكنها تتبع أخباركما، لأنها تجد فى ذلك العزاء، أما أنتما فعشتما معاً سبعة أشهر أو سبع سنين.

– بل ست سنين.

– لا بأس فهذا حساب الودع، على أن هناءك لايتم؛ لأن قلب عثمان قد تحوّل عنك، فالرجل الذى سمع كلامك مرة يسمع كلام غيرك مرة أخرى.. امرأة سمراء تلح على أذنه، وهى صديقتك وقد أكلت معك عيشاً وملحاً، ولكن تلك حال الأنذال، فاحتسبى عليها بالحى الذى لايموت.

ثم إن العرافة جمعت الودع فى كيس صغير وأعادته إلى حيث كان، وشمل الغرفة صمت عميق، أطرقت أثناءه فاطمة تفكر فيمن تكون المنافسة السمراء التى تنغص عليها حياتها.، وأسماء تنظر إليها وصدرها جياش بجميع مشاعر المرأة..... وبعد حين رفعت فاطمة رأسها، وطلبت إلى العرافة أن تعمل لها عملاً يفسد كيد الخائنة، فطلبت إليها أسماء أن تأتيها بشئ من متاع زوجها خاصة، فقدمت لها منديلا كانت قد جاءت به لنفس الغرض، وتواعدتا على أسبوع يمضى، فشكرتها الزائرة، ثم ساقت إليها نقوداً، فرفضتها أسماء رفضاً باتاً، وهى تقول:

– لن أستحق شيئا حتى أعيد إليك قلب عثمان.

فكررت المرأة شكرها ثم انصرفت.

فلما خلت أسماء إلى نفسها طغت عليها مشاعرها، فأقبلت على المنديل تلثم فيه عثمان، وتنشق منه ريح عثمان، ثم بللته بدموع الذكرى.

قصة عفريت

-١-

- هل رأيت عفريتا.. أيها القارئ ؟

- لا ...

- هل حدثت لك حادثة مع عفريت دون أن تراه.. أيها القارئ ؟

- لا...لا...

- هل تعتقد في وجود العفاريت مطلقا.. أيها القارئ ؟

- لا..لا..لا..

بردون[١] أيها القارئ ! أنت بلا شك كامل العقل، قوي النفس. وأنا كنت مثلك إلي عهد غير بعيد !! نعم، كنت- بكل شجاعة- أرفض الاعتراف «بالمؤتزرة»[٢] ولا يخطر ببالى أن أخاف من ذى الرجل المسلوخة، وكانت نيتى دائما أبدا، أنه لو بلغ العبط بها أو به إلي حد أن تجسر ويجسر علي أن تظهر أو يظهر لي يوما، لهشمت وجهها أو وجهه تهشيما يجعلها أو يجعله أبلغ أثرا فى إزعاج غيرى.

ولكن صديقى داود- الرجل المشرف على الأربعين- الكامل العقل أيضا.. والمهذب أيضا.. المثقف المستنير.. أخا الجد والاحتشام.. المعتد[٣] بنفسه، المعتز بها.. والذى حتى إذا مزح فلا يقول إلا حقا.. قص عليّ ما جري بينه وبين عفريت.. عفريت حقيقى، كان يظهر له عيانا بيانا، حتي نغص عليه عيشه زمانا !

وكان داود يقضى إلي نبأه بصوته الأجش العميق، وفى تؤدة وخفوت. يزن كلامه بمعيار، ولا يبذل منه إلا بمقدار، وهو إما واضع يده تحت ذقنه وشاخص ببصره إلي زاوية من الغرفة حتي

(١) بردون: كلمة فرنسية تعنى معذرة

(٢) المؤتزرة: الأشباح والعفاريت

(٣) معتد: معتز، واثق

لتخاله[1] يقرأ صحيفة قاصية[2]، وإما ممعناً فيّ ببصر حديد كما لو كان يريد أن ينفذ كلامه وإحساسه فى أعماق نفسى حتى راح الجو حولنا رهيباً مهيباً، وحتى رحت أصغى إليه مفغور[3] الفم، محملق العينين. بل صراحة أقول: إننى كنت فى لحظات أتخيل أن داود أوشك أن يرتد عفريتاً، أو أن العفريت ذاته يروى جزءاً من تاريخ حياته على لسان داود.

-٢-

قال:

- فى سنة ١٩٢٠ نقلت إلى مدينة الأقصر. فرحلت إليها وحدى بادئ الأمر، ونزلت فى فندق زهاء خمسة عشر يوماً، كنت أثناءها أبحث عن منزل أنقل إليه زوجتى.. بل.. إننى كنت أغلب تلك المدة.. فى الواقع.. أنتظر خلو منزل خاص، شعرت عند إمضاء عقد إيجاره أن الظروف خدمتنى، وأن الدهر قد أكرم به غربتى.. لا لأن المنزل آية فى الرواء، ولا لأنه بدعة من بدائع فن البناء.. بل.. لأزمة المساكن التى كانت فى أشدها وقتئذ.. ومن ناحية أخرى، أنت تعلم حقارة معظم البيوت فى تلك المدن الصغيرة. أما البيت الذى وفقت إليه فكان حديث العهد، بنى سنة ١٩١٤، حسن التنسيق، مستكمل شروط الراحة والصحة. وقد اتخذ منذ إنشائه داراً للمحكمة الشرعية. وعلى ذلك لم يكن يستعمل طول تلك السنوات الست تقريباً إلا من الصباح إلى الظهر فقط.

فلما خلا المنزل، استقدمت إليه زوجتى من القاهرة، وجئنا بامرأة عجوز من أهالى الأقصر لخدمتنا.. وعشنا فى سلام.. ومضى شهر.. أو أكثر.

وذات ليلة، أوينا إلى فراشنا حوالى الساعة العاشرة حسب العادة، وبينما النوم يثقل أجفاننا إذا بزوجتى قد هبت فجأة من مكانها وهى تقول فيما يقرب من الصياح:

- لماذا تضربنى هكذا؟

---

(١) تخاله: تتخيله

(٢) قاصية: بعيدة نائية

(٣) مفغور: مفتوح

فأفقت من نومى وقد نالت منى الدهشة وقلت:

– أضربك.. كيف؟ ماذا بك؟!

– ألم تكن واقفاً إلى جانبى الآن، وضربتنى بعصا من خيرزان؟

وكانت زوجتى تنتفض رعباً.. فسرى إلى نفسى بعض الخوف. ولم أكن إلى تلك اللحظة أعتقد فى جان أو شيطان. فلاطفتها وسريت[1] عنها مخاوفها فى تهكم مفتعل.. وشد ما كانت دهشتى فى الصباح حين جعلت زوجتى تتألم من أثر الضرب، وكشفت لى مواضعه، فإذا على جسدها خطوط حمراء ضاربة إلى زرقة داكنة.. أنت تعرف ذلك اللون طبعاً.

فقلت فى دهشة:

– وهل رأيت أنت تلك الآثار بعينى رأسك؟

فأجاب صديقى فى جد مطلق.

– أجل.. رأيت ذلك الأثر. الـ. المادى الذى لاشك فيه، ولامجال لخداع النفس أو النظر.. على أننا تناسينا الحادثة. وقلنا ما تقوله الآن فى سرك «لعله وهم منا بأى شكل كان». ومضى نحو أسبوع.

وفيما نحن على وشك الاستغراق فى النوم كالمرة الماضية. وصل إلى سمعى وقع أقدام حافية تصعد السلم، فانتبهت، وانتبهت زوجتى كذلك وهى تقول:

– سامع!

– بلاشك.

وأرهفنا السمع، فإذا الصوت مستمر وجلى[2]، وحسبناه قادماً نحونا، فانتابنى خوف شديد إذ أيقنت أنه لص، وما أكثر حوادث السرقة فى تلك البلاد النائية، وما أفظع ما يرتكبه اللصوص وأبشع ما يقدمون عليه! وتصورت اللص فى الحال –رجلاً عملاقاً بيده سكين أو بندقية أو بلطة أو ما شابه ذلك.. وأنا أعزل.. وامرأتى إلى جانبى ترتجف، فلم أجد مندوحة[3] عن القيام للدفاع بقدر

---

(١) سرى عن: خفف وطمأن

(٢) جلىّ: واضح بيّن

(٣) مندوحة: مفر

ما أستطيع.. وفى تلك اللحظة تبينت تماماً أن الإنسان يجب وجوباً تاماً أن يكون عنده سلاح نارى بأى ثمن، ورغم أى قانون.

قمت معتمداً على الله. وتناولت هراوة[1] غليظة لها كعب طويل (ومد محدثى أصبعه السبابة) كعب من نحاس ثقيل، مما يجعلها ذات خطر لايستهان به. وكم لها من ضحايا بين الخنازير التى تزحم الطريق أمام المنزل. أخذت تلك الهراوة وفانوساً من الطراز الأمريكانى الذى لا يطفئه الهواء -جرت العادة بأن يترك فى الصالة مضاء طول الليل- وبدأت أبحث عن ذلك المهاجم!! آه فاتنى أن أقول لك إننى كنت أدخلت زوجتى فى بلكون بغرفة النوم يطل على الشارع. ليتسنى لها أن تستغيث إذا قضت الحال.

فلما بدأت البحث كان شعر رأسى يقف -هذا ليس مجرد تعبير، ولكن إحساس حقيقى- ودمى يغلى ويجيش فى عروقى. وكنت أجدنى مسوقاً فى عملى بدافع عجيب. فقد زاحمت الخوف فى نفسى جرأة هائلة.. فكنت خائفاً وجريئاً فى وقت واحد. وكنت فى هذه اليقظة الكلية، أو. أو. أو الذهول الكلى، لا أبالى أن يخرج إلىّ كائناً من كان. بل كنت مستعداً تمام الاستعداد -فى كل خطوة أخطوها- أن أضرب الضربة القاضية فى لمح البصر.. جعلت..

فلم أتمالك أن قاطعته قائلاً «ألم يخطر ببالك أنه عفريت؟».

فأجابنى على التو وقد أدركه بعض الضجر لمقاطعتى إياه:

– سأخبرك بكل شئ فى حينه.

ثم أشعل سيجارة وأرسل إلى سقف الغرفة من دخانها ثم قال:

– بحثت كل ركن ومخبأ ممكن فى جميع الغرف وفى دورة المياه..

ولكن.. بلاجدوى. فخرجت إلى السلم. وعند ذلك تحيرت فيما أصنع. أأطلع إلى السطح أم أنزل إلى الفناء. فاستصوبت أن أطلع، فجعلت أصعد السلم فى تؤدة وقد تضاعف حذرى.. وخوفى أيضاً. لأننى كنت أعلم أنه لو انقض علىّ من علٍ لغلبنى ولاشك. وبحثت كل ركن ومخبأ فى السطح ولكن على غير طائل. على أننى لم أيأس من أننى سأجده. واتجه فكرى إلى أنه لابد أن

(١) هراوة: عصا غليظة

يكون قد نزل إلى الطابق الأرضى، فجعلت أهبط السلم بشئ من الاطمئنان الممزوج بالغضب. فلما بلغت الطابق الأوسط فى طريقى، تريثت وأخبرت زوجتى بما حدث لأطمئنها، ثم تابعت النزول.. ثم فتشت الطابق الأرضى ركناً ركناً، وقد عاودتنى الحالة النفسية السابقة بأشد مما كانت، لأننى كنت فى كل خطوة أعتقد أن المعركة الحساسة ستبتدئ فى الخطوة القادمة.. ثم.. لاشئ!

فى تلك اللحظة كنت أتمنى لو أن ينقض علىّ جيش من العمالقة. فقد كان هذا أهون بكثير من ذلك الشعور الذى فاجأنى على التو بأننى محاط بالجنة والشياطين.. على أننى عنفت نفسى على هذا الخوف الصبيانى وأخذت بكل شجاعة أصعد السلم واحدة واحدة. وجعلت أقول لنفسى «ماذا عسى أقول لزوجتى؟ لو أننى صارحتها بأننى لم أجد أحداً، إذن لخافت أشد الخوف! ولكن أى سبب معقول يمكن أن أخترعه لها حتى تطمئن؟»، على أن القريحة لم تسعفنى، واختلطت برأسى الأفكار. ولكننى دهشت لنفسى حين وجدتنى أقول لها بغضب حقيقى: لقد أتينا حماقة كبرى. وأن ما سمعناه إن هو إلا حفيف[1] شجر الدوم الذى يحيط بنا من كل ناحية. فاقتنعت، أو على الأقل، لم يكن بوسعها إلا أن تقتنع.

لعن الله تلك الأشجار، فهى لاتكتفى بالعقارب التى ترمينا بها.. بل ها هى ترمينا بالهواجس المزعجة!

فابتدرته بقولى: «وأنت؟».

فهز رأسه فى بطء وقال: «وأما أنا. فكنت أعتقد.. أنه شيطان» وأتم الجملة وهو يطفئ سيجارته فى وعاء من خزف كان أمامه، ثم استطرد فقال:

وبعد أن دخنت سيجارة وخضت معها أثناء تدخينى مواضيع شتى بقصد أن ألهيها عما حدث، اضطجعنا تأهباً للنوم. وبعد فترة إذا بالذى قد صعد قبلاً تسمع وقع أقدامه الحافية تهبط السلم. فلكزتنى بكوعها دون أن تقول شيئاً. أما أنا فعلى رغم اعتقادى الثابت تقريباً بأنه شيطان، فقد انطلقت كالسهم لأستكشف حقيقة الأمر للمرة الثانية، والهراوة فى يدى اليمنى، والفانوس فى يدى اليسرى، ولم أدر بالضبط كيف تناولتهما. ونظرت إلى أعلا السلم وأسفله ولكن يا أخى لم أبصر أحداً، مع أن وقع الأقدام كان مستمراً!! فلما رجعت والدهشة، والغيظ.. والخوف، كلها بادية

(١) حفيف: صوت الأوراق حين يحركها الهواء

على وجهي ابتدرتني زوجتي بقولها «بالطبع لم تجد أحداً.. ربما كان شجر الدوم..» فأخجلتني روح التهكم التي في عبارتها الأخيرة، على أنني أجبتها بعدم اكتراث «فليكن شيطاناً.. ماذا يمكن أن يفعله الشيطان!» (ثم تضاحك وقال) ولكنني أصارحك القول بأنني خفت من أن أتحدى الشيطان على هذا النحو فلطفت الأمر بقولي «على كل حال، يظهر أنه شيطان غير مؤذ».

فلم أتمالك أن ابتسمت، ولحظ ذلك مني فقال:

– لك أن تقهقه إذا شئت، ولكن ثق بأنني جاد في كل ما أقصه عليك وأرى أنه خير لك أن تأخذه على سبيل الجد أيضاً، وأن يكون لك منه موضوع تفكير.

-٣-

وبعد فترة صمت قال محدثي:

– لن أطيل عليك القول في سرد ما صار يأتيه ذلك الشيطان لإزعاجنا في الفترة بعد الفترة، من همهمة غريبة، وأصوات كانت تصل أحياناً إلى ما يشبه الفرقعة الهائلة. ولا في سرد ما صرت أسمعه من الأهالي والموظفين على اختلاف درجات هؤلاء وهؤلاء، عما تحدثه شياطين أخر أصيبوا بها في منازلهم، ولكنني أكتفي بأن أنتقل بك إلى حادثة تثير فيك الفزع، بل الهول..

لما كان حر الصيف في الأقصر شديداً أثناء النهار إلى درجة لاتطاق أحياناً، فقد كانت زوجتي تفضل أن تقضي النهار في الطابق الأرضي حيث كانت الحرارة أقل بكثير من الطابق العلوي. هنالك كانت تجلس في غرفة بسيطة الأثاث إلى جانب غرفة استقبال الرجال التي كانت على يمين الداخل من الباب العمومي. ونظراً إلى تتابع الحوادث المزعجة كنت لا أتأخر عن العودة إلى المنزل ما أمكنني ذلك لأكون إلى جانب تلك المسكينة.

–وذات يوم، عدت قبيل المغرب. فما دخلت حتى استقبلتني الخادم والفزع باد على وجهها وهي تقول «يجب أن نغادر المنزل في الحال. لا نبيت فيه حتى ولا الليلة!» واستبقتني في ارتباك واضح إلى حيث كانت زوجتي وهنالك.. نعم. وجدتها مستلقية على كنبة، وكانت ترتعش كأنها في حمى، ولما شعرت بوجودي اعتدلت من رقدتها فإذا هي في اصفرار الموتى، فاستفسرت الخبر فقالت بصوت خافت خائف «انظر!». وأشارت إلى خدها قرب فمها، وإلى ذراعها الأيمن تحت الكوع. هل تعرف ماذا كان هنالك؟! كانت هنالك آثار حروق بادية ودامية!! أقول حروقاً دامية!

ففغرت فمي دهشة ولم أتكلم، وقد تنبأت بأن ما سيقوله صديقي مروع هائل.

– قالت المسكينة وقد لاذت بذراعي كطفل خائف «كنت جالسة هنا أصلح الجوارب ولا أدرى إلا وقد هجم على شخص طويل أسود، وبيده نار ضربني بها فأصابت وجهي فتلقيتها بذراعي، فأصابت ذراعي.. ثم اختفى، ولا أدرى كيف اختفى، وازداد ارتجافها وأجهشت بالبكاء! فلم أتمالك عند ذلك أن قلت في دهشة وغضب «ما هذا الهوس يا داود؟».

فضرب صديقي الأرض بقدمه وانتفض واقفاً وهو يقول:

– أوه.. ليس ثم داع يا عزيزي إلى أن ألفق على زوجتي الكذب. فهذا شئ لايفتخر به.. إنما أقرر لك حقيقة واقعة!

ثم عاد إلى الجلوس مغضباً. وتحاشى كلانا أن ينظر إلى الآخر. وساد صمت ثقيل كريه أشعل كل منا أثناءه سيجارة ليشغل الوقت. ولكني قلت آخر الأمر:

– هذا شئ غاية في العجب.. وفي الحق أنه لو لم تكن أنت راويه لا تخذت منه فكاهة أبد الدهر.. ولكن يا عزيزي داود لماذا لم تغادر تلك الدار اللعينة قبل وقوع هذا الحادث الفظيع ، أقصد لمجرد الأشياء السابقة؟ قال صديقي وقد هدأ روعه:

– كنت أبحث عن منزل آخر باستمرار. ولكن سبق أني قلت لك أن العثور على منزل لائق، في تلك الآونة لم يكن بالأمر الميسور.

– وماذا فعلت بعد ذلك؟

– أرسلت الخادم في طلب صديق لي حميم. فلما جاء أطلعته على ما حدث وتشاورنا في أحسن مايجب أن يتبع.. وأخيراً صمم صديقي على أن ننتقل ونحتل شطراً من داره هو في غنى عنه. وعارضت فلم تنفع المعارضة. وانتهى الأمر بأن قبلنا كرمه وتضحيته شاكرين.

-٤-

– شاع ذكر هذه الحادثة الفريدة في نوعها، وأقبل الناس يعزونني ويرفهون عني حتى صرت خجلاً من موقفي إزاءهم. على أن رجلاً ذا حيثية في البلد، وبيني وبينه تعارف وشبه صداقة، جاء فأخبرني بأن منزله كان مصاباً بأحد هؤلاء الشياطين، جعل ينغص عليه حياته وحياة..

عند ذلك قاطعته بسؤال عنّ لى فجأة:

-ولكن لم يكثر وجود هؤلاء السادة العفاريت فى الأقصر إلى هذا الحد؟ ها نحن نعيش فى القاهرة مثلاً، وقد عشنا فى كثير غيرها من البلدان والقرى فلم نسمع بأخبار الجنة إلا نادراً وبكيفية أقرب ما تكون إلى الفكاهة أو التهويش!!

فتريث داود ثم قال:

– فى الحقيقة لست أدرى. ولكن الناس هنالك يعزون ذلك إلى وجود الآثار العديدة فى تلك الناحية ويقررون أن هؤلاء الشياطين إن هم إلا أرواح المصريين القدماء الذين قضوا نحبهم[١] فى بناء تلك الآثار.. على كل حال، هذا موضوع نبحثه فيما بعد.

– حسن، ماذا كان من أمر صديقك ذى الحيثية؟

– آه هو رجل مسيحى. وقد أخبرنى بأنه عثر على قسيس أمكنه ببعض تلاوات خاصة أن «يحبس العفريت» فلم يعد يظهر. فقلت: «علىَّ به» لأن المنزل اللعين كان لايزال على ذمتى، وفيه أغلب الأثاث.. فجاءنى بهذا القسيس.. وهو رجل فى نحو الأربعين، عليه قفطان أسود وعمامة سوداء، وإنه لمكتمل الصحة، وافر الجسم، ذكى العينين.. طلب القسيس فنجاناً صغيراً من الزيت، وقلة جديدة مليئة بالماء. وجعل يتمتم ويتمتم، ويرسم صلباناً بعضها فى الهواء وبعضها حول الماء. كل ذلك فى مهابة ورهبة وجلال تشعر تماماً بأن الرجل غير مدلس أو مشعوذ. ثم صب الزيت على الماء، وراح ينثره فى أرجاء البيت جميعاً. عملية بسيطة، ولو أنها باهظة الأجر نسبياً. ولكن ماذا تقول فى أننا عدنا إلى البيت بعد ذلك وعشنا فيه أشهراً دون أن نشعر بأقل حركة تزعجنا.

فضحكت ثم قلت «لاغرو فإن القسيس حكم على العفريت بالسجن المؤبد.. وقد يكون مع الأشغال الشاقة فى مقابر الملوك».

قال صديقى ولم يسعه إلا أن يبتسم للنكتة:

– أنت مازلت تهزأ.

---

(١) قضى نحبه: مات

فأسرعت أقول:

- لا. لا. لا. لاتجهر بهذا الرأى، فإنى أخاف أن أذهب إلى بيتى فيصعد السلم خلفى بأقدامه الحافية..

- على كل حال، انتظر حتى أقص عليك الخاتمة..

- فى هذه الأثناء، كنت لا أسعى فقط إلى العثور على منزل آخر، بل للرجوع إلى القاهرة. ومع أننى لم أوفق إلى الأول، فقد وفقت إلى الثانى، أجل صدر الأمر بنقلى إلى القاهرة وأسرعت فى لم متاعى وشحنه. وكان صديقى الذى آوانا فى بيته زمنا يعيننى فى هذه العملية. وكانت زوجتى سافرت طبعاً. وانتهت عملية إخلاء البيت قرب المغرب من يوم.. سبت. لا.. من يوم أحد بالضبط. وفيما نحن نحمل فيما بيننا صندوقاً كبيراً مستطيلاً. وكنت فى المقدمة وقد اجتزت عتبة المنزل، وصديقى لايزال بالداخل، إذ سمعنا نوافذ عدة قد أقفلت بعنف دفعة واحدة.. ثم ما عتم صديقى أن ترك طرف الصندوق وقفز إلى الشارع وهو يصيح بكيفية مزعجة.. أتدرى لماذا؟

فقلت «من صوت إغلاق النوافذ..».

فضحك داود وقال:

- بل لأن الرجل الحافية قد ركلت صديقى المسكين ركلة موجعة على أننا استعنا ببعض المارة الذين تطوعوا لخدمتنا بل لإنقاذنا حتى أخرجنا الصندوق وتركنا تلك الدار اللعينة تندب من شادها وتنعى من بناها.

مذكرات سيدنا نوح

السبت:

هذا لايطاق! هذا لايحتمل! ما كنت أحسب أن يمتد بى أجلى حتى أحضر عصراً كهذا الذى أعيش فيه الآن، حقاً إنه ليس لى (شهادة ميلاد) أرجع إليها ولكننى -فيما أعتقد- أوشكت أن أتخطى (المائة السادسة) من سنى حياتى، ولقد خضرمت فى مختلف العصور خضرمة لم يخضرمها أحد، وعمرت على الدهر تعميراً فى ظنى لن يعمر مثله أحد، على أننى لا أذكر أنه مرّ بى جيل خاطئ لعين كهذا الجيل.. أعوذ بالله! أهله شريرون بقدر ما يكون الشر، خاطئون إلى أبعد ما يكون الشر، خاطئون إلى أبعد ما تكون الخطيئة، موبوءون بأنكر ما يتصور الوباء، الأنصاب ينصبون، والأزلام[1] يزلمون[2]، وكل رجس[3] من عمل الشيطان يرتكبون.. ألا سحقاً له من جيل..!

الاثنين:

أليس من آلم ما يؤلم شيخاً مثلى أن يستحوذ الشيطان على ولد من أولاده؟ مسكين (كنعان) لقد تمادى به الضلال إلى حد يذيب قلبى حسرة وأسى، فهو لا يصدق رسالتى، ولايكترث لنصيحة أسديها إليه، بل إنه ليعاندنى ويصر على عناده، ويخالفنى عياناً بياناً دون أى احتشام، ويجاهرنى فى وقاحة بأنه فتى عصرى يجب أن يمتزج بروح العصر، لا أن يرجع إلى الوراء فينصت إلى رجل (موضة قديمة) مثلى، وقد اخترع للدفاع عن نفسه ألفاظاً لاعهد لى بسماعها... وجدان.. حرية الفكر.. ثقافة.. وتعبير آخر عجيب. ماذا؟ الاستقلال بالشخصية، إنى لأشك فى أن لهذه العبارات معنى إلا فى رأس إبليس اللعين..

---

(١) أزلام: خطاءون

(٢) يزلمون: يخطئون ويرتكبون الآثام

(٣) رجس: قبح وإثم

أواه..

ولكنها أمه (واعلة) هي التي أفسدته منذ الصغر، إذ كانت تعطيه القمح ليشتري به أحدث الأزياء، وتملأ جيوبه (بيضاً)، فيقامر ببعضه ويشرب الخمر بما تبقى.

(طبعاً لم يكن في عهد نوح نقود كالتي نتعامل بها الآن، بل كان البيع والشراء بالمبادلة، فمتر (الكريب دي شين)[1] بكيلة قمح، وكأس الوسكي بعشر بيضات، وخلع الضرس بدون ألم ببيضتين وهلم جرا.. «الناقل».

الثلاثاء:

إن الرجم بالحجارة والمشي على الشوك لأهون عليّ مما لقيته هذا الصباح: خرجت إلى السوق لأعظ من يفدون عليه في مثل هذا اليوم من أهل القرى المجاورة، فلما كنت على مقربة منه، أبصرت شابة تبالغ في شد إزارها حول جسمها البض الممتلئ، حتى كادت تتبين تفاصيله في جلاء تام، وقد كمشته فظهر معظم ساقيها، وشمرته فبدا أغلب ذراعيها، وكانت تتعمد تلعيب خصرها، هكذا طوراً وطوراً هكذا، ثم تتثنى وتتمايل، حتى ليجاذب بعضها بعضاً.

فتقدمت إليها أنصح لها، وما كدت أفعل ذلك حتى صاحت وولولت، فتكأكأ[2] الناس حولنا تكأكؤاً لم يتكأكئوا مثله مرة وأنا أدعوهم إلى وعظي، فلما تكامل العدد الذي راق مزاجها، جعلت تفتري عليّ بما يعلم الله أنه لم يمر ببال شيخوختي، وما كان ليمر ببال شبابي، فانتهز الأوغاد هذه الفرصة وانهالوا عليّ سباً وشتماً وتهكماً وتنكيتاً... ومما زاد الطين بلة أن المرأة أحدثت حركات وسكنات لاعهد لي بها، ثم سقطت على الأرض فجأة، فحسبتها وحسب الجميع أنها ماتت، وبينما أنا أحمد الله على الانتقام لي منها، إذ بعراف يقول إن هذا (إغماء) لا موت، وصاح فيهم، فتقدم عملاق طويل ضخم، فحمل المرأة بين ذراعيه، وأدخلها إلى منزله، وكان المنزل على مقربة منا.

ملحوظة:

الحق أقول إنني لا أعرف حقيقة (الإغماء)، ولكنني أؤكد أن المرأة ابتسمت بين ذراعي العملاق، وقد يكون هذا من مستلزمات هذا النوع العجيب من الموت.

---

(١) كريب دي شين: نوع من القماش الفاخر

(٢) تكأكأ: تجمع وتكاثر وتزاحم

الخميس:

انقضى اليوم والبارحة دون أن يحدث ما يستحق الذكر.

الجمعة:

فى الهزيع الأخير من الليل وقد انحدر كوكب (النسر)، استيقظت على صوت شجار عنيف فى بيت جارنا –وهو من المؤمنين الصالحين– فاستفسرت الخبر، فعلمت أن ابنه الكافر اللعين، دخل على والدته فى هذا الوقت المتأخر من الليل، فطلب منها طعاماً، فقدمت له منه كمية وافرة، فأكلها وطلب المزيد، فقدمت له كمية أخرى، تقول الأم المسكينة إنها كمية لاتقل عن سابقتها، فأتى عليها، ثم كرر الطلب، فنهرته، لأنها تعلم أنه يتعاطى مخدراً مصنوعاً من بريق وسرسق، وخزيق وجوفق، تطبخ جميعا فى العسل حتى تصير «زى الزفت». أما الوالد فثار ثائرة، وزأر[1] وجأر، وسب الشمس والقمر..

تباً[2] له من جيل لا كرامة لوالد ولاحرمة لوالدة، إن تجاريبى الطويلة لتغرينى باليأس من إصلاح حال هؤلاء القوم.

(بحثت فى دكاكين العطارين وفى مخازن الأدوية عن السرسق والبريق إلخ فلم أهتد إليها، على أن أحد مشايخ العطارين أخبرنى بأن لديه صنفاً أفتح للشهية وأبلغ أثراً فى الرأس من ذلك الذى كان يتعاطاه ابن جار سيدنا نوح).

الناقل

الأحد:

تمادوا أيها الفجار فى فجوركم وغروركم، عما قريب ترون الآية الكبرى، لقد أوحى لى الله أن أصنع سفينة كبيرة محكمة، لأنه تعالى سيرسل طوفاناً هائلاً يغرق الأرض ومن عليها، إلا عباده المخلصين، سوف تأخذكم السماء، وتنفجر بكم الأرض، فلاتجدون من مفر ولامستقر، رب اهدِ لى ولدى وقومى ليكونوا من الناجين، أواه، إن الرهبة لتتملكنى كلما فكرت فيما سيحدث، ولكن لتكن مشيئه الله.

---

(١) زأر: صاح بصوت رهيب لأن الزئير هو صوت الأسد

(٢) تبا له: سحقا له

في الليلة نفسها:

لم أستطع الرقاد، إن السفينة لتشغل بالى، وخيالها يطرد النوم عنى.. السفينة.

يا للمشروع الضخم..

إن الله يلهمنى أن أجعل طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين، وارتفاعها ثلاثين، حسن جداً، وأن أصنع لها فتحات، وأن أجعل لها حافة ارتفاعها ذراع واحدة، هذا الشئ بديهى، وأن أتخذ فيها ثلاث طبقات سفلي ووسطى وعليا، ستكون بلاشك مضرب الأمواج والأمثال معاً، سوف يقال: «سفينة نوح، سفينة نوح أبد الدهر»، أركب فيها مع أبنائى ونساء أبنائى، وأحمل معى ذكراً وأنثى من جميع الحيوانات والبهائم والطيور، لهف قلبى عليك يا كنعان.

بعد أيام..

قضيت الأيام الماضية فى إعدا المهمات والمستلزمات، وكنت دائم التفكير فى أمر هذه السفينة لإخراجها على الوجه الأكمل، لذلك أجريت بضع تجارب لأرى ماذا يكون تأثير ثقلها -حيث أنها ستحتوى على فيلة وسباع وضباع إلخ إلخ.. وطعام هؤلاء جميعاً -فوقفت على نتيجة غاية فى الغرابة والأهمية، وهى أن الجسم إذا غمر فى الماء فإن وزنه ينقص بقدر وزن ما يحتله الجسم من الماء، أنا موقن من ذلك.

الناقل

ملحوظة:

لن أطلع أحداً على هذا التوفيق العجيب، وليستنتجه من أراد بتجاربه الخاصة، ومجهوده الخاص.

الاثنين:

بعد أيام

العمل يتقدم باطراد[1] وسكينة، حتي لقد أتممت منه مالا يستطيع أمهر النجارين أن يتم مثله أو أقل منه، ولكن حدث اليوم أن الكافرين أرادوا أن يكيدوا لى، فأغروا بى أولادهم الصغار، فتوافدوا عليّ من كل فج، وجعلوا يحومون حولى كالنحل، ويطلبون منى أن أصنع لهم لعبا، فلما

---

(١) اطرد: استمرار وتتابع

أبيت عليهم ذلك شرعوا يخطفون الأخشاب التى تعبت فى إعدادها وتوضيبها، ففضلت أن أجيبهم إلى سخفهم الصبيانى، من أن أفسد عمل السفينة. إنى لأضحك فقد طلب اليوم منى على ما أذكر:

عدد .

٢٠ بهلوانا

١٢ حصانا

١٦ نعارة

١٧ عروسة

ما كان أشق مهمتى اليوم..

الخميس:

كنت أعمل بجد ونشاط، ولكن الشيطان اللعين أبى إلا أن يسوق إلىّ أنصاره وشيعته يتهكمون بى، ويعكرون مزاجى، فقد مرت بى قافلة تسير فى اتجاه الريح فصاح أحدهم يقول:

-انظروا إلى نوح ينشئ سفينة فى الصحراء.

فرد عليه ثان يقول:

-دعوه. دعوه. ليس عليه من حرج فهو.. نبى.

فضحك الجميع. وانبرى ثالث فقال:

-أظن أن الله سيعهد إلى النبى الذى يأتى بعده أن يحفر لهذه السفينة بحراً تحتها.

ضحك متواصل. واستحكمت النكتة فى رأس رابعهم فقال:

-ويعهد إلى النبى الذى يأتى بعد هذين أن يملأ هذا البحر بحنفيته، وانصرفوا مقهقهين.. لكم أن تسخروا اليوم أيها الاغرار فسنسخر منكم غداً..

الجمعة:

كا. كب. كد. كر. كف. كن. ليست هذه رموزاً أو أى شئ من هذا القبيل، ولكنى أجرب قلماً جديداً أهدانيه جارى من ريش نسر اصطاده، لاداعى إلى الكتابة أو العمل، اليوم الجمعة فلأجعله يوم راحة.

الاثنين:

بعد حين

باركني يا الله! لقد تمت السفينة! ومن غد يكون طلاؤها، وهي كما أوحيت إليّ طولاً وعرضاً وارتفاعاً، يا للمعجزة! لن يكون مظلوماً بعض الشئ في سفينتي غير الجمل والزرافة، لقد حاولت أن أوجد كوات لرقابها الطويلة فلم أستطع، فمثلاً فكرت في أن أجعل لها «طاقات» بين الطابق الأول والطابق الأوسط، ولكن لوكنت فعلت ذلك في مقدم السفينة لكانت رءوسها باستمرار في مخزن الطعام، ومعنى هذا أني أعرضها إلى تخمة قاتلة، وأن أعرض باقي الضيوف الأعزاء إلى مجاعة عاجلة، ولو فتحت «الطاقات» في مؤخر السفينة لأطلت رأسان في غرفتي ورأسان في غرفة نسائي وهذا، بلاشك، يضايق ويفزع، فضلاً عن أنه ينافي قوانين الصحة.

يجب على ذوي الرقاب الطويلة أن يطأطئوا الرأس قليلاً إذا أرادوا السلامة.

الأربعاء:

شرعت في جمع الحيوانات، والحق أقول إنني لم أجد صعوبة إلا في التفاهم مع الحمار. ياله من مخلوق غبي بليد، لقي حسبني أغريه على دخول السفينة لأضطره عند الاقتضاء إلى جرها بمن فيها، ولست أدري كيف خطر هذا الخاطر ببال هذا الحمار! على أنه اقتنع أخيراً..

السبت:

تم طلاء السفينة، وقد أقام المؤمنون حفلة تكريم لشخصي الضعيف، أخجلوا فيها تواضعي، ويعلم الله أنني لم أدخر وسعاً في نصيحة ابني، وحمله على الركوب معنا، ولكنه مصرٌ على عناده وكفره، ويقول في غير اكتراث إنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء.

لتكن مشيئة الله.

الخميس:

هطلت الأمطار، وفاضت الأنهار، وماجت البحار، وهاجت الرياح، وزمجرت العواصف، المنازل تتداعى، والدنيا تنقلب رأساً على عقب، وأصوات الكافرين ترتفع بالبكاء والعويل، وطلب

الغوث يتعالى من كل ناحية، والكل فى فزع أكبر، لا يدرون ماذا يصنعون، ولا إلى أى مكان يلجئون. ولكن هنا فى السفينة الهدوء والطمأنينة والغبطة، كلٌ يصلى لله شكراً.

لقد دخل الجميع ودخلت آخرهم.

وبعدى الطوفان..

ج- المجموعة القصصية الثالثة:

النقاب الطائر
وقصص أخرى
(١٩٤٠)

- صدرت الطبعة الأولى لهذه المجموعة عن مطبعة حليم بشارع نوبار رقم ٦١ بمصر بدون تاريخ ولكن مقدمة الدكتور حسين فوزى لها مؤرخة الاسكندرية فى ٩ إبريل ١٩٤٠.

الإهداء

إلى صديقي محمود بك تيمور
إعجابا به ، وتقديرا له

النقاب الطائر

-١-

- أسبرين يا هانم؟

صمت..

- كالمين؟[١]

نفس الصمت.

- نعناع يا سيدتى. إنه نبات بلدى منعش أكيد المفعول.

إصرار على الصمت من «سيدتى» مع نظرة ساهمة طويلة تعرب فى طلاقة وحسن بيان عن جميع معانى الازدراء[٢] والتهكم والاستهجان[٣] ومشتقاتها ومترادفاتها على أوضح وأوفى ما يحتويه قاموس كامل شامل.

ولايمكن أن يتهم امرؤ فى ذكائه إذا ظن أن هذا حوار بين صيدلى طويل الأناة[٤] وزبونة عسيرة الإرضاء، على أن الصراحة أولى فقد كان هذا المشهد بينى وبين زوجتى.. وليس أدل على ذلك إلا ما توالى من سياق الحديث.

- ما يؤلمك؟

- وجودك.

- إذن. الأمر بسيط. أنصرف فينصرف الألم:

---

(١) أحد المسكنات المشهورة فى الثلاثينيات

(٢) الازدراء: الاحتقار والامتعاض

(٣) الاستهجان: الاحتجاج والرفض

(٤) الأناة: الصبر

- كما تريد.

- بل كما تريدين أنت، وعلى اعتباره أمر منك واجب التنفيذ.

وساد الصمت فجلست عند قدميها، وكانت ممددة على الكرسى الطويل عند النافذة. ونسيم البحر ينساب عليلا بليلا كفيلا بأن يذهب عن أى رأس أى قدر من الصداع أو الخصومة وجعلت فى نفسى أسب «ذلك النقاب» والمصادفة المنحوسة التى ساقته فى طريقى. على أنى لم أشأ أن أجزم وقتئذ بأن هذا هو السبب. وحاولت أن أضيف هذا الموقف الشاذ إلى قائمة أمثاله مما يعترى زوجتى بلا سبب ظاهر، أعلله من ناحيتى بما يحتمل أن يكون فى حياتنا الزوجية من المنغصات، ثم يتضح أنه من فرط[1] ما تشعر به زوجتى من سعادة. واستطردت تقول:

- هل تظن أن هذا الهراء يخفف من...

- من جريمتى.؟

- بل من ثقل دمك.

- أظن.

- لا تظن.

وعاد الصمت. وعاد النقاب إلى ذهنى.

إذا لم يكن النقاب هو السبب فى هذا الانقلاب الفجائى، فأى شئ هذا الذى عكر صفاءنا بهذه السرعة.

لقد كنت منذ هنيهة أسير وزوجتى على (الكورنيش)، فيما بين كليوبترا وسيدى جابر، فإن هذا الجزء من الطريق أقل ازدحاما من المرحلة التى تسبقه لاسيما عند (اسبورتنج) حيث -لسبب يعلمه الله- يتزاحم المصطافون بالاسكندرية إلى حد أنهم إذا خرجوا للتنزه ساعة العصر، تحسبهم فى مولد أحد السادة أو السيدات من أولياء الله.. مع بعض الفارق فى النظافة. وقد مضى الأسبوع

---

(١) فرط: كثرة أو شدة

الأول من أجازتى الصيفية على أحسن حال. وكنا اليوم على أحسن ما يكون من هذه الحال الحسنة، وكنا نسير فى نشاط والبحر وادع خاشع حيال الشمس تؤذن بالغروب.

كان الأجدر بحسن الاختيار. والأليق بسلامة الذوق أن آخذ فى حديث يناسب المقام. على أننى وجدتنى أتحدث عن (كرستوف كولمبس) وما صادفه فى رحلته من بحار هائجة مائجة(1)، ترتفع كالجبال ثم تهوى فما لها من قرار والأعاصير الهوج العاتية تعصف بالسفينة كأنها كرة فى أكف مردة(2) يتقاذفونها فى حول وهول. والسماء الصاخبة اللاغية تزأر بالرعود وتلقى بالجليد كسفا تتسابق فى الهواء. وتتلاحق على الرءوس والأبدان. فتذهل العقول وتزلزل الوجدان. وهم فى نهار كالليل يعمهون(3)، لايعرفون أين هم، ولا من هم، لا واقى لهم ولا هاد.

وكانت زوجتى تصغى إلى واجفة. وأرادت اللياقة أن تكبح من خيالى فردت عينى إلى هدوء البحر ثم أرسلت إلى أعماقها وميض الفنار. فتراجعت بانتظام إلى أن جبابرة الإنس قهروا البحار فمدوا فيها الطرق وأقاموا الفنارات تهدى من يشاء إلى حيث شاء. وأكدت لها أن لو أعاد (كولمبس) رحلته فى أيامنا هذه لاستكشف ما هو أبعد من أمريكا فى أيام معدودة.

ولماذا لايكون هذا الحديث الأخرق الأحمق هو سبب ما تعانيه هذه المخلوقة المرهفة الحس من انقباض (هستيرى) وأعانى ذيوله وأنا قابع عند قدميها. وغلبتنى الحيرة والتفكير.

- أنت تخدع نفسك.. إنما هو النقاب..

ولم أدر إن كانت نفسى قد قالت لى ذلك أو أن زوجتى هى التى وجهته إلى. فأفقت من تفكيرى مصوبا نظرى إليها. فإذا هى تطيل إلى النظر، وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة. وقالت على الفور:

- أما زلت جالسا...

- أخشى أن أكون قد أثقلت عليك.

---

(1) مائجة: شديدة الموج

(2) مردة: ج مارد عمالقة أو شياطين

(3) يعمهون: سادرون

- بل أنت فى حيرة.. مسكين..

- المساكين أحباب الله.

- قم فاذهب إليها.. إن كان قد حان الوقت..!

- إليها؟ من؟ من هى؟

- أو انتظرها قبل الوقت، فإنه يلذ للعاشقين الانتظار..

- أتخاطبيننى أنا..؟

- لى الشرف أن أخاطب الفتى الجسور المجازف.. (وبعد فترة قالت) كاد النقاب يكلفك حياتك.

فلم أحر جوابا لأنها فاجأت الموضوع بسلاحين من الصراحة والسخرية، فأرتج على. وكنت أحسب أنى سوف أكون المبادئ بتناوله بعد التمهيد والتعبيد. وثار كبريائي. ونضح جبينى بعرق بارد. على أنى رأيت الخير فى أن أتحاشى حرجا على حرج وكلفنى ذلك أنى عضضت شفتى عضا طويلا أليما.

قالت وقد بسطها ما بدا على من ارتباك.

- أشهد أنك خاطرت بحياتك من أجل النقاب.

عند ذلك أوحى إلى عقلى أن أصب زيتا على الموجة الزاحفة ففرقعت بأصابعى وقلت:

- الواقع ما تقولين. لقد خاطرت بحياتى غير هياب ولاوجل. سوف أصف الموقف، وأقسم أننى سوف أقول الحق وكل الحق، ولاشئ غير الحق.. كان موضوع البحر وأهواله.. وطلاقتى فى وصفه واندفاعى.. كل ذلك ملأنى حماسة وإقداما. وإذا بى أرى نقابا على خطوة منى، وسمعت آهة قصيرة تصدر عنك. أليس كذلك..؟

فقالت بتلكؤ:

- جُو أُنْ.

وهو تعبير انجليزى له معان كثيره مؤدبة، ولكن معناه فى هذا المقام «هجص أو هترس» فلم أكترث لهذا التهكم، واستطردت أقول:

- فانقضضت على النقاب انقباض الباشق على العصفور. هل رأيت باشقا ينقض على عصفور؟

- وإذا لم أكن رأيت باشقا؟

- تكونين مثلى. ولكن الباشق، أخطأ العصفور ويا للأسف، وأوذيت مخالبه أشد الإيذاء، من قوة ما اصطدمت بأسفلت «الترتوار» وطار العصفور، ثم حط على بعد أمتار، وقد استحال -بقدرة قادر- أرنبا. أرنبا ينتفخ ويهبط تباعاً دراكا، وله أذنان تلعبان، فاستحال الباشق على الفور -وبالقدرة سالفة الذكر- ثعلبا مراوغا راح يتسلل ويتسلل ويتسلل ويتسلل... إلى حيث الفريسة، حتى دنا منها، وانقض عليها بلاشفقة ولاهوادة.. ولكن الأرنب أفلت.

- وكاد الثعلب العبيط ينكفئ على الأرض.

- قشرة موز لعينة هي التى سببت ذلك.

- ووقع منظار الثعلب على الأرض، وصار شكله مضحكا وهو يتحسس موقعه..

- برافو.. أنت يا حبيبتى شديدة الملاحظة.

- وبعد؟!

- صار الأرنب فراشة، فما عتم الثعلب أن صار صياداً ماهراً وأمعنت الفراشة الهائلة فى الطيران، تعلو وتهبط، وتميل وتعتدل وتصنع فى الهواء أنشوطة إثر أنشوطة.. ولكن ماذا يهم؟ فإن الحظ السعيد ساق إلى الصياد الماهر -طفلا يحمل فوق كتفه شبكة اخترعها مخترعها خصيصا لصيد الفراش. فاختطفتها منه فى رفق. ثم لم تعقنى السيارات ولا اللوريات حتى ولاالكونستبلات عن أن أتتبع فراشتى. فى ارتفاعها وانخفاضها ولفها ودورانها حتى ظفرت بها آخر الأمر.. فلم تجد الفراشة بدا من أن تعود بين يدى نقابا.. سيرته الأولى..

- يا لبطولة الرجل..

- فحملت النقاب إليك، وكلى أمل فى أن أسمع منك الشكر والإطراء. ولكنى دهشت حين امتدت إليه يد أخرى، وسمعت شكر من شفتين غير شفتيك.. وزادت دهشتى حين تركتنى وأخذت سبيلك إلى المنزل..

فاعتدلت زوجتى فى جلستها وصاحت فى غيظ وغضب:

– كفى هراء.. إنك تعرفها.. سمعتها تنطق اسمك وسمعتك تنطق اسمها.. ورأيت الارتباك على وجهيكما واضحا جليا.

– على رسلك على رسلك..

– فماذا كنت تنتظر منى غير أن أنصرف.. أنصرف .. لأخلى لكما الجو ولأرفه عنكما الورطة.. لا. لا بل الواقع أنى فررت من موقف ربما اضطرنى إلى أن أبادل هذه المرأة مجرد التحية.

فهتفت وقد دهمتنى الدهشة:

– ماذا.. أنت تعرفينها؟

– بل أعرف عنها ما تعرفه الكثيرات.. وأنفر منها وأحتقرها كما ينفرن منها ويحتقرنها جميعا.

فوقفت مكانى متصلبا مشدوها. وقامت زوجتى وراحت تضرب صدرى بقبضتيها وهى تهيب بى:

– أيها الباشق.. لقد وقعت على صيد قذر..

أما أنا فلبثت جامداً مذهولاً.. ولم أدر كم لبثت. فلما أفقت ألفيتها مكبة على المقعد وهى تجهش بالبكاء. فتركتها وشأنها. فقد كنت من ناحية، مشغولا بنفسى. ورأيت من ناحية أن أدعها تستهلك مشاعرها فى البكاء وأن تهدئ أعصابها ذرف الدموع. وفوق هذا وهذا كنت أشعر بالحاجة إلى فترة أهدأ فيها وأفكر.

–٢–

ذهبت إلى الشرفة فتمددت على كرسى من كراسى «البلاج» وأشعلت سيجارة. وجعلت أرسل بصرى إلى تلك المصابيح الكهربية التى تنتظم على إفريز «الكورنيش» إلى مدي ما يدرك البصر فتكون فى جملتها واتساقها عقدا متلألئا بهجة للناظرين. وكنت دائم الافتتنان بترامى ضوئه وترامى ظلمة البحر فيما يليه. وقد أعجبت بنفسى مرة إذ شبهتهما بزنجية وعقد من لؤلؤة. أما الآن

فلا بهجة ولا فتنة. وكنت أرسل بصرى فى سأم وغير اكتراث. وخطرت ببالى أفكار كثيرة تتابعت فى غير ما نظام ولا ترتيب، تتخللها فترات من سهوم وتبلد، فأغضبنى أنى لا أسيطر على تفكيرى. ثم عاد إلى ذهنى تشبيه الزنجية وعقد اللؤلؤ، فرأيت أنى سرقته من أكداس ما قاله الشعراء فى ذلك منذ الأزل، فاحتقرت تفكيرى، واستدنأت سرقتى، وفتّ ذلك فِى نفسيتى، وفى حيويتى.. حتى لقد أفلتت السيجارة من بين أصابعى إلى الشارع فلم أُعْن أو أنه لم يدر بخلدى أن ألتفت إلى حيث وقعت. وهل أصابت أحد المارة أو لم تصب. واستسلمت إلى هذا الركود وأخلدت إليه. ولم أحاول صد تيار من هم شرع يزحف إلى قلبى. وكان نشيج زوجتى يأتلف كمال الائتلاف مع الشعور الذى غمرنى.

لقد حاولت صد ذلك الهم عنى منذ حادث النقاب. ومنذ أن أبى القدر إلا أن يوقفنى وجها لوجه أمام صاحبة النقاب، وأنى أعرفها حق المعرفة كما تبينت زوجى. نعم أعرف هذه الأفعى. هذه الشيطانة اللعينة. ليخيل إلى أن الأرض تلعنها والسماء تلعنها وكل قطرة من الماء وذرة فى الهواء تود لو أن تنقض عليها فتسحقها. وتوالت علىَّ الذكريات.. ذكريات ممضة كالكابوس.. استغرقت حسى طويلا، وأفقت على دقات الساعة بالردهة. ثمانى دقات رهيبة جوفاء، فحككت رأسى حكا شديداً ونهضت واقفا أنتشل نفسى، وأسترجع بعض قواى، وسرت إلى حيث كانت زوجتى، وكانت قد قضت من البكاء حاجتها، وراحت فيما يشبه النوم العميق، وهممت أن أكلمها، ألاطفها، أقول لها أى شئ ولكنى لم أستطع، وأخذت طريقى بخطوات متثاقلة إلى جوف المسكن وكان فى ظلام الكهوف، فأنرت غرفتى وارتميت إلى مكتبى مسنداً رأسى إلى راحتى، وبعد فترة وجدتنى أفتح أحد الأدراج فأخرجت منه صندوقا به طائفة الخطابات مربوطة بخيط، ثم خطابان مفردان.. تناولت هذين الخطابين فنشرتهما على المكتب، ورحت أنظر إليهما ولا أقرأهما فكثيراً ما قرأتهما من قبل حتى لقد حفظتهما عن ظهر قلب. فأما الخطاب الأول فكان قصيراً ليس فيه غير هذه الأسطر:

عزيزى

لم أرك منذ زمن طويل، «الدنيا تلاهى» كما يقولون ولكن إذا كانت صداقتنا وأخوتنا عند حسن ظنى، فأنا قريب منك، أنا فى حلوان، وأحب من كل قلبى أن أراك، المخلص

م. فهيم

شارع....

أما الثانى فخطاب مسهب يطول سرده.

ماكان أبشع الخطابين فى نظرى وقتئذ. لقد خيل إلى أن خطهما ينبض بالحياة. وأيقنت أن وجودهما هو السبب ليس فى هذه الأزمة النفسية فحسب، بل فيما يعترينى من أزمات مشابهة من وقت لآخر. مامعنى احتفاظى بهما طول هذه السنين كأنهما تميمتان تجلبان السوء واللعنة؟ لقد أديا ما كتبا من أجله! ومات صديقى منذ زمن مديد. ففيم الاعتزاز بهما والإبقاء عليهما؟!

ولقد أديت واجبى نحو صديقى الراحل كما يؤديه الرجل المخلص الشريف..

ليس فى ذمتى أى حق لم أقم به.

ليس على ضميرى أى ظل من خيانة.

بل انا الذى كان يجب أن أهيب فى وجه العدالة الإنسانية، شاكيا ضيمى، مطالبا بحقوقى.

على أننى لم أشك ولم أحاول الحصول على أية ترضية بل هى المقادير كانت من القسوة، أو كانت من التهكم المر بحيث لم تسمح لى أن أدافع عن نفسى، وأن أريح ضميرى.

وماذا على أنا من أنسان أضعفه المرض فاستسلم وتخاذل ولكن لا، ليس من الرجولة أن أمس ذكراه بسوء.

وتناولت الخطابين فى خشونة، وعزمت على أن أتخلص منهما لا محالة. أشعل فيهما النار، وأمتع ناظرى بمرآهما يستحيلان رماداً، رماداً تذروه الرياح ويذهب إلى الأبد.! ثم لا شئ! أو أقطعهما إربا وألقى بهما من النافذة ساخراً متهكماً، وأنعم مليا ذلك النعيم الصبيانى وانا أرى الأجزاء الصغيرة تتسابق فى الفضاء كالفراش الطائر!

الفراش الطائر؟!

ماكان أغبانى وأنا أطارد «الفراشة» فى الشارع منذ حين!

كنت مهرجا يضحك القدر!

لابد أنى أضحكت صديقى فى قبره!

أتراها مجرد الصدفة! أم ترى هذه الشيطانة اللعينة تعمدت لفت نظرى إليها فقذفت نقابها فى طريقى!

انقض الباشق على العصفور، وراوغ الثعلب الأرنب، وطارد الصياد الماهر الفراشة الهائلة!

لقد قمت بدور المغفل خير قيام!

عند ذلك أشعلت عوداً من الثقاب، ولكن بدلا من أن أحرق الخطابين وجدتني أشعل سيجارة، ودسست الخطابين في جيبي سروالي، ومضيت إلى الشرفة، إذ كنت في حاجة إلى الهواء، ينعش رأسي ويرفه عن صدري، ولبثت حتى دخنت سيجارتي كاملة، وبأنفاس عميقة، وكان أن أفادني الهواء رغم ميله إلى البرودة وإغراقه في الرطوبة.

وأحسست برغبة في أن أحتسي فنجانا من القهوة، ولكن نظرة إلى جوف المسكن وما تكاثف فيه من ظلام ذكرني بأن الخادم «شفق» لم تعد، وتذكرت أننا أبحنا لها عند خروجنا العصر أن لاتعود قبل الساعة التاسعة، ومع ذلك تضايقت آنئذ من حال هذه الخادم الدميمة اللعوب، وزاد خيالها قبحا في ذهني.

ذهبت إلى حيث كانت زوجتي راقدة، ولم يكن المكان قاتم الظلمة فإن أنوار الشارع كانت تصل إليه بقدر كاف، فقلت ولم يكلفني الابتسام كثير عناء:

أحقا وقع الباشق على صيد قذر؟

فلم تجب، واصطنعت النوم، فأعدت السؤال، وألحفت فقفزت من رقدتها إلى الشرفة وقالت بصوت مسموع وفي غضب:

– من قال لك عني أنني قلم استعلامات؟

– خفضي من صوتك وإلا سمعك الجيران، إن لم يكن الشاويش.

فأطاعت وقالت في تهكم:

– لاسيما عن عصافيرك التي تنقض عليها انقضاض الباشق.

– أنت قلت.

– كيف؟

– من حظى أنى قوى الذاكرة، ألم تقولى إنك تركتنى فراراً من موقف ربما اضطرك إلى أن تبادليها مجرد التحية؟

– نعم

– حسن جداً.. ألست أنت صاحبة التعبير البديع «لقد وقع الصائد على صيد قذر»؟

– نعم قذر.. قذر جداً..

فقلت ألفت نظرها:

– الجيران والشاويش.. خفضى من صوتك.

– لاتحاول أن تخفى خزيك بهذه الألاعيب المسرحية.

قمت فقبضت على يدها ووضح الجد فى عينى وأنا أقول:

– لست أمزح.. أريد أن تقولى لى كل ما تعرفينه عن هذه المرأة.

فقالت وقد راعها تحولى:

– ماذا بك؟

– ربما عرفت فيما بعد. ماذا تعرفين عنها؟

– ليس فى كلامى عنها غموض.

– كيف عرفتها؟

– إنها تتردد على «كابين» قريب من «كابيننا» وصاحبة «الكابين» تتأفف منها وتنثر خلفها الأقاويل..

– أهى متزوجة؟

– وماذا يهمك أنت؟

– لاتصيحى هكذا.. أهى متزوجة؟

– لا.. أسرُّك هذا؟

- نعم..

- إنى سعيد بذلك..

- ومسألة أخرى.. ومسألة أخرى..

- ماذا أيضا؟

- أهى.. أهى ميسورة الحال؟ أعنى هل لها نقود فى البنك.

- إطمئن. إنها لاتملك شيئاً الآن. أضاعت كل شئ. نعم. يقولون إنها بددت كل شئ.. وخرجت من كل شئ بنصيب الكلاب..

- حسن، حسن جداً.

- كدت أفقد صبرى.

- بل أنت تثلجين صدرى.

- وما وراء كل هذا؟

- تعالى أخبرك. تعالى.

-٣-

والواقع أنى أحسست بارتياح إلى ما سمعت. وترفَّه الضغط الذى كان يئود صدرى. وهدأت أعصابى إلى حد كبير. وأشعلت سيجارة فنعمت بأنفاس منها وأنا صامت، أرسل الدخان فى الهواء، وأمعن النظر إلى حلقاته تستطيل وتتعرج، وتتداخل وتنفصل حتى تتلاشى. وزوجى قبالتى. كلها رغبة وكلها آذان. ودقت الساعة دقة واحدة، تعلن النصف بعد الثامنة دقة واحدة، تجلى فيها معنى الحزم، والمرء فى مثل موقفى يكون شاعرياً، وقد يكون أكثر شاعرية مما يجب، فخيل إلى أن «الزمن» يأمرنى أن أتكلم.

ناولت زوجى أول الخطابين. فأجرت نظرها فى أسطره القليلة بجهد على الضوء الضئيل الذى يصلنا من الشارع، ثم رفعت إلى عينيها مستفهمة. فقلت:

- ربطتنى «بفهيم» صداقة من النوع الذى قل أن يوجد. لم يكن صديقى منذ الطفولة، ولا منذ الدراسة. بل تعرفت إليه فى الديوان على أثر توظفى فى الحكومة.. وما إن تعارفنا حتى ائتلفت قلوبنا، وصرنا لا أصدقاء فحسب، بل شقيقين بارين. كنا روحين أليفين تبحث كل منهما عن الأخرى حتى ظفرت بها.

وقام فى ذهنى وقتئذ شبح «حضرة الريس» بقامته القصيرة وكرشة الكروى، وأوداجه المنتفخة، وشاربه المصبوغ، و... جهله المطبق!! يحاول أن يستره بالغطرسة والتعسف، ولكنه كان جهلا جريئا يأبى الاستتار. وكان من ذلك أن تحرج الموقف بيننا، وأصبحت حال لاتطاق، لولا أن تدخل «فهيم» بيننا فى يوم عصيب، فأصلح ذات البين، وكان شكرى له على ذلك مبدأ التعارف بيننا.

- نعم.. صرنا صديقين حميمين، يركن كل منا إلى الآخر يستودعه سره، ويتبع مشورته.

- وما نوع تلك الأسرار، وتلك النصائح؟.

- آه.. دعينى أفكر. نعم نعم.. أسر إليه مثلا بأننى سوف آكل سمكا فى يومى.. فينصحنى بأن لاأشرب بعده لبنا..

- سماجة.

- قد تكون.

- إذا تابعت هذا التهكم فلن أنصت لك..

- بل ستنصتين، لأنى فى أشد الحاجة إلى أن ألقى هذه القصة عن عقلى وقلبى معا. وبعض التهكم يرفه عنى. تساهلى.. ومن العجيب أن أخلاقنا كانت متناقضة فى كثير من النواحى، وأن هذا التناقض كان هو نفسه من أقوى أواصر الرابطة بيننا. وأظننى بذلك قد أعطيتك فكرة واضحة إلى حد.. عن أخلاق صديقى..

- أجل، وضح لى الآن أنه كان رزينا. هادئ الطبع.. لايهوش ولايهول، ولايخلط الهزل بالجد، ولايتعمد -عند اللزوم- إغفال الحقائق التى فى غير صالحه.

- أحتج على الملاحظة الأخيرة.

– ثم أنه لايفاخر بنفسه، ولايطارد الفراش ثم يدعى أنه ملّك!

– كيف لاأفاخر بنفسى ولى زوجة بهذا القدر من الذكاء.

– هل لحكايتك بقية؟

– أظن ذلك، هذا التناقض كان من أقوى العوامل فى توثيق الرابطة بيننا، وإلى «فهيم» يرجع الفضل فى تكوين حياتى.. وحياتك أيضا..

– حياتى أنا! كيف، ولم أره فى حياتى؟

– أما عنى أنا، فقد مات والدى بعد أن نلت شهادة الدراسة الابتدائية.. وبموته تأثرت حالتنا المالية. فرأت أمى عدم استطاعتها الإنفاق على فى طريق المدارس الثانوية ثم العالية، ووفقت إلى فكرة إلحاقى بمدرسة التجارة المتوسطة، وما هى إلا ثلاث سنوات حتى تخرجت فيها، والتحقت بإحدى الوظائف الكتابية. ومهما يكن من شئ، فقد صار لى مرتب جعلنا مع دخلنا الأصلى، نعيش فى أمان، بل فى عداد المسرفين بالنسبة إلى حدودنا، ثم اتصل (فهيم) بحياتى، وكان أكبر منى سنا، وبالأخلاق التى ذكرتها أنت وأكثر وأنبل، فردنى عن إسرافى، وعن كثير من رذائلى. فوجدتنى بعد حين ذا مال مدخر، فنزت نفسى إلى أن أسافر إلى.. أسافر إلى ألمانيا أتنزه وأرى الدنيا كما يقولون، وكان الناس يهرعون إليها أفواجا لهبوط سعر (المارك) وقتئذ. وكاشفت صديقى برغبتى فمازال يحورها، ويعدّلها حتى استقرت على فكرة لم تكن فى الحسبان.

قال لى صديقى «أنت ما زلت صغيرا»

قلت «ماذا بعد؟»

قال «وإذا لم يكن والدك قد مات مبكراً، فما من شك فى أنك كنت الآن فى حالة أرقى»

قلت «بذلك جرت مشيئة الله»

قال «ولكن الفرصة لم تفت»

قلت «أية فرصة»؟

قال «تسافر إلى ألمانيا كما تريد، ولكن لاللتنزه، بل لتبدأ حياة جديدة بعزم جديد.. أتمم دراستك، وعد بأعلى درجة تستطيع. وفى هبوط المارك فرصة لاتعوض».

وأمضيت أياما فى حيرة وليالى فى سهاد. أزن هذا الانقلاب المقترح، وأقلبه وأنظر إليه من نواحيه.. وظيفتى؟ أستقيل منها؟ ومرتبى؟ ثمانية جنيهات فى الشهر.. أفقده؟ وأمى وأخى الصغير أبتعد عنهما أشهراً وسنوات، ولم أغب عنهما ليلة واحدة من قبل!! والعيشة الهادئة التى أحياها. أستعيض عنها بحياة أخرى أقل ما أعرفه عنها أنها سوف تكون محوطة بالعسر، مليئة بالكفاح والجهاد. ولكن الاقتراح راق لى آخر الأمر، وقر رأيى عليه، وصار عندى أمنية الأمانى. وتكفل هو بإقناع والدتى، وتطمين أخى الصغير. وكان له صوت عريض هادئ واضح النبرات يعبر أحسن تعبير عن منطقه المتزن بحيث لايخطئه الإقناع متى أراد. وقام من ناحية أخرى بأغلب ما يتطلبه التنفيذ من مشاغل وإجراءات ومشتريات -بعضها على حسابه الخاص.. وإذا بى فى ألمانيا.. ومرت ثلاث سنوات بحلوها ومرها. وإذا بى أعود، وأنا أحمل «دكتوراه» فى الاقتصاد.

- هذا فضله عليك أنت، وإنه لفضل عظيم حقا، ولكن ما فضله على أنا؟ جعلتنى طول الوقت أنتظره..

وبعد فترة قلت:

- حدث عند عودتى أن مررت بباريس، وهناك التقيت بشاب مثقف مهذب، كان كذلك قد أتم دراسة الهندسة فى السنترال. واتفق أن عدنا إلى الوطن على سفينة واحدة. أعجب بى فاتخذنى صديقا، وأعجبت به. فـ. فـ. فصاهرته. فيما بعد.

فاندفعت زوجى تضحك.

- أهذا كل فضل صديقك على، دعنى أضحك.

- اضحكى ما شئت. ثم اعترفى بالحقيقة.

- ولماذا لايكون هذا تتمة فضله عليك؟

- فليكن إنى لاأرفض، وحبذا لو قررت هذا مخلصة لامتهكمة.

- كيف؟

- أريد أن أسمع الناس عامة، وأنت بصفة خاصة، الكل يذكرنى بفضل صديقى! ويضيفون إليه أفضالا.

- يخيل إلى أنك تخاطب نفسك، قم إلى الهواء فما أحوجك إليه فيما أرى.

وجذبتني في رفق، ودفعتني إلى الشرفة في دعابة. وثم وقفنا واستشعر جسمي برودة الجو فانتفض، واقتربت هي مني حتى احسست دفأها فأخلدت إليها، ولذّ لي السهوم إلى تلك الأضواء الخافتة المتباعدة الممتدة في عرض البحر، وأبدت زوجتي ملاحظات على الراكبين في الشارع والراجلين، فلما طال صمتي عيل صبرها. فقالت:

- أراك الليلة شاعراً.

- البحر أكثر شاعرية.

- لقد دبت فيه الحياة عن ذى قبل.

- يقولون إن البحر يسمع ويشعر.

- أتركك فتنظم قصيدة.

- بل ابق إلى جانبي..

وساد صمت عدت فيه إلى وجومي، وقطعته زوجي بضحكة قصيرة.

-أذكر لي شيئاً آخر عن رحلة «مجلان».. أقصد (كولمبس) فقد كنت خطيباً بارعاً..

فقلت فجأة وبلاتفكير:

- أحقا إن هذه المرأة ليست في حالة..

وحدقت في وجهها لأجد الكلمة التي أريد أن أقولها بالذات ولكنها عاجلتني بقولها:

- لاأريد أن تكون هذه الـ.. مخلوقة الـ.. الكريهة موضوع حديث بيننا.

قالتها بحزم وغضب. ثم أحبت أن تخفف من وقع كلماتها فقالت بعد فترة:

- ألم يبق عندك كلام عن صديقك؟

- الواقع أني أصبت بالعي في حقه.

وفجأة طرأت لي فكرة.

- آ. آ. تعالى.

وتقدمتها إلى مكتبى، فجلست أمامى، دهشة متطلعة، وأخرجت الصندوق الصغير وقلت وأنا أفك عقدة الرباط:

- خطابات.. لاتخافى.. مجرد خطابات.. كل ما فى أمرها من عجب أنها مجموعة خطاباتى إليه.

- خطاباتك أنت؟

- خطاباتى. نعم، خطابات كنت أكتبها من قلبى إلى قلبه. لازيف فيها ولاتدليس، ولامبالغة.. اقرئيها فيما بعد على مهل.. فسوف تصور لك ببساطة، وسوف تكلمك بجلاء عما عجزت الليلة عن إيضاحه.

- هل كان صديقك هذا يحتفظ بها إلى هذا الحد..؟

- أجل. كان يحتفظ بها.. وفى هذا الصندوق.

- وهل هو الذى ردها إليك؟

- تسمحين إرضاء لى الساعة، أن أقرأ عليك فقرات منها.

وفضضت منها خطابا -حيث ما اتفق- وشرعت أقرأ.

- اسمعى.. «..لقد أبطأت فى ردك حتى خلت أنك نسيتنى. وتضايقت لذلك أشد الضيق، فإن كان الداعى هو مرضك فقد فرحت الآن بشفائك أضعاف ما عانيت.. احترس من البرد يا صديقى فعهدى بصحتك لاتحتمله».

ولم يسعنى عند ذلك إلا أن أطرقت إطراقة طويلة ثم استأنفت القراءة.

«أما إن كنت قد أصبحت لاتكتب لصديقك إلا مدفوعا بعوامل ملموسة -وهى مسألة مساعدتى المادية فإنى سوف أهددك دائما كلما طلبت رسالة منك»

ثم انتقلت إلى خطاب آخر، أجلت فيه نظرة عاجلة.

- اسمعى. اسمعى. شئ يسرك. أو أرجو أن يسرك!.

وأخذت أقرأ «..أما عن حياة العواطف فيدهشك أن تعرف أنها را كدة، راكدة كل الركود.

–أليس هذا عبطا منى. ولكن اسمح لى أن أتفلسف فأقول: إننى أضن بقلبى لما هو أعلى وأسمى، على أنى أميل لحظة إلى هذه أو تلك، وهذه اللحظة قد تمتد إلى حين، ثم أشعر فجأة بأنها عاطفة عارضة، أو أنها ليست إلا فقاعة غرام»، ثم رفعت بصرى إلى زوجتى. وقلت ملوحا بسبابتى تجاهها:

– اسمعى «وإلى أن ألتقى بتلك التى يقيمها خيالى منذ سنين لن أعرف الحب.. وإذا لم أوفق.. فليكن»

فقالت وهى تصفق.

– برافو.. ولكن هل تراك وفقت إلى فتاة أحلامك؟

– الجواب موكول لتقدير حضرتك..

فخفضت أجفانها، وابتسمت فى حياء، وقمت فقبلتها، وجلست على متكأ المقعد الذى كانت جالسة عليه. فقالت بإشراق حلو:

– حذار أن تكون فقاعة غرام..

– ربنا يستر.

– بودى لو رأيت صديقك الذى تحبه هذا الحب العجيب.

– ليس «حباً» أيتها البلهاء الصغيرة.. هى «الصداقة» والصداقة شئ آخر غير الحب.. الصداقة نوع من الحب.. نعم.. ولكنها.. شئ آخر.. الحب بمعنى الحب»، وما فيه من اللوعة والأسى والسهاد»، لاينشأ فيما أعتقد.. أو هو لاينشأ عادة وطبيعة.. إلا بين الجنسين، وهو نسمة من السماء تهبط إلى الأرض، أما الصداقة فتنشأ بين أفراد الجنس الواحد، وهى وإن كانت من صنع الأرض، إلا أنها تستطيع أن تحلق فى السماء، والحب كما ترين، أنانى شكس.. يحرق أجنحته بنار الغيرة، ويذيب قلبه فى سعير الشكوك التى لاينى يخلقها فتعذبه، وتعذبه فيخلقها.. بل إنه لايدوم طويلاً ما لم يكن له غرض.. فهو أبداً يعمل على الامتلاك والسيطرة، ويملك وحده ويسيطر وحده لاشريك له. وذلك هو الزواج.. الزواج الذى يدمج الحبيبين بعضا فى بعض ليكون منهما نفسا

واحدة كاملة الشطرين! فمن النادر الذى لاحكم له أن تجدى حباً حقاً بين البشر لايجعل الزواج مطمحه الأول والأخير (فلو إن القبلات كانت كل ما فى الأمر، لزوجت النساء من النساء) على رأى شكسبير..

وتريثت لأجد ما عسى أن أقوله فى هذا الصدد، إذ كانت نظرات زوجتى تطلب المزيد. بيد أن القريحة لم تسعفنى فقلت:

- إقرئى هذه الخطابات، ثم مزقيها.

- أمزقها!.. ألا تريد أن تحتفظ بها؟

- والآن.. أطفئ النور وتعالى إلى حيث كنا وإلى ما كنا فيه، فالمكان هناك أصلح وأريح.

فلما أخذ كل منا مكانه من المقعد الطويل بادرت زوجى تقول وهى تهز فى يدها الخطاب الذى سبق أن قرأته.

- حقا لقد انتظرك صاحبك طويلاً.

فأزعجتنى ملاحظتها وتراخى صوتى حين قلت:

- سلى الله أن يطيل انتظاره.

- كيف؟

قالتها همسا وأقرب إلى الشهيق من فرط ما أخذت.

- عندما ذهبت إليه وجدته مريضا. بصدره.

- بالسل؟ أتعنى ذلك؟

فأطبقت عينى إيجابا.. أما هى فتمتمت بين شفتيها:

- مسكين!

ورفعت إلى عينيها فى إشفاق. وساد الصمت..

جدٌ فى نفسى وقتئذ تهيّب. تهيب من وقف على رأس طريق وعر يريد أن يتعرف مداه، وأن يعرف بين وعورته آمن مواقع الخطى، وخشيت أن تتمادى بى تلك الحال، وأن تستبد بى العاطفة، فقلت كمن يقرر حقيقة واقعة.

- ليس من عجيب أن يمرض الإنسان، ولا من خوارق الطبيعة أن يموت شخص عزيز على آخر أو على آخرين.. ولكن فى الحياة ما هو أقسى من المرض، وما هو أشد على القلب من الموت.. فأرسلت إلى نظرة ساهمة مستفسرة. ولم أشأ أن أجيب سؤال ناظريها، واستطردت أقول:

- استقبلنى صديقى بابتسامة هادئة وقال وهو يمد لى يده «لولا أن يتقولوا على إنى أصبحت من أولياء الله لأرسلت (العم جمعه) يستقبلك قبل أن تدخل المنزل».. ومضى الخادم العجوز يؤهل بى ويرحب حتى أشار إليه فهيم بأن ينصرف، ففعل.. والآن يا عزيزتى، لايمكننى أن أصف لك صدمة الحزن بقلبى حين وقع نظرى على فهيم.. فهيم ذلك كان بسط القوام، جسمه أشبه بأجسام الرياضيين.. فهيم القمحى اللون فى صحة، والذى لاأذكر أنه شكا مرضا أو انتابته علة طوال السنين التى عرفته فيها. أراه ممداً على فراشه كالخيال.. وقد استطال منه الوجه وامتقع، وبرزت فيه أنف رقيقة مدببة الأرنبة لاعهد لى بها..

هنا حاولت زوجتى أن تقول شيئاً، ولم تستطع فاكتفت بأن هزت رأسها تأثرا ورثاء، وجعلت تفرك راحتيها فى حجرها وأشفقت أن أكون قد أثقلت على أعصابها.. فأمسكت عن الكلام. فساد فيما بيننا الصمت.. ووضح وقتئذ صوت البحر يضرب الشاطئ بالموج الشديد، وأردت أن أسترعى انتباهها، وأن أغير مجرى الحديث فسألتها عن «شفق» فلم تجب.. فطلبت إليها أن تقوم فتعد لنا القهوة. وأدركت ما أرمى إليه، فقالت:

- استمر، استمر.. شد ما أريد أن أعلم..

- حسن.. ماذا كنت أقول؟ نعم.. وما عجبت له أنا نفسى أن حديثنا اتخذ سبيله عاديا صرفا.. كأننا لم نفترق هذا الزمن الطويل.

- لم تخبرنى أنكما افترقتما زمنا طويلا..

- حقا؟!.. إذن فاتنى أن أقول لك إنه حدث بعد عودتى من ألمانيا بأشهر أن رقى فهيم إلى إحدى الوظائف الرئيسية فى شمال الدلتا، وتراسلنا حينا ثم فترت المراسلة حتى انقطعت، ومضى نحو عامين لم أره، حتى وصلتنى دعوته الأخيرة. وإن أنسَ لاأنسَ أنه كان يقرأ رسائلى حين دخلت عليه رأيت الصندوق الصغير إلى جانبه، ورأيت أحد الخطابات على الوسادة.. نعم.. كان يقرأ رسائلى، وعلمت منه فيما بعد أنه يجد فى قراءتها من آن لآخر متعة وراحة بال..

فقالت زوجتى فى تأثر عميق: «يا للصديق النادر الوفاء».

وبعد فترة قلت:

-على أنه لم يفتنى منذ أن استقر بى المكان إلى جانبه، أن الغرفة التى هو فيها تنقصها العناية، كانت الفوضى شائعة فيها. ينطق بذلك السرير وما عليه من فراش، وكوب وملعقة على النافذة، ومعطف زل عن المشجب فى الركن ولم يجد من يقيل زلته. أشياء لم ترق لى، وعجبت كيف تروق لصديقى على فرط ما أعهده من حب النظام والترتيب. هذا فضلا عن أنه لم يكن بالغرفة باقة أو حتى زهرة واحدة فى إناء جميل تبعث إليه فى أريجها الطيب نسمة الأمل الطيب، لم يكن هنا أو هناك فى أرجاء الغرفة تحفة أو صورة تستقر عليها العين إذا سئمت أو يلوذ بها الخاطر إذا برم!.. وصديقى موسر لايعوزه المال. وما أعهد فيه إجحافا بنفسه.. كان يعوزه شئ آخر.. المرأة.. روح المرأة. فإن للمرأة روحا يشعر بها المرء وإن لم ير شخصها.

- ألم يكن صديقك متزوجاً؟

- لم أكن حتى تلك الساعة أعلم. بل لم أكن حتى تلك الساعة أدرك أن فى المنزل شخصاً آخر غير العم جمعه. أواه لو رأيت العم جمعه هذا يا عزيزتى وقتذاك، وكان المقام يسمح بالضحك إذن لضحكت ملء شدقيك، وملء رئتيك، تصورى آدمياً لاتستطيعين تقدير قوامه، فهو اليوم مديد القامة، ترفعين إليه البصر حين تخاطبينه، وفى غد تنكرينه، فقد قصر وانكمش ونتأ فى ظهره قتب، واتخذت رقبته وضعاً أفقياً عجيباً، ينتهى برأس أعجب، رأس له وجهان، متساويان لونا ولمعانا..

فابتسمت زوجتى وقالت:

- كفاك تهويلا.

– أنت تعرفين أننى أبعد الناس عن التهويل.

– صحيح. إذن جوُ أن

– الوجه الأول فى موضع القفا.. تقاسيمه كما لو رسمها طفل بمسمار على فخار والثانى فى الموضع المألوف المعروف.. فيه أنف ضخم، وعينان تافهتان.. بيد أن لإحداهما.. وهى اليمنى على ما أظن غمزة تحير الناظر إليه، ولو أنها صدرت عن غيره لأقلقت بال الأزواج، وأحرجت مركز الزوجات. غمزة تدخل فى الروع أنه يريد أن يتكلم على انفراد.. وفى شأن مريب وهو يلبس عمامة إلى أذنيه، وقميصا إلى ركبتيه. وصدارا..

فمصت زوجى شدقيها وقالت فى جد، رغم ابتسامة فى أطراف عينيها وركنى فمها:

– ثم إنك لاتهول!.

فابتلعت ريقى تأييدا وتأكيدا. واستطردت فى قصتى.

– قلت إننى لم أدرك حتى تلك الساعة أن بالدار غير هذا الـ«جمعه» يقوم بأمر صديقى المريض. وإذن فلاعتاب عليه ولاملامة. ولكن حواراً ما لبث أن تسرب إلينا فى غير ما خفوت ولاوضوح أيضا، دل على أن «سيدة» تحادث الخادم فى بعض شئون المنزل.. فصفق صديقى: نعم صفق جهد يديه النحيلتين، وقواه الخائرة، حتى جرس كهربى لم يكن إلى جانبه فانبعث من الغرفة المجاورة صوت عذب يقول «دقيقة واحدة.؟ هاأنذا قادمة» فأمال صديقى رأسه إلى وقال:

«زوجتى».

فأطرقت.. وبعد فترة قال:

«لم أحدثك عنها من قبل.. هى مهذبة، مثقفة.. طيبة القلب.. ولكنها تعسة الحظ. بزواجها..»

وغلبه التأثر، فأشاح بوجهه عنى. ولكننى عنفته فى رفق ودعابة. ثم أكدت له أن حاله لاتستدعى هذا الانفعال.. وما زلت على هذه النغمة حتى سرى عنه وعاد يقول:

«أجل.. الواقع أنى. أشعر بتحسن. ولو ذهب عنى هذا الـ.. الـ.. الفراغ.. الذى أشعر به فى صدرى.. نعم. هو هذا الإحساس فقط. أما الكحة. فأنا وهى، زباين، كما تعلم.

فعدت أطمئنه وأقوى فيه الرجاء. وسادت فترة صمت سعل فيها ولهث، وانبعث الصوت من الغرفة المجاورة يقول فى نعومة:

«هل جاءك عصير الليمون؟»

وفى نفس الوقت دخل العم جمعه يسعى بالعصير المذكور، وقد لف الكوب بيسراه فى حين كانت يمناه دائبة على تحريك العصير، ورمى ما تصطاده الملعقة من بذور الليمون على أرض الغرفة. بلامبالاة.

فقالت زوجى فى امتعاض:

– الواقع أنه شئ لايسر.

– وبعد هنيهة دخلت «ميمى» هكذا كان يدللها صديقى. فرأيت آنق ثوب على أرشق قوام، وأبرع زينة على أبدع وجه وأرق قبعة على أدق تصفيف شعر.

فلما رأيت زوجتى قد فغرت فاها، واحتدمت عيناها، أسرعت أقول خلال أصابعى:

– مع ملاحظة أننى أبالغ كما هى عادتى!!

وبعد فترة قلت:

– وما إن قدم صديقى أحدنا للآخر حتى هتفت فى مرح قالت «أهو أنت؟ ها أنذا عشت حتى أدركت أمنية من أسعد أمانى».

قلت «عمرك أطول من عمرى».

قالت «لقد كلمنى فهيم عنك كثيراً، وكثيرا جدا.. حتى لقد برع فى تصويرك»

فقاطعتها بقولى:

«بأجنحة، أم بعيون رأسية؟»

فقهقهت ضاحكة وقالت:

«بل فى صورة إنسانية بارعة..»

قلت «أرجو أن لايكون ظهورى قد مسخ الصورة.»

فقهقهت في مرح أكثر من ذى قبل كأننى قلت أبرع نكتة.

عند ذلك هزت زوجتى كتفيها، ومطت شفتيها وقالت كأنما تسرد حقائق تحفظها عن ظهر قلب.

– فملأك هذا غروراً، ولمعت عيناك، وتوقدت قريحتك واتسع فمك إلى الأذنين من الفرح. أليس كذلك؟!..

– آمنت يا عزيزتى بأنك تعلمين من أمرى ما لا أعلم.. ما علينا.. سار الحديث بيننا على هذا النمط مليا.. ثم نهضت «ميمى» واقفة –وقالت:

«لاتؤاخذنى.. فإنى على موعد مع إحدى قريباتى.. ثم إننى أريد أن أشترى «حقنا».. حقن الذهب.. إنها غالية الثمن.. ولكن صحة فهيم.. بالدنيا»

ثم انحنت على فهيم وقالت وهى تهز فى وجهه إصبعا دقيقا ذا ظفر كأنه الصدفة الوردية:

«أنت الذى تغرينى بالخروج.. بل تحملنى عليه أحيانا.. أليس كذلك؟ اعترف أمام صديقك..»

وكان للجو المرح الذى حدث أحسن الأثر فى نفس مريضنا العزيز، فأشرق وجهه وافترت شفتاه وعيناه عن ابتسامة جذلة وهو يقول:

«أعترف بذلك، نعم أعترف.»

وفى هذه اللحظة عادت إلى ذهنى صورة من صديقى القديم، صحيحا معافا. ثم انتبهت فإذا ميمى تقول:

«كنت أود أن أستمتع من هذه الفرصة السعيدة بأكثر ما تسمح به أنت، ولكن ما حيلتى. أرجو المعذرة»

فانحنيت وقلت:

«الأيام بيننا.. وآمل أن أكون عند حسن ظنك دائما»

«أورفوار.. أورفوار..» وانصرفت.

-٥-

جاءتنى «شفق» بفنجان من القهوة –وهو إحدى حسناتها القليلة – وفى نفس الوقت قامت زوجتى إلى طرف الشرفة تلبى نداء جارة جرى بينهما الود منذ سكنا، وكانت الشرفة دائرية الشكل عند الناصية، فتوارت زوجتى عن نظرى وخفت حديثها على سمعى، وكان كلامى قد رفه عنى، فأخذت أحتسى القهوة وأدخن سيجارة فى هدوء.. وأبت المصادفة إلا أن تجعلها «استراحة موسيقية» فساقت إلى رأس الطريق تلك الفرقة الجوالة التى ما تفتأ تعرض على المقاهى برنامجها الذى لايتغير بحال.. هم ثلاثة أشخاص: المنوط بالصندوق الموسيقى، والضارب على الرق، والراقصة. وإذا ضربنا عرض الحائط بالفنانين الأولين فقد كانت الثالثة فتاة فيها جمال ورشاقة وتظهر دائما فى سراويل الرجال تعالج فيها أحدث الرقصات، فهى تبدأ عادة (بالكريوكا) وتنتهى (بالهاتشاتشا) وتصنع فيما بينهما مما لاأعرف الشئ الكثير.. وكانت هذه الفنانة الشارعية موضع إعجاب الكثيرين، ومحط إشفاق الكثيرين، يودون لو يعترض سبيلها (المخرج) الذى يقدر فتنتها وكفايتها.

لبثت حينا أراقب من الرقصات ما تسمح به فتحة الشارع حتى عادت زوجتى فربتت ظهرى وقالت وهى تغرق فى الضحك:

– تصور أن صديقتى حسبتك تعنفنى ونحن نمشى على الكرنيش: أنظر كيف أولت حماستك؟

– كيف؟ أ إلى هذا الحد؟

– فلما أخبرتها أن احتدامك لم يكن إلا وصفا لرحلة كولومبس.. وما لقيه من أهوال وأخطار فعلت ما أفعله الآن.

– ماذا؟

– أغرقت فى الضحك.. وأسفت على تلك الفرصة التى أفلتت منها.

فشددت أذنها فى رفق وقلت:

– ما حيلتى فيك وفى جارتك؟ بلهاء صاحبت بلهاء.

وهممت بأن أعود إلى مشاهدة الرقص.. ولكنها جذبتنى فأجلستنى قسراً وهى تقول:

- تصور أننى اقتضبت حديث صديقتى من أجل قصتك تعال، فاجلس واستمر.. ما زلت أريد أن أعرف ما ترمى إليه ماذا حدث بعد أن انصرفت.. ميمى؟

وأردفت الأسم بغمزة من عينها، فتضايقت وسهمت وأدركت ذلك، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة وفى عينيها اعتذار:

- لاتغضب.. لاتغضب.

- لن أغضب، ولن تعودى لمثل ذلك.. جعلت أزور «فهيما» كل يوم تقريباً، وصار موعدنا فيما بين السادسة والثامنة ويطول إلى التاسعة أحيانا. ولم يك من شئ يستثير فى نفسى الضيق إلا تلك الفوضى الشائعة فى الحجرة، والحال التى يترآى من خلالها ما يشبه ضيق ذات اليد، ولم أجسر على أن أصارح صديقى. ثم لم تسمح لى الظروف بأن أستطلع زوجته جلية الأمر بطريق مباشر أو غير مباشر. فقد كنت لاأجدها غير مرة.. وغير مرة كانت تمر بنا لمجرد أن تستأذن فتنصرف. وكنت أقر «فهيما» على ما يبذله لها من التسامح، وما يبيحه لها من الحرية.. ترويحا لنفسها، وترضية عما أصابها فى زواجها من سوء الطالع.

وعملت من ناحيتى بكيفية أخرى. جعلت أحمل فى زياراتى صوراً وتحفا من الزجاج أو البرونز وما إلى ذلك. ثم أزهاراً من طبيعية أو اصطناعية، وكنت أقدم بعض هذه الأشياء على سبيل الهدية، وبعضها على سبيل الوفاء برهان أخسره، وأخريات على أنها لى.. ثم أنساها.. أما الكتب والجرائد والمجلات، فكان أمر تقديمها ميسوراً فى كل آن. ذلك إلى ما كنت أسديه إلى العم جمعة من النصائح، وما ألقيه عليه من الارشادات حتى أصبحت غرفة صديقى كما يجب أن تكون عليه أو أقرب إلى ما يجب أن تكون عليه..

وسرنى أن صديقى لم يلحظ تعمدى فيما أصنع.. وأن ما صنعت كان له أثر حسن فى حالته الصحية.. والمعنوية.

وسر بى «العم جمعه» كل السرور، وتوثقت بيننا عرى المحبة.. والبقشيش.. فكان يرهق نفسه بالترحيب بى، ويرهق ملائكة الرحمة بالدعوات والتمنيات من أجلى..

أما ميمى.. فكانت ضاحكة مداعبة على عادتها.. مع ذلك فقد أحسست على توالى الزيارات أنها ليست من البساطة بحيث تتراءى، وأنها ليست من السهولة بحيث تريد أن تظهر..

ولم تلبث أن تكشفت لى الحقيقة، حقيقة كافرة خاطئة.. أجل.. لقد كفرت الزوجة بثقة زوجها فيها.. وأساءت إلى الحرية التى أباحها لها.

استغلت ضعفه فسطت على ماله. فغدا المال باسمها فى المصرف، وعلى مرتبه، فقد وكل لها أن تقبضه. وها هى ذى تقتر عليه وتحرمه..

استغلت حبه لها، فهى تسخر منه بابتسامتها، وتلهو به فى أوضاعها المسرحية.
استغلت إشفاقه عليها، فقست عليه، وها هى ذى تتركه للوحدة الموحشة، والتأمل الأليم.
استغلت سجنه الرهيب.. لتمضى طليقة آمنة.

حتى ثقته بى، تلك الثقة القلبية الروحية التى لاحد لها، حاولت أن تستغلها فى.. فى.. فى خيانته.

– خيانته؟

– أجل. تصورى.. أوحت إليها فطرتها الفاجرة، أن تشرع فى غزوى منذ اللحظة التى جرى فيها التعارف بيننا، على يد الصديق الواثق، والزوج المطمئن. وما كان إطراؤها ذاتى، واستعذابها كلماتى، إلا خيوط العنكبوت تنشرها حولى، هينة لينة، إلى حد أنى لم أشعر بها بادئ الأمر. ضحكت، وفرحت، ومرحت، فأحسنت الظن، غمزت بعينها، وأومأت برأسها، فقلت: طيش برئ.. شدت على يدى، وداست قدمى، فكذبت شعورى وإحساسى.

ولكن الأمر خرج عن طاقة حسن الظن، وتعدى نطاق الطيش البرئ فى أوسع مداه.. فقد تدرجت إلى أن صارت تلقانى بقميص النوم، شبه عارية، وما استتر منها كان تحت شفافيته أشد فتنة، وصارت تطلب إلى الخلوة بها لأتفه الأسباب، تصطنع أثناءها الإشفاق على زوجها، والرثاء له فى جركات وسكنات، وآهات وتنهدات، أكثر شفافية عما وراءها من قميصها، حتى ضقت بها وبنفسى، وحرت فى أمرها وأمرى.

وكانت مع ذلك دائبة على الخروج، لاتضيق بها الأعذار. ويبلغنى أنها كانت فى أيام تغادر المنزل سحابة النهار، إن لم يكن شطراً من الليل معه. على أنها أخلدت إلى البيت أياما، بدعوى إيثارنا وإيناسنا، فكانت هذه الأيام لصديقى فترة فى الجنة، وكانت لى فترة فى سقر.. ثم ما عتمت أن عادت سيرتها الأولى..

وفى نفس اليوم الذى ضربت فيه بإيثارنا وإيناسنا عرض الأفق، بينما أنا أهبط السلم الخارجى عند انصرافى، إذ بالعم جمعه يحمل إلى ورقة، حسبها وقعت منى وحسبت من ناحيتى أنه مكلف بإيصالها إلى وما إن أجريت فيها بصرى حتى نظرت إلى الرجل مشدوها!!

فلما تبين منى ذلك انكمش، وبرز قتبه، واتخذ عنقه وضعه الأفقى، وافترت شفتاه عن صمت مثل صمت أبى الهول.. ولو أننى طاوعت نفسى وقتئذ، لصفعته، أو بصقت فى وجهه، أو ركلته، أو فعلت به ذلك جميعا.

فقالت زوجتى فى دهشة:

– يالله!.. ولم هذا؟..

– لم يكن ما أعطانيه سوى خطاب بلاظرف، تاريخه نفس اليوم، وهو للسيدة «ميمى»..

وبإمضاء «..مجدى» كان يبثها الشوق، ويبعث «بقبلات حارة كأنفاس المحموم من كل جارحة فى جسمه، إلى كل جارحة فى جسمها» ..أما بعد.. فقد عاد من السفر، ولم يوفق، ولم يجد من والده أذنا صاغية.. لذلك عاد «خاوى الوفاض».. وإذن فالمركز لم يتغير. وما زالت السيارة محجوزاً عليها، وسوف تكون فضيحة إذا هى لم تتدخل «بكرمها المعهود!» ثلاثون جنيها فقط لاغير.. تنقذ الموقف، وهو مستعد لأن يكتب بها صكا، بل يكتب الصك بجملة ما فى ذمته!.. إذا أحبت.. أما الوجد، وأما اللواعج، فسيرجلها حتى تشرحها عيناه لعينيها: «الليلة فى الكازينو»..

والهمت السكينة، وألهمت أن آمر الخادم بأن يسرع فيضع الخطاب على «التواليت» فى غرفة سيدته، ثم لايعلمها بما كان إطلاقا، وإلا ساءت العاقبة. وأسرع الرجل حيال ما بدا على وجهى من صرامة رآها منى من قبل.

قالت زوجتى بلهجة من أدرك سراً:

– آه.. وإذن فهى لم تخلد إلى المنزل، إلا لأن هذا الـ«مجدى» كان قد سافر!..

– وانتهزت بالفرصة لتسبر غورى إلى مداه.

– ولم تترككما إلا لأن حضرته قد عاد..

– وعاد خاوى الوفاض.

- فهى تسرع لتدفع..

- أو لتستلم.

- تستلم؟..

- نعم.. تستلم القبلات الحارة كأنفاس المحموم.

فضحكت زوجتى وقالت:

- ثعلب مراوغ!.. وبعد..

- وعاد العم جمعه مهيض الذراعين.. يتذبذبان فى انحنائه كبندول الساعة.. فتعملت من الهدوء أكثر ما كنت أؤمل وجعلت أجاذبه أطراف الحديث.. وقد جلست على «دكته» عند الباب الخارجى، وجلس القرفصاء على الأرض أمامى.

وكان القمر بدراً فى السماء، يرطب الهواء، ويفيض فضة على ذهب الصحراء، ويغرى بالحديث الطويل..

وانحلت العقدة من لسان جمعه بعد جهد، فثرثر وثرثر.. وأظنه بالغ لإرضائى.. على أنه لم يأت بأحسن ولاأوضح مما جاء فى الخطاب. ولم يكن فى كلامه من مهم، إلا أن «مجدى» كثيراً ما يوصل سيدته إلى رأس الطريق.. وإن كان قليلا ما ينتظرها عند الخروج عصرا..

- والكازينو؟ أين هذا الكازينو يا عم جمعه؟

فهز رأسه سلبا.. ثم أطرق بها أسفا.

وتركته بلاتحية.. وأخذت سبيلى إلى منزلى، وأنا كمن أمضى يومه فى عمل بدنى جهيد..

-٦-

وتركزت نظراتنا -زوجتى وأنا- وقتئذ، على سيجارة كنت أشعلتها وغفلت عنها، فأوشكت أن تستحيل رماداً، وطاب لنا أن نلبث نراقبها، والريح تعبث بجذوتها الضعيفة الباهتة، وقالت زوجتى بصوت خافت:

- يا للمسكين.

- من؟..

- صديقك..

-نعم.. كان هذا الحادث أشد وطأة على نفسى، وأعظم إيلاما لها من مرضه.. ألم أقل لك أن هناك ما هو أنكى من المرض؟

فرفعت رأسها إلى فى حركة سريعة كما لو كانت تريد أن تفضى بخاطر مفاجئ، ثم ما عتمت أن ابتسمت من بعض فمها، ابتسامة فيها تراجع وعدول، وقالت:

- وماذا بعد؟..

- أما بعد، فتستطعين أن تتصورى حرج مركزى. أما أن أحاول التعبير فطويل وممض. وبحسبى أن أكلمك عن الناحية الـ..عملية، أو.. الإيجابية.. إن صحت إحدى التسميتين.. وحتى فى هذه الناحية، أى خطوة عملية أو إيجابية اتخذتها؟ لاشئ لاشئ.. أصلا.. الذى حدث على وجه التحقيق أننى أحترت، ارتبكت، أسقط فى يدى.

فكرت فى خطوات، وفى حلول،ولكن واحداً منها لم يرق لى، رأيتها جميعها بين صبيانية، أو مسرحية، أو تعود بأسوأ العقبى. فكرت أولا فى أن أتتبع خطوات المرأة، حتى أقف من خباياها على ما يبيح لى أن أقف منها الموقف الحاسم..

- وهذا هو الحل المسرحى!

- بل الصبيانى.

فابتسمت. وأحسست أنى أحسنت صنعاً.. ثم استطردت أقول:

- فكرت ثانية فى أن أقف منها الموقف الحاسم على الفور. ومن السهل أن أسترجع الخطاب، فأشهره فى وجهها..

قالت زوجتى -فى تأكيد هذه المرة- لتثأر للمرة الأولى.

- هذا هو الحل المسرحى.

فعاجلتها بقولي:

– ولماذا لايكون أخطر الحلول وأسوأها عاقبة..؟

– كيف؟

– هي واثقة من أنني لاأعرف شخص مجدي.. لذلك تقف أمام يدي المرفوعة بالخطاب ساخرة، هازئة، قائلة: «أهذا كل ما استطعت أن تخترعه أيها المخلوق الدنئ.؟ لتخضع زوج صديقك المريض الذي يثق فيك إلى غير ما حد أو نهاية..؟ أو أنها تقول: «أبهذه القصاصة الملفقة تحاول أن ترغمني، أنا الزوجة البائسة، على أن أخون زوجي البائس.؟»

ففغرت زوجتي فاها، ولصقت راحتها بخدها، إذ لم تكن هذه الفكرة لتخطر لها على بال، وبدا في عينيها أنها استهولت هذا التبجح المجرم. فأمهلتها حينا ثم قلت:

– وثالث الحلول التي عنت لي، أن أذهب إلى صديقي، فأطلعه على جلية الأمر.

فبدر من زوجتي قولها: «حذار!» في لهفة ولهجة خاطفة، إلى حد أنني ضحكت وربت وجنتها مطمئنا.

– لم أفعل يا عزيزتي هذا أو ذاك، ووكلت الأمر إلى ظروفه.. كل ما كان يهتاجني ألما أسفا. أو أنه كان يحقرني أمام إخلاصي وكبريائي ورجولتي، أنني كنت في مواطن كثيرة مضطراً إلى أن أجاري صديقي المسكين في إطرائه تلك المخلوقة، وامتداحه وفاءها له، ومشاركته الرأي فيما يجب أن يكافئها به، حين يتم له الشفاء..

فقالت زوجتي في تأفف ظاهر:

– يا للمسكين.. يا للمسكين. أي مركز حرج لصديقين!

– وأخيراً وجدتني في الموقف الفاصل فجأة، وعلى غرة مني.

– كيف. كيف؟

– حدث ليلة أن نزف صديقي دما من صدره، وزاغ بصره، وازداد لهثه، حتى خلت أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاستدعيت له الطبيب فأسعفه ورفه عنه النوبة. وبقيت بجانبه إلى ما بعد

الساعة الحادية عشرة، ثم انصرفت. فلما بلغت رأس الشارع، إذا بى أمام سيارة تقف، ونزلت منها تلك التى زوجها بين الحياة والموت. قفزت من السيارة فى خفة الغزال، ثم أرسلت إلى الذى كان يقودها، تحية المساء، ووعد الصباح.

عند ذلك وجدت نفسى أمامها متحفزاً كالوحش، وقلت فى خشونة:

- «من يكون هذا؟ وما كنت تفعلين إلى هذا الوقت المتأخر؟».

فضحكت فى غنج رقيع، وقالت فى أقسى ما تكون السخرية «معذرة يا زوجى الحبيب، مرحمة يا أخى العزيز..

فكأنها لطمتنى لطمة ولطمات، ولكن قبل أن تشتد بى الحيرة، كان من حسن حظى، أو من سوئه، أن رأيت ذلك الذى كان فى السيارة مقبلا نحوى، يتهادى ويختال، فعاجلته بلطمة حقيقية فى فكه، فهوى، فما زلت به، أرفسه، وأركله، على غير إرادة منى، حتى تخاذلت قواى.

فهتفت زوجتى، على غير إرادة منها أيضا:

- ويحك، ويحك.

فاستمررت أقول وأنا ألهث من فرط التأثر:

- ومن العجيب، أو لعله كان من الطبيعى، أن أحدهما لم ينبس بصوت أو بنت شفة طوال المعركة ثم غادرتهما ومضيت فى سبيلى، والظاهر أنى كنت أسير سيراً آليا، فلما عدت إلى حسى، قطعت شطراً كبيراً من الطريق، ومن العجيب أيضا، أننى استقبلت النسيم الذى كان يهب حينئذ براحة وتلذذ بل وشعرت بنشاط فى كل جوارحى، وبشعور النصر يملأ قلبى، ويوسع صدرى، حتى رحت أصفر وأنا أسير.

أحسست بأن الظروف هيأت لى أن أقوم بالواجب، فقمت به. وأديته أحسن الأداء، ثأرت للصداقة ولصديقى، رددت القول الفاحش إلى فم الفاحشة، دست الدناءة بقدمى، وأثخنتها مهانة. الحمد لله!!

ولكن..

سرعان ما حل بى رد الفعل..

فما كاد يحتوينى فراشى، حتى كنت فى أسوأ حال. وتناهبتنى الوساوس والفروض. وأرقتنى شر أرق، ثم أسلمتنى إلى شر سبات، كانت ليلة قضيتها فى جهنم.. حلمت فيها حلما لاأنساه ما حييت.

رأيت كأننى أسير فى صحراء، وفى الصحراء أطلال موحشة وأنا أحمل «فهيما» بين ذراعى. وهو فى حجم الطفل الصغير، مستسلما شاخصا إلى فى هدوء، ثم أفضى بنا السير إلى سلم يهبط إلى حيث لاأعلم، وإلى حيث لايدرك البصر مداه، سلم مخلخل الدرجات.. جعلت أهبطه فى حذر، وهو يئن تحت قدمى أنين المحتضر، فلما قطعت منه شوطاً بعيداً، إذا به قد انبتر فجأة.. وهوى صديقى من بين ذراعى إلى حيث لاأعلم. فصحوت..

فهتفت زوجتى فى ذعر:

– حسبك، حسبك. لقد أزعجتنى..

وأمسكت يدى، فأحسست بيدها باردة كالثلج فقلت لها:

– تجلدى. تجلدى، لم يبق إلا القليل.

وأبقيت يدها بين يدى حينا ثم قلت:

– أرانى أطلت عليك وأثقلت.. فهلا أعفيتك مما تبقى؟

قالت فى هدوء:

– بل استمر. إنه أثر عارض، استمر، إنى مصغية.

ومع ذلك صمت، فلعل ذلك مجاملة منها، فأعطيتها فرصة الإفلات.. ولكنها استحثتنى، فقلت:

– أصبحت فى غدى وقتئذ، واهن القوى.. وعلى وجهى سيما الإعياء، وبكرت والدتى تستفسر حالى، فقد تبينت سوء نومى، وكانت واجفة فطمأنتها، ولم أكن أحدثها فى شأن فهيم إلا القليل وبما يبشر، فلم أشركها فى أمرى، ولشد ما كنت فى حاجة إلى عطفها ورأيها.

ولم أغادر منزلى ذلك اليوم، طلبا للراحة والتأمل، وتهيؤاً مما عسى أن يكون.

وفى اليوم التالى كنت أتأهب للذهاب، أقتحم الجو كيفما كان، وإذا بعامل البريد يحمل إلى خطابا و«طردا» وشد ما كان ذهولى حين تبينت أن «الطرد» إن هو إلا الصندوق الصغير الذى

يحتفظ فيه «فهيم» بخطاباتى، فأوجست شرا، فلما فضضت الخطاب كان الشر أشد هولا مما كان يمكن أن أتوقع، بئسه من خطاب، كان مرا يقطر علقما، حزينا يذرف الدموع سخية، ملتهبا يحرق مواقعه من القلب، يائسا يهوى بالنفس إلى القرار! نعى فيه الصداقة، وترحم فيه على الرجولة وندب فيه الوفاء والإخلاص.

توسل إلى فيه إلا ما رحمت علته، وأشفقت على بليته، فأترك له البقية الباقية من الأمل، والقطرات الأخيرات فى كأس الرجاء، استحلفنى الله -إن كنت أومن به- وما وجد سواه من مقدس أو عزيز يثق فى أن يكون له كرامة عندى، استحلفنى بالله إلا ما تركت له زوجه، زوجه الطاهرة البارة المخلصة! لاأغريها ولاأنصب حولها الفخاخ!! وهكذا وهكذا.

فصاحت زوجتى وقد أمسكت بوجنتيها:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

وكان فى لهجة زوجتى ارتياع بين، وكان الواجب، أن ألطفه عنها علي نحو ما، ولكنني لم أفعل، ذلك بما قام أمام ذهني من مشهد واضح جلي، تمثلت فيه نفسي يوم تلوث للمرة الأولي تلك الزسطر المتتابعة التي راحت تنبئ- بعد إمعانها في القسوة- عن ضعف اليد التي جرت بها.

حاولت في ذهول الصدمة أن أقنع نفسي بأني وهمت وهما هائلا. ولكن الحقيقة اجتذبتني لكي أقف منها وجها لوجه!! عند ذلك أخذتني ثورة مجتاحة طاغية، جعلت منها أذرع الغرفة كوحش كاسر وقع في كمين، وضاقت بي الغرفة، فامتدت خطواتي إلي البهو، وما إن قطعته ذهوبا وجيئة حتي تنبهت أمي إلي سوء حالي.

فأسرعت إلي وقد حسبت أن فهيما قد قضي نحبه وأنه إنما نعي إلي الساعة. وما إن أحسب بوجودها إلي جانبي حتي انطلقت أسألها في اهتياج وصخب عن مدي ما يمكن أن تسف إليه النفس البشرية، وعن عمق الهاوية التي تلقم الضمير إذا هوي. وعن مقدار ما يستطيع العقل أن يختلقه من الشر إذا وجد في الشر منقذاً وخلاصا. وأمي حيالي خائفة الأعين مبهورة الأنفاس.

أجل. تمثل لي ذلك، ورحت أتمادي في تصوره، لولا أن سمعت زوجتي تقول:

-فيم تفكر؟ وفيم تشخص عيناك؟

قلت وقد تذكرت من فوري سياق الحديث:

– لقد أسرعت الزوج الخائنة، فأنهت إلي زوجها الأمر مقلوب الوضع، معكوس الحقائق.

قالت زوجتي وهي مذعورة مشدوهة:

– أوهمته بأنك.

وأرتج عليها، فأكملت ما تريد أن تقوله بنهدة عميقة. وفهمت ما قصرت ألفاظها عن أدائه، فقلت:

– نعم، واضح جداً أنها أوهمته بأنني أنا الخائن، وهي البريئة، أنا النذل، وهي الوفية الطاهرة، أنا الشيطان وهي الملاك! فهتفت زوجتي، مشفقة علي، مما داهمني من تأثر واحترام: – حسبك، حسبك، ما كل هذا؟ هون عليك، يكفيك أمام الله، وأمام ضميرك.. أنها شريرة كاذبة.

–وهممت بأن أنطلق إلي صديقي، أشرح له الأمر، ولكننى ترددت، وطال ترددى أياما، ثم صحت عزيمتى، فأخذت طريقى إليه، فلما بلغت الدار وجدتها موصدة، وكأنما برز العم جمعه من جوف الأرض يمسح دموعه بظهر يده.. وأخبرنى بأن «فهيما» قد مات!!

نهم. مات، وهو يعتقد أننى نذل جبان.

والآن، هل حزرت من تكون هذه المرأة؟

فهزت زوجتى رأسها إيجابا.

وتذكرت الخطاب، بل أحسسته، يحرقنى فى جيب سروالى، فأخرجته، وألقيت به على الطاولة الصغيرة أمامنا..

فاستقرت عيوننا عليه وعلى السيجارة وقد استحالت رماداً ممدداً..

واكتنفنا صمت كثيف رهيب.

وعلا صوت البحر..

الحب يلهو

هذا خطاب عثرت عليه بين الرسائل التى أحتفظ بها، ويرجع تاريخه إلى سنين عدة وقد استأذنت كاتبه فى نشره، فأذن لى على شرط أن أبدل أسماء الأشخاص وأن أغفل الإمضاء.

عزيزى حسين:

قرأت خطابك، ثم ترددت بين أن أكتب إليك، وأن لاأكتب. ذلك لأنى رأيت فى خطابك صورة صادقة منك، وكان لأسئلتك الخاصة بى، وبسفرى الفجائى أو «فرارى» كما أسميته، وقع بليغ فى نفسى، وإنى لأشكر جميل إحساسك نحوى.

أما أنا، فباستطاعتى أن أكتب إليك شيئا ما. أى شئ، عن الريف مثلا، وما فيه من هدوء وطمأنينة، وعن أهله، وما هم عليه من جهل وسوء حال، وقد يكون خطابا منمقا ولكنه بلاشك سيكون فاقد اللون والحياة، وأكون مموها عليك غير أمين إنما الذى يشغل شعورى وعقلى أراه دقيقا وحرجا وأحرى بالكتمان. وهذا سبب ما أدركني من حيرة وتردد، ولكن ما بيننا من ود قديم وثقة، يجعلنى لاأفضى إليك به فقط بل ألتمس عندك فيه النصيحة.

اسمع يا صديقى العزيز.

فى أواخر إجازتى الصيفية الماضية، كنت يوما فى ترام العباسية، راجعا إلى المدينة على إثر زيارة لعمى فى عمل له. وكنت بالدرجة الأولى، والساعة حوالى الحادية عشرة صباحا. وعند «شارع عبده باشا» صعدت فتاة، فأفسح لها الحاضرون مكانا، فجاءت جلستها أمامى. شئ غير نادر إن لم يكن مألوفا، وأنت تعلم أنه على الرغم من فراغ حياتنا من المرأة، وتلهف قلوبنا إلى إيناسها، فإنى لاأتعمد التعرف إلى فتاة، وإنى أمقت كل المقت من يفعل ذلك.

ولكن عندما كان نظرى يقع عفواً على تلك الفتاة، كنت أدرك فيها معنى للجمال غير مبتذل. لا، بل غير ذلك الجمال الذى تتصفحه عيوننا كل يوم. فلم تكن بذات الوجه الوردى، والجسم البض، والسيقان المغرية، كانت إلى الصفرة والنحافة أقرب. ثم لاتبرج ولازيف، إنما هما عيناها وفمها اللذان كان فيهما جماع ذلك المعنى الدقيق. فقد كانت نظراتها الشاخصة الهادئة تنبئ

عن طوية سليمة وطبع غير مشوب. وحدث عندى يقين أنها لو حركت شفتيها الرقيقتين لفاهت بالكلم العذب الحصيف، ولاأخفيك أنى فى مرتين أطلت إليها النظر حتى انتبهت إلى ذلك منى، فأغضت فى شئ من الارتباك، وأدركنى الخجل، لأنى أستطيع أن أقول أن نظرى كان يستقر على وجهها فعلا، ولو أن ذلك كان يحدث سهواً مني وعلى غير عمد.. وخشيت أن أكون بدوت لها السمج المقيت.

ووصل بنا الترام ميدان المحطة، وكنت أنوى النزول فيه، ولكنها أسرعت فنزلت، فرأيت الأليق أن أبقى مكانى محطة أخرى، اتقاء المظنة منها ومن الحاضرين.

وفى اليوم التالى، اقتضت الحال أن أزور عمى مرة ثانية. انصرفت من عنده فى مثل الوقت الذى انصرفت فيه اليوم سابق، وما كاد ينطلق بى الترام، حتى فاجأتنى ذكرى فتاة الأمس، وتمنيت لو أني أراها. إذن لأكون سعيداً. ووضح في ذهني معني السعادة كأن انسانا خارجا عني هو الذي أوضحه لي، وأكده عندي. وما كنت البتة فكرت في أمر الفتاة إلا دقائق إثر نزولها بالأمس.

ومن العجيب يا أخي، ولأمر شاءه القدر، أنها كانت في المكان عينه، وما هي إلا لحظة حتي كانت معي في الدرجة الأولي. ولم يكن بها سوانا وقتئذ. فأحسست بدمي قد جاش دفعة واحدة وخفق قلبي خفقانا شديداً، وخفت أن ينم وجهي علي، فواريته صحيفة كانت في يدي، وعالجت الهدوء فهدأت، أو علي الأقل هدأت إلي حد كبير. أما هي، فما استقر بها المكان حتي فتحت كتابا وشرعت تقرأ. كان كتابا انجليزيا. فبدت لي آنئذ كصورة لفنان عبقري الأداء: فيها هدوء ورقة، وفيها جلال. فلم أستطع إلا أن أختلس النظر إليها. وكنت أحس إحساسا صادقا باتصال روحي بها، وبأن قوة خفية تجذبني اليها.

وجاء عامل الترام، فآنست حواراً خافتاً بينه وبينها، ثم علا صوت الرجل في عنت، فألقيت الصحيفة ونظرت، وكأني أستطلع الخبر، وإذا بالعامل يأبي الإعتراف بنصف ريال دفعته الفتاة إليه. ولم يلبث أن طلب الي أن أكون حكما. ففحصت القطعة وما زلت بالرجل حتي حسمت النزاع.

فلما انصرف أحببت أن أتخذ من هذه المناسبة فرصة للكلام معها. فإذا بي أشعر بأن حلقي يجف وقلبي يزداد خفقانا، كما لو كنت قادما علي فعل جسور. بيد أني قلت شيئا، وبكيفية ما، فكان ذلك فاتحة حديث بيننا، حديث خافت منقطع في البداية، ثم استقام حيال إصراري، علي متابعته. فتكلمنا- أو تكلمت أنا في الواقع- عن العمال وإرهاق أصحاب الأعمال لهم، وضآلة مرتباتهم،

وعدم الاعتراف بكتلهم اعترافا جديا يركن إليه- عناصر تجعل جمهرتهم علي ما هم عليه من ضجر وحمق وفساد أخلاق. وكان يشجعني علي استرسالي غير المنتظر، أنها كانت تصغي إلي في غير تبرم وتحفزني بأسئلة واعتراضات. وكانت تتكلم في خفر وبصوت منخفض. وقد صح ما تفرسته فيها بالأمس- فصوتها حلو، وحوارها رزين، ولكن الموضوع بلغ حده فانتهي، وحلت فترة صمت شعرت أثناءها بالغبطة، أما هى فعاودت قراءتها، فعز على ذلك، إذ كنت أشعر بأنه لايجب أبداً أبداً أن أقطع هذا الخيط الذهبى الذى مدته المصادفة فيما بيننا. وكان قد عاد إلى احتباس الصوت إلى حد ما، لأنى كنت أدرك أن استئناف الحديث جرأة منى قد لاترضاها.

على أننى سألتها كما لو كنت أخاطب نفسى -عن الكتاب الذى تقرؤه، فإذا به رواية «كليوبترا» للكاتب الإنجليزى «ريدر؟؟ هاجرد» وكنت قرأتها منذ زمن بعيد، فكان لنا من موضوعها حديث متشعب ولذيذ.

أواه يا عزيزى!. إنى لأذكر ذلك الحديث كلمة كلمة، وقد مضى عليه نحو ثلاثة أشهر كأنه جرى بيننا اليوم، أو كأنه نقش على صفحة ذهنى نقشا. وإننى -من ناحيتى- أشعر بلذة كبرى فى أن أعيده عليك كلمة كلمة، ولكننى أخاف إملالك، وبحسبى أن أقول لك أنها ذكية المعية رقيقة الفؤاد. ظهر ذلك ظهوراً مبينا فى إشفاقها على «هر مكير» حين تلاشت آماله القومية فى حب الملكة الفاتنة، ثم موقفه الذليل حين استعاضت عنه «بمارك أنطوان». وقد وضح ذلك -من سياق الحديث- أنها مثقفة وعلى علم غير يسير بتاريخ مصر والنفسية المصرية.

هذا الموضوع لم ينته، بل انبتر حين وصلنا «ميدان المحطة» وخلت إذ ذاك أننا وصلنا إليه فجأة، وأنا على غير هدى. ذلك لأننى كنت فى أثناء حديثى معها، أفكر فيما أصنع حينما تغادرنى وكان لهذه الفكرة فى رأسى هرج لم يستقر حين باغتنى نزولها. وانطلق الترام بى مليا. ولكننى قفزت منه فجأة وعدوت مسرعا، فأبصرتها عن بعد تنتظر تراما آخر. فتريثت فالتقت أبصارنا فأطرقت إطراقة لطيفة، ثم استدارت كأنها تقول لى «حسبك هذا» فأدركنى لذلك خجل شديد، وأقصيت من فورى فكرة اقتفائها التى كنت اعتزمتها فجأة. وانصرفت متواريا فى الجماهير.

عند ذلك شرعت سحابة اكتئاب تتجمع فى خاطرى، ولكنها تبخرت تحت حرارة رغبتى فى أن أقنع بتوفيقى فى يومى وأن أسعد به. وكان فى نفسى -دون سبب منطقى- وثوق من أننى

سألقاها فى غدى. وكان يشملنى ويشمل الجو حولى فرح، كنت فى خطاى السريعة، كأننى دائب على أن أدرك مداه فيترامى أمامى إلى ما لا نهاية.

وذرعت مسافات هائلة غير مكترث -أو شاعر فى الحقيقة- بحرارة الشمس وقت الظهر. ومرت بذهنى أفكار شتى كلها بهيجة سارة، وكنت أتمنى لو صادفت أحداً من الأصدقاء فيشاطرنى تلك السعادة. كما أننى تنكبت الطريق مرة أو مرتين لأتحاشى لقاء أناس كنت أعلم أنهم لن يفهمونى.. ثم هدأت رويداً رويداً.

أدركنى من أمرى العجب وساءلت نفسى «ماذا جرى؟» وحاولت أن أكبح جماحها، وأن أعود إلى رزانتى وهدوئى. ولكننى آنست ارتياحا كليا إلى أن أترك المجال لمشاعرى تطرب وتمرح. ودار بخلدى «لماذا أستكثر على نفسى هذه السعادة التى أتاحتها لى المصادفة، والتى لو تبينها أحد ممن أمر بهم لحسدنى عليها؟!»

وفى اليوم التالى، لم تكن هناك حاجة إلى العباسية، ولكننى لم أستطع مقاومة رغبتى فى الذهاب. وكان قلبى -فى أثناء الطريق- يزداد خفقانا، وكنت أخاله يتمدد حتى يملأ صدرى. وكلما اقتربت، كانت أوصالى تتخاذل، وأطرافى تبرد.. وكنت أفكر فى كيف ألقاها، وفى أنسب المواضع التى أتحدث فيها إليها، وكنت أحسب أنى بذلك فى شغل شاغل عن كل شئ.

ولكن..

قبل أن أصل إلى المكان المعهود بمحطات عدة، لمحتها فى الترام المضاد. وفى الحق أننى لم أرها بعينى بل رأيتها بإحساسى.. شعرت بوجودها على مقربة منى، فاستدرت كما تستدير الابرة تجاه مغنطيس.. ثم قفزت من مكانى وعدوت خلف الترام الذى يقلها حتى أدركته. ولكنها كانت فى مقصورة «الحريم» فتراجعت إلى مكان الرجال، وقد دهمنى غم غير يسير.

وجاءت جلستى إلى جانب رجل من أصدقاء عمى ويعرفنى. ضابط قديم ثرثار. فراح يتكلم ويتكلم، كل الهراء الذى فى العالم، وأنا عما يقوله فى ذهول. غير أنه مضى يكثر من الأسئلة فأجيب عليها، ويورد الأمثال العامية ناقصة ليضطرنى إلى أن أتمها، حتى أوشكت أن أهيب به أسكته، وحتى وصلنا «ميدان المحطة» فنزلت رغم تشبثه بى. ولكن شد ما كانت دهشتى حين لم

أجد الفتاة.. لقد نزلت فى محطة سابقة ولاشك، فخيل إلى إذ ذاك أن أصعد، فأبصق فى وجه ذلك الثرثار العجوز. ولكننى لم أستطع حراكا، وصرت أجيل بصرى فى كل اتجاه.

حرت فى أمرى! أألبث مكانى فلعلها تجئ فى القطار الذى يلى، أو أسير فى اتجاه الطريق الذى جئت منه لعلى أصادفها؟ وبعد فترة وجدتنى أتقدم نحو قهوة «بلافستا» المقابلة لمحطة الترام، فأويت إليها كطير مهيض الجناح.

وظللت لاأفكر فى شئ، شأن من تباغته صدمة كبرى ثم إن ضبابا قاتما أخذ يزحف على قلبى، وتحرج صدرى ولاسيما بالنقمة على هذا الثرثار العجوز، حتى لقد ضربت الطاولة التى أمامى وغمغمت بلعنه ورحت قلقا حتى فى جلستى، وعاودنى سؤال الأمس «ما هذا؟! ماذا جرى؟!»

«أيكون مجرد إعجاب بتلك الفتاة. ورغبة منى جنونية فى أن ألهو بها، أو بمعنى أدق وأسمى فى أن أنعم بحلو حديثها مرة أخرى؟» وأحببت أن أقتنع بذلك ولكن نفسى لم تطمئن إليه. وتطور شعورى وقتئذ إلى طور غريب. وأخذت نفسى تغالب خاطراً يحاول أن يبين فلم تفلح، وهتف الخاطر فى فؤادى بأنى أحببتها! وأنها ضالتى وفقت إليها.

عند ذلك لم أطق الجلوس، فقمت أمشى حتى وصلت إلى البيت، وأنا نهب خواطر متناقضة تفرحنى جداً، وتحزننى جداً، وقد ضايقنى أنى لاأستطيع أن أتحدث إلى أمى بما أنا فيه، فأنت أدرى يا عزيزى بأننا نعيش فى بيوتنا أغرابا عن أهلنا، لاتربطنا بهم إلا الغريزة. أما الاتصال الفكرى -أى اتصال الحياة نفسها فمعدوم. ولم أشأ أيضا أن ألحق بكم فى المقهى كالمعتاد، بل آثرت أن آوى إلى غرفتى لأخلو إلى تأملاتى وما يجيش بصدرى. على أن الغرفة المألوفة تنكرت فى نظرى، وخيل إلى أنها أكثف جواً وأضيق حجما. وعلى كل حال بقيت فيها. وأكببت على مكتبى زمنا طويلا، استعدت فيه ما حدث على ذاكرتى فى هدوء، فلم يسعنى إلا أن أقول: «حقا إن احتجاب المرأة الحقة عنا يجعلنا فى حالة شاذة حين نفاجأ بها» وتبينت تفاهة الأمر، فقمت فخلعت ثيابى وأنا أشعر براحة من ألقى عن كاهله عبأ ثقيلا. وعمدت إلى القراءة، ولكن سرعان ما مللتها ولم يعلق بذهنى شئ مما قرأت، فعزوت ذلك إلى تعبى، وخرجت إلى أمى -وكانت جالسة فى الصالة شاخصة لايعلم الله فيما كان شخوصها- فتجاذبنا الحديث عن بيتنا وعن بيوت الجيران،

مواضيع تافهة ولكننى أخلدت إليها، وحاولت أن أندمج فيها قدر استطاعتى. وفعلا رفهت عنى إلى حد كبير.

فلما جاء الليل آويت إلى فراشى مبكراً، وأنا أشعر بأننى سأنام من فورى، ولكننى لم أنم، وعاودتنى ذكرى الفتاة، كأن لم يكن هدوء ولاترفيه، وجعلت أفكر فيما أصنع لو أننى قابلتها وفيما أصنع لو أننى لم أقابلها.. وطردت عنى التشاؤم، وصرت أتصور حبنا، فزواجنا، فالمثل الأعلى الذى سنكونه للأزواج، حتى غلبنى النوم فأكملت آمالى أحلاما.

وفى اليوم الثالث ذهبت، وذهبت فى اليوم الرابع، بل الخامس، والسادس.. فما وجدتها!!..

ليس فى مقدورى أن أصف لك ما انتابنى وقتئذ. الغصة، الحسرة، اللوعة، التحرق، الكرب العظيم. لقد أحال اليأس قلبى إلى وزن ثقيل أحس به ويئوذنى، وامتلأ رأسى بأفكار سوداء، وضغط على صدرى هم جعلنى أضيق بنفسى ذرعا، وأصبحت عصبياً إلى حد الحماقة، حتى أمى عجبت لأمرى، بل تبرمت بى فى تلك الأيام. فقد كان أى شئ تافه يزعجنى، وأتشاجر من أجله شجاراً لم يألفه أحد منى. حتى أنا فى أثناء احتدامى، كنت أرى ضلالى، وأن ما آتيه هو عين السخف، واحتلتنى رغبة شديدة فى أن أسير، فى أن أهيم على وجهى، وكنت كلما سرت فأبصرت عن بعد فتاة توحى إلى فتاتى، هرعت صوبها، ثم لا ألبث أن أعود بغمة الخيبة. ضروب من العذاب قاسيت من جرائها السهاد الممض والأحلام المزعجة. وفى الحق يا أخى أن كل ما عسانى أسوقه اليك من صدق أو من مبالغة ما هو إلا فاتر بالنسبة إلى تلك الحال النفسية اللعينة التى صليتها!!.

ثم انتهت إجازتى الصيفية، وعدت إلى الديوان، فانشغلت مما أنا فيه بالعمل الإجبارى، ومن ناحية أخرى، كانت نفسيتى قد تراجعت إلى النقيض حيال يأسى وحيال أعصابى المتعبة، فتولتنى رويداً رويداً طمأنينة المؤمن بالقضاء والقدر.

وتوالت الأيام حتى صرت لاأذكر الفتاة إلا فى الفترات المترامية، والمناسبات البعيدة. وكنت أضع لقائى بها فى حساب الحلم السعيد أنعم بأن أستعرضه على خاطرى. ولكن حدث فى يوم، أنى كنت أصعد سلم إحدى عمارات «العتبة الخضراء» مع أبى لمقابلة محاميه -وأبىَ يتكلم باهتمام فى قضية ساء فيها مركزنا فإذا الفتاة تهبط نفس السلم! تصور ذلك! وتصور موقفى وإحساسى حين تريثنا نفسح لها الطريق لكى تنزل.. لكى تفر منى مرة أخرى! وقدِ حيتنى بابتسامة وإطراقة خفيفتين- فما وصلنا مكتب المحامى حتى غادرت أبى فجاءة ودون اعتذار.

وفى طرفة عين، كنت فى الميدان أنظر بعينين محملقتين فى كل اتجاه كالمجنون، وأهرول حيثما اتفق، مجازفا بين المركبات المتتاعبة المتزاحمة، وخيل إلى أننى لو كنت أعرف اسمها لجأرت به. فلما يئست من العثور عليها، كرت على بعزم أقوى تلك الحال النفسية السابقة، كما تكر الحمى على مريض ينتكس. وكنت نسيت والدى، ثم تذكرته، فصعدت إليه كصاعد سلم الإعدام.

وأضرنى كبت مشاعرى فى الفترة التى قضيتها عند المحامى ولو أننى فى الواقع كنت شارد الفكر عن موضوع المناقشة. لذلك شعرت بعد أن فرغنا، وحين خلوت إلى نفسى، أن بى دواراً شديدا، وطفقت أمشى، فسرت فى كل مكان ولامكان، وفكرت فى كل شئ ولا شئ..

فكرت فى أمرى وما وصل إليه من عجب. وكيف أنى فى السابعة والعشرين من عمرى، أنا الهادئ الوادع، دقيق نظام الحياة –على نحو ما تعرف– والذى كنت أخلد إلى مكتبى وكتبى بلاملل، كيف اختل هذا الخلل، وأضحى ألعوبة لغرام ساخر، يلهو بى، ويبث حولى شراكاً لست أدرى مداها شراك ليست من أفاعيل منافس أو واش، بل من خيوط عاداتنا الرثة، وتقاليدنا العتيقة البالية.

أجل يا عزيزى، لقد وضح لى وقتئذ أنى فريسة نمط حياتنا فلو أننا كنا ممتعين بالمرأة لما أخذ وجدانى على غرة هكذا، ولولا سوء الظن المستحكم بين شطرى الطبيعة عندنا لتعرفت إليها صراحة أو لما خبت فى إدراكها مرتين وهى فى متناول يدى.

وصرت أذهب عصر كل يوم فأجلس فى بار حقير تجاه العمارة التى رأيتها فيها، لعل لها حاجة عند طبيب، أو محام، أو مصور من ساكنيها، فتعود إليه، وفى كل مرة أنتظر الساعة تلو الساعة، بباب ذلك المكان الزرى.. وما من فائدة!!

ومع أن أعصابى هدأت على مضى الزمن، فإن وحيا كان يوحى إلى أننى سوف ألقاها.. ولقد لقيتها آخر الأمر.

نعم لقيتها، وفى منزلها.. قدمنى إليها عصمت ولاأدرى بأى كلمات فعل ذلك، لأن ذهولا مطلقا كان قد استحوز على، ولكنه لما قدمها إلى بقوله «نعمات» أحسست بكل جارحة منى قد ارتدت أذنا مرهفة، التقطت ذلك الاسم. وفى تلك اللحظة تبينتها بوضوح كلى. فإذا هى فى ثوب أبيض، له أطراف ممدودة شفافة. وكانت مطرقة برأسها ويداها مشتبكتان فى حجرها، وحولها

أهلها وأهلى، والكل بادى الفرحة، والكل صاخب لاغب، وأرجاء البيت تتجاوب الزغاريد، فحسبت أنى فى حلم يقظ كأحلام المصابين بالصرع حيث يتراءى الوهم كالأمر الواقع، ثم عدت فخيل إلى أن ما أرى وأسمع، ليس إلا فكاهة هائلة السخف، وأوشكت أن أصرخ صرخة ترد إلى هؤلاء المجانين عقولهم. ولكن سرعان ما عادت الحقيقة إلى رأسى!! فذلك كان حفل قرانها!! قرانها من «عصمت» بن عمى!.. وقد انتهى الحفل.. وقد قدمها إلى على نحو ما تجرى به العادة، وتقضى المجاملة بين أفراد الأسرة الواحدة، وهذه هى جالسة فيما بينى وبينه، إلى جانبى تلك التى عملت على لقائها ما عملت. ولكنها على بعد السماء منى.. انقطع كل أمل فيها، وانهد كل رجاء. وزاد ضيقى أننى سمعت بعض من حولى يستحثنى على الزواج فى نصح، والبعض يتخذ موضوع فكاهة من سبق ابن عمى لى فى الزواج. عند ذلك تحرج صدرى، واضطربت مشاعرى، فلم أدر أأضج بالضحك أم أجهش بالبكاء، أم أقوم فأبين لهم الحقيقة، إما متوسلا متذللا، وإما صارخا متمرداً، وشعرت بدمى يغلى فى عروقى، ويافوخى يكاد ينفجر. وصار جو الغرفة كثيفا جداً علىّ، وضوضاؤهم يزعجنى وتأخذ بمخنقى..

ولكننى تمالكت نفسى خيفة أن أظهر بمظهر صبيانى أو غير لائق.. وعزمت من فورى أن أتحدى القدر الذى تحدانى، فقهقهت لنكته قالها أحدهم وضحك لها الجميع. وكنت إلى تلك اللحظة أتحاشى النظر إلى العروسين. ولكننى تشجعت فاستدرت إليهما. ولاغرو فهما بعد غريبان أحدهما عن الآخر إذ لم يسمح لهما بلقاء إلا عند مفتتح الحفلة. وقد رأيت بيقين أنها ازدادت احمراراً وإغضاء حين وقع بصرى عليها. ولم يكن من شك عندى فى أنها تدرك حالى إدراكا تاما. وأن وجودى يحرجها. فنهضت وقلت «أخلص تهانئى.. ليجعله الله زواجاً سعيداً» وشعرت وقتئذ أننى جبار العزم شديد الانتقام.

على أننى ما وصلت الشارع حتى خنقتنى العبرة وأغرورقت عيناى بالدموع. و...

أواه!! من العبث يا عزيزى أن أقول لك شيئا بعد ذلك.. على كل حال تلك قصة حبى، أو قصة لهو الحب بى، أطلت عليك فى سردها. ولم يبق إلا أن أستشيرك فى السؤال الذى يئودنى ويبرح بى «ماذا يكون مركزى.. أعنى ماذا يكون سلوكى حيال عصمت وحيالها حين أعود!..»

أسعفنى بكلمة منك.

المخلص

....

تحت عجلة الحياة

-١-

حامد افندى! حامد افندى!

سمعت هذا النداء المتكرر وأنا أسير فى ضحوة أحد أيام الجمعة، أمام حديقة الأزبكية، فى طريقى إلى ميدان الأوبرا، لغير ما غرض بالذات سوى التمتع بدفء الشمس الساطعة، والانضمام إلى من عسانى ألقاهم من الرفاق الذين اتخذوا لأوقات فراغهم أمكنة مختارة فى شارع فؤاد الأول أو شارع عماد الدين، وعرفت صوت صديقى «لطفى» فعرجت إليه مسرعا، وكان جالسا أمام إحدى تلك المقاهى المتراصة جنبا إلى جنب تحت «البواكى» تجاه الحديقة.

- لطفى! يخيل إلى أن قد مضت دهور لم أرك فيها..

- يظن من يراك تسير أنك على موعد مع «الاكسبريس» أو أنك «الاكسبريس» نفسه!

- هذه خطيئة فى طالما عملت على تلافيها فلم أفلح.

ثم قلت وقد جلسنا:

- أية مصادفة سعيدة!

- ومع ذلك فقد مررت بهذه المصادفة السعيدة دون أن تعيرها اهتماما.

- بل دون أن أفطن إليها. وهذا ما يدعو الكثيرين إلى اتهامى بعدم الرغبة فى لقائهم، فى الوقت الذى أكون فيه أسعى إليهم..

والمصادفة فعلا هى الوسيلة الوحيدة للعثور على هذا الصديق القديم. ورحنا نتسامر، وإنه لسمير فذ فى تعدد نواحيه، فهو جعبة نكات وفكاهات، وهو راوية وأشعار وأخبار عن الأقدمين والمعاصرين، وناقد لهؤلاء وهؤلاء عن ثقافة واسعة. ويقلد الممثلين والمغنين فى حذق يدعو إلى العجب.. تساعده على ذلك كله ذاكرة قوية، ووجه معبر، وملاحظة دقيقة، وصوت فيه حلاوة، وقوام فيه طول.

وسرعان ما تجلت هذه الشخصية الموهوبة فى أحسن ما تكون. وراح الوقت يمر بنا حثيثا شهيا.

وإنه لكذلك، إذ به قد صمت بغتة، وزر عينيه شأن من ينظر بإمعان إلى مرمى بعيد، وعرته مسحة من الاكتئاب. فقلت:

– ما الخبر؟

فهز لطفى رأسه ولبث صامتا حتى عيل صبرى، فأردفت أقول فى حدة المغيظ:

– ما هذه الحركات التمثيلية؟

فجذب كرسيا إلى جانبه ومال عليه يطلب أكبر قسط من الراحة. ثم قال وقد أغمض عينيه نصف إغماضة:

– ما رأيك فى هذه الحياة التى يحركنا فيها القدر كعرائس «الأراجوز»؟

– أتظن ذلك؟

– كيف؟ هلا تعتقد فى القضاء والقدر؟

– وهل تعتقد فيه أنت إلى هذا الحد؟

– وأنت؟ هل ترى أننا فى تكييف حياتنا مخيرون لاسلطان للقدر علينا؟

– لا أعنى هذا تماما، دعنى أفكر فيما أريد أن أقول:

– أتحفنا بما عندك من فلسفة وإلحاد!!.

– لا فلسفة ولا إلحاد.. أنا لا أنكر فكرة القضاء والقدر، ولكنى قد أختلف معك ومع غيرك فى مدى تطبيقها.. أى إلى أى حد نحن مسيرون، وإلى أى حد نحن مخيرون..

– قال وكيف كان ذلك؟

– قال زعموا أن الإنسان.. وليس فقط الإنسان، بل الحيوان والنبات كذلك، الكل مسخر لقوانين واحدة، أو متشابهة، كالوراثة، والبيئة، والصحة والمرض، والتطور فى مدارج النمو، ثم الاضمحلال.. ومالى إلى ذلك.. لاسبيل إلى الخروج على تلك النواميس..

- آمنا..

- الحمد لله.. أما فيما يتعلق بشؤون الإنسان الخاصة، فإما أن يكون للعقل قيمته أو لا يكون، وإما أن يكون للأسباب والنتائج معقوليتها أو لايكون.. ومع ذلك فهذه مشكلة دأبت القرون على بحثها دون أن تخرج منها برأى حاسم.. فما لنا نصدع رؤوسنا فيها..

- وإذن فأنت ترى الدنيا أسبابا ونتائج، ثم لا أكثر؟

- هذا الموضوع يلتوى فيه الجدل ويطول.. خلّنا فيما كنا فيه.

- خذ مثلا، رجل..

- خلِّ عنك.. أعرف ما نذهب إليه، وأستطيع أن آخذ أمثالا لاتحصى من رجال ونساء وأطفال.. وأجنة.

فصمت لطفى قليلا ثم قال:

- إذن أقص عليك قصته ثم نتناقش.

- قلها، ولن نتناقش.

- دخلت المدرسة الخديوية سنة ١٩١٤، فكان بين تلاميذ «فصلنا» تلميذ، كان يُعد وقتئذ من أصغر التلاميذ سنا.. لايتجاوز الثالثة عشر من عمره. وسرعان ما تجلت فيه صفات ميزته عنا جميعا، كان شعلة ذكاء. وكان أعجوبة إلى الأعلى، بقدر ما كنا أعاجيب..

- إلى الأسفل..

- برافو.. فأعجب به المدرسون، وصاروا يولونه عناية خاصة. كانوا يهدونه الكتب والمجلات، أو يقترحون عليه أسماءها، ويناقشونه فيها كلما سنحت الفرصة.

- في الوقت الذى كنت تأكل فيه «العيش الحاف» لعدم قراءة الكتب المدرسية..

- تلك حقيقة كنت على وشك أن أعترف بها. على أن هذه الحقيقة لم تدم طويلا. فلقد جرت بينى وبينه الصداقة، وتوطدت تلك الصداقة على ممر الأيام، فجعل يحبب إلىّ الاجتهاد، فاجتهدت، ولم ألبث أن شاركته فى مطالعاته الخاصة، وصرنا نتزاور فى دورنا، ونخرج إلى النزهة

أو نذهب إلى السينما سويا.. وكان من ذلك أن تعارفت والدتانا عن طريقنا.. وأحبه والدى، أما هو فكان يتيما مات والده من سنين، وترك له ما يكفل له العيش الوسط، كما خلف له مكتبة عامرة بالأدب القديم وعلوم الدين التصوف.. فقد كان والده من علماء الأزهر. ثم نجحنا فى امتحان «البكالوريا» فكان من الأوائل طبعا.

وأطرق لطفى برهة ثم استدرك فقال:

- آه.. فاتنى أن أذكر موقفا له لاأنساه ما حييت.. حدث ونحن فى السنة الرابعة، أن أقيمت حفلة تمثيلية اعتادت المدرسة أن تقيمها كل عام. فقام كامل يلقى «رثاء مارك أنطوانى لقيصر» بالإنجليزية. فأداها أحسن الأداء، فلما انتهى دوى له المكان بالتصفيق. وأصر بعض الطلبة على استعادة القطعة، وهو واقف على المسرح يبتسم ابتسامة الفوز والخجل معا، فلما ساد الصمت، إذ به يقول:

يا صَحْبُ، يارومان، يا أهل الوطن،
هيـــا، أعـيروا منكـــم الآذانـــا.

واسترسل فكانت مفاجأة جن لها جنون السامعين من أساتذة وطلبة ومدعوين. وقرب الختام، خرج الناظر ثم عاد يقدم له نسخة فخمة من روايات شكسبير بين الهتاف والتصفيق الذى تخاله لن ينقطع.

فقلت وقد استعدت فى ذهنى مطلع القصيدة بالانجليزية:

-إنها لترجمة حرفية بديعة.

-فعلا.

-ولمن كانت الترجمة ؟..

-له..

- له ؟!

-نعم، وكلها على هذا النحو من الإجادة.

-مدهش.

-إذن.. هيا، أعيروا منكم الآذانا..

-٢-

وأشعل صديقى سيجارة ومضي يدخن مليا وهو صامت ساهم، ليستجمع أفكاره، ثم أكب علي الطاولة التى بيننا وقال:

-فى سنة ١٩ اندلعت الثورة الوطنيـة، بقوة، وروعـة.. ولهـيب.. وحَمم! وهبَّ الإنجليـز مشدوهين للسيطرة علي الموقف المباغت، وجعلوا يحاولون إخماد نيران القلوب المتفجرة بنيران الرصاص الداوي. فتساقطت الشهداء في كل مكان.. ولكن زفرات المحتضرين أثارت العاصفة العصَّافة العاتية التى اجتاحت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، حتى اضطر الإنجليز إلى التريث فترات من الزمن!

– لقد كانت سنوات مجيدة

– لم نكن نتوقعها حتى نحن أنفسنا..

– فى اعتقادى، أن مما يجعل لحياتنا قيمة خاصة، أننا حضرنا ذلك الجهاد من بدايته.. وساهمنا فيه.

– وكان صديقى الذى أحدثك عنه، ولكن، مهلا، ألم تكن عضوا فى اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة؟

– بل كنت من أكبر العاملين فيها ولا فخر.

– ألا تذكر كامل الزينى!!

– تقصد كامل ابراهيم الزينى؟

– هو بالذات!

ذلك الفتى النحيل الممتقع اللون، ذو الأعين الواسعة؟

– أراك تذكره جيدا

– كيف لا أذكر «الشهاب الراصد»!! لقد كانت منشوراته التى كان يصدرها بهذا العنوان، آيات بينات من الوطنية، كانت نارا تنصب من قلمه فى قلوب الناس. فيجعل منها أتونا مشتعلا..

ولا أنس يوم قام خطيبا فى جموع الموظفين التى ضافت بها ساحة جامع ابن طولون على سعتها.

– كنت على وشك أن أذكر لك ذلك.

– لقد كانت كلمته النارية من أهم العوامل التى جاءت بمعجزة إضراب الموظفين.

– لقد سهلت على قصتى بعرفانك إياه..

– والدور الذى لعبه فى مقاطعة لجنة ملنر؟!

– أنظر كيف كان يتنكر هو وجماعته فى زى ماسحى الأحذية، وبائعى أوراق اليانصيب أو حراس السيارات، ليراقبوا «دعاة الهزيمة والتردد» الذين كانوا يتصلون بهذه اللجنة خفية.

ولم يكن عندى ما أقول فى هذا الصدد. فقد اتهم والدى وقتئذ بالتحريض والشغب، وهموا بفصله من وظيفته، ثم اكتفوا بإقصائه الى أسيوط، حيث لبثنا زهاء خمسة أعوام.

قال لطفى:

– لم يكن أحد ممن يتصلون باللجنة ينصرف من عندها، حتي يلحق به بعض مندوبى الطلبة، ليقف منه موقف التحقيق. وحدث أن جاءنى كامل يوما فى سيارة واستصحبنى فى هذا الشأن. فدخلنا منزلا فخما.. بل قصرا يصح أن تقول فيه «إذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا» وأبلغ الباشا أن مندوبى اللجنة التنفيذية للطلبة يريدون لقاءه.. فأدخلنا حجرة استقبال لم تقع عينى علي مثل عظمتها وأبهتها إلي وقتنا هذا. حتي لقد استشعرت الرهبة وقتئذ، وجعلت أجيل نظر المبهوت فى أرائكها وأستارها وما فى أركانها من تحف، وما على جدرانها من صور.. وأصعد بصري إلي ما زين به سقفها من ثريات ونقوش، ثم أرده إلي مافرشت به أرضها من بسط ووسائد.. وكان جو الغرفة معتما شيئا ما، مما ضاعف وقعها فى نفسى. أما كامل فلم يأبه لشئ من هذا، واتخذ مكانه كأنما هو فى بيته.. أو.. فى محيط اعتاده وألفه. وماعتم أن دخل الباشا علينا. وكان رجلا بدنا قارب الستين. أبيض الشعر، محمر الوجه، يتناسب فى ضخامته وهيئته مع ما يحيط به، كأنه قطعة متممة لذلك الرياش الفاخر.. فأهل بنا ونمت نظراته علي ما يساوره من ضيق، وما يتوقعه من حساب دقيق.. فابتدره كامل بقوله:

«لقد اتصلت اليوم باللجنة.. أليس كذلك ؟»

فارتج علي الباشا، وازداد وجهه احمرارا.. ولكن كاملا عاجله بقوله:

«وكنت في سيارتك الخاصة رقم.... ولبثت من الساعة.... إلي الساعة.... وكان لي شرف أن أفتح لك باب السيارة وأن أكون في انتظارك حتى انصرفت..»

فلم يسع الرجل الفخم الا أن قال في ضآلة:

«نعم يا ولدي».

«وهل توجهت من تلقاء نفسك أم اللجنة هي التي دعتك ؟»

«بل اللجنة دعتني»

«وما هو الحديث الذي دار بينك وبين أعضاء اللجنة ؟»

«سألوني عن السبب في قيام الثورة، قلت إن البلد تريد الاستقلال !»

«البلد ؟وأنت ؟ ماذا تريد ؟»

«وأنا أيضا. طبعا. أريد الاستقلال»

هذا حسن، ولماذا تريد الاستقلال ؟

«لأنني مصري..»

«ومن وكيلك في هذا الطلب ؟»

«الوفد المصري الذي يرأسه سعد باشا زغلول»

وكان كامل يلقي أسئلته بحزم وتؤدة.. يحدج الرجل الذي أمامه بنظره تارة، وتارة يخاطبه دون أن يلتفت إليه.. والرجل يجيب في حذر وتهيب. أما أنا، فكان علي أن أدون الحوار برمته. فلما انتهى قدمت «المحضر» إلي الباشا فمهره بإمضائه. ولم تصدر صحف المساء، إلا والحديث فيها.

وبذلك يذاع الحديث في أنحاء البلاد، ويكون درسا عمليا يفهمه القاصي والداني في شأن أسباب الثورة ومطالب البلاد، وبهذه الطريقة قطع السبيل علي ضعاف النفوس. وحبط بالتالي عمل اللجنة وأسقط في يدها..

وطرأ لى وقتئذ أن أسأل:

- وأين كامل الزينى.. لقد انقطعت أخباره- عني علي الأقل- منذ ذلك الحين..

فقال صديقى بعد فترة صمت:

- ما كنت أحب أن يكون جوابى بمثل هذا القدر من الفن المسرحى.. ومع ذلك.. فها هو الواقف بالقرب من السيارة.. عند باب الحديقة..

والعقل يكوّن فى غير ما وقت، فكرة تحتاج فى سردها إلي الشرح الطويل. فإن مجرد ذكر السيارة والحديقة، أوحي إلي ذهني صورة رجل فى الثلاثين من عمره، أقبلت عليه الدنيا بما قدم من جهاد وبذل من تضحية. تخيلت رجلا أنيقا إلي جانب سيارة قد تكون بداخلها زوجة جميلة وطفل عزيز. وهم جميعا علي وشك الدخول إلي الحديقة طلب التنزه، والاستمتاع بذلك الجو البديع.. وقد يكون الرجل وحده، قد لمح فى سيره صديقا قديما، أو صديقين قديمين فأراد تحيتهما والجلوس اليهما.

فملت فى جلستي حتي رأيت السيارة، سيارة فخمة، ولكنها كانت خالية اللهم من السائق في معطفه الأزرق ذي الأزرار النحاسية اللامعة، وقد اضطجع إلي الخلف، وغلبه النعاس- أغلب الظن- من طول ما انتظر..

فقلت أسأل صديقى وما زلت شاخص البصر:

- أين هو ؟ أري السيارة خالية، ولا أحد إلي جوارها.. فقال لطفي، وقد خفض صوته، كأنما يحذَر أن يصل صوته إلي أبعد من أذني:

- لا لا. إنما قصدت ذلك المستند إلي عامود المصباح عند مقدم السيارة.

فحولت بصرى إلي حيث وصف، وما كدت أفعل حتي ارتد إلي بصري، وأنا لا أصدق ما رأيت، ولا ما قاله صديقي.. وقلت فى دهشة وذعر:

- أجاد أنت.. أم هذا مزاح ثقيل ؟

فراح لطفي يهز رأسه ثم قال بالصوت الخفيض:

- هى الحقيقة.

- بل هي إذن مفاجأة مُرة مروعة..

ولبث لطفي صامتا حينا، ولم أستطع إلا أن أقول والدهشة تغمرني:

- أهذا الشخص الأشيب المهدم. هو كامل ؟

فأومأ لطفي بالإيجاب..

- بالله !! مازلت في ريب مما تقول..

فمط شفتيه وهز كتفيه هزا خفيفا ولم ينبس..

قلت، ومازلت في دهشي:

- يخيل إلي أنه مستند إلي العامود من فرط الإعياء..

فبقي صديقي علي صمته فتره أخري ثم قال:

- الذهول لا يا عزيزي..

- الذهول ؟ ماذا تعني ؟!

- لا تنظر إليه طويلا.. وتعال أحدثك..

ثم تمتم يقول كأنما يحدث نفسه:

- أسباب ونتائج !!..

وابتسم ابتسامة فاترة.. وأشعل سيجارة..

-٣-

استطرد لطفي يقول بعد فترة بدا فيها كأنه يستجمع فكره:

- إلي هنا كان مسلك كامل لا غبار عليه.

فاستضألت هذا التعبير في وصف الفتي المقدام فقلت:

- بل كانت جرأته تدعو إلي الإعجاب والإجلال..

– هو ذلك.. ولكن..

وامتد بصري وقتئذ – علي غير عمد مني– إلي ذلك الذى نتحدث عن بطولته، وكان في مكانه، لم يرم ولم يتحرك، تمثال صادق للتحطم البشري. فتقّيد إليه بصرى وانتباهي حتي غفلت عن الحديث، ورأي مني لطفي ذلك مني، فلمس كتفي وقال:

– لا تطل إليه النظر هكذا!

– أكاد لا أصدق عيني.. ومع ذلك، استمر. استمر..

– أقول إنه كانت تحدث فترات يعود فيها الطلبة كلّ إلي مدرسته، ولكن كاملا ورفاقا معه لم يكونوا يعودون.. كانت الثورة قد امتزجت بدمائهم، وتغلغلت في نفوسهم، وسيطرت علي عقولهم وعلي كل جارحة فيهم، فصاروا يعيشون بالثورة وللثورة، ولا شئ غير الثورة.. كانوا حركة لا تعرف الهوادة، نلقاهم في كل آن، وفي كل مكان، بين «بيت الأمة» وبيوت الزعماء، وفي الوزارات والدواوين، والأزهر والمساجد، وفي المدارس بين القاهرة والجيزة، وعند العمال فى المصانع والمتاجر، وبين عامة الشعب، حتي الحواري والأزقة.. يبثون الدعوة، ويذكون الحماس، ويعلنون الإضراب وينظمون المظاهرات؛ تلك المظاهرات التي كانت تضم الخمسة آلاف، والستة آلاف، وأكثر من ذلك بعض الأحيان من مختلف طبقات الأمة، كأنهم جيش من الفدائيين لا يعبأون بالمصير أيا كان..

– والله يا أخي لقد كانت أيام المعجزات..

– وهل هناك معجزة وطنية أعظم من تلك التي حدثت عند الأزهر يوم حاصره الإنجليز ووضعوا عند بابه مدفعا رشاشا. هجم الأزهريون عليه فحصد منهم العدد الكثير، وتمكن أحدهم– آخر الأمر– من أن يلقي بنفسه عليه وأن يحتضنه بين ذراعيه!

وتوقف لطفي عن القول فترة، ثم عاد فقال:

– أم هناك معجزة سياسية أبلغ من أن تسقط وزارة ولم يمض علي تأليفها أربع وعشرون ساعة ؟

وأهاج حديث لطفي وحماسته في أدائه، ذكريات جهادنا في الصعيد، فأخذت أقص كيف كنا مع الفلاحين ننبث بين ظهرانيهم في قراهم، وننزل عليهم فى أكواخهم، ونوقظ هممهم، ونستثير

حميتهم، ونجمع كلمتهم، ونوحد صفوفهم، حتي اتخذنا منهم جيوشا جرارة لا تحجم عن اقتحام دور الحكومة، ولا ترهب أن تهاجم رجال الشرطة، لا فى الشوارع فقط، بل في مخافرهم، وتستولي علي سلاحهم بعض الأحيان. فإذا ما جاءتنا الأخبار من عيوننا وأرصادنا بالقاهرة والأقاليم بأن السلطة العسكرية سيرت إلينا حملة من جنودها علي إحدى القطارات المسلحة، تقطعت خطوط السكة الحديدية تقطيعا أو نسفت نسفا.

– كانت أنباء تقطيع السكك الحديدية تنتشر بسرعة البرق في أنحاء البلاد فترجها رجا، وتوقع القائمين بالأمر في أشد ما تكون الحيرة..

– لو لم تكن هذه حقائق كابدناها بأنفسنا، لكانت أقرب إلي المبالغة وأشبه ببنات الأفكار..

وشعرنا معا في تلك اللحظة بحركة غريبة عند أقدامنا، انتظرنا فاذا بطفلين لا يعدوان الثامنة من عمرهما مكبان علي الأرض كأنهما كلبان، لولا أن فراء الكلب يستره أجمعه، وجلباب هذين الطفلين مهلهل حتي ليبدوا منه أسوأ مافي الجسد، وأولاه بالستر والتغطية، وكانا يتزاحمان علي لم أعقاب السجائر، واتخذ لطفي منهما حديثا ومرثية، ولكنني بترت الموضوع في أول فرصة سمحت بذلك، وقلت:

– بودي لو حدثتني عن صديقنا المسكين..

– آه.. كان من أمره يا سيدي، أنه – كما قلت لك– – ضرب عن الدراسة اضرابا لا رجعة فيه.. بل لم يكن إغفاله مستقبلة بأقل من إغفاله والدته..

– الي هذا الحد؟..

– كان إصدار المنشورات عمل جبار في نفسه.. فقد اتخذوا له مطبعة سرية في خربة بحارة ضيقة لا يعرف مكانها إلا العليم الخبير.. كان كمال ورفاقه يأوون إليها.. يكتبون ما توحي به إليهم ضمائرهم المتأججة، بأقلام من نار.. فإذا ما انتهوا من تحريرها وتنقيحها، قاموا إلي الحروف يجمعونها ثم إلي البروفات يصححونها.. ثم إلي الآلة يديرونها بأيديهم– حتي تتم لديهم آلاف النسخ.. وكثيراً ما يدركهم الفجر وهم جاهدون..

– يا لهم من أبطال..

– أنت تقول ذلك.. والآلاف ممن كانت تصل إليهم المنشورات كانوا يهتفون بذلك أيضا.. ولكن أهل أولئك الأبطال وذويهم، لا سيما الوالدان، والوالدات بصفة أخص.. هل تحسب أن هذا

النوع من الحياة، وهذا الضرب من البطولة، كان يمحو من قلوبهم، ومن قلوبهن- القلق علي مستقبل أبنائهم، والانزعاج لماهم معرضون له من القبض عليهم.واضطهادهم وزجهم في السجون؟

ومر بخاطري موقف أمي مني في ذلك العهد، فلم أستطع إلا أن تضاحكت وقلت :

- لو اتخذت والدتى مقياسا في هذا الشأن، لعذرت من الوالدات من يدفعها الجزع حتي إلي الجنون.

- هذا هو الواقع، فإنه مهما كانت قوة الثورة التي قمنا بها، فهي في جوهرها ثورة سياسية.. أو فكرية.. شئ من هذا القبيل.. وهى بطبيعتها تنتج انقلابا في الأوضاع.. ولكن !. إذا كانت الأفكار تستطيع أن تتغير إلي الأحسن أو إلي الأسوأ بسرعة تدعو إلي الدهشة أحيانا، فإن النفس تحتاج فى تطورها الي الوقت، والوقت الطويل.

- وبعد ؟

- أهذا كل ما تقول ؟ كأنى بك لا تريد أن تشترك فى الحديث ؟.

- الحق الحق أقول لك: إني لا أريد أن أصدع رأسي بيدي

- إذن هات رأسك أصدعها لك..

- هاكها، وليكن ما تريد.

- أصر علي أن أقول لك.. إن الجزع هو بعض الميراث الشرعي للذل الذى ترزح تحت نيره الشعوب المغلوبة علي أمرها. ففي تلك الشعوب، يجزع المرء علي حياته، لأنه يشعر بأنها مسخرة إما أدبيا أو جسمانيا للغاصب.. ويجزع علي حاله، إذ يري الجو عامة في صالح الأجانب، فالأعمال الكبري لهم، والامتيازات تحميهم، والاحتكار كفيل لهم بالأرباح الفاحشة، مما لا يجعل لأهل البلد نصيبا غير الفشل عادة.. لذلك تري أصحاب الأموال فينا، كانوا، وما يزال معظمهم يقنعون باستثمارها، فى أضيق الدوائر- مثل تجارة بسيطة أو شراء عقار.. وما إلي ذلك.. ويجزع المرء كذلك علي عياله.. فهو يسيرهم في أسلم طريق للحياة، وهو خدمة الحكومة.. فاذا ما طلب أحدهم للجندية، افتداه بالمال، ولو باع كل ما ملكت يداه.. فإذا لم يستطع تبدي منه الجزع في أهول ما يكون.. ذلك بأنه يعلم علم اليقين أن ابنه سوف يُسام السوء، لا في خدمة وطنه، بل في

خدمة المسيطر علي هذا الوطن.. وسوف يضحي به إذا احتاج الأمر، لا فداء للوطن، بل في تحقيق أطماع الغالب المحتل، أليس كذلك ؟

- هو ذلك، إذا تجاوزنا عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية.

- طبعا هناك نواح أخري. ولكني أنظر من هذه الزاوية ومنها تري أنه إذا ما جزع أهلونا علينا، وإذا ما لطم اللاطمون خدودهم، وشقوا جيوبهم عندما يسير ولدهم إلي الجندية، كان الأجنبي هو المسئول الملوم، وكان الأجدر به أن ينكّس رأسه حيال مثل تلك المشاهد حياء وخجلا مما قدمت يداه.. لا أن يتخذ وهذا، مجالا للتجريح والسخرية.

- نعم. الحق ما تقول..

- الآن أستطيع أن أقول لك في صراحة، إن غالبية الآباء كانوا في جزع شديد علي أبنائهم وهم يخوضون غمار الثورة. ناهيك بالأمهات !!

فتضاحكت وقلت:

- لو سمعتك والدتي تبرر جزعها عليّ بهذه الكيفية، لقبلتك بين عينيك..

- وكان لوالدة كامل عذر خاص. أو أعذار خاصة تضاعف من جزعها. فهو- أولا- ابنها الأكبر، بل لم يكن لها سواه غير ابنة أصغر منه بكثير، وقد أوقفت حياتها علي تربيته منذ مات والده. فكامل- إذن- كان جماع أملها من الدنيا.. وثانيا، إغفاله أمر مستقبله إغفالا تاما علي نحو ما ذكرت لك.. أضف إلي ذلك، إن هذه السيدة الوادعة، أصبح منزلها هدف رجال البوليس، يقتحمونه ويفتشونه من آن لآخر..

- كان الله في عون المرأة المسكينة.

- كانت في عذاب أليم.. وكنت أحمل إلي كامل توسلاتها وضراعتها وتشهّيها لو أنه كبح من جماحه، ونظر إلي مستقبله بعين الروية، فكان يعد ويراوغ.. وألح عليه، حتي ضاق بي يوما فصاح لقد نلت من التعليم ما يؤهلني لأن أخدم الوطن المظلوم، ولا أريد مزيدا، يؤهلني لأن أكون موظفا في حكومة تسيرها يد الظلم !

- هذه الجملة وحدها تبرهن علي أنه كان خطيبا شعبيا مدهشا.

- نعم. كان خطيبا مدهشا..

وصمت لطفي هنيهة، ثم قال:

- وليته وقف عند الحد.. فإنه تمادي فانضم إلي جمعية سرية.. وأصبح المسدس لا يفارق جيبه..

فحملقت في دهشة.. وساد الصمت.. والتقت نظراتنا عند بطلنا، أو عند شبحه إلي جانب المصباح لم يرم ولم يتحرك.

-٤-

- وبعد ؟

قُلتها في لهفة وقد نال مني التأثر. فلم يُجب لطفي علي الفور، وظل صامتا حينا، وإن كان قد حول بصره عن الصديق البائس. ثم مط شفتيه وهز كتفيه شأن من يسلم بالأمر الواقع، ويري أن لا حول ولا قوة حيال ما كان. واستعجلته أقول:

- أي جمعية كانت ؟

قال:

- لم يكن لجمعيتهم اسم.. كانوا «عَملّيين» علي حد تعبير كامل وقتذاك، فقد رأوا أن الاستقلال لا ينال، أو أن أمة من الأمم لم تنله إلا.. بتحقيق قول المتنبي.

فأدركت ما يرمي إليه، ورددت لذلك الشاعر قوله «حتي يراق علي جوانبه الدم».

فقال لطفي وقد رأي أني أصبت ما أراد:

- هو ذلك بعينه.

- أما الكلام، وأما الهتاف..

- فهو أضعف الإيمان علي رأي الفقهاء..

وكأنما ظن أني أريد متابعة الحديث في هذا الصدد، فقارب مابين معالم وجهه، وبسط في وجهي كفيه، دليلا علي أن لا رغبة له في إثارة هذا الموضوع، ثم استطرد فقال:

– ومهما يكن من شئ، فقد ظهر أثر هذه الجماعة في المظاهرات، وفي مواطن أخري. حتي ارتاعت السلطة لهذه الظاهرة الجديدة، وصار الناس عرضه.. للتفتيش في الدور وفي الشوارع.. وبالجملة، بات الجو قاتما كثيفا..

– ولكن..

– أعرف ما أنت بسبيله، ولكني أود أن أجتاز هذه المرحلة، أسرع ما أستطيع.. فأنا لا أطيق سيرة القتل والدماء. ولك أن تظن بي ماشئت.

وأردت أن أعينه علي ما يريد فقلت:

– حسن. حسن. وماذا كانت النتيجة ؟

فاستضحك ثم قال:

–لالا، ليس بهذه السرعة

– إذن، هات ما عندك..

وراح لطفي عندئذ يمر بيده علي جبينه، وبان عليه أنه يعصر ذهنه ليتذكر أمرا غاب عنه، ثم هز كتفيه وقال:

– حدث ذات يوم، ولمناسبة غابت عني الآن، أن قامت مظاهرة من أضخم وأعنف مايكون. قتل فيها جندي بريطاني، فهب الجنود يحملون علي الجموع الحاشدة، ويشتتونها بالقوة، ومضوا يطاردون فلولها في كل اتجاه.. ويفتشون من يدركون، ويلقون القبض علي من يداخلهم الريب في أمره، وكان كامل قد وصل في فراره إلي شارع محمد علي، وهناك لجأ مع جماعة إلي فناء بيت وأوصدوا خلفهم بابه.. وصعد كامل درجات من السلم، وأمسك مسدسه خلف ظهره، لكي يسيطر علي الموقف من علٍ.. وليكن ما يكون..

وهنا أقبل على لطفي صديق له، أو هو زميل في الديوان علي أقل تقدير، فنهض لطفي يحييه، وطلب إليه أن يجلس، فاعتذر القادم لضيق الوقت والمشاغل الجمة، وإن كان قد اندفع في كلام طويل عريض عن الدرجات والعلاوات، والجهالات المحظوظة– يعني غيره– والكفايات المغبونة– يعني نفسه– وما الي ذلك مما لا يكاد غير القليل من أهل الدواوين يلتقي بعضهم ببعض – علي ميعاد، أو علي غير ميعاد– حتي يخوضوا فيه.

ولما كنت أمقت هذه الخلّة، وأري فيها الآية الكبري علي ضعف الخلق، وركود الهمة، وانحدار الأخلاق فيما بين هذين إلي حمأة الحسد والنقمة ونهش السِّير، ثم ما يترتب علي ذلك كله من بلادة الضمير، وفقدان الأمانة المرجوة- فقد أخذت أتلهّي بما في الشارع من حركة ومشاهد، وملت بسمعي إلي حديث جماعة من أولئك الأنطاع، الغلاظ الشداد، الذين قنعوا من وجوه الكسب ببيع أوراق اليانصيب.. فقد كانوا وقتئذ يتباهون بوفرة أرباحهم، والمفاضلة بين خليلاتهم ، وما يغدقون عليهن من مال، وما يأتونه من أعمال القوة والفتوة، لاستمالتهن أو الاحتفاظ بهن..

ثم استقر بصري علي الزميل المحطم. وتكاثرت علي عقلي من أمره الخواطر.. هذا شخص كان أخر عهدي به، منذ عشر سنوات أو تزيد، فتي من فتيان الثورة، وحركة دائمة، وشعلة لا تخمد، وها أنذا وصلت من قصته إلي أنه اشترك في جماعة سرية تري الدماء رخيصة في سبيل استقلال الوطن..

وهاهو ذا قد فر مع الفارين أمام الجنود المطاردة، وها هو ذا قد اعتلي سلم بيت وأمسك مسدسه خلف ظهره، تأهبا لما يكون- ثم هذه نهايته واضحة جلية في وقفته وذهوله.

فما معني ذلك كله ؟

أهو مجرد أسباب ونتائج يمكن رد بعضها إلي بعض في سهولة ويسر ؟

أم هو القضاء والقدر ؟

وإذ ذاك أسرعت إلي ذهني فكرة آخري..

إذا وقع فأر في مصيدة.. أو ثعلب أو أسد في شرك، ومفروض أن هذا إنما يحدث في طلب القوت أو لشأن من شؤون الحياة علي النحو الذي هيئته الطبيعة وألهمته إياه الفطرة، فهل الفأر أو الثعلب أو الأسد يكون المسؤول الأول والأخير عن سوء مصيره.. أو يكون ذنب هذه المخلوقات البريئة في رقبة من وضع المصيدة ونصب الشرك ؟

علي أني لم ألبث أن أقصيت هذا الخاطر عني، فما ينقص رأسي أن تكون حديقة حيوان تعني بمصائدها ومصائرها..

وفي تلك اللحظة أحسست بضغط علي ذراعي، وإذا لطفي يقول:

- فيم تفكر ؟

فآثرت أن أقول:

- لا شئ.

- أيا كان حالك في تلك الفترة فقد كنت أسعد حظا مني حيال ثرثرة هذا الزميل، فآثرت أيضا أن أقول:

- هلم إلي ما كنا فيه، إذا لم يكن لديك ما يمنع.

- بل إذا كنت لم تزل لك رغبة في الإنصات فأرهف أذنيك..

رأيته يستجمع فكره ليذكر ما وصل إليه من القصة، فعاونته بقولي:

- تركناه فوق السلم والمسدس خلف ظهره..

- آ.آ. نعم .. في تلك اللحظة لعب القدر أهم دور في حياة كامل !..

- لقد كنت الآن أفكر في القدر وأثره في حياة هذا المسكين

- كانت فتاة تهبط السلم، ورأت تلك الحال، وتبينت كنه الموقف، وفي هوادة مدت يدها الي المسدس فأخذته، ودسته في حقيبتها، وكان الجند قد اقتحموا الباب، فما كان من الفتاة إلا أن تأبطت ذراع كامل، وفطن هو إلي ما تريد، فاستسلم، وراحا معا يهبطان السلم في تؤدة وعدم اكتراث، وسارا إلي الشارع، فلم يعترضهما أحد.. بل إن أحد الجنود أفسح لهما الطريق..

- بحسبان أنهما من أهل البيت، ولا علاقة لهما بالمظاهرة.

- بالضبط.

- حسن جداً.. سرعة خاطر بديعة.. لقد أنقذته من حبل الجلاد.. أو من الأشغال الشاقة علي أقل تقدير..

فقال لطفي وهو يهز رأسه في بطء واكتئاب:

- لقد كانت الأشغال الشاقة ما تزال تنتظره.

- عجباً ! بعد ذلك أيضا ؟ !

– لم يمض أكثر من ثلاث سنوات.. ولكن مهلا. مالنا نستعجل الحوادث ؟ هل يدور بخلدك أن فتي وفتاة، يلف القدر ذراعيهما علي هذا النحو، لمجرد أن يفترقا في الشارع– ولم يسيرا غير بعيد– بعد أن يتبادلا «أشكرك» و«لاشكر علي واجب».

– أراك تعني الحب.

– الحب في أقصي مداه، وأصدق وأنبل معناه. الحب الذي يفاجئ القلب الحساس للمرة الأولي فيجتاحه ويملك منه الشغاف، الحب الذي يسمو إلي ذروة السعادة، فإذا النفس مشرقة علي وديان من نور، وقصور من آمال، وجداول تترقرق بالأحلام. لاحد، ولا زمن، ولامنبع، ولا مصب.. قال لي كامل يوما وهو يحدثني عنها «منذ عرفتها، تجلت لي معاني الحب والسعادة واللذة والعاطفة. وكانت تلك المعاني لا تزال في قلبي هائمة حائمة. وانطلقت نفسي إلي العلاء كحمامة بيضاء في سماء وردية. إلا انني أجلس إليها أشعر بأن الرغد ينبت حوالينا ويحجبنا عن العالم بسياج من أزاهير الأمل البسام. وحين أسير إلي جانبها أشعر كأنى أخطو علي ما هو ألين من الأرض، وأنشق ماهو أخف من الهواء، وأن ظلالنا أحبة لنا يحفون بنا، وأن نجوانا سمر للملأ الأعلي» وقد قابلتهما معا يوما، فأنهي إلي– في جذل منه وعلي استحياء منها– أنهما تواعدا علي الزواج.

– هذا تطور منتظر!

– نعم. هدأت أعصابه، ونفض يديه من الجمعية السرية.

– هذا ما توقعته، وهو طبيعي.

– عل أن ذلك لم ينجه النجاة كلها. فقد وشي واش بالجمعية فقبض علي أعضائها، وهو من بينهم، وحوكموا أمام محكمة عسكرية، وحكم علي بعضهم بالأشغال الشاقة المؤبدة.. علي ما تذكر.. أليس كذلك ؟

– أذكر ذلك.

– وحكم علي الآخر بمدد متفاوتة، كان نصيب كامل منها أربع سنوات..

– مع الأشغال ؟

– طبعاً !..

– ياللحظ العاثر.. والفتاة ؟

– كانت تنتظره أمام المحكمة في مقدمة الجموع الحاشدة، ألقت منهما الأنظار، وداعا صامتا أليما..

– وأي ألم !..

– وأخذ المسكين سبيله إلي عربة السجن مطأطئ الرأس ثقيل الخطي.

وكأنما المخلوق المهدم سمع من قصته الكفاية، فتحرك من جموده، وراح يسير تجاه ميدان الأوبرا مطأطئ الرأس ثقيل الخطي.

–٥–

وجعلت أمد بصري إثر هذا الحطام الإنساني حتي تواري، وأصابني من ذلك غم شديد، وأشفقت عليه أن يصيبه مكروه في طريقه، ولا سيما في ميدان كهذا يعج بالحركة وتتطلب السلامة فيه التيقظ والحذر. ووددت لو قمت فتتبعته لأضمن له السلامة في تطوافه، إذ لم يكن من شك عندي في أنه يسير علي غير هدي. ولكني تبينت أنني لو نفذت ماجاش بخاطري، لكان النفع محدودا مقصورا علي مدي ما يسمح به الوقت في يومي، في حين ألاّ غناء له عن الرعاية الدائمة والعون المستمر.

ونعيْت – في ضميري– علي لطفي أن لم يفعل شيئا لصديقه المسكين طيلة وقفته علي بعد أمتار منه، فهو لم يقم –مثلا– إلي تحيته علي الأقل، وإن كنت أفضل وقتئذ لو دعاه إلي جلسة معه يلاطفه فيها ويرفه عنه.. وغمّ علي تعليل ذلك، فما أعهد في لطفي أن ينكر صديقا، أو أن يتنكر لمنكوب، وإن لم يكن بالصديق. وهممت أن أسأله في ذلك ثم أحجمت، اتّقاء إحراجه. على أني وجدتني أعالج استجلاء هذا الغموض عن بعد. فقلت وأنا مشيح، أشيع كاملا بنظري:

ــــ ألا ترى أنه قد يستهدِف لخطر ما؟

وعجِبت إذ ألفَيت لطفي لا يجيب سؤالي، وإنما يجيب ما كان يدور في خلَدي، كأنما استشفَه وعرفه بالذات. قال:

ــــ هل تظن أنك.. أوبالأ حري أنني لو كنتُ قمتُ إليه فطلبتُ منه أن يجالِسَني أو أن

يماشَيْني لكان من ضعف الإرادة بحيث ينصاع علي الفَور؟ كلا !. بل لَتتوقع منه الرفض وإيثَار الوِحدة. وهو يغضب إذا أُلحِفت، ويعده إحراجا لكرامته .. والآن، نعود إلي ما كان من أمر الفتاة..

ـــ ماذا ؟ هل خانت الفتاة حبه ؟

فقال وقد لعبت عند طرف فمه ابتسامة حزينة فاترة:

ـــ بل هو الإخلاص منها في الحب، والإمعان في هذا الإخلاص. كانت تزوره في سجنه.. وتلاطفه وتواسيه، وتُفيض النور والبهجةَ علي ما ينتظره من مستقبل سعيد مجيد.. حتي بات في مِحنته جذلا طروبا.. وكان يؤاسي رفاقه ويشجعهم ويبدد عن صدورهم سحب الهم إذا تكاثفت..

ثم ضرب الطاولة بقبضة يده، وأردف يقول:

ـ ولكن نعود إلي المظاهرات مرة أخري. فاذا مظاهرة عنيفة تمر في شارع محمد علي، وقد خرجت الفتاة إلي الشرْفة تشهدها.. وتَهتف مع الهاتفين بتمجيد ذكري الشهداء. ثم تطوّر الحال، فاذا رصاصة تطيش، فتصيب المسكينة، فتقتلها لساعتها..

فأمسكت أنفاسي، وحَملَقت في فزع، وقلت:

ـ أي ميتة مفاجئة أليمة!..

ـ نعم. مِيتة مفاجئة وأليمة. وقد كان لوقعها رنَّة الأسي في القلوب.. وشُيِّعت جنازتها في حَفل مهيب هائل.. وصَدَر فى رثائها منشور يفيض حماسة وحزنا. وبلغ لطفي نَعيها.. فكان ذلك مبدأ سجنه وأول محنته.. ومن ذلك الحين انتابّه الحزن في أشد وأقسي ما يكون.. الحزن الصامت، الهادئ، الذي لا يعرف الدمع.. الحزن الكظيم الذي لا يصعد الزفرات..

وتزاحمت في رأسي وقتئذ خواطر، وهاجت في قلبي مشاعر، ولكن أُرتج عليَ، ووقف لساني في فم مفغور، علي أني جاهدت حتي قلت:

- ياللصدمة العظمي.. ياللقدر القاسي..

فنظر إلي لطفي نظرة الانتصار وقال:

- أراك آمنت بالقدر..

فلم أستطع إلا أن أقول:

- اللهم إني آمنت..

وبعد صمت استطرد لطفي فقال:

- وكان لسوء حالته النفسية ، أسوأ الأثر في صحته وأصبح موضع عطف الجميع بين الزنزانة والمستشفي.. وكانوا يشفقون عليه الإشفاق كله من إمعانه في الوجوم والتفكير وكانوا يبذلون قصاري الجهد في ملاطفته والترفيه عنه.. وما من فائدة.. سوي التمادي فيما هو فيه..

وحدث وقتئذ أن شرد ذهني عن الحديث، فلم أنتبه إلا ولطفي يضغط علي ذراعي ويقول:

- أين أنت ؟

قلت وأنا شارد الذهن:

- لا شئ. لا شئ.

- إني أسألك.. ألا تذكر متي صدر العفو عن المسجونين السياسيين ؟.. سنة ١٩٢٤ أليس كذلك ؟

فقلت وقد أسعفتني الذاكرة:

- نعم.. في أوائل تلك السنة.. في.. مارس، نعم في مارس

- قال لطفي بعد أن راجع ذاكرته.

-أي أن كاملا قضي نحو عامين في السجن. شئ من هذا القبيل، علي أنه لما أطلق سراحه، كان قد استحال شخصا آخر، لا يكاد يمت إلي شخصيته الأولي بصلة ما.. فقد شحب وجهه وجمد، وهدأت نظراته واستطال شخوصها، وأصبح يحب الركود والوحدة، ويضجره الحديث لو زاد علي كلمات معدودة.

ولو ترك لشأنه لقضي أياما لا يتحرك ولا يتكلم ولا يشتهي طعاما!

فقلت في إشفاق ملك علي نفسي:

- كانت الصدمة.. أو.. الصدمات التي اصطلّحت عليه أقوي من طاقة نفسه الحساسة !.

فأغمض لطفي جفنيه إيجابا ثم قال:

– وبعد حين، أفاق من ذهوله هذا، فعكف علي المكتبة التي تركها له والده. وقنع من الدنيا بالمطالعة، من فقه وتوحيد وتصوف. وبلغ من زهده في الناس وقتئذ أن تبرم بي غير مرة حتي وجدت الأحفظ للكرامة، والأصون لما بيني وبينه، أن أنقطع عنه حتي تتحسن حاله. وقد كان. ومضي زمن طويل.

وأمسك لطفي عن القول. وجعل سبابته بين أسنانه، كما جعل ينظر إلي الفضاء بعين لا تطرف، فحملقت إليه، وقد تركز كل إحساسي في نظراتي، ولم أتكلم، فقد لاح لي أن لطفي يعاني ههنا ألما نفسيا، هو حياله أحوج ما يكون إلي أن يترك وشأنه، وانقبض صدري، وتوجست منه أسوأ مما سمعت وخيم صمت خلته دهرا.. إلي أن قال آخر الأمر:

– ونلت «الدبلوم». فأرسل إلي كامل خطابا يهنئني فيه. قرأت ذلك الخطاب، وقرأته.. ماذا أستطيع أن أقول ؟ حسبي أن أردّ د لك مالا يبرح يعلق بذاكرتي منه.. استمع..

«ما أجمل دنيانا التي لا تعرف جمودا ولا ركودا. دنيانا التي يصفر الفضاء من حولها، ويستتر القضاء في ثنايا ضميرها، ويكذبها في كيانها، وهي التي تكذبه.. ولعلها تغمض عينيها وهي خاشعة صاغرة، هي الصبور بما عليها. أجيال، وجبال، وأبطال، وآمال..»

«أنا عشت الأجيال، ودككت الجبال..»

«أنا عاشرت الأبطال، وحطمت الآمال. عهْد منفوش وغثاء تذروه الرياح. علي أن دنيانا جميلة وتحمل معني الكيان الوحيد، ما أجملنا نحن الذين نغني في هذا الكيان. فيثارتنا أشعة الشمس، ورحيقنا ضوء القمر. نغني أناشيد القدرة فترقص الحور فوق السحاب رقصات الفرح الذي لا يعقبه ترح، والهناءة التي لا ينغصها شقاء، والبقاء الذي لا يهدده فناء.»

«أيتها الشمس الحامية، ياذات النور الوضاح، إبعثي فينا حياة ودفئا، وتغلغلي في القرارات الطينية، أنيريها وطهريها، واجعلي البحر العريض يغسل عنها الأدران والآثام. أدران الأمل، وآثام المطامع. أنعشي أرواحنا كما تنعشين المروج، وفتحي قلوبنا للحقيقة الكلية كما تفتحين الأزاهير.»

«أنا لمست أجنحة الملائكة، فوجدتها ناعمة، نقية، ناصعة كالسحب التي تضربها بأقدامها اللؤلؤية، أنا قذفت بنفسي في الهاوية فحاربت المردة والعواهل والجبابرة، حربا ضروسا لا هوادة

فيها ولا رحمة، حتي انتصرت عليهم النصر المبين. ثم أقمت فيما بينهم العدل ونشرت الحكمة. ولكن القدر قادر والقضاء شديد عتيد، كانت الغلبة له، وسوف تظل له، أبد الآبدين.»

ثم قال لطفي بعد فترة

– هذا يا سيدي ما هنأني به علي «دبلومي»!!

ولعبت علي شفتي لطفي ابتسامه تزاحمت فيها المعاني ثم قال:

– ما إن قرأت خطابه حي لم أطق إلا أن أسرع إليه، وأنا في هم وغم وكرب عظيم، واستقبلتني أمه البائسة فاذا بها قد غار شدقاها، وشاعت التجاعيد في وجهها حتي لكأن أيامها أضحت سنينا، فهنأتني علي نجاحي، ودعت لي بالخير والتوفيق، وقد حاول كل منا، بادئ الأمر، أن يخفي ألم نفسه. ولكن سرعان ما غلبتنا الحقيقة فإذا بنا مطأطئ الرأس، وقد عقدت هي أصابعها في حجرها، ثم زفرت زفرة حارة وقالت.

– لو أن الله أراد، لكان كامل الآن محاميا أو وكيل نيابة، ولكن، الحمد لله.

ومضت تكرر ذلك الحمد وعيناها تدمعان.

وخنقتنى العبرة، فلم أستطع أن أفوه بشئ يواسيها، علي أنني غالبت نفسي حتي قلت: «وأين هو ؟»

فلم تجب، وتحولت تلومني وتعتب علي آني أقمت كل هذا الوزن لما أبداه نحوي صديقي القديم، وأخو طفولتي من العنت وضيق الصدر، إثر خروجه من السجن، في حين كانت تلك حاله مع الناس أجمعين.. حتي معها هي.. هي الأقرب إليه، والأشفق عليه والأحن. ومازالت حتي أخجلتني، واستدرت كل إشفاق مني، ثم عاهدتني علي أن أضاعف التودد إليه، والترفيه عنه، والعمل علي إخراجه من تلك الوحدة التي أوشكت أن تذهب بلبّه. وكانت المسكينة لا تكف عن الحركة والتلفت والتلويح. رقد ارتعت بعد ذلك أشد ما ارتعت، حين وضعت يدها علي يافوخها كأنما تخشي أن ينفجر، وأخذت تهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال في حسرة مريرة. ثم راحت تضع في ذمة الله ما بذلته من عمرها، وجهودها، ومالها، و.. وآمالها في ابنها الوحيد، الذي انعكست به الآية، وتنكرت له الغاية.

فلم أستطع وقتئذ إلا أن أهيب بلطفي:

- بالله حسبك حسبك.. إن هذا أليم..

فتريث بعض التريث، بيد أنه ما وني أن أندفع يقول:

- كان منظر تلك الأم المسكينة..

وصمت، وراح يهز قبضتيه قرب صدره كأنما يريد أن ينتزع من قلبه الكلمة الصائبة. والوصف الأوفي.. فعاونته بقولي:

- كان منظرها لا شك مؤلما أشد الألم..

- لا.. بل.. كان مخيفا ومفزعا.

- إنني لأتخيلها..

فقاطعني وعاجلني بقوله:

- أيا كانت الصورة التي تتخيلها، فهي صورة.. ضعيفة باهتة إلي جانب الحقيقة وقتذاك.. أنظر إلي الأمومة تسيل دموعا في أخاديد وجه مجعد، وإلي الحنان يتراءي في ذلة من خلال العيون الغائرة المبللة.. وإلي الآمال تخرج زفرات هينة هادئة يحملها الريح، فتتبدد وتتلاشي..

وكان التأثر قد نال من لطفي، فسكت حتي هدأ، ثم قال:

- أعدت عليها سؤالي «أين هو الساعة ؟».

فقالت الأم المسكينة وعلي شفتيها ابتسامة باكية:

«كان يصلي العصر، ولا إخاله إلا قد فرغ» وقامت، وكررت ابتهالها اليّ إلا ما أنقذت ولدها ولو استعنت علي ذلك بطبيب أو بأي نوع من الاستشفاء. ثم مشيت إلي غرفة مقابلة. هي غرفة كامل الخاصة، تلك الغرفة التي طالما رددت ضحكاتنا، ووسعت أمانينا. وما هي إلا هنيهة حتي كان كامل في طريقه إلي.

-٦-

قال لطفي وقد أشعل سيجارة يهدئ بها نفسه، ويخفف عنها أثر هذه الذكري الأليمة:

- دخل كامل علي، وكان في جلباب أبيض، وعلي رأسه طاقية بيضاء من صوف سميك، مخروطية الشكل، أشبه «بالطرطور» وقد نبت الشعر في خط رفيع متقطع حول عارضيه ثم تكاثف

عند نقنه. وكان أصفر الوجه ساهمه. ولكنه ابتسم عند ما رآني، ابتسامة ذات إشراق هادئ.

قلت وكأنني أعتذر:

– لقد تخيلته في صور شتى ليس من بينها ما تصف

– وفاتت ملاحظتي هذه دون اهتمام، وكنت أتوقع أن يستوضحني لطفي بعض ما تصورت، ولو علي سبيل الترويح، ولكنه أخذ في حديثه فقال:

– وأقبل علي كامل فحياني أحسن تحية، وشد علي يدي في شوق وإخلاص، ولبث ممسكا بها حتي بعد أن جلسنا علي الأريكة جنبا إلي جنب. ثم ابتدرني بقوله:

«حتي أنت يا بروتس!»

فاعتذرت اليه عن قطيعتي له، وسألته إلا ما أغفل هذا الشأن، فربت كتفي وقال:

«إذن أهنئك علي نجاحك، وأتمني لك المستقبل السعيد»

وأدركني وقتئذ الخجل والارتباك.. والاشفاق. فلم أدر بماذا أجيب. وساد الصمت فيما بيننا. ودخلت أخته تحمل القهوة وعلي رغم حداثة سنها كان الهم باديا عليها، ثم ما عتم كامل أن قال في نشاط شأن من يذكر أمرا بغتة:

«هل وصلك خطابي ؟ لاشك أنك ضحكت ملء رئتيك. وأتبع ذلك بضحكة عالية مرحة.. فكان لضحكته فعل السحر، فرفعت الأخت الصغيرة رأسها وقد أشرقت عيناها، ولم تفتني هزة الفرح التي سرت في جسدها حتي لقد اضطربت «الصينية» بين يديها، والتفتت ناحية البهو كما لو كانت تريد أن تزف البشري إلي أمها.. وما لبثت الأم أن ظهرت عند باب الغرفة والفرح فياض على وجهها العجوز.. وتقدمت فوقفت إلى جانبى وهي تقول بلهجة فيها جذل وتأنيب:

«أرأيت إلي زيارتك أيها الصديق العاق؟»

فقال كامل ومازال الضحك عالقا بأطراف شفتيه وأحداق عينيه:

«قولي له يا أمي، قولي له»

وأردت أن أفسح مجال المسرة، فقلت أخاطب الوالدة:

«أرأيت إلي ابنك وهو في (طرطوره) كالدراويش»

فضج كامل بالضحك حتي أكب علي أحشائه. وانتهزت الأم هذه الفرصة التي مددتها لها فقالت:

«لو أنك لم تغضب، ولم تنقطع عنه، لما أخلد إلي المنزل، وأنت تعلم أنه لا يخرج إلا معك. ولا يتريض إلا في رفقتك»

ثم أغراها طيب المجال فأنشأت تفض أغلاق قلبها من ناحية ابنها– فهي علي استعداد لأن تقدم إليه كل ما يبغي، وأن تنيله جميع ما يطيب له ويرضاه. فإن أحب السفر إلي الريف عند عمه، فلا مانع. أو إلي الاسكندرية أو غيرها من المصايف، فليكن.. وإذا آثر القاهرة وملاهيها، فالمال لذلك كثير وفير، أو كانت له رغبة في الزواج، فلا أحب إليها من تلك.. هي تفرح، وهو يستكمل دينه.. والعرائس اللائقات الجميلات – نزهة العين وقرة النفس ينتظرن الكلمة، بل يترقبن الإشارة. وكان كامل يصغي إليها ويبتسم أو يطرق. ثم قال لها أخيرا:

«سأكون عند حسن ظنك يا أمي.. أما الآن، فأفضل لو تركتني مع لطفي أنعم به وأتحدث اليه حديثنا»

فلم تغضب الأم لهذه المقاطعة، وعملت بما أراد، وتبعتها صغيرتها.. فلما خلت بنا الغرفة.. ضحك كامل ضحكة صغيرة.. ثم تربع علي الأريكة وقال:

«أتعرف ماذا قال أبو جهل»

ثم أطرق هنية وإذا به يقول:

«يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا واللات ما نعلم رجلا من العرب أدخل علي قومه مثل ما أدخلت علي قومك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتي تكون أكثرنا مالا. وان كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا.»

ثم صمت وشخص إلي الفضاء.. وبعد هنيهة قال وهو ما يزال علي شخوصه، وكأنه يحدث نفسه أو يقرأ من كتاب:

«..وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتي تبرئك منه أو نعذر فيك.»

ونظر إلي.. فقلت علي الفور:

«واضح. واضح !»

علي أنه قال:

«هذا حديث أبي جهل إلي سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم في مبدأ رسالته. وقال مثله عتبة له. لقد ذكرني به كلام أمي الآن. وهي تعرض علي مغرياته في سخاء: الريف، والمصايف والملاهي، والزواج. مسكينة !!

ثم استتلي فقال وعيناه تلمعان:

«قد يدهشك أني حفظت ذلك عن ظهر قلب.. بل أراك تحسبني غدوت مثارا للدهشة في جملتي. أليس كذلك ؟»

فأكدت له أن لا إدهاش في شأنه ولا غرابة، وإن كنت في نفسي آمنت بذلك إيمانا وجزعت له. فضرب فخذي في شئ من الشدة وقال:

«أنا واثق من رجاحة عقلك، ونقاء روحك، وعِظَم إخلاصك لي. لذلك فضضت لك بعض قلبي في خطابي إليك»

– ومن الصعب يا حامد، أو أنه من المؤلم، أن أسرد لك كل ما ذهب يقوله في الزهد والتجرد واتصال الروح بالملكوت الأعلي. فقد أعاد عليّ أنه حقيقة غنّي علي أوتار من أشعة الشمس، وأرقص الملائكة علي السحاب، وشرب معهن رحيق القمر.. وأنه فعلا نزل إلي الهاوية فهزم العمالقة والجبابرة، ونشر فوقهم لواء العدل والحكمة.. وليت الأمر وقف عند هذا الحد !

قلت في لهفة:

– ماذا يكون إذن ؟

– قال لطفي

– لقد مال علي كامل حتى أحسست بأنفاسه علي وجهي وقال بصوت خافت:

«انهم يظنون أنى وحدى !. الواقع أن الوحدة أليمة. وإن من أشقّ الأمور على النفس أن تشعر بفراغ ما حولها من أولئك الذين يمكنها أن تتفاهم معهم وتتصل بهم الاتصال الروحى. إذن لتكون الدنيا خلاء موحشة. وقد شقيت بالوحدة فعلا، ولكنها هى.. هى أدركتنى تؤنس وحدتى وتملأ حياتى».

والحق يا صديقى العزيز أننى لم أستطع أن أخفى عظيم دهشتى حين قلت:

«من هى؟»

فحدجني كامل بنظرة واضحة الاستنكار، لاستفهامي هذا وكرر قوله في إصرار وتأكيد:

«هى !هى ! «ثم أردف فقال فيما يشبه الغضب «ألا تعرفها» فلم أزدد إلا حيرة وصمتا. وأغاظه بطء فهمي وقصور إدراكى دون ما يريد.

فراح يردد ويؤكد:

«هى. هى. الغادة.. غادتي!!»

عندئذ أدركت ما يرمى إليه. فسرت قشعريرة فى بدنى. حتى لقد تحشرج صوتى وأنا أقول.

«آ..آ.. نعم، نعم»

قال فى لهجة الملامة:

«هل نسيتها؟»

فأسرعت أقول: «كلا. لم أنسها مطلقا»

قال: «أنا وأثق من أننى قدمتها لك يوما.»

قلت: «هو ذلك، هو ذلك»

قال: «ألم تكن فاتنة وادعة؟»

فأكدت له ذلك تأكيدا، وأسهبت فى إطرائها والثناء عليها، فتألقت عيناه، وأشرق وجهه، وجعل يتحرك فى مكانه من فرط مادب فى جسده من نشاط وحيوية. ومضى يؤمن على قولى ويؤكده. ثم أنه ضرب الأريكة فيما بيننا وقال:

«بل هى كذلك إلى الآن!! لم تفارق صورتها ذهنى لحظة.»

وسكت، وجعل يهتز فى جلسته، ثم أمسك فجأة وقال:

«لقد كنت واثقا من أنها لن تتركنى، فإذا هى عند ظنى بها.»

أواه يا عزيزى حامد! ما من شك فى أن وجهى قد نم عن كل مشاعرى وقتئذ، فقد أرسل كامل ضحكة عالية وقال:

«ألم أقل لك إنك ترانى أصبحت مثار الدهشة فى كل شئ؟» وأتبعها بضحكة أخرى. وإذا الأم قد عادت يتلألأ البشر فى وجهها. فلما رآها همس يقول:

«أكتم هذا، وسأحدثك عنه فيما بعد..»

وانتهزت الفرصة فانصرفت. والأم تلهج بشكرى والدعاء لى. أما أنا، فكان قلبى من الغم أثقل من الرصاص.

-٧-

وللمرة الأولى شعرت بفساد الجو الذى يشملنا. فقد كان مزيجا كريها من دخان النراجيل، وعطن الرطوبة ورائحة الكحول. ولأول مرة تنبهت إلى وقع «أحجار» النرد، وخيل إلى أنها إنما تصطك بأم رأسى تباعا دراكا. وللمرة الأولى ضقت ذرعا بأولئك الجالسين عند حافة الإفريز، وقد تبدت مظاهر الرّقاعة فى جلساتهم، وكانوا ما ينفكون يسرّون القول المبتذل ويعلنون ضحكات أكثر ابتذالا.

وبدا الامتعاض على وجهى، وتبينه لطفى، وكانت قد تحركت شفتاه ليقول شيئا، فأحجم، وأسرعت فقلت:

-أفلا يروقك أن نقوم فنتم حديثنا، ونحن نسير فى هذه الشمس الساطعة الجميلة، وهذا الجو البديع؟

فتردد لطفى مليا ثم قال:

– كما تريد.. هيا بنا.

وقمنا فاتجهنا نحو شارع قصر النيل، وبدد إشراق اليوم ما تلبد فى صدرى من كآبة، وبان للطفى أفضلية ما فعلنا، فكان ذلك فاتحة حديث عن المقاهى، وانتشارها، وإقبال الناس عليها من مختلف الطبقات والأعمار. وخلَّيْت له سبيل الاسترسال، لما فى تغيير مجرى الحديث من متعة له ولذة. فقد كنت أدرى بمزاج لطفى وأعلم بنزعته، فهو لايصبر على حديث واحد واستفاض الموضوع، فشمل حالنا الاجتماعية وما هى عليه من فساد وكساد.. وأنشأ يرجع ذلك إلى ضعف التفاهم أو سوئه بين أهل البيت الواحد، وتفكك الأواصر الودية بين أصحاب المهنة الواحدة. ثم إلى التخاذل والتنافر بين الجماعات والهيئات، مما أدى إلى إقفار المنازل من أسباب الألفة والإيناس، وعدم الانتفاع الحق حتى بالقليل من النوادى المحترمة الموجودة. وما يتبع ذلك من الملل والسأم والتبرم بثقل الوقت، والترامى على مقاعد المقاهى، والتخبط فى تكييف الحياة الشخصية، والتبذّل فى تصريفها أغلب الأحايين.

فلما أصاب من ذلك الكفاية، قلت أمكر به:

– إنى من أجل ذلك أميل إلى الوحدة..

وكان ما توقعته، فأسرع لطفى يقول:

– أما أنا فلا أطيقها، بعد أن رأيت من أثرها ما رأيت..

ثم استدرك فاستضحك فقال:

– ها أنت ذا عدت بنا إلى تلك السيرة مرة أخرى..

فقلت أخفى نيتى:

– بل هى التى تأبى إلا أن تعود فيما يظهر. ولكن لابأس، فهى خير من أحاديث أخرى كثيرة.

فقال وفى لهجته حدة متكلفة:

– يا لهذه القصة! إنها استهوتك فيما أرى؟..

- هو ما تقول. لاشك عندى فى أنك واليت زيارته بعد أن أصيب بما أصيب.

فتنهد لطفى، وقال وفى صوته نبرة آسية:

- الواقع غير ما ظننت. فقد بلغ من أسفى عليه، أنى كرهت أن أراه على تلك الحال. لاسيما أنه لم يكن فى مقدورى أن أصنع له شيئا. ولكن، حدث بعد أيام، بينما كنت جالسا إلى مكتبى فى الطابق الأرضى من منزلنا، أكتب بعض الرسائل.. إذ بكامل يدخل على.

ففرط منى أن قلت:

- بجلبابه ولحيته النامية؟

فنظر إلى لطفى نظرة طويلة فيها تأنيب شديد، حتى خجلت، وحتى هممت أن أعتذر. وأدرك لطفى أسفى، فابتسم صافحا، واستطرد فقال فى هدوء:

- بل كان فى أحسن هيئة. ولكن ليس هذا هو المهم.. فإنه ما استقر به المكان حتى راح فى غضب شديد.

«أمى يا أخى، أمى! أدركنى منها. أنقذنى من تدخلها فى أمرى، وإلا تركت لها البيت، ولو همت على وجهى!»

ثم أنشأ يفضى إلى أن والدته أصبحت تتحرش بغادته كلما جاءته، وتقطع عليه أحسن أحاديثه معها. وأفاض فى الكلام، فذكر لى كيف شعر بوجودها على مقربة منه لأول مرة وهو فى السجن.. وكان ذلك فى ليلة الأربعين من وفاتها. ثم انقطعت لأن السجون ليست بالمكان الملائم لمثلها. ولكن ها هى قد عادت تزوره وتؤنس وحدته.. علوية طاهرة، نور بلا ظلمة، وعقل بلا شهوة، ولطف بلا كثافة، ونشاط بلا سآمة، وإخلاص بلا عوض، وخدمة بلا علاقة، وجمع بلا تفرقة!!

فلم أستطع إلا أن أهيب بلطفى قائلا:

- ما كل هذا؟ ما كل هذا؟

فشخص لطفى فى الفضاء مليا، ثم قال:

– أجل يا صديقى. بهذا وبما هو أكثر منه تعقيدا، وصف لى غادته –واندفع كامل يتكلم ويتكلم، فى مواضيع يأخذ بعضها برقاب بعض. ولقد بلغت دهشتى منتهاها حين قال:

«هل رأيت القمر ليلة أمس؟ بينما كنت فى غرفتى أنعم ببهائه ولألائه. إذ بها تشق أستاره الفضية فتجلس قبالتى.. جميلة فتانة كما كانت– أو لم ترها قط؟. بل أذكر تماما أننى قدمتها لك.. أليس كذلك؟»

فأومأت بالإيجاب. لأننى لم أكن أستطيع وقتئذ أن أتكلم. أما هو فكان يتكلم بسرعة مروعة، ولا يستقر على حال من القلق.. قال:

«كانت أجمل وأفتن.. وأخذت تحدثنى عن الله.. وكيف أنه جمال كله، ومحبة كله، وروحانية كله. وتكشف لى عن أسرار هذا الوجود الغامض الكثيف المدلهم. فإذا به ليس بالغامض ولا بالكثيف. ولكننا نحن الذين نثقله بطينيّتنا وأرضيّتنا.»

ثم ضرب المكتب بيده فى ضيق وكرب شديد، وصاح يقول:

«ولكن أمى. أمى. كانت تتسمّع علينا.. وإذا بها تجهش بالبكاء. لست أدرى مم كانت تبكى. فى الوقت الذى كان يجب عليها أن تسر وتفرح. ولكنها بكت.. وسمعت الغادة نشيجها فى مثل فحام الاطفال، فأجفلت واختفت وراء أستار النور»

ثم إنه قام وقال فى حزم وتهديد:

«والآن، لقد جئتك أرجو أن تكون واسطة خير بينى وبين أمى. لئن لم تتركنى وشأنى، فإنى تاركها إلى حيث لايصلها خبرى، ثم صرخ متسائلا، وذراعاه مشدودان إلى جانبيه:

«ماذا تريد بى أمى؟»

فقلت متلطفا، رجاء أن أخفّف من ثورته:

«أمك، ونحن أجمعين.. إنما نريد لك الخير والسعادة»

قال فى تهكم واستخفاف:

«أشكرها وأشكركم أجمعين. ولكن، من ذا الذى قال لكم إننى لست بالسعيد؟. ألا توجد السعادة فى غير المصايف والمشاتى والملاهى، وهذا السخف العريض؟»

فلما لم أجب، استنكر ذلك منى وقال:

«حتى أنت؟ تنظر إلى الدنيا هذه النظرة البسيطة الضيقة؟ هبنى أحلم، وهب أن ما أرى رئيا أتخيله وأتصوره.. وأنا بهذا الحلم، وهذا التصور سعيد قرير، فلماذا لاتتركون لى هذه السعادة وتعفونى من كرمكم وإغرائكم.. ولكنى أقولها كلمة واحدة.. لئن لم تنته أمى وترجع عنى، فسوف تسوء العاقبة، وتكون هى أول من يندم!!»

تلك كانت حاله منذ ذلك اليوم، وقد لازمته بقدر ما استطعت، وبذلت جهدى فى التسرية عنه، وإرجاعه إلى صوابه. ولكنه كان يسخر منى، أو يشفق على.

ودس لطفى يديه فى سرواله، وسار مليا صامتا مطأطئ الرأس. فخطر لى أن أقول:

– ولماذا لم تستعينوا بطبيب؟

–٨–

وانحصر اهتمامنا وقتئذ فى انتظار الفرصة الملائمة لكى نجتاز الطريق فى أمان لنصل إلى شاطئ النيل. لذلك ضاعت ملاحظتى الأخيرة فى الهواء.. وتم لنا ما أردنا، وكنا قد تعبنا من طول ما مشينا، فجلسنا على الحاجز الحجرى لنستريح ولننعم بمنظر الشمس وهى تنعكس على التيار الهادئ الوادع، وكان مشهدا جميلا حقا يسترعى العيون ويستهوى القلوب. ولبثنا حينا نمعن النظر فى تلك الأمواج الصغيرة يتراكض بعضها إثر بعض، وتبعث إلينا بومضاتها البهجة المشرقة– وأنا نُسرِّح الطرف خلف الزوارق المنتشرة على صفحة النهر، كأنها على صدر رحب يعلو بها ويهبط فى حنان ودعة.

وما إن جلسنا حتى تمطى لطفى وراح يقول:

«أيتها الشمس الحامية، يا ذات النور الوضاح، ابعثى فينا حياة ودفئا» ثم تثاءب.. ورمى كسله، على حد تعبيره..

وهذه الكلمات التى رددها، أعادت إلى ذهنى ما كان قد علق به من خطاب كامل، فقلت:

– والله يا أخى إن كلامه لا يخلو من معان سامية.. ثم هذا شاب تفاجئه ثورة اجتاحت البلاد كافة عامة فتطويه ثم تنشره، فتى يعيش بالثورة وللثورة ولاشئ غير الثورة، كما وصفته من

قبل، ثم يقف موقفا هو فيه إما قاتل أو قتيل، وتجئ فتاة تنتشله من هذا المأزق الذى ليس بعد حروجته حرج.. فهل كثير.. أو هل عجيبَ أن كرِّ كل عواطفه الثائرة إلى منقذته فتتركز فى حبها والإخلاص لها؟

فقال لطفى وهو يضرب السور الحجرى بكعبيه ضربا ذا وقع متزن:

– من قال لك إن فى هذا عجبا أو غرابة.. بل غير ذلك قد يكون العجيب الغريب..

فقلت وقد جمحت بى رغبة إلى أن أتكلم فى صالح الرجل المنكوب:

– ثم تأبى الظروف إلا أن يقبض عليه.

فقاطعنى لطفى يقول:

– بل هى النذالة وإطماع النفوس الدنيئة!!.

– أيا كان.. فيقبض عليه، و.. و.. يختطف اختطافا من حبه السعيد. فيحاكم محاكمة مرهقة، مضنية، ثم... ثم تموت فتاته أو غادته، كما يسميها، على ذلك النحو المباغت الأليم، وهو بين جدران السجن، حيث يضيق المكان بالجسد وتتسع الآفاق للتأملات الحزينة السوداء. أقول: هل كثير على ذلك المنكود المنكوب، أن تضعف أعصابه، وأن يتأثر عقله؟؟

واستشعرت الراحة بعد أن ألقيت هذا الكلام عن صدرى. وكان لطفى يصغى إلى وهو مطرق، ولبث مطرقا، ولم يعقب على ما قلت، وبعد فترة عاد السؤال غير المجاب عليه إلى ذهنى، فسألته للمرة الثانية:

– ولكن. لماذا تر كتموه هكذا. لماذا لم تستعينوا بطبيب؟.

فقال لطفى وهو لاشك شارد الذهن:

– طبيب؟؟

– نعم. لم لم تعرضوه على طبيب. أو. تودعوه إحدى المصحات..

قال لطفى وفى لهجته استخفاف لم يرقنى:

– هل تظن أن ذلك غاب عنا أو أننا أغفلناه؟!

ثم اتخذ كلامه نبرة الصرامة والألم، حين انثنى يقول:

– ولكن مجرد ذكر الطبيب، كان كفيلا بأن يهتاجه أشد الاهتياج، وكان يتوعد بالانتحار إن نحن حاولنا بالطب والأطباء أن نحرمه من غادته. فهي عنده كل شئ. فإذا هي توارت عنه توارى هو عن الوجود لامحاله..

فقلت ولم يقنعني عذره هذا:

– هذا لايكفي. وكنتم لاتعدمون الحيلة!!

وكأنما عز على لطفي أن يلقى عليه ظل التقصير والتهاون، فقال يدافع عن نفسه:

– كل ما استطعت فعله بادئ الأمر، أني كنت أشرح حاله لإخواننا من الأطباء، فكانوا ينصحون لي بأدوية تهدئ الأعصاب، وكنت أذيبها له خلسة في «التليو». أطلبه في الظاهر لنفسي، مصطنعا أسبابا شتى.. وكان ذلك يفيده.. وهذا معناه أنه لايرى غادته.. أو شبحها على الأصح، ولكن. يالها من فائدة!! لكنت تراه إذ ذاك.. قلقا، كاسف البال.. ضيق الصدر، أشبه حالا بمن فقد شيئا عزيزا لديه..

– وإذن فكان يخرج من.. أوهامه السعيدة– إلى..

– إلى حال طبيعية تعسة..

– يا لها من مشكلة!!

– وكانت أمه من ناحية أخرى، لاتنى عن الاستعانة بالتمائم والتعاويذ. لاتسمع عن منجم أو عراف، إلا أسرعت إليه تطلب النجدة، وتستوحيه الأجرام السماوية، والعوالم السفلية وتنفق في ذلك المال جزافا. فكم من صحاف كتب عليها من الكلام ما يفهم ومالا يفهم، وباتت في العراء تستقبل ضوء القمر، ثم غسلت، فشرب المسكين ماءها.. وكم من أوراق حرم المنجم فض طياتها – أحرقت في أركان غرفته حين كان يخرج إلى الصلاة من يوم الجمعة.. وكم من تميمة من جلد الغزال، نقشت عليها رسوم شتى بمداد من دم الوطواط مرة ومن مسحوق ريش اليمام مرة أخرى، وضعت في القبور المهجورة أياما ثم دست بين الوسائد أو تحت الأعتاب!!

فأنكرت ذلك في ضميري، وأعلنت استنكاري متسائلا:

– وماذا كان يفعل المسكين حيال ذلك؟

– كان ذلك يحدث في تكتم شديد، فلايعلم به..

– وكيف أقررت ذلك أنت؟ ورضيت للأم المسكينة أن تنفق فيه مالها؟!

فتريث حتى خلت أنه لن يجيب ثم قال:

– وقد يزيد من دهشتك، أنني أغري الوالدة بالمضي فيما هي فيه.

وعاد إلى صمته وإطراقه. ثم تنهد تنهدة طويلة ومضى يقول في تحد وتأكيد:

– لو أنك كنت مكاني لرأيت الخير في ذلك الخير – الخير كل الخير، لها هي. لالكامل. فقد كان كامل مريضا، من وجهة الحقيقة.. ولكنه من ناحيته كان سعيدا.. بل كان في أيام يشعر بسعادة لايكاد يطيقها.. أما الأم! فكانت.. هي المفجوعة الحسيرة، المكوية القلب بنار الألم، دون أي عزاء.. ودون أي شئ يسري عنها. فلم يكن ثمة من وسيلة سوى..

وتبينت ما يريد فقاطعته بقولي:

– تعني أن الأم كانت تجد السلوى والترويح في غدواتها وروحاتها وبث همها وغمها لهذا أو ذاك..

فقال لطفي يستتم مراده:

– ولاتنس ما في كلام العرافين، ومن إليهم، من إحياء الأمل، والرجاء في المستقبل..

ثم انثنى فقال:

– على أن كل شئ رهن ميقاته.. فقد أصبح كامل يشكو الصداع، مما اضطره إلى الاستعانة بطبيب. ومن العجيب، أنه كان لايشكو إلى الطبيب إلا أوجاعه الجسمية، ولايذكر له شيئا عن حاله النفسية. أو يأتي أمامه بما ينم عنها. على أنني خالسته فأوقفت الطبيب على جلية أمره، فراح يداويه على هذا الاعتبار.. وهو لايدري. ومن ذلك فرض الطبيب عليه فرضا أن يذهب إلى الريف، وأكد له أن شفاء أسقامه لاتكون دون ذلك.. فأذعن، واستضافه عمه زمنا طويلا– فهدأت أعصابه وتحسنت صحته ونفسيته أيضا – حتى لقد كتب إلي يوما يقول:

«بشر أمى، وبشر ما فيك من أمومة، بأننى أصبحت عاديا وتافها». ثم عاد.. فإذا بشبح الغادة قد انقطع عنه فعلا.. ولكنه أصبح على الحال التى رأيت.

فلم أستطع إلا أن أقول له: «ليتنى لم أقابلك اليوم!»

فابتسم ابتسامة حزين وقال:

– عمرك أطول من عمرى.

أحرج ساعة فى حياتى المدرسية

منذ ربع قرن تقريبا، كنت أقل سنا منى الآن بربع قرن تقريبا. وكنت وقتئذ فى إحدى المدراس، أطلب العلم ظاهرا، وإن كنت -فى الواقع- أصلى العذاب الأليم.

وقديما قال فكتور هوجو بحسن نية «من فتح مدرسة أغلق سجنا» وحسب أنه جاء بالآية الكبرى وأنه إنما قرر حقيقة انسانية شاملة باقية على الدهر..

ولكن ناظر تلك المدرسة، استطاع أن يحك أنفه لذلك الفيلسوف الفرنسى الكبير، عبر الأجيال والأميال. ففتح مدرسة فيها من مبتكرات الوبال، ومستحدثات النكال، ما يجعل السجون إلى جانبها «رياض الأطفال».

وفى العام الكريه، الذى يضم ذلك الشهر الأغبر، الذى يحتوى على الأسبوع اللعين، الذى يشمل اليوم المشؤوم، الذى ينطوى على تلك الساعة الكريهة الغبراء اللعينة المشؤومة -نقلت من السنة الثانية- لا إلى السنة الأولى كما كان يقضى جهلى المطلق المطبق (وقتئذ على الأقل) بل إلى الثالثة، لا لسبب سوى أن مصروفات هذه، أكثر من مصروفات تلك.

ولكى يؤدى هذ المعهد العلمى رسالته الجهنمية خير أداء، تواطأ القائمون بأمره فيما بينهم، على أن يكون الحساب فى الحصة الرابعة -أى قبل الظهر مباشرة، بعد أن يكون معلم الخط قد فرى أناملنا بعصاه الغليظة القصيرة من أجل (س) ضاقت أو (ع) لم ترق لالعينه العوراء، ولا لجارتها العمشاء.. وبعد أن يكون خليفته معلم النحو قد ربك أذهاننا بتواريخ حياة كان وأخواتها، وما وصل إليه تحقيق السادة العلماء، فى أمر «صيغة المنتهى» وبعد أن يعقب هذين، مدرس اللغة التى كانوا يدخلون فى روعنا أنها اللغة الانجليزية، فيصدع أدمغتنا بترديد «بى-آ-تى، بات.. مضرب أو وطواط» بعدد ما فى السماء من وطاويط، وما فى المصانع من مضارب..

بهد هؤلاء الأفاضل الأفذاذ، يجئ معلم الحساب -يدخل علينا- هو والذعر والجوه والحر، فى وقت واحد!!

وهذا السيد، أقرب إلى الطول والنحافة والاحديداب. وله زى ما مثله فى الأزياء. فهو «شيخ» بعمامته وجبته وهو «أفندى» بياقته ورباط رقبته!. وله وجه ما مثله فيما خلق الله، مدهش فى كمال القبح. فكأن شيطانا فكِها مر بيده عليه يوما مداعبا فافسد طوبوغرافيته، وزحزح معالمه عن مواضعها المألوفة منذ الأزل. فأنفه أعلى مما يجب بكيفية تحتم الضحك. وعيناه متباعدتان، متنافرتان، بشكل يفرض الفزع!! وشارباه قد مسح الشيطان -الذى أشرنا إليه- الجزء الأوسط منهما فلم يدع إلا مجموعة من الشعر عن يمين فمه، «وسيمتريه» لها عن شماله، فى هيئة تستثير الشفقة. ثم إن ما أبقاه الدهر من أسنانه هو من الطول والتباعد والتشابك بحيث يصعب على الرائى أن يميز أيها يخص الفك الأعلى، وأيها يخص الفك الأسفل.

وكانت «بيداجوجية» هذا المعلم لاتتغير. فهو فى كل يوم يبتلينا بعشر مسائل، يمليها بصوت كصراخ البَفْتة حين تمزق. عشر مسائل! عن حقول تزرع، ومحاصيل تقلع، وقطارات تسير، وأخرى تقف.. وعن أحواض فى أعلاها حنفيات وفى أسفلها بالوعات، هذه تفتح وتلك تقفل، أو أنها تعمل جميعا فى وقت واحد. ثم يبدأ الشرح بأسلوب فياض متدفق يردد فيه ذكر آبائنا وأمهاتنا جملة وتفصيلا، بنعوت تتفق وما نبديه أو ما يتوهم أننا أبديناه من تقصير أو إهمال فى الاصغاء إليه.

وأنه أثناء تلك العملية، يجوس خلال الصفوف، ويؤدى ما يقوله بأنسب ما يتراءى له من الحركات. فيجرى فى مكانه هازا ذراعيه مثنيتين إلى صدره، وذلك تمثيل للقطار. ويقلد خرير الماء بالصفير المستطيل. ويكبس طربوش أقرب الضحايا إليه دلالة على الزرع، ويطيح فينا أجمعين بخيزرانته الطويلة أداء لعملية الحصاد.

هذا هو.. أما نحن فطريقتنا حيال تلك المسائل واحدة لاتتغير كذلك. وهى أن يذهب بعضنا إلى أصدقائهم فى السنة الرابعة، فيعودون بالحلول صحيحة كاملة. وما على الباقين -أمثالى- إلا أن ينقلوها فى كراساتهم بلاتدبر ولاتريث. فإذا ما جاء اليوم التالى، وحلت الساعة الموعودة سمعنا من خارج الفصل مناديا يقول:

- جواب المسألة الأولى؟؟

فنرفع أصابعنا بأكبر همة وأعظم شوشرة! ونظل على تلك الحال المتبعة حتى يدخل علينا.. فيتهلل بشرا ثم يشد أحدنا من أذنه فيقوم المسكين صارخا بالجواب، وبالدموع بعض الأحيان –على قدر قوة الشد– عند ذلك يزداد تهلل المعلم ويقول له:

– شاطر تلميذى تأسيسى!.. جواب المسألة الثانية؟

فنرفع سباباتنا بالهمة والشوشرة المطلوبتين، ثم صرخة أخرى، وتحبيذ آخر.. وهكذا.

وكنت أنقل مع الناقلين، وقد تواطأت فى ذلك مع تلميذ خاص كنت أتوسم فيه طيبة القلب، وسلامة الضمير. وإنى ما برحت أذكره، فقد كان له فى مقدم أنفه أنف، وفى مؤخر رأسه رأس. وهاتان الميزتان. مضاف إليهما ما يشمله من ذلة أهل الريف ورائحتهم، هى سبب ما كان عليه من هدوء ورزانة. وإن لقيمات «البسكويت» وقطع «الشيكولاته» وآحاد «الملبس» التى كنت أنفحه بها من آن إلى آن، كانت علة ما يبديه نحوى من عطف وصداقة و..تنقيل!

ولكن لجرم ما –قد يكون جد هائل وجد فظيع، على أننى أجهله كل الجهل إلى وقتنا هذا، ولايمكن أن أكون قد اقترفته– أقول، لجرم ما، حقد على ذلك الريفى الطيب القلب، الهادئ الرزين، وأضمر أن يغدر بى على غرة منى!

دخل المعلم، وراح يطلب أجوبة المسائل، جريا على عادته والتلاميذ يرفعون أصابعهم كل مرة.. إلا أنا.. فقد كنت أحملق إلى كراستى، وإلى الأرقام العنيدة التى أمامى، وعلامات الاستفهام والتعجب ترقص حواليها، حتى بردت أطرافى وتخاذلت مفاصلى! ولبثت كذلك حتى فطن المعلم إلى ذلك منى عند المسألة الخامسة.

– عدد الرجال ١٢٤ وينتهون من حصد الغيط فى ١٣ يوما.

– شاطر تلميذى تأسيسى..

هذا نص ما قاله أحد التلاميذ، ونص ما رد به عليه المعلم. فهو إذن الجواب الصحيح.

– وأنت.. عندك كام؟

وكنت أنا المقصود بضمير المخاطب. وقد أكد ذلك وقع الخيرزانة على كتفى. فسكت.. أو بمعنى أدق، لم أستطع الكلام.

وأصر المعلم على أن أجهر بجوابي، ولما كان لابد مما ليس منه بد. بلعت ريقي مرارا، ثم قلت:

- ٣٢١ كيلو متر، عن مدينة.. القاهرة..

وكانت العبرة تخنقني، وفكي يرتعش. فجاء صوتي كصوت العنز وهي تثغو. ولم أدر أي إحساس احتل رفاقي، فقد سكتوا سكوتا مطلقا. أما معلمي فجعل يضحك وينحني على أضلاعه. ثم انتقل إلى المسألة السادسة..

- يملأ الحوض مع فتحه الحنفية والبالوعة في ٣٨ دقيقة.

- شاطر تلميذي تأسيسي.. وأنت؟ (الذي هو أنا)

- ٦٤ حصان..

- لا. لا. ٦٤ حمار. وأنت الصادق!

عند ذلك استباح اخواني الأعزاء أن يحذوا حذو المدرس في الضحك والعربدة.

وهكذا. وهكذا. حتى انتهت الاجابات.. لم يعفني مرة واحدة!

وبعد!

فإنه من السهل.. جداً جداً.. على أي عقل مهما تضاءلت فيه قوة الخيال، أن يتخيل في جلاء: خوفي، وذلي، وحيرتي، وحرج مركزي في هذه الفترة من حياتي، وأنه لمن السهل جدا جدا على أي قلب مهما انعدمت فيه عاطفة الرحمة، أن يذوب بالشفقة الأبوية، أو الأخوية أو الانسانية بصفة عامة، من أجلي وأنا واقف أرتجف من سَمْت رأسي إلى أخمص قدمي. وألوان قوس قزح تتناوب على وجهي!!

ولكنه من الصعب.. جدا جدا .. على كائن من كان -حتى على أنا- أنا المضروب على عيني، «المزغود» في بطني.. أنا المقروص في صماخ أذني.. أنا المنكود المنكوب.. نعم من أصعب الصعب -أن يتصور انسان كمية وكيفية الضرب الذي انهال على وقتئذ!.

فلئن قلت إن معلمى الفاضل، جعل يهوى بقبضة يده على أخطر المواقع فى جسمى الضعيف مثل جبهتى، وصرصور أذنى وضلوعى، وعظم السيقان منى... ولئن قلت إنه أنشب مخالبه غير مرة فى رقبتى بكل قسوة و.. ومهارة. ولئن قلت إنه قال لى -وقد كشر عن أنيابه- وقال «أكللك منين؟!» ثم لم ينتظر أن أختار بنفسى المكان الذى أستحسن أن يأكلنى منه، بل انقض على رأسى، وشرع ينجز فيها وعيده .. لئن قلت هذا أو غيره، فإنما أقول الكلام الفاتر، وأورد الصورة الباهتة لما كان!!

ولم ينقذنى من ذلك العذاب غير البشرى، إلا قانون الفطرة البسيط- وهو أن «الإجهاد يورث التعب» وهكذا تعب معلمى، فقذفنى آخر الأمر، يريد إخراجى من الفصل. ولكن ما بقى له من قوة وشر، مضافا إليه ما أصابنى من دوار وتخاذل، كانا كافيين كل الكفاية لأن يجعلانى أتعثر فى جريى حتى انكفأت فارتطم صدغى باحدى قوائم الكرسى الخشبى الذى كان يجلس عليه معلمو تلك المدرسة، نادرا، فى حالة هدوء أعصابهم، وامتلاكهم قواهم العقلية..

وأبسط النتائج الطبيعية أن يسيل دمى.

وأبسط النتائج المنطقية أن أصيح وأولول.

وأبسط النتائج العملية أن أفر لا من الفصل فقط، بل من المدرسة بأسرها..

وأخيراً.. أبسط النتائج الغريزية أن ألوذ بوالدى أشكو إليه، وأستغيث به!

وأرى الآن بعين العدل، والشماتة كذلك، أن والدى -رحمة الله عليه مرارا وتكرارا- قد تصرف وقتذاك فى أمرى، بحنكة نادرة، وخبرة الرجل العليم الخبير. فهو لم يذهب بى إلى المدرسة ليستطلع الخبر، ويجرى التفاهم.. ولكنه اقتادنى إلى.. مخفر البوليس!!

هناك شرح ظلامتى، وبسط شوم حالى. ويقينا أن حضرة الضابط كذّب والدى العزيز فى «أصل وشه»! فقد نظر إليه فى ريبة ثم التفت إلى، وراح يلاطفنى ويواسينى، حتى أنست إليه، وإلى المكان المتجهم حولى، ثم طلب إلى أن أقص عليه قصتى بنفسى. فقصصتها بالكلم المتقطع والشفاه الراعشة..

ومع أننى فعلت ذلك بأقل مبالغة وتهويلا مما فعلت الآن، فقد بدا على حضرة الضابط أنه آمن وصدق، وأنه استهول ما سمعت أذناه واستفظعه. واستدعى -على الفور- أحد رجاله، وشاء

حسن الحظ أن يكون أحد رجاله هذا، شرطى كالفيل وله شوارب أسد! فألقى إليه الضابط أمرا، أو هى أوامر متداركه متلاحقة. فضرب الشرطى كعبيه.. وانصرف.

وبعد فترة سمحوا لى أثناءها أن ألعب «بالكلبشات» والسلاسل المعلقة على الجدران، لاحت منى التفاتة إلى الطريق فرأيت منظرا عجيبا.. الناظر المخيف، والمعلم الجانى، يتقدمهما الشرطى الضخم الهائل، حاملا الكرسى الأثيم.. وبعد فترة كانوا معنا.

ولايسألنى أحد عن شماتتى وقد رأيت جلادى.. أقصد معلمى.. ماثلا أمام الضابط، يثخنه توبيخا ولعنا وتهديدا، وهو مصفر يرتجف.

وبعد مداولة أخرى، واستعطاف من حضرة الناظر، وتذلل من حضرة المعلم، تهلل وجه الأول إذ استقر الرأى على أن يخصم من الثانى، قيمة مرتب نصف شهر! وشد ما كان عجبى، إذ تهلل كذلك وجه غريمى لتلك العقوبة، بل سمعته يقول:

– عال جدا! إذا كان حضرة الناظر يعترف بالنصف الثانى.

أما أنا، فلم أعد إلى تلك المدرسة.. طبعا!!

د. قصص لم تنشر فى مجموعات:

١- صح: نشـــرت بمجلة (الفنون) عـــدد ٤، ٥ فى ١٩٢٤/٩/١، ص ١٤-١٧.

٢- قصة زواجه بسعاد: نشرت بمجلة (الفجر) عدد ٣ فى ١٩٢٥/١/٢٧، ص٤.

٣- الأســتــاذ: نشــرت بمجلة (الفــجــر) عـــدد ٨ فى ١٩٢٥/٣/٦، ص ٣.

٤- مكتب عبداللطيف القطب: نشرت بمجلة (الفجر) عدد١٣ فى ١٩٢٥/٤/١٠، ص٣.

٥- قصة غير كاملة: نشرت بمجلة (الفجر) عدد٤٩ فى ١٩٢٥/١٢/١٣، ص٣.

٦- فى وش الفــجــر: نشــرت بمجلة (الاثنين) عـــدد٢١ فى ١٩٣٤/١١/٥، ص٦.

٧- ســعـــاد نمره٢ نشــرت بمجلة (الاثنين) عـــدد٢٤ فى ١٩٣٤/١١/٢٦، ص٦.

٨- مطلوب جنيـــه: نشــرت بمجلة (الاثنين) عـــدد ٢٨ فى ١٩٣٤/١٢/٢٤، ص٦.

٩- بوســتـــة: نشــرت بمجلة (الفكاهة) عـــدد٣٧٢ فى ١٩٣٤/١/٩، ص٦.

١٠- لأيعنى لأ نشـــرت بمجلة (الاثنين) عـــدد٣٢٨ فى ١٩٤٠/١٢/٢، ص١٠.

١١- ما لم أقله لأحد: نشرت بمجلة (الهلال) ج٥ سنه٥٣ فى سبتمبر وأكتوبر١٩٤٥، ص٧٠٥.

صح

فى حـارة س... منزل نصف. يعـرف بين أهل الحى بمنزل (الخـوجـه)، وفى الطابق الأرضى منه غرفة مزدوجة المنفعة، فهى غرفة استقبال الزائرين: قد صفت إلى جانبيها بعض مقاعد ضخمـة من الطراز التـركى، وغطيت حوائطها بالعدد الكثير من ألواح الآيات القرآنيـة، والصور الفوتوغرافية، والمناظر التمثيلية الزاهية الألوان، بعضها إلى جانب البعض دون أى ذوق فنى: فترى «هملت «جاثما إلى «البسملة» كأنما نسى ثأر أبيه فى حراستها».. وترى «أمنريس» تنظر شذرا إلى رب البيت لا إلى «عائده»، وما إلى ذلك من صنوف الخلط الذى يدعو إليه تماثل الأوضاع.

والغرفة أيضا مكتبة البيت، قد وضع فيها مكتب متوسط العمر والحجم فى نهايتها المقابلة للباب، وخزانة كتب إلى يسار الباب نفسه، قد احتشدت فيها طائفة من الكتب القيمة أمثال الأغانى ونفح الطيب واللسان، وأخرى عادية بين مدرسية، وأرض هذه الغرفة مفروشة بسجاد من مخلفات الست الكبيرة، ربعة البدن، كلحت ألوانه فى مواضع، وافتضح سر سداه ولحمته فى مواضع أخرى.

ورب البيت مدرس يعلم الحساب فى بعض المدارس، اسمه صالح أفندى، هو شيخ فى نحو الخمسين، ربعة البدن قليل نتوء البطن، ذو وجه أبيض ضارب إلى الحمرة، لم تنل الأيام من ضخامته إلاقليلا، وكان كثيرا ما يزهو بذلك ويباهى باكتمال صحته عازيا ذلك إلى قمع شهواته وكبح جماح شبابه.

وما كان شيخنا مزيفا فى ذلك أو مبالغا، فقد عاش فى الحى أكثر من خمسة عشر عاما كان طوالها نموذج الرجل الكامل المهذب الرزين، ولم يكن له من متاع لنفسه غير شيشة يدخنها عصر كل يوم فى قهوة على ناحية الشارع العمومى، حيث يجتمع بنفر قليل من أترابه، قد أنسوا وأنس بهم منذ زمن بعيد، فهناك يتفاكهون ويتذكرون الماضى، ويتباحثون فى الشؤون العامة فى هدوء ووقار حتى تحين المغرب أو بعدها بقليل، فينصرف كل إلى داره. وفى أصيل يوم جمعة -وكان أول يوم جمعة بعد انقضاء السنة المدرسية -كان صالح أفندى جالسا إلى مكتبه فى ثياب البيت: جلباب أبيض وطاقية بيضاء فى استدارة الرأس: وكان وقتئذ يجيل بصره، من فوق منظاره

الذهبى، فى أكداس أوراق امتحان الحساب التى أمامه، وكان السأم باديا على وجهه، ذلك لأنه قد أكب على مراجعتها ثلاث ساعات متتاليات ولم يأت على أكثر من نصفها. وكان حتماً عليه أن ينتهى منها جميعها فى ذلك اليوم؛ لأن حضرة البيك الناظر قد أعطى الأوامر المشددة بذلك، فهو إذن يحاول جهده للتغلب على سأمه ليستأنف العمل، ولكن هيهات!! فإن الباعة: من ذى نفير وذى حنجرة كالنفير وأصوات بعض صعاليك المارة وهم يرددون أنكر الألحان بأنكر الأصوات، وصراخ الصبية الذين كانوا يلعبون كرة القدم على مقربة من المنزل -كل هذه جعلت العمل متعذرا.

وفيما كان يتلهى بإعادة ترتيب الأوراق التى تمت مراجعتها، ومقارنتها بالكم الباقى، إذ بنقرات على باب الغرفة ودخل شاب فى نحو الخامسة والعشرين فهش صالح أفندى لمقدمه وابتدره بقوله:

- أنت هنا يا أبا عوف؟! كنت أظنك خرجت كعادتك!

ولو أن ثالثا حضرهما، ولاحظ اكتمال الشبه بين جبهتيهما فى اتساعهما وانبطاحهما، لغلب على ظنه أن أباعوف هذا ابن ذلك الشيخ، ولكن الحقيقة أنه ابن أخ له مات ولم يفرط الابن عقده الأول، كانت زوجة صالح أفندى ماتت أيضا قبل ذلك بعامين، ورأى لم الشتات، فتبنى اليتيم، واتخذ من الأرمل زوجا..

وكما ورث عبدالرحمن عن صلب العائلة تلك الجبهة العريضة المنبطحة، كذلك ورث عن والدته عينيها الواسعتين المشرقتين، وقوامها الممتشق، كانت تعلو سماحة وجه الفتى وقتئذ مسحة من الاكتئاب، حاول إخفاءها حين أجاب الشيخ بقوله:

- كلا يا عمى، لم أخرج، ولكننى كنت أعد أهبتى للسفر غدا. فبدت الدهشة على وجه صالح أفندى، فمد يده إلى نظارته فانتزعها، وطوح بها على المكتب برفق، ثم قال:

- تسافر غدا؟ ما معنى هذا! أجلس وأخبرنى.. هل ألغيت أجازتك، أم ماذا؟

فجلس عبدالرحمن على مقعد ملاصق للمكتب وقال بمزاح متكلف وبشاشة مفتعلة: أننى سأسافر إلى الإسكندرية لمجرد تغيير الهواء.

وجاءت فترة ساد فيها الصمت، وكان صالح أفندى أثناءها يحدج نظره إلى الفتى كأنما يريد أن يقرأ صحيفة نفسه جلية واضحة، واتقى الفتى هذه النظرات ببعض حركات جاءت عصبية مضطربة. وما عتم العم أن هز رأسه فى بطء، ثم استغفر الله استغفارة من أعماق قلبه وقال:

– يا عبدالرحمن! أنت ابنى الأوحد، والمثل السائر يقول: إذا كبر ابنك خاويه، وها أنت ذا كبرت، وصرت مهندسا، وعركت الحياة العملية مدى عامين، لذلك سأصارحك، وأطلب إليك أن تصارحنى، فنظر إليه الفتى نظرة من يحاول التنبؤ بما سيكون، وتمتم قائلا: ستجدنى عند ظنك بى.

قال الشيخ: إنك ستسافر، لالتغيير الهواء، بل لسبب آخر لم يخف على.

فسرت فى جسم عبدالرحمن قشعريرة حادة، أبردت لها قدماه، وزدادت ضربات قلبه. فعض شفته ضبطا لحواسه، واستجماعا لقوته، وبادر فقال بصوت يكاد يكون مرتفعا: أى سبب تعنى يا عمى؟ فقال الشيخ: السبب.. هو الخلاف.. أو سوء التفاهم.. أوسمه كيف شئت، الذى بينك وبين دولت..

فاستشعر عبدالرحمن الطمأنينة تدب إلى نفسه، وأطرق إلى الأرض فقال: كلا.. مطلقا.. ليس هناك خلاف أو سوء تفاهم..

وتناول العم نظارته وأخذ يقلبها بين أصابعه شأن من يشعر بأنه قادم على موضوع دقيق وبعد هنيهة قال: لا. لا. تلك الحقيقة قد تبينتها منذ أكثر من أسبوع.. لاأخفى عنك يا ولدى أننى قد تزوجت هذه الفتاة غدوت مرهف السمع. حديد البصر، فأنا أرى أدق حركات الناس، وأسمع همسهم فى هذا الصدد. لقد كنت أريد أن أذهب إلى طنطا لأتفاهم معك، ولكن لم يتيسر لى ذلك، فاكتفيت بالخطاب الذى أرسلته لك، وبالكلمات الطيبة التى رددت على بها.

فقال عبدالرحمن: ثق يا عمى أننى إنما كتبت إليك وقتئذ بخالص رأيى دون مجاملة أو خداع نفس وأننى..

فقاطعه صالح أفندى قائلا: لا. لا. دعنى أتكلم، فالكلام يزيح عن نفسى عبئا آذنى طويلا.. –أنت تعلم أنه لما ماتت والدتك– رحمة الله عليها– انتويت عدم الزواج ما حييت، وظللت على عهدى ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات ذقت فيها الأمرين من وحشة الدار وارتباك العيش...

ثم حدث أن صادفت والدة هذه الفتاة، وكنت منذ كنت فى دمنهور، فأنهت إلى خبر موت زوجها، وكان من أعز أصدقائى، وأشارت من طرف خفى إلى حرج مركزها المالى، وأظهرت

رغبتها فى أن تضع ابنتها فى رعايتى.. وبعد إقبال وإحجام، وحرب قامت فى نفسى كنت أنت محورها. وكان خطابك رسول السلام فيها... فتزوجت منها.

ثم تضاحك وقال: أو ما ترى أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قد تزوج من عائشة ولم تعد بعد سن الطفولة.

وسكت الرجل ليفيض بحاجته، فأسرع عبدالرحمن بإيقاف ذلك السيل الكلامى الذى كان يهدد بالازدياد والاستمرار. فقال بأدب وتلعثم: وحياتك يا عمى، إننى ما تألمت مطلقا من أمر زواجك هذا ؛ لأننى ما شككت لحظة فى صدق محبتك لى، واحترامك ذكرى والدتى..

فأبرقت أسارير صالح أفندى وقال: عال. عال. بارك الله فيك يا ولدى.

وتضاحك ثانية، ثم قال: والآن، أرى أن لاداعى للسفر، أليس كذلك؟

فقال عبدالرحمن: بل أنا مازلت مصمما عليه، ومن هنا يتضح لك أن لاعلاقة بين سفرى وبين موضوع حديثنا.

فاكتأب الشيخ، وقال فى لهجة العتاب: إن إصرارك هذا يؤلمنى يا أباعوف.. اذهب. . اذهب. وفكر فى الموضوع.

فتحركت شفتا الفتى كأنما أراد أن يقول شيئا، ولكنه سكت، وقام فجأة وقد علا الدم إلى وجهه، ثم غادر الغرفة بخطوات متثاقلة وهام منكس.. وجعل العم يشيعه بنظراته من خلال نافذة تطل على صحن الدار حتى غادر المنزل وأوصد الباب خلفه..

وجاء الليل فأدخل أهل الحى مساكنهم، ونشر على الحى السكينة، وكان صالح أفندى قد عاد بعد العشاء إلى ما كان عليه من مراجعة الأوراق يعمل فيها قلم الأحمر بهمة ونشاط.

ووافت الساعة العاشرة، فأعلنت مقدمها ساعة ثبتت فى صدر (فسحة) الطابق الأعلى، فنبهت دقائقها الجوفاء الرهيبة دولت هانم، وكانت إذ ذاك جالسة على كنبة بغرفة استقبال الزائرات على مقربة من إحدى نوافذها، وكان التفكير غلبها على حسها ففقدته حيناً.

أفاقت فمسحت بيدها الرخصة الصغيرة بعض دمعات أفاضها الأسى، وأوشك أن يجففها النسيم وزفرت زفرة حارة صدرت عن فؤاد ملتهب، ثم صارت بخطوات المتعب المجهود إلى نافذة تطل على فناء الدار، وقالت تخاطب زوجها:

– أما تنتهي يا أفندى

فأجابها بهدوء دون أن يرفع رأسه:

– سأنتهي بعد قليل اذهبي أنت فاستريحى

فأسندت رأسها إلى حافة النافذة مليا. وأرسلت بصرها يستطلع حال عبدالرحمن. وكان فى غرفته، وكانت مضاءة. فألفته مستلقيا على فراشه، وقد سقطت على صدره صحيفة كان يقرأها وبعد تردد ونظرة اختلستها إلى نافذة الغرفة التى كان بها زوجها اجتازت الفسحة إلى غرفة الفتى.

أنس عبدالرحمن وقع أقدامها. فأفاق ونهض واقفا وقد اشتد خفقان قلبه، ولكنه أسرع فقال:

– من بالباب؟!

فأجابت بصوت خافت كان يظهر فيه التلعثم:

– أنا. هل أنت نائم أم مستيقظ؟

فبردت أطراف الفتى، وتزايدت ضربات قلبه، وأوشك أن لايحير جوابا، غير أنه استجمع قواه وقال:

– بل مستيقظ.. تفضلى..

وفتح الباب.. فدخلت. فأغلقه خلفها.. وضمت الغرفة فتى وفتاة.!

قالت وهي شاحبة كتمثال من الشمع:

– ظننت النوم أخذك إلى غرة منك.. فجئت أنبهك..

فأطرق الفتى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة وقال: مرحى. وأوشك أن ينقطع مجرى الحديث لولا أن أسرع فقال:

– هل صعد عمى.

– لا

– كنت أود أن أحادثه مليا قبل أن ينام.

وجلست دولت إلى مقعد من الخيزران أمام نضد عليه كتب وبعض أدوات التواليت، وجلس هو على حافة السرير.

ثم قالت: أظنك تريد أن تحادثه فى أمر سفرك.. ألم تعدل عنه بعد.؟

فهز أكتافه فى امتعاض وقال: لا.

قالت وكاد يخونها تجلدها: قال لى عمك ونحن على العشاء إنك مسافر، لأننى لم أحسن معاملتك.. (ثم تهدج صوتها) وإننى أؤكد لك أننى لم أقصد إيلامك أبدا. أبدا..

ومالت إلى النضد. فأخفت وجهها بين ذراعيها وأجهشت بالبكاء. أما عبدالرحمن فأحس بقلبه يتمزق. غير أنه ضبط مشاعره وكلف وجهه الإشراق. وتقدم إليها فى رفق، وقال كأنما يداعبها: أنت عبيطة. وعمى واهم. وقد حسبت أننى أقنعته.

وقالت وهى تشرق بدمعها: إذن فلماذا تسافر؟

هنا ثارت نفس الفتى ثورة حطمت فيها أغلال الصبر. وقال بصوت وهو يشعر بتشنج فى عضلات فمه:

– تسألينى عن سبب سفرى؟! أنت تتجاهلين! دولت، أنت وحدك تعلمينه.. أراك لا تجسرين على الصراحة وهأنذا أفض إليك مغالق قلبى. أبوح لك بذلك السر الدفين الذى مزق كتمانه فؤادى. دولت. إنما يحفزنى إلى مغادرة هذا المنزل حبنا المتبادل وحرمة ذلك الشيخ الوادع الذى تضمنا داره ولاتفصلنا عنه الآن غير أرض هذه الغرفة.

فرفعت الفتاة رأسها وقالت: الحذر. اخفض صوتك.

وتابع الفتى كلامه كأن لم يسمع من كلامها شيئا. قال:

– دولت. لقد أحببتك منذ التقى بصرى بمحياك السمح الجميل. حبك يزداد. بل يندلع فى قلبى اندلاعا. وتبينت حرج مركزى.. فوقعت فى حيرة من أمرى. غير أنى ملكت ناصية عواطفى الجامحة. وخشيت أن تسرى إليك عدواى. فعمدت إلى الخشونة معك. تلك الخشونة التى حسبها عمى نفورا وسوء تفاهم.. ولكن..

وفجأة قطع حديثه وتقدم إلى باب الغرفة فتسمع. فلم يسمع شيئا ثم عمد إلى النافذة فرأى الغرفة التى بها عمه لما تزل مضاءة. وما كاد يلتفت إلى دولت حتى قالت فى لهفة:

– أهو صاعد.

– لا. إنه لازال يعمل. يا للرجل المسكين!!

ثم استأنف اعترافاته فقال:

– أقول. أقول: نعم. ولكن نظرة واحدة من عينيك الساحرتين أول من أمس. على أثر شجارنا أفضت إلى بجملة سرك الهائل. فتلاشت قواى. على التو. وجمحت عواطفى وجمحت. على أننى برغم ذلك ذكرت ذلك الشيخ الذى هو عمى وأبى وأخى مجتمعين. ذلك الشيخ الذى كفلنى أنا وأمى. ذكرت ذلك الشيخ فتضاربت العواطف فى صدرى، ولم أدر إذ ذاك ماذا أفعل. ولكننى حسمت الأمر بعزمى على السفر.. وكانت الفتاة تنصت إليه وهى ساهمة واجمة. قد انفرجت شفتاها واتسعت أحداقها كأنما تنصت إلى وحى لاتعرف مصدره. فلما اصطك سمعها بكلمة السفر ثابت إلى حسها وقالت بحسرة واستعطاف:

– تسافر! وماذا يكون من أمرى؟

فقال الفتى بتؤدة فيها نصح وفيها تهكم:

– تقصين عنك هذه الأفكار الصبيانية. وتعملين جهدك فى أن تعيشى مع زوجك عيشة راضية. فالرجل يحبك. ويبالغ فى إرضائك..

فقاطعته دولت والحزن ينساب فى كلماتها. نعم إنه يحبنى. ويبالغ فى إرضائى. هذا صحيح، وأنا أحترمه من أجل ذلك وأجله. ولكن أهذا كل شيء؟! أهذا كل شيء!!..

فطوح عبدالرحمن يده فى قنوط، وقال: كاد هذا يكون كل شيء فى أغلب بيوتنا المصرية.

فقالت الفتاة بقنوط: ما دام الله قد أراد ذلك. فسأعيش كما أراد. ولكننى سأكون تعسة..

وأجهشت بالبكاء. فتقدم إليها الفتى فطبع على جبينها المبلل قبلة إخاء وعطف.. وما هو إلا أن فعل ذلك حتى فتح الباب فجأة. وظهر الشيخ فى فراغه.

فانتفضت الفتاة واقفة وكادت تهوى ثانية من فرط ما ارتعدت فرائصها. لولا أن أمسكت بقوائم المقعد. وجمد عبدالرحمن فى مكانه كأنه اللص بوغت متلبسا بالجريمة!

أما الشيخ فتقدم تجاههما قليلا. وهو ممتقع اللون. متقد العينين. ولكن ابتسامة غامضة داكنة ارتسمت على شفتيه، وجعل يجيل بصره ما بين الفتى والفتاة. مرددا قوله: ما شاء.. ما شاء الله. ما شاء الله، ومرت لحظات ساد فيها صمت مطلق. وأطرق الجميع. فكان موقفا رهيبا مخيفا..

ولكن ما لبث الفتى أن مزق هذا السكون بقوله: هل سمعت حديثنا؟!

فأجاب الشيخ والابتسامة الغامضة ما زالت تلعب على شفتيه: سمعت الكفاية!..

وعاد عبدالرحمن فقال بصوت أجش: والرأى؟!

فأجاب صالح أفندى بعد فترة. بهدوء مشرب بالحنان: إننى لفى حيرة من أمرى. أكاد أكذب سمعى وبصرى. ولكن الله سلم. وأنقذنا جميعا من سلسلة أغلاط مآلها الفضيحة والعار. أنا أعلم أن التبعة لاتقع عليكما وحدكما. بل أنا ثالثكما فيها.. فناما وغدا يفعل الله ما يريد.

وزايل الشيخ الغرفة. وسمعا وقع أقدامه على السلم. ثم نظر كل منهما إلى الآخر نظرة ملؤها الدهشة، وسارت دولت إلى مخدعها بخطوات ميكانيكية. وارتمى الفتى على فراشه.

وما كاد صالح أفندى يبلغ مقعده حتى تهالك عليه خائر القوى ثم ركز ذراعيه على إفريز المكتب وأسند رأسه إلى راحته. وقامت بين جبينه ثورات وشبت حروب. ولكنها هدأت أخيرا. ورفع الشيخ رأسه وهو يقول الشابة للشاب. «ذاك قانون الفطرة».

وشخص ببصره فى الفضاء هنيهة، ثم عاد فأمسك قلمه الأحمر، وكتب «صح» على أول إجابة وقع عليها بصره.

قصة زواجه بسعاد

– أنا حطيت صباعي في الشق!

– حتى إنتى كمان يا نينه؟!

– وأنا يا محمد يا إبنى بايدى أيه؟ أنا اللى قدرنى عليه ربنا عملته.. واللى جرالى إمبارح لايقال ولايحكي. أول هام الست سعاد بسلامتها ما قابلتنيش. وفضلت قاعدة أكلم أبوها وأفكره بزمان أيام ما كان كل ما يشيعنى يقول لى أهلا بحمات بنتى. وأمازحه من هنا ومن هنا، انك يادى الراجل تختشي وتحسر على عرضك. أبدا. وفضل يكلمنى كلام أبصر متلغبط إزاى، ما عرفت له رأس من رجلين..

– بس قال لك إيه مش تفسرى؟!

– أنا عارفه بقى. أهو ساعة يقول: كل شيء قسمة. وساعة يقول: ياست أم محمد خلى كل واحد يشوف مصلحته. الدنيا مش لعب صغار..

– صغار إيه وكبار إيه المغفل ابن الكلب.

– شويتين واحنا قاعدين كده، إلا والبيت هاص وظاط وانقلب على رجل.. آل أين سيدنا العريس جه. راح لك الراجل فايتنى نزل يقابله وحده فى ميت أهلا وميت سهلا لحد ما بقيت حسه نفسى السمسمه. يختى النبى حضر.. على أيه آل يا مستكتر الدنيا أكتر.

وكان ذلك فى ضحوة يوم جمعة من أيام يناير. والبرد قارس شديد. وكانت الأم جالسة على «شلته»، وقد اعتصمت من البرد بشال أسود كبير لف رأسها، فرقبتها، فمنكبيها، و«بدفاية» أمامها مولدة. وقد انتثرت حولها معدات «الكمشان» من المنفاخ والمشا إلى الكنكة وعلبة بُن وبرطمان المُغات وما إلى ذلك، وكان محمد جالسا إلى يمينها فوق كنبة قد جار عليها الزمان، كما جار –بعد موت الوالد– على البيت وأهل البيت وكل ما فى البيت. ومحمدنا هذا الشاب فى نحو الثالثة والعشرين من عمره يعد بين الشباب مليح الخلق أنيق التكوين. وهو يدرس الطب وكاد يتخرج فيه. فلم يتبق عليه إلا عام أو بعض عام.

وقد أحب «سعاد» منذ كانت طفلة، وقد أتاحت الظروف لهذا الحب أن ينمو وأن يزكو وأن تنشب جذوره فى فؤاده. وكان كل متصل بالأسرتين يعلم أن سعادا لمحمد. ومحمدا لسعاد. وكان الصغيران مغتبطين بهذه البشرى يخفق لها قلبهما من طرب وفرحة. ومن ثم كانت استماتة الفتى فى تحصيل العلم وتفوقه على أقرانه. ومن ثم كان إشراق وجهه ونشاطه. ومن ثم كان اعتداده بنفسه ووثوقه بالمستقبل، يود الفتى لو أن يستبق إليه الأيام أو يقفز إليه قفزا.

ولكن...

ولكن الدهر قلب...

فقد مات والد محمد وقد كان محاميا. وكان ذا اسم ضخم وصيت عريض. اقتضب الموت حياته العاملة الموفقة على غير انتظار. فخلف وراءه أرملة ويتيما. ليس لديهما لمعاشهما شىء كثير. فهوى مستوى الأسرة من ناحية المادة، غير أن الأرملة واليتيم وقفا فى وجه الدهر بشمم وإباء قاوما عجلة الأيام السريعة الدوران الشديدة الوطأ. ومحمد فى كل ذلك كفاح شديد الأمل فى المستقبل. واثق من أن الغلبة له، ذلك لأن مركزه فى أسرة سعاد لم يتغير ولأن سعاد كانت تحبه....

ولكن....

ولكن الدهر أمعن فى ظلم الفتى. فأوقفه حيث يتضح من حواره مع أمه. لقد تنكر له والد الفتاة ونكث بعهده.

وماذا يرغمه على أن يبريه؟! بل لماذا لايتنكر ويحدث ما دام له فى ذلك نفع ومصلحة. ماذا يهمه من أمر فتى هو للآن ألعوبة فى يد المستقبل لأنه يحب الفتاة. أو لأن الفتاه تحبه.. «بلاش هجص فارغ» إن بنته ملك له، وله وحده مطلق التصرف فى أمرها...

هس...

عليك أن تذعن...

إنه سيزوجها من رجل من أغنياء الريف. له الضياع. وله الخدم والأتباع. عمره ضعفا عمرها.. لايهم.. مشاربه ليست من مشاربها.. حديث خرافه.. فسيكون له منه جاه وعضد وموئل...

وتزوجت سعاد من ثرى الريف

ومضت خمسة أعوام. وقد تخرج محمد فى فنه وحذقه. وأصبح له اسم ضخم وصيت عريض كما كان لأبيه من قبل. على أنه لم يعلم بعد ذلك شيئا عن سعاد وأسرتها. وكان يتعمد ذلك...

وأنه لجالس يوما فى عيادته، وإن «التمرجى» قد دخل عليه وهو يقول:

- واحدة ست تكلمت دلوقت فى التلفون عاوزه سعادتك فى الزيتون... وبتسترجى سعادتك إنك تشرفها فى أقرب وقت.

وقدم إليه ورقة فيها اسم الشارع ونمرة المنزل.

- طيب. طيب. فكرنى بعد ما تنتهى العيادة...

وانتهت العيادة فركب الدكتور سيارته وأخذ سمته إلى المنزل المقصود. فلما بلغه استقبله عند الباب الخارجى خادم نوبى عجوز وعجباً أنه «عم إدريس» خادم بيت سعاد القديم. وما هو إلا حوار قصير حتى علم بالمفاجأة المدهشة وإذا المريض هو الرجل البغيض الذى حطم أكبر أمانيه وسبب له الحزن الدفين المقيم.

وصعد به النوبى إلى غرفة الاستقبال. ثم تركه ليعلن مقدمه فارتاح الدكتور إلى هذه الخلوة عله يتغلب أثناءها على عواطفه الثائرة المتضاربة، وعله يخلد فيها قلبه إلى الهدوء. وبينما هو يجيل بصره الحائر فى أرجاء الغرفة؛ إذ رأى على أحد الجدران فى صورة فوتوغرافية عرف على الفور أنها صورة سعاد. وكيف تغيب عن ذهنه ملامحها مهما تراكمت به السنون. فثبت أمامها شاخصا واجما وخيل إليه أنها لم تتغير البتة، اللهم إلا أن غادرتها نظرات الطفولة الساذجة، وبدت فى عينيها نظرات المرأة «ربة البيت». ومضت دقائق حسبها ساعات، وكادت الذكريات الأليمة تنسيه موقفه.

وأخيرا سمع صوت حفيف ثياب ووقع أقدام، فالتفت إلى باب الغرفة، وإذا بسعاد فى فراغه وقد سترت رأسها ونصف وجهها بغلالة بيضاء ثم ابتدرته بتحية خافتة فرد التحية بأدب واحتشام.

وقالت سعاد فى تلعثم: - لامؤاخذة إن كنا أقلقنا راحتك.

فأجاب محمد بتؤدة حاول بها إخفاء اضطرابه: أنا يا هانم.. بحكم مهنتى.. ملزم بكونى.. ألبى أى طلب...

قالت سعاد وقد تهدج صوتها: بابا عيان خالص. وده اللى خلانى اتجاسرت على كونى أندهك.

فقال الدكتور: أنا طبعا سأبذل كل جهدى معاه، وأتمنى أن ربنا يشفيه... فين هو؟

فقادته إلى حيث كان المريض يئن ويتوجع. وكاد ينكره محمد لفرط ما حاق به من التغير. فقد غارت عيناه، واصفر لونه ،وتجعد وجهه، وهزل جسمه.

وبعد أن أتم فحصه وكتب لها العلاج وأوضح لها طريقة استعماله، غادر الغرفة فخفت له، فابتدرته قائلة:

- إيه رأيك يا دكتور... فيه خطر. فتردد. وهز كتفيه. ثم قال: كل ما أقدر أقوله لك... إن يعنى.. حالته مش بسيطة على كل حال... خليكى جنبه.. وو.. ادى له الدوا فى مواعيده لحد ما أجى تانى.

- وإن طلب شيء.. زى فاكهة أو حاجة كده...

فأجاب بلهجة غير المكترث: بس مش كتير.

وبعد فترة صمت وإطراق قالت سعاد: اعمل معروف خد بالك من بابا لحسن.. ما يقاليش حد غيره فى الدنيا...

فقال الدكتور دهشاً: مايقالكيش حد غيره إزاى؟؟.. وو.. ثم تلعثم فأنهت إليه المسكينة أن زوجها قد طلقها بعد أن أذاقها الأمرين مدى عامين ونصف وأن ابنها قد مات منذ عام.

وبعد فترة أخرى من صمت وإطراق أخرج الدكتور ساعته فنظر إليها ثم ردها إلى جيبه. ثم انصرف وهو يعجب للأقدار كيف كان موقفها من هذه الأسرة ذلك الموقف الدقيق...

وما كادت تبزغ شمس الغد حتى وافاه الخادم يحمل إليه رسالة تليفونية تستقدمه فيها سعاد على جناح السرعة. فذهب فإذا المريض بين براثن الموت. وما هى إلا دقائق قضاها محمد وهو واقف إلى جانب الراحل، ممسك بمعصمه حتى أدار ظهره إلى السرير فى بطء ونكس رأسه...

لقد مات الرجل...

وأصبحت سعاد بعد موت أبيها وحيدة فى الحياة. فأخذ محمد يتردد إليها ويكثر من زياراتها. حتى لقد أصبحت تشعر بانقباض إن هو تغيب عنها يوما.

وفى ذات مساء بينما كانا يتذكران الماضى، وكانت سعاد تستميحه المعذرة لها ولأبيها، جاشت عواطف محمد، حطمت كل قيد. من تجلد ومكابرة، فأمسك بيدها فضغط عليها وأنهى إليها منتهى أمله...

فأطرقت برأسها إلى الأرض وقد ابتسمت ابتسامة فيها خجل وفيها رضاء وقالت...

«أمرك...»

الأستاذ

تبتدئ قصتنا وأستاذنا واقف أمام دكان عطار أزهرى النشأة، هجر الشروح والمتون، إلى تجارة الكسبرة والكمون، والجبن والزيتون، وأنه لشيخ قد نيف على الخمسين، وكأنما أراد أن يحتفظ بتذكار من صباه، فاحتفظ بجسمه وقوامه أيام كان فى الخامسة عشر، فهو ضاو قصير نحيف. غير أن هامته أبت الاعتداد بهذه الذكرى، فجعلت تكبر وتتضخم حتى ليخيل إلى الرأى أن حملها أتعب رقبته الرفيعة المجعدة فبدت شرايينها وظهرت عروقها. ويتقدم هامته تلك وجه نحاسى مضحك فى دمامته. انتشرت فيه آثار الجدرى، وهى أظهر ما تكون فى أنفه، وأظهر ما تكون من أنفه فى أرنبته المتدلية...

وكان الشيخ يخاطب الأستاذ فى حدة وجرأة.. يحملق بعينيه، ويلوح بيديه، وينفض انتفاضات عصبية عجيبة، حتى لكأنه أحد أبطال «الأراجوز».. وما كان لكل ما أوتيه س.. من قوة فى المحاجة، وطلاقة فى اللسان، وقدرة على التهويش -عند الاقتضاء- أن تغنى عنه شيئا حيال الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التى كانت تتحدر من فم الشيخ لإثبات أن «الشكك ممنوع، والزعل مرفوع والرزق على الله!!..»

وبعد هنيهة تشاغل فيها الشيخ بتنظيف كفة الميزان، وقفل صندوق البن، ووضع علبة «الينسون» مكانها، رجاء أن يهدأ ثائره، عاد فقال:

- شوف يا ابنى، شوف يا خويه، شوف يا حبيبى.. أنا مش بنقول لك كده علشان شىء لاسمح الله.. أبدا أبدا ورب الكعبة -بس حضرتك ورينى شىء يدلنى على أنك.. يعنى.. ولامؤاخذة.. موظف هنا ولاهنا... أو أن لك مصدر خاص، أو شيء من القبيل ده فأطمئن و.....

فضاق صدر الأستاذ بهذا الإحراج وقال له مغضبا:

- ما فيش كلام من ده يا عزيزى... أنت لك أنك تطالبنى بس.. ما لكش إنك تطلع على أسرارى.. دى حاجة عجيبة جدا!!

وجاء الأسطى جاد الطاهى يطلب «حبهانا» فانتهز س. هذه الفرصة وانصرف..

– مالك عوجها شمال كده يا عم الشيخ رمضان؟؟!

– شمال إيه، ويمين إيه يا أسطى جاد. دى ما بقتش عيشة.. القلوب ضلت، والرحمة ارتفعت.. والحالة بقت زفت فى زفت.. نسأل الله منها السلامة!!

– بس على إيه كده ده. روق كده وخليك دكر.

– بالك الأفندى المعتبر، اللى خبطك كتف ساعة ما جيت؟ بسلامته عامل أديب ومتعلم ونازل فى شكك لحد ما أرب يجمد عنده نص جنيه...

– أهو كل أفنديات اليوم على دى الحال.. يعنى هو راح يجىء أحسن من عاكف بك اللى أكل على ماهية شهرين، وحب فى الآخر يعملنى حرامى...

وأخذ الشيخ رمضان يقرطس الحبهان وهو يقول:

– والأدهى من كده.. وادى شويه كمان علشان خاطر عيونك.. والأدهى من كده، أنه عاوز يوهمنى بالعمارة اللى هو ساكن فيها.. مع أنى أتحريت واستقصيت لحد ما عرفت أنه مش هو المستأجر الحقيقى.. بل إنها بتاعت واحد صاحبه محامى، سافر الإسكندرية يتفسح، وسبها له اليومين دول.

– يا سلام... ياما الحيطان مداريه.

وأخذ الأسطى جاد حبهانه وسلم وانصرف

* * * *

أخذ الأستاذ س... سمته إلى منزله، أو كما أظهر تحرى الشيخ رمضان واستقصائه، إلى منزل صديقه الغائب بخطوات متثاقلة، وهام منكس، وقد ضغط ما كان معه من الجرائد تحت إبطه ووضع يديه فى جيبى سرواله... يا للشباب المطيع، يذوى وهو يتسكع!! يا للكفاءة المغفلة، تثور وهى معطلة!! يا للأمانى والآمال تطمح إلى المثل الأعلى، فيأبى الدهر إلا أن يوثقها بالفقر، فتهوى إلى الدرك الأسفل!!

تلك بعض الأفكار التى كانت تتضارب فى رأس الفتى منكس لها رأسه. وذلك كان بعض الحمل غير المرئى الذى أراد ظهر الفتى، فأثقل خطاه...

وبقلب ملئ، ومعدة خاوية، وصل س إلى حيث كان يريد.. ولكن خطر له آنئذ أن يوقف المهزلة، فلايصعد إلى دار ليست له. وأن يهيم على وجهه احتقارا للدهر واستهتارا بتعسفه واستنكارا لسوء تصرفه.. ولكنه العقل أهاب به، فأطاع، فصعد السلم بطيئا بطيئا بطيئا... وما هو إلا أن بلغ «الشقة» حتى لمح عامل البريد ينهب السلم نهبا، وسرعان ما كان معه.

– حضرتك س... أفندى

– أوه يا عزيزى

– لامؤاخذة، حاكم أنا استلمت من يومين كده، تلاقينى لسه ما حفظتش الأسماء... اتفضل امضى هنا..

وقدم له شريطا من الورق عرفه س.. فأمضاه فسلمه العامل خطابا وكتابا ثم انصرف.. وتبادر إلى ذهن الأستاذ أنهما من صديقه، ولكن شد ما كانت دهشته حينما رأى فى الركن الأيسر من الغلاف طابع كلشيه باسم «مجلة...» وكان قد شاع بين المشتغلين بالأدب منذ حين خبر اعتزام بعض المثرين على أظهارها، فأسرع ففض الغلاف وإذا بخطاب يجلله نفس الطابع الذى على الظرف، يطلب إليه فيه صاحب المجلة –بعد تحية بالغ فى أناقة تدبيجها حتى سخفت– أن يتفضل بتعريب سلسلة الروايات المرافقة «بقلمه الفياض وأسلوبه الرائع الفذ ليزدهى بها جيد المجلة...»

«قلمى الفياض؟ وأسلوبى الرائع الفذ؟؟» ودار بخلد الفتى أنه لابد أن يكون هذا الثرى قد تتبع حركة الأدب بإخلاص ومحايدة، وقرأ مقالاته ورسائله فدرى قدره... ثم تتبع قراءة الخطاب فإذا ببعض شروط خاصة بالمسألة المالية وتقديم «الأصول» ورجاء أن يبلغ الإدارة رفضها أو قبولها.

وكا ما يزل فى رأس السلم، فهبط، فذهب إلى الشيخ العطار، فدفع إليه الخطاب بكبرياء غير المكترث وقال:

– بقى أنا يا عزيزى ما أحبش أعمل بروباجندا. يعنى إعلان عن نفسى، ولكن مادامت الحالة حصلت إنك تخلف من إنك تعاملن، وتشك فى أمرى، خد اقرأ!!

فتناول الشيخ الخطاب ورفعه إلى عينيه حتى لامس أنفه، وجعل يتلوه بصوت عال ولهجة متعثرة، فلما فرغ تهلل وجهه وقال: هو أنا كنت بكلمك علشان فكرة بطالة لاسمح الله.. لاورينا اللى يعز ويذل أنا يا أستاذ قصدى صالحك، علشان الدين –كما جاء فى الحديث الشريف– «هم بالليل

وذل بالنهار».. أما فلوس إيه ويتاع إيه دى حاجات لا أول النهار ولا آخره.. و.. فقاطعه س.. بقوله: أنا عاوز دلوقت واحد أبعت معاه الرد يا عزيزى.. علشان مش من اللياقة إنى أروح بنفسى..

فقال الشيخ رمضان على الفور: بالطبع يا أستاذ بالطبع.. واحد من مقامك مش لازم يروح بنفسه.. أنا أذهب لو سمحت..

وما كان «مقام» الأستاذ هو الذى منع الأستاذ، ولكن ملابسه.. فأخذ ظرفا وجوابا -على الحساب- وكتب بضعة أسطر -بالقبول طبعا- وأسرع الشيخ إلى جوف حانوته، فارتدى جبته، وأصلح عمامته، وأغلق خزانته، ثم عاد فأخذ الخطاب ومضى، وجلس أستاذنا فى حراسة الحانوت.

وعاد الشيخ بعد حين، وكان الفتى مسترسلا فى قراءة القصص، وكانت شيقة ودنا منه الشيخ وهو يخب فى أثماله الفضفاضة خببا، والبشر يتألق فى وجهه على الرغم من اعتكار بشرته. وأنشأ يقص عليه ما لاقاه من الإكبار والإجلال من «البيه» حينما علم أنه موفد من قبله، وكيف أنه قام بالمأمورية خير قيام، وكيف أنه اعتذر عنه بأبلغ عبارة وأحسن بيان. وهو يثنى ركبتيه مرة فيزداد قصرا ويقف على أصابع رجليه أخرى فما يزداد طولا حتى لقد كان أشبه بممثل مضحك من الدرجة الثالثة..

* * *

وشرع الأستاذ فى عمله وأكب عليه، وفيما هو يترجم الصفحات الأخيرة لأول «كم» مطلوب جاءه خطاب من صديقه صاحب الشقة يعلمه أن سيمر به فى طريقه إلى «بنى سويف»؛ حيث يستدعيه بعض مصالحه، وفى اليوم المنتظر، وافى الضيف المنتظر... ولكن ما كان أعظم دهشته حينما دخل قاعة المكتبة..!

هو شاب لم يتخط الثلاثين، ستب، دقيق فى كل شيء.. فى ملبسه، وفى عمله، وفى نظام معيشته.. وفى ترتيب أثاثه.. لذلك كان قد ترك مكتبه غاية فى النظام وحسن التنسيق.. وها هو يراه نهاية فى التشويش والفوضى. ألفى مكتبه العزيز ينوء تحت حمل باهظ من أكداس الكتب بين عربية وأفرنجية، حتى ليصعب أن يجد المرء فيه قيد شبر يتسع للكتابة، وما ضاق المكتب به ذرعا: منثور فى أرجاء الغرفة.. وعلى عتبة النافذة «قلة وعلبة شاى ووابور اسبرتو» وعلى مقعد من تلك المقاعد الجلدية الضخمة وضع فنجان كبير، وعلى آخر نشر أستاذنا جاكتته.

– الله. الله! إيه ده يا أخ؟!

فزر س عينيه الدقيقتين، وضم شفتيه، وقد ارتسمت عليهما ابتسامة خاصة به، ثم قال في مجون: مال ده يا عزيزي... بطال!

ولهذه الجملة علاقة بمناسبات مضحكة مرت بالصديق من قبل فضحكا لها، ثم أنشأ يتذكران هذه المناسبات وأشباهها إلى أن تصل الحديث إلى ذكر الخطاب والكتاب «ومجلة...»

عند ذلك حملق الصديق ونظر إلى س. نظرة، وابتسم ابتسامة لم يفهم فتانا حقيقتهما ظن أن صديقه يداعبه، فاضطجع في مقعده، وقال يقلد الممثلين: ما بالك تنظر إلى هكذا يا عزيزي الكونت؟؟

ولكن الصديق لم يضحك بل قال بلهجة جدية: وأخذت الجواب... وترجمت كمان؟!

فحملق الأستاذ، ورفع يده إلى جبهته وقال: طيب والله يا عزيزي أنا ترجمتها ترجمة راح تندهش لها...

فقال الصديق في هدوء:

–أنا عارف الهمم يا أخ.. إنما تعرف الجواب ده كان أصله لمين؟

– أصله لمين؟..

ثم سهم مليا وقال:

–يا خبر زي بعضه.. صحيح يا عزيزي؟!

فقال الصديق متهكما:

– وحياة عيون سعادتك صحيح، وأنا واثق من كده.. علشان هو كان ساكن في الشقة اللي فوقينا وعزل أريب.. شوف أنت اتعديت على حق واحد لمجرد تشابه اسمك باسمه!!

فابتسم س..

وقال:

–دي حاجة مخجلة جدا يا عزيزي..

مكتب عبد اللطيف القطب

الحق الحق أقول لكم إننى قبل أن أفرط العقد الأول من سنى حياتى -كنت لاأتردد لحظة واحدة فى معرفة ماهية أية دكان أمر به.. فكنت إذا رأيت كومة «الحمص» الزاهى الاصفرار، وإلى جانبها كومة أبى العمائم «الفشار» تليها أهرام «اللب» الأبيض والأسمر، والفول السودانى، أيقنت فى الحال أن هذه هى «المقلة»، وأن ذلك الرجل القابع إلى جانبها يدخن ترجيلته فى سهوم ووجوم، هو أحق أهل الأرض طرا «بمصروف» اليوم...

فإذا ما اجتزته، فوقع بصرى على البستلية والكرملة تنقذ إلى ابتساماتها «الحلوة» من زجاج بطرماناتها الأنيقة، فليس لكائن من كان أن تحولنى عن اعتقادى بأن هذه هى دكان «الحلوانى»، وتبينت من فورى ماذا أنا صانع بمصروف الغد...

وحتى فى «العتبة الخضراء»، وفى الموسكى بذاته، ما كنت لأخطئ البته!!.. فكثيرا ما وقفت بغتة مؤكدا لوالدى أن هذا -والنبى- محل «استين»، وإن ذلك -وحياة ربنا المعبود- محل «ماير» فيجذبنى من يدى ولايزيد عن إعجابه بذكائى شيئا!! حتى لقد أتبعه وأنا أتمنى لو أن تدور الأرض بسرعة يأتى معها «أقرب عيد» قبل أن نبعد كثيرا عن هذه المحلات المحبوبة...

تلك كانت حالى...

ولكن...

الحق الحق أقول لكم إن «مكتب عبداللطيف القطب» كان وقتئذ لغز الألغاز عندى!. فكم وقفت أمامه حائرا مترددا، أقرأ تلك اليفطة العتيقة مرارا، وأمعن النظر والفكر فيها تكرارا، فلا تزيدنى قراءتى ولايزيدنى إمعان نظرى وفكرى إلا حيرة وترددا.. لم يكن بها عددا وأخشابا فأقول نجارا.. لا. ولاخرافا معلقة فأقول جزارا.. وليس بها «سجائر من جميع الأصناف» فأعرف كنهها، ولا «جزم رجالى وحريمى» فأستبين أمرها...

آ... ها.. قد تكون مكتبا «كمكتب الشيخ غنيم» الذى كنت فيه!! ولكن.. أين دكة «سيدنا».. وأين قراء العريف؟! أين المقاعد للذين يدفعون «الشهرية».. وأين الحصير للذين يدفعون «الخميس»؟؟ حتى ولافلقة ولامقرعة؟! ولارف ولازير؟!.. إن هذا لكثير..

لم يكن بهذا الدكان سوى «كنبة» كتلك التى فى غرفة استقبالنا، وبضع كراسى من الخيزران، كتلك التى فى صحن دارنا، ومنضدة لها أربعة أرجل كأية منضدة.. ثم لاأكثر! فماذا عساه يكون؟

غير أن الزمن كفيل بحل الألغاز..

فقد أخرجنى أبى من غياهب «مكتب الشيخ غنيم» ليزجنى فى إحدى المدارس الأهلية، وهنالك اتخذت مكانى فى حظيرة ثبتت إلى يمين بابها لوحة توهم بأنها «السنة الثانية»... وإلى يساره أخرى تدعى أنها «الفصل الأول». وكان زميلى فيما سولت نفس «الناظر» له أن يسميها «تختة» تلميذا أطول منى بقليل، كان حسن الهندام إلى حد يستثير غيرة التلاميذ، وكان كثير الكلام إلى حد يستثير غضب المعلمين. اسمه محمد حسنى...

وسرعان ما حدث بينى وبين زميلى هذا ألفة، وسرعان ما تم التفاهم.. فزنّ أثناء الدرس وزننت، وتنتن أثناء الدرس فتنتنت، وما كان ليتفوق على فى غير كلماته الجريئة، وضحكاته العالية المستطيلة..

وحدت بنا ثرثرة الأطفال يوما إلى ذكر آبائنا...

فقلت – أنا بابا على المعاش!

فقال – أما أنا بابا له مكتب.. بالك فين؟. تعرف عوض البسكلتاتى؟

فهززت رأسى بالإيجاب.

– أهو أدامه تمام تمام تلاتى يافطة مكتوب عليها «مكتب. عبد. اللطيف. القطب..»

فحملقت عينى وقلت فى فرح: الله!! طيب دنا أعرفها أوى أوى..

فقال: أهو ده مكتب بابا، وتلاتى يا عم البهوات الكبار يجوله يبيع لهم بيوتهم، ويشترى لهم بيوت تانية، وفدادين وحجات من دى..

وليس ثمت غيرى. وفى هذه السن، يستطيع أن يدرك الفرحة التى شعرت بها حينما انحل أمامى ذلك اللغز الذى طالما تقت إلى حله...!

ثم قال حسنى: وتلاقى بابا يكسب فلوس الدنيا... وأنا يا عم حطلع سمسار زى أبويه!! فسكت. ولم أستطع أن أقول «وأنا راخر عاوز أطلع على المعاش زى أبويه!!»................

وكرت الغداة ومرت....

وكرت العشى ومرت...

ونمت الأطفال فكانت شبابا............

وكلمت الناس، وسمعت ما يقول الناس، فإذا نحن أجمعين من زجاج نعيش فى بيوت من زجاج!! فلا الأخشاب تخفى، ولا الأنساب بمجهولة، ولا دخائل العيش بمستترة، ولا أسراره بمصونة.

ولم يكن عبداللطيف القطب بمحترم كما كنت أحترمه، ولامهيبا كما كنت أهابه، وهو غنى ميسور، ولكن ليس فى الحى من يغبط ثروته ويساره. فهم يقولون إن «حسنين القطب» لم يقنع البتة بنصف الدار التى ورثها عن أبيه، ومازال يحتال على عمته «زهرة» حتى استلب منها النصف الآخر، ويؤكدون أن المرأة الساذجة قضت نحبها نحيبا وأسى عندما تبينت غلطتها.. ومات الرجل كما يموت الناس..

فآلت الدار إلى ابنه «بيومى» -وكان «لبانا»- وكأنما أراد هذا البيومى أن يخرس الألسنة عن سيرة أبيه، أو كأنما أحب أن يموه على الناس شحه الذى ما بعده شح، أو كأنما ود أن يعمى عليهم أنه يأبى الربا مع الأرامل والمعوزات بأسعار وأساليب يحتم عنها «حيين» الحى و«ابرامينه» فتصنع الورع، وتعمد التقشف.. وأتقن دوره!! فأوصله تورعه وتقشفه إلى أن يكون «شيخ الحارة»، ثم ما عتما *أن أوصلاه - بخطوات وقورة وجبهة تزينها «زبيبة الصلا» إلى البيت الذى على رأسه الحاره.. فاشتراه...

ورزق ببنين وبنات، لم تخطئ المنايا منهم ومنهن غير عبداللطيف. فشب، فكان أول من فك الخط وربط الكرفات من عائلة القطب! وكان نشطا جريئا فلم يبلغ الخامسة عشر إلا وهو فى

---

* عتما: لبث

مكاتب المحامين، فنال فى بادئ أمره حظوة لديهم، ولكن مبالغته فى استعمال الصفاقة والتطلع فى ابتزاز «الوهبة» من الزبائن أفسدت عليه مهنته، وإن كانت أصلحت ماليته. فاضطر إلى هجرها.. ومات أبوه، فورث ثمرة ورعه وتقشفه!

ومنذ توارى الوالد -تقول الرواة- حاول عبداللطيف أن يظهر بمظهر «الوجيه» فنجح... ولبس الملابس الأنيقة، والياقة الناصعة.. والأحذية اللامعة.. ثم حاول أن ينتسب إلى بعض العائلات، وسعى لذلك جهده... فخاب..

وتزوج من إحدى قريباته.. ولما لم يبق ثمة ما يمنعه من الرجوع إلى شخصيته الأولى علق تلك اليافطة التى طالما وقفت حيالها حائرا مترددا، وأفرغ قصارى نشاطه وجرأته لجمع المال. وجعل يتشبث بأذيال الكبراء وأبناء «الذوات»، يتجول ما بين اسبلندد بار وإيركل وصولت وجروبى، يجالس هؤلاء، وينادم هؤلاء، ويقضى عوزه من يستضيفه لعسر منهم على نحو ما كان يفعله أبوه التقى الورع...

وما هى الا سنوات حتى فاجأ أهل الحى ببيع المنزل الذى على رأس الحارة، وبشراء عمارة لايستهان بها فى شبرا. وبذلك أصبح عبداللطيف ثريا ميسورا، ولكن ليس فى الحى من يغبط ثروته ويساره!..

ومن شابه أباه فما ظلم!

أليس كذلك؟...

شب «حسنى» زميلى فيما سولت نفس «الناظر» له أن يسميه «تختة»، وطاف فى مختلف المدارس الأهلية والأميرية زمنا يكفى لأن يطوف فيه سائح أعرج حول الأرض مشيا.. وبعد لأى شديد، وسقوط ملح عنيد، حصل على شهادة الدراسة الابتدائية، ففرح لها الوالد كل الفرح، وقنع بها الولد كل القناعة.

وكان يحب ابنه حبا مفرطا مخجلا. فهو لايحاسبه على شيء يصنعه، أو مال يضيعه، أو ليل يسهره، أو معهد يهجره.. بل على العكس كان يباهى به ويفاخر ويلوك اسمه أينما حل بمناسبة وغير مناسبة.. فإذا ذكرت الآباء نكات أبنائهم فحسنى هو الذى قال «فى كيس الفلوس» جوابا لمن قال «أين تكثر الفضة»... وإذا ذكروا قوة العارضة، وسرعة الخاطر، فحسنى هو الذى «وضع

العصاة فى فم الكلب السعران حينما هجم عليه، وما إلى ذلك من صنوف الادعاء الممض والفشر المكشوف.

ولم يكن حسنى بجميل كما كانت توهمه المرآة! فعيناه واسعتان دعجاوان حقا، ووجهه ممتلئ مستدير صدقا. ولكن أين يذهب من أنفه الضخم، وكيف يوارى أذنيه الكبيرتين، وكتفيه العريضين فى غير ما تناسب مع قوامه القصير.. على أن الفتى كان كأنما يتحدى الطبيعة، فهو يبالغ فى التأنق والتزين ليجعل الناس على الاعتقاد بأنه أنموذج من نماذج الجمال، وكان الوالد بكل هذا مغتبط طروب.

لقد كان أكبر همه أن يحقق فى شخص ولده تلك الأمنية التى حرمها، وهى الانتساب إلى عائلة!.. «أنا ما أستريحش يا حسنى إلا لما أجوزك جوازه. على كيفى»

وأخيرا...

برق بريق الأمل!!

وتم التفاهم مع صفوت بك..

وصفوت بك هذا شيخ مشرف على الستين، وكان رئيس قلم فى إحدى مصالح الحكومة «سابقا» وقد أحيل على «ثلث معاش» لضعف بصره، ومن ثم أصبح محلق قومه – مثناناً مملقا.

وإن المضطر ليركب الصعب من الأمور.

أليس كذلك؟؟

– إنما يا عبداللطيف أفندى.. اسمح لى.. يعنى.. إنى أكلمك بصراحة

– طبعا. طبعا يا بيه.. اتفضل

– بقى على رأى المثل إللى أوله شرط

– آخره نور

– عليك نور. ها ها ها. شوف واسمع أنا خلاص عاهدتك على كون إنى أعطيك أى وحدة من بناتى.. إنما بس غرضى أقول لك إيه.. إن حسنى زى أولادى تمام، علشان كده، وعلشان راحته واستقلاله، أحب إنك تخصص له شيء ثابت..

وأراد عبداللطيف أفندى أن يتكلم فعاجله صفوت بك متمما حديثه:

- بس خد كلامى للآخر

- لك حق. لك حق.

وكتب باسمه عمارة شبرا قبل عقد القران.

قصة غير كاملة*

* تتشابه هذه القصة مع قصة «صح»، وإن اختلفت عنها في البداية والنهاية.

طلبت من الخادم أن يبتاع لى شيئا، فحمله إلى فى قرطاس من ورق مكتوب، أغلب ظنى أنه كان جزءا من مجلة قديمة قبل أن يأخذ شكله المخروطى. فلما فضضته وأفرغت ما فيه أخذت أتلهى بقراءته. وإنى لناقل ما قرأت حرفيا مؤكدا حُسن نيتى فى ذلك:

فى حارة س... منزل نصف. يعرف بين أهل الحى بمنزل (الخوجه) وفى الطابق الأرضى منه غرفة مزدوجة المنفعة، فهى غرفة استقبال الزائرين: قد صفت إلى جانبيها بعض مقاعد ضخمة من الطراز التركى وغطيت حوائطها بالعدد الكثير من ألواح الآيات القرآنية، والصور الفوتوغرافية، والمناظر التمثيلية الزاهية الألوان، بعضها إلى جانب البعض دون أى ذوق فنى: فترى «هملت» جاثما إلى «البسملة «كأنما نسى ثأر أبيه فى حراستها،.. وترى «أمنريس» تنظر شذرا إلى رب البيت لا إلى «عائده» وما إلى ذلك من صنوف الخلط الذى يدعو إليه تماثل الأوضاع.

والغرفة أيضا مكتبة البيت، قد وضع فيها مكتب متوسط العمر والحجم فى نهايتها المقابلة للباب، وخزانة كتب إلى يسار الباب نفسه، قد احتشدت فيها طائفة من الكتب القيمة أمثال الأغانى ونفح الطيب واللسان، وأخرى عادية بين مدرسية، وأرض هذه الغرفة مفروشة بسجاد من مخلفات الست الكبيرة كلحت ألوانه فى مواضع، وافتضح سر سداه ولحمته فى مواضع أخرى.

ورب البيت مدرس يعلم الحساب فى بعض المدارس، اسمه صالح أفندى، هو شيخ فى نحو الخمسين، ربعة البدن، قليل نتوء البطن، ذو وجه أبيض ضارب إلى الحمرة، لم تنل الأيام من ضخامته إلاقليلا. وكان كثيرا ما يزهو بذلك ويباهى باكتمال صحته عازيا ذلك إلى قمع شهواته وكبح جماح شبابه.

وما كان شيخنا مزيفا فى ذلك أو مبالغا، فقد عاش فى الحى أكثر من خمسة عشر عاما كان طوالها نموذج الرجل الكامل المهذب الرزين، ولم يكن له من متاع لنفسه غير شيشة يدخنها عصر كل يوم فى قهوة على ناحية الشارع العمومى، حيث يجتمع بنفر قليل من أترابه، قد أنسوا وأنس بهم

منذ زمن بعيد، فهناك يتفاكهون ويتذكرون الماضي ويتباحثون في الشؤون العامة في هدوء ووقار حتى تحين المغرب أو بعدها بقليل، فينصرف كل إلى داره. وفي أصيل يوم جمعة -وكان أول يوم جمعة بعد انقضاء السنة المدرسية -كان صالح أفندي جالسا إلى مكتبه في ثياب البيت: جلباب أبيض وطاقية بيضاء في استدارة الرأس، وكان وقتئذ يجيل بصره، من فوق منظاره الذهبي، في أكداس أوراق امتحان الحساب التي أمامه، وكان السأم باديا على وجهه، ذلك لأنه قد أكب على مراجعتها ثلاث ساعات متتاليات ولم يأت على أكثر من نصفها. وكان حتم عليه أن ينتهي منها جميعها في ذلك اليوم لأن حضرة البيك الناظر قد أعطى الأوامر المشددة بذلك، فهو إذن يحاول جهده للتغلب على سأمه ليستأنف العمل، ولكن هيهات!! فإن الباعة: من ذي نفير وذي حنجرة كالنفير وأصوات بعض صعاليك المارة وهم يرددون أنكر الألحان بأنكر الأصوات، وصراخ الصبية الذين كانوا يلعبون كرة القدم على مقربة من المنزل كل هذه جعلت العمل متعذرا.

وفيما كان يتلهى بإعادة ترتيب الأوراق التي تمت مراجعتها، ومقارنتها بالكم الباقي، إذ بنقرات على باب الغرفة ودخل شاب في نحو الخامسة والعشرين فهش صالح أفندي لمقدمه وابتدره بقوله:

- أنت هنا يا أبا عوف؟! كنت أظنك خرجت كعادتك!

ولو أن ثالثا حضرهما، ولاحظ اكتمال الشبه بين جبهتيهما في اتساعهما وانبطاحهما، لغلب على ظنه أن أباعوف هذا ابن ذلك الشيخ، ولكن الحقيقة أنه ابن أخ له مات ولم يفرط الابن عقده الأول، كانت زوجة صالح أفندي ماتت أيضا قبل ذلك بعامين، ورأى لم الشتات، فتبنى اليتيم، واتخذ من الأرمل زوجا..

وكما ورث عبدالرحمن عن صلب العائلة تلك الجبهة العريضة المنبطحة كذلك ورث عن والدته عينيها الواسعتين المشرقتين، وقوامها الممتشق، كانت تعلو سماحة وجه الفتى وقتئذ مسحة من الاكتئاب، حاول إخفاءها حين أجاب الشيخ بقوله:

- كلا يا عمي، لم أخرج، ولكنني كنت أعد أهبتي للسفر غدا. فبدت الدهشة على وجه صالح أفندي، فمد يده إلى نظارته فانتزعها وطوح بها على المكتب برفق ثم قال:

- تسافر غدا؟ ما معنى هذا! إجلس واخبرني.. هل ألغيت إجازتك. أم ماذا؟

فجلس عبدالرحمن عى مقعد ملاصق للمكتب وقال بمزاح متكلف وبشاشة مفتعلة: أننى سأسافر إلى الاسكندرية لمجرد تغيير الهواء.

وجاءت فترة ساد فيها الصمت، وكان صالح أفندى أثناءها يحدج نظره إلى الفتى كأنما يريد أن يقرأ صحيفة نفسه جلية واضحة، واتقى الفتى هذه النظرات ببعض حركات جاءت عصبية مضطربة. وما عتم العم أن هز رأسه فى بطء ثم استغفر الله استغفارة من أعماق قلبه وقال:

– يا عبدالرحمن! أنت ابنى الأوحد، والمثل السائر يقول: إذا كبر ابنك خاويه وها أنت ذا كبرت، وصرت مهندسا، وعركت الحياة العملية مدى عامين، لذلك سأصارحك، وأطلب إليك أن تصارحنى فنظر إليه الفتى نظرة من يحاول التنبؤ بما سيكون وتمتم قائلا: ستجدنى عند ظنك بى.

قال الشيخ: أنك ستسافر، لالتغيير الهواء بل لسبب آخر لم يخف علي.

فسرت فى جسم عبدالرحمن قشعريرة حادة، أبردت لها قدماه، وزدادت ضربات قلبه. فعض شفته ضبطا لحواسه، واستجماعا لقوته، وبادر فقال بصوت يكاد يكون مرتفعا: أى سبب تعنى يا عمى؟ فقال الشيخ: السبب.. هو الخلاف.. أو سوء التفاهم.. أوسمه كيف شئت. الذى بينك وبين دولت..

فاستشعر عبدالرحمن الطمأنينة تدب إلى نفسه، وأطرق إلى الأرض فقال: كلا.. مطلقا.. ليس هناك خلاف أو سوء تفاهم..

وتناول العم نظارته وأخذ يقلبها بين أصابعه شأن من يشعر بأنه قادم على موضوع دقيق وبعد هنيهة قال: لا. لا. تلك الحقيقة قد تبينتها منذ أكثر من إسبوع.. لاأخفى عنك يا ولدى أننى وقد تزوجت هذه الفتاة غدوت مرهف السمع. حديد البصر، فأنا أرى أدق حركات الناس، وأسمع همسهم فى هذا الصدد. لقد كنت أريد أن أذهب إلى طنطا لأتفاهم معك ولكن لم يتيسر لى ذلك، فاكتفيت بالخطاب الذى أرسلته لك، وبالكلمات الطيبة التى رددت على بها.

فقال عبدالرحمن: ثق يا عمى أننى إنما كتبت إليك وقتئذ بخالص رأيى دون مجاملة أو خداع نفس واننى..

فقاطعه صالح أفندى قائلا: لا. لا. دعنى أتكلم، فالكلام يزيح عن نفسى عبئا آذنى طويلا.. أنت تعلم أنه لما ماتت والدتك– رحمة الله عليها– انتويت عدم الزواج ما حييت، وظللت على عهدى ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات ذقت فيها الأمرين من وحشة الدار وارتباك العيش...

ثم حدث أن صادفت والدة هذه الفتاة، وكنت منذ كنت فى دمنهور، فأنهت إلى خبر موت زوجها، وكان من أعز أصدقائى، وأشارت من طرف خفى إلى حرج مركزها المالى، وأظهرت رغبتها فى أن تضع ابنتها فى رعايتى. وبعد إقبال وإحجام، وحرب قامت فى نفسى كنت أنت محورها. وكان خطابك رسول السلام فيها... فتزوجت منها.

ثم تضاحك وقال: أو ما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوج من عائشة ولم تعد بعد سن الطفولة.

وسكت الرجل ليفيض بحاجته، فأسرع عبدالرحمن بإيقاف ذلك السيل الكلامى الذى كان يهدد بالازدياد والاستمرار. فقال بأدب وتلعثم: وحياتك يا عمى إننى ما تألمت مطلقا من أمر زواجك هذا لأننى ما شككت لحظة فى صدق محبتك لى، واحترامك ذكرى والدتى..

فأبرقت أسارير صالح أفندى وقال: عال. عال. بارك الله فيك يا ولدى.

وتضاحك ثانية ثم قال: والآن، أرى أن لاداعى للسفر، أليس كذلك؟

فقال عبدالرحمن: بل أنا مازلت مصمما عليه، ومن هنا يتضح لك أن لاعلاقة بين سفرى وبين موضوع حديثنا.

فاكتأب الشيخ وقال فى لهجة العتاب إن إصرارك هذا يؤلمنى يا أباعوف.. إذهب. إذهب. وفكر فى الموضوع.

فتحركت شفتا الفتى كأنما أراد أن يقول شيئا، ولكنه سكت، وقام فجأة وقد علا الدم إلى وجهه، ثم غادر الغرفة بخطوات متثاقلة وهام منكس.. وجعل العم يشيعه بنظراته من خلال نافذة تطل على صحن لدار حتى غادر المنزل وأوصد الباب خلفه..

وجاء الليل فأدخل أهل الحى مساكنهم، ونشر على الحى السكينة، وكان صالح أفندى عاد بعد العشاء إلى ما كان عليه من مراجعة الأوراق يعمل فيها قلم الأحمر بهمة ونشاط.

ووافت الساعة العاشرة، فأعلنت مقدمها ساعة ثبتت فى صدر (فسحة) الطابق الأعلى، فنبهت دقائقها الجوفاء الرهيبة دولت هانم وكانت إذ ذاك جالسة على كنبة بغرفة استقبال الزائرات على مقربة من، إحدى نوافذها، وكان التفكير غلبها على حسها ففقدته حينا.

أفاقت فمسحت بيدها الرخصة الصغيرة بعض دمعات أفاضها الأسى وأوشك أن يجففها النسيم وزفرت زفرة حارة صدرت عن فؤاد ملتهب ثم صارت بخطوات المتعب المجهود إلى نافذة تطل على فناء الدار وقالت تخاطب زوجها:

- أما تنتهى يا أفندى

فأجابها بهدوء دون أن يرفع رأسه:

- سأنتهى بعد قليل اذهبى أنت فاستريحى

فأسندت رأسها إلى حافة النافذة مليا. وأرسلت بصرها يستطلع حال عبدالرحمن. وكان فى غرفته، وكانت مضاءة. فألفته مستلقيا على فراشه وقد سقطت على صدره صحيفة كان يقرأها وبعد تردد ونظرة اختلستها إلى نافذة الغرفة التى كان بها زوجها اجتازت الفسحة إلى غرفة الفتى.

أنس عبدالرحمن وقع أقدامها. فأفاق ونهض واقفا وقد اشتد خفقان قلبه ولكنه أسرع فقال:

- من بالباب؟!

فأجابت بصوت خافت كان يظهر فيه التلعثم:

- أنا. هل أنت نائم أم مستيقظ؟

فبردت أطراف الفتى وتزايدت ضربات قلبه وأوشك أن لايحير جوابا غير أنه استجمع قواه وقال:

- بل مستيقظ.. تفضلى..

وفتح الباب.. فدخلت. فأغلقه خلفها.. وضمت الغرفة فتى وفتاة.!

قالت وهى شاحبة كتمثال من الشمع:

- ظننت النوم أخذك إلى غرة منك.. فجئت أنبهك..

فأطرق الفتى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة وقال: مرسى. وأوشك أن ينقطع مجرى الحديث لولا أن أسرع فقال:

- هل صعد عمى.

- لا

- كنت أود أن أحادثه مليا قبل أن ينام.

وجلست دولت إلى مقعد من الخيزران أمام نضد عليه كتب وبعض أدوات التواليت وجلس هو على حافة السرير.

ثم قالت: أظنك تريد أن تحادثه فى أمر سفرك.. ألم تعدل عنه بعد.؟

فهز اكتافه فى امتعاض وقال: لا.

قالت وكاد يخونها تجلدها: قال لى عمك ونحن على العشاء إنك مسافر لأننى لم أحسن معاملتك.. (ثم تهدج صوتها) وإننى أؤكد لك أننى لم أقصد إيلامك أبدا. أبدا..

ومالت إلى النضد. فأخفت وجهها بين ذراعيها وأجهشت بالبكاء. فأما عبدالرحمن فأحس بقلبه يتمزق. غير أنه ضبط مشاعره وكلف وجهه الشراق. وتقدم إليها فى رفق وقال كأنما يداعبها: أنت عبيطة. وعمى واهم. وقد حسبت أننى اقنعته.

وقالت وهى تشرق بدمعها: إذن فلماذا تسافر؟

هنا ثارت نفس الفتى ثورة حطمت فيها أغلال الصبر. وقال بصوت وهو يشعر بتشنج فى عضلات فمه:

- تسألينى عن سبب سفرى؟! أنت تتجاهلين! دولت أنت وحدك تعلمينه.. أراك لا تجسرين على الصراحة وها أنذا أفض إليك مغالق قلبى. أبوح لك بذلك السر الدفين الذى مزق كتمانه فؤادى. دولت. إنما يحفزنى إلى مغادرة هذا المنزل حبنا المتبادل وحرمة ذلك الشيخ الوادع الذى تضمنا داره ولاتفصلنا عنه الآن غير أرض هذه الغرفة.

فرفعت الفتاة رأسها وقالت: الحذر. اخفض صوتك.

وتابع الفتى كلامه كأن لم يسمع من كلامها شيئا. قال:

دولت. لقد أحببتك منذ التقى بصرى بمحياك السمح الجميل. حبك يزداد. لا بل يندلع فى قلبى اندلاعا. وتبينت حرج مركزى.. فوقعت فى حيرة من أمرى. غير أنى ملكت ناصية عواطفى الجامحة. وخشيت أن تسرى إليك عدواى. فعمدت إلى الخشونة معك. تلك الخشونة التى حسبها عمى نفورا وسوء تفاهم.. ولكن..

وفجأة قطع حديثه وتقدم إلى باب الغرفة فتسمع. فلم يسمع شيئا ثم عمد إلى النافذة فرأى الغرفة التي بها عمه لما تزل مضاءة. وما كاد يلتفت إلى دولت حتى قالت فى لهفة:

– أهو صاعد.

– لا. أنه لازال يعمل. يا للرجل المسكين!!

ثم استأنف اعترافاته فقال:

– أقول. أقول. نعم. ولكن نظرة واحدة من عينيك الساحرتين أول من أمس. على أثر شجارنا أفضت إلى بجملة سرك الهائل. فتلاشت قواى. على التو. وجمحت عواطفى وجمحت. على أننى برغم ذلك ذكرت ذلك الشيخ الذى هو عمى وأبى وأخى مجتمعين. ذلك الشيخ الذى كفلنى أنا وأمى. ذكرت ذلك الشيخ فتضاريت العواطف فى صدرى ولم أدر إذ ذاك ماذا أفعل. ولكننى حسمت الأمر بعزمى على السفر.. وكانت الفتاة تنصت إليه وهى ساهمة واجمة. قد انفرجت شفتاها واتسعت أحداقها كأنما تنصت إلى وحى لاتعرف مصدره. فلما اصطك سمعها بكلمة السفر ثابت إلى حسها وقالت بحسرة واستعطاف:

– تسافر! وماذا يكون من أمرى؟

فقال الفتى بتؤدة فيها نصح وفيها تهكم:

– تقصين عنك هذه الأفكار الصبيانية. وتعملين جهدك فى أن تعيشى مع زوجك عيشة راضية. فالرجل يحبك. ويبالغ فى إرضائك..

فقاطعته دولت والحزن ينساب فى كلماتها.

نعم أنه يحبنى. ويبالغ فى إرضائى. هذا صحيح وأنى أحترمه من أجل ذلك وأجله. ولكن أهذا كل شئ؟! أهذا كل شئ!!..

فطوح عبدالرحمن يده فى قنوط وقال: كاد هذا يكون كل شئ فى أغلب بيوتنا المصرية.

فقالت الفتاة بقنوط: ما دام الله قد أراد ذلك. فسأعيش كما أراد. ولكننى سأكون تعسه..

وأجهشت بالبكاء. فتقدم إليها الفتى فطبع على جبينها المبلل قبلة إخاء وعطف.. وما هو إلا أن فعل ذلك حتى فتح الباب فجأة. وظهر الشيخ فى فراغه.

ثم قلبت الصحيفة فلم أجد البقية!!..

فى وش الفجر

لم أعرفه ولم يعرفنى فى بادئ الأمر. وكدنا نكتفى بالاعتذار المقتضب حينما تصادمنا.. كتفا بكتف.. ولكن سرعان ما عرفته، وسرعان ما عرفنى، فتملكتنا الدهشة جميعا ولست أدرى من منا الذى قال:

- الله؟! هو انت؟!

ولا من منا الذى قال:

- من أعجب المصادفات!

فقد كان الزمان والمكان اللذان تقابلنا فيهما، أو فيهما اعترض كل منا صاحبه، يدعوان حقا إلى اشتراكنا فى الدهشة، ثم إلى انفراد صديقى بالخجل والارتباك، حتى راح يمأمئ، ويتأتئ فى عبط وغيظ، كان يجب على أن أضحك من تناوبهما على خلقته غير الجميلة جدا فى أصل أوضاعها وطوبوغرافيتها.. ولكن ما استبنته على الفور من حاله النفسية دعانى إلى شيء من التمهل، وإلى شيء من الرزانة.

فالوقت بعد منتصف الليل بكثير. والمكان ميدان السيدة زينب عند سلم مركز البوليس، وقد انتهز الهواء فرصة غياب شمس الصيف المرهقة فأخذ ينساب فى نسمات طلقة لينة منعشة، والقمر فرح بخلو الميدان من مركبات الترام، وأسراب السيارات، وتدافع المارة وصياح الباعة، فهو هانئ بمداعبة السحب الصغيرة البيضاء. وبالجملة فقد كان كل شيء يدعو إلى التفكير نظما أو نثرا لا إلى الانزعاج بصدمة من كتف عباس أفندى الطهطاوى.

- عجبا! أين كنت إلى هذا الوقت المتأخر من الليل؟

قلت لعباس أفندى الطهطاوى بلهجة الوالد الذى يصحو من نومه لقضاء حاجة فيهوله أن يرى ولده الذى يحسن به الظن يتسلل إلى غرفته فى الهزيع الأخير من الليل.

- مأمأ. مأمأ. مأمأ.

قال عباس أفندى هذا بغاية السرعة والطلاقة. ولما بدا على وجهى أننى لاأجيد فهم هذه اللغة العجيبة، تريث، وابتلع ريقه بصعوبة، وأزاحنى من أمامه بكيفية أبرقت من قسوتها عينا الشاويش المتخشب عند رأس السلم وتحركت لها شفتاه، وأدرك الطهطاوى أفندى ما فى حركته من شدة، وما أثارته من انتباه الشاويش، فتلطف جهده وقال:

- بالذمة سبنى.. أنا طالع هنا!..

- هنا؟ فى مركز البوليس؟

- أيوه.

وتقدم ليصعد السلم، فهالنى الأمر، ورأيت أن أقف على كنهه. لعل فى استطاعتى أن أكون ذا نفع فى هذا الظرف، على أن الظواهر جميعها كانت تدل على عدم الرغبة فى وجودى. ولكن عباس أفندى صديقى، أو بالضبط هو زميل قديم لى فى الديوان. وهو من الريف متعصب لريفيته معتز بها، ويرى فيها الرجولة التى تنقص أهل المدن.

واعتزاز الطهطاوى أفندى بريفيته، وما يتبعها عنده من صراحة وصرامة واستنكار المجاملة وعدم الاعتراف بالفكاهة، جعله موضع تحكك زملائه، وهو تحكك ظريف يلذ لهم ويغيظه ويتمادون فيه حتى فى أشد أوقاته حرجا.

وعلى هذه القاعدة المتواضع عليها، أمسكت بذراع صديقى وقلت له:

- بس فهمنى.. إيه المسألة.

- يا أخى سبنى اعمل معروف

- هل سنقرأ فى جرائد الصباح أنه نما إلى بوليس قسم السيدة أن لصا مغفلا سطا على منزل عباس أفندى الطهطاوى وسرق منه خفا من خفى حنين وترك له الفردة الأخرى.

فابتسم عباس أفندى احتقارا لتفاهتى.

- إذن فهو نشال خدعته محفظتك اللى حاشيها تذاكر ترام قديمة علشان تفرج عليها أهل بلدكم.

- سبحان الله العظيم.

- اطمئن.. بكره الصبح بدرى تلاقيها عندك بالبريد المستعجل.. ويمكن الراجل يشفق عليك ويحط له فيها شلن

- فاكر إنك لطيف؟ يا شيخ اداری واتواری

- إذن. ورطة نسائية

قلتها بصوت منخفض.. ولكن صديقى الذى يفاخر بأخلاقه واستقامته وبعده عن مباهج الدنيا عامة، وعن النساء بصفة خاصة عز عليه أن يرمى بهذه التهمة. وأن توجه إليه هذه الوصمة. فصاح بى صيحة منكرة وأردف يقول:

- النسوان دى تعرفها أنت لوحدك

واجتذب ذراعه من قبضتى ونهب السلم نهبا. ولكن الشاويش خطا خطوة عسكرية فاعترضه. وكانت أعين الشاويش وشوارب الشاويش وزر طربوش الشاويش.. كل من هذه الأدوات- الطبيعية منها والصناعية- تدل فى الضوء الضعيف المنبعث من داخل القسم. على أن الشاويش كان مغضبا، وأكدت لهجته الصعيدية هذا الغضب:

- ما دامت المسألة لا هى سرجة بإكراه، ولافعل نشال متعود النشلان، ولا هى ضبط وجعة نسوان.. يبجى إيه إمال؟

- تأتأ. تأتأ. تأتأ

هذا كل ما فتح الله به على عباس أُندى الطهطاوى. فضحك الشاويش وقال:

- يعنى لازم تتكلم باللاوندى!!

- سأسأ. سأسأ. سأسأ

فكان الشاويش من خفة الروح عندئذ بحيث قال بكل جد ورزانة:

- مفهوم، وبعدين.. يعنى خناجة؟! وأكم خناجات وكمان بتجول إن البيه مختص بمعرفة النسا.. أيش عرفك أنت؟

فسررت -وأنا تحت السلم- بهذا اللقب الذى أنعم به على من هذه الجهة الحكومية. وفى الوقت ذاته تبينت السبب فى غضب الشاويش على صديقى. فقد صعب عليه أن يقرر صديقى صراحة أننى وحدى الذى أعرف النساء. بل كان يجب عليه من باب الأدب واللياقة أن يقول:

- النسوان دى تعرفها أنت وحضرة الشاويش!!

ولما كان عباس أفندى طهطاوى بمولده ونشأته. ويشاطر الكثيرين من أهل الريف خوفهم من رجال الحكومة.. لاسيما فى ثورة غضبهم. فقد خاف ونزل السلم واحدة واحدة ذليلا مهيض الجناح.. عندئذ وجدت من الواجب أن أهش له.. فهششت.. ومن الرحمة أن أبش له.. فبششت.. وقلت فى رفق وإخلاص:

- تعالى يا أخى، ما تزعلش.. بس احكى لى إيه المسألة يمكن يكون فى البقيه الباقيه من العقل الراجح أدبرلك بها أمرك..

وجررته فانجر، وقدته فانقاد. وسرنا صامتين مليا، ثم إنه استغفر الله من كل ذنب عظيم وراح يحكى لى همه وغمه الأمر وما فيه إن عباس أفندى رجل مستقيم كما أسلفنا. مستقيم إلى حد أنه لو صارت الدنيا كلها على شاكلته لما أصبح فى الدنيا مسرح أو دار لهو. فهو يمقت المسارح واللهو. ولما تنتن على ظهر البسيطة ترام أو زمجرت سيارة. فهو ينفر من هذه ويرى الموت فى عجلات تلك. ولخجل اديسون من نفسه حين اخترع المصباح الكهربائى، وذلك لأن عباس أفندى لايعترف بمصباح غير الشمس، فإذا ما توارت وجب على المرء أن يتوارى فى عقر داره فينام. وإذا ضربنا صفحا عن أمزجة خلق الله أجمعين بهذا الصدد، فلايمكن بحال أن نتجاهل مزاج الأسطى إسماعيل الذى يسكن منذ عهد قريب «المندرة» التى يسكن عباس الطابق الذى يعلوها.

والأسطى إسماعيل كان «جزمجيا» وله عمال تحت يده، ولكن الخمر صرفت عنه الزبائن، فالعمال، فقنع بترقيع الجزم فى حانوته، ولكن الخمر أضاعت منه الحانوت، فهو الآن يباشر عملية الترقيع فى الهواء الطلق على رأس الحارة، وكلما جار الزمن على الأسطى إسماعيل جار بدوره على امرأته فهو يعود عند منتصف الليل معربدا سكران، ولايكاد يحتويه المنزل حتى تبدأ الشحناء بينه وبين زوجته.. شحناء فضرب فعويل فصراخ.. صراخ تستنجد فيه المرأة المسكينة بالله، وبأولياء الله، وبأهل الشفقة من خلق الله أن يدركوها وأن ينتشلوها من براثن هذا الوحش الهائج المفترس.

وصبر عباس أفندى على جار السوء زمنا طويلا، إلى أن كانت هذه الليلة وابتدأت رواية كل ليلة، وإذا الزوجة تصيح فى ألم بأن رأسها قد كسر وبأن عينها قد قلعت وبأن قلبها أوشك أن يقف، وأنها لتعجب كيف خلت الدنيا من أهل المروءة يقتصون للمرأة المسكينة التى لاحول لها ولانصير.

عند ذلك نضب صبر عباس أفندى، وثارت بين جوانحه حمية أهل الريف فنزل إلى حيث الموقعة، وأثبت رجولته ونجدته ونخوته، فأنقذ المرأة فعلا، وأبعدها إلى ركن أمين.

ولكن...

لم تمض فترة حتى اضطر الطهطاوى أفندى إلى أن يعترف جهارا بأن رأسه قد كسر، وأن عينه قد قلعت وبأن قلبه أوشك أن يقف. ويؤكد المسكين بأنه أفلت من الموت المحقق بأعجوبة

– فأنت لازم تساعدنى على كونى أنتقم من الراجل المتوحش ده... إن ماكنش علشان خاطرى، فيكون علشان خاطر زوجته المسكينة.

وكان عباس أفندى يروى قصته بتهدج وانفعال بالغين.. أحدثا فى نفسى أعمق الأثر، وأوشكت أن أعد إلى مركز البوليس، ولم نكن قد ابتعدنا عنه كثيرا، فقد كان صديقى يطيل الوقوف بين الخطوة والأخرى، لكن صوتا دوى فى سكون الليل وانزعج له عباس أفندى كأنه سمع صوت إسرافيل

– أهه! هو المجرم المتشرد.. اللى ضرب جوزى لحد ما عدمه العافية، وخلاه بين الموت والحيا.

تلك هى زوجة الأسطى إسماعيل، يتبعها رهط ممن استنجدت بهم من رقاعة الطريق. وكانت قد إدركتنا. فأمسكت بتلابيب صديقى وهى تقول:

– والنبى ما أسيبك أبدا إلا فى القسم.. رايح تشتكينا حضرتك.. أنا أوريك.. مين قال لك قدم عليه.. دا جوزى طاعم جوعتى وغنينى عن سؤال اللئيم.. تعمل فيه كدا؟! وتيجى تسبق وتشتكى.. فوت قدامى..

هنا مأمأ الطهطاوى أفندى، وتأتأ وسأسأ، وأعاد على النظارة قصته وأضعافها أيمانا مغلظة على صحة ما يقول. ولم تمسك المرأة عن إرغائها وازبادها وتهديدها إلا حين أكدنا لها أمرين

أولهما أننا كنا فى طريقنا إلى البيت لا إلى البوليس. وثانيهما استعدادنا لأن نتفق فى حضرتها مع أحد العربجية على نقل «عزال» الطرف الثانى إلى منزلى إلى أن يجد له منزلا آخر.

- موافق يا عباس أفندى

- موافق وأمرى إلى الله..

سعاد نمرة ٢

-١-

هى قصة كمئات من قصص الزواج التى يقرأها الناس بجميع اللغات التى تعلمها المدارس برليتس! فتى فى الكذا والعشرين من عمره مدله بفتاة فى الكذا عشرة من عمرها.. والفتاة تحبه حبا أبسط أوصافه أنه جم وأنه مبرح، وأن قلبها منه شديد الخفقان، وعقلها من جرائه دائم الدوران.. وهما يريدان أن يتخذا من هذا الحب مال لشركة أبدية...

وكلما خلا بهما المكان تعانقا عناقا لولا تسامح الحب لأتهم كل منهما صاحبه بأنه يتعمد إزهاق روحه من بين جنبيه، وتدركهما على تلك الحال نشوة قد تطول وقد تقصر تبعا لما يتوقعانه من المباغتة. ثم يفيقان. فإما أن يظلا خجلين صامتين، وكان هذا فى أوائل عهدهما بممارسة هذا المظهر من مظاهر الهيام، وإما أن يجهش بهما إحساس من النصر والفرح فيقول صلاح:

- ستكونين أسعد من تزوجت

وتجيبه سعاد بجرأة الواثق:

- وستكون أسعد من تزوج

ويقولان فى «كورس» بديع:

- إذن، سنكون أسعد الأزواج

وهو صلاح الدين بن مصطفى، وأمه فاطمة. أوه. لقد جاءت هذه العبارة كمطلع ترجمة حياة امرئ القيس فى كتب أدب اللغة. ولكن لابأس فهى هنا تؤدى الغرض المطلوب.

وقد لبى الوالد نداء ربه. فهو منذ عامين «المرحوم» مصطفى أفندى صبرى، وكان موظفا متوسط الحال فى وزارة المالية. والأم على قيد الحياة. لم يساعدها نصيبها من معاش زوجها على المقام فى القاهرة، فآثرت أن تلوذ بأخيها فى إحدى القرى المجاورة للمنورة. وتركت ولدها لابن عم لها ميسور عن أهله ويشغل فى وزارة الداخلية وظيفة كبرى.. ومن ثم استقر صلاح فى بيت أحمد بك خيرت.

ولم يكن لأحمد بك من ولد ذكر، فرحب بالفتى وأغدق عليه الأبوة والحنان. وبرهن الفتى على أنه أهل ما يلقى، فهو مهذب، وهو مطيع، وفى فتوته من الرجولة شىء كثير.

وكان جميلا، أخذ عن والدته زرقة العينين، وعن خاله جمال أقواس الذقن والرقبة، وورث عن أبيه قوامه المديد. وإنه لمرح حاضر البديهة وله حديث حلو وفكاهة مستملحة.. صفات سرعان ما ألقت حوله القلوب وأنست أهل البيت دخوله عليهم.

ومضى عام نال صلاح فى ختامه شهادة الدراسة الثانوية، ورغب خيرت بك فى أن يلحقه بمدرسة عليا، فاعتذر ولم يشأ أن يظل عالة على هذا القريب الطيب أعواما وأعواما.. وآثر التوظف بإحدى المصالح. فكان. واستدعى والدته من ضيافتها الطويلة. وأنشأ منزلا بالغ الهناء. وإن لم يبلغ من الرخاء حدا حميدا.

وكما أن أحمد بك خيرت هو ابن عم والدة صلاح، فهو من ناحية أخرى والد سعاد!! فليس إذن من التعسف بكثير أن تكون جملة هذه الظروف هى المسؤولة عما حدث بين الفتى والفتاة من أمثال المنظر الذى مر ذكره.. ولم يكن الوالد بناقم على أمرهما -وإن لم يكن يدرى مداه- وكثيرا ما دخل عليهما فوجدهما يقرآن فى هدوء فيصغى إليهما حينا، أو يجدهما فى نقاش محتدم، وتبتدره سعاد بقولها:

- الحقنى يا بابا.. صلاح دا دماغه ناشفه جدا.

فيقول لها بتهكم:

- انت اللى دماغك طرية جدا.

- يعنى مجنونة؟! أبدا.. أنا دماغى مش طرية أهى

وتنقر رأسها بإصبعها فى عصبية فرحة، فيقول صلاح:

- زى جوزة الهند تمام

ويقول الوالد:

- انتم الاثنين أجن من بعض، ويمضى عنهما بسلام!.

وقد يخطر بباله أحيانا ما عسى أن يكون بينهما من غرام.. وعندئذ تحدثه نفسه وهى تقول: «وهل يجب أن يستحكم بينهما العداء؟. وماذا لو كان غراما؟ وماذا لو أدى الغرام إلى الزواج إذن لصارا سعيدين.. أليس كذلك؟ وتسعد أنت أيضا.. أليس كذلك؟ فصلاح الآن خاطب لايرفض الكثيرون خطبته، وأنت ساهمت فى تربيته، وأنت ألحقته بوظيفته.. وباب رقيه بيدك.. وفى مقدورك أن تفتحه على مصراعيه، فأنت أولى به لابنتك..»

كانت ورطة كبيرة تلك التى وقع فيها خيرت بك، وكاد يرغم على أن يقدم ابنته الجميلة لقمة سائغة لذلك العجوز السكير زكريا بك، فيقضى على سعادتها وسعادة خطيبها المحبوب صلاح، لولا تلك الرواية البديعة المحكمة الإخراج والتمثيل.

وانتهى به هذا الخاطر إلى مقهاه المعتاد. فيشرب «شيشة العصر» بنفس راضية وقلب سليم..

-٢-

ولكن...

حدث أمر عجيب.. أثار فى البيت الهانئ جوا من الغموض.. كثر فيه الهمس والتساؤل!!.

حدث أن تغيرت نفسية خيرت بك فبعد أن كان الرجل السمح البشوش الهادئ الأعصاب المتجاوز عن الكثير من الهفوات، أصبح عبوسا كئيبا سريع الغضب يحب الوحدة ويزعجه القادم ويمله أقل الحديث.. ثم لم يقف أمره عند هذا الحد، بل أخذ موقفه إزاء صلاح. فبعد أن كان موضع البنوة والإعجاب. صار الرجل يتبرم بكثرة تردده على المنزل ويبدى امتعاضه من انفراده بسعاد، وراح يعنفها من أجل ذلك فى غيبته ويظهر له الجفوة حين يلقاه. والفتاة تدافع قدر جهدها والفتى يتغابى ويحتمل ويتلمس لنفسه أغلاطا عساه يصلحها، ويعالج أبواب التقرب والزلفى حتى لم يبق شك فى عدم الرغبة فى وجوده. واندفع يوما ليقف من هذه الإهانة موقفا حاسما.. فاقتحم على خيرت بك غرفة الاستقبال. وكان قد اعتاد منذ تحوله أن يخلو فيها إلى نفسه.. فانتفض الرجل واقفا ولبث الاثنان منتصبين وجها لوجه وقد بدا عليهما غضب مخيف.

- مين جابك هنا؟

قالها خيرت بك باقتضاب حاسم. ولم يجب صلاح، فأعاد الرجل سؤاله كلمة كلمة بصوت جهير.

- أنا

ولم يزد صلاح. أو أنه لم يستطع أن يردفها بكلمة أخرى لفرط اهتياج أعصابه.

- وإيه قصدك؟ اللى من أجله...

فقاطعه خيرت بك بقوله:

- انت لاتملك هذا الحق.. يكفاك وجودك.. ان عدم وجودك فى البيت دا ..

- كنت حضرتك تقدر تقول لى كدا بصراحه. حضرتك لما أكمل كلامى بدل الإهانات المتعددة دى.. الأحسن نتفاهم.. فإذا كنت غلطت غلطة فأنا.. فأنا اعتذر.. وو.. انسحب.. يمكن أنسحب من.. الوجود كله.. وإذا كان حضرتك عندك سبب تانى فأنا كنت أقدره. وو. و. أعرف أتصرف كما يجب.

وكانت هيئته وانتفاضه الإخلاص الذى يخرج به كلماته من أعماق قلبه، كل ذلك قد أثر فى خيرت بك وأنزل بنفسه الفشل والحيرة. وقد وضح ذلك فى الركاكة والتصنع اللذين قال بهما:

- امش اطلع بره.

وأدرك صلاح تأثير هجومه فتشجع وقال:

- أنا طالع. ولكن بعدما أصرح لك أنك من أشرف وأنبل خلق الله.. وبعد ما أقبل يدك اعترافا منى بفضلك اللى اللى.. وأدركته العبرة، فأمسك عن الكلام، ثم تقدم فأمسك يد خيرت بك فقبلها وهم بالانصراف.. وألقى الرجل نظرة على الدموع الساخنة التى تنحدر فوق يده ثم نظر إلى الشاب الذى يكفكف ما بقى فى عينيه من تلك الدموع فقال بصوت منخفض:

- انتظر

فوقف صلاح ويكاد يفتح الباب

وبعد فترة قال الرجل بلهجة فيها أمر وفيها رحمة:

- تعالى.. اقعد..

فتهالك الفتى على أقرب مقعد، وتهالك الرجل على مقعد مجاور.. وساد بينهما الصمت..

وأشاح كل منهما عن الآخر حينا طويلا، ثم قال خيرت بك:

- انت رجل؟

فنظر صلاح إلى سؤاله فى دهشة، وهو يتحفز لما سيكون.

-طبعا

- وأقدر أعتمد عليك؟

- بكل تأكيد

وأشرقت عيناه المبتلتان.. وهز الرجل رأسه وهو صامت يرسل بصره إلى فضاء الغرفة، ثم ضرب ركبته بقبضة يدة إيذانا بأنه قد حسم أمره وقال:

- المسألة مش حاجة راح أطلب منك عملها.. المسألة سر لحد دى الوقت لم أبح به حتى لعمتك.. (يقصد زوجته) وأنا واثق من كونك بعد ما تسمع الحكاية.. وتقف على حقيقة الـ.. على حقيقة مركزى.. راح تعذرني فى ارتباكي و.. وفى سلوكي الـ.. الـ.. غير عادى معاك.. ووو... ومع الناس كلهم الأيام دى..

وسادت فترة صمت أشعل خيرت بك أثناءها إحدى سجائره الثمينة الضخمة، والفتى ينظر إليه وإلى حلقات الدخان الكثيفة التى تتلاشى فى الفضاء ببطء ورهبة، حتى خال أن كل شيء قد غمض أمام ذهنه وأمام عينيه، ثم أخذ خيرت بك يفرك يديه وراح يقص على سامعه الصغير قصة خلاصتها أن له بعض أفدنة فى بلدة سنهاو -ورثها عن أمه. فهو إذن له هنالك أقارب وأصدقاء- ولهذه البلدة عمدة شرير لايملك إلا الأذى ولاينى ينصب الأشراك. وتحكك هذا الوغد بفلاح من البلدة طمعا فى أن يغتصب منه بعض ما يملك بأخس الأثمان. ويرفض الفلاح، والعمدة يتمادى فى إيذائه وتضييق الخناق عليه. والرجل لايزداد إلا صلابة فى امتناعه. وكان من العمدة أن أهان زوجة الفلاح جهرة وعيانا. عند ذلك أضمر الفلاح الانتقام لكرامته فتربص حتى استطاع أن يردى العمدة قتيلا بضربة فأس فى مؤخرة رأسه..

وحدث أن كانت إهانة المرأة موضوع خطاب أرسله أحد أقارب الرجل المسكين إلى خيرت

بك. فعز عليه الأمر وأرسل ردا حمل فيه على ذلك العمدة وشبهه فيه بالذئب الماكر المفترس الذى يجب أن يطارد وأن يمحى من الوجود!! وتصادف أن وصل الرد فى صبيحة اليوم الذى قتل فيه العمدة..

ثم إن هناك رجلا اسمه زكريا بك جاوز الخمسين من عمره وله ضيعة كبيرة على مقربة من سنهاو اتصل بخيرت بك منذ زمن بعيد. وأقبل خيرت بك على صداقته حينا ثم عافها. إذ لم يفهم كنهه ولم يستطع الوقوف على حقيقة أخلاقه فهو متقلب لامبدأ له. وأظهر ما فيه حبه التصابى وميله إلى النساء وضعفه حيالهن ضعفا معيبا.. حتى قيل إنه أودى بحياة زوجته من فرط ما كان يثيره من غيرتها. وكان قد طلب يد سعاد وألح فى الطلب وخيرت بك يعتذر بصغر سنها.. حتى تراجع على مضض.

وساق القدر زكريا بك إلى ضيعته أيام مقتل العمدة وساق القدر إلى يده جواب خيرت بك فى صدد إهانة المرأة فعاد به إلى القاهرة، وأعاد الكرة فى طلب يد سعاد وهو يلوح بالخطاب والقضية لاتزال فى طورها الأول.

- آدى يا سى صلاح موقفى الآن.. الكلب بيهددنى بطريقة غير مباشرة بكونه يدخل رجلى فى الجناية دى. فقل لى بالله عليك. هلا تعذرنى فى حرج مركزى، وهل تعتبرنى قاسى أحمق. أو سمنى زى ما تحب. لو عرفت أنى.. إنى وعدته.. بـ.. بزواج سعاد؟

فمسح صلاح عينيه ولم يجب

ولزم الصمت، وتكاثفت عتمة المغرب

-٣-

وبعد، فقد انتهى زكريا بك من عملية صبغ رأسه وها هو ذا واقف أمام المرآة وقد رفع عنه القماش المشدود بعد أن مله وأضجره.

وها هو ذا يحرك ذلك الرأس ليرى منه كل إقليم وناحية، ويدنى بصره الضعيف من المرآة لكيلا تخفى عليه خافية.

ثم ارتدى ملابسه بخفة وارتباك لايتأتيان إلا من شاب مغرم أو من بهلوان عجوز، وأعاد

النظر إلى المرآة معجبا وناقدا معا. فأحكم وضع المنديل على صدره، والطربوش فوق رأسه، والربطة فى عنقه، وكرر هذا الإحكام مرارا. حتى وجد صعوبة فى أن يتحرك من أمام خياله. ثم تحرك آخر الأمر فخرج إلى البهو واستدعى عثمان «السفرجى».

– اسمع! أنا عاوز شاى كامل وفاخر النهاردا.. دلوقت فاخر جدا.. علشان.. واحد صاحبى..

وتلعثم السيد وارتج عليه، واستنجد برباط رقبته، واستلهم سلسلة ساعته، فلم تخرجه هذه من ورطته، ولم تلهمه تلك الكلمات التى يريد أن يؤدى بها غرضه، وأسرع عثمان فارتجل قائلا:

– وراح ييجى ياخد الشاى.. بالطبع

فازداد تلعثم السيد حينا، ولما كان لابد له من أن يتكلم فقد قال أخيرا:

– لا.. قصدى أقول.. إنه راح يبعت واحد.. قصدى بالضبط.. راح يبعت بنته.. بنته.

فكرر الخادم الكلمة الأخيرة أضعاف ما كررها سيده، واستطرد زكريا بك يدارى الموقف بالدعابة فقال:

– الدنيا كلها بقت موده يا عثمان.

– لا ياسيدى مش كلها.. عثمان لسه ما بقاش موده!!

ونفح ذكريا بك خادمه بالمال الذى يكفل فخامة الشاى وملحقاته، وزوده بنصائح غالية، بعضها يرمى صراحة إلى التدقيق فى أداء واجب الخدمة قبل مجئ الزائرة، وأهمها يرمى من طرف خفى إلى عدم التدقيق فى أداء واجب الخدمة بعد مجئ تلك الزائرة، فتقبل عثمان الشطر الأول قبولا حسنا، وتقبل الشطر الثانى قبولا سيئا وانصرف..

وتنهد زكريا بك كأنه تخلص من عبء ثقيل، ثم جلس على مقعد رحب وسرعان ما استرخت عضلاته واغتمضت عيناه، وظهر عليه ما يشبه الإغماء أو الموت بالسكتة القلبية.. على أن زكريا بك كان من وراء هذا المنظر –الذى يدعو إلى الإشفاق إن لم يدع إلى الاستغاثة برجال الطب أو رجال القضاء– فى سلامة ما وراءها سلامة، وسعادة ما بعدها من مزيد.

لقد تتابعت أما مذهنه مناظر الماضى القريب. كيف دخلت عليه الفتاة تسأل عن صاحبة

لها، فاتضح أنها أخطأت المنزل.. ما كان أجملها في خجلها وارتباكها وقتئذ.. وما كان أبرعه في تهدئة خاطرها، حتى اطمأنت إليه واستأنست له.. وذلك الحديث العذب منها إليه، ومنه إليها، حتى نسيت ما جاءت من أجله، ثم ما كان بعد ذلك من أسرها فؤاده، وتلك الجلسات الحلوة الهادئة في «قهوة الريف» بشبرا يشرفان منها على الحقول الخضراء؛ حيث لاتحد المكان إلا الأنوار الضئيلة التي تضطرب عند مرمى البصر، ولايعين الزمان إلا مرور قطارات السكة الحديدية من وراء تلك الأنوار.. لطالما سكتت الألسن، وتكلمت العيون، وتفاهمت الأفئدة، والشمس المنحدرة الصفراء ترنو إلى سعادتها في حسد وكمد، وما يعتم البدر أن يشرق عليهما إشراق الغبطة والسرور، ثم تمنعها عن التصريح باسمها بادئ ذي بدء فلما اطمأنت إليه أعلمته أن اسمها «سعاد» فبادلها صراحة بصراحة وأخبرها بأمره مع «سعاد» الأولى مع فارق ادعائه أن أباها يرميها عليه رميا ويلقيها على عاتقه إلقاء.. أواه من ابتسامتها إذ ذاك! وأواه من قولها: «إذن سمني سعاد نمرة٢، ولست أبالي إن كانت هنالك أرقام أخرى فإنني نصيبي من حبك قانعة راضية!!..»

عند هذا الموقف من الذكرى انتفض زكريا بك، وأحس لقلبه دقات خاف من شدتها، وهالته سرعتها.. ولم يهدأ، أيقن أنها دقات الساعة المجاورة تؤذن بحلول السادسة.. وإذن فها هي في طريقها إليه.. ثم عاد إلى إغمائه وإلى ذكرياته.

«إنها تحبه للحب، أو إنها تحبه لنفسه، لاجشع ولاطمع كالأخريات السابقات. فكم قدم إليها الهدايا فاعتذرت عن قبولها، أيها الإخلاص! لو تجسمت لكنت تلك العذراء!!. ففيم إذن سعيه وراء ابنة خيرت بك وهو لايعرفها إلا بالنظرة العاجلة حين يلقاها مع أبيها مصادفة.. لا. لا. سوف يعلن لأبيها عدوله عن الزواج منها.. وسوف يرد إليه الخطاب الذي في حوزته، ولئن طمع في مال فلن يبخل.. ويتزوج من سعاد نمرة٢، وتكون بعد ذلك سعاد فقط.. وسعاد إلى الأبد.

- سيدي.. سيدي..

فأفاق زكريا بك في غير القليل من الانزعاج.. وأردف عثمان نداءه بقوله:

- الست اللي حضرتك بتقول إنها بنت واحد صاحبك حضرت.

- خليها تتفضل.. خليها تتفضل..

وأسرع لا إلى الباب يستقبلها، ولكن إلى المرآة يصلح من هندامه للمرة الأخيرة، فما انتهى

حتى كانت الزائرة وسط البهو...

- أهلا. أهلا. أهلا...

وبشئ من المبالغة نستطيع أن نؤكد أنه ليس لأمهر الرياضيين أن يحصى عدد المرات التى قيل بها هذا الترحيب، ولا لأبرع الكتاب أن يصف زكريا بك فى هذه اللحظة.. فقد كان أشبه بالدراويش الذين يصيبهم مس فيذكرون الله بغير وعى... ثم استقر بالعاشقين المقام، والغرام، والدرام!

وحاول زكريا بك أن يقترب من فتاته بقدر ما تسمح الخلوة.. والحب.. ولكن عثمان ظهر عند الباب يستأذن فى استحضار الشاى، فابتعد زكريا بك إلى أقصى أركان البهو كأنه قذف من مدفع، وأطرقت الزائرة خجلا، وتشجع السيد فأصدر أمره إلى خادمه بأن ينتظر إلى أن يدعى.. فأطاع الخادم.. وأعاد المحب تجربته السابقة.. فنجح، والتفت الساق بالساق، وطوق الساعد الخصر النحيل.. ودار الحديث الحلو الجميل.. قالت الفتاة وهى تعبث بأصابعها فى رأس حبيبها:

- كنت مش راح أقدر آجى النهاردا، ولاأشوفكش طول العمر.

وكان حبيبها وقتئذ فى أشد الخوف مما عسى أن يعلق بأصابعها من الصبغة الجديدة، فأبعد رأسه -باحتراس- أغلب الظن أنه نم على خاطره.. ثم قال بلهفة صدرت حقا من سويداء قلبه.

- لسه مسألة خطيبك؟ إحنا مش اتفقنا إمبارح؟!

- قلت لماما عليك... لكن بصراحة أقول لك إنها لما عرفت بخطوبتك التانية.. خافت.. ولا.. ولا.. موافقتش

-عجيبه.. آ. آ. لها حق أنا حالا أكتب الجواب لخيرت بك و.. أعطيه لك تطلعيها عليه. وتحطيه فى البوستة بنفسك.

وهم بأن يحتضنها ليهدأ روعها، ولكن عثمان كان قد نفذ صبره فدخل يستعلم عن مصير الشاى، فلم يجد السيد أفضل من أن يأذن بإحضاره، وأحدث بحواجبه وشواربه حركات عجيبة ينوه بها إلى البند الثانى من نصيحته سالفة الذكر. فلما انتهيا دخلا غرفة المكتب، وتعاونا معا على صيغة الخطاب المنشود! ثم إن صاحب المنزل عمد إلى ركن من الغرفة ففتح خزانة من الحديد

وأخرج منها رقعة مكتوبة.

- ده! الجواب اللى خيرت بك بيرتعش منه.. اتفضلى

- دلوقت أنا وثقت من إنك لى وحدى.. وحدى.. وحدى

وارتمت الفتاة على صدره، فكان مشهدا مؤثرا تعمد العاشق الولهان إطالته حتى ضجرت العاشقة الوالهة وتململت.. ثم تهالكا على مقعد وهما منهوكان تعبا وغراما. ودقت الساعة

- أوه.. الساعة سبعة.. أنت أمهر واحد يعرف يضيع الوقت اسمح لى أروح بقى. وبكره أعمل ترتيبى أنك تيجى لنا البيت، أعرفك بماما وانتم الاثنين تتفقوا على كل شئ.

ومدت يدها فتناولها بيمناه، واستل بيسراه من جيب صديريته خاتما عظيما من الماس.

- إن كنت تحبينى صحيح.. اقبلى منى الهدية دى

- ما فيش لزوم

- فيه لزوم

- ما فيش لزوم

- فيه لزوم

وأخيرا سمحت له بوضعه فى أصبعها، وانتهز الفرصة فقبل يدها.. ثم سار بها حتى الباب الخارجى، وراح هو وعثمان يشيعانها بأنظارهما، فلما توارت أشاح كل بوجهه عن الآخر، وأخذ سبيله.

-٤-

هو المساء نفسه، وقد دقت الساعة فى الصالة، لكن أحدا لم يسمع دقاتها الثمان، فخيرت بك وزوجه، وسعاد وإخوتها فى هرج وصياح وفرح، ليس فيهم من يصدق عينيه، وليس فيهم من يصدق أذنيه، بل ليس فيهم من يثق الآن فى عقله... وبينهم متكلم يلهث من فرط ما تكلم ويأمرهم بالإصغاء إلى البقية الباقية.. ولم يستطع خيرت بك إلا أن قال:

- دا شئ زى الحلم

فضربت إحدى البنات ركبتيها وصاحت قائلة:

- دى رواية بديعة.. بديعة جدا.

وقالت سعاد:

- وزكريا بك ماعرفكش أبدا يا صلاح؟!

- أنا مش صلاح.. أنا سعاد نمره٢.. وكنت أحلى منك، وأشيك منك.. وكنت أمشى أتعوج كدا

وأخذ يمشى مشية خليعة، ويتكسر بعضه على بعض، حتى ضحك الجميع ملء رئاتهم

- والدليل القاطع على صدق روايتى.. أيها السادة.. هذا الخطاب.. و.. هذا الخطاب.. أما الأول فاسمعوه:

«عزيزى خيرت بك»

«بعد تقديم واجب الاحترام أرجو أن أحيط حضرتكم علما أن ظروفا خاصة لم تكن فى الحسبان تجعلنى الآن أتنحى عن الشرف العظيم الذى سبق أن أوليتمونى إياه بقبول خطبتى لكريمتكم المصونة سعاد هانم، وأرجو أن لايسوءكم هذا، وإن كان يسوءنى ويدعونى للخجل، وإنما يشفع لى فى موقفى ما أراه من صالح كريمتكم وتوفير أسباب السعادة لها.

«ولكى أبرهن على إخلاصى لكم، ورغبتى فى دوام المودة لشخصكم أرسل مع هذا خطابكم الذى سبق أن عرفتكم بوقوعه فى يدى بالمصادفة الحسنة، أعيده إلى يدكم الكريمة لضمان حسن العاقبة والله سبحانه وتعالى يهدينا سواء السبيل.

«دمتم ودامت محبتكم لصديقكم المخلص»

زكريا يوسف

- أما الخطاب الثانى فها هو يا عمى العزيز

فتناول خيرت بك الخطاب فعرفه، وأجرى فيه بصره ليتأكد من حقيقته، ثم هم بتمزيقه فصاح صلاح بضرورة إحراقه وأن يكون هو مشعل النار.. وقرن القول بالفعل. وخيرت بك من فرحته فى ذهول

ثم صاح صلاح مرة أخرى:

- مهلا مهلا على رسلكم، برهان آخر ساطع لامع يأخذ بالأبصار انظروا انظروا هذا الخاتم أدانيه حبيب قلبى، وقرة عينى، وبهجة فؤادى، هو عربون السعادة الأبدية من عريسى أقدمه الآن لعروسى عربون السعادة الأبدية أيضا.

ثم استل الخاتم وتقدم به إلى سعاد، فاستحيت لهذه المباغتة ورنت إلى والديها بطرف لاتقوى على رفعه، فابتسما ابتسامة الرضى. فشجعها ذلك على أن تداعب فتقول:

- لا مفيش لزوم..

- فيه لزوم..

- لا مفيش لزوم..

- فيه لزوم..

ثم سمحت له بأن يضع فى إصبعها.. وانتهز هو الفرصة فقبل يدها قبلة حارة طويلة

وصاح خبيث من الأولاد:

- لتحيا سعاد نمرة٢

فكرر الجميع النداء

حتى خيرت بك.

مطلوب جنيه

-١-

كان الحوار كئيبا رهيبا فى كآبة الغروب ورهبته

- إلى أين تذهب؟

- بل متى تذهب أنت؟

- إنى سعيد هنا..

- ولكنى ضقت بك

- كل ما فى غرفتك يغرينى بالبقاء

- أنت أفسدت حياتى.. حطمتنى. سحقت شبابى..

- أراك أقوى من غيرك على احتمالى

- لم تعد لى طاقة بك.. ارحمنى

-أينما ذهبت لا أجد إلا الجفاء.. إنها لقسوة

- ممن؟!

- ممن أوجب الصلة بيننا... على الأقل

- ...

- ....

- اذهب إلى الصحراء!

- لا أحب الوحدة

- اقذف بنفسك فى جهنم

- لست جبانا فأنتحر

- أقتلك إذن!

- لاتستطيع، ولم يستطع غيرك. والله لايستطيع كذلك!

- إنك كافر!!

- إذن أيها المؤمن.. فهو جل شأنه لايريد

- لايريد؟!

- أنا الملح فى الخبز

- خبزك شديد المرارة

- أنا المرارة فى جسم الوجود.. إلى أين تذهب؟

- أفر من منظرك... ومن هرائك

- بل اخلع ثيابك واسترح.. أو.. فنم..

وضحك الضيف من أقصى الغرفة، ومن أقصى حنجرته فى مثل سعال التيوس، ضحكة تقلص لها وجهه البشع البارز العظام، ثم حدج الفتى من محاجره بعينين كجمرتين خامدتين، فاستسلم الفتى إلى مغناطيسيتهما وخلع سترته واستلقى على سريره.

وبعد فترة أفاق «صبرى» بعض الإفاقة فلم يجد الضيف الثقيل. ثم أفاق كل الإفاقة فعلم أن لم يكن بالغرفة أحد!! وما كان هذا الحوار إلا أزمة نفسية، وعرا كاً شبّ بين وجدانه وبين الفقر الذى تجسم لخياله. الفقر الذى سيطر على حياته، إذا فر من براثنه الحادة فإلى ظله القاتم. وإنه اليوم أحرج ما يكون مركزا حيال هذا المسيطر الجبار، لذلك استسلم له وأطاع أمره..

وصبرى شاب سار فى سبيل التعليم الثانوى حتى قام فى وجهه فَبو والده، فتنكب الطريق مرغما، وراح يذرع سبل الحياة، فإذا بها متشعبة وعرة، لم يجد فيها هدى، ولم يصل منها إلى

مستقر.. فهو لايبارح خيبة إلا إلى أخرى، ولايمضى عن سراب إلا إلى سراب. ومن ثم كان صبرى فذا فى البوهيمية.. فهو بوهيمى حيال نفسه، لايعترف بها.. قد تجشمها الصعاب حين تكون متعبة، ويكبح جماحها وهى أنشط ما تكون، وقد يحتقرها حين تزهو، ويزهو بها وهى فى قرار الحضيض وهو بوهيمى حيال الناس، إذا رضى فكلهم أبرار، وإذا غضب فكلهم أشرار. وإنه ليقبل عليهم تارة فى إخلاص يرسل لهم الدعابة الحلوة والنكتة المستملحة، فيقبلون عليه ويسترضونه، وتارة يقبل فى نقمة مستورة أو عارية فيلدغهم بالقول المر والنقد الأليم حتى إنهم يفرون منه أو يخرسون لسانه. وبوهيمى حيال الطبيعة، لايعترف بالزمان ولا المكان، فقد يرى الليل معاشا، النهار لباسا، وقد يرى بين هذا وهذا مالا يراه غيره أو يتواضع عليه سواه.

وقد عالج صبرى مختلف المهن، فوقف فى المتاجر يبيع، وجلس إلى أبواب المحاكم يكتب، ومشى بين الناس سمسارا يوفق بين البائع والمشترى.. والآن يشترك فى تحرير مجلة أسبوعية لو تعطلت ما خسرت كثيراً من ذيوعها.. وأنه ليمدها بنظمه ونثره؛ إذ اتضح آخر الأمر أنه ناظم، وأنه ناثر!!

لذلك اغتبط صبرى بالخاطر الذى خطر له والعراك الذى دار بينه وبين الفقر المجسم ومضى وهو مستلق على سريره يلبسه ثوب القصيد. وسوف يتحدى بقصيدته الشعراء أجمعين غير أن ذهنه ما لبث أن انصرف إلى اتجاه آخر.

-٢-

لقد بدأت فى البيت الحركة، وتبلبلت فى الغرفة الألسن، وتعالت الأصوات.. رجال ينادون ونساء يصحن، وفى النداء والصياح ضحك وجدل وشجار. يتخلل هذا وذاك صوت «وابور الغاز» ورنين الأوانى، وجلبة الصبية بين مهلل للطعام وساخط عليه.

حركة يألفها صبرى. لقد عاد جيرانه من أعمالهم. النجار والحداد والسباك والبناء، وأرباب حرف كثيرة أخرى ليس فيهم شاعر غيره. وقد أمكن كل منهم أن يهتدى إلى مسكنه، وأن يتعرف إلى أهله فى هذا المنزل المتهدم ذى الممرات والغرف الكثيرة. وكل ممر يؤدى إلى دهليز أو دهاليز، وكل غرفة هى مسكن لعائلة أو عائلات.

وأرهف صبري أذنيه، فسمع كحة لاتفتر حتى تشتد، ولاتنقطع حتى تعود، وحتى تكاد تزهق روح من يعانيها. بيد أن صبري لم ينزعج للصوت، ولم يتألم لصاحبه، بل على العكس من ذلك، فإنه نسي الفقر وشبحه، والشعر ووحيه، وأحس بإشراق في نفسه، وطرب يتمشى في كيانه، وبصوت عذب يهتف في فؤاده: «لقد عادت توحيدة»

وخف إلي نافذة علي «منور» فأطل منها، فرأى نورا ضئيلا ينبعث من الغرفة التي تحته، فحمد للهاتف البشرى. ولبث إلى النافذة حينا يراقب الخيال الذاهب المقبل، ثم عاد فاستلقى على سريره وراح يتخيل لو أن ظرفا ليس في الحسبان دفع بالفتاة إلى الصعود إليه فضمتهما الغرفة لاثالث لهما ولارقيب! ماذا عساه أن يقول، وماذا عساه أن يفعل؟

وفجأة اعتكر مزاج صبري، وباغته السخط على نفسه: «مالك ولها؟ تلك ابنة بائسة لوالد بائس. تعلم أنه فقد بصره فتجارته. وهذا السعال يفتك به على نحو ما تسمع. والابنة المسكينة ترعاه وتقوده وتعينه على ما قنع به من بيع الحلوى للصغار. ماذا تريد أن تقول، وماذا تريد أن تفعل؟ تغريها فتستسلم لك، قد يخزك ضميرك. ولكن الوخز يزول مع الزمن فتعود نذلا كما أنت، جبانا كما أنت!! أما هي فلن تعود إلى ما كانت عليه، بعد أن أغواها فحيحك أيها الثعبان فأخرجتها من جنة طهرها إلى عالم الرجس والعهر والموبقات».

وقام في خيال صبري منظر توحيدة وقد وشمت ذراعيها ووقفت في المواخير تعرض جسدها وتساوم عليه. فاستشبع الخيال وأقصاه عنه، وحاول أن يلقي التبعة على الفقر وعلى فساد النظام الاجتماعي. فعاد ضميره يهيب به: «أما وهي فقيرة فلم لاتتركها لذلك الشاب النجار الذي تعلم أنه يحبها؟ إنه سيتزوج منها، فهؤلاء العامة الفقراء المساكين، أكثر إخلاصا، وأصدق محبة، وأنقى نفسا من المتعلمين وأشباه المتعلمين، والأغنياء وأشباه الأغنياء، وأن الفقر الذي يوجد عندك وأمثالك : النقمة والتبرم بالحياة، والنزعة إلى السوء، هذا الفقر يصهر تلك النفوس، ويصفيها، ويسلمها إلى القضاء والقدر، فهم راضون، وهم قانعون، وهم في عالمهم مغتبطون هانئون»

وأمكن صبري أن يسترد ذهنه إلى القصيدة التي سيتحدى بها الشعراء أجمعين، ولكنه ما لبث أن سمع نقرا على الباب أو خيل إليه أنه سمع، فأرهف أذنيه، وعاد النقر فقام نحوه، ولم يكد يفتحه حتى جمد في مكانه..

هى توحيدة أمامه وجها لوجه، يطغى عليها الخجل بقدر ما تطغى عليه الدهشة فارتبكا حيناً، ثم تمالك صبرى نفسه فقال:

- أهلا وسهلا..

فأطرقت الفتاة، وأدرك أن لها حاجة، فتنحى عن الباب وهو يقول:

- اتفضلى.. اتفضلى..

وفى هذه اللحظة فقط أدرك تكاثف العتمة فى الغرفة، فأسرع وأضاء مصباحا موضوعا على النافذة. ودخلت الفتاة وهى تتعثر فى ثيابها، وصبرى لايكاد يصدق ما يرى، على أنه أشار إلى مقعد وطلب إليها أن تجلس، فأطاعت فى وجل وتلكؤ، وجلس صبرى على حافة السرير.. وقد انتابته مشاعر متضارية:

- أهلا وسهلا.. دى زيارة غريبة، فقالت توحيدة بأشد ما يكون الصوت خفوتا.

- والدى باعتنى لحضرتك

وفى هذه اللحظة علا صوت الوالد بالسعال الشديد، كأنما يشد أزر ابنته.. فساد السكوت حتى سكت الصوت، ثم قال صبرى فى إشفاق ودهشة:

- أى خدمة ؟!

- والدى باعتنى لحضرتك.. علشان حضرتك.. من فضلك تسلفنا جنيه..

- أسلفكم جنيه ؟

ولم يدر بأى لهجة قالها.. أبدهشة أم بانزعاج، بخشونة أم بلين، على أن الفتاة قالت:

- علشان أجرة البيت.. علينا تلات أشهر متأخرين.. و. و. والشهر دا.. اعمل معروف..

وراحت تبكى، فاقترب صبرى منها وربت على ظهرها، فأحس باكتناز لحمها وحرارته فلذ له أن يترك راحته، حيث كانت ووقفت توحيدة احتراما لوقوفه، وقالت بين عبراتها:

- صاحب البيت راح يبيع عفشنا بكره ويطردنا.

وهم الفتى بأن يتشفع بالحنان الذى يستدعيه المقام فيضمها إليه، ولكن هذا النبأ الأليم أقصى عنه ما نوى، فلبث مكانه وقال بأسف خالص وإشفاق حق:

– يبيع عفشكم.. ويطردكم من البيت؟..

– أى والنبى.. ربنا يخليك..

– اسمعى.. بكره الصبح يكون عندكم الجنيه..

وركز رجولته فى كل كلمة من هذا الوعد الصريح..

وحاولت الفتاة المسكينة أن تقبل يده فمنعها وانصرفت وهى تتمتم بحمده والدعاء له، أما هو، فبعد فترة فيما يشبه الذهول قال يخاطب نفسه، وكأنها منه فى أقصى الغرفة:

– لابد من الحصول على هذا الجنيه، ولو أنه فى مركز الأرض لفتتها، ولأخرجته من بين أنقاضها..

-٣-

ومضت ساعة بعد أخرى. وصبرى لم ينل من الأرض إلا بقدر ما علق من ترابها بنعل حذائه. وكان قد غشى المجالس. وقابل الكثيرين، وبذل من فكاهته الشيء الكثير دون أن يفوز من أحد بما يريد. فليس غير الاعتذار فى لطف أو الإعراض فى تأفف.

ولكن لابد من الحصول على الجنيه! لن يبيع صاحب البيت متاع الوالد البائس والابنة البائسة! وما مصيرهما حين يطردان؟ أما الوالد فإلى القبر، وأما الابنة فإلى حيث يعلم الشيطان. أى عالم هذا وأية قسوة؟! لابد من الحصول على الجنيه.

وكان صبرى يهيم الآن على غير هدى، وقد تخاذلت ساقاه من فرط ما تعب. ثم انتبه فجأة! كأن منبها شديد التأثير سرى فى كل خلية من خلايا عقله وجسمانه، وانطلق يصيح:

– يا شاويش

وكان الشرطى المقصود بالذات يسير فى الجانب المقابل من الشارع، فلما سمع النداء أسرع فى خطوه، فهو قد انتهى من عمله ولايريد أن يستنجد به أحد فى وقت فراغه. وأعاد صبرى النداء، فضاعف الشرطى سرعته حتى قطع شوطا بعيدا.. وأدرك صبرى سر الأمر فصاح بأعلى صوته:

– يا شاويش عبدالباسط.. استنى استنى..

عند ذلك اطمأنت مخاوف عبدالباسط من الوجهة الرسمية، فالتفت خلفه ثم وقف فأدركه صبرى، وابتدره بتحية هاشة ليس فيها تكلف، فردها الشرطى بغير القليل من الدهشة والجفاء على أن صبرى استطرد فقال:

- حضرتك مش من كوم اشفير.. مركز منوف؟

- أيوه

- يا أخى دا احنا بلديات.. أنا حسن صبرى من عزبة الزهاوى.

- تشرفنا...

- وأنا بابحث عنك من الصبح

فلم ترق الشرطى هذه المباغتة، فتجهم وجهه، وجعل يصعد نظره فى هذا الفضولى من رأسه إلى قدمه ذهابا وإيابا، ثم قال بامتعاض وسماجة:

- حضرتك بتبحث عنى؟.. ومن الصبح؟. ليه؟ متهم.. متشرد.. مجهول الإقامة؟

- لا. لا، معاذ الله بقى حضرتك خدمتنى وقت ما طلبونى فى القرعة خدمة لأنساها طول حياتى، وأنا عاوز أخدمك خدمة ماتنساهاش طول حياتك.

فاشتدت الدهشة بالشرطى وقال:

- أيه الموضوع؟!

فأعاد صبرى إلي ذاكرة عبدالباسط اسم عزت باشا، وكان ثريا ذائع الشهرة فى منوف. وقد توفى منذ أعوام عن آلاف الأفدنة وآحاد الأولاد.. فاقتسموها، وأعملوا فيها الإسراف والتبديد، شأن الكثيرين من أبناء الأغنياء.. وأنه على صلة وثيقة وصداقة تقرب حد الأخوة بيسرى بك، وهو وإن كان أصغر الورثة سنا إلا أنه أكثرهم اتلافا وشيخهم تبذيرا. وأنه ليستدين بأبهظ الفوائد ويبيع من نصيبه بأبخس الأثمان.

- مال جه من الحرام، ورايح فى الحرام..

قالها عبدالباسط بغل وحسد وشماتة. وقال صبرى يجاريه:

– على رأى المثل، مال تجيبه الريح تأخذه الزوابع.

ثم استطرد إلى بيت القصيد، وهو أن يسرى بك يريد الآن أن يبيع تلك الأفدنة الثلاثة التى خصته فيما خصه، والتى تقع وحدها بالقرب من كوم اشفير والمتاخمة لأرض السيد عبدالباسط وأهله. وأن يسرى بك –وفى ورطته وحاجته الشديدة إلى المال– يقبل أن يبيع بأى ثمن.

– الفدان هناك يسوى كام؟

فأراد عبدالباسط أن يبخس الثمن لعل الصفقة تكون من حظه فقال:

– ثمانين أو تسعين جنيه

– طيب.. إيه رأيك لو تشترى بستين؟ يعنى مايه وثمانين جنيه فى الثلاث أفدنه.

فحملق عبدالباسط ذهلاً لهذا الثمن، بيد أن صبرى عاجله بأن الفرصة سانحة يجب انتهازها.. وأنه ذكره ويحث عنه طول اليوم لما يحفظه له من فضل سابق. فشرد عقل عبدالباسط حينا ثم تمتم يذكر ما لديه من المال. فقال صبرى على الفور

أنا راح أقول لك على سر تعرف منه إنى عاوز أخدمك صحيح، الحقيقة أن يسرى بك محتاج لماية جنيه.. تدفع فورا عند الشرا طبعا.. والباقى أنا أخليه يصبر عليك فى سدادهم.. وعلشان تتأكد من صدق كلامى، تعالى معايه حالا أقابلك بيسرى تربط الكلام معاه بنفسك وبعدين فكر. إما تشترى أو ما تشتريش. على كيفك.

فسار عبدالباسط مسرعا.. وأى رجل لايسرع إلى مثل تلك الصفقة التى تشبه الأحلام.. ومضى صبرى يعيد تفاصيل الأمر، ويزيل من غرائبه بما يسرده من نوادر يسرى بك فى إسرافه، واستسلامه لأقران السوء الذين يحيطون به، وبما يظهره من أسف عميق على ما يبذله لصديقه من نصح وما يحاوله من إصلاح.. ولكن على غير جدوى.. وعبدالباسط يصغى إلى الحديث حينا ويشرد عقله أحيانا، حتى انتهيا إلى شارع سليمان باشا وإلى مشرب من تلك المشارب الصغيرة الأنيقة التى يأوى إليها من يريد التمتع والوجاهة والتستر. فوقف صبرى وقال بلهجة من يتحرق غيظا:

– آدى البار.. سبب خرابه. اقف هنا لحد ما أدخل أكلمه وأخليه يقابلك.

أهلا وسهلا بالأستاذ صبرى شاعر الشعراء ورأس الأدباء. مؤلف أنشودة: «آدى القمر يا حبيبى»

تلك هى التحية التى اعتاد يسرى بك أن يماجن بها صبرى. وكان يسرى بك مع رفاق له يشربون ويسمرون.

- العفو يا سيد الملاح

وهذا ما اعتاد صبرى أن يرد به على التحية، مع انحناء كأنما يريد أن يقبل يد صاحبها.

ولما كان ما ذكره صبرى للشرطى عن يسرى بك لايستقيم مع الحق كل الاستقامة، ولاينطبق على الواقع تمام الانطباق فإحقاقا للحق، وإنصافا للواقع يجب أن نقرر أن يسرى بك هو فعلا من آحاد الأولاد الذين ورثوا عن أبيهم عزت باشا آلاف الأفدنة فى منوف. على أنه ليس بالمبذر ولابالمتلاف المستهتر. بل هو حازم رزين فى نهاره، فإذا ما جن الليل أقبل على خمر لاتذهب بالعقل واستباح من اللهو ما لايمس الكرامة. وإنه لمرح جواد ويستسيغ الأدب. ومن ثم كانت وجوه العلاقة بينه وبين صبرى.

- إن كنت عاوز تقعد معانا لازم تقول حكاية جديدة.

فمال صبرى حتى همس فى أذنه:

- أنا عندى حكاية.. الأحسن أقولها لسعادتك على انفراد.

- لا.لا.. قولها.. ماتتكسفش.. كلهم أصدقاء أعزاء..

فعاد صبرى إلى همسه يقول:

- دا سر خاص بى أنا.. اعمل معروف.

وأطاع يسرى بك فابتعدا عن الرفاق حتى كانا تجاه باب المشرب

- يسرى بك. أنا وقعت من السما

- انت دايما واقع من السما. امتى راح تصعد إليها يا أخى؟

– أنا فى مركز حرج جدا

– انت كنت فى نفس المركز من ثلاثة أيام فقط لاغير. وأخذت جنيه لحقت تصرفه؟!

– المسأله أعوس من كده

واستطرد ينهى إليه فى تهدج ووجل أنه منذ شهر تقريبا سكر حتى عربد. فحرر البوليس له محضر عربدة. ونظرت القضية اليوم. فحكم عليه بغرامة جنيه أو حبس أسبوع. وظل طول اليوم فى الحبس الاحتياطى حتى يختار أحد الأمرين. وقد استنجد بالكثير من أصدقائه فلم يخف لنجدته أحد. وكان من حسن الطالع أن ساق القدر إليه شرطى من أهل بلدته، تعهد لأولى الأمر بأن يذهب معه حتى يحصل على المبلغ، وهذا هو الشرطى ينتظره وأشار إليه.

ومد يسرى بك بصره فإذا الشرطى واقف لدى الباب حقا، وأدرك عبدالباسط النظرة والإشارة فتحرك فى مكانه وابتسم وأيقن أن الحديث خاص به وبالأفدنة.. فشاع الفرح فى قوامة العكسرى.. وود لو أن يدخل فيعلم البائع المورط أن باستطاعته أن يدفع الثمن أجمعه نقدا وعدا وأحدث من أجل ذلك إشارة برأسه يستدعى بها الوسيط ليزف إليه هذه البشرى.

– شايف يا يسرى بك. أهو الشاويش بيستعجلنى..

– يعنى يا أستاذ صبرى لازم تسكر لحد ما تفقد صوابك؟!

– اللى حصل.. أنا فى عرضك.. والتوبه.

– الأمر لله.. ادى جنيه الغرامة. وأدى ريال لك وللشاويش.. اتفضل..

مأخذ صبرى الورقة المالية وقطعتى الفضة، وشكره وحياه وانصرف. وما إن خرج من البار حتى أمطره عبدالباسط وابلا من الأسئلة عما قال وعما قيل، وعما استقر عليه رأى يسرى بك.. وعما إذا كان صبرى قد أدرك الإشارة التى أحدثها برأسه، وراح يشرح ما تنطوى عليه من التساهل والرغبة الأكيدة فى إنقاذ عزيز قوم ذل.. فقال صبرى وقد أصبحا من المشرب على بعد كبير..

– انت شفت بعينك كلامى له.. ويسرى بك راضى.. إنما لازال متردد. فالأحسن اعطينى عنوانك.. ولما يعزم أخابرك مباشرة..

فأسرع الطرف الثانى يقول بلا هوادة:

- عبدالباسط أبوالعلا جاب الله إبراهيم شاويش مراسلة بقسم عابدين .. أو حضرة المحترم المذكور أعلاه بزقاق الفواخير نمرة٤ حارة أبوالمسك بالمغربلين قسم الدرب الأحمر.. أو يصل ويسلم لفلان بن فلان من أعيان كوم أشفير منوفية

- عال. عال. عال. ما فيش عنوان كمان. على سبيل الاحتياط.

- أى عنوان من العناوين دى يجيب أى جواب للعبد لله فى لمح البصر.

- اطمئن

- الله يطمن خاطرك ويسمعنا منك سمع خير

وتصافحا. وأخذ كل منهما سبيله وهو يكاد يطير من الفرح

وفى الهزيع الأخير من الليل عاد صبرى إلى مسكنه، فلما توسط الغرفة سمع صوتا يضحك فى مثل سعال التيوس وهو يقول:

- من أين أنت آت؟

- أنت لاتهمنى

- كيف؟

- فى بطنى طعام، وفى قلبى غرام، وفى رأسى خمر وشعر

- إن الصباح قريب

- تفضل ونم على السرير حتى الصباح، أما أنا سأنام ههنا.. ههنا..

وتخاذلت ساقاه من شدة سكره فاستلقى على الأرض.

بوستة

من الصعب، من الصعب جدا أن يعرف امرؤ من غير أهل الحارة أين يسكن الحاج إمام. فهو «مضروب مشترك» فى كل بيت.. فى كل أسرة.. بل فى كل مائدة. وإنه لمحبوب من الجميع مرحب به أينما حل يقرأ لهؤلاء ما تيسر من القرآن ويحدث هؤلاء بأخبار الإنس والجان، ويقضى لهذه حاجة تطلبها ويتبرع لهذه بقضاء حاجة لم تخطر لها على بال. وأهل الحى قانعون منه بهذا، وهو بهذا أكثر قناعة، لايعلم للزمن معالم غير المواسم والأعياد.

على أن الحاج ليس شريدا أو مجهول الإقامة. فشيخ الحارة، يعلم علم اليقين أنه يسكن فى بيت «الشيخ عبدالتواب الدرينى» فى المندرة التى إلى جانب الباب، ولاأدل على هذا من أن مفتاحها معلق فى رقبتـه أبدا.. بل إنه ليلذ للحاج -من آن إلى آن- أن يخلد إلى حظيرته. وهو اليوم مخلد إليها. ومعنى هذا الإخلاد أن يكون دائم الحركة ذهابا وإيابا وانحناء واستواء، حتى ليحسبه الرائى مأجورا أجرا حسنا على إحداث أكبر مقدار من الفوضى فى محتويات هذه الحظيرة.. ومحتوياتها شتى ومتنافرة.. الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرز تمادى به الزمن والاستعمال حتى تكتل وتصلب. وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشكل. وعمامة الحاج إذا لم تكن فوق رأسه. ومنشفة للوجه لايجد الأنف بين قطوعها مكانا إلا بالمهارة والحيلة. أما اللحاف فقد يحتل جزءا من فراغ النافذة، وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل. ففى الليل تؤدى عملها كإحدى بنات جنسها. وفى النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج. وفى إحدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمله من الملابس لم يعد الحاج يستعملها إشفاقا على نفسه وعليها. إنما يحتفظ بها وفاء بعهد السنين الطوال التى قضتها فى خدمته. أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص. على أنه ليس بالمسمار الوحيد بل هناك كثير غيره. فواحد تتدلى منه زجاجة. وفى الزجاجة زيت. وثان يحمل مصباحا. وللمصباح هباب على الحائط. والثالث لجراب فيه المصحف الشريف، ورابع وخامس.. وخامس عشر!! وفى كل مكان صناديق من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدرى سوى الحاج ما فائدة الهواء المحبوس فيها.

كان إمام مخلدا إلى غرفته. فإذا عامل البريد طرق الباب، ودخل، وسلمه خطابا وانصرف.. فى غير زمن!! فوقف المرسل إليه مشدوها من المفاجأة، ثم عمد إلى النافذة فقرأ الاسم والعنوان، فإذا بهما صحيحان، ولهما مقدمة فياضة بألقاب التبجيل والتعظيم..

ممن الخطاب؟ وماذا عسى يحتويه؟!

وارتج على ظن الحاج.. ولم يحر ظنه تفسيرا لهذا اللغز.. ثم قرأ الخطاب أخيرا.. فامتقع لونه، وراحت عضلات وجهه. واتسعت حدقة عينه اليمنى -أما حدقة عينه المجاورة فلم تكن تستطيع الاتساع- وسار نموذجا بديعا لمصور ماهر!!.. هذا شعر وهذا نثر فيهما إعلان لغرام، وبث للوعة وهيام.. من مطلعه «يا نور عينى» إلى إمضائه «شفشا».

جعل هذا الاسم العجيب يقفز فى ذهنه قفزات بهلوانية كان فى بعضها خطر على جمجمته. من تكون «شفشا» هذه؟ وأين رأته؟ ولماذا شغفها حبه إلى هذا الحد الجنونى؟ فما هو بالشاب الذى تفتن العذارى فتوته، ولا هو بالممول الذى تستهوى القلوب ثروته. ولا هو بذى الجاه الذى يشفع له عند الكواعب الناعسات الطرف الحسان!.. هل كانت «شفشا» هذه فى حال طبيعية من عقلها حين كتبت إليه؟ لئن ما يكن بها مس فقد أوشك أن يصيب الحاج هذا المس، فجلس فى مكانه من غرفته مسندا رأسه ليتحمل دوران الأرض فيها.

وكان الدوران عكسيا.. أرجعه سنة فسنة وخمسا فأخرى، وعشرا فثانية، فإذا به فى عنفوان الشباب، وقد ترك الأزهر ليشق طريقه فى الحياة. وكان أول طريق شقه هو «حارة الأتراك»، وأول باب اقتحمه كان لمنزل خرب اجتمع فى أرجاء صحنه الواسع شمل الكثير من أحجاره وأخشابه بعد طول التفرق فى الحيطان والسقوف. والمنزل لأرملة وقورة تجلس عند الباب الخارجى ولها فى شراء بقايا الخبز من المجاورين تجارة.. ولها ابنة أجرت عليها الطبيعة قانون وراثة الأمراض، فقضت لها بصوت أبح وأنف ضامر كريه. فاتخذها قلة القلوب من أهل الحى هزأة يسخرون منها فى روحاتها، حتى غدت لاتروح ولاتجئ، وانقطعت لخدمة ما لديها من أوز وفراخ، فهى تطلقها سحابة النهار فى الفناء وتقوم على حراستها، وفى الليل تسوقها إلى الأقفاص. وكان بينها وبين رعيتها لغة وتفاهم، فبأصوات تحدثها تقبل وبأخرى تدبر.

ولم يكن «إمام» قاسى القلب، فلم يسخر من الفتاة المسكينة، بل لم يمض عليه أيام فى جيرتها حتى كان لايقل عن أذكى الديوك فهما للغتها. فإذا ما أحدثتها صباحا صحا من نومه وحياها، ويعود فى العشاء ليسمع منها أمر المبيت.

وعاد إمام يوما بعد صلاة العصر فألقى فتاته تطارد فرخة شذت عن الجماعة، وتخشى الفتاة أن تسقط الفرخة البلهاء فى بئر مجاورة. فاستنجدت به. وسرعان ما راح إمام للهارية بعباءته

كأمهر «توريادور» ويجرى وراءها ولكن فى الاتجاه المحظور. وبصعوبة شرحت الفتاة له وجهة نظرها، فلم يقتنع إلا بعد أن وقفت الفرخة على حافة الهاوية، وجعلت تضرب بجناحيها. والفتاة تضرب خديها وقلب إمام يضرب فى صدره!! وفى حالة اليأس هذه أتى إمام بحركة فى غاية الرشاقة كادت تكسر منها ساقه. ووقفت وسط الفناء وقفة المستسلم. فتقدم إليها إمام ببطء وزهو. فلما هوى عليها صاحت الفرخة واعتصمت برأس كومة من الاحجار. فاسرعت الفتاة تتسلق الكومة فى أثرها. ولكن الحجر تخلخل تحت قدميها. وفى لمح البصر كان إمام ممسكا بيدها. وزاد تخلخل الحجر فهوت على صدره ثم سقطا معا على الأرض وهى بين ذراعيه. وفى هذه اللحظة دخلت ربة البيت..

وكان من هول الذكرى بعد ذلك أن عاد إمام إلى حسه. فإذا «نجية» أمامه.. ونجية هى خادمة بيت الشيخ عبدالتواب.. وكانت تقول فى تلكؤ وأنوثة:

- اسمع يا حاج: بس اوع تزعل...

فأرسل إليها الحاج نظرة وهو صامت:

- جالكش جواب؟

- جواب؟...

قالها بلهفة مجرم يحاول إنكار تهمة ثابتة. وأخفى اضطرابه بالعبوس. وقالت نجية وقد ضاعفت استعطافها:

- كان شفيق... بس والنبى ما تزعلش يا حاج.. شفيق لما سافر أول امبارح. قال لى إنه راح يبعت لى جواب على اسمك. يوصل انهارده!

فنظر إليها فاغر الفم مسترخى عضلات الوجه. وقال بصوت دونه الحفيف كمن يخاطب نفسه:

- شفيق.. شفشأ.

- هو. هو. والنبى يا حاج..

فتنهد الحاج تنهدا طويلا كأنه بالون قد ثقب، ولما كان شفيق.. الذى هو شفشأ.. ليس إلا ابن الجزار الذى على ناصية الحارة. فقد استل الحاج الخطاب من عبه. ولوح به فى وجه الفتاة.. مؤكدا

لها أنه لاشك فاضح أمرها وقاطع عيشها. ومنزل بها ويعشيقها الويل والثبور وعظائم الأمور.. ولكن الشاى والسكر اللذين قدمتهما له نجية، مضافين إلى قدر مثلها من حنكة الشيخوخة أحدنا فى فؤاد الحاج «سملغماً» عاطفيا إحدى خصائصه الرثاء للشباب المعذب. وشرع يقرأ عليها الخطاب بطلاقة هى فى الواقع نتيجة حفظه له عن ظهر قلب، ثم بدأ يكتب الرد.

فجلست نجية أمامه تحمل الدواة... وراح يصيب منها بقلمه كل مرة ما يكفى تلويث أصابعه. ولإحداث البقع على الأرض. وعلى الحائط. وعلى الورق.. ثم للكتابة.. واسترسل فى ادعائه «أنه لو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما لحفيت الأقلام دون بث السقام. ولجف المداد قبل شرح المراد..» وكان يستعين على استنزال وحى البيان بمط شفتيه وزر عينيه تباعا أو معا.

وفيما هما كذلك إذ دخل الشيخ عبدالتواب. فأخفى الحاج الخطاب ليرد تحية رب البيت وتوارت نجية فى ركن الغرفة عند السرير فلم يلمحها الشيخ. ولم يشعر بها إلا وهى تصعد السلم خلفه. فقال دون أن يلتفت إليها:

– كنت فين يا بنت؟

قالت نجية بلهجة لم تخل من التلعثم:

– كنت عند المكوجى علشان قفطان حضرتك. لقيته ما خلصوش.

– طيب فوتى اطلعى قدامى جاتك داهية عبيطة!!

لأيعنىلأ

-١-

- لأ يعنى لأ

بهذا نطق عفيفى بك، أو أنه بهذا صاح وجأر.. صاح وجأر حتى جحظت عيناه، وحتى انتفخ كرشه، وارتجف كيان الرجل الضخم من سمت رأسه الأصلع إلى أخمص قدميه اللذين يشبهان فى طراوتهما خف الجمل. إذن فهو رفض قاطع كحد السكين. اكتفى به عفيفى بك ولم يرد. واستدار ليتم ارتداء ملابسه، فقد كان وقتئذ فى سرواله وصداره ليس غير، بيد أنه راح يدور حول نفسه، ثم لايدرى لماذا يدور، فيندفع نحو سترته المدلاة من المشجب، أو نحو رباط الرقبة المكوم على السرير، أو حذائه المستتر وراء الباب.. أو نحو.. أو نحو.. أو نحو.. وفى كل مرة يحجم، وعن كل مقصد يرتد..

يرتد لأن خواطر هوجاء كانت تعصف برأسه ويوشك أن يرسلها صيحات غامضة هوجاء فى وجه ابنه، ولكنه يمسك، ويؤثر أن لايزيد عن:

- لأ يعنى لأ

- لكن يا والدى..

قالها صالح، وعلى شفتيه الممتلئتين ابتسامة الأناة وهدوء البال

وفاض الغضب بالوالد فزأر زئير الأسد المغيظ:

- اذهب عن وجهى وإلا ساءت العقبى..

وتهالك على مقعد، ومضى يلهث، واحتقن وجهه حتى بدا إلى السمرة أقرب، وعز ذلك على الابن، فتوارت الابتسامة عن شفتيه، وتقلصتا تقلص الجد والإشفاق. وهم بأن يقول شيئا يقنع به والده.. ولكن هذا لم يمهله، وعاجله بيديه الراعشتين مدهما فى وجهه، وراح يقول ويعد على أصابعه:

– أول دفعتك، والثانى، والثالث..

فقاطعه صالح بدوره، وقد استحال إشفاقه مللا:

– أعرف. أعرف أن أحدا منهم لم ينل وظيفة للآن.. وأعترف..

– نعم تعترف.. تعترف بأن الوظيفة التى نعمت بها.. والتى اتخذتها وسيلة للخروج على.. هى. هى ثمرة تعبى، وجهودى أنا، وشخصيتى أنا، عند من لايزال يعرف قدرى.. من.. من أكابر الناس..

وما من شك فى أنه منذ اليوم الأول.. أو من الساعة الأولى.. بل هى من اللحظة التى وقع فيها بصره على «صالح عفيفى» بين أسماء الناجحين فى دبلوم كلية التجارة، برزت فى ذهنه فكرة «الوظيفة للولد.. الوظيفة للولد بلا تردد أو توان أو هوادة!» فقد كان يعلم أن التوظف بين جيش المتخرجين والمتعطلين فرص، وسباق، وصراع. أو أنه حرب عوان، ليست الدبلومات أمضى أسلحتها، ولا التأنى أسلم الطرق إلى كسبها والغلبة فيها.

فتأنق من فوره وتخضب. وانطلق فى مشارق الدواوين ومغاربها، يمرق فى الباب المفتوح، وينتظر أمام الباب الموصد، ويقتحم الثالث المستعصى المنيع. ما يبالى أن يريق ماء شخصيته بحسبانه مدير حسابات «على المعاش»، وماء شيخوخته باعتباره شيخا يلتمس المعون، ويستجدى المساعدة، يوما بعد يوم، وأسبوعا إثر أسبوع. لاتردد ولاتوان، ولاهوادة، حتى لم يكن بد من أن يعود آخر الأمر منتفخ الأوداج، متضخم الشخصية، يزف إلى ولده الوظيفة المرجوة.. وفى القاهرة.

وبعد ثوان استدار عفيفى بك فى عنف وانفجر مستطردا:

– الذنب ذنبى أنا.. لقد أنفقت شطر عمرى فى غير وجهه، وصنعت الجميل فى غير موضعه، لو أننى تزوجت منذ ماتت والدتك، إذن، لكان لى اليوم أولاد ربما عرفوا للأبوة حقها. أولاد تقع فى نفوسهم كلمات الآباء وتجارب الآباء، وحنكة الآباء.. وقع القرآن المنزل.. ليس شأنهم كشأنك. أيها الخبيث الخناس. لما صار لك مرتب يملأ جيبك عرفت أن لك إرادة، وأن لك شخصيه تعتنى بها، ورأيا تستقل به، وأصبحت أنا.. أنا الوالد.. أنا المالك.. أصبحت أنا ملكية مهملة.. وشرابة خرج..

فابستم صالح ابتسامة هى الضحك والحيرة والسأم جميعا وقال:

– لاخرج، ولاشرابة.. فأنا ما زلت الولد الطيب الطيع الذى عرفته منذ اثنتين وعشرين سنة. ولولا أنك عندى الكل فى الكل، لما أتيت إليك صاغرا.. لا. لا، بل عن طيب خاطر، بعد أن طردتنى..

– نعم طردتك.. وأطردك ثانيا وثالثا، ولاأريد أن أراك بعد الآن..

– ولكنى أعود إليك ثانيا وثالثا.. هاأنذا أتيت اليوم أرجوك، وأتوسل إليك، أن تكون إلى جانبى غدا.. وليكن غدا فقط.. لكى يكون الغد أسعد أيام حياتى..

فأهاب بابنه يقول:

– أنا.. أشهد جريمة عصيانك إياي، وخروجك على إرادتى؟

ثم إنه انتفض واقفا، وراح يهز بين عينى الابن سبابة متصلبة ويقول:

– والله لأجعلنهم ينقلونك إلى أقصى أقاصى الصعيد، سترى.

وخطا خطوات سريعة أوصلته إلي المشجب، فاختطف سترته، وهم بلبسها.. ثم لم يفعل بل قذف بها إلى السرير.. وعاد فجلس، وأمسك بحذائه، وبدلا من أن يدس فيها قدمه، أخذ يلوح بها فى الفضاء، وهو يجأر جهد طاقته:

– أنا؟.. غدا؟! والله عال..

وود صالح وقتئذ أن لو يوقف الأمر عند هذا الحد، وأن ينصرف. بيد أن عفيفى بك هم فجأة، فأمسك بابنه من كتفيه، وجعل يهزه بقوة ويقول:

– ماذا رأيت من تلك الفتاة الحقيرة.. حتى تتورط معها، وتريد أن تورطنى معك.. غدا تعقد عليها.. غدا.. هه..

– نعم غدا

قالها صالح فى جد حاسم، ثم تخلص من قبضة والده، ولأول مرة قال فى خشونة واضحة:

– ولكنها ليست بالفتاة الحقيرة، ولاأسمح لك أن تقول عنها ذلك!

- بل حقيرة وفقيرة..

- هى فقيرة نعم.. أما الحقارة فأبعد ما تكون عنها.. وأرجو أن تثق بأن والدها كان موظفا محترما، ولكنه مات من غير ثروة، شأن تسع وتسعين فى المائة من الموظفين. ومع ذلك فقد استطاعت والدتها..

- أمها المولِّدة!

قالها عفيفى أفندى فى تحدى من يجد ثغرة ضعف فى موقف خصمه، فقابل صالح ذلك بأن مط شفتيه فى تحد آخر، وأردفه بقوله:

- بل كانت حكيمة قسم.. تركت وظيفتها حتى تزوجت.. أريد أن أقول إنه على الرغم من موت والدها، فقد استطاعت أمها أن تهيئ لابنتها سبيل التعليم حتى نالت شهادة البكالوريا من المدرسة السنية.. أى من أحسن مدارس البلد، فما هو الفرق العجيب الذى بيننا، وأين هى الهوة السحيقة التى تفزع من أن أتردى فيها؟

فضحك الوالد ضحكة جوفاء، وقال فى هدوء مفتعل:

- أنت تدافع عنها لتقنع نفسك، لا لكى تقنعنى.

وراح يهز رأسه كأنما قد جاء فى قوله هذا بالأمر الخطير.

ثم تولى عن ابنه خطوات، وبعد فترة استدار فقال:

- اذهب فتزوج من عروسك الدميمة كما..

وهنا أسرع صالح فقال، وقد شاع الإشراق على محياه:

- أما أن «دولت» دميمة.. فلا.. يا والدى.. أواه لو تراها

- لا أود أن أراها.. ولكنى استفسرت فعرفت إنها عجفاء معتلة.. ولكنها استطاعت أن تقتنص لها شابا، طول وعرض، فى وظيفة يحسد عليها، تترصده كلما دخل الحارة أو خرج منها..

فتنفس صالح تنفس المسلول، وقال:

- كل أسفى أنك تصدر حكمك عن كلام الناس.. إنها جميلة.. جميلة جدا يا والدى ولبقة، وذكية الفؤاد..

مرت فترة توجه بعدها صالح بكل قلبه إلى والده، وقال:

- إن بيتها قريب.. عند منعطف الحارة. فهل لك أن تصحبنى فتراها الآن..

فقال الوالد:

- حسبك هراء.. أما ينقص إلا أن تتهكم بى؟

ولفرط ما كان يجيش فى كيان صالح من الفرحة لمجرد التحدث عن حبيبته، لم يدرك كل ما لهجه أبيه من غضب واستنكار، فتابع رجاءه قائلا:

- إذن تراها غدا.. عدنى بذلك..

فصاح الوالد حتى جحظت عيناه:

- قلت لا.. ومعناها لا.. حسبك وكفى، واخرج من هنا لا افصل رجعت.

-٢-

خرج صالح من منزل الأسرة مطروداً للمرة الثانية. وكان فى خروجه اليوم ثقيل القلب، ثقيل الخطا، ذلك لأنه يشعر للمرة الأولى بأن والده تخلى عنه حقا، ونبذه نبذا باتا قاطعا.. ليس بعده أمل إلى تفاهم أو رجعى، وانثنى -بحكم العادة- إلى اليمين ليأخذ طريقه إلى الشارع العمومى، وما إن سار غير بعيد حتى وقف فجأة، ودار على عقبيه وسار فى الاتجاه المضاد، وهو إنما تنكب الطريق ليتحاشى المرور أمام بيت خطيبته، فقد تلمحه من نافذتها فتومئ إليه بالصعود، أو قد يصعد تحت إغراء نفسه، وهو لايود أن يظهر أمامها بهمه وغمه.

ومضى فى طريقه، وقد ازدحم رأسه المنكس بنقاش موهوم بينه وبين والده، نقاش كان الفتى فيه هو الهاجم للشيخ، وهو الثائر الصاخب دفاعا عن مركزه، وإثباتا لشخصيته، وتقديرا لحريته: «أنا الوالد.. أنا المالك!» الوالد والد.. نعم.. أما إنه المالك.. فلا إنما البنوة فترة طبيعية من العمر، لها حقوقها على الطرفين، وليست رقا يلازم الحياة.. وإلا فما الزمن؟ وما نضوج العقل؟ وما المسئولية؟ قد ينصاع المرء لمشيئة والده أو غير والده.. أدبا أو حياء، فى الكثير من أعراض الدنيا.. مادية كانت أو أدبية.. ولكن أخص خصائص الحياة، والرجولة، والقلب، هل يمكن أن تفرض على المرء كأوامر الجندية؟ أو أن تملى عليه إملاء كالتلاميذ؟! هذا ما لايسلم به غير التعسف، وغير الإنسانية..

ثم فجأة ارتد تفكير صالح إلى أمه.. لاشك فى أن «دولت» كانت تنزل من قلبها المكان العزيز المكين، فهى رشيقة طروبة الروح، ذكية الجنان، أمينة العينين، مرهفة الحس.. مهذبة مثقفة.. إن دولت فقيرة، ولكنها ليست أصلا من طبقة الفقراء، بل الفقر طارئ عليها عارض.. ومع ذلك فقد وجدت من محتدها، «محتد والدتها» قوة وحسن تقدير، تحدت بهما الفقر، وتنزهت عن شوائبه، وتنكبت منحدراته ومزالقه. أنعم بها من أم.. لكانت تكون خير الحموات لأمه! بل لكانتا تصبحان أختين لم تلدهما أم..

«لو أن والدتى على قيد الحياة.. وأبى يرفض هذا الرفض، لما استطاعت أن تخرج على إرادته، وتحضرنى فى غدى.. ولكنها كانت تكون معى بروحها. وهى ولاشك معى بروحها الآن. وسوف ترفرف روحها علينا غدا، وتباركنا.. وإذن، فأنا مبارك سعيد».

وغلبه التأثر لهذا الخاطر، وغلبته العبرة، ولكنه أفاق من تأملاته، واستجمع نفسه وأحس بأنه قد سرى عنه، وقد زايل الضيق صدره، وانقشعت عن ذهنه السحب القاتمة، ونظر إلى الساعة، فإذا بها النصف بعد العاشرة فتلاحقت على ذهنه مهام شتى من أجلها لم يذهب إلى الديوان فى يومه إذ يجب قضاؤها استعدادا للغد. وإن استطاع قضاءها قبل الغداء كان الأحسن والأفضل. فقد وعد «دولت» عند توديعه إياها ليلة أمس، أن يتناول عندها الغداء فى الساعة الواحدة بعد الظهر.. ثم يخرج بها إلى النزهة. واستوثقت من أنه لن يتأخر، وهزت أنملتها الدقيقة بالوعيد الحلو إن هو فعل. فازداد نشاطه، واتسعت خطواته، وبدا له اليوم أبهج، وأكثر إشراقا، مما عهده طول حياته فى هذه الحارة وكانت حارة ضيقة. تطول وتلتوى، ثم تقصر وتنعرج، كأنما اختطتها حية تسعى. وكانت مرصوفة أرضها بقطع من الحجر، طال عليها العمر، وألحت عليها الأرجل والعجلات، فتآكلت جنباتها، وتقوست ظهورها، حتى باتت. وفى التأنى السلامة، وفى العجلة كسر الرقبة، أو على الأقل الندامة!

فأما عفيفى بك فإنه راح يتم ارتداء ملابسه، وهو يتسخط ويتذمر، ويهمهم ويتمتم. ويستحث نفسه، ويتبرم بكل ما يغيب عن بصره الزائغ، أو يفلت من يده المرتشعة. حتى تم له ما أراد. آخر الأمر. وكان يحس بأنه مسوق إلى أخطر الأمور شأنا، فانطلق من البيت كالقنبلة، وأخذ سمته إلى الطريق العمومى، يخب فى مشيته خببا.

على أنه -فى الواقع- لم يكن يدرى أين هو ذاهب، بل لم يكن فى رأسه فكرة قائمة ثابتة. كان فكره مشوشا، ويافوخه ملتهبا، ولكنه كان كتلة من النقمة على ذلك الولد العاق. وكلما أفاق إلى نفسه أحس بحرج كبريائه ينزوى، ويعجب كيف أنه -وهو الذى قضى السنين رئيسا مهيبا - يصيح الصيحة فيهرع إليه مرؤوسوه فى الأدب الجم، والخشوع المبين يلقى عليهم أوامره ونواهيه، ثم يضرب الضربة على المكتب فيتلاحقون خارجين وكلهم السمع والطاعة والرغبة فى النجاة!

كيف يعجز -وهذا هو- عن أن يخضع ذلك الغلام الغر، الذى كان إلى أمد ليس بالبعيد، حتى لكأنه البارحة، فى سراويله القصار. يعطيه «مصروفه اليومى» أو يحرمه إياه حسبما أراد، وكيفما ارتأى.

ولكن! ما حيلة عفيفى، وقد فسد الزمن، وانعكست الآيات، وضلت النزعات، وغوت الآراء تحت أسماء روح العصر.. ملابسات الظروف.. التقدم.. المدنية..!»

ويصق الشى إستنكارا..

ثم عاد فلام نفسه على أنه لم يترك هذه الحارة الكريهة.. منذ زمن بعيد، مع من تركها من كرام الناس. واشتد فى عينيه قبح ما ترامى تحت قدميه من صنوف القذارة.. فهنا وهناك نفايات الخضر وقشور الفاكهة مبعثرة على الأرض، وهنا وهناك أكوام القمامة فى الأركان والجنابات.

ففيم إذن، كان تشبثه بيننا، بعد أن تدهور صقعه، وبعد أن غصت الجيرة بحثالة خلق الله احتلوا بيوت العز القديم غرفا غرفا. وأشطارا أشطارا.. ليس فيهم غير الأصاغر من الموظفين والتجار.. والأرامل..

ألا لعنة الله على تلك الأرملة وابنتها

لقد عرفتا كيف تنصبان الشرك لابنه المغفل الأعمى..

وكان عفيفى بك قد وصل، وقتئذ منعطف الحارة، وأدرك أنه صار على مقربة من منزل غريمته، وإن كان لايعرفه على وجه التحقيق، فود أن لو بحث عن جارهما القذر، فصب فوقهما الحام والحمم، وشن عليهما الفضيحة الكبرى. وتفاقم إذ ذاك غضبه، واستبد به اهتياجه الكظيم..

وفجأة...

زلت قدمه، فهوى على الأرض، واصطكت رأسه بالأحجار المقوسة.. وأصابه الإغماء..

- هل من خطر يا ماما؟

فوضعت الأم سبابة على فمها تنبيها لابنتها وتحذيرا.. فأعادت الابنة سؤالها وقد خافتت من صوتها، وأجابت الأم:

- لاخطر.. لاخطر مطلقا..

- وهذا الإغماء؟

- ليس فيه ما يزعج.. فالنبض سليم..

قالت «دولت» وهى تفرك راحتيها:

- ليت صالح يحضر الآن..

- ألم تقولى إنه سيحضر للغداء؟

- نعم، ولكن ليته يحضر الآن. الآن.

فلم تر الأم داعيا إلى التعقيب على كلام ابنتها، ومدت بصرها إلى الرجل الممدد على السرير، وكان فى تلك اللحظة قد تنهد نهدة عميقة..

واكتفت «دولت» بما قالته أمها، وتحولت إلى المطبخ تستأنف نشاطها فيه، وتبعتها الأم بعد فترة لتفرغ الماء فى طبق كبير.. فقالت «دولت» وهى عاكفة على تقليب لحم كانت تقليه:

- لست أدرى من الذى نشر أخبارنا على الناس؟

فقالت الأم فى بساطة، وقد توقفت عن الخروج:

- كيف؟

قالت «دولت» مستطردة:

- وإلا، ما الذى جعل الناس يحملون عفيفى بك إلينا، وليست دارنا بأقرب الدور من حيث وقع، وليس منزله ببعيد.. (وبعد فترة قالت): ثم الصيدلى.. عندما هممت بالانصراف من عنده قال لى: «مبروك».

- ولماذا تريدين أن يكون أمر خطوبتك سرا مكتوما.. بل إنى أرى الخير فى أن يذاع..

ومع أن هذا الرأى نزل من قلب «دولت» منزلة الرضى، إلا أنها التفتت إلى والدتها وقالت:

- أتظنين ذلك؟

- ما فى ذلك من شك.. (ثم أردفت فى طريقها إلى الداخل) حذار أن يضحك صالح من طهيك..

فتضاحكت «دولت» فى مرح، وأكبت على ما أمامها، وأنشأت تهمهم بإحدى الأغانى، وفجأة أنزلت الطاسة من على النار، وأسرعت إثر والدتها، فأدركتها فى الصالة، وقالت فى همس:

- اسمعى يا ماما.. ما رأيك فيما سوف يكون عندما يفيق.. أغلب ظنى أنه..

- تظنين أنه.. قد لايُسر.. حين يعلم..

- نعم، أخشى أن يغضب، حين يرى أنه قد حمل إلى دارنا.. وقد يضره الغضب فى حالة هذه..

- حالة بسيطة، هو الآن -على ما أعتقد- فى سبات عادى عميق..

- ليته لايصحو قبل أن يجئ صالح.. أواه.. ليته يجئ الآن!

- الأفضل أن ننتظر.. ولنكن على حذر بقدر الإمكان..

وعادت «دولت» وذهبت الأم إلى حيث كان عفيفى بك فى سباته، فاتخذت مقعدا إلى جوار النافذة، وقد طافت إذ ذاك برأسها المسند إلى قبضة يدها، ذكريات حياتها الطيبة.. التلمذة، والمستشفيات، والعمل فى الأقسام.. ثم تشعبت الذكريات فى شجون وفنون.. كان لها فى نفسها مشاعر متباينة، حلوة تارة. ومُرة أخرى..

وأفاق عفيفى بك آخر الأمر، فتحسس رأسه المغمط باللفائف، ثم غمرته الدهشة لحاله جميعا، واعتدل من رقدته نصف اعتدال.. ولكن الأم أسرعت إليه، وأسرعت تقول:

-لاتجهد نفسك يا سيدى! والأفضل أن تظل مستريحا..

فتلفت عفيفى بك يمنة ويسرة، وراح يستنشق رائحة الليسول وصبغة اليود التى كانت تنبعث منه، وعادت الأم تقول:

- لاتنزعج، فإن الله سلم..

قال عفيفى بك، وهو ما يزال حائر النظرات:

– أعلم ما حدث.. نعم أعلم.. ولكن أين أنا؟

فتلعثمت الأم بعض التلعثم وهى تقول:

– أنت فى بيتك.. فى بيت جيرانك

ولأول مرة وقع وجه عفيفى بك على وجه الأم واستبانه. وهى امرأة فى الأربعين، بيضاء فى ثياب بيض، وحول رأسها طرحة تكمل استدارة وجهها الممتلئ. ولاتظهر من شعرها الأسود إلا القليل.. فطاب الرجل نفسا بما رأى، وطاب نفسا بحسن العاقبة.. فتولت عنه الدهشة، وانفرجت شفتاه وعيناه عن ابتسامة الرضى، وقال:

– لقد وهمت أنى فى مستشفى (وبعد فترة قال): أود لو تشرفت بمعرفة حضرتك؟

– خادمتك فاطمة..

– تشرفنا.. وفيم وقوفك.. تفضلى فاجلسى..

ووقع بصره على صدرها العالى، وعلى ذراعيها البضتين، فعبث بشاربه وقال:

– وحضرتك صاحبة هذه الشقة الجميلة؟

فتحاشت الأم الخوض فى التفاصيل، فقالت:

– صارت الشقة جميلة بوجودك.. ولكن أرجو أن تستريح..

فعاجلها عفيفى بك فقال:

– والله يا فاطمة هانم، لاراحة فى هذه الدنيا.. أو على الأقل لى أنا..

وتنهد تنهد المحزون وهز رأسه أسفا، وآثرت الأم الصمت، ولكن عفيفى بك استطرد فقال:

– وما الذى زل بقدمى، غير ما كنت فيه من غم ونكد.

واندفع عفيفى بك يفيض فى الشكوى من ابنه العاق الجحود، الذى رباه وعلمه، ووظفه حتى إذا صار له مرتب يملأ جيبه عصاه وخرج على إرادته، وها هو اعتزم –عنوة واقتدارا– على

أن يتزوج من فتاة صفراء معتلة. وأفاض. وأفاض، والأم ساكته لاحسب لها ولانسب. واجمة، لاتدرى أيان يكون الخلاص!..

ودخلت «دولت» فى هذه الأثناء، فاحمر وجهها من وقع المفاجأة، وراحت فى خصرها أجمل ما تكون، وأفتن ما تكون، وما أن وقع عليها بصر عفيفى بك حتى قال:

– ما شاء الله، ما شاء الله، من تكون هذه الجميلة؟

فترددت الأم، وأسرعت «دولت» تقول فى بشر وفرح:

– حمد الله على سلامتك.. ومهما يكن من شيء فنحن مسرورون بتشريفك دارنا، وإمكاننا أن نقوم ببعض الخدمة لرجل عظيم مثلك.

فقال عفيفى بك فى تواضع وأسف:

– رجل عظيم مثلى.. إنك طيبة القلب أيتها الصغيرة.. لو لم يتداركنى الله بملاكين كريمين مثلكما لكنت..

فقاطعته «دولت» فى إشراق وأدب:

– العفو العفو.. هذا بعض ما تفرضه علينا جيرتك الغالية المشرفة.

ومضت فترة كانت من أحرج مآزق العمر من ناحية الأم وابنتها، على حين كانت من أسعد الأوقات وأشهاها فى نظر عفيفى بك. فقد راح يثرثر ويثرثر فى تعديد مآثره أيام رئاسته والمواقف المشرفة التى وقفها دفاعا عن كرامته، وكرامة أصغر أصاغر مرؤوسيه.. وكان عفيفى بك –بين التوقيت والآخر– يبيح لنظره أن يستقر على ما يروقه من جسم فاطمة هانم الأبيض المكتنز الملفوف..

وما كان هذا ليلهيه عن أن يظهر إعجابه بالفتاة.. أدبها.. ولباقتها، وعدم استنكافها من خدمة البيت. وجهر غير مرة بأن لو كانت له ابنة فى مثل هذا الجمال، وتلك الخصال والخلال لكان من أسعد من كتبت لهم السعادة.

ودق الباب الخارجى. فأسرعت إليه «دولت» إسراع الملهوف إلى نجدة طال انتظارها، فإذا صالح قد حضر. وقد علم جملة الخبر ممن تبرع بإبلاغه إياه من أهل الحارة.. فلم يكن على

«دولت» إلا أن تطمئنه وأن تقوده من فوره إلى حيث كان والده.

وما كاد عفيفى بك يقع بصره على ابنه حتى تجهم وجهه، وانطلق يعنفه ويبكته، ويلقى عليه مسئولية ما جرى، مما كان جديرا بأن يؤول إلى أسوأ العقبى لولا أن تداركته المقادير بهاتين المرأتين الكريمتين.. اللتين لم ير فى حياته أطيب منهما قلبا، وأشفق وأنبل.. واسترسل فى المديح وبالغ وأطنب يعممه تارة ويخصصه تارة أخرى.. فمن ذلك أنه التفت إلى «دولت» وقال:

– انظر أيها الغبى، الفاسد الذوق. انظر إلى هذه الفتاة.. أدب، وكياسة، وجمال، ثم قارن.. أفاهم أنت.. أقول، وقارن لتستشعر الحسرة والندامة..

فلم يطق صالح إلا أن ضج بالضحك وتوارت «دولت» لتضحك ملء ركبتيها كذلك، فزاغ بصر الوالد، وزاغ بصر الوالدة.. ثم التقت نظراتهما.. وإذا عفيفى بك قد أمسك –من غير وعى– بالذراع البض، وقد تجلت له الحقيقة..

قال صالح عندما هدأ الجو:

– لا يلهينا هذا عن صحتك الغالية يا والدى، فهل آتيك بطبيب؟

– لأ..

– ولكن يا والدى..

– قلت لأ معناها لأ..

رفض حاسم قاطع كحد السكين.

ما لم أقله لأحد

سأقوله آخر الأمر! سأقول ذلك الذى واريته فى الأعماق من عقلى وقلبى سنوات وسنوات.. وكان جديرا بـه أن ينضغط فيموت تحت ما توالى عليه من حوادث جسام.. وأقسم أنا -عبدالفتاح مندور مدارس نهضة مصر للبنين والبنات- أقسم أنى أقول الحق وكل الحق ولاشيء غير الحق.. لامبالغة ولاتبرير ولاعوج..

وبعد.. فلابد لى من أن أردد مع الصبية ومدرسيهم قول الشاعر «ومعظم النار عن مستصغر الشرر»!.. زر.. زر من ازرار جاكتة من جاكتاتى.. أذكرها تماما.. سنجابية اللون ذات مربعات من خطوط حمراء.. وقد رأت لى زوجتي أن أفتتح بها موسم الشتاء.. وكنا فى أوائل نوفمبر.. وقد طلع اليوم مكفهر الوجه، سنجابى السماء كذلك وقد تبينت زوجتي، وتبينت معها، أن سترتى قد ضاقت على.. فأسرعت فاقتطعت زرها الأعلى فأثبتته فى مكان يزيد من سعتها قدر المستطاع.. على أن هذا القدر المستطاع عجز عن أن يصل إلى القدر المطلوب.. وأحسست أنى محشو فى السترة حشوا.. ولم تكن العلاقة بينى وبين ملابسى على هذا النحو من التوتر فى مثل هذا الوقت من العام الماضى.

- إن كرشك هذا يليق بمقامك فى المدرسة..

قالت زوجتي دعابتها هذه، وأردفتها بابتسامة حلوة رجاء أن تعيد أسارير وجهى إلى أشكالها المألوفة، فى أماكنها المعروفة.. وأنا أمام المرآة أجمع بين طرفى السترة ويأبيان.. فلما احتوانى مقعدى من مكتبى فى مدرسة البنات، شعرت بوجود كرشى أمامى كأنه حقيقة بنت ساعتها.. فضاقت نفسى، وتمتمت بين شفتى:

- ترهل الكبر.. سن الأربعين!

وكان الجو على كثافته.. والرذاذ يتساقط، فجعلت أتسلى بنشاط الخدم أو تكاسلهم فى ذهابهم وإيابهم، وباحتساء القهوة عند النافذة.. ومع ذلك فقد عاودنى خاطر الترهل وسن الأربعين.. وإذا بذكريات الشباب تتوافد على مخيلتى.. الشباب الضحوك اللعوب. الجرئ المغامر الوثاب،.. وله الأسماء الحسنى..

أين الملاحظات الدقيقة المخياط، والطلبات الاسطيقية من الحلاق.. والتحرج والأناة فى انتقاء أربطة الرقبة ومناديل الجيب وطراز الحذاء؟.

والأمانى العذاب.. نتعجل لها المستقبل الوئيد، ونتخطفها من الأيام السراع.. لقد استقر الفلك الدوار.. عن زوج وطفلين.. وكرش يناسب المقام..

ثم أشرق الجو، وانتشرت شمس الضحى ساطعة دافئة.. ودخلت «سميرة» سكرتيرة المدرسة. فعدت إلى مكتبى لأرى ما جاءت من أجله. وما كادت تمد يمناها بما فيها من أوراق، حتى تلألأ الضوء على «شيء» فى إصبعها الوسطى.. فابتدرتها بقولى:

– اش... مبروك!

فقالت بصوت خافت فيه اضطراب.. وفيه اعتراف: علام؟

فرفعت إليها وجهى باسماً، وقلت: هذا الخاتم؟

فاحمر وجهها خجلا وهى تقول: الله يبارك فيك..

– ومتي حدث ذلك؟

– البارحة فقط..

وكانت الفتاة جديرة بهذه المجاملة منى.. فهى وإن كانت لم تلتحق بخدمة المدرسة إلا منذ أسابيع، إلا أنها أظهرت نشاطا ودماثة خلق ورغبة فى العمل –ما لها منه وما ليس لها– حببتها جميعا إلى جميع من اتصلت بهم، أو اتصلت بهن.. وهى قد تجاوزت العشرين خمرية اللون، غلامية القد.. تفتر شفتاها الممتلئتان عن ابتسامة وادعة دائمة.

وشرعت أراجع ما جاءت به من كشوف وإحصاءات.. ولكننى لم أستطع تركيز ذهنى واستشعرت رغبة تلح فى معرفة تفاصيل تلك الخطبة.. فاعتدلت فى جلستى حتى واجهتها تماما، وقلت: والآن خبرينى.. كيف كان ذلك؟

وكأنما راعها هذا التدخل من «حضرة البك المدير» فى أمرها. بل لعلها أوجست منه خيفه، فقالت على عجل: لاشيء.. طلبنى من أمى فقبلت..

– أما أنتما فكنتما على اتفاق من قبل... أليس كذلك؟

فشاع في وجهها لون الخجل، وقالت: طبعا!

– وما اسمه؟ وكم عمره؟ شاب بطبيعة الحال؟ حذار ألا يكون كذلك

– اسمه رشاد.. وهو في الخامسة والعشرين..

– نعم الاختيار! ومتى يكون..؟

وتمهلت.. ففطنت إلى ما أعني، فقالت وفي نظرتها معنى التفكير:

– لاأظن أن شيئا آخر سيتم في القريب.. فوالده مريض بالشلل، ويجب أن نتريث واستطردت بعد لحظة فقالت: ثم إني لاأريد أن يرهق أو أن يستدين.

– هذا عين الرشاد.. ثم.. إن.. أريد أن أقول.. إن طول المدة.. هو من.. من صالحنا.. والمدرسة لاشك ستفقد واحدة من..

واتممت نظرتي إليها مقالي. فرنت إلى رنوة فيها شكر وفيها شيء آخر.. شيء استقر في قلبينا فجأة.. وقارب بينهما على غير انتظار.. حتى تحرج الموقف بيننا.. وتشاغل كل منا عن صاحبه.. وساد الصمت، صمت لم يدر أحدنا كيف يدرأه.. وتمنيت في نفسي لو أنها تذهب عني.. ولاشك أن تفكيرها كان يعمل في نفس الاتجاه، وبنفس السرعة، فقد فطنت إلى ما هجست به.. فأخذت سمتها إلى الباب في خطوات عصبية سراع.

وعدت إلى ما أمامي من أوراق أبتغي فيها جمع شتات أفكاري.. وأمعنت في ذلك، ولكنني لم أستطع، لم أستطع! وأبى تفكيري إلا أن يلاحق خطيب الفتاة.. ما شكله؟ وما قوامه.. طويل رشيق قوي العضلات، يمشط شعره اللامع ويرسله إلى الوراء.. رقيق الشعور.. لبق الحديث، حلو الدعابة.. هذا هو الشاب الجدير بهذه الدمية!

ثم عدت إلى رشدي.. فاستصغرت هذه الهواجس مني.. وخلت أن قد تندى جبيني لها من خجل.. على أنني استطعت أن أقنع نفسي بأن ما مر بخاطري، ليس سوى محض اهتمام رجل في سني ومركزي بأمر موظفة من أكفأ موظفيه في أهنأ فترة من فترات حياتها.. ثم تحاملت على ساقي وأخذت طريقي إلى مدرسة البنين لأجد ما يشغل بالي .

وتتابعت الأيام، وما من يم إلا كنت أجاذب سميرة فيه الحديث عن خطيبها، وكنت أخشى بعض الأحيان أني أثقل عليها.. فلقد سألتها ذات صباح عما إذا كانت برشاد مغرمة؟! فحدجت إلى بنظرة مستطيلة وقالت بلهجة فيها فتور: طبعا يا سعادة البك!

وغادرتنى فورا.. فقضيت بقية يومى فى كرب عظيم. وعزمت على أن أتخير الكلام معها.. وأمسكت نفسى فى مشقة عن أن أذهب إليها فى مكتبها، فأقدم لها أسفى واعتذارى. على أن الألفة امتدت بيننا رويدا رويدا، حتى تبينت يقينا أنها غدت تأنس بى، وتجد فى شخصى رائدها العليم ودليلها الخبير بمزالق ومنحنيات الطريق التى أصبح عليها أن تسلكه. فحدثتنى عن نفسها وعن أسرتها.. وعن المتاعب التى سببتها والدتها لأبيها نتيجة إسرافها وحبها لمجاراة من هم أيسر منه حالا، وأوفر مالا.. حتى مات من نكد وحسرة.

وبادلتها ثقة بثقة، وأفضيت إليها من شؤونى مثل الذى أفضت إلى من شؤونها. فحدثتها عن جهودى فى حياتى.. وأمانى، ما حققته منها وما لازلت أطمح فى تحقيقه، وعن زوجتى وطبعها الهادئ الذى يسير على وتيرة واحدة، طوال السنين الست التى مرت على زواجنا.. وعن طفلى «ماجد» و«كوثر» وما أرجو لهما من مستقبل وما أعد لهما من عدة.. وسميرة تصغى إلى فى قبول وشغف.. حتى لقد هتفت بى مرة تقول:

– إنى بك معجبة.. رجل يصنع هذا فى مثل سنك؟!

– فى مثل سنى؟

– هل ساءك ذلك منى؟

– حقا لقد أدركنى الكبر.. وبات طموحى بلا مخالب!

وكأنما قلت هذه الجملة الأخيرة لنفسى.. أو إن نفسى قالتها لى... وبدا على وجهى رد الفعل، وتبينته سميرة، فحملقت فيما يشبه ذعر الأطفال وقالت:

– إنى آسفة.. وإنى لم أذهب إلى ما تقول.. وأنت خير من يعرف أنك فى الرجولة الناضجة التى كثيرا ما أنجبت النبوة والعبقرية..

وانصرفت.. بيد أن تلك اللباقة منها لم تنطل على.. إنها مؤاساة وتضميد جرح.. وهل يمكن أن تؤمن هى نفسها بما قالت حين تكون -بعد ساعات- فى أحضان خطيبها ابن الخامسة والعشرين.. ومهما يكن من أمر.. فليتوثب الشباب، ولتقنع الكهولة..

وتوالت الأيام...

وكان لزاما على أن ألحظ ما لحظه الجميع.. ذلك الذى يتراءى فى حال سميرة من تحول.. تخفيه فيبدو.. وتقاومه والغلبة سجال بينهما.. شئ ما قد حدث! إنها دائمة الوجوم.. وغدت بطيئة

الحركة واضحة الزهد فى العمل.. تحاول أن تبتسم، وتحاول أن تصغى، ولكن الابتسامة تتلاشى على شفتيها.. وإذا هى تستعيد ما قيل.. وهذه العيون المشرقة لم تعد مشرقة.. وهذه الروح الطائرة قد هيض جناحاها..

وسميرة تجالد وتكابر! شيء ما.. شيء جسيم قد حدث.. أو هو فى سبيل الحدوث. أتراه منى؟ وماذا يمكن أن يكون؟ أتراه من رشاد؟ وماذا يمكن أن يكون؟ إنها منطوية على نفسها، وليس لى من سبيل إلى أن اقتحم سرها الدفين.. وراح يحز فؤادى أن أرى هذه الصغيرة تتألم.. ويستحيل هناؤها شقاء، وإشراقها أفولا، وإيناعها ذبولا..

لم يكن لى حيالها إلا الصبر.. وما كان أمض مرارته.. ولم يكن لغير الأيام أن تجئ بالخبر اليقين.. وما كان أبطأ تلك الأيام وأغباها.. وأجدرها بأن تمحى من الوجود! وكان يخيل إلى فى لحظات أنها على وشك أن تفضى إلى إغلاق قلبها.. فيفتتح قلبى، وينشط ذهنى، وتنتبه كل جارحه من جوارحى.. ويتهيأ فى خاطرى الكلام العذب والعزاء الجميل.. ولكنها لاتفعل، وتعود إدراجها.. وأعود بخيبة الأمل!

فلما ضقت بها وبنفسى ذرعا، أهبت بها مرة فى جفوة لم أستطع تلافيها: ماذا بك؟! فردت جفوة بجفوة وقالت: لاشيء..

فترفقت فقلت:

– هل الأمر من العسر بحيث لاتستطيعين أن تبوحى لى به؟

ولم تتحرك عيناها حين قابلت عينى، وقالت: دعنى إذا تفضلت.. فهذا الشأن لى وحدى! وأذعنت، ومضى يومان.. ودخلت على فى صبيحة اليوم الثالث مصفرة الوجه كأنها فى جهد جهيد.. بيد أنها تقدمت فى خطوات حازمة، وقدمت ما كان معها من أوراق..

وسطعت الشمس على يدها اليمنى.. ولكن على لاشيء فى إصبعها الوسطى.. فلم أتمالك أن قلت بصوت جهير: والخاتم

فنكست رأسها وقالت: انتهى الأمر..

– كيف كان ذلك؟ لابد من أن توضحى كل شيء! قولى.. كيف حدث ما حدث..

فهزت رأسها مليا كأنما تستجمع عزمها ثم قالت:

– ليس فى الأمر شيء كثير.. إن والدته أظهرت من جانبها الرضى على خطبتنا.. ولكنها قامت فى وجه إعلان تلك الخطبة إلى والده.. ووالده –كما تعلم– يعانى من الشلل البرحاء.. وأصرت من أجل ذلك على فسخ الخطبة.. وطال فى ذلك الأخذ والرد. وهى عند رأيها لاتتحلحل.. بل لقد حملت ابنها ذنب والده إذا هو علم، فأودى ذلك بحياته.. فهى تعلم أن للوالد فى زواج ابنه رأيا معلوما. وجاءتنى ليلة الأمس، فكان رأيها الرأى، وكلمتها فصل الخطاب.. ولم تزل بى حتى لم أجد بدا من.. أن.. أرد إليها الخاتم..

وأجهشت بالبكاء..

فنهضت إليها، وكان طبيعيا أن أكون إلى جانبها أواسيها وأسرى عنها.. فإذا هى بين ذراعى.. وحاولت جهدى أن أكون الأب الحنون.. وكان وجهها الحزين فى وجهى.. فلم أدر إلا وقد انهلت عليه تقبيلا فى لهفة وجنون..

لم أصدق ما حدث.. ولكنه حدث! فبردت أطرافى، وأمعن الخوف بى.. وتلفت حولى فلم أجد أحدا، فتسللت من المدرسة كما يتسلل الجانى الأثيم.. وانتابنى شعور دافق بأننى لن أعود إليها أبدا، وأن قنبلة كبرى على وشك أن تنسفها نسفا! ولم أذهب إلى مدرسة البنين، ولا إلى البيت، بل طفقت أهيم على وجهى فى الشوارع.. ومخى يتطاير ذرات فى الفضاء، ثم يستدق فإذا هو ذرة واحدة! وكثيرا ما ذهلت عن صلصلة جرس ترام، أو صوت نفير سيارة، حتى أوشكت على التهلكة..

* * *

ونال منى التعب.. أو أن حالتى النفسية قد استحالت إعياء مرهقا، فتواريت فى مقهى صغير، واستسلمت لهواجس راحت تقتحم رأسى وتتزاحم، وتختلط وتثور.. وتنبح نباح الكلاب، وتنعق نعيق البوم. تنعق فى المدرسة بالفضيحة الكبرى، وتنعق فى البيت بسوء المصير. وهكذا مرت الساعات تترى، وأنا متخاذل متراخى الأوصال.. ولكن!

كما دهمنى الضعف والخوف، كذلك فاجأتنى القوة والعزيمة.. خاطر هتف –على حين فجأة– فقمع الثورة الجائحة، ملك ناصية الموقف: «سميرة أعقل من أن تركب رأسها، وأنبل من أن

تقدم علي سوء،.. كان هذا الخاطر جديرا بأن أنهض قائما وأن أعود أدراجى إلى مدرسة البنات وفى يدى زمام أعصابى..

– سميرة! هبينى أخطأت فى حقك..

قلتها من أعماق قلبى، وحملتها صدق اعتذارى. ولكن سميرة لبثت جامدة تجاهى، منكسة الرأس.. ولم تنبس. فاستطردت أقول:

– أعلم يقينا أنك تستطيعين أن تفعلى الشيء الكثير.. وأعلم يقينا أنك لن تفعلى.. و.. فقاطعتنى، وقد رفعت رأسها فى حدة وحدجت إلى بالنظر الحديد: هذا ما أغراك بإهانتى؟!

– بل هو ما أغرانى بطلب الصفح منك والمغفرة..

فقالت فى كبرياء سافرة: سيدى.. لقد مرت على الساعات الماضية بالعذاب الأليم.

– كذلك مرت على..

– وذهبت أفكار السوء بى كل مذهب!

– وفعلت ذلك بى أيضا..

فانتفضت مغضبة وصاحت: هل تسخر منى؟..

– إن الموقف أدق من السخرية.. وأنت فى موقفك أجل من كل جليل..

– مهما يكن من أمر، فقد أجمعت أمرى.

ومدت يدها مطوية فيها عبارة موجزة..

– تستقيلين؟!

ودعوتها إلى الجلوس فلم تجب.. أما أنا فجلست إلى مكتبى، وساد صمت كثيف، ثم قلت فى لهجة التأنيب: لقد عرفت كيف تعاقبين وتسرفين!

– وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟

– تبقين

- لأنقلب من سكرتيرة إلى...

فضربت المكتب مغضبا لأسكتها وصحت أقول: أمسكى عن هذا القول..

فهزت كتفيها تهكما وقالت: أنت هنا سيد العمل. ولكنى سيدة نفسى.

قلت فى حزم وأناة: بل ستبقين.. وأنا واثق وثوق الرجل الشريف، من أننى سأكون لك الوالد البار.. وسوف تكونين لى خير معين.. هيا.. عفا الله عما سلف.

فسهمت طويلا.. ثم استدارت فخرجت وأنا أشيعها بالإجلال العميق.. ثم مزقت استقالتها، وألقيت بها فى سلة المهملات..

وتتابعت الأيام والأسابيع.. وكانت كفيلة بأن تعيد إلى سميرة نشاطها.. وثقتها بى.. وعاد الحديث بينى وبينها يتصل بحياتها الخاصة.. وحياتى أنا أيضا.. ولكن حياتها غدت فارغة بعد أن فسخت خطوبتها.. أما حياتى

الحق الحق أقول.. إنها باتت مفعمة! لابشؤون المدرستين، ولابمقتضيات البيت.. بل بسميرة وحبها وحبها وحبها! فهى شغلى وتفكيرى ونبض قلبى ومستقر عينى.. كان ظاهرى فيه لها الوالد البر الحكيم.. وباطنى فيه نار تلظى..

وأمعن بى الحب وبرح واستبد، حتى لم أجد بدا من التفكير فى الزواج منها.. ولم أستهول الفكرة، ورأيتها من اليسر بحيث أريد.. فالشريعة تسمح، والعرف يقبل، وما أنا بالأول ولا الأخير.. واجتمعت عزيمتى فى رأسى، وتنفس لها قلبى، وانتشت بها جوارحى، وتعلقت بها آمالى.. وصارت حديثى الحلو مع نفسى، أناجيها به وأمنيها. فتناجينى به وتمنينى.. ولم يبق إلا أن أصارح سميرة!

كان يوم خميس، وكان علينا -أنا والناظرة وسميرة- أن نبقى فى المدرسة بعد انصرافها لنعد دفاتر وسجلات وبيانات، استعدادا لتقديمها لأحد حضرات المفتشين يوم السبت. ولبثنا فى ذلك طويلا. فلما انتهى العمل فى ذاته، انصرفت الناظرة. وكان لابأس من أن أنصرف فى نفس الوقت، ونترك سميرة تجمع الأوراق وتنظمها وتضعها فى أماكنها- وما إلى ذلك.. ولكنى تلكأت فبقيت.. ولما خلا بنا المكان ثار دمى كأن قد انتابتنى حمى.. فلاأجلس حتى أقوم، ولاأغادر الغرفة حتى أعود. وسميرة عنى بعملها لاهية. وانتبهت إلى بعد فراغها، فقالت:

- أنت متعب مكدود.. كان يجب أن نضطلع بالعمل وخدنا فلا نؤذيك.

قلت وقد تمالكت بعض نفسي: بل أنا بخير..

قالت فرحانة جذلة: لقد أتممنا كل شيء..

- بل هناك شيء يجب اتمامه..

وخلت اني قلت هذه العبارة في سري.. لذلك كانت مباغتة بالغة الدهشة لي، حين سمعت سميرة تقول: وما هو؟!

وتمالكت كل قواي وكل شجاعتي وانطلق لساني يقول:

- سميرة! هل تقبلين أن تكوني لي زوجا؟!

فبغتت، وبهتت، واتسعت أحداقها، وصار صدرها يعلو ويهبط من فرط اللهث وتمتمت بين شفتيها تقول بالصوت الخفيض:

- أنا؟!

- نعم أنت!..

- أنت؟!..

- نعم أنا.. أنا وأنت يجب أن نكون زوجين..

وانكشفت دهمة المفاجأة.. فإذا بنا قد جلسنا، أو تهالكنا، على أريكة، واندفعت أقول: تقبلين.. نعم. نعم. تقبلين.. ما في ذلك من بد.

وألححت، وتوسلت، وزينت الجو، ودحضت الاعتراضات، وهونت كل عسير.. فلانت آخر الأمر وأذعنت. وتعاهدنا على أن يظل الأمر سرا بيننا، حتى نمهد له السبيل، وننتهز له الفرصة.

وسار كل شيء طبيعيا في المدرسة، لم يثر ريبة ولم يقم شكوكا.. في حين أن الشكوك قد قامت، والريبة قد ثارت في البيت! ذلك من اختلاف مواعيدي، وميلي الطارئ إلى التزين والتأنق.. فد أجرى الخياط في ملابسي القديمة عمليات واسعة النطاق، كما قام بتفصيل أخرى جديدة بمهارة أخفت كرشي فتبديت الرشيق الوجيه.

وأخفت زوجتى شكوكها حينا ثم صارحتنى بها، وطلبت إلى جلية ما هنالك.. بيد أنها لم تخرج عن سليقتها، فكانت رزينة رزانتها، هادئة هدوءها.. تستفسر فى رفق وتمد إلى الود الهين اللين اللطيف.. وأنا أتجاهل وأتعابط، وأوارب وأداجى، وألفق المعاذير.. كل ذلك لأكسب الوقت.

وقد كسبت الوقت.. ولكنى خسرت النهاية!..

وحدث أن أرسلت سميرة تطلب أجازة أسبوع.. «لعذر طارئ» –ولم أكن على علم بذلك من قبل، ولم يكن لى بفراق سميرة عهد، ولم تغب عن عينى يوما منذ عرفتها.. أسبوع.. أسبوع قضيته فى صفر.. كل يوم منه كان مقداره ألف سنة.. دقت فيه اللواعج، وجرعت فيه الأسى، وعرفت فيه مضض السهاد! كانت أيام ضيم ظاهر، وتبرم واضح بكل شيء.. أثار حولى الغمز والهمس.. وأخرج زوجتى عن طورها، فإذا بيننا حرب ضروس.. وإذا بى لأتفه سبب.. ولغير ما سبب، أرغى وأزبد كالبحر، وأثور ثورة البركان، وأزأر زئير الأسد الجريح.. وكاد يفلت من فمى يمين الطلاق مرة، لولا صرخات طفلى ماجد وكوثر، وارتياعهما، وتشبثهما بى..

ومضى الأسبوع..

ستعود سميرة اليوم.. وسألقاها.. ولن يكون فراق أبدا.. وهدأ البحر، وسكن البركان، وأمسك الأسد عن زئيره.. وذهبت إلى مدرسة البنات، وكلى نشاط وتفاؤل وسرور.. واصطك بصرى بخطاب على مكتبى، فاختطفته فى ذعر، وفضضته فى لهفة! وأجلت فيه عينى، فكذبت عينى، وأمعنت فيه إدراكى، فشككت فى إدراكى.. وأعيد تلاوته، فإذا به يتحدانى فيقول:

سيدى

أهديك تحية أطول من الدهر، وسلاما أعطر من الزهر –وبعد فإن فكرة زواجنا كانت آخذة مجراها.. ولكن لم يكن يعلم إلا الله أيان مرساها.. وهذا هو سبحانه قد أجرى ما ارتضاه فأرضى.. لقد مات والد رشاد، ونقلوه إلى مدفن الأسرة هنا فى الزقازيق. وكان لزاما على أن أرافق والدتى فى سفرها لتأدية واجب العزاء

«وقد شاءت الإرادة الإلهية، أن تكون هذه المناسبة التى لم تكن فى الحسبان، إلى إرجاع أمر زواجى من رشاد إلى ما كان.. وإنى أعلم علم اليقين أنك ستتألم لذلك أشد الألم، لمنزلتى

عندك، ومكانتى فى قلبك، لكنه -ولاشك- ستجد بحكمتك، وثاقب بصيرتك، سبيل الرشاد.. أما بخصوص ما أوليتنيه من عطف نبيل، وأبوة غالية:

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت   فلتشكرنك فى التراب عظامى

«وختاما، تفضل يا سيدى بقبول فائق تقديرى، وعظيم احترامى

المخلصة- سميرة»

ملحوظة: مرفق مع هذا استقالتى وأرجو قبولها هذه المرة، وشكراً

فنظرت إلى الاستقالة ما شاء لى اليأس.. ثم غمست قلمى فدونت عليها عبارة الموافقة وما من شك فى أن كل من وقع بصره عليها، حسب أن قطرة ماء تصادف أن وقعت فطمست تاريخها.. المشؤوم!.. ولكن أحدا لم يفطن لى أنها.. دمعة من عين رجل جاوز الأربعين.

ثانياً: الرواية

حواء بلا آدم

١٩٣٤

طبعت هذه الرواية بمبطعة الاعتماد بالقاهرة بدون تاريخ ولكن إهداء المؤلف مؤرخ فى ١٥ يناير عام ١٩٣٤ . كما سبق أن نشرت الرواية مسلسلة في مجلة (الهلال) عددى يونيو ويوليو ١٩٣٣

الإهـداء

عزيزى الدكتور حسين فوزى*

لست أدرى عند أى خط من خطوط الطول أو خطوط العرض من ذلك المحيط الهندى الهائل ستصلك قصتى هذه. ولكن الذى أعلمه يقينا أنك ستكون فى شغل شاغل حتى عن استلامها.. ربما.. فإما على ظهر شغل شاغل حتى عن استلامها... ربما.. فإما على ظهر السفينة وفى أقصى نشاطك البدنى ، وإما بقمرة العمل وفى أقسى نشاطك الذهنى ، تبذل جهد الجبابرة لأداء ذلك الواجب الجبار الذى أقدمت عليه أيها السندباد. وقد تكون فى ساعة راحة من العمل الرسمى وقد لذت بركن هادئ من أركان السفينة تبدو للرفاق منك الطمأنينة والهدوء على أنهم لا يعلمون أنك وقتئذ تكون أشد توثبا وأعمق تفكيرا.. ففى لا نهاية المحيط ترسل نفسك.. نفس الوطنى الذى يتجشم من أجل الوطن ، ونفس الأديب جم الخواطر والتأملات ، ونفس الفنان اصطخب الماء ، وزمجر الهواء ، دفعت إليهما بروح عصاف عساف ثائر على كل بال بليد. من أجل هذا وددت أن أهدى إليك قصتى هذه ، لعلك تجد فى قراءتها فترة إيناس وراحة ، ولتذكر بها.

صديقك المخلص

طاهر

١٥ يناير ١٩٣٤

* مدير إدارة الأحياء المائية. وأحد أعضاء بعثة السير مرى Murray التى ترتاد الآن المحيط الهندى.

الفصل الأول

- السلام عليكم يا أبا درش.

وكان الحاج إمام يتوقع أن يسمع الرد غليظاً وئيداً ولكنه لم يسمع. فمد عنقه كثير الخطوط المتقاطعة فى عرض القفى، والمتوازية فى طول القصبة الهوائية، فنفذت عمامته من فرجة تُباعد ما بين أنياب الأفعى يميناً، ومخالب الضبع شمالا، وظهر السلحفاة من أسفل، وأظافر الوطواط من أعلى. فلم يفلح جهد عينه اليسرى فى اختراق العتمة المتكاثفة. أما العين المجاورة فلم يكن لها جهد تبذله. وأنقذت أذناه الموقف بأن سمع همهمة فهمها فقال «حرماً» وأخرج عمامته. ولولا احتكاك كتفه «بدم الأخوين» احتكاكا أدركته منه ومضة هلع لقلنا إنه خرج إلى النور، وجلس على مقعد فى سلام.

ولما كانت «أبودرش» كُنية(1) ودية لاسم مصطفى، وكانت «حرماً» اختصارا مألوفا لقول القائل لمن هو ماض فى الصلاة أو فرغ منها «أُسعدت بالصلاة فى الحرم الشريف» كنا فى غير حاجة إلى غير الذكاء العادى لنعلم أن الحاج إمام وجد صديقه مصطفى يصلى فجلس ينتظر فراغه. ولكن الذكاء غير العادى مطلوب لمعرفة كنه(2) ذلك المكان الذى كان فيه مصطفى! أ مغارة هى لاذ بها يقيم صلاته؟ وساحر هو قد هيمن على الزواحف والضوارى فاتخذ منها حراساً وحجاباً؟ وكيف يجمع العقل بين حاج ودم وسلام؟!

وإذا أضفنا ذلك إلى أن خرزاً مختلف الألوان، وأصدافاً متجددة اللمعان كانت تتدلى حول الفُرجة السالفة الذكر، وأن ستاراً من عشب كشعر العجوز كان منتشر الذوائب، تبين وتختفى وراءه

---

(1) كنية: لقب

(2) كنه: حقيقة

ثمار عجيبة لها أسماء أعجب، يعلو هذا وهذا سمكة هائلة اتخذت من الهواء محيطاً تسبح فيه... إذا زدنا ذلك زدنا الذكاء غير العادى تشككا وارتباكا.

على أن الأمر أهون من أن تدوم له الظنون طويلا. فما دم الأخوين إلا حجر ألقيت عليه هذه التهمة لمجرد احمرار لونه. وما هذا إلا محل تجارة «الشيخ مصطفى التونسى» لبيع كافة أدوات السحر. مما يجمع القلوب ويفرقها، ويقطع الرزق ويوصله، ويثبت العقول ويشتتها حسب الطلب: هذا وإن مما على بابه من أعشاب وثمار ما تبيضّ له صحائف «الفارماكوبيا»[(١)].

وكانت الساعة الخامسة وقد هان أوار[(٢)] الشمس بعد أن ظل طول اليوم يرهق النفوس ويشوى الوجوه.. وأقبلت عربة الرش منذ حين، فبالغ الناس فى تمليق سائقها بالقول الذهب والقطع النيكل. والسائق يبادلهم ذهبا بذهب ونيكلا بماء مدرار أغرق الشارع. وهب نسيم العصر.. فحمل البلل فصار ليناً وبليلا. وتنفس الناس الصعداء.. فلاعجب إذن أن يجلس الحاج فى سلام، وأن يتنفس مع الناس الصعداء. وما أن جلس حتى أسند عصاته إلى باب الدكان، وضم إليه أطراف جبته. وبعد أن أمرّ يده على لحيته الفضية بكيفية من يستوثق من وجودها مكانها شرع يهز عنقه ويتمتم بما تيسر من القرآن. ومن فترة إلى أخرى كان يقبل عليه عارفو فضله فيلثمون [(٣)] يده ويسألونه الدعاء.. على أن آخرين من شياطين الحى اتخذوا من عمامته هدفا لنكات وفكاهات.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

ها قد جاء رد التحية. وبرز بائع السحر فجلس إلى صاحبه. وأعاد الحاج قوله «حرماً» فأجابه الشيخ مصطفى بقوله «جمعاً».

وهنا خرست الألسنة المعربدة. ذلك لأن الشيخ مصطفى كان مهيبا بقوامه الضخم ولحيته المرسلة على صدره بما فيها من مشيب قليل. وبزيه البدوى الأبيض وما أشاع فى شأنه من أن النبى صلى الله عليه وسلم زاره فى المنام يوماً وأمره باتخاذه. رهيباً بعينيه السوداوين وما تحدقان فيه من عالم الأسرار، فاشتد أزر الحاج إمام وراح يقول لصاحبه ويُسمع الآخرين:

---

(١)الفارماكوبيا: علم الأدوية

(٢)أوار: لهيب

(٣) يلثم: يقبل قبلة خفيفة

– نحن فى زمن نعوذ بالله من شره.. اللهم اكتب لنا السلامة من زمن الـ.. الـ.. الأوباش والسفلة. لاحياء ولا اعتبار للسن ولا للعلم.. اللهم لا تؤآخذنا بما فعل السفهاء منا...

وكرر الدعاء الأخير ثلاثا. ثم تريث يرجو أن يسمع كلمة صديقه فى نجدته. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، إلا ابتسامة فاترة بدت على شفتى الشيخ مصطفى وهو ثابت كالطود[١]. فزاد الغيظ بالحاج ولم يكن يستطيع أن يعاتبه. لذلك أقنع نفسه بأن الحلم سيد الأخلاق. وعمد بعد فترة إلى ما جاء من أجله. فمال حتى لم يبق إلا القليل بين صدره وركبتيه ثم قال بصوت خفيض:

– الست تهديك السلام.

فالتفت الشيخ مصطفى إليه نصف التفاتة وقال:

– كيف حالها دلوقت؟

– الحمد لله..

فتمتم الشيخ بالحمد أيضا.

– البخور الأخير دا.. دا شئ عظيم خالص يا ابنى.. صحيح يؤتى[٢] الحكمة من يشاء.. جل جلاله!!

فأطرق الشيخ يبدى الحياء.. ويتمنى لو يجهر[٣] «الزبون» بما يقول فيسمع أكبر عدد ممكن من الجيران والمارة. وما من شك فى أن تواطأ روحياً حدث بين الاثنين جعل الحاج يستطرد بالصوت المطلوب:

- دا البخور يا ابنى طرد عنها الهواجس.. وشرح صدرها للغاية.

فهز الشيخ مصطفى رأسه فى بطء متناه وقال:

– الله يقدرنا جميعاً على فعل الخير.

---

(١) الطود: الجبل الراسخ

(٢) يؤتى: يهب ويمنح

(٣) يجهر: يفصح بصوت واضح مسموع

- اللهم آمين.

وتكررت عملية الدعاء من الشيخ والتأمين عليها من الحاج ثلاث مرات كل منها أشد من سابقتها ورعا وإخلاصا.

- فالست عاوزه منه بخمسة قروش.

فقابل الشيخ مصطفى هذا الطلب بالتحديق(١) فى عالم أسراره. وقال الحاج بعد فترة:

- وعلى فكرة يا مصطفى يا ابنى..

وفى هذه المرة بالغ فى الاقتراب من الشيخ حتى كان يحدث أحيانا أن لايجد زر عمامة الأول مندوحة عن أن يشتبك مع لحية الثانى تارة فى ود وأخرى فى رعونة على قدر فتور الحديث أو احتدامه. وبالغ فى تخفيض صوته حتى صار الإصغاء إليه كالإصغاء إلى تليفون خرب. على أنه يوضح همس بالإشارات الصارخة. فأمال رأسه على راحته، أغلب الظن أنه يمثل النوم، ثم انتبه، وحملق بعينيه.. يعبر عن اليقظة تعبيرا يحسده عليه كثير من نجوم السينما، ثم رفع ذراعه جهد استطاعته حتى سقطت عنه أكمامه فبدا ناحلا أصفر كثير العروق. ثم خفضها بسرعة نحو الأرض لأمر من العبث التكهن(٢) به.

وسادت فترة سكوت.

- أى والله كدا بالضبط الشافى.. فما قولك فى هذا الحلم العجيب؟

- الشمعة عز.. والنور فرج.

- أنا قلت كده كمان.. أو عندك تفسير تانى؟

- الأحسن تمهلنى يوم أو اتنين.

- على راحتك.

---

(١) التحديق: إمعان النظر

(٢) التكهن: استنتاج أو معرفة بالتخمين

وشعر الحاج أنه أدى مهمته خير آداء، فأخرج علبة النشوق من بين محتويات عِبّه الأيمن، واستل منديله الأحمر من بين محتويات عِبّه الأيسر، ومضى يحدث بأنفه شوشرة كبرى، ثم شوشرة أخرى وهو يبيح نشوقه لأصحاب الحوانيت المجاورة.

وانتهز الشيخ هذه الفرصة، فغاب في جوف حانوته واعمل يديه في صناديق مختلفة حجما، متساوية قذارة وصدأ ثم عاد فتبادلا البخور والثمن، وساد بينهما السكوت إلى أن قطعه الشيخ مصطفى بقوله:

– وكيف حال الست الصغيرة؟

– حوا؟ الله يزدها من نعايمه

وكلفه هذا الدعاء أن قارب ما بين معالم وجهه، ورفع لحيته إلى السماء جهد استطاعته ثم قال:

– دى يا مصطفى يا ابنى ملاك. كمال، وأدب، ورأفة بالمسكين اللى زى حالى (وبعد فترة) يعنى أنا إيه بالنسبة لها؟ ابن عمة الست الكبيرة.. وعمه مش شقيقه كمان.. مع ذلك فهى تكرمنى كل الاكرام.. الحمد لله (وقبّل يمناه ظهرا وبطنا) علشان كده ربنا فاتح عليها من جهة المدرسة. ومن جهة بيت الباشا. وهى اشترت النص التانى من بيتهم.. دفعت فيه تلتمائة جنيه.

– بيعة مستريحة.

– ببركة نيتها!.. مين من بنات اليوم تعمل كده؟

– أعوذ بالله.

– أدحنا شايفين، ما فيش غير الدلع والفرنجه.. وهمّ الحاج بأن يسترسل فى نوبة خطابية، لأن معانى السخط على مفاسد المدنية الحاضرة تراكضت فى رأسه، ولكنه اضطر إلى الإمساك عن الكلام، ثم إلى أخذ عصاته والقيام لأن غيره احتل اهتمام الشيخ مصطفى، وحاول أن يتم محاضرته لبائع فاكهة مجاور، ولكن البائع كان منهمكا بالتغنى بمحاسن بضاعته، فعرج على قصّاب[1]، فإذا به فى شغل بإرضاء زبائنه وسرقتهم معا. فأخذ سبيله إلى المنزل وهو يتم محاضرته لنفسه.

---

(١) قصاب: جزار

الفصل الثانى

هو بيت لايلفت النظر، يقوم فى شارع ثانوى من حى الحلمية. بل لعله يلفت النظر بكونه أصغر بيوت تلك الناحية العامرة بالكثير من القصور ذات الحدائق والعمد والسلالم العريضة الملتوية. قال الحاج إمام إن حواء اشترت نصفه الثانى بمبلغ ثلثمائه جنيه. فإذا فرضنا حسن الظن بالحاج، وفرضنا كذلك تساوى النصفين، صار من السهل إيجاد فكرة عن البيت.. مدخل مستطيل ضيق إلى حد ومعتم إلى حد. وغرفة إلى اليمين لها نافذة على الشارع، ومفتاح معلق فى رقبة الحاج إمام. والمدخل يؤدى إلى صحن غير فسيح، تغطى الجزء الأكبر منه أرض الصالة العليا وباقيه إلى السماء، ثم السلم، فالصالة العليا، وبها المائدة، وحولها أربعة أبواب لثلاث غرف ودورة المياه.. أما الغرف، فواحدة للاستقبال -ولها باب ثان يؤدي إلى السلم، وثانية لحواء، وثالثة للجدة.

هدوء فى البيت شامل. لانأمة ولاصوت كأن ليس فى البيت أحد!

بل الجدة فى غرفتها، والجدة لا تحدث نأمة ولا صوت، كأنها لا أحد!!.

وغرفة الجدة بسيطة الأثاث، وكل ما فيها عجوز مثلها.. سرير فى الركن الأيسر رفيع القوائم وكانت القوائم.. سوداء ثم ابيضت فى مواضع عدة، ووهنت(١) مفاصلها فهى ترتعش لأقل حركة.. وكنبة فى الصدر تحت النافذة تضرع(٢) إلى الجالس ضراعة المرهق وتئن به أنين الموجع حتى ليشفق عليها ويقنع بالجلوس على الأرض أو بالأحرى على بساط لاتكاد ألوانه توجد فى «الطيف» وتضيف الجدة لنفسها فوق البساط فراء هو فراء كبش الأضحية تدبغه بيديها كل سنة أما القديم فتنعم به على الحاج إمام وقبالة السرير صندوق كبير من خشب مغلف بصفيح. وكان على الصفيح نقوش. وكانت النقوش حمراء وصفراء وخضراء، عدا عليها الصدأ فأفقدها بهاءها.. وفى الركن إلى يمين الباب طاولة داكنة اللون تستند إلى الحائط استناد المتعب من طول ما وقفت، عليها

---

(١) وهنت: ضعفت

(٢) تضرع: تتوسل

غطاء من خيط مشغول صنعته الجدة أيام كانت لها عيون تمعن[١] النظر، وأصابع تحكم الأبر، وصبر يطيق تلك التسلية. على أن غرفة الجدة مع هذا نظيفة مرتبة ليس فيها مالا حاجة إليه ولا ما ليس في موضعه.. وفيها أبدا رائحة بخور لايزعج النفس، بل يبعث فيها معنى الجلال.

وكانت الجدة جالسة على الفراء -بين سريرها والكنبة أمامها أدوات القهوة لا يلذ لها إلا أن تعدّها بنفسها وقد فرغت من احتسائها منذ حين ثم أسلمها الركود إلى النعاس فراحت تهوّم، وسرت منها العدوى إلى قطها فاعتلى الكنبة عند كتفها واستكان.

وأرسلت الشمس آخر أشعتها تحيي الجدة النعسانة واسترسل النسيم يغرى بها الراحة وعلى شجر الحدائق المجاورة أسراب العصافير تستبق الأغصان هامسات كصبية تلعب في حذر. وفي السماء الزرقاء قطع السحاب تسير الهوينا[٢] كأنما تحمل رسالة الرحمة.

لئن كانت عيناها المغمضتان تنظران الآن إلى الماضي فهي إنما تستعرض من حياتها صوراً شتى.. تلك العينان الغائرتان كانتا في هيئة اللوز، ولهما بريق وفتنة.. وتلك الخدود المتجعدة كانت في مثل إيناع[٣] الورد، وهذا الجسد الضاوى[٤] كان قواما غضا ريانا بالعافية.. وهذه الروح المستكينة كانت لاتمل النشاط والحركة.

ولكن..

زوجها الذى سيقت إليه لم يعن بجمالها، ولم يأبه بإخلاصها له، ومضى يطيل السهر فتنتظره، ويعود مخمورا فتحتمله، ويغلظ في القول فتتغاضى، ويجحف[٥] بحقوقها فكأنما حقوقها كاملة.. وكان أول الأمر موظفا صغيرا ولكنه كان لايؤمن بأن الخط المستقيم هو أقرب بُعد بين نقطتين، وكان يعرف تعاريج الحياة ويجيد خلق الظروف واغتنام[٦] الفرَص. فسار في هذه واستفاد من هذين حتى علا، بيد أنه كان طموحا لايقَر، ولايبالى أى الوسائل يتخذ، ولا أى السبل يسلك ما دامت تؤدى به إلى «روما».

---

(١) تمعن: تحسنه وتجيده
(٢) الهوينا: السير المتمهل
(٣) إيناع: ازدهار ونضارة
(٤) الضاوي: الشديد النحافة
(٥) يجحف: يجور ويظلم
(٦) اغتنام: اقتناص

وما كان السهر، وما كان الخمر إلا جداً منه لا هزلا.

فهو يهوى إلى موائد من يرى عندهم حاجته، وهنالك يرتد الفكه المهرج. بهذا تخطى أقرانه الذين أحسنوا الظن بالحكم والأمثال، فهم إلى مكاتبهم يجدّون لعلهم يُجِدُوا، ويزرعون رجاء أن يحصدوا، ويصبرون منذ قيل لهم الصبر مفتاح الفرج.. وعثر فى بعض تعاريج الحياة على رجل له جاه ولقب، وله ابنة فاتت سن الزواج ولم تزل فى سوقه. وكان سكيرا فتحبب إليه بالسكر حتى انتقلا من صديق وصديق إلى حميّ ونسيب!! على شرط أن يطلق زوجه الأولى. فطلقها بحجة أنها لم تلد له إلا إناثا.. وأنه يريد «النسر الصغير».

وكنّ ثلاث بنات صغار. ماتت الأولى بعد الطلاق بقليل، وكبرت الاثنتان، فأما الوسطى فتعيش مع زوجها المهندس عيشة تنقُّل فى الأقاليم. لاتراها إلا فى الأحلام وفى أيام الأعياد. وأما الصغرى فأودت[1] بها حُمى وبائية على غير انتظار.. وخلفّت حواء.. ولم تتجاوز العاشرة. فاحتضنتها الجدة بعد أن تزوج أبوها، وأغدقت عليها كل ما فى المرأة من أمومة، وتناساها الأب بعد حين، فسخت عليها جهد ما كانت تصيب من ريع لها -وكان قليلا- حتى تخرجت من «المدرسة السنية».

فلاعجب إذن إن امتزجت روح الجدة بروح الحفيدة.. لاتعيش إلا بها، ولاتفكر إلا فيها، ولا يمنعها الوقت المبكر أو السن المتأخر من أن تهيئ لها أسباب الراحة.

وإن حواء لجديرة بما يحبوها به هذا الملاك الحارس، فقد أوتيت منذ حداثتها العقل الراجح والخلق الكريم، وكانت الجدة قريرة النفس بمنزلها. لاترى فى العالم سواه، فهى لاتبرحه[2] إلا للضرورة القصوى، ولايكل[3] من واجباته جسدها الضاوى، وكان ذلك يستغرق الصباح كله.. ولولا الخادمة وصوتها العالى لكان المنزل دائما فى صمت عميق. فإذا ما جاء العصر أخلدت[4] إلى فرائها تحتسى القهوة.. وحدها أو مع زائر يفد عليها.

---

(١) فأودت: أطاحت بها إلي حتفها

(٢) لا تبرح: تغادر

(٣) يكل: يتعب (ويرهق)

(٤) أخلدت: لجأت

تلك حياة قوامها العاطفة.. العقل فيها راكد.. والعقل يأبى الركود، فإذا حاول أن يرضى الفطرة لم يستطع إلا العمل التافه من التشبث[1] بالتفاؤل والتشاؤم، وإقامة الوزن للأحلام، ومن ثم الاتصال بالجن والشياطين، تُتخذ لهم الأسماء، وتُسبَغ عليهم الملل والنحل والأشكال والألقاب. ويبايعون السيادة، فيخضع العقل السقيم لهؤلاء «الأسياد» الذين اخترعهم.

وقد قنعت الجدة من كل هؤلاء «الأسياد» بعفريت صغير من عفاريت السودان، اسمه «سرور».. ففى ساعة مناسبة أو غير مناسبة، وفى مكان مناسب أو غير مناسب، يحدث ما يدهش ويخيف ويخجل ويضحك.. إما بهذا الترتيب ذاته، أو بأى ترتيب سواه.. يحدث أن تنتابها أوجاع فى مفاصلها واسترخاء فى جسدها، فتستسلم للوجوم، وتختلج عيناها، ثم تتحرك شفتاها بصوت الولد الصغير.. هذا «سرور» تقمصها. وقد يكون فرحا يطلب الحلوى ويداعب من حضر.. أو ساخطا فيلعن سبب سخطه.. على أن الحق الذى يجب أن يُعترف به أن «سرورا» أدرك أن تلك الحال لأصبحت لاتتفق مع وقار الجدة، فهو لايتقمصها الآن إطلاقا، ولايزورها إلا نادرا.. فى بيتها.. بل فى غرفتها.. بل فى نومها.. إنما.. إذا أمر بشئ وجب قضاؤه، وإذا أتى بنبأ فهو الحق اليقين..

طرق على الباب...

فانتبهت الجدة من إغفائها، وقامت تفتح وهى تعلم من الطارق.. فالحاج إمام وحده هو الذى لايؤمن بالجرس الكهربائى، ويرى عصاته للباب أقرب للتقوى. وعادت الجدة إلى مكانها، ولاذت القطة بحجرها هذه المرة. وخلع الحاج عند الباب حذاء ضاعفته الرقع، وثلّثت أضعافه القذارة وجلس تجاهه على البساط مسندا ظهره إلى الكنبة وواضعا عصاته تحت ركبته، ثم قال وهو يلهث :

- السلالم بتتعبنى قوى يا فاطمة هانم يا بنتى..

وفاطمة هانم هو اسم الجدة. وقد اعتاد الحاج أن يمنح أبوته لكل مخاطَب ليفوز منه بما تقتضيه الأبوة الفقيرة من عطف ومعونة.

قالت فاطمة هانم وهى تعد القهوة..

---

(١) التشبث: التمسك

- اعمل معروف يا حاج.. شد حيلك معانا الأيام دى.

- الاعمار بيد الله يا ست هانم (وأخرج علبة النشوق فأصاب منها، وأكب فى جلسته) كان سيدنا على كرم الله وجهه.. أطلعه الله على غيبه.. فعلم أن أبو لؤلؤة المجوسى سيقتله فى يوم كذا..

فقالت فاطمة هانم:

- جبت البخور؟

- أى نعم (وأخرج اللفافة من عبه) وكان أبولؤلؤة المجوسى يمر على سيدنا على كل يوم..

فقالت فاطمة هانم وهى تضع اللفافة تحت وسائد السرير:

- ما قلتش للشيخ مصطفى على الحلم؟

- أى نعم.. قلت له على الحلم. وشرحته شرح وافى.

- وقال لك إيه

- زى ما سبق قلت لك.. الشمعة عز.. والنور فرج.

- ما هى المسألة مش مسألة شمعة وبس يا حاج.

وشرعت تقص عليه الحلم بتفاصيله مرة أخرى.. لقد رأت فى منامها أن عفريتها «سرورا» دخل عليها وأهاب بها أن تتبعه إلى الصالة.. فتبعته.. فإذا الصالة أفسح مما هى عليه بكثير، وإذا وسطها شمعة بطول القامة، وكانت مضاءة، وكانت تذوب بسرعة مدهشة حتى فرغت، فتكن من مادتها السائلة هيئة جسد نائم ملفف بغلالات[1] رقيقة، ففزعت وأرادت أن تستفسر من «سرور» عن ذلك، ولكنه تركها وجرى على السلم، فاستغاثت بالحاج أن يلحق به..

عند ذلك قال الحاج إمام:

- أهو الشيخ مصطفى قال زى ما قلت لك.. الشمعة عز والنور فرج

---

(١) غلالات: ملاءات

ومع أن الحاج قال ذلك بلهجة التأكيد، إلا أنه كان يوجس خيفة من هذا الحلم منذ سمعه للمرة الأولى. وخطر له أن ربما هو المقصود بالشمعة التى تحترق. وأن منيته قد دنت. وأكربه خاطر الموت فعمد إلى تغيير مجرى الحديث فقال:

- فين نجية (وهى الخادمة) ما حدش سامع لها حس؟

- كانت حوا قالت لى الصبح أبعت لها نوتات البيانو على بيت نظيم باشا الساعة أربعة، فبعتها توديهم، وأهى لحد دلوقت ماجتش.

- مع إن بيت الباشا مش بعيد.

- عاوز حاجة؟

وأطرق الحاج، وسكتا.. وفى هذه الفترة كانت الرغبة فى تغيير مجرى الحديث قد سوّلت[١] للحاج أن يفضى إلى فاطمة هانم بشكوكه فى علاقة نجية بشفيق ابن الجزار، فقد حدث يوما أن خرج الحاج من غرفته، فسمع عند السلم همسا يقول «ابعد عنى!!» فتقدم يقعقع بحذائه ليستبين الأمر جهارا. وامتقع وجه الفتى. وتأهب الحاج ليثأر للفتاة الساذجة.. ولكن الفتاة الساذجة تظاهرت بأنها هى التى رمت اللحم عمدا، فهو ردئ رداءة يدركها من له عينان!. لذلك كان للحاج كل العذر فى أن لايرى تلك الرداءة، وأراد أن يقنع الفتاة بخطلها، ولكنها استشاطت غيظا واتهمته بأنه يحابى الجزار لأن الجزار يحابيه حين يشترى لنفسه.. وهددت بأن تعلن المؤامرة إلى سيدتيها. ولما كان الشطر الثانى من الاتهام حقيقة واقعة، فقد خاف الحاج أن تنفذ الفتاة الساذجة وعيدها فتسئ السيدتان الظن به من ناحية، وتبطُل محاباة الجزار له من ناحية أخرى. فجعل يلاطف نجية حتى أذعنت لقبول البضاعة، وسر الحاج بما أبلاه[٢] وما أبداه من كياسة ومهارة فى الإقناع.

هذا ما دار فى خلد[٣] الحاج وهو مطرق. ولكنه لم يكن وقتئذ من راحة النفس بحيث يخوض فى حديث كهذا. وأعادت فاطمة هانم سؤالها:

- عاوز حاجة؟

---

(١) سوّلت: هيأت وبررت

(٢) أبلاه: أنجزه وحققه

(٣) خلد: عقل

- لا. كتر خيرك. أهى كانت تسلينا بعبطها..

وشربا القهوة ساكتين وكلاهما فى شغل بهذا الحلم، وأخيرا قال الحاج:

- ما تخديش فى بالك

وكان إنما يواسى نفسه. فحركت فاطمة هانم يديها حركة الرضى بما يجئ به القدر. عند ذلك استأذن الحاج فى الانصراف لأداء فريضة المغرب قبل الفوات.

وبعد قليل ارتفع صوته فى غرفته ينوى صلاة المغرب «ثلاث ركعات حاضراً. مستقبلا. الله أكبر..»

الفصل الثالث

فى هذا الجو نشأت حواء. وكان خليقا بها أن تكيف نفسها لهذا المحيط، وأن يصبح عقلها كهفا للجِنّة والشياطين وقاموسا بأسمائهم وأنسابهم وطقوسهم، وخزانة لما يحتاج إليه هؤلاء «الأسياد» -ذكورا وإناثا- من طواق من خرز، وقلائد من ودع، وخواتم من فضة، وتشكيلة كبرى من القلانس[١] والمسوح والسراويل، والخناجر والسيوف.

وما كان عجيبا لو أنها نشأت قعيدة بيت يلفها إحساس الأنوثة فى أرخص معانيها، لاترى لحياتها رمزا إلا جسدها تحبوه وتجلوه استعدادا لزيجة بهيمية موفقة أو غير موفقة وما كان عجيبا لو أن الشباب والفراغ دفعا بها إلى الشارع وأن الجهل والسذاجة استدرجاها من الشارع إلى الهاوية.

إنما العجب والإعجاب معا أن تنشأ حواء لايتعدي البخور أنفها ولاتتخطى التمائم[٢] رضاءها الساخر. فهى تألف ما حولها ثم تأنف منه، وتقف شخصيتها فى هذا المحيط صلبة باسقه[٣].. وكان ليتمها وفقرها أول الأثر فى ذلك.. كانت وهى طفلة ترى أترابها[٤] يذكرون الوالد والوالدة، ويزأطن[٥] بما جاء به الوالد وما ستجئ به الوالدة وهى بينهن حائرة العين معقودة اللسان، لن يجئ لها الوالد بشئ لأنه أهملها بما جَدّ له من بنات وبنين، ولن تجئ لها الوالدة بشئ لأنها ماتت!! وأدى بها ذلك إلى أن تكون قليلة الكلام قليلة اللعب.. وكأنما أرادت أن تثأر من ظروفها القاسية، وأن تتحدى أترابها فى زئيطهن ومباهاتهن، فعمدت إلى التفوق عليهن جميعا. ومضت فيما أوحاه إليها وجدانها.. تذاكر وتثابر.. غير حافلة بإشفاق جدتها عليها من مرض أو حسد.. فبان تفوقها، وأصبحت بارزة فى أترابها مميزة.

فلما رأت الجدة إصرار حفيدتها على خطتها، اكتفت بأن تحوطها عن بعد، وأن تبادل الحاج إمام نظرات السرور كلما جاءتهما حواء من أنبائها بما يسر، ونظرات الانتصار كلما أعلنت لهما

---

(١) القلانس: جمع قلنسوة أى عمامة

(٢) التمائم: جمع تميمة وهى الحجاب أو التعويذة

(٣)باسقه: ظاهرة ومتميزة

(٤) أتراب: زملاء

(٥) يزأط: يبتهج و«يزأطط»

نصرا. وكان الشيخ والشيخة يعتقدان أن لبخورهما وتمائمهما فى هذا أو ذلك النصيب الأكبر. ويصارحان حواء أحيانا بما يعتقدان، فتبذل لهما الدعابة الحلوة ويمضى كل فيما يعتقد.

وحدث بعدت خرجها من المدرسة السنية -بتفوقها المعهود- أن اختيرت للسفر إلى انجلترا للتخصص فى الرياضيات ففرحت، ولكن «سرورا» غضب. وأقسم لن تبعد حواء عن عينه أبداً، وتآزر مع الحاج إمام والشيخ مصطفى فى البرّ(١) بهذا القسم. فكتبت الآيات على جلد الغزال ودست فى الوسائد، ورسمت الرسوم على الأطباق بالزعفران وغسلت بماء من المساجد، وأريق الماء على الأعتاب والسلالم، وكثير من عمال أخرى أجهدت رأس الجدة وأنهكت بدن الحاج وأدرّت(٢) على مصطفى..

وأخيرا..

خفت موازين حواء ورجحت موازين فتاة أخرى كانت تنافسها. وقد يكون أن «سرورا» قفز من كفة حواء فخفّت، وتعلق بكفة الأخرى فرجحت، فهذا قول يؤيده ما رآه الحاج فى منامه رأى العين. على أن حواء أكبّت وقتلذ على مكتبها، ومضت ترد على خطاب من صديقة لها اتصل بها ما حدث فأرسلت تواسيها:

عزيزتى

لقد كان لخطابك صدى عميق فى نفسى بعد تلك

المهزلة التى قدر لى أن أفتتح بها حياتى العملية. والتى

أحسست فيها لأول مرة فى حياتى بمس لكرامتى.

وأُلحقت حواء بإحدى المدارس تعلم الرياضة فاقتصدت فى الاختلاط بزميلاتها المدرسات.. وتكونت لها حيالهن شخصية فيها تعال، ولكن ليس فيها حماقة.. فكن يحترمنها ولايكرهنها.. بل كانت الحكم إذا اختلفن جميعا، ومرجع الرأى منهن أفرادا. فإذا ما عادت إلى

---

(١) البرّ: الوفاء

(٢) أدرّت عليه: أى عادت عليه بالمال والخير

البيت، أنست بجدتها، وبادلت الحاج سذاجة بسذاجة. ولم تكن تنعى عليهما معتقداتهما فى الجنة والشياطين. وترى أن لا لوم عليهما وأمثالهما فى ذلك. فهم تركوا للجهل فعلمهم الجهل علمه، يصدرون عنه ويرجعون إليه. فلماذا تحاول أن تزعزع هذا الإيمان، ولن تستطيع أن تحل محله منهما إيمانا آخر، وما أشقى من يعيش مزعزع الإيمان.

وتترك حواء جدتها إلى البيانو، وقد دفعت أول أقساطه من أول مرتب لها. وكانت للموسيقى عندها لذة كبرى، تزكيها[1] الرغبة ويكبتها الفقر، فأقبلت عليها بلهفة الصادى[2] وهمة المفتون.. وصارت هى السلوى.

على أن همة حواء ما لبثت أن ثارت على هذا الركود، وطموحها لم يرض عن تماثل الحياة بين البيت والمدرسة، فانضمت إلى إحدى الجماعات النسائية، وراحت تعمل بنفس تريد العمل. ولايزيدها الزمن إلا مضيا. وكان لها الفضل الأوفى فى أن تنشئ الجماعة مشغلا لتعليم اليتامى، وباتت حواء شخصية جريئة حاسمة، لها مكانتها فى أرقى الأوساط النسائية.

وأقام المشغل مرة حفلة كبرى، دعا إليها الكثيرين والكثيرات من أهل العلم وأهل المال، ونيط[3] بحواء أن تقول «كلمة الإدارة» فقامت وسط الجمع الحاشد رابطة الجأش، طلقة اللسان. فتكلمت عن المشغل وجهوده التى مضت، والجهود التى يتحفز لها، والأغراض التى حققها، والأغراض التى سوف تحقق.

وتطرق بها القول فأهابت[4] بأن قد آن الأوان لتحديد الغرض من التعليم فى هذا البلد!! تحديد المهمة الجديدة التى من أجلها تساق البنات والبنون إلى المدارس على اختلاف أنواعها. وتساءلت فى تهكم مُرّ عما إذا كان أولياء الأمر والمفكرون والممولون قد اكتفوا وأُثلجت صدورهم بأن تكد فلذات القلوب وتجد، سنوات إثرها سنوات، وينالون الشهادة بعد الأخرى.. لالغرض إطلاقا سوى الالتحاق بإحدى وظائف الحكومة؟ حتى إذا ما قفل الباب الأوحد فى وجه أحدهم ارتد عاطلا، وأصبح عالة على أهله، وعبءً ثقيلا على نفسه وعلى المجتمع.

والبنات!. يتعلمن علما نظريا محضا.. يؤدى بالقليل منهن إلى الحكومة أيضا.. وترجع الغالبية العظمى منهن إلى بيوتهن، فإذا بهن غريبات عن تلك البيوت.. غريبات حتى عن أداء أشد الحاجات مساسا بالحياة المنزلية.

---

(١) تزكيها: ترعاها وتنميها

(٢) الصادى: العاشق

(٣) ونيط: أوكل أو عهد إلى

(٤) أهاب: ناشد

والزمن! يتطلب للنشئ علما عملياً لانظريا.. علما يكون الرجل الحق والمرأة الحقة.. الرجل الطامح المكافح.. الجدير بالحياة.. القادر على استنباط طرق العيش.. والمرأة المدربة فعلا على تدبير المنزل.. يلوذ(١) الرجل به فيجد الراحة إن كان متعبا، والرأى إذا كان حائراً، ورضى النفس إذا كان فى نفسه تبرم(٢) أو كلال(٣).

وجعلت حواء تتوسع فى فكرتها هذه، وتضرب الأمثال، وتقيم الموازنة بين أنماط التعليم فى مصر وفى اوروبا بلباقة أسرت الأسماع، واستثارت الاهتمام، حتى دوى التصفيق فى النهاية دويا يُصم الآذان، وأحدثت عبارات الاستحسان لغطا طويلا بين الحاضرين واحتاط الكثيرون بحواء يهنئونها ويبدون لها السرور والاعجاب.

وعند الانصراف دعتها فريدة هانم حرم اللواء نظيم باشا لتركب معا سيارتها، فأجابت الدعوة، وسر الباشا وازداد وجهه المنتفخ توهجا وانتفاخا. وهرول إلى السيارة بجسمانه الضخم، وخطواته القصيرة، وفتح الباب وانحنى على قدر ما سمح له كرشه. ثم جلس قبالة السيدتين، وجعل يرد التحيات التى كانت تلقى على حواء بأبهة عسكرية كأنما هو المقصود بالذات.

وجعل أثناء الطريق يُرى حواء مصداق قولها فى أولئك الشباب الجالسين على المقاهى كالخشب المسندة لاحديث لهم إلا الكلام التافه أو النكات الفاحشة ولاسرور إلا أن ينتصر أحدهم على الآخر فى لعبة النرد. ويبدى أسفه لتلك القوة المعطلة فى زمن يتطلب فيه الوطن أكبر كَمّ من القوى.

ومن ثم توثقت عرى(٤) الصداقة بين حواء وفريدة هانم فاختارتها لابنتها الصغيرة تشرف على تعليمها، وتعلمها البيانو.

ومضت أشهر..

---

(١) يلوذ: يحتمى

(٢) تبرم: ملل

(٣) كلال: تعب

(٤) عرى: أواصر أو روابط

الفصل الرابع

الوقت بعد الظهر، وقد انتهت عملية تناول الغذاء ونجية فى المطبخ، وهى على خرير ماء الحنفية. ورنين الأطباق والملاعق تُعْوِل(1) بالغناء عويلا تقول فيه:

أنـــــا أحبـــــك أنـــــا   بـــس الحيا مطلـوب

والساعــة فى بعدك سنــــة   القلـب منى يـدوب

فلما اشتد بها الوجد، ورأت أن لامندوحة من أن ترفع عقيرتها، أحدثت فى أدوات الطبخ حركات هوجاء، ليُخرج «النحاس» أصواتا تتناسب مع «طبقة» صوتها من الوجهة الموسيقية، وتقنع ربات البيت بهمتها من الوجهة العملية.. بعد ذلك، وقفت فى الصالة تّدعى بصوت جهير أنها ذاهبة تستعجل كيّ ثياب سيدتها الصغرى لأن المكوجى كسول دلت التجارب على أنه لاينجز عملا إلا تحت ضغط الإلحاح وكثرة التردد عليه. ولم تنتظر تنفيذا لهذا الادعاء، بل نزلت السلم جريا ونهبت الطريق نهبا، حتى ليحسبها الرائى سوف تنقض على العامل الكسول فتلهبه نشاطا، ولكن الطريق أدى بها إلى شفيق ابن الجزار.

لم تعن حواء ولا الجدة بالرد على الخادمة، وكانت كل منهما فى غرفتها.. هذه مستلقية على السرير وقد انتهى عملها اليومى من المدرسة، وتلك على الكنبة تُعمل الإبرة فى ثياب أمامها ورن صوت الخادمة فى آذانهما دون أن يحدث معنى خاصا فقد كانتا ساهمتين لا هذه نائمة ولا تلك تخيط.

قال وجدان الجدة «لست أدرى يا ابنتى ماذا تعانين؟.. وعبثا تخفين عنى غمتك بابتساماتك وكلماتك فهى ابتسامات خالية من ذلك البريق الذى ينعكس على عينى.. وكلمات ليست فيها الحرارة التى اتخذ منها النشاط لشيخوختى.. أتكونين مريضة؟».

فأجابها وجدان حواء «كلا!. لست مريضة.. بل نعم، قد أكون.. لست أدرى.. إنى حائرة..

---

(1) تعول: تصرخ وتولول

وأشعر بأنني لست ملك نفسي.. لا أعلم لماذا يفرح قلبي، ولماذا يحزن، ومم يفْرَق[1] تفكيري. وبم يطمئن؟..»

ولم يستطع وجدان الجدة تفهم هذه الشكاية المبهمة[2] فعمدت إلى الإبرة والثياب وعالجت حواء النوم، ومكنت رأسها من الوسادة، وكان يلذ بها أن تنام وقت الظهيرة كلما سنحت الفرصة، وهى اليوم أشد ما تكون حاجة إلى الراحة. فقد لزمها الليالى الماضية نوم غير مريح تشرف فيه على مروج لا عهد لها بها فتبهرها وما تكاد تطمئن إليها حتى تهب العواصف، وتنقلب المروج أغواراً وانجاداً وعرة مريدة الجو تتجاوب فيه همهمة بالغة الرهبة وهى تسير فى طرق تتعرج أمامها كالأفاعى، وتقلق تحت خطواتها حتى لينخلع قلبها، فتستيقظ ملؤها الفزع وينتابها أرق لاتستطيع فيه التفكير بجلاء.

وها هى الآن لم تنم. والهواجس تصدّع رأسها.. فقالت وقد بلغ الملال أشده «أعصابى متعبة. أنا أنهكت أعصابى بالعمل، وها هى النتيجة. يجب أن أضع حداً لذلك.. يجب أن أضع حداً لذلك.. أفلا أقل من أن أهم بالنوم؟! أى كارثة تكون لو استبد بى الأرق، وتمادت بى الأحلام المزعجة؟... لن أذهب إلى بيت الباشا..». وكأن قوة خفية تحدتها فى عزمها هذا فأعادته فى ضجر وإصرار. «نعم لن أذهب!!». وانساب تفكيرها فجأة فى شأن ما لا تزال مدينة به من ثمن المنزل. وكرهت ذلك فطردت الخاطر عنها.

ثم سهمت طويلا، فلما فطنت لنفسها تراءى لها أن فى عقلها تيارا عميقا مبهما وأرادت أن تغوص إليه، فمنعها كلاها عنه بيد أنها أيقنت أن هذا التيار أراح قلبها فى فترة سهومها. ثم باغتها حوار موهوم بينها وبين أعضاء المشغل فى مقترحات لها وعبثا حاولت أن توقف ذلك الحوار فراح يتردد فى رأسها رغم إرادتها حتى كان منه ومن طول التصاق مؤخر رأسها بالوسادة أن أصابها دوار شديد. فاعتدلت بحركة عنيفة فنامت على جنبها وهى تقول.. «الجمعية.. والمشغل.. وذلك الهراء المضنى الذى فيه أفنى وقتى. بل شبابى. أجل شبابى. لماذا لا أكون كباقى زميلاتى فرحة طروبة آخذ الحياة على علاتها؟. المثل الأعلى!.. العمل من أجل العمل!.. العمل للمجموع!..

---

(١) يفْرَق يهلع ويخاف

(٢) المبهمة: الغامضة

سخف.. نعم. لن أذهب إلى بيت الباشا...» واشتد بها الدوار، وتخاذل جسدها، وضاعف ضيقها الحر والعرق.

قال وجدان الجدة بعد حين «هل نمت يا ابنتي؟»

قال وجدان حواء «أدع لي يا جدتي!»

فرفعت العجوز عينين متوسلتين إلى السماء ثم عمدت إلى الإبرة والثياب.

واستيقظت حواء بعد حين على صوت الخادمة وهي تصيح بأن الرجل الكسول لم ينته بعد من كيّ فستان سيدتها. فنادتها حواء وأمرتها بأن تعد الحمام فأسرعت إلى تلبية الطلب بهمة دلت عليها قعقعة قبقابها ذهابا وجيئة. وأفاد الماء البارد حواء وأشعرها النشاط.

وكانت نجية قد أصلحت من غرفة سيدتها وفتحت النافذة فامتدت الشمس على البساط، وانعكس ضوءها على المرايا فأفاض على الغرفة البهاء. وحواء قد عنيت منذ توظفها بأن تكون غرفتها أنيقة مستكملة الأثاث. ووقفت حواء وسط شعاع الشمس وتمطت. لاعن كسل بل لتفسح لقلبها وكان يتمدد في صدرها بشعور أشبه بالفرح الشديد وهو شعور جعل يحتلها من حين إلى حين في الأيام الأخيرة ولم تكن تعرف عن يقين مصدره وكلما تقصته ترامى وغمُض عليها. وفي هذه اللحظة دخلت نجية فقالت:

– ستي الكبيرة بتقول لحضرتك تشربي القهوة هنا والا عندها؟

وترددت حواء، وقالت وهي تستلقي على الشيزلنج:

– هنا.. هاتيها هنا.. أحسن

وكانت «أحسن» هذه لنفسها أكثر منها للخادمة إذ كانت حواء تفضل الوحدة والانفراد وإن لم يكن لديها سبب خاص. وفي آخر رشفة من القهوة قالت لنفسها فجأة.. «ورمزي؟!. إنه شديد الحياء! وهل يكون خجولا في عمله وفي حياته العامة على نحو ما يبدو أمامي؟ لخير له أن يكون أكثر حياة وجرأة وصراحة!!» ووضعت الفنجال على عتبة النافذة ثم قالت «ومع ذلك فما شأني به. ليكن كيفما شاء». وبعد فترة قامت بنشاط على عزم أن تستعد للخروج. وما استقر بها مقعد الزينة حتى فتر نشاطها وقالت «الأجدر أن لاأذهب إلى بيت الباشا وأن أستريح» وكانت في ذهنها فكرة أخرى تسير مع نجواها هذه تماماً، وهي أن تُعد محاضرة عنوانها «نطلب السفور لشبابنا».

وفي هذه اللحظة لمحت صورتها في المرآة، فأمعنت فيها النظر. فتعطل تفكيرها إطلاقا، ثم انتهت فإذا بها تنظر إلى المرآة وجلة ضارعة. ذلك لأنها ذكرت –علي حين فجأة– أنها في الثانية

والثلاثين من عمرها. وخيل إليها أنها لم تنظر إلى المرآة من قبل، بل كانت ترجّل شعرها أو تصلح من وجهها بكيفية آلية أو غريزية وهى تفكر فى أشياء أخرى.. الجمعية.. المشغل.. المدرسة.. الموسيقى.. وما إلى ذلك.

ولكنها الآن ترى...

ترى أن عينيها قد غلبهما جد الرجولة على فتور الأنوثة. ووجهها وإن كان ممتلئا إلا أنه كامد البشرة. شاحب. وقوس شفتيها منحن إلى الأسفل أكثر مما يجب. عبوس يزيد منظرها عمرا. وشعرها لا بريق له ولا هو مرتب على نمط خاص. وسّهمت حواء إلى المرآة طويلا فأحست بالخجل، والحسرة... والجرأة!! ثم ترددت، ثم فتحت أدراج التواليت بحركات عصبية، وشرعت تُعنَى بنفسها للمرة الأولي..

وكانت أثناء ذلك تحاول أن تقتنع بأنها إنما تفعل ذلك من أجل نفسها، كأية شابة في سنها، بل سوف لا تهمل زينتها بعد اليوم. وسوف تعتذر لفريدة هانم عن متابعة تعليم ابنتها. وسوف تشارك زميلاتها ضحكهن ومرحهن. تثقب الشرنقة وتطير إلي الحياة. فالوقت لم يفت، وهي مازالت في عنفوان الشباب.

وسرها ما بدى علي وجهها من نضارة، ولو لم تبالغ في تزيينه. ولكن الساعة دقت في الصالة النصف بعد الرابعة، فأصابت تلك الدقة مجمع الأعصاب من حواء وأحست بيد تمسك قلبها حتي صعب التنفس عليها فراحت تعض شفتيها تباعا. ثم هزت كتفيها وقالت «قلت لن أذهب بمعني لن أذهب»! واعتزمت أن تزور صديقة لها في شبرا. وعندما وقفت أمام المرآة من خزانة الملابس، أعجبها قوامها المديد وقد أظهره الثوب الذى انتقته في أحسن ما يكون.

وهمت بأن تبدى زينتها على جدتها، فأدركها خجل وامتعاض، فعدلت عن ذلك إلى تنفيذ ما عزمت عليه. وأوصلها الترام إلي «العتبة الخضراء» فنزلت، وأيقنت عند سماع صخب الباعة أنها كانت ذاهلة طول الطريق. وهنا شاعت في فؤادها غمة طاغية. ولبثت مكانها برهة خيل إليها أنها من الطول بحيث لفتت الأنظار إليها فارتبكت، وأسرعت إلى الترام فعادت أدراجها... إلى بيت الباشا.

الفصل الخامس

ومضت أسابيع تختلف حواء أثناءها مراراً عن الجمعية وعن المشغل طلباً للراحة -ولكنها لم تتخلف عن «الدرس» مرة واحدة. وكانت تغرى نفسها بأن هذا الدرس يدر عليها مالا إضافيا تحتاجه فى الضائقة النسبية التى أحدثتها الصفقة الأخيرة من شراء المنزل. وكان هذا المنطق يغضبها «لأجل المال وحده أذهب؟.. وهل سوف أفنى العمر فى جمع المال وتسديد الأقساط؟ إنها لحقارة... وعيشة تافهة!!» وتثور كرامتها «إذاً لماذا أذهب وأنا أشد ما شعرت به فى حياتى تعبا واهتياج أعصاب؟!» وما من جواب صريح. بل أنها كانت تخشى أن تصارح نفسها... وتذهب إلى بيت الباشا.

وبيت الباشا لايبعد كثيرا عن بيت حواء -جغرافيا- أما فيما عدا ذلك فالسماء والأرض والشرق والغرب.. حديقة واسعة منسقة أجمل تنسيق. وممر من زلط ذى ألوان تتكون منه رسوم غاية فى الإبداع. ثم سلم وشرفة، كلاهما رحب وكلاهما من رخام. وفى الشرفة بابان من حديد أسود وزجاج أخضر لغرفتى استقبال تتنافسان أبهة وبذخا. وقد استعانت إحداهما فى هذه المنافسة بمعزف فخم صفت عليه التحف والتماثيل.

هنا تجئ حواء، وإلى هذا البيانو تجلس تراجع للصغيرة دروسها ثم تعلمها العزف... و.. هنا تقابل رمزى، قبل الدرس أو بعده، فتتحدث إليه وتجيبه إلى ما يطلب عزفه.

ورمزى، ابن الباشا، فتى تخرج من مدرسة الزراعة العليا منذ عامين، ويشغل مركزا فنيا فى الوزارة. وهو الآن فى الثالثة والعشرين من عمره. رشيق وفى تقاسيم وجهه أنوثة تظهره أصغر منه سنا حتى ليحسبه الرائى طالبا لم يساهم فى الحياة بعد. وهو من جاه والديه وثروتهما غنى عن أى طموح.. طريق الحياة منبسط أمامه ممهد، مشرق مديد ومع ذلك فما هو نزق بشبابه ولاصلف بما أوتى. بل رزين دمث وفى نظرته خجل وقد نشأ وله صوت والده الغليظ الواضح يجذب به إليه المستمع. وإن لم يتحدث بجديد.

ولم يتعمد رمزى أن يثقف نفسه ثقافة خاصة وإن كان يشترى الكتب غثها وسمينها على السواء، إذا تساوت فى أناقة الشكل وجمال الطبع. فمكتبته إذا عامرة باهرة وإنه ليمضى الساعات فى ترتيبها وإعادة ترتيبها. ويداخله من عرفان أسماء المؤلفين شعور بأنه يتمشى مع الحركة الأدبية. بيد أنه يقرأ أهم الصحف اليومية، وكافة المجلات الأسبوعية، وللأخيرة عنده مجموعات ينفق على تجليدها بسخاء.

من ثم لم يخل من سفسطة الطبقة التى هو منها، فهو يجلس فى غرفة الاستقبال الفخمة من منزله الفخم، ويتكلم برخاء عن فقر الفلاحين، ويظهر علمه بجهلهم، وحسن نيته حيال سوء حالهم.. ويأسف لذكر وأنثى من بنى آدم، وذكر وأنثى من البهائم يعملان النهار فى حقل واحد، ويبيتان الليل تحت سقف واحد، ثم يعتذر بوالده عن أى إصلاح فى ضيعتهم.. فإذا بحواء مشفقة عليه لا على الفلاحين.

وقد عود رمزى أهلُه منذ صغره أن يقنع بالدار والحديقة. وبالسينما أو المسرح أحياناً. فهو ماض على هذه السنة. ومنذ جاءت حواء تعلم أخته الصغرى وجد تسلية فى أن يتحدث إليها دقائق قبل الدرس أو بعده.

وكانت حواء -بادئ الأمر- تشفق على هذا الشاب من تفاهة تفكيره. ولاترتاح إلى مغالاته فى العناية بمظهره. وكانت تسائل نفسها «أى عمل جدى يمكن أن يضطلع به هذه الدمية؟» وتعجب من اخلاده إلى البيت، ومن تماديه فى الركود، بينما هى مثقلة بالواجبات لاتكاد ساعات النهار تكفى جهودها. على أنها لم تلبث أن ألفت شخصية رمزى على علاتها، وأخذت تتلمس له المعاذير عن صبيانيته بعدم حنكته، وعن مظهره بصغر سنه وما تبيحه له ثروته «إن الرأى ثمرة التجربة، وهو لم يعرك الحياة بعد. أو لم يكن طالباً منذ عامين؟ والعمل وليد الحاجة. وهو فى غير حاجة. فلم العمل، إنما نحن وأمثالنا المرغمون على الكد والكفاح لنكسب مادياً أو أدبياً. تلك هى الحقيقة..»

واعتادت حواء الجلوس إلى رمزى والتحدث إليه. ثم تطورت العادة إلى رغبة، والرغبة إلى إحساس بنعيم وحواء تحاول أن لاتعترف لنفسها بهذا النعيم.. ومن ثم كانت حيرتها بادئ الأمر.. لاتعرف لماذا يفرح فؤادها ولم يحزن. ومم يفرق تفكيرها، وبم يطمئن، إلى أن صرّحت الحرب بين

عقلها -وقد حشد الدين والأيمان والعرف والخرافات- وبين قلبها وليس له إلا الشباب المستميت. وكانت الحرب سجالا، فهى حيالها فزعة أبدا...

إلى أن جاء يوم...

وذهبت حواء إلى بيت الباشا، فلم يستقبلها رمزى.. وابتدأت الدرس وانتهت منه.. ولم يجئ.. وكان عليها أن تنصرف.. ولكن كيف؟ وهل يمكن أن تنصرف دون أن تراه!.. هنا نزلت عندها بالدين والأيمان والعرف والخرافات شر هزيمة أمام طغيان العاطفة. واستحالت حواء فى مكانها تمثالاً صلداً، واستحالت نفسها هوة لاقرار لها. ولبثت هكذا حينا. ثم ترددت فى الهوة أصداء عذبة، فانتعش التمثال فجأة كأن معجزة أودعت فيه الحياة.

- مش دا أخوك؟

قالتها بلهفة، وكان رمزى فى الخارج ينادى بعض الخدم.

فقالت زيزى بسذاجة الطفولة:

- أيوه.. هو مع بابا علشان العزبة.

ولو أن زيزى كانت أكبر سنا أو أدق ملاحظة لدق المركز، وتبينت حواء موقفها فاتزنت جهدها وعدلت عن أسئلة شتى تقافزت إلى ذهنها. وبعد فترة قالت الصغيرة وعيناها تلمعان:

- يا ريت حضرتك تجى معانا العزبة السنه دى.

قالت حواء وقد جلست على مقعد عند نافذة تطل على الحديقة، رجاء أن يعرض رمزى فيراها. ولفت الصغيرة بذراعها:

- هى عزبتكم جميلة؟

- جدا.. جدا.. فيها غيطان.. و.. ساقية و. وفلاحين..

- وأخوك بيكون معاكم؟

- أيوه.. وبيركب الحصان.. وياخذنى قدامه كمان.

- انت تحبى أخوك كتير؟

- خالص خالص.. قد..

وارتج على الصغيرة، فضمتها حواء وقبلتها. وسرت زيزى، فابتسم وجهها وقالت وهى تحملق بعينين مشرقتين فى عينى معلمتها:

- وحضرتك مش بتحبيه كمان؟

فانتفضت حواء لهذا السؤال، وضغط ذراعها -بحركة عصبية- على خصر الصغيرة. والتفتت خلفها خيفة أن يكون أحد سمع حوارهما، أو سمع هذا السؤال على الأقل.. وهمت بأن تقوم. ولكن نبْض قلبها وتخاذُل ركبتيها حالا دون ذلك.. فقالت بعد برهة وهى تمر يدها على شعر الصغيرة وتبتسم:

- روحى بقى استريحى علشان تذاكرى درسك الجديد..

وانصرفت حواء..

وكانت فى طريقها لا تحس الأرض التى تحت قدميها، لأن فكرة هالتها فعطلت مشاعرها «ماذا حدى بزيزى أن تسأل هذا السؤال؟ أتراه جاء عفواً، أم موعز إليها به أتكون والدتها وقد لحظت تكرار لقائها لرمزي..؟ أتكون والدتها وقد لحظت تكرار لقائها لرمزى.. أم يكون رمزى نفسه؟. وإذا كان ذلك، فهل بدا منها ما راب أحدهما فأجرى هذا السؤال على لسان الصغيرة لاستقصاء الأمر، أو للتعنيف، أو على الأقل لإيقافها عند حدها بطريقة غير مباشرة؟ أم أن رمزى..»

ولم تستطع حواء -أو أنها لم تشأ- أن تحدد بالضبط ذلك الهاجس الأخير. وأصابها دوار شديد. وودت لو أن تسعفها عربة تقلُّها إلى منزلها وفيما هى كذلك إذ بصوت يقول:

- بونوسوار..

فثابت إلى حسها، تكاد عيناها تجحظان.. تلتهبان.. تعشيان.. حين وقعتا على وجه رمزى. وصارت كل جارحة منها تنبض بالطرب. وروحها تضرب جدران قلبها بأجنحة قوية تود الانطلاق لتتقمص هذه الفرحة.. فرحتها الأولى فى اثنتين وثلاثين سنة قضتها بلا فرحة.. ولم

تدر بماذا أجابت وهل صافحته؟ وهل شد على يدها أو شدت على يده؟ وكيف كان مسها، وكيف كانت حرارتها؟

ولم تحر جوابا.

وودت لو أن تعبر له عن سرورها المطلق بهذه المصادفة، حتى ولو بالعبارات التى تجرى بها العادة فى مثل هذا الظرف، ولكنها أمسكت حذار أن تكون فيها تلميح لايسره. ثم أنت جوانحها بالرغبة فى أن يكون هذا التعبير من ناحيته.. على أنها اكتفت بأن قالت، وهى تنظر إليه بطرف عينها لتخفى عنه وجهها بقدر الإمكان:

- كنت فين النهارده؟

وفى هذه اللحظة تبينت على وجه الفتى ظل كآبة، فالتفتت إليه وقالت:

- مالك؟!

وسارا جنبا إلى جنب، وكانت أطول منه بقليل، وأنشأ رمزى ينهى إليها ما كان من أمر والده مع نفر من المزارعين جاءوه يشكون الأزمة وقلة المحاصيل وهبوط الأسعار، ويلتمسون منه تخفيض إيجار الأرض إلى حد يتناسب وهذه الحال الجائرة التى لاتكاد تُدِرُّ عليهم القوت.. والباشا لايلين.. فلما أراد الفتى أن يتوسط فى الأمر، انتهره، ورمى الفلاحين بأنهم أخبث من الذئاب، وأمكر من الثعالب، وأن الفقر وسوء الحال وأزمة أشد من هذه الأزمة، لهى أنجع علاج لترويض نفوسهم الشريرة.. وأنه يجب أن لايرثى لحالهم فذلك محض صبيانية.. وأن يكون من ألاعيبهم على حذر. فآثر الفتي أن ينصرف.

وكانت حواء تشترك في الحديث بأقصر العبارات وعقلها في تفكير آخر.. ماذا عساها تصنع حين يصلان البيت .. وسيصلانه بعد دقائق ؟ أتترك الفرصة الذهبية تفلت بهذه السرعة ؟ كلا.. كلا.. سوف تدعوه إلي دارها، وتلح إذا اقتضى الحال..

- ...وتصورى أن فيه قرى، لو جمعت كل ما عند أهلها تجديه لايتجاوز جنيه واحد.

- هذا بؤس.

ومرت فى خاطرها مقارنة بين البيتين، وبين الأهلين، ولأول مرة فى حياتها تبينت أن جدتها يجب أن تكون أحسن مما هى عليه مظهراً.. والحاج إمام.. أواه لو دخلا وكان بقميصه وسرواله يتوضأ فى صحن الدار.

– تجديش فى الدنيا أعجب من كون الغلابة دول ما يناموش فى أوده مبنية بالطوب أو الدبش إلا إذا ماتوا.

– ملاحظة مدهشة.

وكادت تعدل عما اعتزمت، ولكن قلبها تشبث بالفرصة السانحة.. سوف تجلس إليه على انفراد.. يتحدثان بكامل الحرية.. أترى غرفة الاستقبال نظيفة مرتبة.. أنها لم تدخلها منذ أيام.. ونجية لايُعتمد عليها.. على كل حال سوف يجلسان فيها. وتعزف له على البيانو.

– ...وكل ما طلبته أن ينقص لهم الإيجار عشرين فى المية.

– نسبة معقولة

بهذا تستطيع أن تقترب من قلبه فتسبره. أى فرحة جنونية سوف تعتريها إذا ما وجدت لها فيه مكانا! وخطر لها كذلك أن هذا اللقاء ليس وليد المصادفة. بل تدبير من الفتي تعمده. وأنه كان يرقب خروجها. وربما كان يتمنى هذا الظرف من زمن طويل.. وأنه ينتظر منها إبداء سبب لإطالة الوقت فيجيبه على الفور. بل ربما اقترح من ناحيته سببا.. على أى حال، إذا جدّ فى الأمر خيار فسوف تفضّل الذهاب إلى المنزل، فقويت ثقتها فى العثور على ضالتها. وأدركها لذلك الخاطر مثل مس الكهرباء، ثم مثل نشوة الخمر حتى لقد بذلت جهداً فى أن تقول

– بديع من غير شك، ولكن الباشا أدرى،

ووصلا المنزل، وقبل رمزى دعوتها.

الفصل السادس

كان أول ما أراح بال حواء، أن رأت غرفة الحاج مقفلة، فأسرعت تنهب السلم إلى جدتها، فإذا إمام عندها يقرأ عليها من كتاب «قصص الأنبياء»، وقد وصل من معجزات موسى عليه السلام، أنه وهو فى السابعة من عمره كان يوما جالسا مع فرعون على سرير الملك، وأن فرعون نهره لسبب ما، فنزل مغضبا وضرب برجله قوائم السرير فحطم منها اثنتين، وسقط فرعون وتهشم أنفه.. وكانت نجية تسمع، فسرها ما تخيلته من منظر الملك العظيم مكوماً على الأرض والدم يسيل من أنفه ومضت تضحك وتصخب.. وداهمت حواء الموقف عند هذا الحد، فأشارت إلى الجميع بالصمت وأعلنت مقدم ضيفها فى كلمتين، وتركتهم بأفواه فاغرة وعيون محملقة وانطلقت كالسهم إلى غرفة الاستقبال فاطمأنت على حالها، وفتحت بابها المؤدى إلى السلم. ودخل رمزى فوقف وسط الحجرة يجيل فيها النظر، وعلى شفتيه ابتسامة خشيت حواء أن تكون إشفاقا.

وغرفة الاستقبال بسيطة الأثاث، لا أكثر من كنبة وثلاث مقاعد رحبة ذات متكآت ولها وسائد ضخمة مريحة بينها سجادة صغيرة، وفى الوسط صينية من نحاس أصفر على حامل دقيق الصنعة.. ثم البيانو. وعليه صور فوتوغرافية لبعض الصديقات. وعلى الجدران صور أخرى لحواء مع تلميذاتها. وفوق الكنبة صورة زيتية لمسجد وعلى بابه شيخ جالس يقرأ القرآن.

فأقبل رمزى على هذه الصورة، وثبت فيها نظرة الفاحص ثم امتدح ما فيها من تناسق وصدق فى الألوان، وبراعة فى الضوء والظل.. براعة جاءت حقا بجلال المسجد وروعته، ولم يشأ إلا أن يكون الناقد الحريص فأظهر مواطن ركاكة فى جلسة القارئ ومقدار حيويته. وكان التكلم برزانة استمدها من أنه أغرم بالتصوير وعالجه أيام الدراسة، ولكنه اضطر إلى تركه تحت ضغط واجباته وتذمر والده.

– لما تخرجت من المدرسة الناظرة أهدتها لى.

ووجدت حواء صعوبة فى آداء ما قالت لشدة خفقان قلبها، وقال رمزى ببساطة:

– لا غرو.

وتحول إلى الصور الفوتوغرافية، فأطرى حواء وتلميذاتها.. بكلمات وإيماءات من رأسه وابتسامات.

وهدأت أعصاب حواء نوعاً ما، وتمالكت جأشها إلى حد. وبدأت تشرح لضيفها المناسبات التى أخذت فيها تلك الصور. فإحداها فى حدائق القناطر الخيرية، وأخرى فى سفح أهرامات سقارة، وثالثة على سلم المتحف المصرى، ورابعة...

وفجأة تحشرجت الكلمات فى حلقها وامتقع لونها، وأظلم الجو فى عينيها... ذلك لأن صوت الخادمة رن وقتئذ بالاستفسار عما إذا كانت تشترى الغازوزة بالقرش الصاغ كله أو بنصفه فقط!! وكان رمزى مجيدا فى هذه اللحظة، فقد أدرك موقف مضيفته، فانطلق يتكلم عن الرحلات وأثرها المباشر فى ثقافة النشئ، ثم جلس فى أحد المقاعد وجلست قبالته، وهى تحمد جلوسه لما كانت تشعر به من تخلخل ركبتيها، وعمدت إلى أن تستأنف معه الحديث عن الفلاحين، فتكلم الفتى ولكن الموضوع نضب ،فطلب منها بدوره أن تعزف على البيانو، فقامت بخفة وابتسام تعلمتهما، وحاولت أن تعزف قطعة صنعتها مقدمة لنشيد سوف تنشده بنات المشغل فى حفلة قادمة، ولم تكن عزفتها لأحد من قبل. وإن كانت تعتز بها وتراها خير ما صنعت. وسرها أن يكون رمزى أول سامع. وحاولت الإجادة فخذلها اهتياج أعصابها، فجاء التوقيع أشبه بالعبث حتى اضطرت إلى الاعتذار بأنها لم تنته بعد من ضبطه.

ودخلت نجية بثدييها البارزين، وجسمها الرجراج وشعرها المنفوش، تقدم الغازوزة، فلم يستطع رمزى إلا أن ابتسم ابتسامة واضحة، وأسرّ إلى حواء استعداده لأن يقدم هذه المخلوقة إلى أول معرض تقيمه وزارة الزراعة، فوافقته حواء على أن تلك الخادمة بقرة آدمية حقاً.. وضحكت لتسره ولتخفى خجلها. وبعد أن انصرفت الخادمة، خشيت حواء أن يفتر الحديث فاندفعت تقول:

– البنت دى فكرتنى بالتور اللى شايل الأرض.

فنظر إليها رمزى باسما مستفسراً فاتخذت سيماء الفرح والسذاجة وأنهت إليه أن الحاج إمام ألقى عليها محاضرة بديعة فى هذا الشأن خلاصتها أن الأرض فى بدء تكوينها كانت معلقة فى الفضاء، فتعبت، وشكت إلى الله. فأرسل لها الله ملاكا دخل من تحت الطبقة السابعة وقبض على طرفيها. وبذلك حملها ولكن لم يجد لرجليه قرارا.. فأنزل الله له ثورا من الجنة له أربعون ألف

قرن.. وأربعون ألف رجل... ومن القرن إلى القرن خمسمائة عام. وهذا الثور بدوره لم يجد لرجليه قرارا فجعل الله تحته ياقوتة طولها خمسمائة عام، ولم تكف الياقوتة فأنزل تحتها صخرة فيها تسعة آلاف ثقب، من كل ثقب يتدفق بحر هائل. ولم تجد الصخرة ما ترتكز عليه، فأهبط الله حوتا من البحر السابع الذى تحت العرش فاستقر الجميع عليه.

فقال رمزى:

– أنا أعرف أن التور اللى شايل الدنيا.. زى أى ثور ثانى له قرنين اثنين.. وإنه..

– وإنه إذا حرك الأرض من قرن إلى قرن..

– يحدث الزلزال.

– يحدث الزلزال. تمام. ولكن دى رواية الحاج إمام.

– اوعى تلقى هذه المحاضرة القيمة عل تلميذاتك أو فى المشغل.

ولم يخف على حواء ما فى هذه العبارة من استخفاف. بل كانت قد لحظت ذلك من مط شفتيه أثناء كلامها، فعزمت على أن ترفع مستوى هذه الخرافة بأن تجعلها مقدمة للكلام عن العامة وفلسفتهم، وطبهم وآرائهم فى الوجود.. ولكنها عدلت فجأة، وقالت دون أن تخفف من ظاهر مرحها، وإن كانت أحست بخيبة غير يسيرة..

– لا. لا. مشغلنا يسير على أحدث نظم التعليم.

– فى الحقيقة.. دا مجهود هائل.. ولاينقصه.. إلا..

– احنا على استعداد لأن نسد كل نقص..

– عاوز أقول.. يجب على الأغنياء..

– آ. آ.

ولم ترد حواء مخافة أن يكون الانتقاد من ناحيتها فيه إحراج له، أو مساس بكرامته، ولم يزد رمزى كذلك ،وقد شعر بأنه تورط فى هذه الملاحظة، واتقى كل منهما النظر إلى الآخر.. وعمدت حواء إلى تغيير الموضوع، فارتج على ذهنها، وساد صمت ثقيل.

ولام رمزى نفسه على أنه قبل تلك الدعوة، وكان قد أحس منذ حضوره بعدم الارتياح، وبأنه فى جو لايستطيع التنفس فيه بحرية. وأيقن أنه تسرع فيما فعل. وأن مضيفته إنما تهش له مجاملة لتطفله.. ثم ماذا لو اتصل بوالديه نبأ هذه الزيارة، قد يسيئون الظن به وبها.. وينشأ مركز غير حميد، وود لو أن يلفت نظرها إلى وجوب الكتمان. ولكن هذا مستحيل.. أى صغار منه وهوان لها.. بيد أنها لاشك تدرك دقة موقفها حيال مجيئه إلى دارها.. وهذا يكفى.

ولم يفت رمزى خروج حواء –أو محاولتها الخروج عن شخصيتها الوقورة إلى المرح وشئ من الصبيانية. فلم يرتح إلى ذلك منها. وإنها فى اعتقاده لم تخلق إلا للجد والقول الرصين. وأشفق عليها وهى تتكلم عن الثور والياقوتة والصخرة والحوت.. ولكن هو الذى ألجأها إلى ذلك باقتحام دارها على غرة منها.. فهى ترهق نفسها لتسره بما يحضرها دون تفكير، بل لعل تفكيرها أبعد ما يكون عن لسانها الآن.. مشغولا بما يقوله أهلها، ويتقوله آخرون عن زيارته.

وتغلب أحدهما على الصمت المخيم بملاحظة تافهة. أعقبها حديث ممزق مضطرب.. يبتدرها بسؤال فتجيبه بسؤال آخر، ثم موضوع جديد، فإذا به كلمات معدودة. وصمت.. وهكذا.. حتى أدركا معاً أن الخير فى أن ينتهى الموقف بالإنصراف.

فهبطت معه السلم.. وشيعته بنظرها إلى أن خرج وكانت تظن أنها تبتسم.

ولكن الدموع كانت تنهمر على خديها...

الفصل السابع

وكانت هذه الدموع آخر قطرات كبريائها. ولم تدر كم لبثت تسكبها. ثم قضت ليلة في سفر لم تخف مظاهرها على الجدة، فقد أدركت -وهي في غرفتها- كثرة حراك حواء في فراشها، وأنينا وهمهمة يصدران عنها، فحسبتها لم تنم، فجاءتها علها تسليها وتطرد عنها الأرق. ولما لم تشعر حواء بوجودها اكتفت بأن وقفت إلى جانب السرير، وكان القمر في عنفوانه، وضوءه على وجه حواء وبعض جسدها، فتبينت الجدة ما في تنفس الحفيدة من اضطراب. وما على وجهها من ضجر وتقلص من حين إلى حين، فتمتمت بآيات الكرسي وهي تمر يدها في لطف على الجسد الممدد، حتى خيل إليها أن قد جاءت الآيات بالسكينة فعادت أدراجها تمشي على حذر. وفي الصباح أنهت إلى حواء ما كان، فاعتذرت بأن قد يكون السبب سوء الهضم أو ما إليه، وطمأنت الجدة فاطمأنت.

وساورت حواء طول اليوم مناظر الخيبة من زيارة الأمس، وظلت تحمل على صدرها عبءً ما تكاد تطيقه، وأدركها من الذهاب إلى بيت الباشا خوف وخجل.. خوف من أن يكون رمزي أطلع والدته على ما حدث، وسوف تلومها الوالدة تصريحا أو تلميحا، وقد يحدث ما هو أسوأ... وخجل من رمزي -على فرض أنه اعتصم بالكتمان. وفي الكتمان اعتراف بأن الأمر أوقح أو أسخف من أن يذاع -هل يقابلها اليوم أو أنه يفر من لقائها؟! وإذا قابلها فكيف يكون المشهد؟. وترددت بين أن تذهب وأن لاتذهب. ولكن الحب كان قد صرّح في فؤادها، وأخضع كل جارحة منها له. فهي ذاهبة أرادت أم لم ترد.

والواقع أنه حين عاد رمزي إلى داره، لاذ بغرفته وقد احتله امتعاضُ مَن رأى شيئا كريها، أو من وقف موقفا لا يرضاه. وخطر له أن يبادر بإطلاع والدته على ما جرى، ففي هذا برهان على حسن نيته. وتردد.. ثم رأى أن يترك الأمر لظروفه على أن يتحاشى لقاء حواء إلى حين. ولكنه تبين ما في هذا من معنى القسوة منه. وأدركته المرثية لتلك المسكينة التي أفنت شبابها كداً و جداً ولم تفز بغير ضروريات الحياة، وقرر أن لايشعرها بأن إطلاعه على حالها المعيشية أثر البتة

فى احترامه لها، وتقديره إياها. فقابلها هاشاً على عادته، وإن كان فى عينيه خجل لم يستطع التغلب عليه.

وتلاشت مع الأيام غمة تلك الزيارة. وعاد شأن حواء ورمزى إلى نصابه، بل أن رمزى شاورها فى بعض شؤونه الخاصة، ولم يكن فعل ذلك من قبل. فابتهجت بأن صارت منه موضع السر والشورى، واعتقدت إيمانا بأن الفتى يدرج إلى حبها حثيثا، ولن يطول الأمد حتى يكاشفها به.

وفى يوم، دخلت عليها فريدة هانم مشرقة الوجه، بارعة الزينة وقالت:

- كفاية كدا درس النهاردا..

- ايوه، كفايه كدا درس النهاردا..

وكان رمزى دخل أثر والدته، وكرر عبارتها مداعباً، ويداه تعملان فى ربط رقبته. فقالت زيزى فى دهشة!

- ليه يا ماما؟

فقال رمزى يتابع دعابته:

- قولى لها ليه يا ماما.

أما حواء فمدت إلى القادمين نظرة المستفسر. وكانت زيزى قامت عن كرسى البيانو، فجلست عليه الوالدة.

- علشان تروحى التياترو.

ثم أمرتها بأن تذهب فتستعد. فخرجت الصغيرة جريا وتزأط فرحا. وأتم رمزى دعابته بأن تبعها وهو يضرب لها ركبتيه. وحولت حواء نظرها إلى فريدة هانم، فأنهت إليها أن الباشا كان احتجز مقصورة لحفلة العصر من اليوم، وادعت أن النية كانت معقودة على أن تكون حواء معهم. ولكن الباشا جاء منذ حين فأعلن لها عدوله عن الذهاب، وطلب إليها أن تصحبه لزيارة سيدة يعرفها اسمها «نفيدة هانم» لأنها مريضة وقد استدعت طبيبا، وليس عندها من يحسن التفاهم معه.

- والحقيقة أنا لااستظرف الست دى أبداً..

وتنبأت حواء بما سيكون، فقالت ببساطة تخفى ورائها أغراء صديقتها على أداء ذلك العمل الخيرى.

- لكن ما دام الست تعبانة.. والدكتور..

- آم لو كنت تعرفيها؟!

واستطردت فريدة هانم ترسم صورة لتفيدة هانم، فهى أرملة أحد الضباط، طويلة ولها مناكب رجل، وتدعى لنفسها حكمة الفلاسفة وذكاء المخترعين مما جعل زوجها المرحوم يعمل برأيها فى تصريف الجيش؟! لذلك ترى من كمال مظهرها أن تكون متجهمة الوجه، وأن لاتفتح عينيها أو تحرك فكيها حين تنثر الدرر الغرر. ثم يخونها الادعاء فتشكو نصف دستة أمراض فى جسدها شكاية تحار منها نصف دسته أطباء... ثم ارتباكات قضائية يسببها لها «البك أخو المرحوم» وتحتاج فى تفهمهما إلى نقابة من المحامين.

ورفعت فريدة هانم يدها إلى ظهر البيانو، فضربت رأس مسخ تقوم على زمبرك، وأكدت أن هذا بالضبط ما تفعله تفيدة هانم حين تتكلم.

- أنا مش عارفه الباشا معجب بايه فيها؟ وليه شاغل نفسه بها.. يمكن

وغمزت بعينها وتضاحكت.

ودخل رمزى، فنظر إلى والدته نظرة أدركت معناها، وقالت وهى تنظر إلى حواء:

- طبعا. طبعا. تروح معاكم..! إن كان على التواليت.. تعالى عندى فى الأوده.. وإن كان على البيت عندكم. أنا أبعت حد من الخدامين يديهم خبر.

- عال. عال. انحلت المسألة

قال رمزى ذلك، وجلس بدوره إلى البيانو يعبث بمفاتيحه. وتبعت حواء صاحبة البيت إلى الداخل وقلبها من السرور فى ألم.

وركبت حواء السيارة مع رمزى. وجلست إليه فى المقصورة، لاشريك لها إلا زيزى، فكانت خير وسيط فى تبادل الحديث بينهما، وإرسال الدعابة من أحدهما، لما كانت تثيره الصغيرة

من أسئلة أو تبديه من خوف أثناء التمثيل. فكانت ليلة عدتها حواء نهاية السعادة وجماع الحياة.

من هذا وهذا كثر إشراف حواء على مروج أحلامها، وقد ألفتها، فهي تمرح فيها، وتنهل من مائها الرقراق.. ويدركها رمزى عند جدول أو تحت دوحة اصطفتها هنالك، فيباغتها بقوله:

– أهذا أنت؟

ولكنها الآن تعرف أنها تجيبه بقولها:

– نعم يا حبيبى. إلىّ. إلىّ..

وتهوى بين ذراعيه.

– اجذبنى وراءك فنجرى..

ويجريان بين الشجر المياس والزهر الباسم، ويقفزان من جدول إلى جدول ومن قنطرة إلى أخرى، حتى يصعدان فوق ربوة عالية تشرف على المحيط اللانهائى، فيرتميان على العشب وهما يلهثان تعبا وجذلا. ثم يضمها وتهصره، ويقبلها وتشفى منه غلة «سالومية»، وتستيقظ متخدرة الأعصاب بنشوة دونها أمتع متاع الدنيا.. وفي اليوم التالى، حين تقابل حواء فتى أحلامها لحما ودما، تئن جوانحها بالرغبة فى أن تفتح له ذراعيها وتقول «ها أنذا يا حبيبى. إلىّ. إلىّ.» وأن تروى له ما كان لها معه من متعة ونعيم.. وتمسك الكلام وكاد يفر من شفتيها

إلى أن جاء يوم...

الفصل الثامن

نظيم باشا محق فى غضبه.

وفريدة هانم محقة فى ثورتها.

فهو له وجهة نظره الدقيقة، وحيثياته الوجيهة... ووعد سبق منه!!

وهى لها المؤهلات ذاتها بدقتها ووجاهتها.. ووعد سبق منها!!

ولكن الغلطة كانت فى أن كلا منهما كان يعمل على جهل من الآخر، ليحدث فى النهاية مفاجأة وسرورا. وكان الباشا واثقا كل الثقة من أن زوجه ستصنع من جسمها قوسا ينطبق على كرشه حين تعانقه حمدا له على ما فعل. وتقول بين قبلاتها «أنت عظيم يا باشا، واسع الحيلة، بعيد النظر» ولو لم يبادر، لبادرت هى، وهى على يقين من أنه سوف يضمها إلى صدره ويقول «هكذا. هكذا. وإلا فلا. لا»

ثم حدثت المفاجأة، فلم تحدث سرورا ولا قبلات ولا إطراء. بل أحدثت وقع قطارين تصادما. وبمعجزة من السماء نزل السائقان ينظر كل منهما إلى الآخر.

وكانا فى غرفة النوم. هذا عند الباب وقد انتهى على الفور من ضرب الأرض بقدمه ضربة اهتزت لها أثباتا، لأنه رب البيت ورجله والمتصرف فى شؤونه عامة وفى شؤون ابنه بصفة خاصة.. والمرأة أيا كان مستواها، ومهما كان علمها ناقصة عقلا وحنكة وتجربة. والواجب عليها شرعا ولياقة أن تنصاع إلى الرجل، لا أن تجرى فى رعونة وراء عواطفها.

أما فريدة هانم فهزت أكتافها لاهتزاز الأرض.

فقد تغير الزمن، ودارت الأيام بغير ما يدور فى خلد الرجال. ولم تعد المرأة تلك المخلوقة الخاضعة الخانعة الناصرة زوجها مخطئا ومصيبا. ألم تحمل المرأة علم الثورة إلي جانب الرجل؟. ألم تعرِّض النساء صدورهن بشجاعة لحراب الغاصب؟. ألم يحملن شطراً باهظاً من مسؤليات النهضة؟ ألم يكن لهن رأى له خطره فى المواقف السياسية المختلفة. ثم هذه الجمعية وهذا هو

المشغل تساهم فريدة هانم فى إدارتهما وتسير بهما مع أترابها من نجاح إلى نجاح؟ ففيم زهو الرجل، وعتوه، وتسلطه تسلط الجبار؟

وساد الصمت. وحاول كل أن تتجانس وقفته مع الموقف فنفخ الباشا أوداجه، وقطب ما بين حاجبيه، ومد قامته، وفتح صدره.. فنجح. ولجأت فريدة هانم إلى تقليد غضب «البريمادونات» فمطت شفتها، ونكست رأسها إلي صدرها. ومالت بخصرها إلى النافذة أكثر مما يجب.. فلم تنجح.. مع أنها كانت أشد انفعالا وأصدق غضبا. وكانت مصممة على أن تثور إلى النهاية. وتمانع إلى النهاية، على حين كان الباشا مهوشا أكثر منهه غاضبا لذلك اغتبط بنجاحه وخيبتها. وأيقن أن الأمر سيجرى على إرادته. فتقدم إليها حتى لم يبق إلا القليل أو دون القليل بينه وبين جسدها المائل، وقال فى ملاطفة:

– أنت زعلانه صحيح؟

– بالطبع

واعتدلت، فانعدم دون القليل الذي بينهما، فأربتها على خدها، فأشاحت عنه وقال:

– تأكدى إن مافيش نسبة..

فقاطعته وقد ضربت عتبة النافذة بيدها.

– لكن أنت أحرجت مركزى يا باشا

– أنا راح أعمل..

– مش عاوزة حد يعمل لى حاجة!

– أنا راح أعمل كل شئ يرضيك.

ثم أربت ظهرها وقال:

– أنت تفهمى الدنيا زى واحد عجوز فى سنى؟

هنا توارى الغضب من وجه فريدة هانم ليفسح المجال لخجل الطفولة. وتلاشت فكرة الثورة وعلمها وتعريض الصدور الناهدة للحراب الخ الخ لكى يطمئن النفس الشابة التى لاتفهم الدنيا فهم

هذا الزوج العجوز..

فى هذه الأثناء كانت حواء فرغت من الدرس، وإنما تطيله لأن رمزى مر بها منذ هنيهة وطلب إليها أن تنتظره ريثما ينجز شأنا لوالده. فإن لديه ما يريد أن يخبرها به. فهى إذن مسرورة وتنتظر سرورا. وراحت تعيد على زيزى «فوائد البقرة» وتعدد تلك الفوائد على أصابع الصغيرة دعابة منها.. وإذا فريدة هانم أقبلت، فجلست ثم صرفت ابنتها. وأدركت حواء من تهالك صديقتها على المقعد ومن جد لهجتها حين أمرت زيزى بالانصراف، أن بصديقتها هما، فابتدرتها قائلة:

- إيه المسألة؟

- أنا فى غاية الكرب.

- لا. لا؟!

- ومش عارفة أودى وشى فين؟

فحملقت حواء وقالت بدهشة ولهفة:

- عجيبة! ازاى؟!

وخطر لحواء ربما أن يكون الأمر خاصا بها. وأن تكون فريدة هانم حضرت لتخبرها بما وعدها به رمزى، وأن عجلته وتواريه ليسا فى شأن لوالده -كما أدعى- بل فرارا من خطورة الأمر. فدوت فى قلبها صدمة هائلة، ارتفعت لها يدها إليه على غير إرادة منها. وسهمت فى الوجه المكفهر أمامها ثم قالت:

- إيه؟ إيه الخبر؟

- الباشا تصرف تصرف مش كويس أبداً.. من غير علمى..

فلم يفد حواء هذا التصريح كثيراً. وودت لو أن ترى رمزى فى هذه اللحظة لتعرف فى وجهه ما وراء الأكمة. وهمت بأن تتلفت حولها لعله يكون فى زاوية يتوارى خجلا.. ثم أحجمت. فتحركت رأسها من أثر التردد حركة عصبية أغضبتها. على أنها تعلمت الابتسام وقالت:

- أى تصرف؟!

– أنا أقول لك، واحكمى بنفسك.

وتناولت مروحة من منضدة أمامها، وجعلت تهوّى على وجهها طلبا للهدوء. وفى التوّرنّ جرس التليفون فى الصالة، ثم دخل الخادم يطلب سيدته للتكلم:

– الو

– ...

– أهلا وسهلا.. ازيك

– ...

– الله يبارك فيك. إنما ياختى أنت عرفت.. وعرفت من مين؟

–...

– يا سلام! على كدا البلد كلها عرفت قبل أنا ما أعرف.

– ...

– لكى حق، شئ ما... شئ ما يدخلش العقل إنما وحياتك أنت، أنا ما كنت أعرف شئ عن الخطوبة دى أبداً. أبداً وحياتك. تصدقى إن الباشا ما جاب لى سيرة الخطوبة دى غير دلوقت. ولو كنت كلمتينى قبل شوية كنت ظنيتك بتعملى كدبة ابريل مقدما

– ...

– رأيى؟ حسرة علىّ.. أنا بقى لى رأى؟! الباشا فضل رايح لتفيدة هانم، جى من عند تفيدة هانم، وأنا بسلامة نيتى فاكراه بيساعدها فى قضاياها ومشاكلها. أتاريهم الاثنين بيطبخوا الطبخة سوا...

– ...

– رمزى كان يعرفها؟ لا والنبى أبداً، ولا عمره شافها، ولا أنا حتى ما كنت شفتها، إلا لما رحت أزور نينتها تفيدة هانم. وهى عيانة.. ألو.. أنا بزعق على آخر حسى يمكن حتى الجيران سمعتنى.

- ...

- شافهم فى العتبة؟ آه. افتكرت. صحيح صحيح، الباشا قال لى أنه انتهز إن النهاردا الجمعة وأخد رمزى معاه وتفيدة هانم أخذت بنتها معاها وراحوا كلهم المحكمة المختلطة يدفعوا رسوم ما أعرفش إيه...

- ...

- ما تجى تباركى له انتى. دقيقة والثانية تجيبك عندنا.. أوروفوار

وكانت حواء في مكانها تنصت فى ذهول من يسمع الحكم عليه بالإعدام. ثم تعطلت حواسها، فلم تعد تسمع إلا طنيناً ، ولم تعد ترى ما حولها إلا ظلالا، وصارت فى شبه غيبوبة مرت على خاطرها أثناءها مناظر مبهمة. وليس بين أعمال هركيوليز ما هو أصعب من جهدها، حين قالت لفريدة هانم «مبروك».

وعادت فريدة هانم سيرتها من المقعد ومن المروحة، وشرعت تذكّر حواء بيوم المسرح، وباهتمام الباشا بتفيدة هانم ذلك الاهتمام الذى انتهى بخطوبة ابنتها لرمزى فى حين أنها كانت خطبت له ابنة صديقة لها أجمل من تلك وأعرق حسبا ونسبا. ومن ثم كانت معركة غرفة النوم.

وقامت فريدة هانم إلى التليفون -من تلقاء نفسها هذه المرة- وأعادت القصة بحذافيرها مرة أخرى. وما هى إلا دقائق حتى جاءت المهنئآت بالخطوبة وبأطيب التمنيات، ورحن يضحكن ويتماجن. وأغلبهن صديقات لحواء. حتى أصبح من الصعب عليها أن تنصرف بطريقة كيسة. بل لقد طلبن إليها العزف. فأقبلت حواء تقطع نياط قلبها ونياط البيانو. ولما فرغت بالغن فى تهنئتها بما حباها الله من روح وسحر أداء. ثم استأذنت فى الإنصراف. وعند رأس السلم المطل على الحديقة نادت فريدة هانم ابنها -وقد لاح- أن يتشبث بالهاربة فاعترضها وهو يقول:

- على فين؟

قالت حواء بابتسام وإشراق تعلمتهما:

- مبروك.. ألف مبروك.. أنا طبعا كان بودى أبقى معاكم أطول مدة ممكنة فى الفرصة السعيدة دى، ولكن أنت نفسك لاحظت امبارح انى متعبة ومريضة.

فاطرق رمزى حياء، ثم قال يعتذر عن عدم رجوعه إليها حسبما وعد:

- كنت مع بابا.. هنا.. فى أودة الكاتب .

وأشار إلى غرفة صغيرة بجوار باب المنزل. وفى هذه اللحظة أقبل الباشا من تلك الغرفة، وقال وهو يصافحها ويتهلل بشرا:

- هيه.. إيه رأيك؟

وظل ممسكا يدها ويشد عليها، وشرع ينهى إليها أنه هو والمرحوم ذهنى بك كانا صديقين حميمين منذ كانا ضابطين صغيرين فى سواكن. فلما بلغ صديقه السن القانونية، استبدل معاشه من جهة وباع ما يمتلكه فى القاهرة من جهة أخرى واشترى عزبة تجاور عزبة نظيم باشا. كانت فى ذلك الوقت تباع بالمزاد العلنى. وكان رحمه الله ينتهز مثل هذه الفرص. فلما مات ومات أكبر أولاده فى الرذائل والموبقات.. أشرف أخو ذهنى بك، على الورثة والتركة، فأساء التصرف، واستباح مال اليتامى.. واشتكت فريدة هانم الأمر إلى الباشا.. واستنجدت به، فلما أحس عم الأولاد بذلك، أقام الصعوبات والعراقيل فى المحاكم وغيرها. ولكن نظيم باشا هزمه على طول الخط.. ولما ذهب أمس الأول فقط يعلن لتفيدة هانم نصرها النهائى، جاءت فكرة خطوبة ابنتها الكبرى.. سعاد.. لرمزى.. وتم الاتفاق -على بركة الله.

ولم يبق فى ذهن حواء من هذه السيرة كلها إلا على بركة الله فرددتها، وانصرفت على رغم التشبث بها...

الفصل التاسع

الوقت بعد الظهر. والمنزل الصغير يشمله السكون المألوف. ليس فيه من صوت غير وقع حذاء الحاج يصعد السلم، درجة.. درجة.. بطيئاً.. ثقيلا.. ثم ما عتم أن سكت. لأن الحاج تردد، وحك يافوخه حكا تضرب به رأسه الرقم القياسى ضد الإدماء. فلم تجد عزيمته بدا من أن تنشط. وكان مظهر هذا النشاط أن أخذ يهبط السلم درجة.. درجة.. بطيئا ثقيلا.. حتى عاد إلى مكانه من غرفته، فاسند رأسه المتعب بيديه.

هذه الحال الشاذة لم تكن وليدة الساعة فى نفس إمام، بل وليدة الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من صباح اليوم. وكان الحاج فى حال طبيعية بحتة. وكان مخلدا إلى غرفته، ومعنى هذا الإخلاد أن يكون دائم الحركة ذهابا وإيابا وانحناء واستواء حتى ليحسبه الرائي مأجورا أجرا حسنا على إحداث أكبر مقدار من الفوضى فى محتويات هذه الحظيرة.. ومحتوياتها شتى ومتنافرة.. الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرز تمادى به الزمن والاستعمال حتى تكتل وتصلب. وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشكل. وعمامة الحاج إذا لم تكن فوق رأسه. ومنشفة للوجه لايجد الأنف بين قطوعها مكانا إلا بالمهارة والحيلة. أما اللحاف فقد يحتل جزءا من فراغ النافذة، وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل. ففى الليل تؤدى عملها كإحدى بنات جنسها. وفى النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج. فوق الغراء الذي تنعم به الست الكبيرة كل عام، وفى إحدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمله من الملابس، لم يعد الحاج يستعملها إشفاقا على نفسه وعليها... إنما يحتفظ بها وفاء لعهد السنين الطوال التى قضتها فى خدمته. أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص. على أنه ليس بالمسمار الوحيد بل هناك كثير غيره، فواحد تتدلى منه زجاجة، وفى الزجاجة زيت، وثان يحمل مصباحا، وللمصباح هباب على الحائط، والثالث لجراب فيه المصحف الشريف، ورابع وخامس.. وخامس عشر!! وفى كل مكان صناديق من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدرى سوى الحاج ما فائدة الهواء المحبوس فيها.

كان إمام مخلدا إلى غرفته وفى الساعة والدقيقة السالفتي الذكر طرق عامل البريد الباب ودخل، وأسلمه خطابا وانصرف.. فى غير ما زمن!! فوقف المرسل إليه مشدوها من المفاجأة ثم

عمد إلى النافذة فقرأ الاسم والعنوان، فإذا بهما صحيحان، ولهما مقدمة فياضة بألقاب التبجيل والتعظيم..

ممن الخطاب؟ وماذا عسى يحتويه؟!

وأرتج على ظن الحاج، ولم يحر ظنه تفسيرا لهذا اللغز.. ثم قرأ الخطاب أخيرا.. فامتقع لونه، وتراخت عضلات وجهه. واتسعت حدقة عينه اليمنى وصار أنموذجا بديعا لمصور ماهر!!.. هذا شعر وهذا نثر فيهما إعلان لغرام، وبثٌ للوعة وهيام.. من مطلعه «يا نور عينى» إلى إمضائه «شفشأ».

جعل هذا الاسم العجيب يقفز فى ذهنه قفزات بهلوانية كان فى بعضها خطر على جمجمته. من تكون «شفشأ» هذه؟ وأين رأته؟ ولماذا شغفها حبه بهذا الكم الجنونى؟! فما هو بالشاب الذى تفتن العذارى فتوّته، ولا هو بالممول الذى تستغوى القلوب ثروته. ولا هو بذى الجاه الذى يشفع له عند الكواعب الناعسات الطرف الحسان!.. هل كانت «شفشأ» هذه فى حال طبيعية من عقلها حين كتبت إليه؟ لئن ما يكن بها مس فقد أوشك أن يصيب الحاج هذا المس، وخطر له أن يلجأ إلي الشيخ مصطفى يستطيع رأيه وكبر عليه الأمر. وها هو ذا همّ بأن يصعد السلم لعله يجد عند الجدة الهدى، ولكنه تردد، وعاد إلى مكانه من غرفته مسندا رأسه ليتحمل دوران الأرض فيها.

وكان الدوران عكسيا. أرجعه سنة فسنة وخمسا فأخرى، وعشرا فثانية، فإذا به فى عنفوان الشباب، وقد ترك الأزهر ليشق طريقه فى الحياة. وكان أول طريق شقه هو «حارة الاتراك» وأول باب اقتحمه كان لمنزل خرب اجتمع فى أرجاء صحنه الواسع شمل الكثير من أحجاره وأخشابه بعد طول التفرق فى الحيطان والسقوف. والمنزل لأرملة وقوره تجلس عند الباب الخارجى ولها فى شراء بقايا الخبز من المجاورين تجارة.. ولها ابنة أجرت عليها الطبيعة قانون وراثة الأمراض، فقضت لها بصوت أبح وأنف ضامر كريه. فاتخذها قساة القلوب من أهل الى هزأة يسخرون منها فى روحاتها وجيئاتها حتى غدت لاتروح ولاتجئ، وانقطعت لخدمة ما لديها من أوز وفراخ، فهى تطلقها سحابة النهار فى الفناء، وتقوم على حراستها، وفى الليل تسوقها إلى الاقفاص. وكان بينها وبين رعيتها لغة وتفاهم... فبأصوات تحدثها تقبل وبأخرى تدبر.

ولم يكن «إمام» قاسي القلب، فلم يسخر من الفتاة المسكينة، بل لمتيمض عليه أيام فى جيرتها حتى كان لايقل عن اذكى الديوك فهما للغتها. فإذا ما أحدثتها صباحا، صحا من نومه وحياها، ويعود فى العشاء ليسمع منها أمر المبيت.

وعاد إمام يوما بعد صلاة العصر، فألقى فتاته تطارد فرخة شذت عن الجماعة، وتخشى الفتاة أن تسقط الفرخة البلهاء فى بئر مجاورة. فاستنجدت به. وباسرعان ما راح إمام يلوح للهاربة بعباءته كأمهر «توريادور» وجرى وراءها ولكن فى الاتجاه المحظور. وبصعوبة شرحت الفتاة له وجهة نظرها، فلم يقتنع إلا بعد أن وقفت الفرخة على حافة الهاوية، وجعلت تضرب بجناحيها. والفتاة تضرب خديها وقلب امام يضرب فى صدره!! وفى حالة اليأس هذه أتى امام بحركة فى غاية الرشاقة كادت تكسر منها ساقه ولكن الفرخة طارت عن مورد الردى. ووقفت وسط الفناء وقفة المستسلم. فتقدم إليها إمام ببطء وزهو، فلما أهوى عليها صاحت الفرخة ضاحكة واعتصمت برأس كومة من الأحجار. فأسرعت الفتاة تتسلق الكومة فى اثرها، ولكن الحجر تخلخل تحت قدميها. وفى لمح البصر كان إمام ممسكا بيدها. وزاد التخلخل الجر، فهوت على صدره، ثم سقطا معا على الأرض وهى بين ذراعيه. وفى هذه اللحظة دخلت ربة البيت..

وكان من هول الذكرى بعد ذلك أن عاد امام إلى حسه. فإذا نجية أمامه.. وهي تقول فى تلكؤ وأنوثة:

- اسمع يا حاج: بس اوع تزعل...

فأرسل إليها الحاج نظرة وهو صامت. وقالت الفتاة:

- جالكش جواب؟

- جواب؟

قالها بلهفة مجرم يحاول انكار تهمة ثابتة. وأخفى اضطرابه بالعبوس. وقالت نجية وقد ضاعفت استعطافها:

- كان... شفيق... بس والنبى ما تزعلش يا حاج.. شفيق لما سافر أول امبارح، قال لى إنه راح يبعت لى جواب.. على اسمك. يوصل النهاردا...

فنظر إليها فاغر الفم ،مسترخى عضلات الوجه. وقال بصوت دون الخفيض كمن يخاطب نفسه:

- شفيق.. شفشأ.

- هو. هو. والنبى يا حاج..

فتنهد إمام تنهدا طويلا كأنه بالون قد ثقب -ثم أنه استل الحج الخطاب من عبه. ولوح به في وجه الفتاة.. مؤكدا لها أنه لاشك فاضح أمرها، وقاطع عيشها .. ولكن الشاى والسكر الذين قدمتهما له نجية الفتاة في هذه اللحظة. مضافين إلى قدر مثلها من حنكة الشيخوخة أحدثا فى فؤاد الشيخ ملغما عاطفيا إحدى خصائصه الرثاء للشباب المعذب فهدأ ثائره. وشرع يقرأ عليها الخطاب بطلاقة هى فى الواقع نتيجة حفظه له عن ظهر قلب ثم بدأ يكتب الرد.

فجلست نجية أمامه تحمل الدواة... وراح يصيب منها بقلمه كل مرة ما يكفى تلويث أصابعه. ولإحداث البقع على الأرض. وعلى الحائط. وعلى الورق.. ثم للكتابة.. واسترسل فى ادعائه «أنه لو كان البحر مدادا ، والأشجار أقلاما لحفيت الأقلام، دون بث السقام. ولجف المداد قبل شرح المراد..» وكان يستعين على استنزال وحى البيان بمط شفتيه، وزر عينيه، تباعا أو معا.

وفيما هما كذلك! إذ دخلت حواء. وكان من عادتها أن تحيى الحاج كلما رأته. وتأهب الحاج للتحية بأن أخفى ما فى يده. ولكن حواء لم تفعل هذه المرة، وصعدت السلم على الفور. وما كاد أهل الغرام يحمدان حسن حظهما على هذا الإغفال، حتى سمعا الجدة تنادى نجية فى لهفة لم يعهداها من قبل.

الفصل العاشر

- مالك يا حبيبتى؟ مالك يا ستى؟. اسم الله عليك. اسم الله!..

قالتها الجدة بصوت يرتعش، وقلب يرتجف. وقد ابردّت أطرافها حتى تأذّت حواء من وقع أنفها على خدها حين أكتب عليها. ولما لم تجبها حواء، تحولت عنها وأدارت حولها نظرات الحائر الذي يريد أن يأنس بأى شئ، أن يستنجد بكائن من كان، لذلك نادت الخادمة ودخلت نجية فراعتها غرابة الحال، فلبثت مشدوهة حينا ثم مشت على حذر إلى سيدتها الكبرى تستطلعها الخبر.

- مال ستى الصغيرة؟

- مش عارفه ايه اللى جرى لها.. إيه اللى جرى لها مش عارفة!!

وكيف للجدة أن تعرف؟ لقد كانت جالسة جلستها المعودة فى مكانها المعهود، فسمعت حواء تصعد السلم، فتوقعت أن ستدخل حواء إلى غرفتها تبدل ثيابها ثم تجيئها تشرب معها القهوة وتستريح -جريا على عادتها- ولكنها لم تفعل،‌ابل ماكادت تتوسط الصالة حتى ارتمت على مقعد إلى جانب المائدة، وأخفت وجهها في ذراعيها، فضربت الجدة صدرها وهبت من مكانها تتعثر فى أدوات القهوة، ولم تبال بمخالب القط فى قدمها حين اعتراضها فداست عليه.

وأعادت الجدة استفسارها متوسلة إليها بالنبيّين إلاَّ ما أجابت. وخطر لها أن تأتى بماء النعناع لها فهو منعش ومفيد. وهمت بالذهاب، ثم لم تشأ أن تبعد عن الحفيدة العزيزة طرفة عين. وفى هذه اللحظة تضاعفت عتمة المغرب فى عينيها، فأمرت نجية بأن تضئ المصباح وبأن تجئ بالنعناع.. وطلبا آخر لم تتمه ولوّحت بيدها تنفيه.. فصدعت نجية بالأمرين، وجاءت من تلقاء نفسها بقدح من الماء، وماوضعت ما بيديها علي الطاولة حتي أمرتها الجدة بأن تنادي الحاج إمام. وكان من لهفة العجوز أن خنقت الفتاة العبرة، ووضح ذلك فى صوتها وهى تنادى من رأس السلم. عندئذ رفعت حواء وجها مصفرا وعينين مطبقتين نصف إطباق وقالت:

- مافيش لزوم. مافيش لزوم

فقالت العجوز وقد دب فيها الأمل:

- طيب يا حبيبتى.. بلاش يا بنت.. مش تقولى لى مالك يا اختى.

وقالت نجية وهى تبتسم وتمسح دموعها:

- ستى!!

ولم تزد. وقالت حواء وقد كرهت أن تنزعج لها الجدة هذا الانزعاج:

- مافيش.. أنا تعبانة شويه.

أما الحاج فكان قد حسب أن إغفال حواء له عند دخولها إن هو إلا استنكار لوجود الخادمة عنده، وأن ما وصل إلى مسمعه من همهمة أثر استدعائها ليس إلا إعلاناً لهذا الاستنكار، ورأى من الخير أن يغادر المنزل لينجو بنفسه.. وليضع الخطاب فى صندوق البريد.

واجترعت حواء ما قدمته لها الجدة من ماء ونعناع، ثم قامت إلى غرفتها، فاستلقت على سريرها. وأرادت أن تشغل الجدة عنها فطلبت شايا. فانصرفت العجوز تجر ساقيها، وتلعن المدرسة والجمعية والمشغل.. والخادمة تساعدها فى إعداد الشاى، وفى استنزال اللعنة.. وجعلت حواء تشد على قلبها رحمة به وبالجدة المسكينة.. وجاء الشاى، فأفاد حواء بعض الفائدة، فمسحت جبينها، وابتسمت ابتسامة خفيفة.

- استريحتى يا حبيبتى؟

- الحمد لله.

- له ألف حمد

وصاحت نجية فى سرور «ستى» ولم تزد أيضا، فابتسمت لها حواء. واستطردت الجدة تقول:

- أيه كان دا كله؟!. ما قلت لك متتعبيش نفسك أد كدا.. أهو جالك كلامى.. النبى يارب ما تدخل لنا ردى أبداً (وبعد فترة قالت) الأحسن تقلعى هدومك علشان تخدى راحتك..

فاستجمعت حواء قواها وأجابت الرجاء ثم عادت إلى استلقائها، وجلست الجدة على شيزلونج مجاور لتكون دائمة النظر إلى الحفيدة العزيزة. وكانت الخادمة أضاءت مصباح الغرفة حين شرعت سيدتها تبدل ثيابها، فأمرت حواء بإطفائه: فسادت العتمة، والصمت. وسمع صوت بندول الساعة

فى الصالة. ولكن الطمأنينة لم تسد. وعادت الجدة فكرة استدعاء الحاج إمام، ثم ذكرت أنه لاشك يصلى فى الجامع كعادته. فلاذت بالله تدعوه سرا وتتوسل إليه.

وكان للراحة ولهذا المحيط الرحيم أثرهما فى نفس حواء. فتبادر إلى ذهنها أن شيئا لم يحدث، وأنها كانت تحلم.. ولكن جرس التليفون عاد يرن فى أذنيها، وصوت فريدة هانم يعود إلى ذهنها حيا جليا.. ثم الباشا وابتسامته الحيوانية، وقصته الطويلة المملة.. «على بركة الله!!» فكررتها، وهزت أكتافها، ومضت تناجى نفسها «هذا بله صريح.. لقد اكتسب رمزى من هذه الخطوبة عزبة إن لم يكن حبا. هذا ما كنت سأصرح له به حين سألنى رأيى.. أما أنا.. فمالى؟.. أى شئ كان لى منه وفقدته حتى أذهب روحى حسرات عليه؟! لم يكن حيالى إلا جامدا باردا، وما كان تحدُّثه إلىّ إلا لهوا منه.. وهو على صبيانيته محتفظ بشخصية الارستقراطي أمام بعض فلاحيه المقربين إليه.. انتهى الأمر.. فليهنأ بعروسه.. وبالعزبة الجديدة.. إننى لم أبلغ من السن عتيا، ولم أعدم. إذا شئت. أحدا يحبنى وأمامى أيضا أن أضاعف جهودى فى الحركة الوطنية، فأصبح شخصية يشار إليها. وسأعمل.» وأرادت أن تثبت لنفسها قوتها وعدم اكتراثها، فأخبرت الجدة بخطوبة رمزى إلى ابنة نفيدة هانم أرملة ذهنى بك

- بنتها مين؟ .. دولت؟!

فهزت حواء رأسها بالإيجاب.

- ما تقوليش كده!. هى دى تنتظر!

فمطت حواء شفتيها، وعادت الجدة تقول:

- والنبى يا بنتى على رأى المثل. لولا علبة أم مكّى كان حالها يبكى..

ومكى ابن وهمى لأم خرافية. وكان للأم علبة سحرية حققتها الأيام فإذا بها «التواليت» وقالت حواء وقد غلبتها الغيرة:

- لكن لها عزبة تنتظر...

فغرزت العجوز سبابتها فى خدها، وسهمت حينا وهى تهتز اهتزازا بطيئا يساعدها على ما جاش فى صدرها من عواطف الاشفاق نحو حفيدتها التى تفنى شبابها على ذلك النحو المضنى، ثم

مصّت أشداقها وقالت «أبخات!» وأرادت حواء أن تضحك ضحكة عالية. ولكن العَبرة خنقتها، وطغى على تفكيرها تيار أسود يقول «..ولكنها الفرصة أفلتت، والحب خاب، والقلب شاب وهرم، ولم يفلح فى التصابى!!.. إن اثنين وثلاثين سنة قضيتها فى رجولة زائفة أقامت بينى وبين الحياة مثل سور الصين لا حول لى الآن على القفز من فوقه، إلى حيث الجميع يمرحن... أمهات وغير أمهات... وأنه ليعلو كل سنة.. كل شهر.. كل يوم.. أو أننى أهلك وأنا أضرب رأسى فى أساسه..» فارتعدت حواء لهذا الخاطر. وبمجهود لاينتهى كانت تمعن النظر فى العتمة القائمة أمامها كأنها السور الذى افترضته. ثم...

أى عجب!!

لقد بدت أمامها صورة رمزى ضعيفة راقصة كما لو كانت تراها من خلال ماء. ثم وضحت شيئا فشيئا حتى استبانت منه أهداب العين. وهذه خطيبته تمشى إليه على استحياء.. وها هو يقبل عليها فيعصرها بين ذراعيه ويمعن فيها تقبيلا.. تلك القبلات.. تلك القبلات التى طالما نعمت بها فى أحلامها، والتى كانت تود فى يقظتها لو أن تفتدى احداها بحياتها.

عند ذلك علا صدر حواء، وعلى الرغم منها أجهشت ببكاء كان جسدها ينتفض به انتفاضا!! فنهضت الجدة فى فزع جنونى، وراحت تلطم خديها دراكا وبعنف وهى تقول «بنتى. بنتى. بنتى!!» وجرت الخادمة إلى السلم مذعورة وهى تجأر باسم الحاج إمام. ومن حسن المصادفة أن كان إمام حضر منذ هنيهة، فأسرع على السلم جهده. وأضاءت نجية المصباح. والجدة ماضية فى اللطم والندبة. وحواء على الفراش تتلوى وتنشج.. وشرعت نجية تشرح الأمر للحاج وتستنجده فى وقت واحد.. وهو ذاهل لايصدق ما يرى ويسمع ولايدرى ماذا يفعل.

وهنا صرخت حواء من بين أسنانها المتضاغطة صرخة حادة كظيمة، وانتابتها حشرجة عنيفة. وصارت ترفع يدا متصلبة أثر أخرى وتضرب بهما الفراش على الجانبين. ثم تحولت جميعها أصلد من صخر.. فارتمت الجده عليها تضمها وتهزها. وتبلل وجهها بالدمع، وتستعطفها بشيخوختها، وبحق الرباية عليها، وبأملها فيها، إلا ما أفاقت.. فلما لم يجد ذلك، والحشرجة دائبة عمدت المسكينة إلى صدرها تضربه تارة وتتشبث بالهواء تارة أخرى وهى تقول:

– الحقنى يا حاج إمام... انجدنى.. الحقنى.. شوف لك حل يا خويه.. ليه كدا يا رب.. دى بنت مسكينة.. دى شابة غلبانة.. منكسرة تحت رحمتك.. الحقونى بالشيخ مصطفى يا ناس..

غيتونى به ياخواتى.. روحى انت يا نجية..

فثارت عزة الحاج وقال يطمئنها ولكن فى عنف:

- دى مش أرواح سفلى يا فاطمة هانم.. الشيخ مصطفى يعمل إيه فيها.. دا شئ من عند الله، وحالا ينصرف باذنه.. بس أهدى وصلى على النبى.. وأنا أعرف شغلى..

وأكب الحاج بدوره على حواء. فتمتم بالصمدية ثلاثا.. ثم تلا صيغة الأذان فى أذنها. وما زال حتى هدأت الحشرجة، فأمسك وابتعد وعلى وجهه عبوس النصر الحزين. وأشار بيديه يطلب الهدوء. فربطت الجدة على قلبها، واقتربت من السرير فإذا الحفيدة العزيزة تتنفس فى لين النوم الهادئ.. وخيم صمت رهيب. وتعلقت الأعين بالصدر الذى يعلو ويهبط.. وبعد فترة طويلة فتحت حواء عينيها، وجعلت تفركهما بظهر يدها، فلما تبينت من حولها سألتهم لم هم واقفون؟ فقالت الجدة فى دهشة:

واقفين؟!. انت..

فأومأ الحاج إليها بالسكوت، إذ كان لايرى من الخير مفاجأة المريضة بالحقيقة. وقال وهو يحك لحيته ويبتسم.

- ما فيش حاجة.. دى كانت دوخة بسيطة وزالت بعون الله..

وثبّت عمامته فى رأسه اغتباطا بما أسدى...

الفصل الحادى عشر

لم يعرف البيت الهادئ الهدوء بعد تلك الليلة!.

فحواء تحمل فى غدواتها وروحاتها، ونومها ويقظتها قلبا لاحول لها على حمله.. لا الحجر، ولا الحديد، ولا الرصاص، ولا الزئبق بأثقل منه وزنا. ولا اللهب بأشد منه حرارة. وقد شحب لونها، وتضعضعت صحتها وكثر وجومها، وتكرر نسيانها لأهم الأمور.. بل ليحدث الحادث قريبا فتحسبه بعيدا أو أنه لم يحدث..

فالتفتت إليها الأنظار، وتحركت في سيرتها الألسن. «ماذا جرى لحواء؟ وما هزالها والذهول البادى فى عينيها؟ مسكينة هذه الشابة، إنها لتطمح إلى مجد بعيد، وتتكلف من أجله جهودا تنوء بها الرجال!!..» ولكن أحدا لم يفطن إلى سرها، فهى ضنينة به حتى على توسلات جدتها ودموعها المرقرقة فى أخاديد وجهها.

وكانت تذهب إلى الأطباء تحت الضغط والإلحاح فيجسون نبضها، ويتسمعون دقات قلبها، ويمعنون النظر فى أجفانها، ويسألونها عن الدوار متى ينتابها وكم يدوم، وأسئلة شتى غاية فى الدقة الفنية، ثم يصفون لها حبوبا قبل الأكل، وسوائل بعده، وبرشاما كذا وحقنا هكذا بين ملطف ومقو، وقمين بأن يجئ بأحسن الأثر. ثم لا أثر.. وأقبل عليها أحدهم يستدرجها فى الكلام عن حالها المعيشية، وعن توزيع أوقاتها، وعن أفكارها فى يقظتها، وأحلامها فى نومها بغية أن يستشف نفسها فيرى كمين الداء. وفطنت حواء إلى ما يقصد إليه، فاحترست وراوغت. على أنه نصح لها بالهدوء والراحة، واجتناب كل ما يقلق البال ويثير العواطف، ولتضرب بالعقاقير عرض الحائط.. حتى بالدواء الذى وصفه، إذا شاءت، أو لا تتعاطاه إلا عند الضرورة الماسة، ولا يغرها ما يحدثه من راحة فتسرف فيه. فإن الإكثار منه يؤذى القلب وربما أوقفه.

وأدركت حواء فترة ارتياح لقرارها من هذا الطبيب فلما خلت إلى نفسها صاح قلبها الكظيم «يا ربى.. ماذا عساى أقول؟! أنا التى كافحت منذ طفولتى لأكون مثلا يقتدى به. وخلت أننى حققت ما نصبت له نفسى.. أنا التى قضيت حياتى مخلصة لك فى عملى وعرضى.. لماذا تحطمنى هذا التحطيم، وتسحقنى هذا السحق الأليم.. يا إلهى! كتبت على نفسك الرحمة. وأنا

أطالب. ثم أطالب بحقى من الرحمة.. ووعدت الحسنة بعشر أمثالها، ولا أريد إلا جزاء من عملى!! وقلت أدعونى أستجب لكم. وأنا أدعوك يا سميع، وأضرع إليك يا بصير.. هل أنت تنظر إلىّ من عليائك هازئا.. حاشاى أن أعتقد ذلك.. أم مشفقا.. فلتقل «كن» فيكون لى النعيم الموفور.. إلهمنى حكمتك فأرضى. كلمنى.. فأنا لاأريد أن أتكلم إلى الناس. بل لا أستطيع.. لن أجد منهم إلا سخرية بفاجرة، أو مرثيه لمسكينة، أو استهزاء بمعتوهة.. أنا الطاهرة، أنا القوية العاقلة..

وتبكى، وتنشج...

وتذهب الجدة إلى أولياء الله -أحياء وأمواتا- تلثم أعتابهم، وتبلل ترابهم بدموعها ثم تجعل منه على رأسها. وتقدم النذور، وتبذل الطعام لمن على أبوابهم من مسكين ويتيم.. ولا تسألهم إلا شفاعة لحفيدتها!.. وتغادرهم إلى المنجمين رجالا ونساء -تطلب إليهم تفسير حلمها. فقد عاد إليها «سرور» فى نومها، وأومأ إليها أن تتبعه، فتبعته إلى غرفة حواء هذه المرة.. وهناك رأت الشمعة تحترق بسرعة أكثر إدهاشا عن ذى قبل. وتحدث مادتها السائلة هيئة جسد ملفف فى غلالات بيض.. فيكتبون لها التمائم، ويلقّونها التعاويذ، فتدس التمائم هنا أو تعلقها هناك، وتكرر التعاويذ ليلا ونهارا.. ورضيت حواء أن تحمل التمائم، وأن تتلقن التعاويذ، احتراما لجدتها، واحتقارا للحقائق.

وذهب الحاج إمام، فمد عنقه فى الفرجة التى تباعد ما بين أنياب الأفعى يمينا، ومخالب الضبع شمالا، وظهر السلحفاة من أسفل وأظافر الوطواط من أعلى، وأهاب بالشيخ مصطفى يطلب منه النجدة الكبرى. فبرز مصطفى، وسهم طويلا فى عالم أسراره، ثم وعد بأن يحضر إليهم بعد صلاة العشاء. وبعد صلاة العشاء حضر.. وجلس فى غرفة حواء جلسة المهيمن. وأمر بنار توقد فأوقدت. وبحواء تلبس طرحة بيضاء فلبست.. ومد إلى النار يدا جبارة فأحرق بخورا جاء به، وأمرها بأن تخطى فوقه سبعا، فخطت فوقه سبعا. خائفة وهازئة معا. ثم ساد الصمت، وتضاءل كلُ فى مكانه، وتعلقت الأنفاس، ووضح صوت الساعة فى الصالة كأنه وقع خطوات الزمن. سريعة غير مكترثة. وماء القط فى وجه نجية يستفسرها ما يرى، فلما لم تجبه أراد أن يلوذ بحجرها، فانتهرته، فقنع بأن ينكمش إلى جانبها وأنأر الرجل الهائل نظراته الهائلة فى عينى حواء، ثم ارتعش جسمانه الضخم، وزاد وجهه إحمرارا، وراح يرغى بما يفهم ومالا يفهم، ويحدث أصواتا وأسماء أصوات، وكلمات وأشباه كلمات، يصعب ترديدها إلا عليه، فيها استفهام، وفيها نفى.. وفيها أمر ونهى..

وحواء..

الشخصية البارزة فى المدرسة والجمعية والمشغل. تصيخ بسمعها إلى مصطفى، وترسل تجاه ما يشير إليه نظرات خائفة.. هذه الرزينة المتعالية، تكرر الأصوات وأسماء الأصوات، وتعيد الكلمات وأشباه الكلمات التى يفوه بها الرجل. تعيدها فى لهجة الجواب إذا استفهم، والتأمين إذا نفى. وفى خضوع إذا أمر، وفى دموع إذا نهى، وما زال حتى استغرقت فى نوم عميق، وثاب هو إلى حالات الطبيعية. فهز رأسه آسفا وقال:

- مسكينة.. دى يا حاج إمام لمستها روح من الأرواح العاتية.

فأسرعت فاطمة هانم تقول:

- والعمل إيه دلوقتى؟!

وقال الحاج شيئا ولكنه ضاع فى قول مصطفى.

- الفعل فعل الله. إحنا بيدنا شئ..

فقالت الجدة:

- آمنت بالله! إنما أنا ما ألزمهاش غير منك.

فصمت مصطفى تواضعا.

وقال الحاج يعزز تشبث فاطمه هانم:

- هو الشيخ مصطفى عاوز وصية!

وفى هذه اللحظة صاح فى الشارع أحد الباعة المتجولين يقول «خليها على الله» فقفزت نجية من مكانها طربا بالفأل الجميل. وكذلك سر به الجميع، واتخذوه بشيرا بانفراج الأزمة ما تشبثوا بالشيخ مصطفى، ولم يدعوه يفلت من أيديهم.. ثم خاضوا فى سمر طويل تذاكروا فيه ما للجان من حسنات وسيئات. وما لأهل الباطن من أثر فعال فى تسيير الحياة الظاهرة. واجتمعت الكلمة آخر الأمر على لعن الطب والأطباء، والعلم والعلماء، الذين ينكرون هذه الحقائق. وبعد إنفضاض الجلسة نامت الجدة بالأمل والطمأنينة.

وجاء الصباح، فإذا حواء أكثر ما كانت ذهولا وحيرة وخجلا من نفسها!! وكلما ثبت لها أن ليلة الأمس كانت حقيقة لاحلما، اضطرب ذهنها، وتصدعت قواها المعنوية، وتفهت عندها الحياة، وفقدت ألوانها، وأدركها إحساس مبهم بأنها غريبة عن كل ما يقع عليه بصرها، أو ما يجول بخاطرها. ولأول مرة فى حياتها شعرت بالنقمة على جدتها، وبالازدراء المطلق للحاج.. أما مصطفى فودت لو أن تظل تضربه بحذائها حتى تفتت رأسه تفتيتا.. هذا الثالوث القذر الذى انتهز فرصة مرضها وضعفها ليهزمه الهزيمة الساحقة، وليذلها الإذلال المميت.. ما لبثت أن تراخت نقمتها، وفتر إزدراؤها، وبصقت على خيال مصطفى كشئ أحقر من أن يشغل ذهنها.

ولكن -بعد هنيهة- ألفت نفسها تحدثها خلسة بأن تذهب إلى الشيخ فى حانوته تستفسره عما إذا كانت أعلنت له سرها بهذه اللغة العجيبة التى قيل بأنها كلمته بها. وتستعطفه، وتبذل له المال ليكتم حتى عن جدتها ما عسى يكون قد علم، ولكنها طردت عنها ذلك الخاطر المهين، وتشاغلت عنه بأشياء عدة.. وفجأة أدركتها قشعريرة وقالت بين أسنانها المتضاغطة: «ماذا يكون من الناس حتى يبلغهم. على الأقل. أننى جلست إلى الساحر ولبست طرحة بيضاء.. وخطوت فوق البخور. ورطنت باللاوندى!!» وتضاحكت تضاحك المغيظ.. «ولكن ما الناس؟ وما العالم؟! الكل أحقار..» وهزت أكتافها.. «ولن تكون همساتهم إلا طنين ناموسة على رأس فيل.. وأنا ما زلت أنا بشخصيتى وكيانى!!» على أن نفسها ناءت بهذا الفخار وتخاذلت تحته، وشعرت بالغيظ والخجل كأن رمزى باغتها وهى فى طرحتها البيضاء.

بهذه الحال النفسية السقيمة المشوشة وقفت حواء تملى على تلاميذها أن «رجلا طوله ستة أمتار...» فتطوعت أقرب البنات إليها تلفت نظرها إلى أنها تعنى ستة أقدام لا أمتار: فلم تدرك حواء سهوها. وأضافت أن «عرضه متران..» فتضاحكت التلميذات وتهامسن بالفكاهة.. وأعلنت جرئية منهن أن ربما تكون معلمتهن تريد ما تقول بذاته. فقد تكون تعرف شخصا بهذه الأبعاد الشاذة. واصطكت هذه العبارة بسمع حواء، فثابت إلى حسها، فإذا الضحكات عالية، وإذا الفصل مضطرب بما لاعهد لها به إطلاقا.. فانتهرت التلميذات فجاءت مقذعة فيما بدر منها.. فتصايحن احتجاجا، ولم تجد وساطة بعضهن فى التماس العذر لمعلمتهن التى طالما أحببنها، والتى لم يعتدن منها إلا الكمال والأدب، وحضرت الناظرة تستطلع الأمر. وأرادت التلميذات أن يعززن مركزهن فغالين فى ضجيجهن، وقالت إحداهن بلهجة خطابية «نحن نحتج على الإهانة دى!» وضربت التختة أمامها.

وآزرتها ثانية فصاحت فى احتدام وكبرياء «لو سمع بابا بكدا، ما اعرفش يعمل أيه!» وأخريات أجهشن بالبكاء بين حقيقى ومفتعل. وحواء صامتة واجمة حائرة النظر، وفجأة ارتجفت رجفة قاسية وأوشكت تهوى على الأرض لولا أن تلقتها الناظرة بين ذراعيها.

ولكنها كانت تذهب إلى بيت الباشا..

وكان رمزى غير نمط حياته بعد أن تم التعارف بينه وبين خطيبته.. فلم يعد يقنع بالدار أو الحديقة، ولم يعد يُعنَى بمكتبته يرتبها ويعيد ترتيبها فهو الآن مشغول بخطيبته لايكاد يعود من الوزارة حتى يذهب إلى غرفة الكاتب يراجع حساب العزبة الجديدة وقد ألقى الباشا عبئها عليه «علشان تطول رقبتنا لما تبقى مسئول عنها شرعا»، وسرعان ما اعتنق مذهب والده فى أن الفلاحين أمكر من الثعالب. وأخبث من الذئاب. وأنه لايجب أن يرثى لهم أو أن يرأف بهم!!. فإذا ما انتهى من ذلك ذهب إلى خطيبته يطلعها على مجرى الأمور، أو يصحبها إلى السينما أو يخرج بها إلى نزهة، لذلك لم تكن حواء تلقاه إلا نادرا، فإذا التقيا مصادفة استفسرها عن صحتها، وأبدى أسفه ودهشته مما تعانيه. «ولكن لاغرو. أنت يا أستاذة بتجهدى قواك وتفكيرك فى سبيل الخدمة العامة. وتحقيق مثلك العليا. وطبعاً

إذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

لكن إن شاء الله، فى أجازة الصيف.. أظنك.. ما ترفضيش كونك تجى معانا العزبة.. تهدى أعصابك و.. و.. تستريحى راحة تامة.. شهر.. شهرين.. زى ما تحبى..

ثم يسترسل فى سرد آماله فى زواجه، وهو مستبشر متهلل الوجه...

ويمضى إلى خطيبته...

وتمضى حواء إلى الجحيم المقيم...

الفصل الثانى عشر

انتهت السنة الدراسية...

وانتهى كل أمل لحواء...

ثم اقترب اليوم الذى فيه «يدعو اللواء نظيم باشا السيد حضرتكم إلى منزله بمناسبة زفاف الآنسة سعاد هانم ذهنى كريمة المرحوم القائمقام ذهنى بك عبدالفتاح على نجله رمزى بك نظيم الموظف بوزارة الزراعة...» كما جاء فى رقاع الدعوة المكتوبة بماء الذهب.. فخرج المال لاستقباله جزافا وأدرّت الضيعتان عليه من خيراتهما جزافا.. فالفراشون فى حركة النمل، طائفة تقيم الأعلام، وطائفة تنضد المقاعد الفاخرة، وجماعة يكبسون الأرض رملا،وجماعة يعقدون أكاليل الورد فوق المداخل والأبواب، وآخرون يمدون قلائد المصابيح الكهربائية ويتفننون فى صنوف الثريات. والطهاة فى ثيابهم البيضاء مضت عليهم ليال وهم سهارى يذبحون ويسلخون، ويخرجون من العجين فنا متعة للناظرين.

وكانت حواء اشتد بها سوء الحال. وصارت سريعة الغضب. كثيرة الدموع. قريبة الصرع. وكثيرا ما تحامقت على الجدة أو أجبهت الحاج أو انتهرت الخادمة لأتفه سبب. وكانت تشعر أن المنزل حيطانه تريد أن تنقض عليها، وجوّه سوف يودى بها. وكل ما فيه متجهم كريه. فتتركه فتهيم على وجهها فإذا هى فى أماكن لاتدرى كيف صارت إليها. بل لفى مرة صاحت بالعجوز الممزقة القلب بأنها هى أس الشقاء ومصدر البلوى بخرافاتها وسخافاتها. وما تحيطها به من الجن والشياطين وأنها لو ذهبت إلى الله ما اشتكت غيرها.

ولكن فجأة.. أو هو عندما بدأت تباشير العرس فى بيت العروسين. هدأت ثورة حواء! وهجعت نفسها حتى ارتدّت الدنيا عندها أشباحا لاصوت لها ولاحياة فيها. وحلالها أن تعتكف فى غرفتها فتظل مستلقية على سريرها ساعات وساعات يسترسل فيها تفكيرها دون سيطرة منها عليه كينبوع ماؤه كيفما شاء.. فهو يستقيم ويلتوى، ويتباعد ويلتقى، ويسرع ويبطئ دون ضابط له أو مهيمن عليه. وما كان نصيب حواء من تفكيرها هذا إلا نصيب الحالم من حلمه، لايكاد يستيقظ حتى ينساه، أو يذكر منها القليل ثم لايُعنَى بأن يتقصاه.

فلما كان يوم الزفاف، بكرت حواء، فأكبت على مكتبها تملأ الصحائف بلاهوادة، حتى أشبعت نفسها وأتت على الآخر ماتريد تسطيره، ثم وضعته فى غلاف كتبت عليه عنوان رمزى.
ثم ذهبت إلى جدتها فشاربتها القهوة، وآكلتها طعام الأفطار، وتحدثت إليها فى مواضيع شتى اتصلت بذكر حفلة الزفاف فقالت حواء:

- ما تروحى الفرح تتفرجى..

- أروح الفرح؟!

- تتفرجى شويه.

قمصت الجدة شدقيها، وقالت بعد نهدة قصيرة

- يا الله حسن الختام بقى.

وسادت فترة صمت، بدا أثناءها شرود الفكر على كل منهما، ثم استأنفت الجدة كلامها:

- والنبى ما عندى فرح إلا يوم فرحك انت!

فأعادت هذه العبارة حواء إلى حسها، وشعرت لها بوخز أليم، وهمت أن توقف الجدة عن الكلام، ولكن حواء هدأت على غير إرادة حقيقية منها، وقالت فيما يشبه الملاطفة:

- بكره راح اتجوز جوازه ما تخطرلكيش على بال.

فالتفتت إليها الجدة دهشة متهللة وهى تقول:

- صحيح؟! ربنا يسمع منك.. مين؟.. مين هو.

ولكن فجأة. انقبض صدر حواء، وأسفت لهذه الدعابة القاسية وقالت بابتسامة عصبية:

- بكره تعرفى.. قصدى.. أ.. بكره.. بكره..

ثم غيرت مجرى الحديث، فأبدت رغبات وعدت بها الجدة عن طيب خاطر، وأسدت لها الجدة نصائح تقبلتها القبول الحسن. فتهلل وجه العجوز، وفرح قلبها بالجلسة التى لم تنعم بمثلها منذ أشهر.

وعمدت حواء إلى البيانو فعزفت اللحن الذى كانت اصطنعته لبنات المشغل. وأجادت أداءه. عند ذلك سهمت طويلا. ورن فى أذنها صوت نجية تستفسر عما إذا كانت تشترى الغازوزة بالقرش كله أم بنصفه فقط. «لم تكن خيبة يوم.. بل خيبة العمر كله!!» وأوشكت تبكى. ولكنها تشجعت. فقامت فتشاغلت فى غرفتها ساعة خرجت بعدها من المنزل فوضعت الخطاب فى أول صندوق بريد صادفها. وزارت بعض الحوانيت ثم عادت بصندوق كبير من ورق مقوى فوارته فى غرفتها.

وكان قد حان وقت الغذاء. فطلبت إلى الحاج أن يشاركها وجدتها الطعام، وانعكس ما ظهرت به حواء من طمأنينة وسرور على نفوس الجميع فراحوا مطمئنين مسرورين. وبان ذلك فى إشراق وجه الجدة وإيماض بسماتها . وبان ذلك فى سرعة ذراع الحاج بين فمه والمائدة.. ونجية على مقربة من سيدتها الصغرى متحفزة لأن تنقض عليها بأى طلب تطلبه. وأبت إلا أن تشترك فى الحديث فباغتتهم بصيحة منها قائلة:

- ستى!.. خلى الحاج يحكى لك اللى قاله لنا امبارح.

فاتجهت الأنظار إليها مستفسرة. وعاجلها الحاج يقول ويقلد لهجتها:

- وأيه اللى قلته امبارح؟

- حكاية ربنا لما غرق المركب مش كدا يا حاج؟

- غرق المركب!؟

- والنبى ياستى دى حاجة تضحك خالص.

فقالت الجدة تذكّر الحاج:

- المجنونة دى تقصد حكاية سيدنا الخضر لما...

- آ. آ.. دى حكاية تضحك يا ملعونة؟! أعوذ بالله!.. دى يا حوا هانم يا بنتى..

فقالت حواء بفتور:

- عارفاها

- لما سيدنا الخضر وجد غلاما فقتله.. ووجد..

- عارفاها. عارفاها..

وتدخلت نجية تضحك وتقول:

- والراجل الثانى بقى يقول له «ما اقعدش معاك يابو سمرا.. ما اقعدش معاك يابو سمرا!!»

فقالت حواء وقد أدركت قصد الخادمة:

- قصدها تقول «إنك لن تستطيع معى صبرا»

فتمتمت الجدة تستغفر الله، ورمت الفتاة بنظرة امتعاض، أما الحاج فقال:

- دى تضحك دى؟ يا سلام!.. دى تبكى!. دى تدل على أن الله سبحانه وتعالى لاتجرى إرادته إلا لحكمة..

فوضعت حواء الملعقة من يدها، أو أن الملعقة سقطت من يدها على غير عمد منها، وهمت بأن تصيح فى وجه الحاج المتحمس «إذا كان موسى وهو نبى، عجز عن معرفة إرادة الله فيما رأى بعينه فقط.. ولم يستطع عليه صبرا فكيف بها هى.. وهى ليست من النبوة فى شئ.. وقد أجرى الله عليها إرادة غامضة حطمتها تحطيما. من لها بخضر آخر يجلو لها الحكمة، ويحل لها اللغز.. ومن يلومها إذا لم تستطع عليه صبرا.!!..» ولكن حواء تمالكت جأشها فى لمح البصر، ثم قالت وهى تبتسم:

- رمزى بك وصف نجية دى أحسن وصف.. قال إنها بقرة آدمية..

فقال الحاج وقد طرب

- الله! الله أكبر.. أحسن وصف.. بقرة آدمية تمام.. من غير شك

وتركت حواء الجدة والحاج يتحلّيان المنى بانفراج الشدة، واستلقت على سريرها، فلم تنتبه إلا على صوت موسيقى الجيش وقد صدحت فى بيت العرس. وبداهة أنها دعيت إلى حفلة الزفاف، فقامت تتأهب لها يعاونها أهل المنزل أجمعين، ويحلق فوقهم صوت الخادمة.

وفى معمعة الحفلة، جعلت حواء تذهب وتجئ.. تساعد فريدة هانم فى مشاغلها الجمة.. ويحدث أن يصادفها الباشا فيهش لها ويقول «أدى يومك... اشتغلى. اتعبى.. نتعب لك يوم فرحك.»

فتبتسم وتمضى فيما تكون فيه. وتصادف أن انفردت برمزى فى غرفة فقال لها:

- ما رأيك؟

- دى حفلة بديعة. بديعة جدا.

- ولكنى أقول لك بصراحة...

وتوقف رمزى عن الكلام هنيهة من اهتياج مشاعره.. فشاعت الفوضى فى إحساس حواء معا عسى سيصارحها به، وجمدت مكانها إلى أن قال رمزى:

- أقول لك بصراحة إننى.. خائف كالأطفال.

فثابت حواء إلى حسها، وتضاحكت وهى تقول:

- أوه.. هون عليك.. دلوقت تنتهى المظاهر دى المثيرة للأعصاب، وتكون مع عروستك.. وأنا طبعا أقدم لك أخلص التهانى، وأرجو لكم كل سعادة وهناء..

واهتز صوتها عند النهاية بنبرة عجيبة.. ولم تستطع عند انتهاء كلامها إلا أن تقبله فى جبينه.. قبلة حمّلها الفتى معنى الإخاء ولو أن حرارتها لم تخف عليه، وود لو أن حواء لم تفعل ذلك. على أنه شكرها وانصرف فى خجل.

أما هى؟!

فقد قبلته أخيرا!. تلك القبلة التى كانت تفتديها بحياتها!! ووهت قواها فارتمت على مقعد قريب... وكأنما تلقفتها أجنحة ملائكة راحت تغنيها، وتشرف بها على نعيم الخالدين...

وعادت حواء إلى دارها قرب منتصف الليل، فانسلت إلى غرفتها دون أن يستشعر بها أحد، وأسرعت إلى الصندوق الذى كانت أخفته. فأخرجت منه ثوبا وطرحة من حرير أبيض، وإكليلا من زهر الليمون، وسرعان ما صارت فى هيئة العروس. وجمدت فى مكانها حينا. ورفعت عينيها إلى السماء. وراح قلبها يقول «رب إنى لن أكون كأبليس حين غمضت عليه حكمتك فعصاك، ولكننى أرتمى فى أحضانك طيعة طاهرة! ثم عمدت إلى طاولة صغيرة إلى جانب السرير فاختطفت من فوقها زجاجة.. ولبثت أمام المرآة حينا تصغى إلى صوت خفى يهتف بها «لاتزيدى عدد النقط،

ولا تسرفى فى استعمال هذا الدواء، فإن الإكثار منه يؤذى القلب، وقد يوقفه.. اجعليه للضرورة القصوى»، ولكنها فى طرفة عين اجترعت ما فى الزجاجة كله!!..

وبينما كانت الجدة تداعب «سرورا» فى أحلامها،

وبينما كان الحاج يصمم على أن يطلب من حواء ثمن قفطان جديد له بمناسبة شفائها.

وبينما كانت نجية تعانق طيف ابن الجزار.

كانت حواء مستلقية على سريرها فى هيئة العروس تلفظ أنفاسها الأخيرة، وفى أذنيها صوت المغنيات ينشدن لرمزى وعروسه أنشودة الزفاف.

ثالثاً : الملاحق

١- مقدمة الدكتور منصور فهمى للطبعة الأولى من (سخرية الناى)

٢- مقدمة الأستاذ أحمد زكى أبوشادى للطبعة الأولى من (يحكى أن)

٣- مقدمة الدكتور حسين فوزى للطبعة الأولى من (النقاب الطائر)

٤- مقدمة الأستاذ يحى حقى للطبعة الثانية من (سخرية الناى)

٥- مقدمة الأستاذ محمود تيمور للطبعة الثانية من (يحكى أن)

٦- مقدمة الأستاذ حسن محمود للطبعة الأولى من (حواء بلا آدم)

مقدمة الدكتور
منصور فهمى للطبعة الأولى من
(سخرية الناى) عام ١٩٢٦

عزيزى الأستاذ طاهر

طلبت إلى أن أكتب مقدمة لمجموعة القصص التى وضعتها، وهيأت لى بذلك أن أكون فى مقدمة القارئين لما ألفت، وهذا حظ تمنحنى إياه، لايسعنى حياله إلا أن أشكرك الشكر الجميل... لكن تولتنى الحيرة إذ شرعت فى كتابة المقدمة، ذلك لأن القصص التى يحسن وضعها ويدق تصويرها، ترينا جوانب مختلفة من جنبات الحياة، وقد يعز على واضع المقدمة أن يسكن إلى جانب واحد من تلك الجوانب المختلفة دون الأخرى، ليستوحيه فى وضع ما يكتب.

ففى الحياة آلام، وفى الحياة آمال، وفى الحياة مهاو سحيقة، وفى الحياة حلو ومر، وكل من تلك الجوانب جدير بأن يتمعن فيه الكاتب، ويتخذ من خلاصته زبدة ما يكتب...

ليست قراءة القصص الجيدة -كما يزعم جمهور من القارئين- وقفاً على المتسلى، الذى يثقل عليه الوقت، فيريد أن تخفف وطأة الوقت بالتسلى فى قراءة القصص. أما قراءة القصص المحكمة صفحة لمن يريد أن يتعرف من فلسفة الحياة شيئا كثيراً، لأن الحياة الاجتماعية مجموعة تواريخ، ظاهر بعضها وبعضها مستور، والقصاص الماهر اللبق هو الذى يستطيع أن يترجم لنا تاريخ الحياة فيما ظهر منها وما استتر، وفيما يكون فى روايته من جمال وفن، وفيما يكون فى ذكره للناس عبرة وموعظة.

وجدير بالإنسان الراقى الذى يطمع فى أن يعرف العيش قبل أن يفوته العيش، ويتبين أدق معانى الحياة قبل أن تفوته الحياة، أن يعنى كل العناية بمعرفة تلك الحياة الاجتماعية، ولن نجد خيراً من الكاتب القصاص من يعرفنا تلك الحياة الاجتماعية.

لكن من الكتاب من يعرضون عن الحياة الواقعة المعهودة إلى حياة متخيلة أو منتظرة، ولسنا ننكر على هذا الأسلوب حسناته، لأنه طالما يحفز همم الناس إلى ما ينبغى أن يكونوا عليه،

على أنه إذا كان من الحق أن يتطلع المرء إلى حياة أرقى مما هى عليه، فيتخيل لها حوادثها وتاريخها، فمن الأحق أن يعرف الواقع، ومن عرف المعهود سهل عليه أن يصير إلى المنتظر.

لقد أحسنت يا أخى كل الإحسان، إذا تحريت الحقائق فى قصصك، وفوق إحسانك هذا لك إحسان آخر، وهو أنك تنكبت عن السبيل الذى اتخذه كثير من أدبائنا فى تعريب القصص: نقلوها إلينا من مواطنها الغربية، أما أنت فتخيرت أبطال رواياتك وأحاديثها من طبيعة البلد، فجعلت مكانها وزمانها حيث ترى وحيث تعيش، وذلك يجعل القصة مصرية، يذوقها الذوق المصرى، وتلك حسنة نذكرها لك ولشباب الكتاب الناهضين فى الجيل الحاضر، قد بزوا بها من تقدمهم من أدباء النقلة والمتقدمين. ولو أننى كنت من المشتغلين بالأدب لما تخيرت غير هذا السبيل، وأذكر أننى منذ نيف وعشر سنين كنت قد وضعت بعض قصص، دونتها مجلة (فتاة الشرق) وتخيرتها من حياتنا المصرية الاجتماعية، ولكن صرفتنى الشواغل الأخرى إلى غير هذا السبيل.

لكن الله أراد أن يظهر للأدب القصصى، فضله وفى أمثالك وأمثال (تيمور) وغيركما من الشباب المثقفين، مافيه لذلك النوع من الأدب الكفاية فقد عملتم فى ذلك ما لم نعمله. فبارك الله فى جهودكم، وتقبل منا ما لا نملك لكم سواه من دعوات خالصة.

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أمتدح أسلوبك العربى السهل الطلق.. لكنى كنت أربأ بجماله، عما وقف فى سبيله الممهد حجر عثرة من لغة العوام فى بعض المحاورات..

هذا، وإن كثيرا من قصصك تذكرنى ببعض ماكتب (مكسيم جوركى) فى روحه وأسلوبه، فلعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لنا منكم -معشر فتيان الأدب- من يضارع ذلك الكاتب الكبير.

أعز الله بكم دولة الكتابة، وأقر بمجهودكم عيون الأدباء والمتأدبين.

منصـــور فهمى

١٩٢٦/١١/١٩

مقدمة

الأستاذ أحمد زكى أبو شادى

للطبعة الأولى من (يحكى أن)

عام ١٩٢٩

وأخيرا أتحف الأدب المصرى الأستاذ محمود طاهر لاشين بالمجموعة الثانية من قصصه الممتعة (يحكى أن..) التى ينم عنوانها الطريف على روح كاتبها المبتكر.

بدأ طاهر لاشين يعالج الفن القصصى منذ سنة ١٩٢٢، فبلغ فى سنين قليلة شأواً يغبط عليه، وصار معدوداً من أساطين الكتاب القصصيين فى العالم العربى، ونال عند المستنيرين المطلعين على الآداب العالمية منزلة الاحترام الصادق، ذلك لأن لاشين فنان بطبيعته، ذو سليقة مهذبة كان ومايزال يتعهدها بنقده الذاتى وبتثقيفه المتواصل. والمتأمل فى قصصه الصغيرة الجميلة التى يضمها هذا المجلد، وفى غيرها مما يظهر تباعا فى كبريات مجلاتنا، لايفوته أن يدرك مبلغ تأثره الكبير بأمثال دكنز وترجنيف ودستوفسكى من أعلام القصصيين فى الغرب، أولئك الذين مزجوا الفن القصصى برسالة الإصلاح الاجتماعى.

تلك رسالة يحن دائماً إلى بثها متمذهبا بالمذهب الواقعى، ويلوح أنه يشعر بعبء مسؤوليته الأدبية الإصلاحية: فهو يتريث فى استجماع ملاحظاته من صور الحياة -حياة الطبقتين الوسطى والسفلى على الأخص، بحسناتها وعيوبها- ثم يبذل مجهوده الفنى على جلسات متوالية فى حبك قصته مازجاً المزاح بالجد، متوخيا الدقة فى التعبير الفكهى، وهى طريقة كاد يتفرد بها بين كتابنا القصصين ولايحاكيه فيها غير القصصى المجيد يحيى حقى الذى ابتدأ يؤلف بعده بقليل.

* * *

لقد اعتدنا من أدبائنا النقاد صيحات يتابع فيها بعضهم بعضا، وقلما نسمع بينهم صوتا مستقلا جريئا نزيها، وكان آخر هذا الصياح -لما بدأ التأليف القصصى ينضج فى مصر- أنه لايوجد تأليف قصصى فيها! ولعلنا نسمع عن قريب عكس ذلك، فإذا بهذا النوع من التأليف يعلن

عنه أنه بلغ غاية النضوج والسمو!! وعندى أننا نسير سيرا حثيثا فى تكوين الأدب القصصى الحى فى لغتنا، وإن يكن كتابنا المبتكرون قليلين، ولكن هذا أمر طبيعى فى مرحلتنا الأولى. بيد أن هذا لايعنى مجال ما أن أولئك المجيدين مقلدون، وأنه ليس لبعضهم إجادة مطلقة. وليس هذا مقام الموازنة أو المفاضلة، وإنما هو مقام الإشادة العامة بهذا الأدب الجديد الذى لايقصد به إلى الترفيه عن النفس فقط، بل يرجى منه تغذية المدارك وتهذيب النفس وتجميل العاطفة أيضا، كما يرتقب منه خدمة الروح الفنية لذاتها، وليس كل هذا بالكسب القليل. ونحن فى مقام التنويه الخاص بالأديب النابه الأستاذ لاشين، متخذينه محورا لدراسة الأدب القصصى الحديث، مستشهدين على قدر المستطاع بنماذج فنه البديع على الأصول المرعية والمبتكرة، معتقدين أننا لن نخجل من نقل أحاسن قصصه إلى أية لغة أوربية، بل لنا أن نفخر بأثر ذلك.

* * *

يتزع الإنسان إلى التأثر بالتشبيه والاستعارة والمجاز، فهو بفطرته متأثر بتعبير المقارنة والتمثيل، وهذا عندى يدل على أصل حنيننا إلى قصة، بغض النظر عن أن القصص مرائى الإنسانية التى نحن جزء منها، والتى يبهجنا أن نُطل فيها لنرى ماتجلوه لنا من صور لاصقة بنا، وان كانت عاقبة ذلك أحيانا أو غالبا الحزن والأسف. لذلك كان الأدب القصصى منذ طفولة الإنسانية المدركة الباحثة عظيم الأثر فيها، ولم تغفله كأداة فعالة جميع النهضات أو الثورات على اختلاف مراميها.

ومنذ كانت الحياة هى مستمد القصة بل مستمد الأدب عامة، فكل ما يقع تحت أعيننا وتتأثر به عواطفنا وأذهاننا صالح لأن يكون أساس القصة لدى المدارك الخلاقة التى تستطيع إلى جانب ذلك أن تبدع عالم خيالها مقترنا بدراسة وتحليل عالمها الواقعى، ولدينا فى مصر من صور الحياة الجم الوافر، دع عنك ما يخص كل مؤلف قصصى فى ذاته من تجاريب وعواطف وأخيلة وآمال. فمادة القصة المصرية يجب أن تكون غريزة لأى مؤلف نابغة كيفما كانت البيئة التى يتوق فنه إلى درسها ووصفها. وريف مصر وحده قمين بإخراج مجاميع شتى من القصص للكاتب الريفى المتغلغل بين أهليه –ذلك الذى يحس بجاذبية نحوه وبجاذبية من الفن لأنصافهم.

ومنذ انقضى عهد القصص الطويلة –أو على الأصح منذ اشتاق الناس إلى القصص

القصيرة الدسمة التى تغنى فى وقتهم الضيق عن المطالعة الطويلة- وعناية المؤلفين والنقاد موجهة إلى القوة الفنية فى وضع القصة الصغيرة، وإلى صفاء التعبير المألوف الذى لايشوبه التكلف ولا الثرثرة ولاالوعظ الإملائى، محبذين ما كان طبيعيا سهلا منبها للأذهان، بحيث تستكشف بلذة ما وراء الألفاظ. غايات ورسالة. وهكذا إنهزم رجال الصناعة اللغويين الذين ليس لهم طبع فنى، وانتصر الفنيون الذين يحترمون اللغة أداة للتعبير السليم فقط.

وقد رأينا كثيرين يعيبون على كتابنا المصلحين تعلقهم بالأدب الصريح، ولكن هؤلاء ينسون أن حقائق الحياة تعنى الخير والشر، والفضيلة والرذيلة جميعا. كيفما كانت تعاريفها الاصطلاحية العرفية، وإذا تأمل الإنسان فى ظروفه الخاصة وفى ظروف من حوله -فضلاً عن داخل البيئة التى يتصل بها- فإنه يجد الكثير من نقط التأليف القصصى بهزله وجده على السواء. بل لن يعدم الفنان المطبوع فى كل مكان ومجال شوارد لاتحصى فى ذهنه ببصره الكشاف النافذ ويدخرها حافزا لابتكاره وقت الحاجة. وهو إذ يفعل ذلك يرى أن الحياة ليست كلها مأساة، كما أنها ليست كلها مهزلة. وتنضج لديه حاسة التمييز وحب التريث: فلا يقبل على التأليف بمجرد طرو خاطر قصصى على ذهنه، كما يفعل كثيرون من المبتدئين الذين يفوتهم بذلك سبك قصتهم وتهذيبها موضوعا قبل محاولة كتابتها، ويغيب عنه إعداد شىء من مواقف المفاجأة المستحبة، كما قد يتوزعون بهذا التعجل فتضيع منهم وحدة الغرض التى هى نقطة جوهرية فى التأليف القصصى يراعيها كل مؤلف خبير يعرف كيف يستعمل «المادة» القصصية التى فى ذهنه، أو هم قد يتعمدون إضاعة هذه الوحدة القصصية فى سبيل الإطالة لغرض تجارى، وفى هذا القضاء على قيمة القصة فنيا لأن القصصى الذى يحترم فنه يحذف من كتابته الشخصيات الثانوية التى تزحم القصة وكل ما هو قريب إلى الحشو والثرثرة أو الصناعة، ويكتفى بما يمثل الحياة الصادقة، وبكل ما له صلة صحيحة بموضوع قصته فقط، شافعا إخلاصه الفنى وبراعته فيما يؤخذ عليه من أدب مكشوف ما دام فى حدود الاعتدال.

* * *

وقد رأينا أن الأستاذ لاشين يتأنى فى إعداد هيكل قصته أو «تصميمها» -شأن المهندس الدقيق الذى يعمل حسابه لكل كبيرة وصغيرة- وبعد أن يضع هذا «التصميم» يمضى فى بناء أساسه ثم فى تشييد بنائه الكامل، متحاشيا العجلة، وأن كفته ثلاث جلسات لكل قصة فى أغلب الأحايين

وهو لايحفل بهذا الوقت، وإنما يعنيه أن يؤدى واجبه الفنى فى الوقت المناسب، ويعنيه أن يستعين بكل خبرته وملاحظاته فى إتمام واجبه على أسلم وجه.

هذه هى الروح العلمية التى مازلت أومن بأن اقترانها بالفن غنم له، ولاجديد فى ذلك: فكثيرا ما تضافر العلم والفن من قبل لإخراج أنفس الآثار حتى إن كبار المهندسين فى القرن الخامس عشر أمثال دوناتيلو وجيبرتى تتلمذوا على الجوهريين الفنانى، واستوحوا من إبداعهم روح الجمال والتنسيق الفنى الرائع الذى ازدانت به آثارهم. فالذى يري أن المهندس لاشين لاينبغى أن يكون القصصى لاشين -مادام من طبعه حب الأدب وحب التعبير عنه- إما أن يكون جاهلا لايقدر ما توجبه الثقافة العالية من مؤهلات لاستيعابها وللزكاة عنها، وإما أن يكون متجاهلا لايعنيه خير الأدب الناهض الذى يقوم على دعائم جديدة قوية. ومحال أن يقال إنه لاجديد تحت الشمس فالحياة فى تجديد متواصل، أو على الأقل فى تنويع مستمر من الطالح إلى الصالح، ومن الصالح إلى الأصلح، وحتى الحقائق القديمة قد يجلوها أن تظهر فى حلل قشيبة تناسب أذواقنا الحديثة فنكون أكثر استعدادا للترحيب بها وللانتفاع منها.

* * *

عيب على أكثر كتابنا القصصين أن شخصياتهم متماثلة بل تكاد تكون واحدة، وعندى أن هذه المسألة ليست جديرة بالعناية النقدية وليست بذلك العيب المزعوم، فقد يتوفر كاتب أو كتاب على دراسة نماذج معينة من الإنسانية دون سواها فلا يسأم الأديب ولاالقارئ العام مطالعة تصويرهم ما دام هذا التصوير ذا براعة فنية. فالعبرة، إذن، بالتصوير الفنى قبل سواه. ولكن طاهر لاشين -برغم اقتصاره فى الغالب على بيئة معينة يدرسها أو يصورها لنا، ولعلها أحوج البيئات إلى هذا التعهد الفنى- يهدى إلينا صورا شتى من ريشته المبدعة. وقد رأيت من الإنصاف له -ولهذا اللون من الأدب الجديد- أن أتحدث فى غير اختيار عن ثلاث من قصصه وهى «يحكى أن...» و«لون الخجل» و«حديث القرية» مستعرضا -على قدر ما يسمح مجال هذا التصوير الوجيز- مناحى فنه. وإنى بنفس هذه الثقة بمقدرته أستطيع أن أستبدل هذه القصص بغيرها. فكلها طرائف ممتعة: ففى قصة: «ولكنها الحياة» دراسة سيكولوجية وفلسفية تستمرئها بنهم، وفى «الشاويش بغدادى» تتألق روح فكاهته ويوجه أقسى ضربة إلى شيء من مفاسد شرطتنا المخجلة، ولكنك تشهد أنها لكمة جديدة لم يسبقه إليها فنان من الملاكمين المصلحين، وفى «الزائر الصامت» تصوير مؤثر جدا

لجريمة سوء اختيار الزوج وعواقبها المدمية، وفى «الشبح الماثل فى المرآة» آية فى تصوير نفسية المجرم ونفسية طالب العلم المزهوة التواقه إلى الاستطلاع، وتحليل بديع لعوامل القدر، وفى قصته «ألو» دراسة شائقة لحياة طائفة من الموظفين وموازنة بين سوء التصرف وعناد المقادير، وفى «الشيخ محمد اليمانى» استعراض بديع لصنف من شحاذة الدجل والشعوذة الدينية الشائعة، وفى قصته «القدر» دراسات شتى لعواطف الأمومة والبنوة وللتضحية الأليمة من جانب الأم إلى النهاية. وقس على ذلك بقية قصصه الجميلة فى هذا الكتاب، فهى وإن تكن مصرية فى لونها أو قاصرة على بيئة معينة، إلا أنها إنسانية فى صميمها، قابلة للنقل إلى أية لغة بغير أن تفقد شيئا من روحها أو رونقها، وهل ثمة خلود فنى للصور الوقتية الطارئة إلا فيما ندر؟

* * *

لننظر إذن نظرة عامة مستوعبة فى هذه القصص الساحرة، حتى ننصف هذا النابغة وفنه، ولنقول ماله وما عليه:

ترى فى مستهل قصته «يحكى أن...» كيف أن لاشين يلجأ إلى العامل السيكولوجى مباشرة فى التأثير على القارئ المصرى الذى ما يزال يحن إلى أمثال أساطير «إيسوب» وبسر من «كليلة ودمنة»، ولكنه يكتفى بسطور ثلاثة وبسطر واحد فى الختام، ويشهدنا على قدرته كمهندس بارع فى المزج بين أسلوبين فى البناء مزجا يسيرا لطيفا. وهو يضن ضنا بكلماته وسطوره، ويأبى إلا أن تكون دسمة قبل تدوينها، ولكنه يحيلها بفكاهته الطلية فنهضمها بسهولة. وتجد هذه القصة كقصصه جميعا -بل كقصص الكثيرين من أعلام كتاب الغرب الروائيين أمثال دى موباسان، وجرازيا ديلدا، وليو پولدو ألاس، وأنطون تشيكوف، واستيفان زيرومسكى، وفيرنك مولنار وغيرهم- غاية فى بساطة موضوعها وإن جمعت فأوعت من دقائق وملاحظات شتى. تجده فى هذه القصة بارعا فى إظهار الشخصية عن طريق الوصف العام، كأن يقول لنا عن الآنسة نعمات رأفت إنها «لاتصحو من نومها قبل الساعة التاسعة صباحا، فإذا ما استيقظت تثاءبت وتمطت، ثم تثاءبت، ثم تمطت، وشرعت تتكمش وتنبسط على هذا الجانب تارة وعلى الآخر تارة أخرى كسمكة ورق الميكا التى كنا -ونحن صغار- نجدها فى لفائف الشوكولاتة، أو تستوى على ظهرها فتمد ذراعها إلى مؤخر السرير تعبث بقوائمه الرفيعة على نحو ما تصنع عازفة على قيثار، وهكذا حتى يروق لها أن تنهض فتنهض، أو حتى تتبرم والدتها فتضطرها إلى النهوض.. على أن نعمات كانت اليوم أكثر

استسلاما إلى تراخيها وما فيه من حركات وسكنات، إذ كانت تستمتع بذكرى ليلة أمس، وتخشى لقاء أمها من أجله ليلة الأمس أيضا!»

بهذه السطورالخبرية القليلة صور لك فن لاشين هذه الفتاة الناعسة اللعوب بدون أن يخط كلمة واحدة من الكلمات المألوفة المستمة عن لون عينيها ونعومة بشرتها وجمال شعرها، إلخ. ولكنك إذ تقرأ هذا الوصف الخبرى لحالتها تشعر كأنه ذكر لك كل ذلك بين السطور!!

وما تساير المؤلف المبدع بضع خطوات حتى يطالعك بشيء من تعابيره الرياضية، فإذا بها نكتة لطيفة مميزة لأسلوبه الشخصي، رافعة له عن التقليد. وتراه في ما يعرضه من حوار صريحا على تمثيل الطبيعة: فهو ينزع إلى السمو بأسلوبه البياني مع الاحتفاظ بسلاسته. ولكنه إذا أتى إلى مواضع الحوار مثل حديث الحياة، كما وعته ذاكرته أو كما أملته خبرته تمثيلا واقعيا ،قلما تجد فيه أثرا من الكلفة الناشئة عن محاولة التهذيب. وهو بهذا الحوار وبما يشير إليه من حركات شخوصه -ولو إشارة خفيفة- جد ماهر في إتمام صور شخصياته التي يحرص على أن تكون صلاتها مستمرة مشوقة حتى نهاية القصة المفاجئة. وكيف يغفل عن ذلك -إذا غفل سواه- وهو المهندس البناء الذي تعود ترابط البناء وتأبى طبيعته غير ذلك؟ وكما أنه لن يضع الباب ولا الشباك ولا أي جزء من أجزاء البناء في موضعه، فلن تجده يخطئ نظير هذا الخطأ في تكوين قصته. وإذا استحسن الإيجاز في مواضع كان ذلك اقتضابا فنيا غير مخل، قد تغني فيه العبارة الوجيزة عن سطور. نراه بدأ هذه القصة راويا ولكن هذه ليست عادته المطردة، بل إنه يختار -حسب المناسبات- هذه الطريقة أو سواها، ملاحظا أليق الأساليب -في ذوقه الناضج- للتصوير والتأثير بالنسبة لقصة معينة، وعلى هذه المقاعد تختلف بداياته وكيفيتها.

تجد في هذه القصة روح الفكاهة متموجا في كل صفحة منها ولاسيما في الصفحات ١٤و١٦و١٧، وترى الإتقان الفني في التعبير ماثلا أحسن مثول في ختام الصفحة ١٧، و«البلاهة» في شخص مبروك أفندي مصورة بإبداع في صفحة ١٦و١٧، والانتقال الوجيز البديع واضحا في الصفحة ٢١ حين يقول لنا: «فأكد لها بإخلاص وإيمان أنها لو وضعت المصحف تحت وسائدها فالله واقيها شر الشيطان وشر خلقه الأشرار. وتنزل الستارة عن قبلة من الزوجة للزوج، ثم ترتفع -بعد أنتركت- عن قبلة من العشيقة للعشيق... فقصة «يحكى أن...» فيها جماع فن لاشين، كما أن فيها هفوات لم أرها في قصصه الأخرى. وهي تمثل لنا تفكك الروابط الزوجية وسوء تقاليدنا وما ينشأ

عنها من استهتار البنت إذا ما سنحت لها فرص الحياة العصرية ولارادع نفسانى من تدريب وتربية يردعها، وما قد يؤول إليه كل ذلك من فوضى إذا تمادى الحال، فتكون الفوضى الشرعية التى يجنح إليها الأهل سابقة لفوضى غير شرعية يجنح إليها الخلف!! ويكون الوالد المشغول بفكرة زواج إضافى رائدا للبنت التى تستحل زوجا غير شرعى إلى جانب زوجها الشرعى الذى يصير دمية أكيدة!! وفى القصة ما شاء تفنن لاشين من تصوير مصائب «الخاطبة»، وتطلع بعض الموظفين إلى التزوج –على فقرهم– من ربات الثروة. ومن مقارنات بين أنواع من الحياة فجاءت دروسا بليغة متنوعة تزدحم بها صفحات القصة. محتفظا كعادته بسرها الختامى فى النهاية، وبذلك يضمن متابعتك إياه –فى شوق وافر– حتى آخر كلمة من القصة. وهذا هو الفن بعينه.

بقى أن لاشين –متأثرا بعض التأثير بالأساليب العربية المعهودة– نسى فى مواضع معينة أسلوبه القصصى الفنى وصار المحرر المعهود فى إحدى الصحف، مع أنه لايجهل أن التأثير الفنى يستدعى أن لايصدمنا بهذا التحول منه. مثال ذلك قوله فى صفحة ١٤: (وأغلب الظن أنها تعنى الليسانس. وللقارئ أن يتدبر احتمالا آخر)، فما كان أولاه يحذف هذا حتى لانتنبه إلى أنفسنا كقراء وإليه كقصاص، بعد أن كنا نقرؤه بروح المشاهدة متأثرين بفن روايته. وتبع ذلك فى صفحة ١٥ قوله: (فترة للبحث عن علبة السجاير تحت الفخذ الأيمن والعثور عليها تحت الأيسر ثم إشعال إحدى محتوياتها)، فما كان أجدره بصياغة هذه العبارة فى أسلوب فكه متصل بما قبله بدل أن يطالعنا بها كأنها إرشاد لمدير المسرح فى رواية تمثيلية. وفى ختام الصفحة عينها يقول: «ننتقل الآن إلى حيث مبروك أفندي، درويش»...إلخ. وهذا أشبه فى صيغته لغة الجرائد. ولكن ما آخذه على الأستاذ لاشين من هذا القبيل لاأجد له نظائر فى ما أطلعت عليه من قصصه الأخرى. فإذا كان قد تعمد هذا النحو من البيان فى هذه القصة بالذات فإنى أتمنى أن لايكرره، إذ إنه لايوافق ذوق هذا العصر فنيا.

وتجد قصة «لون الخجل» –ص٤٧– غاية فى البساطة، ولكنها فتنة فنية فى تصوير الحب وهواجسه، وفى تمثيل التوزع النفسانى بين عاطفتى الشرف والحب، دع عنك تصوير عنوانها خلقيا وإظهار عامل خطير من عوامل الفساد فى الزوجية. وما كان طاهر لاشين بالذى ينسى أن يضمنها أوصافا شتى لعادات وتقاليد، مختارا هذه المرة «مولد» أحد الأولياء، وهكذا يجمع فى القصة الواحدة بين أغراض شتى كلها جديرة بالدراسة. ويطيب لى هنا أن أقتبس من تصويره لعاطفة الحب

المحبوس بين الغواية والرقابة، إذ يقول (ص٥٠): «فدخلت توحيدة تحمل صينية القهوة، وبعد أن قدمتها وقفت تنتظر الفراغ، وانتظر الزوج هذه الفرصة للتمادى فى شكواه وإظهار رجولته: بيد أن الشاب لم يكترث البتة لتلك السخافات وذلك الهراء، إذ انحصرت مشاعره، وتركز اهتمامه فى هذا التكوين البديع الماثل أمامه، وأحس صدره يجيش، وأن دمه قد صعد إلى وجهه، حتى خشى أن يدرك الزوج هذا منه، فأبطأ فى احتساء القهوة، وجعل يعض شفتيه من حين إلى حين ضبطاً لمشاعره، على أن توحيدة أدركت ذلك منه، وشعرت بنظراته إليها، فراحت تتقيها بإغضاءيستهوى ويسحر، ثم تبتسم ابتساماً خفياً».

وعندى أن المعانى الكثيرة المستترة بين سطور هذه القصة لايمكن أن تغيب عن أكثر القارئين، ولا أدرى لماذا أخص هذه القصة بهذا الوصف وكل قصص لاشين على هذا النحو من الاقتضاب الفنى الجميل الذى يدع كثيرا لتقدير القارئ واستنتاجه. ومن أجل هذا آخذته على جنوحه إلى العكس فى قصته الأولى.

وأما عن «حديث المدينة» -(ص٧٣)- فهو دراسة مبهجة مؤلمة فى آن، وكيف لاتكون مبهجة وهى مشبعة بصور الريف المحبوب، وبالعاطفة الإنسانية الحارة، وبالإشفاق على أبناء وطنه الفلاحين البائسين؟ وكيف لاتكون مؤلمة وهى تصور أقدر تصوير استسلامهم الغريب «تابعين فقيهم فى الظلام»، عديمى الإرادة والتفكير الحر، يعانون المر من شظف العيش؟ ورأيى أن هذه القصة المصرية الصميمة جديرة بالإكبار حقا، كيفما كانت نظرة القارئ إلى موضوعها. وما أشق على النفس الحساسة تتبع مستهل القصة فى وصف بؤس الفلاحين، وما أكرم لاشين فى رأفته بهذه النفس الحساسة ينتقل بها بعض الانتقال فى ذات الصفحة الأولى للقصة واصفا إقبال الشفق وصف الشاعر المطبوع.

وأخيرا أرانى المقصر المضطر -بحكم فراغى المحدود وضيق وقتى- فى توفية هذا الأديب المصرى النابغة حقه من الدرس، ولكن لعلى لم أقصر فى توفيته حقه من التأميل فى إنجابه الممتاز وتفننه البديع.

مقدمة الدكتور
حسين فوزى للطبعة الأولى من
(النقاب الطائر) عام ١٩٤٠

«سخرية الناى» و«يحكى أن..» مجموعتان من القصص المصرية التى كتبها ونشرها طاهر لاشين منذ نحو خمسة عشر عاما ، وهو «مستخف بما كان وبما سوف يكون». فكأنه استبق النقد الذى لم يعن العناية الواجبة، فيما عدا بعض من قدم لهما فعرف للمؤلف حقه، وعين له مقامه بين كتاب العصر، ولكن مقدمات الكتب شبيهة بفيران السفن تغرق بغرقها.

ولقد حسبنا انصراف النقاد فى أول عهد القصة المصرية عن تناول هذا الموضوع من الأدب بشيء من الجد راجعا إلى التردد فى الاعتراف بتجدد الأدب العربى. ثم جاء زمن توطد فيه الأدب القصصى العالمى، وعالجه غير واحد من كبار كتابنا بقليل أو كثير من النجاح. وإذا هو يبلى وشيكا بما يصيب العملة الجيدة فى الأسواق حين تزاحمها العملة الرديئة. فكان من شأن القصص الرخيص، وسهولة تصيده لشتى أنواع القراء، من فكاكى الخط حتى صغار الأحلام من المتعلمين، أن أصبح العملة الذهنية لا للعوام فحسب، بل لمن اصطلحنا على تسميتهم علية القوم. وساءت سمعة القصة الأدبية عند أهل الذكر، كما تسوء سمعة أولاد الناس الطيبين إذا شوهدوا فى صحبة غلمان الأزقة وعيال المدبح.

فإذا كان القصصى من نوع طاهر لاشين، أدبه صورة حية للطبقة الوسطى والدنيا، يصاحبك إلى حى بولاق؛ حيث «السيد ذو اللبدة السوداء فى سمت رأسه، والرفروف الأزرق إلى منتصف أنفه، يسوق كل هذه البراميل المرصوصة فوق عربته، مليئة باللفت الوردى، والخيار الزمردى، والليمون الكهرمانى» ويسلمك من «الحارة إلى الزقاق، ومن الزقاق إلى الدرب، ويعرج بك من الدرب على العطفة، حتى ينتهي إلى باب قد علت عليه الأرض فلم يظهر منه غير نصفه».

ويقف بك أمام «السيد السند يقرأ بعض التعاويذ لضيفته الشابة القالعة الجيد، الفضية الأذرع، البضة السيقان. ويلف الجبهة بإحدى يديه، ومؤخر الرأس باليد الأخرى، ثم يهمهم ويتمتم ما شاء أن يهمهم ويتمتم. ثم يحرك يديه إلى أسفل ماراً بالوجنتين فالرقبة فالـ...»

والأفندى «المحنى الوتين على ما أمامه من أوراق يتناول إحداها فيكب عليها حتى لتلتصق بها أرنبة أنفه. ويروح ذراعه ويجئ فيما بينهما وبين الدواة»

والشيخ الذى «مر شيطان فكه بيده على وجهه مداعبا فأفسد طوبوغرافيته، وزحزح معالمه عن مواضعها المألوفة، وأبقى له الدهر بضع أسنان من الطول والتباعد والتشابك، بحيث يصعب على الرائى أن يميز أيها يخص الفك الأعلى وأيها يخص الفك الأسفل»

أقول إذا كان الكاتب حريصاً على إظهار مثل هذه الصور، فقلما يعنى أهل الحذلقة بأدبه. وربما ذهب غلاة مصر «قطعة من أوربا» إلى اعتبار هذا الأدب فضيحة يجب إخفاؤها عن عيون «ضيوفنا- اقرأ أسيادنا- الأجانب» كما تمنع الجنازات الشعبية والزفف البلدية من المرور أمام شرفات الفنادق الأنيقة.

ولست أزعم بأن أدب طاهر لاشين، اقتصر على تصوير نوع خاص من حياتنا، أو أنه يقصد إلى هذا التصوير بعينه، وإنما أشفقت أن يكون هذا الأدب الواقعى- مع اتجاه دائما نحو الإغراق الكاريكاتورى- قد صرف أعين النقاد عن ناحيته الإنسانية فلم يروا فيه إلا نوعا من الأدب المحلى، يأخذ من الحياة الشعبية بمظاهرها.

وإذا كان هذا قد حدث فعلاً، فإن طاهر لاشين يحمل قسطاً من التبعة، إذ ترك طبيعته تتغلب بكليتها على صياغته، والصياغة أقل مميزات هذا المؤلف الموهوب، الذى يكتب بسجيته، فيتنقل دون مشقة بين العبث والجد، وكأنه عم وهدان بطل «سخرية الناى» «نظرية فلسفية مجسمة، تستخف بما كان تستخف بما سيكون». فلم أر كاتباً أقدر بسليقته على القصص من طاهر لاشين، ولا أعرف بمواقع النكتة، ولا أبصر بالناحية المضحكة لأحداث الحياة حلوها ومرها. يرسل نفسه في قصصه إرسالا، وقد يوجه حديثه إلى القارئ مباشرة أو هو يجرى قصصه على لسان شخص يحدث آخر- وهذه طريقته الغالبة وفرس رهانة- ضرورة له يتلمسها لرفع الكلفة وتمكين المودة بينه وبين قرائه. وبذلك يخلق جواً شبيهاً بجو حياته حين يحيط به الخلان يستمعون إلى أحاديثه، يمزج فيها الجد بالهزل، والمواساة بالدعابة. وهو إذا ناقش فسلاحه منطق سليم، وفهم واسع لما يدلى به مناظروه. فإذا ضيقوا عليه مسالك الحوار، وحمى بينهم وطيس الأخذ والرد، أطلق فى جو المناقشة سواريخ نكتته البارعة. فلا بحث ولا مجادلة وقد استحال المجلس مجموعة كرنفالية تضحك من نفسها ولنفسها.

إنساني بكل ما فى هذه الصفة من معنى البر والوفاء واتساع الذهن والقلب لجميع نزوات الطبيعة البشرية. صريح إلى حد قد يخرج به عن اللزوميات الاجتماعية. درب اللسان دون تحفظ. يقول كل شيء، كما تستطيع أن تقول له كل شيء، لم أعرف للغة العامية بلاغة بقدر ما عرفتها في كلامه. وإن أسفت على شيء فى أدب طاهر لاشين فهو إنصرافه عن إجراء لسان أشخاصه بتلك اللغة الملونة الفياحة.

لقد أعدت أخيراً قراءة كتابى طاهر لاشين «سخرية الناى» و «يحكى أن» فعجبت أن يمر هذان الكتابان على رجال الأدب دون أن يستشعروا فيهما روح بوكاتشيو، وديكنز، وتشيخوف، وجوركى. ولست أقول بأنه داني واحدا منهم فى فنه. فبين طاهر لاشين وبين الكمال الفنى مراحل لا أشك فى أنه مجتازها إذا أخذ أدبه بشيء من الجد والمثابرة، وكرس له شطراً أهم من تفكيره وقوة استحضاره، وعني بصياغته عناية أهل الحرفة لا الهواة.

ولكنه الكاتب المصرى الذى توفرت لطبيعته بعض العناصر المميزة لهؤلاء الكتاب فهو محدث من سلالة بوكاتشيو، لاذع كلما تناول مثل ما تناوله صاحب «الديكاميرون» من تندر بالأفاقين من أهل المسوح. تختلج نفسه بإنسانية جوركى وتشيخوف، وتكشف عينه مثلهما عن التعاسة الخفية لا الظاهرة، حتى فيمن ظاهر حياتهم الحاجة والشقاوة. وتزدحم صوره بمثل كاريكاتوريات ديكنز أقل هؤلاء الكتاب شأنا، ولو أنه أقربهم إلى قلب طاهر لاشين.

واليوم ينشر هذا الكاتب مجموعته الثالثة. وقراؤها فى غنى عن حكى لها أو عليها. حلقة تتصل بمجموعتيه السابقتين ولو فصلت بينها طوال السنين. يرى فيها القارئ مدى تطور هذا القصصى الفكه، الذى أكدت له الأيام صدق فلسفته، وحققت معنى كتابه الأول سخرية الناى. فقد تقول الناس على هذا العنوان بأن الناى لا يسخر بل ينوح، وما علموا أن طاهر لاشين هو ذلك الناى الساخر، بهجة أدبه تغالب أشجان نفسه، كأنه اللحن الفرح تصطحبه هارمونية واجمة. وأكثر ما أخشى أن تكشف الهارمونية عن وجومها فتتغلب على ميلوديا السرور فى هذا الكاتب. ولعل القارئ يلحظ أثرا لما أخشى فى هذه المجموعة، وإن كان صاحبها قد حرص أن يختمها بصورة من صور الدعابة الطليقة فى قصة أحرج ساعة من حياتى .

أما كيف عاد طاهر لاشين إلى الكتابة – ونرجو أن تكون عودته اليوم لا تردد فيها ولا تبلبل– فهذه حكاية أخرى، يتمثل فيها أثر التشجيع مهما كان ضئيلاً. أطلع هذا القصصى، الذى

نسى نفسه ونسيه الناس، على رسالة أدبية صدرت منذ عام، قدم لها صاحبها ببحث عن القصة العربية الحديثة. وقد أشار فيها إلى طاهر لاشين إشارة طيبة، لا يمكن أن يعرف أثرها فى هذا الأخير إلا من لاحظ كيف تكفى قطرات من الماء أحيانا لتعيد الحياة إلى نبات نكس رأسه ذبولا.

فعسى أن يتأمل قراء هذا الكتاب، من أهل الغيرة على الأدب ومستقبله فى مصر، قصة تلك العودة فى بساطتها، فيحفظوا للعربية الحديثة كاتبا لا يعرف الغرور، ويكره الادعاء. وينصفوا هذه القدرة على الحكاية والتصوير، وذلك التفرد فى الأسلوب.

مقدمة الدكتور
يحيى حقى للطبعة الثانية من
(سخرية الناى) عام ١٩٦٤

عن فجر أدبنا الحديث لا أعرف أثراً يفوق هذه المجموعة فى نطقها- بل فى صراخها- بأننا بإزاء بدء حركة تملص من قديم إلى جديد، بكل ما فى هذه الحركة من جهد وتلو واضطراب ومعاناة وتعثر، من ضيق بالقديم وهو لا يرخى قبضته تمام الإرخاء، من فرح ودهشة ونشوة بالجديد وهو لم يتشكل بعد تمام التشكل، ولم ينشأ كمال الإلف به أو صدق العلم بأسراره والتنبؤ بمستقبله.

نحس، ونحن نقرأ هذه المجموعة اليوم، أننا بإزاء ثعبان نراه رأى العين يغير فى صمت جلداً بجلد. أو بإزاء دودة الحرير تثقب فى فرقعة خرماً فى شرنقتها المطبقة الخانقة لتنطلق منه فراشة متهالكة الجناحين، قدرها أن تؤدى وظيفة اللقاح وتبيض ثم تموت، كذلك هذه المجموعة، حركة التملص التى تشهد بها حدثت فى صمت، هو فى وقت واحد شجاع هياب، متواضع متكبر، لو وجد حينئذ من يصيح إليه ويفهمه لما اختلف وقعه على أذنيه عن وقع الفرقعة التى نجدها لها اليوم، هى أيضا كان قدرها أن تؤدى وظيفة اللقاح وتبيض ثم تنحدر وراء الأفق، مخلفة بعدها جيلا جديدا لايعانى ما عانته، لأنها مهدت له الطريق.

انظر إلى الأسلوب تجده ينجح فى التملص من النثر الموروث، من عهد ابن المقفع والجاحظ إلى توفيق بكرى، ولكنه يخفق فى الإفلات من أسلوب المويلحى والمنفلوطى. بدأ البحث عن الكلمة المألوف دورانها على الألسن والتى تعبر عن المعنى بلا زيادة أو نقصان، بلاسجع أو بهرجة كاذبة، ولكن بين الكلمات المألوفة ستعثر على عبارات مثل: «أتلع القطارات جيدا»، «خدلجة من النساء». لايزال للألفاظ الموروثة سحر من العسير مقاومته والتملص منه، كأن استعمال القديم قد أصبح له غرض جديد هو الإعانة على إبراز الفكاهة.

نجاح فى التملص من الأمثال العربية القديمة وقد تردت دلالتها فى هوة سحيقة لتحل محلها أمثال بلدية شائعة، وإخفاق فى التملص من استعمال عبارات محفوظة تجرى مجرى الأمثال كقوله: «ترك الدار تنعى من شادها وبناها».

التملص من سلطان الفصحى عند نقل حوار العامة، فهو يكتب طبقا لنطقهم، طلبا للصدق، وسنلحظ بدء الاضطراب فى كتابة العامية بأحرف الفصحى وبخاصة حرف القاف الذى تقلبه العامة إلى الهمزة، هل يكتب قافا أم همزة؟ أما محمود طاهر لاشين فقد مال فى هذه المجموعة الأولى إلى كتابة الهمزة فيقول «يتئصف المسمار»، ولايكتبها ينقصف المسمار كما نفعل اليوم إذا نقلنا كلام العامة إلى نص مطبوع.

ولاتحسبن كتابة حوار القصة بالعامية كان أمراً سهلاً، حقاً إن محمود طاهر حقى قد مهد له فى «عذراء دنشواى» (١٩٠٧)، وأن محمد حسين هيكل قد تقبل بعض ألفاظ العامية على استحياء فى قصة «زينب» (١٩١٤)، وأن محمد تيمور سهل عليه أن يرفع لواء العامية فى المسرح متعللاً بمطالب المسرح، ولكن الإقدام على كتابة الحوار بالعامية فى القصة كان لايزال يعد خرقاً شديداً لحرمة الفصحى. وهذا هو منصور فهمى يقول فى المقدمة التى كتبها لهذه المجموعة:

«ولايسعنى فى الختام إلا أن أمتدح أسلوبك العربى السهل الطلق، ولكنى كنت أربأ بجماله عما وقف فى سبيله الممهد حجر عثرة من لغة العوام فى بعض المحاورات...».

والغريب أن رجال السياسة كانوا أسبق من رجال الأدب فى تحرير أسلوبهم من الطابع القديم ليمتاز بالدقة والتحديد والخضوع لمنطق صارم، مع الابتعاد كل البعد عن التكلف، ولعل السبب فى ذلك أن رجال الأدب كانوا أشد من رجال السياسة عكوفاً على كتب الأدب العربى القديم. وخير شاهد على ما أقول هو أسلوب محمد فريد، نقرؤه اليوم فنحسبه كتب لعصرنا، كان سابقاً لزمانه، وقد ولد هذا الأسلوب العلمى الجديد على يد من اتصل بحضارة الغرب وأتقن إحدى لغاتها وفهم منطقها.

* * *

وفى ميدان الأفكار سنجد التملص من مفاهيم قديمة إلى مفاهيم جديدة، جمال المرأة لم يعد جمال الجسد بل جمال الروح. انتهى عهد وصف المرأة الجميلة بالقشدة والمهلبية والبالوظة، وكذلك شرف المرأة، هو وليد إرادتها لانتيجة حبسها فى دار مغلقة الأبواب والنوافذ (قصة بيت الطاعة).

ومن حيث الشكل والمضمون -وهنا مربط الفرس- ستجد آثار التملص من أدب المقالة أو المقامة سواء فى صورتها الموروثة عن الحريرى وبديع الزمان أو فى صورتها المستحدثة عند

المويلحى فى حديث عيسى ابن هشام، إلى فن القصة القصيرة. وتنطق هذه المجموعة بل تصرخ بكل ما فى هذا التملص من جهد ومعاناة وقلقلة. وكيف تمتنع القلقلة وليس وراء كتاب القصة تراث يستندون إليه، وليس بجانبهم ناقد يحدد لهم المعالم ويبصرهم بالانحراف، لاأظن أن مقدمة الأستاذ منصور فهمى -رحمه الله- كانت كبيرة النفع للمؤلف، حقاً إن المرحوم أحمد زكى أبوشادى كتب للمجموعة الثانية (يحكى أن) مقدمة أكثر عمقا ودراية، ولكن مقدمات الكتب كفيران السفن تغرق بغرقها، هكذا يقول الدكتور حسين فوزى فى مقدمته التى كتبها للمجموعة الثالثة (النقاب الطائر) وأوجز فيها على نحو جميل القول فى منشأ فن القصة وكيف تلقاه الأدباء والنقاد، وتقلب سمعته بين علو وهبوط، كما كشف فضائل المؤلف وعيوبه بنظرة نافذة صادقة.

لاعجب، إذن، أن يعمد هؤلاء الكتاب فى بعض الأحيان إلى الاقتباس من أساتذتهم فى الغرب، ولكن ينبغى أن نحمد لهم أنهم لم ينكصوا عن الاعتراف والجهر به، اقتبس محمد تيمور عن موباسان قصة: «ربى لم خلقت هذا الجمال»، واقتبس محمود طاهر لاشين عن تشيكوف قصة «الانفجار» فى هذه المجموعة، وحتى هذا الاقتباس كان مقلقلاً، أين هو من تمصير عثمان جلال لمسرحيات موليير؟

ولاعجب كذلك أن احتاج هؤلاء الكتاب إلى قنطرة للتحول من المقامة إلى القصة القصيرة، فمال أغلب إنتاجهم المبكر إلى الاقتصار على رسم لوحة، عمادها وصف أنموذج شاذ من البشر يستوقف النظر، هو من الأعم مدعاة للتندر والدعابة، الحادثة فيها معدومة، تجد أمثلة كثيرة من هذه اللوحات عند محمد ومحمود تيمور فى أوائل عهدهما بالتأليف القصصى. السبب عندهما أنهما كانا لايزالان فى عهد مصارعة فن القصة قبل القبض على ناصيته، ويزيد عليه عند محمود طاهر لاشين سبب آخر، هو هيامه بديكنز الذى ترك مجموعة كبيرة من هذه اللوحات فى كتابه «صور إجمالية سريعة بقلم بوز».

وأخيرا ستجد هذه المجموعة تنطق بالتملص من النزعة الرومانسية إلى النزعة الواقعية، الهدف فيها هو رسم الحياة كما هى، ولكن التعبير ينحرف فلا يتخلص من نغمة الحزن والبكاء الغالبة فى إنتاج لطفى المنفلوطى فى النظرات والعبرات، فى بعض صفحات هذه المجموعة أحس أن محمود طاهر لاشين يكاد يكون نسخة أخرى من المنفلوطى. لقد كان من العسير التملص من هذه النزعة الرومانسية الحزينة لأنها داخلة فى مزاج الشرقى، ولأنها كانت طريقا سهلا معبدا أمام

الكاتب، فراح يشقه من قبل أن يصل إلى التعبير الملائم للمضمون الواقعي، ولذلك مال أسلوب المؤلف فى بعض أجزاء هذه المجموعة إلى الرنين، وإلى الخطابة، وإلى تكرار بعض الكلمات مثل قوله «هنالك هنالك...» فى قصة «فى قرار الهاوية».

* * *

لم يكن هذا التملص إلا انعكاسا ومجاوبة لتملص مصر ذاتها فى ثورة سنة ١٩١٩ من عهد التبعية والشيوع والاحتلال والحماية إلى عهد التحرر وتثبيت الشخصية والاستقلال، وكان لابد للشعب أن يكتشف نفسه، وأن يسعى إلى إقامة وحدته، وأن يصل إلى أعمق جذوره، وكان لابد أن تتحول النظرة من عل –للأغنياء والمترفين وسادة القوم فى الصالونات– إلى أسفل، إلى الفلاح ورجل الشارع، فدورهما فى الثورة لايقل عن دور المثقفين، بل لم تصبح هذه الثورة ثورة، إلا الفلاح ورجل الشارع هما اللذان رفعا لواءها، وأغلب الضحايا والشهداء من طبقتيهما، وكان لابد من التعبير عن هذه النفس المراد اكتشافها وعن وحدة الشعب المراد إقامتها، تعبيرا يقيم فنونا لها طابع مصرى أصيل. تولى سيد درويش هذا التعبير بألحانه عن الفلاحين (سالمة يا سلامة) وعن العربجية والسقايين...إلخ ، وتولى مختار هذا التعبير فى تماثيله الصغيرة للفلاحة وهى عائدة من السوق، وهى منحنية تملأ البلاصى من الترعة، وهى مضروبة بريح الخماسين تنفخ ملسها، لقد رفع الاثنان الضياع إلى ذروة المأساة، والنهنهة الرومانسية إلى شجن عميق يهز القلب، والمسكنة إلى نبل صابر صلد لايتزعزع، قام الاثنان برد الفلاح ورجل الشارع إلى نطاق الإنسانية بمقاوماتها الكريمة الجميلة، وتولى حسن فتحى هذا التعبير فيما بعد فى فن العمارة حين بنى قرية القرنة.

وكان لابد أن يتحول الأدب أيضا من النزعة الرومانسية إلى صراحة المذهب الواقعي، وأن يتخذ من رجل الشارع والفلاح أبطال قصصه، هذا هو تفسير نشأة المدرسة الحديثة، مدرسة المذهب الواقعي التى كان محمود طاهر لاشين نجمها المتألق.

* * *

لقد رويت فى العجالة القصيرة التى كتبتها عن «فجر القصة المصرية» كيف نشأت المدرسة الحديثة وبأى أدب غربى تأثرت، فكل كلام أضيفه هنا مط أو تكرار لن يكون فيه جديد، والأفضل لى ولك أن أحاول هنا تقويم هذه المدرسة وتبيان مالها وما عليها.

إننا نلحظ أن تنقل الأدب عندنا من جيل إلى جيل لايمثل دائماً تنقله من مذهب إلى مذهب، لايزال الكلام وقفاً على أشخاص، لا على مدارس، ومع ذلك لايخلو تاريخ هذا الأدب الحديث من مدرستين لكل منهما نهجها ومعالمها وأثرها العميق فى التحول من عهد إلى عهد: الأولى كانت فى النقد حين أصدر العقاد والمازنى كتاب «الديوان»، نستطيع أن نقول إنه أنشأ مدرسة جديدة فى النقد تعد حداً فاصلاً بين عهدين. والثانية فى الأدب القصصى حين تولت المدرسة الحديثة التبشير بالمذهب الواقعى وإدخال الفلاح ورجل الشارع فى النطاق الإنسانى. هى أيضا انتقال من حال إلى حال.

ولاتحسبن عملها هذا كان سهلا أو مشرفا لها، فها هو الدكتور حسين فوزى يشهد فى مقدمة (النقاب الطائر) «إذا كان الكاتب حريصا على إظهار مثل هذه الصور فقلما يعنى أهل الحذلقة بأدبه، وربما ذهب غلاة «مصر قطعة من أوربا» إلى اعتبار هذا الأدب فضيحة يجب إخفاؤها عن عيون ضيوفنا –اقرأ أسيادنا– الأجانب كما تمنع الجنازات الشعبية والزفف البلدية من المرور أما الشرفات الأنيقة».

بل لاتحسبن اختيار المدرسة الحديثة لفن القصة ذاته كان شيئا من حقها أن تفخر به، فعلى الرغم من رواية «زينب» نظر كبار الأدباء أول الأمر إلى هذا الفن نظرة ازدراء، ثم لما رأوه يثبت وينتشر بدءوا هم أيضا يلقون دلوهم فى بئره. فكانت المدرسة الحديثة هى التى تحملت «حموة الموس» فى فن القصة وفى المذهب الواقعى. وكان أيضا من العسير أن تجد هذه المدرسة الحديثة ناشرا يقبل التكفل بإنتاجها وقد روى لى الأستاذ يوسف السباعى عن أبيه الأديب الكبير محمد السباعى رحمه الله أن محمود طاهر لاشين حمل مجموعته «يحكى أن» إلى ناشر فأبى طبعها إلا إذا غير الاسم إلى عنوان جديد هو «دموع العشاق» فرفض المؤلف المعتز بأدبه ورضى من الغنيمة بالإياب.

ولكن كما أن ثورة ١٩١٩ فقدت سريعا قدرتها على التحول من الانقلاب السياسى إلى الانقلاب الاجتماعى، كذلك بقيت المدرسة الحديثة عند أسفل السلم لم تتجاوزه إلى ما فوقه.

فقد اقتصر أغلب إنتاجها على الوصف الفوتوغرافى، الأشخاص مرسومة من الخارج لا من الداخل، لم تبد منها محاولة جادة تدل على ثقافة ذهنية وروحية لإعطاء تفسير أو مغزى فلسفى

للحادثة، إنها سريعة فى التقاط الحادثة، سريعة فى تسجيلها على الورق فى شكل قصة قصيرة، تكتب فى جلسة واحدة، إنها لاتعرف الاجترار ثم التخزين ثم التعبير، بل النضج على نار حامية -لاعجب أن «شاطت» الطبخة أحيانا كثيرة. والكاتب إما يغرق أحيانا فى الخيال والافتعال- إذا لم يتملص من لوثة النزعة الرومانسية- وإما يضع أولا الهدف ثم يفصل له قصة على قده محاولا ما أمكنه اقتباس حوادثها وأوصافها من الواقع، وإذا كان إصلاح المجتمع عن طريق الكشف عن أدواه هو طابع المدرسة الحديثة فلاعجب إذا وجدت قصص هذه المجموعة موزعة بالعدل والقسطاس: واحدة لمحاربة تعدد الزوجات، وأخرى لمحاربة الإدمان والمسكرات، وثالثة لمحاربة بيت الطاعة، ورابعة لمحاربة الميسر وكذا وكذا. إن اختفى الوعظ من كل قصة على حدتها فإنه لم يختف من المجموعة فى عمومها.

وقد استمد محمود طاهر لاشين موضوعات قصصه من مشاهداته أحيانا ومن واقع حياته أحيانا، فهو مهندس تنظيم، يجوس خلال البيوت والدكاكين فى الأحياء الشعبية، ويقابل أنماطا عجيبة من الناس، ومن أمثلة القصص المستمدة من واقع حياته قصة «سخرية الناى» فى هذه المجموعة، فقد وصف فيها بلاتزيد أو تحوير موت شقيقه المرحوم محمد عبدالرحيم وقصة «الزائر الصامت» فى مجموعة «يحكى أن» وصف فيها زيارة أبيه لقبر ابنته.

كان أعضاء المدرسة الحديثة -فى أغلبهم- يعتنقون حرية الفكر، المقدسات لاترهبهم وأحيانا لاتقنعهم، وكانوا أيضا من المغرمين بالأدب الروسى وهو يعج بالمشكلات الروحية.

ومع ذلك فقد اقتصر اهتمامهم على الهموم المعاشية الأرضية وتصوير العلاقات الاجتماعية بين الناس، أو وصف أنماط شاذة مضحكة من البشر، فلاتجد فى إنتاجهم آثار القلق إزاء لغز الوجود وقدر الإنسان والصراع بين الخير والشر، وحاجة النفس إلى الوصول للطهر فى محراب الجمال، وإذا كان محمود طاهر لاشين قد تريث قليلا أمام سر الموت، فقد احتاج أن يدخل الموت بمنجلة داره ويحصد أعز أحبابه فيتحرك قلمه بالمقابلة بين غموض الموت وقسوته وبين لامبالاة الحياة وقدرتها على الاستمرار، (قصة سخرية الناى). هذا اهتزاز مباشر، نقرة إصبع على وتر تنبعث منه ونغمة هى أشبه بالأنين لاتقيم لحنا متكاملا شاملا تتدرج فيه مأساة الإنسان لانكبة فرد. وكان من الطبيعى أن يتحول إغفال هذه المشكلات الروحية إلى موقف يمكن وصفه بأنه استخفاف بما كان

وما سيكون، هذا هو نواح الناى، وهذا هو الطابع الغالب على فلسفة محمود طاهر لاشين كما تبدو فى حياته وفى قصصه.

لم يكن فى يد أعضاء المدرسة الحديثة معول، بل آلة فوتوغرافية، ولعلهم هم أنفسهم لم يدركوا حينئذ أن هذه الآلة تماثل المعول، بل قد تفوقه -فى قدرته على الهدم والبناء- شعار صحيفة (الفجر) التى كانوا يصدرونها، وأن مجرد الوصف هو بدء مراحل الثورة الاجتماعية، كشف الظلم وتجلية دمامته للعيون والحث على محاربته واستئصاله.

الظلم الاجتماعى، لعنة الفقر، تهرب القادرين من مواجهة مسؤوليتهم ونكوصهم عن الإيمان بوحدة الشعر، النفاق فى جميع صوره، هذه هى مشاغلهم، وهذا هو الدور الخطير الذى قاموا به، ولكنهم فى وصفهم للظلم اكتفوا بالمظاهر السطحية والمعانى المجردة فلم يكن منهم تغلغل لفهم أسبابه العديدة والبحث عن العلاج -تقسيم المجتمع عندهم هو إلى غنى جاحد وفقير مظلوم، فلم يكن لديهم إحساس بالفروق بين الطبقات وخصائصها وأسباب نشأتها على الرغم من أن أنباء ثورة روسيا كانت تصل إلى أسماعهم، ولكن فى صورة مبهمة، وأن كتاب كارل ماركس بين أيديهم، ولكنه كان عسير الهضم على معدتهم. لاأظن واحدا منهم قد جاوز صفحاته الأولى.

ولاأستطيع أن أملك نفسى من التعجب حين ألحظ من دلائل اكتفائهم بالمعانى الذهنية المجردة أن محمود طاهر لاشين المدافع عن الفقراء لا يصف هؤلاء الفقراء حين يقابلهم فى المحكمة الشرعية إلا بأنهم حشد من الحثالة والرعاع، (قصة بيت الطاعة) إنه لا يسبهم، بل هو ثائر عليهم، لاستغراقهم فى الجهل والتواكل والانحطاط، يدافع عنهم تارة، ويلومهم تارة أخرى، ويرى أنهم يحملون قسطا من المسؤولية إذا طحنهم الفقر، ولكن ما أشبهه بالذى يحض على اكرام الجار، وإذا جاء هذا الجار إلى داره ضاق به ذرعاً، وهذا هو الذى يغيظنا أحياناً من موقف المثقفين، يدافعون عن الفقير ،ولكن بشرط أن يبقى بعيداً عن متناول اليد والتحام الأنفاس بالأنفاس.

لذلك يخطئ بعض النقاد اليوم- فيما أظن- وهم يتحدثون عن ذلك العصر حين يحكمون عليه بالأفكار السائدة فى عصرنا فيتكلمون عن إحساس أدبائه بالبورجوازية والبرولوتاريا، وأستطيع أن أشهد أن هذه الكلمات لم تكن تجرى على ألسنتهم فلا شأن لهم بالطبقات.

بالرغم من هذا كله فنحن مدينون للمدرسة الحديثة بالشىء الكثير، هى التى جاهدت من أجل أن يكون لدينا أدب أصيل، نابع من كياننا، وأسلوب متحرر من التكلف والميوعة، هى التى

ثبّتت لفن القصة قدمه ووطدت سمعته، وبشرت بالمذهب الواقعي فخلصتنا من نهنهة الرومانسية، وهي التي حاربت الظلم والفقر والجهل والتخلف والنفاق- أكبر أعدائها- ورفعت مقام الفلاح ورجل الشارع ونادت بالتكافل الإجتماعي فمهدت، ولا ريب، لثورة سنة ١٩٥٢، ثم إقامتنا لاشتراكية عربية مستقلة لا تتنكر لعقائدنا ومثلنا الأخلاقية.

كانوا جميعاً يأخذون عملهم الفني مأخذ الجد، لا يبتغون مجداً ولا كسباً، وكانت عيونهم مؤرقة وقلوبهم خافقة بحب مصر، لم يعشقوا مخلوقاً مثل عشقهم لها.

كان محمود طاهر لاشين في مسرحها هو ممثلها الأول ونجمها المتألق، وكان الدكتور حسين فوزى هو المخرج والملقن، هو أشدهم اتصالا بحضارة الغرب وإيماناً بها، وذهنه أكثر تفتحاً وإدراكاً لمعنى الفن، هو الذي يحرس محمود طاهر لاشين ويحوط عليه بكفية، بحثه على الصبر والإجادة وعلى توسيع أفقه الثقافى بالاطلاع على أدب الغرب والشرق معاً. هو دليلهم فى الذهاب إلى مسرح الكورسال لحضور الفرق الأجنبية من موسيقية وتمثيلية، وكان حسن محمود يمتعهم برقته وصفاء روحه وكرهه للتعصب واللجاجة، هو والدكتور حسين فوزى قنطرتهم للعبور إلى الموسيقى الأوربية، وكان إبراهيم المصرى هو الذى يحدثهم عن أمجاد المسرح وبلزاك وبقية أعلام الأدب الفرنسى ، وكان ناظر المدرسة- المرحوم أحمد خيرى سعيد- هو الذى يسلكهم فى عقد واحد، بفضل سماحته وقدرته على فض النزاع وإرجاع كل المناقشات الحامية إلى العناصر العملية المفيدة. كانوا جميعاً لا يعرفون الدنس ولا الشر ولا الدناءة، وكانوا إذا ضحكوا ضحكوا من قلوبهم وبملء أفواههم.. وما كان أكثر ضحكهم !..

من الظلم يا صديقى أن تحكم على محمود طاهر لاشين من مجموعة سخرية الناى وحدها، هى أول مجموعة له، لم يكن عوده قد اشتد، ولم تكن موهبته قد نضجت، إنى أحب لك أن تقرأ إنتاجه كله، مجموعته الثانية: يحكى أن، والثالثة: النقاب الطائر، ثم روايته حواء بلا آدم، حينئذ تدرك قدره ومقامه، وأحب لك أن تتريث عند قصة فى القرية فى مجموعة يحكى أن، فهى مثل فذ للقصة القصيرة فى أرقى صورها، مرور الزمن لم ينزلها عن عرشها.

ستلحظ أسلوبه السهل الذى يتملكك بغير عنف ولا إرهاق، إنه يحدثك حديث صديق لصديق، غير متكلف أو متقعر أو متحذلق، لا يزعم لك المزاعم، وإذ وثق من مودتك بعد أن سحرك ترك لقلمه الحبل على الغارب؛ لئلا يحبس عنك أقل متعة هو قادر على منحها لك.

كرهه للظلم والنفاق وحبه للناس، في مقدمتهم الغلابة والمنكسرون هو الذي يلفت نظرك إليهم ويثير شفقتك عليهم.

قدرته الهائلة على الوصف، وكان لا يحب أن يصف إلا ما رأته عيناه، ذهب بنفسه إلى المحكمة الشرعية ليصفها في قصة بيت الطاعة، وإلى دكان بائع أدوات السحر فى الفوالة ليصفه فى رواية «حواء بلا آدم» هكذا كان حرصه على الصدق والأمانة.

علمه بأسرار النفوس، اهتزازه عند انتباهه الفطرى لما فى الحياة من مفارقات، منها ما يأسى له قلبه، ومنها ما يضحك له فى سره، ثم لاتلبث الابتسامة أن تعلو شفتيه، ثم لايرضى أن يحتكرها لنفسه فلابد أن يعديك بها أيضا.

استقامته الخلقية، فهو يأنف من الدمامة فى كل صورها، من الأفكار التى تلح عليه وتظهر مرارا فى قصصه «بشاعة خيانة الصديق لعرض صديقه».

وأخيرا ستلحظ قدرته الفائقة فى الدعابة، هى الحصان الذى يركبه فى مضمار الأدب، دعابة نقية غير مزيفة ولاجارحة، ومع ذلك تتستر وراءها مسحة من الإشفاق على ضعف الإنسان، إشفاق يبلغ حد المسامحة، وترك المخلوق للخالق، دعابة رجل يستخف بما كان وما سيكون.

دعابته فى قصصه غير متكلفة، لأنه كان بطبعه وفى حياته مرحا يحب الدعابة والضحك، له نوادر كثيرة لايزال أصدقاؤه الأحياء يذكرونها، لو ذكرتها لك لأطلت، ثم لانفع فى ذكرها، لأن النادرة تروى عنه غيرها وهى تصدر عنه، فى صحبته، يضيئها إشراق روحه وظرف شخصيته.

لم تستأثر قصصه بكل دعابته، فله أيضا شعر فكاهى لم ينشر، نظمه أصدقائه، وقد روى لى صديقه المهندس زكى الدباغ بعض هذه القصائد وهو لايزال يحفظها غيبا إلى اليوم:

النفس تزهد فى هذا وتطلب ذا ... آناً وآناً فلا تمشى بزنبرك
فدع مقالة أهل الطب إنهم ... منا يريدون أن نمشى على الحبكْ
وكل ما شئت أنى شئت من لحم ... محمرات إلى طعمية السكك
واشرب دخاناً ولاتأبه لماركته ... لافرق بين جناكليس وكوريك

والخمر فاصـــرف عليـها كل مدخـر   وإن خلا الجيب لابأس من الشكك
يا ليتنى فى بركة من خمرة ملئـت   أعيش فيها كمثل المـاء والسمـك

واشتهرت هذه القصيدة بين أصدقائه بأنها «كافيه لاشين».

وكان له صديق سافر إلى قنا فأرسل إليه يقول:

بأقصـى الصعيـد لـــنا صاحــــب   مفتـش صحـة مركـــــز قنــــا
وإن السخيــف سخيــف هنــاك   كمـا كـــان قبـــلا سخيفا هنــــا

من يدرى، لعل محمود طاهر لاشين لو قبل نشر هذا الشعر أن يجرى فى مضمار واحد مع حسين شفيق المصرى، رحمه الله.

* * *

لمحمود طاهر لاشين -إلى جانب المؤلفات التى ذكرتها من قبل- آثار أخر لم تنشر إلى اليوم مع الأسف. فقد وعدنا رحمه الله فى آخر صفحة من مجموعة «النقاب الطائر» بقرب إصداره لمجموعة جديدة باسم «سر المنتحر»، ولعلها كانت تضم بعض القصص التى نشرها فى المجلات، منها قصة «مطلوب جنيه» فى مجلة «كل شئ والدنيا» وقصة «ما لم أقله لأحد» فى عدد لمجلة الهلال خاص بالقصص.

وقد فوجئت حين أخبرنى المهندس زكى الدباغ أن لمحمود طاهر لاشين مسرحيات شهدها جمهور من الناس إذ كنت لاأعلم أنه ألف للمسرح. ومنها مسرحية باسم: «الأم بين جيلين» مثلتها «فرقة أنصار التمثيل» مدة شهر على مسرح الأوبرا -هذه هى رواية الأستاذ الدباغ، وكان يقوم بالدور الأول المرحوم عبداللطيف المردنلى. والظاهر أن هذه المسرحية كتبت بناء على تكليف من وزارة الصحة للدعاية لقسم المولدات، أو لعلها كانت المسرحية الفائزة فى مسابقة عقدتها تلك الوزارة، ويؤكد لى الأستاذ الدباغ أن هذه المسرحية قد طبعتها وزارة الصحة. ولكنى لم أسمع عنها ولم أرها. وكذلك مسرحية «الإصبع الزائدة»، وقد ألفها لتمثل أمام تلاميذ مدرسة كان قد أنشأها فى حى السيدة زينب باسم أخيه، وهى تصف الولد العاق، والاسم مستمد من كلمة محفوظة: الولد العاق كالإصبع الزائدة، إن تركته شقيت وإن قطعته ألمت.

وسبب هذه البعثرة فى إنتاج محمود طاهر لاشين أنه كان يتخذ الأدب هواية لاحرفة، يعمل على مهل ولايحرص على متابعة النشر. ثم لاتنس أنه طبع كل كتبه على حسابه، وأغلب الظن أنه لم يكسب منها مليما، بل خسر نفقتها.. لم ينشر مجموعته الثانية «يحكى أن» إلا بعد مضى ثلاث سنوات على صدور مجموعته الأولى «سخرية الناى» سنة ١٩٢٧. ثم لم تظهر له مجموعته الثالثة «النقاب الطائر» إلا سنة ١٩٤٠، أى بعد مضى ثلاث عشرة سنة على صدور مجموعته الثانية.

ويقول الدكتور حسين فوزى فى تعليل عودة محمود طاهر لاشين للتأليف بعد انقطاع دام عشر سنوات:

«أما كيف عاد طاهر لاشين إلى الكتابة -وأرجو أن تكون عودته اليوم لاتردد فيها ولاتبلبل، فهذه حكاية أخرى يتمثل فيها أثر التشجيع مهما كان ضئيلا. اطلع هذا القصصى الذى نسى نفسه ونسيه الناس على رسالة أدبية صدرت منذ عام، قدم لها صاحبها ببحث عن القصة العربية الحديثة، وقد أشار فيها إلى طاهر لاشين إشارة طيبة لايمكن أن يعرف أثرها فى هذا الأخير إلا من لاحظ كيف تكفى قطرات من الماء أحيانا لتعيد الحياة إلى نبات نكس رأسه ذبولا.

«فعسى أن يتأمل قراء هذا الكتاب، من أهل الغيرة على الأدب ومستقبله فى مصر قصة تلك العودة فى بساطتها فيحفظوا للعربية الحديثة كاتبا لايعرف الغرور ويكره الادعاء، وينصفوا هذه القدرة على الحكاية والتصوير، وذلك التفرد فى الأسلوب».

وقد انقسم أصدقاؤه فى الترجيح بين الهواية والحرفة إلى قسمين، فنصحه المرحوم محمد لطفى جمعة أن يحترف الأدب، على حين فضّلت له فى ذلك العهد أن يظل هاويا من شدة خوفى من خضوعه لطلب غير مطلب الفن. ولاتزال هذه القضية تستحق البحث والمناقشة.

* * *

دار عتيقة فى حارة حسنى التى تصل شارع المبتديان بشارع الخليج المصرى، بابها له مطرقة وسقاطة، ما عليك إلا أن تدق المطرقة مرة أو مرتين لاأكثر وإذا بيد كريمة تشد الحبل وتدخل إلى فناء مكشوف لتفتح عليه مندرة فيها «داير ما يدور» خزائن كتب عربية وإنجليزية. لك -وإن لم يستقبلك أحد- أن تدخل المندرة وأن تتناول ما تشاء من الكتب، وأن تقرأ ما تشاء من

الوقت، ثق أنه ستنزل إليك بعد قليل صينية عليها فنجان قهوة وفطائر من عجين البيت، دون أن يسألك أحد عن اسمك، هذه مكتبة عامة مفتوحة للجميع. ويروى الرواة الصادقون أن بعض كبار أدباء اليوم قد تتلمذوا على هذه المكتبة ونهلوا من معينها.

هذه هى دار المرحوم حسنى لاشين البكباشى فى الجيش، هو قاهرى، ولكن أصوله ترجع إلى أسرة من مسلمى البلقان، لعلها من البشناق، لاتعلم تاريخ هجرتها إلى مصر، فلاشين –لقب الأسرة– كلمة تركية معناها الصقر الأبيض، وزوجته هى أيضا من أصل تركى.

لاشك أن فى مزاج هذه الأسرة عرقا دساسا ينبض بالفن، فكل من خالطها يؤخذ بسحر حديثها، بقدرتها العجيبة على رواية الحوادث، ووصف الأشخاص، مع ميل للدعابة.

ورث هذا العرق ابنها محمد عبدالرحيم، أتم تعليمه بمدرسة المعلمين العليا، ثم سافر إلى أوربا ليعود حاملا للشهادة.. وحاملا للوثة المسرح، تكاد سيرته تطابق سيرة محمد تيمور. فإن فتانا بدأ يتخذ من فناء داره مسرحا يمثل عليه هو وبعض أصدقائه تمثيليات صغيرة من تأليفه. ثم أصبح عماد فرقة أنصار التمثيل التى أنشأها، وقام بالدور الأول فى مسرحية «الممثل جاريك»، ولم أحضر هذه المسرحية، ولكنى لاأزال أذكر صورته فى زى الممثل الإنجليزى فى صدر طبعة هذه المسرحية، تستطيع أن تعرفه من بعيد لو وقعت نظرتك على عينيه، فهما واسعتان جاحظتان، فيهما حول خفيف، هما دون بقية أعضاء الوجه وحدة الشبه بين الإخوة.

لا أدرى لماذا لايرد ذكره اليوم عند التأريخ للمسرح عندنا.

هو صاحب هذه المكتبة التى كانت تفتح أبوابها لكل طارق، ولكنه إذا كان قد عاد من أوربا وفى قلبه لوثة الفن فإنه عاد وفى أمعائه جراثيم السل، فانتقلت الأسرة رعاية لصحته وبناء على نصح الأطباء إلى مسكن فى شبرا يجاور الغيطان، هربا من سكنى الحوارى.

وفى ليلة من الليالى الهادئة، والقمر يسطع فى سماء صافية، وأزيز الجنادب يقرض الظلام سمع الشاب المريض وهو مسجى فى فراشه عزف ناى بنغم حنون فطلب إلى أهله أن يحملوه من الفراش ليجلس بجوار النافذة.. تسمع أنغام الناى قليلا ثم همس لأخيه الأصغر محمود طاهر:

– الدنيا جميلة.. رجعنى.. أنا تعبت.

ثم ما لبث أن لفظ أنفاسه على حين ظل الناى يرسل أنغامه والقمر يسطع نوره.

لم ينس محمود طاهر لاشين طوال حياته ميتة أخيه العزيز، وكيف ينساه وهو صاحب المكتبة التى أسبلت على البيت جوا ثقافيا ينادى الروح بالتطلع إلى الفن، بالصعود إلى سموات الفكر، بلقاء النوابغ والشوامخ، بحب الجمال وازدراء الصغائر، وأخيرا بملء القلب بالتسامح.

لاشك أن محمود عبدالرحمن هو الذى مهد الطريق لمحمود طاهر، وإليه يرجع الفضل فى إقدام أخيه الأصغر على تأليف المسرحيات كما رأيت.

ولد محمود طاهر فى ٧ يونيو ١٨٩٤ فى دار حارة حسنى، دخل مدرسة الهندسة (قسم البلديات)، وعمل بعد تخرجه مهندسا فى مصلحة التنظيم، وبعد خدمة امتدت خمسا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وستة أيام (اعذرنى فهذه بيانات مستخرجة من ملف خدمته) طلب إحالته إلى المعاش يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٣ قبل بلوغه سن الستين.

لايزال من بقى على قيد الحياة من زملائه فى العمل يذكرونه وهو فى منصب الرياسة رجلا متواضعا سمحا كريما -لايتعالى ولايشخط ولاينطر، بل يداعب مرءوسيه بنكاته وقفشاته.

لاشك أن القدر قد اختار له مهنة تخدم فنه، فبفضلها جاس خلال الأحياء الشعبية، ودخل العديد من الدور، وخالط أولاد البلد وعرف دخانيق القاهرة.

عاش أغلب عمره أعزب -ولكنه تزوج قبل وفاته بسنتين من فتاة عرفها فى محيط أسرته، غير أنه لم ينجب ولدا. انتقل بعد زواجه من دار حارة حسنى إلى دار فى حى العجوزة.

وحدث له فى أواخر حياته تحول عجيب، سببه حزنه على وفاة المرحوم حسنى الحكيم ابن خاله وزوج أخته، أو قل إنه أحس بقرب منيته، فإنه منذ تشييع جنازة قريبه بدأ لأول مرة فى حياته يواظب على الصلاة وقراءة القرآن.

وتوفى محمود طاهر لاشين فى ١٧ أبريل سنة ١٩٥٤ .. وكان موته فجأة بالسكتة القلبية.

* * *

فى مساء خميس فى أبريل سنة ١٩٢٥ شهد فناء دار حارة حسنى حدثا جللا.. فقد اجتمع أعضاء المدرسة الحديثة فى منزل محمود طاهر لاشين واتفقوا على ما يلى:

١- إصدار صحيفة باسم «الفجر» لتكون لسان حالهم.

٢- إنشاء مطبعة لطبع الصحيفة ومؤلفاتهم.

٣- أن يدفع كل عضو جنيها فى الشهر.. إلخ.

وجيء بمطبعة غلبانة إلى الفناء وعمل محمود طاهر لاشين بيديه في صف الحروف وإدارة العجلة.

* * *

حين عرفت محمود طاهر لاشين وجدته شابا ربعة، عريض الصدر ذكرنى بصدر سيد درويش، يحق للعامة أن يصفوه بأنه «أبو الروس» بسبب ضخامة رأسه، لايتأنق كثيرا فى ملبسه، عيناه واسعتان، فيهما شيء من الجحوظ، يبدو ان من تحت النظارة كأن بهما حولا طفيفا، سواد إنسانيهما يتضخم بسبب النظارة المحدبة فيكاد يندلق على أطراف زجاجها.

رأيت من عادته -إذا أراد أن يؤلف قصة- أن يذهب إلى القهوة المطلة على كوبرى بولاق، ويكتب بخط أشبه شيء بالكوفى، يتم قصة فى جلسة واحدة، ثم يعرضها على أصدقائه.

رأيته شديد البر بأهله، لايرد لهم طلبا، يخفض لهما جناح الذل من الرحمة، عجز أخ له يصغره عن العثور على عمل فكان محمود طاهر لاشين هو الذى أسعفه بأن أنشأ فى حى السيدة زينب مدرسة أهلية ليتولى أخوه إدارتها.

وكما كان بارا بأهله كان وفيا لأصدقائه، وإنى لأشفق على من بقى منهم على قيد الحياة -مد الله فى عمرهم- حين يتناولون هذه المجموعة التى تنشر طيف عزيزهم من قبره.. لاريب أن قلوبهم ستخفق، وأن عيونهم ستندى.

يحيى حقى

المراجع

(١) يحيى حقى: فجر القصة المصرية، دار القلم، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد السادس.

(٢) يحيي حقى: خطوات فى النقد، دار العروبة سنة ١٩٦٢.

(٣) عبدالمحسن طه بدر: تاريخ الرواية المصرية، دار المعارف سنة ١٩٦٤.

مقدمة الأستاذ
محمود تيمور للطبعة الثانية من
(يحكى أن) عام ١٩٦٤

نقد وتقدير

يحكى أن...

كانت أندية «القاهرة»، منذ قرابة أربعين عاما، تعرف طبقة من ناشئة ذلك العهد، لاتفتأ تلهج بأهداف تلوح لها كأنها أطياف وأشباح وظلال.

وكانت أهداف هذه الطبقة تتركز فى أن النفسية المصرية فى المجتمع الجديد، لم تعد تستسيغ الألوان التى بدا بها الأدب فى تلك الأيام، فهى تستشرف لأدب حى، وتعبير جديد، يختلج فيه ما تنطوى عليه القومية المصرية من عزيمة وطموح، ومن تحرر وانطلاق.

لم تكن تلك الناشئة الحديثة تملك فى ذلك الوقت إلا تلك الشعلة المقدسة التى تتوهج بين الجوانح، فتبعث فيها ضوء الإيمان وحرارة الاعتقاد، وتثير فيها روح الحمية والإقدام.

ويحكى أن...

كان من تلك الرفقة المتطلعة شاب اسمه «محمود طاهر لاشين»، وهو الذى عرف له القراء من بعد مجموعاته القصصية الطريفة: «يحكى أن...» و«سخرية الناى» و«النقاب الطائر»، وقد شاءت الأقدار منذ سنوات قلائل أن تختم هذه المجموعات القصصية بقصة تقليدية، هى قصة المؤلف نفسه، يلقى على الدنيا تحية وداع، فى سكينة وسلام.

كان ربعه، إلى البدانة أقرب، وإلى القصر أميل، يتراءى فى مشية إهمال واستخفاف، تاركا لقدميه ويديه وأوصاله حرية التكيف وفق هواها لاوفق هواه، وكان فى مجلسه بسام المحيا، مرح الروح، ذكى النظرات. فى أحاديثه ومحاوراته تفكه وتنادر وقرص لاذع، لايكاد يخلو تعقيبه على قول من نكتة، وقلما يسلم وصفه لشخص أو حكايته لشىء من سخرية.

وقد اصطفاه من بين الرفقة فى فورة الشباب صديقنا المرحوم «أحمد خيرى سعيد» لازمه

ملازمة الظل، إذ وجد فيه توأما له فى المنزع والمزاج وفلسفة الحياة. فهما على غرار واحد فى مبدأ «اللامبالاة» وفى أخذ الدنيا كما هى، أو كما كانا يقولان: اضرب الدنيا قبل أن تضربك، وتغد الأيام قبل أن تتعشاك!

إذا حل كلاهما مجلسا كنت فيه، ألفيت نفسك على الفور تسرى فيك روح المؤانسة والمطايبة، وأعددت العدة لتمرين حنجرتك على التضاحك والتصايح والصخب فإن عدواهما لاتلبث أن تسرى إليك، ومهما يكن من شأنك فى صمتك ووقارك. فأنت منساق معهما فيما يأخذان فيه من حديث مستطرف، ربما بلغ حد الهذر، منطلق معهما كل الانطلاق فى تيارهما لاتلوى على شىء، ولاتنصرف عنهما إلا وقد انزاح عن صدرك ما كان يثقله من هم وضيق، وأحسست بين جنبيك ثقة الحياة، وإيمانا بأن الدنيا بخير، وأنها جديرة منك بالتفاؤل والترحيب.

كان المجلس المفضل «لطاهر لاشين» و«خيرى سعيد» هو «قهوة الكزموجراف» التى سميت «قهوة الفن» فى حى «عماد الدين». ولكنهما كانا يكثران التنقل فى أماكن شتى، ولعل الأحياء الشعبية مثل حى «الحسين» كانت أحب إلى نفسيهما وأرضى، وكانت تحظى من اجتماعهما بالنصيب الأوفى. وأكبر ظنى أنهما فى هذه المجالات الشعبية الأصيلة فكرا فى إصدار مجلة «الفجر»، وفيها جلسا يكتبان لها، فصدرت تلك المجلة وعليها طابع شعبى يميزها، فكانت متنفسا لهما عما اختلج فى نفسيهما من مشاعر وأحاسيس، أوحت بها تلك المشاهد والصور التى واجهتها فى قلب المدينة النابض العامر بعامة الناس، مما كانت تضيق به المجالس الخاصة فى أحياء السراة ومن إليهم من طبقات الحكام والمسيطرين فى ميادين المال والأعمال، فكانا يعبران عن تلك المشاعر والأحاسيس التى تصور حياتنا المصرية الصميمة فى ضوء «الفجر».

فى هذه المجلة الأدبية الناهضة ذات الطابع المتميز، أخذ «خيرى سعيد» يدبج مقالاته النقدية فى الأدب والمجتمع، داعيا إلى الخروج على القوالب العتيقة فى التفكير والتعبير، مبشرا بأنماط جديدة فى الأدب الحى، وفى طليعة هذه الأنماط كتابة القصة على المنهج العصرى الذى يصور الشخصيات فى استجابتها للأحداث التى تتعاقب عليها، وفى كفاحها للحياة التى تحياها... وفى هذه المجلة قدم «طاهر لاشين» بواكير قصصه التى سجلت أنه من بناة القصة المصرية الأوائل فى أدبنا العربى الحديث.

وليس من الإنصاف أن ينسى تاريخ الأدب «لطاهر لاشين» أنه كان فى عصره بين القلائل الذين أوتوا الشجاعة على أن يتجافوا فيما يكتبون عن العرف الكتابى السائد، وأن يتساموا بأقلامهم إلى أوضاع تعبيرية جديدة، فراحوا يصورون حياتنا ومشكلاتنا وما يتسم به مجتمعنا ومن يعيش من الناس على أرضنا فى تحرره وطلاقة ونفوذ إلى الصميم.

لم يتهيأ «طاهر لاشين» لكتابة القصة بدراسته الأدبية أثناء مراحل تعليمه الرسمى، فقد تخرج فى الهندسة، وفيها كان عمله طول حياته، وإنما تهيأ للقصة بموهبته وبثقافته الحرة التى اكتسبها مطالعا فى الأدب العربى عامة، وفى الأدب الإنجليزى خاصة، وفيما ترجم إلى الإنجليزية من أدب الروس على الأخص. وبهذه الثقافة استطاع أن يسهم فى إذكاء تلك الروح الجديدة الخلاقة، روح مجلة «الفجر» لسان حال المدرسة الحديثة فى التجديد، وفى رفع راية العصيان على العقلية المتزمتة التى كانت تستمسك بالمعايير الموروثة لفنون الأدب وموضوعاته وأنماطه وتحسب القصة من سقط المتاع، أو هى على أحسن تقدير لاتعدو أن تكون بابا من اللهو للتسلية والتسرية وإزجاء وقت الفراغ.

أخص ما عرف به أديبنا القصاص أن قلمه كان أداة طيعة فى رسم الصور والمشاهد التى تجول فى خياله، والتى كان ينسج خيوطها من قلب المجتمع المصرى وأوضاعه، فإذا قرأت له قصة تمثلت لك نماذج دقيقة من بيئتنا المصرية بشخوصها وألوانها ذات وميض ورفيف، والمؤلف مستخف وراءها لاتكاد تحس له تدخلا أو تطفلا يفسد عليك متعتك فى تذوقك لهذا الأدب القصصى الفنى.

وقليل فى الكتابين من تصوره قصصه، وتعبر أتم تعبير عن طبعه، ولا أحسب أن هناك بين كتابنا من يفوق فى هذه الناحية «طاهر لاشين». فأنت تحس فى كتاباته القصصية أصالة الروح الشعبية المرحة، وجاذبية المنزع النفسى الفكه، وقوة الطبيعة الشخصية الساخرة. ففى كتابته يتجلى ذلك كله عميقا متدفقا على حقيقته، وتكاد إذ تقرأ له وصف شخصية أو سرد موقف تتمثله جالسا إليك يتحدث وكأن ما يخلص إلى سمعك شريط مسجل التقطه لك جهاز آلى، ففى كتاباته خصائص الحديث الأنيس وأساليبه، وليس من ريب فى أنه كان يجرى قلمه بما يكتب طوعا لإحساسه وما يدور فى فكره، بكل ما فيه من صدق وعفوية، ومن حرارة وحيوية، مؤمنا بأن هذه المزايا عنده أكبر غنما لعمله الأدبى الفنى مما يكسبه التأنق فى التصوير، والتجمل فى التعبير، والأناة فى التنسيق.

والمضمون فى قصص «طاهر لاشين» وثيق الصلة بمجتمعنا القريب العهد بنا فى يومنا الحاضر، مجتمعنا الذى كانت تكتنفه أحوال وملابسات تجعل منه مجتمعا تغله قيود الاضطهاد والاستغلال والانفصام بين الحاكم والمحكوم، ويعوزه تقارب الطبقات وتجانس العناصر، وتصطرع فيه قوتان، الأولى وطأة التقاليد المتوارثة فى الجيل القديم بما نجم عنها من عقد اجتماعية متشابكة، والأخرى بوادر التطلع فى الجيل الجديد إلى حرية وحياة سوية فى الركب الإنسانى السائر إلى أمام.

ففى قصة «يحكى أن...» مثلا يعرض المؤلف مشكلة الزواج والحب فيرينا كيف ينظر كل واحد من شخوص القصة إلى هذه المشكلة من زاوية، وكيف يعالجها وفق هواه، وقد رسمت الشخوص ببراعة، وتركت تتكلم على سجيتها بأمانة، واتخذ التحليل وجهة موفقة، فحملت إلينا القصة فى ذلك الإطار شريحة من شرائح المجتمع المصرى كما كان يعيش منذ عشرات معدودة من السنين، لازيف فيها ولا افتعال، ولقد كانت مشكلة الحب والزواج وما تزال مشكلة إنسانية عامة، وهى من ناحية اتصالها بالتقاليد والأعراف السائدة مشكلة شائكة عاني منها وما برح يعاني مجتمعنا الشرقى العتيد.

وعلى الرغم من الطابع المحلى فى قصص «طاهر لاشين» ووثاقة الصلة بينها وبين مشكلات وقتية قابلة للتذويب، فإن رهافة إحساس المؤلف بما يعتمل فى نفوس الشخوص، وصدق التعبير عن الأحداث، جعل من هذه القصص نسيجا لايخلو من لمسات إنسانية جوهرية، ولايفتقر إلى ما يكفل له البقاء من الكشف عن الغرائز والمشاعر التى يتألف منها كيان الإنسان فى كل زمان، حيثما كان.

فهو يطالعنا فى قصة «القدر» مثلا بصورة أم مصلية قانتة، كانت الحاجة إلى تربية أولادها الذين فقدوا أباهم قد ألجأتها فيما مضى إلى أن تكون على صلة مريبة برجل يرعاها، والآن وقد كبر ابنها يقف على ذلك السر، فينقم منها ما صنعت، ويتمنى أن يفقدها، بعد أن أظهرها على أنه عرف سرها. ويعود الولد الناقم بعد قليل، فإذا الأم قد عرتها الصدمة، فيقبل عليها معربا عن تقديره لها، واعتذاره عنها. فتلفظ أنفاسها فى قبلة على خده، والمؤذن يطلق اسم الله فى الفضاء. والقصة على بساطتها موفورة الحظ من حقيقة الضعف الإنسانى، يحلل فيها المؤلف نفسية الابن فى صدق ويجلو لنا نزاعة الباطنى إزاء الأمومة الخاطئة التى رمت بها الأقدار مرامى لم تملك منها الفكاك.

ولقد أجاد فى هذه القصة إجادة ملحوظة، وإن كان طابعها الأسى والجد، ولكنه كان أدنى إلى الإخفاق فى قصص جدية أخرى، كما يبدو لنا ذلك فى قصة «الزائر الصامت»، ذلك بأنه كان فى ميدان الجد يتكلف غير ما فى طبعه ويريد نفسه غير ما تهوى، فهو لا يأمن على قلمه الإخفاق، ولايكفل لفنه التوفيق والتجريد إلا فى الميدان الذى ملك ناصيته، ميدان السخرية والتفكهة والمزاح.

لم يكن «طاهر لاشين» فى جملة قصصه من أولئك الذين يصطنعون منهج تداعى الأفكار، لايبالون أن تكون قصصهم ذات حدث وواقعة، ولايؤمنون بالحبكة القصصية من بداية وعقدة ونهاية، ولكنه لم يكن كذلك ممن يلتزمون فى قصصهم تكامل البناء، وسلامة الحبك، وواقعية الأحداث، ودقة المعالجة. فكان فى بعض قصصه يستعيض عن ذلك بالبراعة فى الوصف والتصوير، وبالقدرة على التلمح والتنادر، يفتش عن مفارقات المجتمع، ويصور غرائب الشخوص، ويحسن المبالغة فى تجميع الظروف والأحوال التى يتهيأ بها الموقف الحرج، فيضفى على ذلك كله بموهبته الفنية حياة ترتفع بها القصص إلى مستوى من الأدب الفنى عليه من السخرية طابع وضاح.

ففى قصة «الشاويش بغدادى» صورة خفيفة لاتملك نفسك معها من الضحك، وفى «مذكرات سيدنا نوح» ملاحظات ساخرة، وكلتا القصتين فيهما من روح «مارك توين» قصاص الصور الهاذلة، وصاحب يوميات آدم وحواء، واستمع إلى مؤلفنا يصور لنا حيرة سيدنا «نوح» إزاء الجمل والزرافة كيف يضمها إلى سفينته، فهو يقول على لسان نبى الطوفان:

«لن يكون مظلوماً فى سفينتى غير الجمل والزرافة، لقد حاولت أن أوجد كوات لرقابها الطويلة فلم أستطع، فمثلاً فكرت فى أن أجعل لها «طاقات» بين الطابق الأول والطابق الأوسط، ولكن لوكنت فعلت ذلك فى مقدم السفينة لكانت رءوسها باستمرار فى مخزن الطعام، ومعنى هذا أنى أعرضها إلى تخمة قاتلة، وأن أعرض باقى الضيوف الأعزاء إلى مجاعة عاجلة، ولو فتحت «الطاقات» فى مؤخر السفينة لأطلت رأسان فى غرفتى ورأسان فى غرفة نسائى وهذا، بلاشك، يضايق ويفزع، فضلاً عن أنه ينافى قوانين الصحة... يجب على ذوى الرقاب الطويلة أن يطأطئوا الرأس قليلاً إذا أرادوا السلامة».

و«طاهر لاشين» يؤنسك فى قصصه بما يسنح من خواطر لامعة ونفقات ذكية، وأوصاف شائقة. ففى قصة «الكهلة المزهوة» يصور لنا مغالاة المرأة فى تقدير جمالها وشبابها وقد تخطت عصر الشباب، فيقول:

كانت شابة الجسم، والجسم كثيرا ما يحتفظ بشبابه إلى ما بعد الشباب بكثير. وهنا غلطة «زهرة»، فقد كانت تنظر إلى المرآة بعين الماضى، فلا تلحظ ما حل بأجفانها من ذبول الكبر، وما غادر نظراتها من بريق الصبا، ولاتستبين تلك التجعدات الدقيقة التى أحاطت بشفتيها، ومن ثم كانت تتحدى الفتيات، وتقلد سذاجتهن، وتستبيح ما يبيحه نزقهن...».

وفيها أيضا ينساق مع الروح الشاعرية فى وصف ليلة، فيقول:

«كانت ليلة من تلك الليالى التى يتوانى القمر فيها حتى يهجع كل خلى، فلا يطلع إلا على شجى يستجديه، أو شاعر يستوحيه، أو عشيقين أبى الغرام أن يكونا من النوام...».

وفى هذه القصة عينها يقول فى تعليله لصدمة «زهرة» وإصابتها بالهوس:

«...والنساء القابعات فى دورهن، المبعدات قهرا عن العالم الجياش بأسباب الحياة، المنزويات قسرا عن أية مخاطرة أو تجربة، هن بله القلوب والرءوس يفرحن بالأمر السار إلى حد السذاجة، ثم إن الفرحة لاتدوم فى قلوبهن طويلا، لأنها فى الحقيقة نشاز على نغمة حياتهن، المملة الحزينة فى الواقع، أما الذى يدوم ويطغى فهو الحزن، لأن مشاعر الإنسانية الموتورة فى تلك القلوب المقفلة تنتهز من الصدمات -وإن تفهت- فرصة للانفجار والاحتجاج غير المباشر، من ذلك ما أصاب «زهرة»...».

أما ثقافة «طاهر لاشين» اللغوية، فكانت فى صراع مع مبادئه الفنية من ناحية، ومع طبيعته الشخصية من ناحية أخرى، وقد ظهر أثر هذا الصراع أقوى ما يكون فيما كتب... كان اطلاعه على أدبنا العربى قويا، ومحفوظه من فقره البليغة وجمله المكينة وافرا، ومقدرته على الإفصاح والإبانة تعز على كثير من ناشئة الجيل الحديث، ولكنه مع ذلك أصر على خضوع البيان العربى للزخرف اللفظى وللأساليب التقليدية، تواق إلى بيان مشرق مأنوس يزدان بالمعنى أكثر مما يزدان باللفظ، ويصدق فى تصويره للفكر وإن فاته البريق والتزويق، وهو إلى جانب هذا حريص على أن يوفى القصة حقها من تصوير الشخوص الشعبية تصويرا محتفظا بطابعها، وتمثيل الأحداث

المحلية تمثيلا موضحا لسماتها والإشعار بالجو الخاص الذى يريد أن ينقله إليك أو ينقلك إليه فى عمله القصصى. وإنه فوق هذا وذلك نزاع إلى البساطة والاسترسال، مطبوع على التلطف والإيناس، منجذب إلى الغمز والتنكيت. وبهذا المزاج المتضارب خرجت قصصه وفيها شكول غير متشابكة من الجمل والعبارات. بينما يروعك فى كتاباته من الألفاظ ما يكاد يعد من الغريب أو الحوشى، ومن الفقرات ما تعلو درجته فى مراتب البلاغة، وما هو مستعار من كلم مأثور، وأبيات شعر، وما يجرى من القول مجرى المثل السائر، إذ تجد فيما تقرأ له كلمات دخيلة أو عامية لاتحصى كثرة، وفيها ما يغنى الفصيح غناءه، وتصادف من الجمل ما يدل على التسهل والترخص وفقدان الاحتفال إلى حد يقارب الابتذال، فمن الغريب أو النادر يستعمل «الغرائر» بدل الزكائب، و«النشدة» بدل المطلوب أو المراد، و«الطين الأبليز» بدل الطمى أو الغرين و«ذكاء» بدل الشمس و«الصور» بدل الزمارة أو الصفارة، و«يهطع» بدل يسرع. ومن أمثلة الدخيل استعمال «التلتوار» بدل الطوار أو الرصيف و«البلكون» بدل الشرفة أو المستشرف. ولنقصر عن العامى فى كتاباته فإن وفرته فيها لايحتاج الأمر معها إلى تمثيل.

والناقد فى تقديره «لطاهر لاشين» لايغفل أنه لم يستخلص نفسه لفنه، فلقد صرفته شواغل العيش والحياة عن مواصلة التأليف، وثمة فجوات بعيدة من الزمن بين كتبه، ولولا ذلك لكان له شأن غير شأنه بين الأدباء، فهو قد أخلى مكانه باختياره، وترك الأدباء يتفقدونه فيه، ويتساءلون عنه، على أن أثره فى هذا المكان الذى احتله فى أدبنا العصرى ظل واضحا يشهد له بفضل التقدم والسبق والابتكار.

وإنى لسعيد بأن أقدم اليوم تلك الطبعة الجديدة لمجموعته القصصية «يحكى أن...» وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه، فإن هذه الباكورة من فن طاهر لاشين، توحى أصدق وحى بأن صاحبها كان يوم تأليفه لها قاصا على الطريق السوى، أوتى موهبة خلاقة، وفيه من عناصر النضج ما يكفل له التجويد والإحسان.

تحية لذكراك العطرة أيها الصديق السائر فى رحلة الأبد.

وإلى أن يحين اللقاء، عليك سلام!

محمود تيمور

مقدمة الأستاذ
حسن محمود للطبعة الأولى من رواية
(حواء بلا آدم)

أراد الأستاذ طاهر لاشين أن يبتدع أسلوبا جديدا في كتابة المقدمات، فلم يلجأ في ذاك إلى كاتب كبير يستظل باسمه أو أديب ناشئ يرقى مدارج الشهرة بمؤلفاته، وإنما عمد إلى صديق ليس له جمهور وصديق إن هو عالج الكتابة والنقد حينا وأكب على القراءة في أحايين كثيرة، فإنه يفعل ذلك من غير أن يرجو شهرة أو يكون له مطمع إلى هذا الصديق قصد الأستاذ طاهر لاشين، وهو واثق من شيء واحد: إنه يقصد رجلا عرف فنه القصصي منذ نشأته وهو يفهمه ويقدره كل التقدير وهو في الوقت ذاته لايسكت عن المعايب.

والواقع أني كنت دائم الاتصال بالأستاذ طاهر لاشين منذ أقبل على فن القصة، وشاهدت مقدماته الأولى في سنة١٩٢١ وتابعت قصصه التي أدت إلى روايته القصصية الحاضرة. ولقد ظهر منحى الأستاذ طاهر لاشين وتبينت في قصصه الأولى كل العناصر التي نتذوقها في «حواء بلا آدم» وليس أدل على صحة هذا القول من الرجوع إلى مجموعة القصص الأولى التي أطلق عليها اسما ذا معنى هو سخرية الناي، ثم مجموعة القصص الثانية التي أسماها ببساطة «يحكى أن».

في «سخرية الناي» نجد الكثير من روح السخرية حقا ونجد الكثير من الدعابة البريئة من السخرية، أنما نغمة الناي –تلك النغمة الحزينة الشديدة الحنو الدائمة الاستسلام– فلانجدها إلا نادرا.

وأما ما كسبه الأستاذ طاهر لاشين فيما بعد فهو اهتمام باختيار الموضوع واشتداد قبضته على أسلوبه وتلك الناشئ...

ولكن هذه النغمة –أي نغمة الناي– كثيرا ما نسمعها في المجموعة الثانية التي نرى فيها تقدما عظيما في الفن القصصي، ولسنا نريد بذلك أن الأستاذ طاهر لاشين ابتدأ ضعيفا في فن القصص ثم تقدم تقدما سريعا، ولو أردنا هذا القول لما كان عيبا، فالكثيرون من كبار الكتاب تعلموا فنهم بعد مشقة وجهد، وأمضوا فترة طويلة في المران على صنعة الكتابة قبل أن يصير لهم جمهور، وهذا أمر لاينتقص من فنهم في شيء على أن الأستاذ طاهر لاشين لم يكن من هؤلاء فإن

مجهوده الأولى فى القصة، ولعلها قصة «فى قرار الهاوية». كان مجهودا بارزا جعله فى طليعة كتابنا القصصيين ولم يكن عليه إلا أن يستمر، وقد استمر، ولكن ذلك لم يحل دون أن يتقدم فنه بالنسبة لمجهوداته الأولى ولن نسوق برهانا على ذلك أدل من قصة «منطقة الصمت» التى نشرها فى مجموعته «سخرية الناى» فأعجب بها أصدقاؤه كل العجب، وهى تعتبر من خير قصص المجموعة الأولى، وأعاد الأستاذ نشرها لأمر ما فى مجموعته الثانية ولسنا نستطيع أن نقول بأنها من خير القصص فى هذه المجموعة الأخيرة.

يقوم فن طاهر لاشين على الفكاهة أولا وهو يعتبر دائما فى طليعة كتابنا الفكاهيين، وفيه كل الصفات التى نراها فى عظماء كتاب الفكاهة، وفيه كل نقائصهم، ولقد أشرنا إلى السخرية التى نراها فى قصصه ولكن السخرية ليست أساس فكاهته، بل إن فكاهته من النوع البرئ المرح الذى قد يبعث على الابتسام أو الضحك ولكنه لايبعث على الاحتقار ونشعر من فكاهته أن الكاتب يشفق على مخلوقاته ويحبهم ويريد منك أن تشفق عليهم وتحبهم وهو لايهزأ بنقائصهم بل يلتمس لهم الأعذار، وينتحل لهم المبررات، ويحاول أن يدفعك إلى غفران الذنوب، ولو أردنا تشبيهه بكاتب من كتاب الأدب الأوربى لقلنا أنه أقرب إلى «ديكنز» الكاتب الإنجليزى الفكاهى العظيم منه إلى «ثيكرى» الكاتب الإنجليزى الفكاهى والعظيم أيضا.

وقد يكون من الطبيعى –وإن بدا هذا القول لأول وهلة غريبا– أن يكون الأستاذ طاهر لاشين من أمهر العازفين على الأوتار الحزينة. ولكننى أعتقد أن بين الفكاهة وبين الحزن صلة إن تكن خفية فهى بعد موجودة وهل نستطيع أن ننسى أن خالق «بيكويك» الخالد هو أيضاخالق «نللى» الفتاة المسكينة و«أوليفر تويست» ربيب الشقاء؟ والواقع أن كل ذلك متوقف على طبيعة الكاتب، فالكاتب لايستطيع أن يتعمل الفكاهة أو الحزن ولو فعل لكانت مجهوداته سقيمة لاغناء فيها، فالمسألة «إذن» متوقفة على طبيعته –على قلبه– والقلوب الكبيرة المتفائلة، الدائمة الدعابة، السريعة الضحك هى دائما سريعة التأثر بالأحزان، والرثاء لكوارث الحياة، وهى التى يسرع الدمع إلى مآقيها.

فلفن الأستاذ طاهر لاشين جانبان، أولهما هو الغالب عليه، جانب الدعابة البريئة، والثانى جانب التأثر والشفقة «ولكنهما تأثر وشفقة لايذهبان بعيدا ولايدفعان إلى الثورة، بل هما تأثر المتفائل بالحياة وشفقته، فالحياة خلقت من نعيم وشقاء، وأناس الأستاذ طاهر لاشين ينعمون ويشقون لأنهم

جزء من الحياة وهم يرجون الأجر والثواب أن لم يكن فى هذه الحياة ففى الحياة الأخرى، وتلك الاستكانة فيهم تحملنا على أن نكون أقرب إلى محبتهم، وإن لم تدفعنا إلى احترامهم.

ولذلك لانجد فى فن الأستاذ طاهر لاشين تلك الألوان المظلمة التى نجدها فى فن بعض الكتاب الأوربيين، ولايجب أن نلومه على ذلك، فليس ذلك مجاله، وليس من طبيعته، والواقع أن هذه الألوان المظلمة لم تظهر بعد فى الفن القصصى المصرى وقد نغتبط لهذا الأمر ففيه دليل على الشقاء الاجتماعى لم يبلغ فى هذا البلد حدا يدفع إلى اليأس والتمرد أو هو بلغ هذا الحد، ولكن البركان لايزال ساكنا.

ولكن إذا كان الأستاذ طاهر لاشين خلا لحظة من تلك العوامل التى توقفه على أعماق الشقاء وتلقى على الحياة نقابا أسود «فهو» مع ذلك، ذو نفس بوهيمية وقفت على دقائق الشقاء البهج والأثمال الراضية والجوع الباسم، ومن هنا كان وصفه للحياة الفقيرة دقيقا وحيا ونافذا، وتجد أمثلة طريفة فى أكثر قصصه، ولعل الأقرب إلينا أن نقتبس مثالا من رواية «حواء بلا آدم»، فاقرأ هذا الوصف البديع:

«وكان الحاج فى حال طبيعية بحتة. وكان مخلداً إلى غرفته، ومعنى هذا الإخلاد أن يكون دائم الحركة ذهابا وإيابا وانحناء واستواء، حتى ليحسبه الرائي مأجوراً أجرا حسنا على إحداث أكبر مقدار من الفوضى فى محتويات هذه الحظيرة.. ومحتوياتها شتى ومتنافرة.. الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرز تمادى به الزمن والاستعمال حتى تكتل وتصلب. وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشكل. وعمامة الحاج إذا لم تكن فوق رأسه. ومنشفة للوجه لايجد الأنف بين قطوعها مكانا إلا بالمهارة والحيلة. أما اللحاف فقد يحتل جزءا من فراغ النافذة وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل. ففى الليل تؤدى عملها كإحدى بنات جنسها. وفى النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج. وفى إحدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمله من الملابس لم يعد الحاج يستعملها اشفاقا على نفسه وعليها. إنما يحتفظ بها وفاء بعهد السنين الطوال التى قضتها فى خدمته. أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص. على أنه ليس بالمسمار الوحيد بل هناك كثير غيره. فواحد تتدلى منه زجاجة. وفى الزجاجة زيت. وثان يحمل مصباحا. وللمصباح هباب على الحائط. والثالث لجراب فيه المصحف الشريف ورابع وخامس.. وخامس عشر!! وفى

كل مكان صناديق من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدرى سوى الحاج ما فائدة الهواء المحبوس فيها.

على أن فنه لايخلو من النقائض التى تكون أبدا ملازمة للكتاب الفكاهيين، أعنى الميل إلى المبالغة وإلى الألوان القوية التى تظهر شدة التناقض، ولكن الأستاذ طاهر لاشين بهذه المعايب، ولايستطيع التخلص منها فيخفيها فى أكثر قصصه بمهارة، بحيث تنسجم ولاتظهر إلا للعين الفاحصة ويساعده على هذا الخفاء أسلوبه البديع المبتكر، ولعل أكبر نعم الأدباء المجددين على الأدب فى عصرنا هذا هو الأسلوب الذى بدأ ينمو على قواعد جديدة، ويقوم على أسس صحيحة قد ذهب الزمن الذى كان الكتاب فيه لايطمحون إلى غير بلوغ مرتبة كاتب من الكتاب الأقدمين ويحاولون عبثا محاكاته بالتقليد فإذا ما بلغوا شيئا من ذلك اعتبروا أنفسهم فى مرتبة الأدباء، أو اعتبرهم الناس، أما اليوم فنحن نفهم غير هذا، أو أن أكثرنا يفهم غير هذا، على الأقل كتاب الشباب، فالغرض الذى يقصدونه هو الابتكار لا التقليد، وهم يقرأون الكتب القديمة لا على أن يتخذونها مثالا، بل على أن يقفوا منها متفرجين، لأنها تمثل عصرا ذهب وانقضى وتمثل زمنا كانت وسائله محدودة وحضارته مهما قيل فيها فهى لم تبلغ قط مبلغ الحضارة التى نعيش فى كنفها أعنى الحضارة الأوربية.

وإليك كاتبا من كتاب الشباب ذوى الآمال الجديدة الطموحة، يتقدم بعمل جديد، فاقرأه، واحكم إلى أى مدى أصاب فى غايته.

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٥٨١ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 116 - 1)

تستهدف سلسلة رواد الفن القصصى التى تبدأ بهذا الكتاب، إتاحة مصادر تراثنا القصصى الحديث من أقصوصة ورواية ومسرحية للقارئ المعاصر فى طبعات جيدة وموثقة، تتيح للحاضر أن يتواصل مع الماضى من منطلق الوعى به واستيعاب إنجازاته، وتمكن الماضى من الفاعلية من جديد فى الحاضر بعد أن غاب عنه ماديا ومعنويا فى كثير من الأحيان. فمن لا ماضى له يظل حاضره مزعزعا ومعرضا للعواصف.

وتعى هذه السلسلة دور الذاكرة التاريخية فى صياغة الهوية القومية، وحمايتها من عواصف التغيير العاتية. وتدرك أن الذاكرة الأدبية الحية هى التى تذود عن مسار الحركة الثقافية، وتحميها من تكرار أخطائها، أو الوقوع فى وهاد أخطاء جديدة. ومن هنا ينصب اهتمامها على إحياء الذاكرة ووضع إنجازاتها على خريطة الجدل وإعادة التقييم. وأولى خطوات هذا الإحياء هى إتاحة هذه الأعمال للقارئ وللحركة الأدبية على السواء فى طبعات جيدة وموثقة، وبمقدمات ضافية، تموضع أعمال الرواد فى سياقاتها من ناحية وتيسيرها للقارئ المعاصر من ناحية أخرى.

ولذلك تحرص هذه السلسلة على أن تجمع فى مجلد أو أكثر أعمال رائد من رواد القص العربى الحديث. لا الأعمال التى ظهرت فى الكتب فحسب، ولم تعد متاحة للقارئ اليوم، وإنما تضم إليها ما تفرق من أعماله فى الصحف، ولم يعد باستطاعة القارئ المعاصر العثور عليها فى يسر. وإن استطاعت هذه السلسلة توفير أعمال رواد القص ووضعها على خريطة اهتمام الواقع الثقافى من جديد، فإنها تكون قد حققت ما ترجوه. أما إذا عرفت قطاعا من القراء بأعمال لم يكونوا واعين بوجودها، وأثارت اهتمامهم بها، فإنها تكون قد أنجزت أكثر ما تصبو إليه.

لوحة الغلاف (المدينة) للفنان محمود سعيد (١٨٩٧ - ١٩٦٤)



